آدم عليه السلام

عدد مرات ذكره فى القرآن ـ خلقه من طين ـ أمر الملائكة بالسجود له بعد نفخ الروح فيه ـ اباء ابليس عن السجود له تكبرا ـ محاجة ابليس لخالقه ـ طرد ابليس من الجنة وانظاره الى يوم العرض ـ استخلاف الله آدم فى الأرض ـ قول الملائكة أتجعل فيها الخ ـ تعليم الله آدم الأسماء ـ خلق حواء واسكان الله آدم وزوجه الجنة ـ اغراء ابليس آدم وزوجته على الأكل من الشجرة المحرمة ـ عقاب الله لآدم واخراجه من الجنة ـ مسائل ٠

ذكر اسم آدم فى القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة فى خمس وعشرين آية ، وهاكم الآيات التى ذكر فيها : ـ

رقم السورة	السورة	أرقام الآيات
٢	البقرة	٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧
٣	آل عمران	٣٣ ، ٥٩
٥	المائدة	٢٧
٧	الأعراف	١١ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ١٧٢
١٧	الاسراء	٦١ ، ٧٠
١٨	الكهف	٥٠
١٩	مريم	٥٨
٢٠	طـه	١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١
٣٦	يس	٦٠

أول من قص الله تعالى علينا قصصهم فى القرآن الكريم من الأنبياء « آدم » أبو البشر عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ٠ وقد ذكرت قصته فى سورة البقرة ، وفى سورة الأعراف ، وفى سورة الاسراء ، وفى سورة الكهف ، وفى سورة « طه » باسمه وصفته ، وفى سورة الحجر ، وفى سورة ص بصفته فقط ، وكلها بمعنى واحد ولكن بعبارات مختلفة اللفظ فقط . وذلك مما يدل على اعجاز القرآن الكريم ؛ فان أكتب الكاتبين وأبلغ البلغاء اذا كتب قصة مرة يستحيل عليه أن يكتبها مرة أخرى بألفاظ غير الأولى مع المحافظة على المتانة فى الأسلوب والبلاغة فى التعبير كما فى القرآن الكريم ٠

خلق آدم من طين

وأمر الملائكة بالسجود له وامتناع ابليس عن السجود تكبرا

تتلخص قصة آدم فى أن الله تعالى أخبر ملائكته أنه سيخلق بشرا من طين ، وأمرهم اذا سواه ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين ، سجود تكريم بالطبع لا سجود عبادة ، لأن الله لا يأمر أحدا أن يتوجه بالعبادة الى سواه . وبعبارة أخرى كان ذلك احتفالا بتمام تكوين آدم بشرا سويا .

سوّى الله تعالى آدم من طين من حمأ مسنون — متغير — حتى اذا صار ذلك الطين صلصالا — يصل اذا ضُرب — كالفخار ، نفخ فيه من روحه فاذا هو انسان حى من لحم ودم وعظم وعصب يتحرك بارادته ويدرك ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، وأبى أن يسجد استكبارا ، ونسب الى الله الظلم فى أمره بالسجود لآدم وقال : أنا خير منه خلقتنى من نارٍ وخلقته من طين فطرده الله من الجنة . اقرأ قوله تعالى : —

سورة البقرة : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ [٣٤] .

سورة الأعراف : وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [١١] .

والمعنى : خلقنا أصلكم الذى نسلكم وكنتم من أبنائه . فخلقنا له خلقٌ لكم . وتصويرنا له تصويرٌ لكم .

سورة الحجر : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [٢٦] وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ [٢٧] وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [٢٨] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [٢٩] فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [٣٠] إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ [٣١] .

سورة الكهف : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا [٥٠] .

سورة ص : إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ [٧١] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [٧٢] فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [٧٣] إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ [٧٤] .

محاجة إبليس لله فى مخالفته عن أمره بالسجود

سأل الله تعالى ابليس — وهو أعلم — عن السبب الذى منعه من السجود اذ أمره ، فاحتج بأنه أفضل من آدم الذى خلقه من طين من صلصال من حمأ مسنون ، وأن من الظلم أن يخلق هو من عنصر النار الذى هو أشرف من الطين ثم يؤمر بالسجود لتلك الكتلة ، ونسب الله تعالى الى الظلم وأبدى غاية التكبر ، فأعلمه الله بأنه من أهل النار لاستكباره ، وبأنه مطرود من الجنة لذلك السبب وهو الكبر ونسبة الظلم الى الله .

إنظار إبليس الى يوم الدين

طلب من الله تعالى أن ينظره الى يوم الدين ، وتوعد آدم الذى طرد بسببه من الجنة بأن يغوى ذريته ويفسدهم على الله ، وأن يسعى فى أن يجعل أكثرهم غير شاكرين لله ، الا عباد الله المخلصين ، فوعده الله هو وكل من أطاعه من ذرية آدم بالنار .

اقرأ قوله تعالى : —

فى سورة الأعراف : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [١٢] قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ [١٣] قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [١٤] قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ [١٥] قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ [١٦] ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [١٧] قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ [١٨] .

وفى سورة الحجر : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ [٣٢] قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [٣٣] قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ [٣٤] وَإِنَّ عَلَيْكَ

ٱللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ ٱلدِّينِ [٣٥] قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [٣٦] قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ [٣٧] إِلَى يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ [٣٨] قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [٣٩] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ [٤٠] قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ [٤١] إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ [٤٢] وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ [٤٣].

وفى سورة الاسراء : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا [٦١] قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا [٦٢] قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا [٦٣] وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا [٦٤] إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا [٦٥].

وفى سورة ص : قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ [٧٥] قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ [٧٦] قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ [٧٧] وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ [٧٨] قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ [٧٩] قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ [٨٠] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ [١٨] قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [٨٢] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ [٨٣].

استخلاف الله آدم فى الأرض

آخبر الله تعالى ملائكته أنه سيجعل آدم خليفة فى الأرض فقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وتدعنا نسبح بحمدك ونقدس لك ولا نعصى أوامرك ولا نفعل شيئا من نواهيك ، فأخبرهم الله تعالى أنه يعلم فى هذا المخلوق من الأسرار ما لا يعلمون ، ويعلم ما يبدون وما يكتمون ، وأنهم غير عالمين بالسر فى استخلافه آدم ، وأنه اختصه بعلم ما لا يعلمون .

ومعنى الخلافة عن الله فى الأرض : أنه سيكون له سلطان عليها متصرفا فى مــوادها ليجعلها ملائمة لحاجاته .

فى سورة البقرة : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ [٣١] .

قد يظن القارىء لهذا السؤال أن الملائكة قاموا بمظاهرة أمام الله واحتجوا عليه استخلافه آدم فى الأرض فيقول : كيف يكون هذا منهم وهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقــول وهم بأمره يعملون ؟

والذى أفهمه أن شيئا من ذلك لم يحصل ولكن خواطر خطرت بأنفسهم وهى تشــوّقهم لمعرفة الحكمة فى استخلاف ذلك المخلوق الذى من شأنه تلك الأشياء ، ومعرفة السر فى تركهم من هذا الأمر وهم المجبولون على تسبيحه وتقديسه ؛ فأراد الله أن يعلمهم بالعمل أنه أودع فيه من السر والقدرة على وضع أسماء الأشياء ما لم يودعه فيهم .

تعليم الله آدم أسماء المسميات التى تقع تحت حسه

أراد الله أن يحقق للملائكة بالفعل ويكشف لهم بالعمل ما غاب عنهم ، ويبين أن آدم الذى استحقره أولئك الملائكة محل لعناية الله وايثاره بما لم يعطه لهم ؛ فعلم الله آدم الأسماء كلها .

والذى أفهمه أنه علمه جميع الأشياء التى فى جنة عدن وألهمه وأقدره على وضع اسم لكل ما تقع عليه عينه هناك من زروع وأجزائها ، وأشجار وثمار وفروع وورق ولب ونوى وجميع الأوعية والأدوات التى هناك ، وجميع ما فيها من حيوان وأجزائه لاحتياجه اليها .

ومعلوم أن معرفة آدم لهذه الأشياء فى طعامه وشرابه وسائر ما يتلذذ به فى تلك الدار أمر طبيعى ، بخلاف الملائكة فانهم لا يحتاجون الى شىء من ذلك لأنهم لا يحتــاجون الى طعام ولا الى شراب ولا يباشرون شيئا من هذه الأشياء ، فكان علمه بها أمرا معقولا صحيحا ، اذ الحاجة تفتق الحيلة . ويشهد لما ذهبت اليه : قوله تعالى (فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء) والاشــارة للمرئىّ الحاضر . وتكلف أنه صور له ما كان وما يكون وأشار اليه : تحميل للآية ما لا تحتمله .

ثم ان الله تعالى عرض على الملائكة المسميات وطالبهم بأسمائهم ، فلم يعلموا ما يجيبون وقالوا : —

(سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لنا إلّا ما عَلَّمْتَنَا) فقال تعالى : (يا آدمُ أَنْبِئْهُمْ بأسمائهم) ففعل ، وقال للملائكة : (ألم أقل لكم إنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السموات والأرض وأعلم ما تُبْدُونَ وما كُنْتُمْ تَكْتُمُون) .

أقرأ قوله تعالى :

فى سورة البقرة : وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [٣١] قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [٣٢] قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ [٣٣] .

يبالغ بعض الناس فيزعم أن الله تعالى علم آدم كل شيء كان ويكون ، وعرض صور هذه الأشياء ما كان موجودا وما سيوجد ، وأن آدم سمى كل شيء باسمه . وهذه مبالغة غير مقبولة لا أميل اليها ، بل أميل الى أنه سمى الأشياء التى وقع عليها حسه ومنها الطيور والبهائم وكل أنواع الحيوان الموجودة هناك .

ولا يخفى أن استخلاف آدم فى الأرض يشتمل على معنى سام من الحكمة الالهية التى خفيت عن الملائكة ؛ فان الله تعالى لو استخلف الملائكة فى الأرض لما عرفت أسرار هذا الكون وما أودع فيه من الخواص والعلوم الغزيرة ؛ فان الملائكة ليسوا بحاجة الى شيء مما فى الأرض اذ هم على وصف يخالف وصف الانسان ، فما كانت السفن لتصنع ولا تزرع الأرض بمختلف الزروع والغراس ، وما وجد منها لا يهتم أحد بمعالجته واستخراج خباياه ، فلا تعرف الأطياب ولا خواص الأشياء ولا المركبات الكيموية ولا الفوائد الطبيعية ولا الفلكية ولا المستحدثات الطبية ولا الطبائع النفسية ولا شيء من هذه العلوم الكثيرة التى تفنى السنون ولا يدرك الانسان لعلم منها نهاية ، فسبحانه وتعالى من عزيز حكيم .

سكنى آدم وزوجته الجنة

وخروجهما منها بسبب اغواء ابليس لهما

أمر الله آدم أن يسكن الجنة بعد أن خلق له حواء يسكن اليها ، وأباح لهما كل شيء فى الجنة الا شجرة عيّنها لهما ، ولكن ابليس وسوس لهما بالأكل منها وأغراهما بأنواع المغريات وقال لهما : ان ربكما لم ينهكما عن الأكل من هذه الشجرة الا لأن الأكل منها يجعلكما من الملائكة أو تكونان خالدين ، ولا يقرب الموت والفناء ساحتكما ، وقال لآدم : (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى) (وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين) ولم يزل يفتله فى الذروة والغارب ويمنيه معسول الأمانى ويرفؤه بالقول اللين ، حتى نسى آدم أنه عدوه الذى أبى السجود له ، وأن الله حذره منه أشد الحذر بقوله : (ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) فأكل آدم وحواء من الشجرة (فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما

من ورق الجنة) ليسترا عورتيهما ويجعلان ورق الشجر على هيئة الثوب الساتر ، وعاتب الله آدم على مخالفته أمره والأكل من الشجرة ، فندم آدم وأخذ يعتذر ، فطرده هو وحواء من الجنة ، وطرد ابليس قائلا : (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وهداه واجتباه وبقى فى الأرض هو وبنوه الذين أتى بهم من حواء فى الأرض . اقرءوا قوله تعالى :

سورة البقرة : وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ [٣٥] فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ [٣٦] فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [٣٧] قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٣٨] .

وفى سورة الأعراف : وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ [١٩] فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ [٢٠] وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ [٢١] فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ [٢٢] قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٢٣] قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ [٢٤] قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ [٢٥] .

وفى سورة طه : وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا [١١٥] وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى [١١٦] فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى [١١٧] إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى [١١٨] وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى [١١٩] فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى [١٢٠] فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى

آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى [١٢١] ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [١٢٢] قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى [١٢٣]

مسائل : نحب أن نعرض لها فى هذه القصة ونجيب عنها

الأولى : أن ابليس لم يكن من الملائكة فهو غير مأمور بالسجود لآدم ، فكيف يعاقب على مخالفته أمرا لم يوجه اليه ؟

والجواب : أن ابليس لو لم يكن مأمورا لقال لله : انك لم تأمرنى حين قال الله له (ما منعك أن لا تسجد اذ أمرتك) ولكنه أظهر التكبر ولم ينف الأمر ، ففهمنا أنه كان مأمورا ، وأنه وان كان من غير الملائكة ولكن الله تعالى كان قد أمر الشاهدين لنفخ الروح فى آدم بالسجود وابليس كان حاضرا ، وانما عبر الله تعالى بالملائكة لأنهم كانوا الجمهور الأعظم فى الحاضرين . ووجود فرد من غيرهم لا يضر فى صدور الأمر على هذه الصورة ، فهو كان من الحاضرين المأمورين حقيقة وان كان غير ملك ، وليس لأحد أن يكون أقوم بحجة ابليس من ابليس نفسه .

وهناك رأى آخر : وهو أن فى الملائكة صنفا يقال لهم الجن ، فلفظ الملائكة يشمله .

الثانية : نعلم أن ابليس طرد من الجنة عقب ابائه السجود ، فكيف وصل الى آدم فى الجنة حتى أغواه ودلاه وزوجه بغروره ؟ .

والجواب : أن طرده من الجنة لا يجعل دخولها مستحيلا عليه ، وأنه قد دخلها عاصيا آثما لاغواء من حسده من أول يوم . على أن ابليس تصل وسوسته الى النفس وان كان بعيدا ، كما يصل تأثير السحر الى الغائب والبعيد ، وكما يصل صوت البعيد بوساطة التليفون اللاسلكى ، فلا مانع من أن يصل تأثير وسوسته الى آدم من خارج الجنة الى داخلها . وانى أميل الى أنه دخلها آثما وعاصيا أمر ربه ، بدليل قوله تعالى (اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) .

الثالثة : من أى شىء خلقت حواء ؟

والجواب : أن الله تعالى قال (وخلق منها زوجها) هذه العبارة محتملة لأن يكون الله قد أخذ ضلعا من أضلاع آدم وخلق من ذلك الضلع حواء ، وقد قال بذلك كثير من العلماء وهى بعينها عبارة التكوين (١) .

ومن الجائز أن يكون الله خلقها كما خلق آدم ، وأن يكون قوله تعالى (وخلق منها زوجها) أى من جنسها وعلى صورتها ، وحينئذ تكون المادة التى أخذت منها المرأة غير متعرض لها ، والرأى الأول النفس اليه أميل .

(١) فأوقع الاله الرب سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما (٢٢) وبنى الرب الاله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها الى آدم (٢٣) فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى تدعى امرأة لأنها من امرىء أخذت — من الاصحاح الثانى — تكوين

اين توجد الجنة ؟

الرابعة : أين توجد الجنة التى كان فيها آدم وطرد منها ؟

والجواب : اختلف العلماء فى الجنة التى أسكن الله بها آدم وحواء وأخرجهما الله منها ، أهى جنة المأوى التى وعد الله المتقين أن يدخلوها فى الآخرة ؟ أم هى جنة من جنات الأرض ؟ والجمهور على أنها جنة المأوى أخذا بظواهر الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » وحديث مسلم عن أبى هريرة : (يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزدلف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة الا خطيئة أبيكم) قال ابن كثير فى البداية والنهاية : وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة فى الدلالة على أنها جنة المأوى . وليست تخلو عن نظر .

وقال فريق من العلماء : ان الجنة التى سكنها آدم وحواء كانت من جنات الدنيا لأنه كلف فيها ألا يأكل من الشجرة ، ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه ابليس فيها ووسوس اليه ولغا آدم وعصى ربه فيها ، وهذا ينافى أنها جنة المأوى .

وقد حكى هذا القول عن أبىّ بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان ابن عيينة ، واختاره القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة فى تفسيره وأفرد له مؤلفا على حدة ، وحكاه عن أبى حنيفة الامام وأصحابه رضى الله عنهم ، ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى ابن خطيب الرى فى تفسيره عن أبى القاسم البلخى وأبى مسلم الأصبهانى ، ونقله القرطبى فى تفسيره عن المعتزلة والقدرية . وقد حكى الخلاف فى هذه المسألة أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل وغيره .

وحاصل الخلاف فيها على أقوال :

١ — أنها جنة المأوى .

٢ — أنها جنة سوى جنة المأوى اخترعها لآدم وحواء .

٣ — أنها جنة من جنات الأرض .

٤ — التوقف فى أمرها .

ومن أراد فضل بيان فى هذا الموضع فليرجع الى ص ٧٥ وما بعدها ج ١ من كتاب البداية والنهاية لابن كثير .

ومن رأيى تفويض أمر تلك الجنة الى علم الله تعالى فهو الذى يعلم ان كانت فى السماء أو فى الأرض وهذا لا يمنعنى أن أقول انى أميل الى أنها من جنات الأرض .

نكتة ظريفـــة

يعترض القائلون بأن الجنة التى وجد فيها آدم كانت من جنات الدنيا فيقولون : لو أن آدم كان فى جنة الخلد فكيف يبحث عن شجرة الخلد ليأكل منها ، وما فائدة ذلك ؟

والآخرون يعارضونهم بالمثل قائلين : اذا كان آدم فى جنة من جنات الدنيا كما تقولون ، فكيف يبحث عن شجرة الخلد فى دار لا خلود فيها ؟

وقال بعض المفسرين : ان الجنة التى كان فيها آدم هى جنة اخترعها الله فى السماء فليست دار الخلد ولا جنة من جنان الدنيا .

يقول الباحثون فى شأن البحار وأعماقها وما فيها من وهاد ونجاد وسلاسل وجبال : ان الجنة التى وجد فيها آدم كانت فى قارة غير هذه القارات المعروفة الآن ، بل هى قارة فى جوف المحيط الآن ويسمونها قارة « مو » ويقولون انها غرقت بحوادث زلزالية ، واستقرت بسهولها وجبالها وما كان عليها من حيوان وشجر وزرع فى أعماق المحيط الهندى ، وقد مات بسبب غرقها نحو ٦٠ مليونا من الناس . وكل هذه أمور لا نقطع فيها بشىء .

وقد جاء وصف تلك الجنـــة فى الاصحاح الثانى من سفر التكوين بما يفيد أنها عند منابع دجلة والفرات [١] .

الخامسة : هل آدم نبى ورسول ؟

والجواب : أن نبوة آدم قد أخذت دورا مهما من عدة سنوات اذ ظهر بمدينة « دمنهور » رجل أنكر أن يكون آدم نبيا ، وقد رفعت عليه الدعوى بالمحكمة الشرعية وصدر الحكم عليه بالتفريق بينه وبين زوجته لردته بذلك الانكار ، ولما استأنف الحكم الى محكمة الاسكندرية كان كلامه أمامها : انه لم ير لفظا فى القرآن يذكر آدم بالنبوة وأنه يعتقد نبوته ، فصدر حكمها بالغاء الحكم الأول وأعيدت اليه زوجته .

أقول أيضا : ان القرآن الكريم لم يذكر لفظ النبوة بازاء آدم كما ذكر ذلك بازاء غـــيره من الأنبياء كاسماعيل وابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ، ولكن ذكر أنه خاطبه بلا واسطة وشرع له فى ذلك الخطاب ، فأمره ونهاه وأحل له وحرم عليه بدون أن يرسل اليه رسولا ، وهذا هو كل معانى النبوة ، فمن هذه الناحية نقول انه نبى وتطمئن أنفسنا بذلك .

---

(١) ٨ ـ وغرس الرب الاله جنة فى عدن شرقا ووضع هناك آدم الذى جبله (٩) وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر (١٠) وكان هنا نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة من هناك ينقسم فيصير أربعة رءوس (١١) اسم الواحد فيشون وهو المحيط يجمع أرض الحويلة حيث الذهب (١٢) وذهب تلك الأرض جيد وهناك المقل وحجر الجزع (١٣) واسم النهر الثانى جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش واسم النهر الثالث حداقل وهو الجارى شرق أشور (دجلة) والنهر الرابع الفرات .

وأما رسالته فالأمر فيها مختلف فيه ، وشأننا أن نفوض علم ذلك الى الله تعالى ؛ على أنى رأيت فى حديث أبى هريرة فى الشفاعة الوارد فى صحيح مسلم أن النـاس يذهبون الى نوح ويقولون له : أنت أول رسـل الله الى الأرض ؛ فلو كان آدم رسولا لما ساغ هـذا القول . والعلماء القائلون برسالة آدم يؤولون ذلك بأنه أول رسول بعد الطوفان ، وهو تأويل متكلف .

السادسة : اذا كان نبيا فكيف عصى والأنبياء معصومون من المعصية ؟

والجواب عن ذلك من وجوه : —

(الأول) أن يكون ذلك منه على سبيل النسيان، وانما سمى ما أتاه ناسيا خطيئة ومعصية وغواية لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما كان ليس كأحد الناس وكان التنبه والحـذر من مخالفة الله لازما له ، فاذا نسى عدّ ذلك خطيئة فى حقه وان كان غير خطيئة اذا صدر من غيره ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين .

(الثانى) أنه تأول فيما فعل ، اذ فهم أن الأمر والنهى ليسا جازمين بحيث يترتب على المخالفة الغضب والمجازاة ، بل فهمه أمر ارشاد فقط ونهى ارشاد ، وما كان من هذا القبيل لا يحرم مخالفته ، كما حمل الفقهاء الأمر بكتابة الدين على أنه أمر ارشاد ولا اثم بتركه .

(الثالث) أن ما حصل من الذنب صغيرة وهذا لا يتأتى الا على رأى من يقول ان الأنبياء غير معصومين من الصغائر .

(الرابع) أن ذلك كان قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية ، وهو جواب حسن لولا أنه وقع بعد صدور الأمر والنهى اليه بلا واسطة وهو ما جعلناه من أمارات نبوته .

(الخامس) أن آدم تأول فى أكله من الشجرة ، لأن الله أراه الشجرة التى نهاه عن الأكل منها فتأول أنه نهاه عن عينها ولم ينهه عن جنسها ، فأكل من شجرة أخرى من جنسها .

السابعة : هل آدم هذا هو أول البشر ولم يكن أحد قبله من جنسه ؟

والجواب : أن العقل لا يجعل من المحال أن يكون الله خلق آدم غير آدم هذا ، ولكن الله تعالى لم يذكر سوى آدم الذى نعرفه أبا البشر ، فالقول بوجود غيره مجازفة بلا برهان ، وقد وجد من البشر فى الأزمان الغابرة والحاضرة من يدعون أن عمران بلادهم أقدم من خلق آدم كأهل الهند — وقد كانوا فى الزمان السابق يدعون أن آدم كان عبدا من عبيدهم هرب الى الغرب وجاء بأولاده ، والى هذا يشير المعرى بقوله :

تقولُ الهنـــدُ آدمُ كان قِنًّا لنـــا فسعى إليـــه مخببوه

والى القول بوجود أوادم سوى آدم يشير بقوله :

جائزٌ أن يـكون آدمُ هـــذا قبـــله آدمٌ عـــلى إثر آدَم

وقوله :

وما آدمٌ فى مذهب العقل واحداً ولكنه عند القياس أوَادِمُ

ويقول :

قال قَومٌ — وَلا أدين بما قا لوه — إنَّ ابنَ آدَمٍ كابن عِرْسِ
جهل الناسُ مَنْ أبوه على الدَّهْـ ـر ولكنه مُسمَّى بحرس
فى حديثٍ رواه قومٌ لقومٍ رهن طرس مستنسخ إثر طرس

ويقول :

قالوا : وآدمُ مثلُ أوبر وابنُه كبناته جَهِلَ امرؤٌ ماأوبرُ

وهناك فريق من الناس يرجح أنه ليس أول نوعه ويستأنسون لذلك بقول الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ويقول : ان الملائكة لم يقولوا ذلك الا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذلك ، وأن آدم انما كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا .

وكل هذه الأقوال لا تستند الى نص قطعى الثبوت والدلالة .

ان الذين يقولون ان آدم ليس أول نوعه، بل وجدتقبله أوادم كثيرة سواه، ويستأنسون لذلك بقوله تعالى للملائكة « انى جاعل فى الأرض خليفة » يعتقدون أن آدم انما خلف غيره وهم الأمة التى كانت تسكن الأرض قبله فى عمران هذه الأرض ، يعززون أقوالهم بما يراه علماء الجيولوجيا من وجود بقايا عظام لآدميين تخالف عظام الآدميين الموجودين الآن ، ويرجع تاريخ وجودها الى أزمان كثيرة تعد بعشرات الآلاف ومئات الآلاف من السنين .

والجيولوجيون يسمون الأمة التى كانت قبل هذا الجنس الآدمى مباشرة بالانسان « لتياندرتالى » ويقولون انه كان موجودا من نحو ٣٠٠٠٠ ثلاثين ألف سنة وأن الجنس الآدمى الموجود اليوم لا يمت اليه بقرابة . وأن ذلك الجنس قد باد عن وجه الأرض — راجع مقالة بشأن هذا فى البلاغ المخصوص ١٥ من مايو سنة ١٩٣٤ .

وعلى أية حال فالمسألة لا تعنينا ولا يترتب عليها نفع ولا ضرر ، والله لم ينص على شىء منها فى الكتب السماوية فوجب السكوت عنها .

الثامنة — ظهر رأى فى البلاد الأوروبية وقبله كثير من علمائهم : وهو أن الانسان أصله قرد ترقى بسبب عوامل مجهولة حتى صار هذا الانسان . وذلك يبطل أن يكون أصل الانسان آدم ، فما الرأى ؟

والجواب : أن هذه النظرية لم تزل موضع بحث ، للأخذ والرد فيها مجال ، ولها أنصار مؤيدون كما أن لها خصوما يبطلونها . وعندنا القرآن الكريم يدل بنصوصه الظاهرة على أن

أصل الانسان آدم ولم يكن قردا تحول ولا شيئا آخر ترقى وهو الثقة ، فاذا وصل أصحاب النظرية الى الأدلة القاطعة التى تجعل هـذه القضية بديهية تساوى فى بداهتها « كل عدد زوجى ينقسم الى قسمين متساويين » و « السماء فوقنا والأرض تحتنا » كان لزاما علينا أن نؤول القرآن ليوافق الواقع كما هى القاعدة القائلة : ان القرآن يؤخذ على ظاهره بدون تأويل الا اذا منع من ذلك مانع فيعمد الى تأويله .

ذلك أن القرآن انما خاطب العقلاء بما عندهم من العقل ويلجأ الى العقل فيما خالف الناس فيه مقاصد القرآن .

وقد ذكر العقل ومشتقاته فى القرآن الكريم نحو « ما عقلوه .. ويعقلون .. وتعقلون .. لو كنا نسمع أو نعقل .. وما يعقلها الا العالمون » تسعا وأربعين مرة ، وهاكم جدولا بأرقامها وسورها : —

رقم السورة	السورة	أرقام الآيات
	(عقلوه)	
٢	البقرة	٧٥
	(يعقلون)	
٢	البقرة	١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧١
٥	المائدة	٥٨ . ١٠٣
٨	الأنفال	٢٢
١٠	يونس	٤٢ . ١٠٠
١٣	الرعد	٤
١٦	النحل	١٢ . ٦٧
٢٠	الحج	٤٦
٢٥	الفرقان	٤٤
٢٩	العنكبوت	٣٥ . ٦٣
٣٠	الروم	٢٤ . ٢٨
٣٦	يس	٦٨
٣٩	الزمر	٤٣
٤٥	الجاثية	٥
٤٩	الحجرات	٤
٥١	الحشر	١٤
	(نعقل)	
٦٧	الملك	١٠

رقم السورة	السورة	أرقام الآيات
	(يعقلها)	
٢٩	العنكبوت	٤٣
	(تعقلون)	
٢	البقرة	٤٤ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٢٤٢
٣	آل عمران	٦٥ ، ١١٨
٦	الأنعام	٣٢ ، ١٥١
٧	الأعراف	١٦٩
١٠	يونس	١٦
١١	هـود	٥١
١٢	يوسف	٢ ، ١٠٩
٢١	الأنبياء	١٠ ، ٦٧
٢٣	المؤمنون	٨٠
٢٤	النور	٦١
٢٦	الشعراء	٢٨
٢٨	القصص	٦٠
٣٦	يس	٦٢
٦٧	الصافات	١٣٨
٤٠	غافر	٦٧
٤٣	الزخرف	٣
٥٧	الحديد	١٧

فالدين الذى يعتمد على العقل فى اقامة براهينه وبسط حججه لا يمكن أن يجانب العقل وينافيه ، فاذا أثبت العلماء نظرياتهم اثباتا قاطعا وجب علينا أن نؤول ظاهر القرآن تأويلا يتفق مع ما أثبته العلم وقطع العقل بأنه الحق الذى لا محيص عنه .

أتذكر أنه قبيل الحرب العظمى كان أحد العلماء الأمريكان أرسل الى الطيب الذكر « جورجى زيدان بك » كتابا يرجوه فيه أن يأخذ جواب علماء المسلمين فى مصر من الأزهر وغيره عن أسئلة وجه بها اليهم — منها :

ما هو رأى العلماء المسلمين فى نظرية « دارون » ؟ وهل تجد نجاحا ؟ وما هو مقدار الاقبال عليها ؟ وما رأى علماء الأزهر فيها ؟

وقد كان لى الشرف بأن وجهت الىّ هذه الأسئلة كما وجهت الى كثيرين غيرى ؛ لكن لم يجب عليها أحد سواى فيما أعلم ، وجاءنى خطاب شكر من السائل وأنه سينشر جوابى « مترجما بالانجليزية طبعا » — وصورتى ، وقد مرت الأعوام ولم ينشر الكتاب الذى كان يريد أن يجعله معرضا عاما لآراء العلماء فى العالم فى نظرية « دارون » وتوفى جورجى بك زيدان ولم أعلم بشىء عن هذا الشأن الى اليوم .

وجوابى يتلخص فى أن علماء الاسلام انما يأخذون عقيدتهم عن العقل : يوجبون ما أوجبه ويحيلون ما أحاله ويجيزون ما أجاز . ومن صريح القرآن فيما لا يعارض العقل ولا يصادمه ؛ فاذا كانت عبارة القرآن تخالف مقطوعا به عقلا وجب تأويل نص القرآن ليطابق العقل ، وقد جاء القرآن بأن الله قد خلق شخصا اسمه « آدم » وزوجه «حواء» وأنهما أصل النوع الانسانى، وأنه خلق آدم من الطين ونفخ فيه من روحه وجعله بشرا ؛ فهذا القول عندنا صريح لا يعدل عنه الى تأويله الا اذا قامت الأدلة التى لا ترد على نظرية « دارون » وأن الانسان ليس أصلا بنفسه بل جنس أو نوع مشتق من غيره . اذا صارت أدلة « دارون » بديهية فى حكم « السماء فوقنا والأرض تحتنا » وجب أن نسلم بها وأن نلجأ الى تأويل نصوص القرآن بما لا يخالف الواقع .

ولكن نظرية « دارون » لم تبلغ من المتانة هذا الحد الذى يجعلها أمرا قطعيا « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

والمسلم الحقيقى لا يترك الساق الا ممسكا ساقا أقوى منها وأمتن ؛ فليس من المعقول أن يترك الاعتقاد المتين الذى تلقاه من القرآن الى نظرية لم تثبت [1] .

وقد كان علماء الأزهر فى ذلك الحين بعيدين عن العناية بأمثال هذه المباحث ، فلم يسمع لهم صوت فى هذا الأمر ولم يأبهوا بشىء من هذا .

---

(١) أنا لا أنكر على العلماء والباحثين جهودهم ، بل اقبل ما قام البرهان القاطع على صحته ، وأحمد اليهم ما يبذلونه من جهود قعدنا عنها ، وهم فى أبحاثهم قراء صحيفة الكون .

وهذه أمريكا عاقبت أحد المدرسين فى احدى الجامعات لأنه أظهر لطلبته صحة قول «دارون» وأتباعه وأبطل ما تضمنته التوراة فى شأن آدم . وأظن أن من الجرأة أن يكتب انسان صكا على نفسه يقطع فيه بأن نساء الجنس البشرى قد أعقمن أن يلدن أعظم من « دارون » وأقدر على اثبات عكس نظريته .

بقى أن أقول لكم : ان عالما ألمانيا يقول ان القرد انسان متقهقر وليس الانسان قردا مرتقيا ، ونظريته التى يقول بها عكس نظرية « دارون » وأتباعه ، وقد جعل أدلة دارون وبراهينه أدلة وبراهين على صحة نظريته .

وعلى الجملة فما دام الأمر نظرية مطروحة على مشرحة البحث والتنقيب فانها لا تكون حجة ملزمة لأحد أصلا .

هبوا أن الطبيعة قد غضبت على هذه الأرض فهزتها هزا عنيفا بغير شفقة وزلزلتها زلزالا شديدا فدكت كل بناء شامخ ، وانهار كل صرح باذخ ، وألحقت القصور بالأكواخ ، وأزالت معالم الناس ودورهم ومصانعهم وسككهم الحديدية وكل شىء للانسان فيه صناعة ، وعادت الأرض كما كانت قبل أن يسكنها هذا الجيل الذى يسمونه انسانا .

فهل يتصور أن الغورلا والشمبانزى وسائرالفصيلة القردية تهب لعمران الأرض كما عمرها الانسان ويكون بينها المصلحون الدينيون والمخترعون والمبتدعون ويقوم من بينها أمثال أفلاطون وسقراط وابيكورس وبقراط وجالينوس وأرسطوطاليس وأرشميدس وابن سينا والفارابى وابن رشد ونيوتن ولبلاس وغاليلى وكوبرنيق وبونزن ولوكلانش وواط واستيفن وزبلن وادسن ومركونى ومورس وهنرى مريون وكورى ومدام كورى ، ويرسمون الكرة الأرضية مسطحة ومجسمة ويبينون فى الخرائط خطوط الطول وخطوط العرض وخط الاستواء ومدار السرطان ومدار الجدى وتيارات البحار ويبينون سببها ونتيجتها ، ويخترعون الآلات الهندسية من النظارات والبلانشيطة والبلانومتر والمساطر التى تبين النسب ، ويوجدون اللوغاريتمات والنسب والمتواليات العددية والهندسية وحساب المثلثات وقواعد الجبر ، ويخترعون نظارة العبور والتيودوليت والنظارة النجمية والساعات على اختلاف أنواعها ودقة صنعها ،ويعرفون الصعود والمطالع المستقيمة والمزاول والتلسكوب والسبكترسكوب والسموجراف والترمومتر والبارومتر والأريومتر والراديو والتليفون والتليفون اللاسلكى والتفيزيون « التليفون المصور » والطائرات والغواصات والمناطيد ويكتشفون القارات والعناصر الأولية للمادة والمركبات الدوائية وسائر ما تكلم عنه الانسان فى المادة الطبية ، ويسمون الكواكب الثابتة والسيارة ، ويحللون ألوان الضوء ويعرفون الطيف ويستخدمون الأشعة المختلفة كأشعة رونتجن وأشعة اكس والأشعة الحمراء والبنفسجية وفوق البنفسجية وفوق الحمراء فى العلاجات ، ويضعون لها الأسماء ويميزون الدائرة الكسوفية ومنطقة فلك البروج وغيرها ،

ويعرفون أن النجم أوفا فى مجموعة قنطار يس أقرب الثوابت الى الأرض وأن ضوءه يصل الى الأرض فى سنتين ضوئيتين وأن بتالجس « باط الجوزاء » فى صورة الجبار عملاق النجوم وأن ضوءه يصل الى الأرض فى مليونى سنة ضوئية ، وأن الجدى [1] فى الدب الأصغر غير الجدى الذى بين القوس والدلو ويسمون قيفاوس والمرأة المسلسلة وبرشاوش ، ويفرقون بين الفرس الأكبر والفرس الأصغر ، ويضعون اساطير لبروشاوش ورأس الغول والشعريين وسهيل والدبران والثريا ، وكيف همَّ أربد أن ينهش الجبـار فى رجله فرفعها جـزعا ، ويخترعون الصواريخ لمحاولة الخروج من جذب الأرض ، ويعلمون أن الخسوف يحصل من دخول القمر فى المخروط الظلى للأرض وكسوف الشمس من توسط جرم القمر بينها وبين الأرض الى غيرذلك.

أقول انى كلما فكرت فى ذلك جزمت بأن ذلك محال ، وقطعت بأن القرد لابد أن يبقى قردا مدى الدهر وأن القردة لا تلد الا قردة [2] .

قصة آدم فى سفر التكوين

وقد ذكرت قصة آدم فى الاصحاحين الثانى والثالث فى سفر التكوين وهى لا تخالف ما جاء فى القرآن الا مخالفة بسيطة فانها لم تذكر مسألة السجود لآدم ولا مخالفة ابليس وتكبره وطرده من الجنة ولم تذكر الحوار بين الله تعالى وملائكته ، وجعلت المغرى لآدم وزوجه على الأكل من الشجرة « الحية » وهأنذا أنقل لكم ذلك مع ما قد نقلته فيما قبل [3] .

---

(١) بالتصغير .

(٢) راجعوا مقالة (اتجاه العلم الحديث نحو روحانية الشرق) المنشورة بملحق العدد الصادر فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ من جريدة السياسة فانكم واجدون أن فطاحل العلمـاء مثل هلدان واللورد رزرفورد قد هدموا المذهب الذى بنى عليه دارون نظريته والمقالة بقلم أحمـد خيرى سعيد أفندى وهى قيمة فليرجع اليها .

(٣) (من الاصحاح الثانى تكوين) ٧ — وجبل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية (٨) وغرس الرب الاله جنة فى عدن شرقا ووضع هناك آدم الذى جبله (٩) وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر (١٠) وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير اربعة رؤوس (١١) اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب (١٢) وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل وحجر الجزع (١٣) واسـم النهر الثانى جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش (١٤) واسم النهر الثالث حداقل وهو الجارى شرقى أشور، والنهر الرابع الفرات (١٥) وأخذ الرب الاله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها (١٦) وأوصى الرب الاله آدم قائلا من جميع شجر الجنة أكلا تأكل (١٧) وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت (١٨) وقال الرب الاله ليس جيداً أن يكون آدم وحده فاصنع له معينا نظيره (١٩) وجبل الرب الاله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السـماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذا نفس حيـة فهـو اسمها (٢٠) فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية واما لنفسه فلم يجد معينا نظيره (٢١) فأوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما (٢٢) وبنى الرب الاله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها الى آدم (٢٣) فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى هذه تدعى امرأة لأنها من امرىء أخذت (٢٤) لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسـدا واحدا (٢٥) وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لايخجلان.

بقى مسألتان :—

الأولى : من هم الملائكة ؟

والجواب — أن الملائكة خلق من خلق الله تعالى لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم . واعتقاد وجودهم واجب وهو من الأمور السمعية التى لا يوجبها العقل . ولكن المعصوم صلى الله عليه وسلم أخبر بوجودهم — وجاء فى الكتاب الكريم وفى الكتب السماوية أسماء بعضهم فوجب اعتقادنا وجودهم لأنهم ذكروا بنص قاطع الثبوت والدلالة .

وأن المعصوم أخبر بوجودهم فأعلمنا بهم ، وقد أخبر الله تعالى عنهم فى القرآن أنهم « عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» وأنهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

ويفهم من فحوى الخطاب بينهم وبين الله تعالىأنهم مجبولون على الطاعة منزهون عن المعصية وذلك فى قوله تعالى حكاية عنهم « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

وقد اختلفت كلمة العلماء فى شأنهم . ففريق يقول انهم أفضل من البشر كما يدل عليه قوله تعالى « قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » فانه مناهما بالأكل من الشجرة أن يرتقيا الى مرتبة أعلى وهى مرتبة الملائكة . وكما يدل عليه قوله تعالى عن صواحب يوسف « وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » .

(الاصحاح الثالث) وكانت الحية أحيل حيوانات البرية التى عملها الرب الاله فقالت للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة (٢) فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل (٣) وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منها لئلا تموتا (٤) فقالت الحية للمرأة لن تموتا (٥) بل الله عالم يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر (٦) فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهيجة اللون وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأعطت رجلها أيضا معها فأكل فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا من أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر وسمعا صوت الرب الاله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله فى وسط شجر الجنة (٧) فنادى الرب الاله آدم وقال له أين أنت (٨) فقال سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت (٩) قال من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التى وصيتك ألا تأكل منها (١٠) فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت (١١) فقال الرب الاله للمرأة ما هذا الذى فعلت ، فقالت المرأة : الحية أغوتنى فأكلت (١٢) فقال الرب الاله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعين . وترابا تأكلين كل أيام حياتك (١٣) وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه (١٤) وقال للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حياتك بالوجع تلدين أولادا والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك (١٥) وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك (١٦) وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل (١٧) بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود الى الأرض التى أخذت منها لأنك تراب والى تراب تعود (١٨) ودعا اسم امرأته حواء لأنها أم كل حى (١٩) وصنع الرب الاله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما .

وقال آخرون ان النوع الآدمى أفضل من الملائكة لأن اطاعة الملائكة بالجبلة ولم تركب فيهم الشهوة ، فلا فضل لهم فى العصمة . وأما الآدمى فانه يجاهد شهواته وميوله .

وقال آخرون : ان عموم الملك أفضل من عموم البشر ،ولكن خواص البشر وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة .

ومن رأيى أن الدخول فى مسألة التفضيل دخول فى مجهول وأن الأسلم الامساك . وأن وضع كل فى مرتبته بيد من يعلم سرهم ونجواهم .

وقد ذكر لفظ الملك والملائكة ٨٨ مرة فى ست وثمانين آية من القرآن الكريم ، وهاكم جدولا بالآيات التى ذكر فيها :

رقم السورة	السورة	أرقام الآيات
٢	البقرة ...	٣٠، ٣١، ٣٤، ٩٨، ١٠٢، ١٦١، ١٧٧، ٢١٠، ٢٤٨، ٢٨٥
٣	آل عمران	١٨، ٣٩، ٤٢، ٤٥، ٨٠، ٨٧، ١٢٤، ١٢٥
٤	النساء ...	٩٧، ١٣٦، ١٦٦، ١٧٢
٦	الأنعام ..	٨، ٩، ٥٠، ٩٣، ١١١، ١٩٨
٧	الأعراف	١١، ٢٠
٨	الأنفال ..	٩، ١٢، ٥٠
١١	هود ...	١٢، ٣١
١٢	يوسف ...	٣١
١٣	الرعد ...	١٣، ٢٣
١٥	الحجر ...	٧، ٨، ٢٨، ٣٠
١٦	النحل ...	٢، ٢٨، ٣٢، ٣٣، ٤٩
١٧	الإسراء ..	٤٠، ٦١، ٩٢، ٩٥
١٨	الكهف ..	٥٠
٢٠	طه ...	١١٦
٢١	الأنبياء ..	١٠٣
٢٢	الحج ...	٧٥
٢٣	المؤمنون ..	٢٤
٢٥	الفرقان ..	٧، ٢١، ٢٢، ٢٥
٣٢	السجدة ..	١١
٣٣	الأحزاب	٤٣، ٥٦
٣٤	سبأ ...	٤٠
٣٥	فاطر ...	١
٣٧	الصافات	١٤٩
٣٨	ص ...	٧١، ٧٣
٣٩	الزمر ...	٧٥
٤١	فصلت ..	١٤
٤٢	الشورى ..	٥
٤٣	الزخرف ..	١٩، ٥٣، ٦٠
٤٧	القتال ...	٢٧
٥٣	النجم ...	٢٦، ٢٧
٦٦	التحريم ..	٤، ٦
٦٩	الحاقة ...	١٧
٧٠	المعارج ..	٤
٧٤	المدثر ...	٣١
٧٨	النبأ ...	٣٨
٨٩	الفجر ...	٢٢
٩٧	القدر ...	٤

وقد جاء ذكر الملائكة فى الكتب السماوية القديمة كثيرا نورد هنا بعضه (١) .

الثانية : من هم الجن : —

الجواب : أن الجن خلق من خلق الله لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم ، قال تعالى « انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » والاعتقاد بهم واجب . وهو من الأمور السمعية التي أخبر بها المعصوم صلى الله عليه وسلم بنص قاطع الثبوت والدلالة ، ولولا أن الله ذكرهم فى القرآن ما علمنا بوجودهم ولا سلمنا .

وهم يتوالدون ويتناسلون ، لقوله تعالى « أفتتخذونه وذريتــه أولياء من دونى وهم لكم عدو » . ومنهم البار والفاجر ، لقوله تعالى حكاية عنهم « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون » ولم يقل أحد انهم أفضل من البشر .

وقد ذكر لفظ الجن والجان والجنة ٣٢ مرة فى احدى وثلاثين آية من القرآن الكريم ، وهاكم جدولا بهذه الآيات .

السورة	رقمها	أرقام الآيات	السورة	رقمها	أرقام الآيات
الأنعام ...	٦	١٠٠ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٣٠	سبأ ...	٢٤	١٢ ، ١٤ ، ٤١
الأعراف ..	٧	٣٨ ، ١٧٩	الصافات	٣٧	١٥٨
هود ...	١١	١١٩	فصلت ..	٤١	٢٥ ، ٢٩
الحجر ...	١٥	٢٧	الأحقاف	٤٦	١٨ ، ٢٩
الإسراء ...	١٧	٨٨	الذاريات	٥١	٥٦
الكهف ...	١٨	٥٠	الرحمن ...	٥٥	١٥ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٧٤
النمل ...	٢٧	١٧ ، ٣٩	الجن ...	٧٢	١ ، ٥ ، ٦
السجدة ...	٣٢	١٣	الناس ...	١١٤	٦

(١) ص ١٦ تكوين (٧) فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية (٩) فقال لها ملاك الرب ارجعى الى مولاتك (١٠) وقال لها ملاك الرب تكثيرا أكثر نسلك ص ١٩ تكوين .
ص ٢١ تكوين (٩) فجاء الملاكان الى سدوم (١٥) ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطا .
ص ٢١ تكوين (١٧) فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء .
ولو أردنا أن نتتبع كل ما فى الكتب الخمسة وكتب الأنبياء لطال بنا المطال فلنعمد الى الانجيل لننقل لكم بعضه .
ص ١ متى (٢) وفيما هو متفكر فى هذه الأمور اذا مـلاك الرب قد ظهر فى حــلم (٢١) فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب .
ص ٢ : (١٣) وبعدها انصرفوا اذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم .
ص ٤ متى (٦) وقال له ان كنت ابن الله فاطرح نفسك الى أســفل لأنه مكتوب أن الله يوصى ملائكته بك (١١) ثم تركه ابليس واذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه .
ص ٢٨ متى (٢) واذا زلزلة عظيمة قد حدثت لأن ملاك الرب نزل من السماء (٥) فأجاب الملاك وقال للمرأتين لا تخافا .
ص ١ مرقص : كما هو مكتوب فى الأنبياء ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهيىء طريقك قدامك .

وقد ذكر الجن فى كتب الأنبياء . وفى الانجيل بلفظ جن وجان وابليس وشيطان وشياطين . وهأنذا أورد لكم بعض ذلك (١) .

ينكر بعض الناس وجود أحياء من الملائكة والجن ، فيؤول الكلمات الدالة على وجود هذين الصنفين من العوالم بأن الملائكة هى قوى النظام والنواميس الخاضع لها العـالم ، وأن الجـن والشيطان وابليس انما تدل على الناس ذوى الشر المتمردين وروح الافساد :

هذا الفريق من الناس يرى رأى الماديين الذين لا يثبتون الا ما وقع تحت حسهم ولا يقرون بشيء وراء المادة ، فحذا حذوهم ليقال انه راق مثلهم وعمد الى صريح القرآن يؤوله حتى يجمع بين الايمان بالله والقرآن وجحد الملائكة والجن .

والذى أقوله : ان ذلك التأويل ليس ضروريا بل لا ينبغى ؛ فان الملائكة والجن ليس وجودهم من المستحيل فى شيء حتى يكون ذكرهم مضادا للعقل فنلجأ الى التأويل حتى لا يتعارض المعقول والمنقول ، بل وجودهم فى دائرة الامكان العقلى . وعدم رؤيتنا للفريقين لا يستلزم عدم وجودهما؛ فقد كانت كل الميكروبات وسائر مالا يرى الا بالآلات المكبرة غائبة عن حس أهل هذا العالم زمنا طويلا فلم يوجب عدم رؤيتها الحكم بعدم وجودها ، بل كانت فى كل هذه الآمـاد العظيمة موجـودة تكبر وتنمو وتتكاثف ولا علم لنـا بوجودها ،وأى مانع يمنع من القول بأن الله تعالى لو ركب حواسنا تركيبا آخر لانكشف لنا عالم الملائكة وعالم الجن وعوالم أخرى لم نخـبر بها ولا خطر فى فكر أى انسان هاجس عنها ؛ فالالتجاء الى تأويل لفظ الجن ولفظ الملائكة على النحو الذى ذهب اليه لا ضرورة اليه . وما نجهل حقيقته كثير فى جنب ما نعلم .

توجد أمور كثيرة لا نراها ولا نعلم حقيقتها ، وانمـا نحس آثارهـا كالكهربا والمغناطيسية والجاذبية والضوء ، ومع ذلك فاننا نقول بها .

والطبيعة موجود فيها أمور كثيرة وقوى خاصـة ربما أظهرها العلم فى المستقبل ، فهل من حقنا أن ننكرها لأن أبصارنا وحواسنا لا تقع عليهـا ؟ كلا ؛ فان الناس مـع كثرة الاختراع والابتداع منذ وجد الناس الى اليوم لم يقفوا من أسرار الكون على جزء من مليون « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

---

(١) ص ٩ لاويين (٣١) لا تلتفتوا الى الجان ولا تطلبوا التوابع فتتنجسوا بهم أنا الرب الهكم.
ص ٤ متى (١) ثم أصعد يسوع الى البرية من الروح ليجرب من ابليس (٥) ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة (١٠) حينئذ قال يسوع اذهب يا شيطان (١١) ثم تركه ابليس .
ص ٨ متى (٣١) فالشياطين طلبوا اليه قائلين ان كنت تخرجنا فأذن لنا نذهب الى قطيع الخنازير.
ص ٦ متى (٣٣) فلما أخرج الشيطان تكلم الأخـرس (٣٤) أما الفريسـيون فقالوا برئيس الشياطين يخرج الشياطين .

ص ١٠ متى (٨) أشفوا مرضى طهروا برصا أقيموا موتى أخرجوا شياطين .
ص ١٧ متى (٢٨) فانتهزه يسوع فخرج منه الشيطان فشفى الغلام من تلك الساعة .
ص ٢٨ صمويل الأول (٧) فقال شاول فتشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب اليها وأسألها فقال له عبيده هو ذا امرأة صاحبة جان فى عين دور (٨) فتنكر شاول ولبس ثيابا أخـرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا الى المرأة ليلا وقال اعرفى لى بالجان واصعدى لى من أقول لك .

وقد يكون هؤلاء المنكرون للملائكة قد غرهم ما كتبه أستاذنا الامام فى تفسيره من تأويل الملائكة على وجه لم ينكره الماديون ومن نزع منزعهم ؛ فان الامام رحمه الله لم ينكر الملائكة كما ينكرون . وانما يعمد الى التأويل لمن ينكر عالم الغيب ويجحد الملائكة ، وقد أورده على أنه مذهب آخر لبعض المفسرين فى فهم معنى الملائكة ، وذلك لتقريب المعنى من أذهان الجاحدين من الماديين وغيرهم .

وعلى الجملة : فانى أرى أن فهمهم على الوجه الذى بينت هو ما يجب على المؤمن اعتقاده ؛ فاذا وجد منكر لهم قربنا له المعنى على الوجه الذى أورده الأستاذ الامام رحمه الله . (راجع ص ٢٧٤ من الجزء الأول من تفسير المنار) .

العظة فى قصة آدم

١ — ان الله تعالى قد يحجب سر حكمته عن أقرب خلقه اليه كما حجب حكمة استخلاف آدم فى الأرض عن الملائكة حتى تحيروا واشتاقوا الى معرفة الحكمة من هذا الاختيار .

٢ — ان عناية الله تعالى اذا وجهت الى الشىء الحقير خلعت عليه حلل البهاء والجلال وصيرته عظيما . كما توجهت عنايته تعالى الى التراب الذى جبل منه آدم فصيرته بشرا سويا وجعلته مظهرا لأسرار قدرته وحكمته وعلمه الواسع ، فأفاض عليه من العلم والمعرفة ما أقر الملائكة بالعجز عن ادراكه .

٣ — ان الانسان مهما أوتى من التجلة والكرامة ففى طبعه الضعف ، فهو عرضة لأن ينسى ويأتى مالا يتفق مع اجلال الله له كما فى نسيان آدم وصية الله تعالى ، فأطاع ابليس الذى هو أعدى أعدائه . وأصغى اليه وأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها .

٤ — ان رحمة الله تعالى لا ييأس منها من عصاه وخالف عن أمره ؛ فان آدم قد تاب الله عليه واجتباه مع ما فرط منه من النسيان ومخالفة وصية الله .

فعلى العبد اذا قارف معصية أن يلجأ الى الله بالندم والاستغفار والاقلاع عن الذنب ، كما قال تعالى : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » .

قابيل وهابيل

ولدى آدم

ذكرت قصة ابنى آدم فى القرآن الكريم دون أن يذكر فيها اسم كل منهما ، وانما ذكر اسمهما فى التوراة « قايين ، وهابيل » .

قال الله تعـالى (وأْتْلُ عليهم نبـأ ابْنَىْ آدم بالحق إذ قرّبا قر باناً فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر قال لأقتُلنَّك قال إنما يتقبلُ اللهُ من المتقين [٢٧] لئن بَسَطْتَ إلىَّ يَدَكَ لتقتلنى ما أنا بباسط يدىَ إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين [٢٨] إنى أُريد أن تبوء بإثمى و إثْمِك فتـكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظـالمين [٢٩] فَطوَّعَتْ له نفْسُه قتْلَ أخيه فقتله فأصبـح من الخاسرين [٣٠] فبعث اللهُ غراباً يَبْحَثُ فى الأرض لِيُرِيَهُ كيف يوارى سوأة أخيـه قال يا ويلتى أعَجَزْتُ أن أكون مثـل هذا الغراب فَأُوَارِىَ سوأة أخى فأصبحَ من النادمين [٣١] : سورة المائدة .

ذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر ، وأن هابيل آراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن ، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه اياها فأبى . فأمرهما أن يقربا قربانا ، فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرع من ردىء زرعـه ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لاتنكح أختى . فقال : انما يتقبل الله من المتقين اهـ — من البداية والنهاية ببعض نقص فى العبارة .

وقد اختلف فى كيفية قتله . فقال بعضهم : ضربه بحديدة فقتله — ويرد عليه أن الحديد لم يكن معروفا فى الأزمان القديمة . وقال آخرون :رمى على رأسه صخرة وهو نائم فشـدخته . وقيل : بل كان يخنقه ويعضه الى أن مات .

وقد روى الامام أحمد بسنده الى ابن مسعو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سنَّ القتل) .

وبجبل قاسيون شمالى دمشق مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عنـدها .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد بن كثير — غير الحافظ — أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وهابيل ، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له ، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابه الى ذلك وصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : انه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان كل يوم خميس .

قال الحافظ بن كثير فى تاريخه البداية والنهاية : وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعى ، والله أعلم .

وقد ذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على هابيل حزنا شديدا وأنه قال شعرا ؛ وقوله الشعر كلام غير مسلَّم . وأما حزنه على ابنه فأمر طبيعى (١) .

---

(١) قد ذكرت قصة قابيل وهابيل فى التوراة وهى لا تخالف ما جاء فى القرآن تقريبا .

إدريس عليه السلام

هو ادريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث بن آدم عليه السلام . واسمه فى التوراة العبرية « حنوخ » وفى الترجمة العربية « اخنوخ » .

قال الله تعالى « واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صدّيقا نبيا ورفعناه مكانا عليا » .

قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية : وكان أول بنى آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام .

وذكر ابن اسحق أنه أول من خط بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلثمائة سنة وثمان سنين .

وقد قال طائفة من الناس انه المشار اليه فى حديث معاوية بن الحكم السلمى لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخط بالرمل فقال : انه كان نبى يخط فمن وافق خطه فذاك .

ويقول الحافظ بن كثير أيضا : ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم فى ذلك ، ويسمونه : هرمس الهرامسة ، ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء .

وقد جاء فى الصحيحين فى حديث الاسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ به فى السماء الرابعة .

وروى ابن جرير الطبرى عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر فقال له : ما قول الله تعالى فى ادريس « ورفعناه مكانا عليا » فقال كعب : أما ادريس فان الله أوحى اليه انى أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم ، فأحب أن يزداد عملك ؛ فأتاه خليل له من الملائكة فقال له : ان الله أوحى الىّ كذا وكذا فكلم ملك الموت حتى ازداد عملا ، فحمله بين جناحيه ثم صعد به الى السماء ؛ فلما كان فى السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدرا ، فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه ادريس ، فقال : وأين ادريس ؟ فقال : هو على ظهرى ، فقال ملك الموت : فالعجب ، بعثت وقيل لى : اقبض روح ادريس فى السماء الرابعة ، فجعلت أقول . كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو فى الأرض ، فقبض روحه هناك . فذلك قول الله عز وجل « ورفعناه مكانا عليا » ورواه ابن أبى حاتم عند تفسيرها : وعنده فقال لذلك الملك : سل لى ملك الموت كم بقى من عمرى ؟ فسأله وهو معه : كم بقى من عمره ؟ فقال : لا أدرى حتى أنظر ، فنظر فقال : انك لتسألنى عن رجل ما بقى من عمره الا طرفة عين ، فنظر الملك الى تحت جناحه الى ادريس فاذا هو قد قبض وهو لا يشعر . قال الحافظ بن كثير : وهذا من الاسرائيليات ، وفى بعضه نكارة .

أقول : الأسلم تفويض علم ذلك الى الله تعالى .

وقال البخارى : ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن الياس هو ادريس ، واستأنسوا فى ذلك بما جاء فى حديث الزهرى عن أنس فى الاسراء : أنه لما مرّ به عليه السلام قال : مرحبا بالأخ الصالح ولم يقل كما قال آدم وابراهيم : مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح ، فلو كان فى عمود نسبه لقال له كما قالا له . وقال الحافظ ابن كثير بعد أن نقل ذلك : وهذا لا يدل ولا بد ، لأنه قد لا يكون الراوى حفظ جيدا ؛ أو لعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع ولم ينتسب له فى مقام الأبوة كما انتسب لآدم أبى البشر وابراهيم الذى هو خليل الرحمن وأكبر أولى العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين .

ونقل ابن كثير : زعم بعضهم أن ادريس لم يكن قبل نوح بل فى زمان بنى اسرائيل ، وقضية قوله « زعم بعضهم » أن هذا الزعم لا يعول عليه .

وأما عند أهل الكتاب فلا يوجد شىء سوى قولهم « وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه » ص ٥ : ٢٤ تكوين .

جاء فى كتاب تاريخ الحكماء — وهو مختصر الزوزنى المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى ما نصه : —

ادريس — قد ذكر أهل التواريخ والقصص وأهل التفسير من أخباره ما أنا فى غنى عن اعادته، وأنا ذاكر ما قاله الحكماء خاصة :

اختلف الحكماء فى مولده ومنشئه وعمن أخذ العلم قبل النبوة . فقالت فرقة : ولد بمصر وسموه هرمس الهرامسة ، ومولده بمنف . وقالوا هو باليونانية « أرميس » وعرب بهرمس ، ومعنى « أرميس » عطارد . وقال آخرون : اسمه باليونانية « طرميس » وهو عند العبرانيين « خنوخ » وعرب « اخنوخ » . وسماه الله عز وجل فى كتابه العربى المبين « ادريس » . وقال هؤلاء ان معلمه اسمه الغوثاذيمون ، وقيل اغثاذيمون المصرى ولم يذكروا من كان هذا الرجل ، الا أنهم قالوا : كان أحد الأنبياء اليونانيين والمصريين ، وسموه أيضا « أورين الثانى » وادريس عندهم « أورين الثالث » . وتفسير « غوثاذيمون » السعيد الجد . وقالوا : وخرج هرمس من مصر وجاب الأرض كلها ، ثم عاد اليها ورفعه الله اليه بها ، وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره.

وقالت فرقة أخرى : ان ادريس ولد ببابل وبها نشأ وأنه أخذ فى أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه لأنه ادريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث. قال الشهرستانى: ان أغثاذيمون هو شيث. ولما كبر ادريس آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بنى آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث ، فأطاعه أقلهم وخالفه جلهم ، فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك ، فثقل عليهم الرحيل عن أوطانهم ، فقالوا له : وأين نجد اذا رحلنا مثل بابل . وبابل بالسريانية النهر.

وكأنهم عنوا بذلك دجلة والفرات . فقال : اذا هاجرنا لله رزقنا غيره ، فخرج وخرجوا ، وساروا الى أن وافوا هذا الاقليم الذى سمى بابليون ، فرأوا النيل ورأوه واديا خاليا من ساكن ، فوقف على النيل رسبح لله وقال لجماعته بابليون ، واختلف فى تفسيره ، فقيل : نهر كنهر ، وقيل : نهر كنهركم ، وقيل : نهر مبارك . وقيل : ان يون فى السريانية مثل أفعل التى للمبالغة فى كلام العرب ، وكأن معناه « نهر أكبر » فسمى الاقليم عند جميع الأمم « بابليون » وسائر فرق الأمم على ذلك الا العرب فانهم يسمونه اقليم مصر نسبة الى مصر بن حام النازل به بعد الطوفان . والله أعلم بكل ذلك .

وأقام ادريس ومن معه بمصر يدعو الخلائق الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وطاعة الله عز وجل . وتكلم النـاس فى أيامه باثنين وسبعين لسانا ، وعلمه الله عز وجل منطقهم ليعلم كل فرقة منهم بلسانهم ، ورسم لهم تمدين المدن ، وجمع له طالبى العلم بكل مدينـة ، فعرفهم السياسة المدنية ، وقرر لهم قواعدها ، فبنت كل فرقة من الأمم مدنا فى أرضها ، فكانت عدة المدن التى أنشئت فى زمانه مائة مدينة وثمانيا وثمانين ، أصغرها الرها ؛ وعلمهم العلوم . وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم ؛ فان الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه ونقط اجتمـاع الكواكب فيه ، وأفهمه عدد السنين والحساب ، ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها الى ذلك ، وأقام للأمم سننا فى كل اقليم سنة تليق بأهله ، وقسم الأرض أربعة أرباع ، وجعل على كل ربع ملكا يسوس أمر المعمور من ذلك الربع ، وتقدم الى كل ملك بأن يلزم أهل كل ربع بشريعة سأذكر بعضها .

وأسماء أربعة الملوك الذين ملكوا : الأول « ايلاوس » وتفسيره الرحيم . والثانى «زوس» والثالث « اسقلبيوس » والرابع « زوس أمون » وقيل : ايلاوس أمون ، وقيل : بسيلوخس ، وهو أمون الملك .

ذكر بعض ماسنه لقومه المطيعين له

دعا الى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب فى الآخـرة بالعمل الصالح فى الدنيا . وحض على الزهد فى الدنيا والعمل بالعدل ، وأمرهم بصلوات ذكرها لهم على صفات بينها . وأمرهم بصيام أيام معروفة من كل شـهر ، وحثهم على الجهاد لأعداء دينهم ، وأمرهم بزكاة الأموال معونة للضعفاء بها ، وغلظ عليهم فى الطهارة من الجنابة والحمار والكلب(١) . وحرم المسكر من كل شىء من المشروبات وشدد فيه أعظم تشديد ، وجعل لهم أعيادا كثيرة فى أوقات معروفة وقربانات : منها لدخول الشمس رؤوس البروج ، ومنها لرؤية الهلال ، وكلما صارت الكواكب فى بيوتها وشرفها وناظرت كواكب أخر .

(١) لعلها : « الخنزير والكلب » .

ذكر ما أمر به من القرابين

أمر بتقريب ثلاثة أشياء : البخور ، والذبائح ، والخمر ، وتقريب كل باكورة ؛ فمن الرياحين : الورد . ومن الحبوب : الحنطة . ومن الفواكه : العنب .

ووعد أهل ملته بأنبياء يأتون من بعده عدة ، وعرفهم صفة النبى فقال : يكون بريئا من المذمات والآفات كلها ، كاملا فى الفضائل الممدوحات لا يقصر عن مسألة يسأل عنها مما فى الأرض والسماء ومما فيه دواء وشفاء من كل ألم ، وأن يكون مستجاب الدعوة فى كل ما يطلبه ، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذى يصلح به العالم .

ولما ملك أوريس الأرض رتب الناس ثلاث طبقات : كهنة وملوكا ورعية ، وجعل مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك ؛ لأن الكاهن يسأل الله فى نفسه وفى الملك وفى الرعية . وليس للملك أن يسأل الله الا فى ملكه وفى الرعية ، وماله أن يسأله فى الكاهن ، لأن الكاهن أقرب الى الله منه ، فقد نقصت منزلة الملك بهذا عن منزلة الكاهن ؛ وليس للرعية أن تسأل الله فى شىء الا فى أنفسها ؛ لأن الملك أجل منزلة منها عند الله الذى ملكه على الرعية ؛ فنقصوا بذلك مرتبة عن الملك ، ومرتبتين عن الكاهن .

فلم يزالوا على هذه القاعدة من الفعل فى العبادة وأدب الائتمار بهذه الشريعة الى أن رفع الله ادريس اليه وخلفه أصحابه على شريعته .

وكان أقوى الملوك عزما من الأربعة « اسقلبيوس » فانه اجتهد لحفظ الكلمة وقوانين الشريعة الادريسية وحزن لرفع ادريس من بين أظهرهم ، وصور صورته فى الهياكل وصورة رفعه .

وكان « اسقلبيوس » ملكا فى الجهة التى ملكتها يونان بعد الطوفان ؛ فوجدوا صورة ادريس ورفعه ، وعلموا علو قدر اسقلبيوس وتدوينه الحكم لهم فى الهياكل التى يفسدها الطوفان ، فظنوا أن اسقلبيوس هو الذى ارتفع الى السماء ، وغلطوا فى ذلك غلطا بينا لأنهم أخذوه بالحد (١) .

وشريعته أعنى ادريس فى المملكة الحقيقية وتعرف فى ملة الصابئين بالقيمة ، وطبقت المعمور من الأرض ، وكانت قبلته الى حقيقة الجنوب على خط نصف النهار .

صورة هرمس الهرامسة وهو « إدريس »

قيل انه كان رجلا آدم تام القامة ، أجلح ، حسن الوجه ، كث اللحية ، مليح الشمائل والتخاطيط ، تام الباع ، عريض المنكبين ، ضخم العظام ، قليل اللحم ، براق العينين أكحلهما ، متأنيا فى كلامه ، كثير الصمت ، ساكن الأعضاء ، اذا مشى أكثر نظره الى الأرض ، كثير الفكرة ، به عبسة . واذا اغتاظ احتد ، يحرك سبابته اذا تكلم .

---

(١) لعلها : « بالحدس » .

وكانت مدة مقامه فى الأرض اثنتين وثمانين سنة .

وكان على فص خاتمه « الصبر مع الايمان بالله يورث الظفر » وعلى المنطقة التى يلبسها « الأعياد فى حفظ الفروض ، والشريعة من تمام الدين . وتمام الدين كمال المروءة » وعلى المنطقة التي يلبسها وقت الصلاة على الميت « السعيد من نظر لنفسه ، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة».

وكانت له مواعظ وآداب استخرجتها كل فرقة بلسانها تجرى مجرى الأمثال والرموز . فأذكر بعضها ان شاء الله تعالى :

فمن ذلك قوله : (لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الانعام على خلقه)

وقال (من أراد بلوغ العلم وصالح العمل فليترك من يده أداة الجهل وسيىء العمل ، كما ترى الصانع الذى يعرف الصنائع كلها اذا أراد الخياطة أخذ آلتها وترك آلة النجارة . فحب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان فى قلب أبدا) .

وقال (خير الدنيا حسرة وشرها ندم) .

وقال (اذا دعوتم الله سبحانه فأخلصوا النية . وكذا الصيام والصلوات فافعلوا) .

وقال (لا تحلفوا كاذبين ، ولا تهجموا على الله سبحانه باليمين ، ولا تحلفوا الكاذبين فتشاركوهم فى الاثم)

وقال (تجنبوا المكاسب الدنيئة) .

وقال (أطيعوا لملوككم ، واخضعوا لأكابركم ، واملأوا أفواهكم بحمد الله) .

وقال (حياة النفس الحكمة) .

وقال (لا تحسدوا الناس على مؤاتاة الحظ فان استمتاعهم به قليل) .

وقال (من تجاوز الكفاف لم يغنه شيء) .

وجاء فى صفحة ٣٤٨ فى ترجمة هرمس الثالث من كتاب تاريخ الحكماء ما يأتى :—

وزعم جماعة من العلماء أن جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان انما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، وهو الذى يسميه العبرانيون : خنوخ النبى ابن يارد ابن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ، وهو ادريس النبى صلى الله عليه وسلم على ما تقدم ذكره فى أول الكتاب . وقالوا انه أول من تكلم فى الجواهر العلوية والحركات النجومية . وأول من بنى الهياكل ومجد الله فيها . وأول من نظر فى علم الطب . وألف لأهل زمانه

قصائد موزونة فى الأشياء الأرضية والسماوية . وقالوا : انه أول من أنذر بالطوفان ، ورأى أن آفة سماوية تلتحف الأرض من الماء والنار فخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع ، فبنى الأهرام والبرابى فى صعيد مصر الأعلى ، وصور فيها جميع الصناعات والآلات ، ورسم فيها صفات العلوم حرصا منه على تخليدها لمن بعده خيفة أن يذهب رسمها من العالم ، والله أعلم .

فأنتم ترون أن ما جاء عن ادريس فى ذلك الكتاب أخبار لم تؤيد بنقل صحيح ولم يعضدها نص قاطع نشهد به على الله تعالى أنه صنعه لعبده ونبيه ادريس عليه الصلاة والسلام ، وكلها أقوال مما قمشت وضم حبل الحاطب ، فهى أقوال لا بأس بالاطلاع عليها كما يطلع المرء على غيرها من السير التى هى أشبه بالخرافات . والباحثون فى العاديات وأهل التاريخ القديم لايجدون فى بحوثهم ما يؤيد هذه الأخبار ، بل هم يجدون ما يناقضها من العلم بأسماء بناة الأهرام والملوك الأولين الذين قاموا بالدولة فى مصر من مينا وخوفو ومنقرع وغيرهم الذين شيدوا المعابد وحفروا البرابى ونقشوا عليها ما هو ماثل اليوم ، وذلك كله بخطوط خاصة يقرءونها ويفسرونها .

أما أهل التوراة فليس عندهم من العلم بشأنه الا أن خنوخ ولد له ولده وهو ابن خمس وستين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلثمائة سنة ، ولم يوجد بعد لأن الله أخذه ؛ فالله تعالى أعلم بشأنه .

نوح عليه السلام

قوم نوح ـ ارسال الله نوحا الى قومه ـ اجتهاد نوح فى دعوته ـ يأس نوح من قومه ـ نوح يصنع الفلك ـ اتمام نوح السفينة ـ استشفاع نوح فى ابنه ـ قصة نوح فى التوراة . مسائل ـ قصة الطوفان فى الوثنية الهندية ـ عمر نوح .

هو النبى الثانى ممن ذكروا بعد آدم عليه السلام . والأول بعد آدم هو جده الأكبر ادريس عليه الصلاة والسلام . وهو أول الرسل كما فى حديث الشفاعة عن أبى هريرة فى صحيح مسلم : (يا نوح أنت أول الرسل الى الأرض) وبعضهم يؤول هذا الحديث ويقول برسالة آدم وادريس.

وهو نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ : وهو ادريس بن يارد بن مهلئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر .

هذا هو الذى ورد فى كتب التاريخ وفى التوراة فى سفر التكوين وان كنت أشك كثيرا فى نسق هذا النسب لأنى أعتقد أن بين نوح وآدم أكثر من ذلك . وسآتيكم بالمدة بين خلق آدم وولادة نوح حسب ما فى ترجمة التوراة العبرية .

واعلموا أنه يوجد تفاوت بين ترجمة التوراة العبرية والتوراة السامرية وترجمة التوراة اليونانية ، فليرجع اليها من شاء فى كتاب « اظهار الحق» للشيخ رحمة الله أفندى الهندى . وهاكم الجدول الموعود به :

عمر آدم حين ولد له شيث	١٣٠	سنة
المدة التى أقامها شيث قبل أن يولد ابنه أنوش	١٠٥	»
المدة التى أقامها أنوش قبل أن يولد ابنه قينان	٩٠	»
المدة التى أقامها قينان قبل أن يولد ابنه مهلئيل	٧٠	»
المدة التى أقامها مهلئيل قبل أن يولد ابنه يارد	٦٥	»
المدة التى أقامها يارد قبل أن يولد ابنه أخنوخ	١٦٢	»
المدة التى أقامها أخنوخ قبل أن يولد ابنه متوشالح	٦٥	»
المدة التى أقامها متوشالح قبل أن يولد ابنه لامك	١٨٧	»
المدة التى أقامها لامك قبل أن يولد ابنه نوح	١٨٢	»
المدة بين خلق آدم وولادة نوح	١٠٥٦	»
عمر آدم الى وفاته على ما فى التوراة	٩٣٠	»
ما بين وفاة آدم وولادة نوح	١٢٦	»

وورد ذكر نوح فى ثلاثة وأربعين موضعا من القرآن الكريم وهاكم جدولا بالآيات التى ورد ذكره فيها :

رقم السورة	السورة	أرقام الآيات	رقم السورة	السورة	أرقام الآيات
٣	آل عمران	٢٣	٢٦	الشعراء	١٠٥، ١٠٦، ١١٦
٤	النساء	١٦٣	٢٩	العنكبوت	١٤
٦	الأنعام	٨٤	٣٣	الأحزاب	٧
٧	الأعراف	٥٩، ٦٩	٣٧	الصافات	٧٥، ٧٩
٩	التوبة	٧٠	٣٨	ص	١٢
١٠	يونس	٧١	٤٠	غافر	٥، ٣١
١١	هـود	٢٥، ٣٢، ٣٦، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٨٩	٤٢	الشورى	١٣
١٤	إبراهيم	٩	٥٠	ق	١٢
١٧	الإسراء	٣، ١٧	٥١	الذاريات	٤٦
١٩	مريم	٥٨	٥٣	النجم	٥٢
٢١	الأنبياء	٧٦	٥٤	القمر	٩
٢٢	الحج	٤٢	٥٧	الحديد	٢٦
٢٣	المؤمنون	٢٣	٦٦	التحريم	١٠
٢٥	الفرقان	٣٧	٧١	نوح	١، ٢١، ٢٦

ذكرت قصة نوح مفصلة فى القرآن الكريم فى سورة الأعراف وسورة هود وسورة المؤمنون وسورة الشعراء وسورة القمر وسورة نوح وهى مختلفة اللفظ بحسب ما تكون العناية موجهة نحوه من البيان .

وهى تتلخص بحسب نصوص القرآن فيما يأتى : —

(١) قوم نوح

كان قوم نوح قد عكفوا على عبادة غير الله تعالى واتخذوا لهم أصناما يعبدونها من دونه .

(٢) إرسال الله نوحاً إلى قومه

اختار الله تعالى نوحا من بين أولئك القوم لينذرهم عذاب الله اذا تمادوا فى غيهم وضلالهم ، فعتوا عن أمر ربهم ، واجتمع ملأ قومه وكبراؤهم وأهل الثراء منهم على تكذيبه واحتقاره هو ومن اتبعه ، واستبعدوا أن يكون واحد منهم — لا يمتاز عليهم بالغنى والثراء — يأتى لهدايتهم دون أن يكون ملكا أو يمتاز عليهم بفضل من الغنى والثروة ، وأنفوا أن يكونوا مثل الذين اتبعوا نوحا من الضعفاء . وزعموا أنهم انما اتبعوه من غير روية ولا احكام رأى ، وطلبوا اليه أن يطرد الذين آمنوا به تقززا من أن يجتمعوا معهم فى دين . فأبى عليهم خوفا من الله تعالى وبين لهم أنه اذا طردهم لا يجد ناصرا يدفع عنه عقاب الله تعالى . وبين لهم أنه انما جاءهم بالهداية ولم يكن رجل مال قد مكنه الله من خزائنه وأطلعه على غيبه فهو حفى بعلم الغيب — ولم يدع أنه ملك وانما هو بشر اختاره الله تعالى لدعوتهم وتبليغهم أمر الله تعالى ، وأن أتباعه من المؤمنين الذين تزدريهم أعينهم ويدعون أنهم لا يمكن أن يدركوا خيرا أو يحصلوا على سعادة : أمرهم الى الله الذى هو أعلم بسرائرهم ؛ لأن ادراك السعادة والهداية الى الحق لا يكونان بالبزة والرواء الرائق للعيون ، وانما يكون ذلك باطمئنان النفس وركونها الى الهدى مع استيقانه . والرضا به . وبين أنه لا يطلب بدعوته اياهم أجرا من جاه أو مال ، وانما يطلب أجره من الله تعالى ، وهذا كله معنى قوله تعالى فى سورة هود :

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ [٢٧] قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ [٢٨] وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ [٢٩] وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [٣٠] وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ [٣١]) .

(٣) اجتهاد نوح فى دعوته

بذل نوح منتهى وسعه واجتهد بغاية امكانه أن يتبعه قومه فى الايمان بالله تعالى وأن يقلعوا عن عبادة تلك الأصنام . وطال الزمن وهو يغاديهم بالنصح ويراوحهم بالعظة سرا وعلانية وهم لا يزدادون الا اعراضا ونأيا عن طريقته مع بيان المسرات المترتبة على الايمان والنعم التى تنتظرهم فى عاجل حياتهم من ارسال المطر لسقياهم وسقيا أرضهم ووفرة الأموال وكثرة الذرية .

ويضرب لهم الأمثال ويوجه نظرهم الى صنع الله تعالى بخلقهم أطوارا مختلفة وعنايته بهم فى أدوار حياتهم الجنينية وحياتهم فى الدنيا وخلقه السموات والأرض وأن من بدأهم قادر على اعادتهم ذلك أن من خلق لهم الأرض ومتعهم بما خلق فيها قادر على اعادتهم ومجازاتهم .

وكانوا يتبرمون به وينالونه بالأذى ، فعصوه واتبعوا بعض كبرائهم الذين لا يزيدونهم الا خسارا ومكروا فيما بينهم مكرا عظيما الى أن نفدت حيلته ويئس من صلاحهم وبيتوا فيما بينهم ألا يذروا عبادة : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر . وقالوا فى تبرم وأنفة : انك قد أكثرت الجدل ، وانا لن نترك ما نحن عليه ، فأتنا بالعذاب الذى تخوفنا نزوله بنا . فرد عليهم بأن أمر عذابهم بيد الله الذى أرسله لا بيده .

اقرءوا ان شئتم قوله تعالى فى سورة نوح :

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١] قَالَ يَا قَوْمِ
إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ [٢] أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واتقوه وَأَطِيعُونِ [٣] يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ
إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٤] قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً
وَنَهَاراً [٥] فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً [٦] وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً [٧] ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً [٨] ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ
وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً [٩] فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً [١٠] يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ
مِدْرَاراً [١١] وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً [١٢] مَا لَكُمْ
لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً [١٣] وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً [١٤] أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ
طِبَاقاً [١٥] وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً [١٦] وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً [١٧]
ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً [١٨] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً [١٩] لِتَسْلُكُوا مِنْهَا
سُبُلاً فِجَاجاً [٢٠] قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً [٢١]

وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً [٢٢] وقالوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً [٢٣] وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً [٢٤] .

وفى عجبهم أن يكون الرسول بشراً منهم : نزل قوله تعالى فى سورة الأعراف :

أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [٦٣]

ومن حمقهم وتبرُّمهم بنوح و بُعْدهم عن استعمال العقل وارتياد ما هو أنفع لهم أنهم :

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [٣٢] هود

فردّ عليهم نوح بما قصه الله تعالى فى قوله :

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ [٣٣] وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٣٤] هود

(٤) يأس نوح من هداية قومه

ولما بلغ نوح درجة اليأس من ايمان قومه بعد خمسين وتسعمائة سنة — على ما نصه القرآن — أقامها فيهم يدعوهم ولا يألوهم نصحا : كان ما قصه الله بقوله :

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [٣٦] هود

وتوجّه إلى ربه بالدعاء عليهم فقال :

رَبِّ لاَ تَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً [٢٦] إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً [٢٧] نوح

(٥) نوح يصنع السفينة

أمره الله تعالى بعمل الفلك لتكون أداة لنجاته ومن معه من الغرق العتيد أن يأتى على القوم ، فصاروا اذا مروا عليه سخروا منه ومن عمله ؛ ولعل أشد ما أثار سخريتهم منه أن علموا انه يعمل تلك السفينة لينجو بها ومن معه من العذاب النازل بهم استبعادا منهم لوقوعه ؛ فكان هو أيضا يسخر منهم ومن غفلتهم عن الحق وبلادتهم عن أخذ الحيطة لأنفسهم باتباعه باحسان وتنجية أنفسهم ، وصار يتهددهم بذلك العذاب .

(٦) إتمام نوح سفينته

فلما أتم نوح عدته وجاء الموعد ورأى الأمارة التى بينه وبين ربه على ابتداء أمر الطوفان وهو أن يفور تنور أهله (١) الذى يعملون فيه الخبز بأن ينبثق الماء فيه . أمره الله تعالى أن يحمل فى السفينة أهله ويدخل فيها من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين وأهله الا زوجه . وأن يأخذ معه من آمن من قومه وكانوا قليلا . قيل كانوا ستة. وقال بعضهم : كانوا أربعين رجلا وامرأة ، فلما استووا على ظهر السفينة حلت عزاليها السماء ، وانفجرت عيون الأرض ، وحملت المياه السفينة ومن فيها ، ومكثت ما شاء الله أن تمكث الى أن غرق كل ما على الأرض من انسان وحيوان ، ثم استقرت السفينة على الجودى من جبال أراراط .

ولما أراد نوح دخول السفينة نادى ابنه وكان فى معزل عنه وقال (يابنىَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) فأبى أن يلبى نداء والده المشفق لأنه لا يثق بصدق والده من أن كل من كان خارجا عن السفينة هالك . (قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء) فهلك ذلك الولد .

(٧) استشفاع نوح فى ابنه

وأراد نوح أن يستنجز وعد الله بنجاة أهله فقال (رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) فرد الله عليه بأنه ليس من أهله . وعاتبه فى أن يسأله ما ليس له به علم . اذ كان من حق نوح أن يعلم أن من كان خارج السفينة فليس ممن وعده الله بنجاتهم ، فاعتذر نوح عن ذلك . وطلب المغفرة والرحمة على ما فرط منه الى أن تمت المدة التى لم يكن للسفينة أن تقر فيها على الأرض ، واستوت السفينة على جبل الجودى من « ديار بكر » وخرج من فى السفينة وبارك الله فيهم ، فكثروا وملأوا الأرض . ولم ينسل من كان مع نوح من غير أبنائه . قال الله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) .

اقرءوا قوله تعالى فى سورة هود :

وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ [٣٧] وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .
وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ [٣٨]
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ [٣٩] حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ
قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ
إِلاَّ قَلِيلٌ [٤٠] وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [٤١] وَهِىَ تَجْرِى

---

(١) كتب الأستاذ العلامة موسى جاد الله يقول : لماذا لا يكون تنور السفينة ؟ وانى أجيبه مع الشكر بأن الماء لا يبلغ تنور السفينة الا اذا أشرفت على الغرق ، وأما تنور أهله فيفور اذا حبلت الأرض بالماء وأوشك أن يتفجر فى الأمكنة الكثيرة .

بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ [٤٢] قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ [٤٣] وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٤٤] وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ [٤٥] قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ [٤٦] قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٤٧] قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ [٤٨]

مسائل

الأولى : هل عمّ طوفان نوح الكرة الأرضية

والجواب : أن بعض العلماء يميل الى عمومه . ويقول بعض علماء الجيولوجيا : اننا كلما بحثنا فى أعالى الجبال وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التى لا تعيش الا فى الماء : وهذا يستدعى وجود طوفان على هذه الجبال بل عدد من الطوفانات لوجود الاختلاف فى عمر هذه البقايا ، فلا مانع من أن يكون طوفان نوح أحدها ويكون قد عمّ . ويستأنس لذلك بقوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) .

ويميل فريق الى أن الطوفان لم يكن عاما بل طغيان الماء كان على الجهة التى كان يسكنها نوح وقومه . وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان ، ويستأنس لذلك بأن الهند كانوا يزعمون أن عمران بلادهم يمتد فى الماضى الى تاريخ أبعد من الذى قدرته التوراة لنوح وطوفانه . وأن عمرانهم متصل من أعمق أجيال التاريخ الى اليوم . وأنتم تعلمون أنى غير واثق من التاريخ الذى تقدره التوراة ؛ فربما كان نوح أبعد من ذلك بعدا يشمل ما يدعيه أهل الهند .

وعلى كل حال فالمسألة ليس فيها نص من القرآن ، بل كل ما فيه من هذه الناحية أن قوم نوح كفروا وعصوا الرسول فأغرقهم الله بالطوفان ونجى نوحا ومن معه فى الفلك وجعل ذريته الباقين ؛ فالعموم محتمل والخصوص محتمل .

والذى أميل اليه أن يكون خاصا وأن النوع الانسانى لم يكن منتشرا فى جميع الكرة بل كانوا منحصرين فى الناحية التى عمها الطوفان ، وأنهم قد هلكوا وبقى نوح وذريته .

الثانية : ما ذنب الأطفال من قوم نوح حتى هلكوا مع الآثمين من آبائهم وأمهاتهم

والجواب : أن الله سبحانه وتعالى جرت عادته بأن النقمة لا تصيب الذين ظلموا خاصة وفى علم الظالمين بهلاك أولادهم معهم زيادة تعذيب ونكال لهم ؛ على أننا فى كل يوم نرى الأطفال يهلكون بمختلف الأمراض وليس ذلك عقابا للأطفال على ذنوب ارتكبوها أو آثام اقترفوها . ولكن ذلك من باب وجود المسبب عند وجود سببه . وتلك الأسباب هى الأمراض والعلل التى هى جند الله (وما يعلم جنود ربك الا هو) وبهذا لانحتاج الى ماتكلفه بعض العلماء والمفسرين: من أن الله تعالى أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة فلم يولد لهم فى تلك المدة مولود ، وبذلك اشترك جميع قومه فى الاثم وهم مكلفون فحق عليهم العذاب وحاق بهم الهلاك.

على أننا نرى الزلازل تعمل عملها فى الناس بلا تمييز بين البار والفاجر وتخسف الأرض بسكانها كما حصل فى سان فرنسيسكو بأمريكا فى زلزالها المشهور وقد وقع فى زماننا ، وكما حصل فى زلزال اليابان سنة ١٩٢٣ وهو قريب العهد منا جدا وكما يحصل فى ايطاليا بسبب بركان « فيزوف » فقد تطغى حممه فتغطى البلاد القريبة منه فلا يشعر أهل القرية الا بالحمم البركانية يسيل سيلها فى طرق بلدهم فتهلكهم وتغطيها . وهذا حاصل كثيرا (١) .

وهذه الطيارات التى تسقط من الجو بأسباب مختلفة لا يهلك من هلك فيها بآثامهم ولا ينجو فيها الناجون ببرهم . ولكن أحاط قسمت وجدود . وما حادثة المنطاد الانجليزى (ر ١٠١) سنة ١٩٣٠ منا ببعيدة ، وكذلك البواخر الجبارة العظيمة الحجم والقوة «كتايتانك» التى غرقت منذ عشرين عاما والباخرة الانجليزية « لويزيتانيا » التى غرقت فى أيام الحرب العظمى وكان فى كلتيهما من العلماء والكتاب والأغنياء والمهندسين والمخترعين عدد عظيم ، فقد هلكوا بآجالهم (اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

الثالثة : أين جبل الجودى الذى استوت عليه سفينة نوح ؟

والجواب : جبل الجودى فى نواحى ديار بكر من بلاد الجزيرة ، وهو يتصل بجبال أرمينية. قال فى القاموس المحيط : والجودى جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، ويسمى فى التوراة « أراراط » (٢) .

الرابعة : ما حجم سفينة نوح ؟

والجواب : أن حجمها وأبعادها لم ينص عليها فى القرآن ، وانما وصفت بأنها (الفلك المشحون) وبأنها (ذات ألواح ودسر) أى مسامير .

---

(١) من ذلك زلزال الهند فى العام الماضى فقد غير وجه الأرض فى أقليم واسع . وزلزالها فى هذا العام سنة ١٩٣٥ ، فقد غير معالم الارض أيضاً فى أقليم واسع وهلك بسبب ذلك مئات الألوف من الناس والدواب والأنعام ومن الشيوخ والعجائز والأطفال : « وما تسقط من ورقة الا يعلمها » .

(٢) بما نقلته من القاموس تعلم جهة علمى بذلك الجبل ، وفى ذلك جواب ما كتب به الى الأستاذ العلامة موسى جاد الله اذ قال لى : من أين علمت ذلك ؟ .

وانما ذكر حجمها فى التوراة (١) .

الخامسة : ما هى مسألة نوح فى ابنه وهل كان ابنه حقيقة ؟

والجواب : أما كونه ابنه فظاهر القرآن أنه ابنه حقيقة ، وانما نفى كونه من أهل نوح لأن النجاة انما تكون للمؤمن ، فأخذ نوح بظاهر قوله تعالى (انا منجوك وأهلك) وغفل عن شرط النجاة وهو الايمان بنبوة نوح وما جاء به من الحق ، وأن الأهلية الحقيقية تكون معدومة الثمرة مع الكفر ومجانبة الايمان ومخالفة الداعى اليه ؛ فهى وسيلة لاغية وسبب منقضب ، وهو الرأى الذى أميل اليه .

وقال آخرون : انه كان ابن امرأته من غيره ولم يكن ابنا حقيقيا له ، بل كان ربيبا نشأ على أن يناديه نوح بلفظ ابنه ، وكان كافرا وظن نوح أن وجوده فى حجره يدخله فى أهله الذين وعد من الله بنجاتهم .

وقال غيرهم : انه كان من الزنا ونوح لا يعلم بذلك ، ويستأنسون لذلك بقوله تعالى (انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح) وبقوله تعالى (ضرب الله مثـلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين « ١٠ ») التحريم . والذين يخالفونهم يستبعدونه ويعدون كثيرا أن تكون امرأة أحد الأنبياء زانية ، لما فى ذلك من الهجنة على النبى . وقد فات هؤلاء أن الكفر أشد ذنبا من الزنا وامرأة نوح قد ضربها الله مثلا فى الكفر ، ومن أتى الذنب الأكبر يهون عليه أن يأتى بما هو أصغر منه . وان كنت لا أقول انه من الزنا ، وانما أنا أناقش مبدأ عصمة نساء الأنبياء فقط . وما كان من الأمر فالمناقشة غير مجدية ولا نخلص منها الى رأى قاطع فى الموضوع ، وانما هى احتمالات . وقد علمتم ميلى الى الرأى الأول وهو أنه ابنه حقيقة (٢) .

---

(١) ص ٦ تكوين (١٤) اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل وخارج بالقار .

(١٥) وهكذا تصنعه ثلثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه

(١٦) وتصنع كوا للفلك وتكمله الى مد ذراع من فوق وتضع باب الفلك فى جانبه مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله .

(٢) أريد أن يقف القارىء معى وقفة صغيرة أذكر له فيها أنه قد تالفت لجنـة لبحث كتابى قصص الأنبياء وبيان ما فيه ، ثم ألفت لجنة ثانية بأمر الشيخ الجليل شيخ كلية أصول الدين وقدمتا نقدا قاسيا لذلك الكتـاب وقد رددت عليه ردا مستفيضا .

ولتمام الفائدة أقدم لقراء هذا الكتاب مقدمة ردى لذلك النقد ــ وكلما وصلت الى موضع نقد فى كتابى أثبت نقدهم وأتبعته بردى عليه وفى ذكاء القراء وانصافهم مقنع ــ وهذه هى مقدمة الرد .

بســـم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين .

تلقيت بيد الامتنان من يد فضيلتكم التقرير الذى كتبته لجنة ألفتموها من بعض العلماء وهم (أصحاب الفضيلة المشايخ محمد أحمد بديوى . ومحمد العزبى رزق . وغيسى منون) والأخيران من مدرسى كلية أصول الدين للنظر فى كتابى (قصص الأنبياء) بعد أن بحثوه حسب أمر فضيلتكم =

ولعل الذين يريدون ابعاد ابن نوح الهالك عنه يرون عظيما أن يكون ابن النبى المرسل كافرا ، فهم يريدون ابعاده عنه بكل وسيلة . أما أنا فلا أرى بعدا فى ذلك ولا غضاضة منه على النبى . وأى فرق بين أن يكون ابنه كافرا وبين أن يكون أبوه كافرا. وقد كان ابراهيم نبيا مرسلا وأبوه كافرا يعبد الأصنام وينحتها ويبيعها من عبادها وهؤلاء اليهود أبناء يعقوب بن اسحاق

= بخطاب مؤرخ فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣ وكذلك التقرير الصادر من لجنة أخرى لبحث التقرير الأول قوامها أصحاب الفضيلة الأساتذة (الشيخ عيسى منون . والشيخ محمد العزبى رزق . والشيخ محمود أبى دقيقة . والشيخ ابراهيم الجبالى رئيس اللجنة) لم يذكر له تاريخ وهو صادر اليهم من فضيلتكم .

والذى ألاحظه على عمل اللجنتين بدأة ذى بدء ويبدو لعين الناظر الى عملهما بمجرد النظر البسيط ما يأتى :

أولا — أن نقد هؤلاء الأفاضل لكتاب جرى على أسلوب لا يعرفه جهابذة النقد . ولم يصدر مثله فى شأن كتاب من الكتب عن ناقد منصف يوازن بين محاسن الكتاب ومساوئه ويستقصى فى ذلك الاستقصاء التام فى جميع نواحيه : أسلوبه ، وجمعه ، واستيعابه ، وورقه ، وطبعه. ثم يصدر حكمه بعد موازنة رائده منها الانصاف ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة .

بل الناظر الى عمل اللجنتين يرى أن هذا الكتاب مجموعة من السيئات وسلسلة من الجرائم والآثام : لا يرجع واضعه الى أثارة من عقل أو دين أو علم ، واذا نظر الى الكتاب رأى غير ما قالوا . وعرف غير ماقرروا .

وانى أحمد الله تعالى على أن هذا التقرير لم يقع بين أيدى الأدباء والكتاب فيتناولوه بأقلام لاذعة وألسنة حداد .

ثانيا — أن التقرير الأول . يؤازره التقرير الثانى قد تفضل على شخصى الضعيف ببعض جمل تعتبر آيات بينات ، دونها كل تقريظ واطراء ، مثل قولهم :

المقدمة : تخريج الآيات القرآنية على أوجه ان لم تكن باطلة فهى بعيدة جدا. وقد خالف فى ذلك جميع المفسرين فيما نعلم ، ومثل هذا التأويل لواتبع فى سائر ما ورد فى المعجزات أدى ذلك الى انكار جميع المعجزات ، وذلك يؤدى الى انكار رسالة الرسل وانكار جميع الأديان .

فى الموضوع الثانى : فلأنه خالف اجماع المفسرين فيما نعلم سوى صاحب المنار فى تفسيره لمثل هذا التعسف من التأويل — وتمجه العقول — وان هذه لتعسفات .

فى الموضوع الثالث : بل أبديا احتمالا مخترعا فى الآيتين — ونحن نرى أن هذا الاحتمال فاسد . ويقال لمؤلف هذا الكتاب : ويجوز انك نقلته استئناسا لرأيك فى فهم القرآن .

وحيث ظهر فساد هذا التأويل كان القول بعدمه تكذيبا للقرآن .

فى الموضوع الرابع : ونحن والحق يقال فى حيرة شديدة من تصرف الأستاذ مؤلف الكتاب — اللهم انا نبرأ اليك من مثل هذه الآراء .

فى الموضوع الخامس — نستغفرك اللهم ونتوب اليك سبحانك هذا بهتان عظيم — وهو رأى منقول عن اليهود فكان الواجب عليه التحرز من متابعة اليهود .

فى الموضوع السابع: لم يكلف نفسه استقصاء البحث حتى يكون حكمه صحيحا .

فى الموضوع الثامن : ويدل على خطأ ما رآه ومال اليه ما لحقنا من الدهشة أنه لم يقف على تلك الأحاديث . وهذا الاحتمال لا يتصور أن يصدر من مثل فضيلة الأستاذ ، بل لا يصح أن يصدر من مسلم .

فى الموضوع التاسع : لانفهم السرفى قوله : اقرءوا هذه الآية ، ولا يظن الا أنه كتب هذه الآية فى هذا المقام سهوا .

فى الموضوع العاشر : وانما العجب كل العجب من قوله : ويعجبنى قول الألوسى ، فان الناظر فى كلامه هذا وتصرفه فى النقل يعتقد أن هذا التصرف يعتبر تدليسا غير حميد .

فى الموضوع الحادى عشر: أنه فى هذه الفتنة أبدى وجها هو باطل وبعيد، وأنكر حديثا صحيحا =

ابن ابراهيم قد كفر بعضهم ولعنهم الله وهم بنو الأنبياء (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) .

ذكرت قصة نوح وطوفانه فى التوراة بعبارة واسعة ، وهى تخالف ما جاء فى القرآن الكريم مخالفة سلبية ، بمعنى أنها سكتت عن بعض الأشياء المذكورة فى القرآن فلم تتعرض لها ، وهى :

= واستبعد حصول مضمونه – لمثل هذه التكلفات ، بل التعسفات التى ليس لها أساس . فانه يشبه كلام المستشرقين فى حق النبى صلى الله عليه وسلم – فكيف استباح لنفسه مثل هذا الكلام .

فى الموضوع الثانى عشر : باحتمالين ما أنزل الله بهما من سلطان ان لم يكونا فاسدين فهما بعيدان كل البعد – بمثل هذا التركيب لدى المبتدئين فى فن الكتابة .

فى الموضوع الثالث عشر : فحكم بذلك بمقتضى عقله .

فى الموضوع الرابع عشر : جرأة غريبة لا ندرى سبب الاقدام عليها . واذا أراد الاختراع والابداع فى الآراء فليبتعد عن مقام الأنبياء .

فى الموضوع السادس عشر : ولا يوجد نظيره فى كلام المبتدئين فضلا عن كلام رب العالمين (سامحهم الله) .

تقرير اللجنة الثانية – على مبدأ غير مأمون العاقبة . وجعل الانجيل والتوراة مهيمنين على القرآن وهو ايهام شنيع ما كان ينبغى أن يرتكب ، لا يوافق عليه أحد من المسلمين فيما نعلم .

نظرت الى حالى والى هذه الروائع البارعة ، فلم أرنى أهلا للتحلى بهذه الدرر الغوالى التى أفاضوها على من آدابهم العالية .

ولقد راودت نفسى على أن أكتب اليهم تحويلا بهذه الجمل التى يفيض الأدب على جنباتها ليقبضوها لأنفسهم وافية غير منقوصة . وتكون بضاعتهم الثمينة قد ردت اليهم ، ولكنى عولت على الاحتفاظ بها تذكارا ثمينا من الفضل والادب . ولتكون ذخيرة يتنافس فيها المتنافسون من أهل الأجيال الآتية . وليعلم المتأدبون والعلماء الخلقيون شيئا عن آداب أفاضل العلماء فى هذا العصر الذى نعيش فيه .

ولست أدرى – ولا المنجم يدرى – الباعث لحضراتهم على السماح ببذل هذه الفرائد وافاضتها على شخصى الضعيف ؟

كان فى حكم الانصاف أن يكون الجواب عن البصل ثوما ، وان أساقيهم بالكأس التى ساقونى ، واكيل لهم بالكيل الذى كالوا لى به . بل أن آخذ بمذهب أبى العلاء فى الارباء ، وأن أقول لحضراتهم :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

وأن أتمثل بقول الأول :

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم فهل أنا فى ذا يال همدان ظالم

غير أنى آثرت أن أترك هذا الضرب من القول ، وأكبح جماح القلم وأغض من عنانه ، وأن أقول قادرا غير عاجز :

عفونا عن بنى ذهل وقلنا القوم أخوان
عسى الأيام ان يرجعـن قوما كالذى كانوا

هذا ولأنى أنزه قلمى عن أن يغمس فى مداد لا أرتضيه . ولا أحب أن يؤثر عنى الا مايعلى منزلتى ويغلى قيمتى – والرابح فى تجارة السباب خاسر .

وآخرى : أحب أن يعلموا أن فى اللغة العربية أسلوبا سوى أسلوبهم الذى كتبوا به . وأن فى أيدى غيرهم أقلاما يبرونها على غير طريقتهم .

لهذا سيجدنى القارىء الكريم حافظا من كرامتهم ما لم يحسنوا حفظه ، مراعيا من شعورهم ما لم يقدروا على مراعاة مثله من شعورى (وكل امرىء ميسر لما خلق له) .

ثالثا – كانت الاشاعات التى أشيعت حول كتابى « قصص الأنبياء » والعثير الذى أثير حول اسمى ، والارجافات التى ملأت سمع الأرض وبصرها عنى ، وشرقت حتى لم تجد من مشرق ، وغربت =

(١) مسألة ابن نوح واسمه « كنعان » كما يقول بعض المفسرين ، فان القرآن تعرض لها وذكرها . والتوراة لم تذكر أنه كان له من الأولاد سوى : سام ، وحام ، ويافث .

(٢) مسألة زوج نوح : لم تذكر أن نوحا كانت زوجته كافرة وهلكت مع قومه الهالكين ، بل ذكرت أنه أمر أن يدخل زوجته السفينة مع من دخلها من المؤمنين ، فدخلت ونجت ، وهذا

= حتى لم تجد من مغرب ، يعزيني عن الألم بها ما كنت أنتظره من تقريرهم البديع،الذى سيحوى من العلم الناضج والحجج الدامغة والآيات الباهرة والحكمة الحسنة : ما لم يره الراءون · ولم يرو مثله الراوون — واتخيل انى سأحوز من كنوز علمهم الجم ما لم يعثر النطف على بعضه ، ولم تغلق خزائن قارون على مثله ، ولم يشتمل صدر لقمان على معشاره ، وانتظر صدور تقرير «النقد» انتظار الظمآن للماء والمريض للشفاء ·· وبعد لأى ظهر التقرير بعد البحث والدرس والاستقصاء والاستعانة على الابانة ، وبعد سلخ شهور كثيرة · فلم أجد ما يشفى أو يكفى ، ولم أظفر منه بما يذهب الحيرة ، أو يرشد من ضلالة ، أو ينقذ من جهالة ، واذا انتظارى للشفاء بهذا التقرير كان منى (ضلالا ما أردت به ضلالا) ؟

وأصبحت من ليلى الغداة كقابض … على الماء خانته فروج الأصابع

أجل ، كنت أنتظر من اللجنة أن تأتى فى كل ما تراه مخالفة تمس الدين بما يجهز على قولى أو رأيى من نص قطعى الثبوت والدلالة يدل على نقيض ما نصصته من قول أو رأى ، فلا يكون بعد ذلك الا الاذعان والاقرار منى بالحق الذى ليس له دافع ، لا أن تضرب أقوالا بأقوال : (ليست بنبع اذا عدت ولا غرب) ·

ان القول من الأقوال التى تورد فى مسألة من المسائل · لا يكسر بدليل ظنى · وأقوال المشايخ المتقدمين التى يوردونها ليست قولا فصلا يحول دون تفكير المفكرين وفهم الفاهمين فى المسائل التى للفهم والتفكير فيها مجال ، لأنها ليست نصا قطعى الثبوت والدلالة ·

وانى لا أريد أن أستوفى كل الكلام فى هذا الموقف · بل أتركه الآن حتى اذا مر موضوع من الموضوعات التى اعتبروها مآخذ على ، أفى كل موضوع بما يناسبه — وانى أوجه نظر القارىء الى الدستور الذى نصصته بآخر مقدمتى لهذا الكتاب ·

نقد اللجنة عن هذا الموضوع

(موضوع ابن نوح)

ذكرت فى صفحة ٤٧ سطر ٣ من الطبعة الأولى وصفحة ٥٤ سطر ١٠ من الطبعة الثانية مانصه:
وقال غيرهم انه كان من الزنا ونوح لا يعلم بذلك ، الى قولى : لا أقول انه من الزنا الخ ·

رأى اللجنة

يكفى أن نذكر هنا ما قاله أئمة التفسير فى هذا الموضوع ليعلم أن قوله : وقد فات هؤلاء الخ جرأة غريبة لا ندرى سبب الاقدام عليها · قال الامام الرازى فى تفسير قوله تعالى (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه) ما نصه : القول الثالث : أنه ولد على فراشه لغير رشدة ، والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط (فخانتاهما) وهذا قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو على خلاف نص القرآن ، أما قوله تعالى (فخانتاهما) فليس فيه أن تلك الخيانة انما حصلت بالسبب الذى ذكروه · قيل لابن عباس رضى الله عنهما : ما كانت تلك الخيانة ؟ فقال : كانت امرأة نوح تقول : زوجى مجنون ، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزلوا به · ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) وأيضا قوله تعالى (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) اه كلام الامام الرازى بالحرف ·

وقال العلامة الألوسى فىتفسير الآية السابقة ما نصه : وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله سبحانه (فخانتاهما) فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها،فان الله تعالى قد طهر الأنبياء عليهم السلام عما هو دون ذلكمنالنقص بمراحل ، فحاشاهم ثم حاشاهم انيشار اليهم باصبعالطعن،وانما المراد =

ليس دليلا على أن نوحا لم تكن له زوجة كافرة ، لاحتمال أنه كان له زوجتان : احداهما كافرة هلكت ، والأخرى كانت مؤمنة نجت .

(٣) بقيت مسألة ثالثة : وهى أن القرآن لم يتعرض لعموم كل الأرض بالطوفان ، والتوراة

= بالخيانة الخيانة فى الدين ، ونسبة هذا القول الى الحسن ومجاهد كما زعم الطبرى كذب صريح اه المقصود منه .

وقال العلامة أبو السعود فى تفسير الآية المذكورة ما نصه بالحرف : وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله (فخانتاهما) فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها ، فان جناب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أرفع من أن يشار اليهم بأصبع الطعن ، وانما المراد بالخيانة الخيانة فى الدين اه .

وقال العلامة البيضاوى فى تفسير الآية السابقة ما نصه :

وكان لغير رشدة لقوله تعالى (فخانتاهما) وهو خطأ ، اذ الأنبياء عصمت من ذلك ، والمراد بالخيانة الخيانة فى الدين اه .

وأما ما أستند اليه فى عدم استبعاد أن تكون امرأة النبى زانية من القياس على الكفر الذى هو أشد ذنبا من الزنا ، وامرأة نوح كانت كافرة ، وقد ضربها الله مثلا فى الكفر ، ومن أتى الذنب الأكبر يهون عليه الاتيان بالأصغر فواضح البطلان ، لأن كفر المرأة وان كان أكبر الكبائر لا يعود ضرره الا عليها ولا يلحق الزوج منه عار ولا فضيحة بين الناس ، ولذلك أباح الله للمسلم أن يتزوج من الكتابيات الكافرات ، بخلاف زناها فانه وان كان أصغر من الكفر لا يقصر ضرره عليها وحدها بل يلحق الزوج أيضا بسببه عار وفضيحة بين الناس فى مطرد العادة بحيث يكون بحالة لا يستطيع معها مجالسة الناس .

ونظن أن ما ذكروه واضح لا يختلف فيه اثنان ، فكان الواجب على فضيلة المؤلف أن يوافق الأئمة فيما قرروه . واذا أراد الاختراع والابداع فى الآراء فليبتعد عن مقام الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فان فى الحوادث التاريخية التى حدثت من آحاد الناس غير الأنبياء متسعا للجميع ، والله أعلم .

الجواب عن النقد

انى نصصت فى كتابى ما نقله أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة وبينت أن ابن نوح كان ابنا له حقيقة كما سماه الله ابنه ولم يكن لغير رشدة — وناقشت المبدأ الذى يستمسك به القائلون بأن نساء الأنبياء لا يمكن أن تكون احداهن زانية قائلا : وقد فات هؤلاء أن الكفر أشد ذنبا من الزنا ، وامرأة نوح قد ضربها الله مثلا فى الكفر ، ومن أتى الذنب الأكبر يهون عليه أن يأتى بما هو أصغر منه وان كنت لا أقول أنه من الزنا . فالقارىء يرانى قد استمسكت بأن ابن نوح له ولم يكن لغير رشدة ، ولكنى ناقشت المبدأ فقط ، ولم أقذف امرأة نوح بالجريمة ، ولكنى عددت اتيانها من قبيل الممكن ، ومناقشتى هذه لا تعدو أن تكون كقول الأصوليين : يجوز أن يكلف الله تعالى بالمحال ولكنه لم يقع ، وكقول بعض المتكلمين : أن الكفر جائز على الأنبياء عقلا ، ولكنه غير واقع فعلا .

ولكن أصحاب الفضيلة قد شنوا على غارة شعواء وأجلبوا بخيلهم ورجلهم واستجاشوا على الفخر الرازى والألوسى وأبا السعود والبيضاوى حاسبين أن قولى : وقد فات هؤلاء ... الخ : جرأة غريبة .

ان قليلا من التدبر يهدى حضرات الأفاضل الى أن الكلام الذى ساقوه عن الفخر الرازى غير موجه الا الى الذين قطعوا بأن ابن نوح كان لغير رشدة ، وأن امرأة نوح أتت به من الزنا على فراشه وانا لست من هذا الفريق ، وانما أنا مناقش المبدأ فقط .

وانى مع اجلالى لموضع الفخر الرازى من العلم وتعويلى على كثير من آرائه القيمة أراه لم يصب المحز فى قوله : ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) وأيضا قوله تعالى (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) فقد كان نوح ولوط طيبين وقد تزوجا من خبيثتين . وكان فرعون خبيثا متزوجا من طيبة ، وانما محمل ذلك على الأمر اللائق بالطيبين أنهم لا ينكحون ولا يليق بهم الا الطيبات ، واللائق بالطيبات انهن لايرغبن الا فى =

تعرضت لذلك ونصت على أن الأرض قد علاها الماء خمس عشرة ذراعا ، وباد كل ذى حياة من انسان ووحش وطير ودبابات على وجه الأرض ، والقرآن لم يذكر الا اغراق قوم نوح وامرأته .

= نكاح الطيبين الخ . وأما الآية الثانية فقد كان ذلك فى صدر الاسلام حين لم يكن ممنوعا تزوج المؤمن بالمشركة ولا تزوج المشركة بالمؤمن ، ولا أقتصر فى هـذا الموضع الا على قلم الفخر الرازى نفسه ففيه البيان الشافى الكافى حيث قال فى تفسـير قوله تعالى (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) .

قال فى تفسير هذه الآية ما نصه :

قرىء « لا ينكح » بالجزم على النهى . وقرىء « وحرم ذلك على المؤمنين » بفتح الحاء ، ثم ان فى الآية سؤالين :

السؤال الأول — قوله (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة) ظاهره خبر ، ثم ان الأمر ليس كما يشعر به هذا الظاهر ، لأنا نرى أن الزانى قد ينكح المؤمنة العفيفة . والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف .

السؤال الثانى — انه قال (وحرم ذلك على المؤمنين) وليس كذلك ، فان المؤمن يحل له الزواج بالمرأة الزانية — والجواب :

اعلم أن المفسرين لأجل هذين السؤالين ذكروا وجوها وأحسنها ما قاله القفال وهو :

أن اللفظ وان كان عاما لكن المراد منه الأعم الأغلب ، وذلك لأن الفاسـق الخبيث الذى من شأنه الزنا والفسق لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء ، وانما يرغب فى فاسقة خبيثة مثله أو فى مشركة ، والفاسقة الخبيثة لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها ، وانمـا يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين ، فهذا على الأعم الأغلب ، كما يقال « لا يفعل الخير الا الرجل التقى » وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقى فكذا ههنا . وأما قوله (وحرم ذلك على المؤمنين) فالجواب من وجهين : أحدهما — أن نكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك فى سلك الفسقة المتسمين بالزنا محرم عليه ، لما فيه من التشبه بالفساق وحضوره موضع التهمة والتسبب لسوء المقالة فيه . والغيبة ومخالطة الخاطئين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام ، فكيف بمزاوجة الزوانى والفجار !

الثانى — وهو أن صرف الرغبة بالكلية الى الزوانى ، وترك الرغبـــة فى الصالحات : محرم على المؤمنين ، لأن قوله (الزانى لا ينكح الى زانية) معناه أن الزانى لا يرغب الا فى الزانية ، فهذا الحصر محرم على المؤمنين . ولا يلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوج بالزانية ، فهذا هو المتعمد فى تفسير الآية .

وانى لأقتصر من نقل كلام الامام الرازى على ذلك وأقول : كان بودى أن يسأل حضرات أعضاء اللجنة تلاميذهم من قضاة المحاكم الشرعية عن هـذا الحكم ، ليعلموا أن المحاكم الشرعية تلغى النكاح بين مؤمنة زانية ومشرك ، كما تلغيه بين مشركة عفيفة ومؤمن زان ، وأنهـا تجيز نكاح المؤمنة العفيفة للمؤمن الزانى وبالعكس .

قال حضرات أعضاء اللجنة والمفسرون ما معناه أن كفر المرأة ضرره عائد عليها وحدها وأما زناها فضرره لاحق بزوجها لأنه يكون عارا عليه وهجنة .

أقول : ان عار زنا المرأة والهجنة على زوجهامنه لايكون الا اذا اشتهر ذلكمنها وعلم به زوجها وأبقاها فى عصمته دون أن يفارقها ، فأما حصول ذلك من المرأة فلتة أو فى حال خفية بحيث لا يعلم بذلك أحد ولا يعلم به هو ، فأى هجنة عليه فى ذلك ؟ وأقول كما قال حضراتهم : ان ذلك بديهى لا يختلف فيه اثنان .

ولعمرى لقد أثبت حضرات أعضاء اللجنة وكل من يقول بقولهم العصـــمة عن الزنا لنســاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون أن يكون بيدهم دليل قطعى على ذلك . واثبات العصمة لمن لم يثبت الله له العصمة عن شىء : لا يليق ممن يستبرىء لدينه ، وهو كانكار عصمة من أثبت الله له العصمة .

وبعد هذا فهل كان القائلون بعصمة نساء الأنبياء عن الزنا أعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الحكم حتى علموه هم وجهله رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

وأنه جعل ذريته هم الباقين ، ولم يذكر عموم الأرض ولا ارتفاع الماء خمسة عشر ذراعا فوق الجبال ، وهذه الآيات التى ذكرت فى التوراة .

= رميت عائشة الصديقية رضى الله عنها بالزنا مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بنى المصطلق ، وتحدث الناس بهذا الافك ، وتغير رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة ، ولو كان رسول الله يعلم أن نساء الأنبياء معصومات من الزنا لبادر باعلام الناس ذلك ولم يبق الناس فى أمر مريج شهرا تقريبا .

قالت عائشة : « وقد انتهى الحديث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أبوى ولا يذكران لى منه شيئا ، الا انى أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض لطفه ، فكان اذا دخل على وأمى تمرضنى يقول : كيف تيكم ، لا يزيد على ذلك » .

اقول — لعمرى لم تغير رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة ولم يظهر لها البشاشة التى كانت قد تعودتها منه اذا كان يعلم أن نساء الأنبياء معصومات من الزنا ؟

قالت « وقد استمر الأمر بين الناس حتى تشاوروا وكاد يكون بينهم شر ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى خيرا ، وأما على فقال : ان النساء كثير وسل الخادم تصدقك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة يسألها ، فقام اليها على فضربها ضربا شديدا وهو يقول : اصدقى رسول الله . فقالت والله ما أعلم الا خيرا ، وما كنت أعيب عليها الا أنها كانت تنام عن عجينها فيأتى الداجن فيأكله ، ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى أبواى وامرأة من الأنصار وأنا أبكى وهى تبكى ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا عائشة انه قد كان ما بلغك من قول النـاس ، فان كنت قارفت سوءا فتوبى الى الله » .

فهل طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عائشة أن تتوب الى الله ان كانت قد قارفت ذنبا وهو يعلم أن نساء الأنبياء معصومات من الزنا ؟ — من ذلك كله استبان أن زوجات الأنبياء غير معصومات من الزنا ، وأقول أيضا ليس كل غير معصوم عن معصية يأتيها .

قالوا : فكان الواجب على فضيلة المؤلف أن يوافق الأئمة فيما قرروه — يريدون المفسرين .

اقول — بأى كتاب أم بأية سنة ألغى عقلى و فهمى وأفنى شخصيتى فى متابعة قوم اجتهدوا فأخطأوا وقد بان لى وجه الصواب فى أن أسلك حسب ما هدانى اليه التفكير الصحيح ، مستهديا بهدى الله تعالى وكتابه وسنة رسوله ؟

قالوا — واذا أراد الاختراع والابداع فى الآراء فليبتعد عن مقام الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

أقول — ان حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة يشبهون فى كتابتهم من يدعى أنه يملك أنبياء الله تعالى ورسله بوضع اليد ويحتكر محبتهم والدفاع عنهم دون خلق الله تعالى .

دعاوى أناس توجب الشـك فيهم فان لزموا دعواهـم فالزم الدفعا

ان الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين انمـا أرسلهم الله لهداية البشر وجعلهم أئمة الأمم وقادة الشعوب الى الخير والأدلاء على الله تعالى بأمره ، ومحبتهم فرض على المؤمن .

واعتقاد الخير فيهم واجب ، والخروج بهم عن أطوارهم التى لهم بما هم أئمة ورسل واطراؤهم اطراء لم يأذن به الله مضر بالمعتقد كالنزول بهم عن مراتبهم والحط من كرامتهم ، فلا يحسن الكلام فى شأنهم الا من عرف منزلتهم من الله ولم يجاوز بهم أقدارهم ولم ينزل بهم عن مكانتهم منه تعالى .

قالوا — فان فى الحوادث التاريخية التى حدثت من آحاد الناس غير الأنبياء متسعا للجميع .

اقول — كلا — ليس فى حوادث التاريخ متسع للجميع كما تقولون ؛ لأن التاريخ باب لا يلجه الا أهل الفطر السليمة والفطن المنزهة عن شوائب الخرافات والأنفس التى سبرت أحوال الأمم وخبرت الأخلاق ، ولا يدرك وطره من هذا العلم الا من بحث ودرس ولم ينتقل من التحديق الا الى التحقيق وأحاط بما تمكن الاحاطة به من سنن العمران البشرى ، وغاص فى أعماق العلوم ، وبرع أمثاله فى الكياسة ، واستدل على ما جهل بما علم ، وقايس بين الأشباه والأمثال ، وأمسك بيده مصباحا من الماضى يضيء به المستقبل حتى صار : * الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا *

قصة نوح فى التوراة

لا أريد أن أطيل بنقل الكلام فى أهل الأرض وفسادهم وكفرانهم نعمة الله عليهم ، وأمر نوح بعمل الفلك وما يأخذه من الناس والحيوان والطير ، ولكنى أعمد الى المقصود وهو ما أذكره بهامش هذه القصة (١)

= وحاصل المسألة بينى وبين أعضاء اللجنة المحترمين أنى لا أقول بعصمة نساء الأنبياء عن اقتراف جريمة الزنا ، ولا أقطع بأن زوجة واحد منهم قد اقترفت هذه الجريمة ، وأقرر ما قرره الله تعالى من أن ابن نوح الذى كان من المغرقين هو ابنه كما هو ظاهر القرآن الكريم ولا أقرف زوجة ذلك النبى الكريم بأنها أتت به على فراشه لغير رشدة ، ولا أقرف زوجة غيره ·

أما حضرات أصحاب الفضيلة فيقولون بعصمة نساء الأنبياء من الزنا ·

والخلاصة أن نساء الأنبياء غير معصومات · وما قالوه من الهجنة التى تلحق النبى لا تكون الا اذا عرف ذلك عن زوجته أو علمه الناس وعلم هو به وأمسكها ولم يفارقها ؛ فكلام حضراتهم وكلام المفسرين فى فرض غير موجود فى مسألتنا ·

وبعد ذلك أقول لحضرات الناقدين : أأنتم أعلم أم الله ؟ فان الله تعالى يقول لنساء النبى صلى الله عليه وسلم : يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين — وما وضع الله تعالى تلك العقوبة المضاعفة الا وهو يعلم أن الذنب الذى تترتب عليه هذه العقوبة المغلظة ولا شك فى أن الزنا فاحشة ، كما قال تعالى (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) فهذه آيات الكتاب ناطقة بما ذهبت اليه ؛ فبأى حديث بعد الله وآياته تؤمنون ؟ ·

قد يقولون : أن الفاحشة فى الآية يراد منها شىء غير الزنا ، لأن الأنبياء معصومون من أن تزنى نساؤهم كما قال المفسرون ذلك ·

أقول : يمنع من ذلك أمور :

(أولها) أنكم متهافتون فى قولكم الأنبياء معصومون من أن تزنى نساؤهم لأن الشخص انما يعصم عن عمل يعمله ولا يعصم من أن يعمل غيره ، فهذه الصيغة الظاهرة التعسف لا تنحل الا الى عصمة نساء الأنبياء من ذلك ·

(ثانيها) أن الآية ظاهرة فى أن العذاب على تلك الفاحشة يكون مضاعفا ، وعلى ذلك فالعذاب الذى يستحقه غيرهن على تلك الفاحشة محدود معلوم ، والفاحشة التى عذابها معلوم هى الزنا (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) فأرونى أية فاحشة يفعلها الانسان وجزاؤها عذاب محدود سوى الزنا ؟

(ثالثها) : أن الله سمى جزاء الفاحشة عذابا · ولم يسم عقوبة من العقوبات التى تنال الانسان على فعل فاحشة عذابا سوى الزنا (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) — ففى انصاف القارىء ما يبين به العاطل من الحالى ·

(١) ص ٧ تكوين (١١) فى سنة ستمائة من حياة نوح فى الشهر الثانى فى اليوم السابع عشر من الشهر فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفجرت طاقات السماء (١٢) وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة (١٣) فى ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم الى الفلك (١٤) هم وكل الوحوش كأجناسها ، وكل البهائم كأجناسها ، وكل الدبابات التى تدب على وجه الأرض كأجناسها ، وكل الطيور كأجناسها كل عصفور كل ذى جناح (١٥) ودخلت مع نوح الى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة (١٦) والداخلات دخلت ذكرا وأنثى من كل ذى جسد كما أمره الله وأغلق الرب عليه (١٧) وكان الطوفان أربعين يوما على الأرض وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض (١٨) وتعاظمت وتكاثرت جدا على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه (١٩) وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل الماء (٢٠) خمسة عشر ذراعا فى الارتفاع تعاظمت فتغطت الجبال (٢١) فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التى كانت تزحف على الأرض وجميع الناس (٢٢) كل ما فى أنفه نسمة حياة من كل ما فى اليابسة مات =

ملاحظـة

يميل بعض المفسرين الى أن قوله تعالى (وفار التنور) يشير الى أن سفينة نوح كانت بخارية مستدلا بقوله (وفار التنور) . وأن قوم نوح كانوا قد بلغوا فى المدنية شأوا بعيدا فاستخدموا البخار وأجروا به السفن . ولست أميل الى هذا لأنه يقتضى أن التنور يفور من نفسه ، بل الذى أفهمه أن الأرض لما هيأ الله الطوفان كانت ممتلئة بالماء من تحتها اشارة الى قربه ، ففار تنور أهله الذى يخبزون فيه .

تنبيـه

والى القراء مسألة لم أر لأحد من المفسرين كلاما فى شأنها : ذلك أن المتأمل فى الكتاب الكريم يرى أن ابن نوح قد هلك بدعوة أبيه نوح عليه السلام ، فانه لما دعا على قومه بقوله : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) لم يستثن ابنه وقد كان كافرا ، فدخل فى عموم من دعا عليهم نوح بالهلاك : هذا أولا . وثانيا : أن نوحا دعا ربه فقال (رب اغفر لى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) لم تشمل هذه الدعوة ابن نوح ، فانه وان كان قد دخل بيته فلم يكن مؤمنا ؛ فكأنه مستثنى من هذه الدعوة . ثالثا : أنه قال بعد ذلك (ولا تزد الظالمين الا تبارا) فكان ابنه داخلا فى عداد الظالمين ، لأنه كان كافرا والظلم هو الكفر .

قصة الطوفان فى أساطير الثقافة الوثنية الهندية

نقلا عن « تاريخ الأدب الهندى » الجزء الأول المختص بالثقافة الوثنية الهندية للسيد أبى النصر أحمد الحسينى البهوبالى الهندى (مخطوط) صفحة ٤٢ و ٤٣ .

قال فى الباب الخامس وعنوانه « برهمانا وأوبانيشاء » :

= (٢٣) فمحا الله كل قائم على وجه الأرض الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض وتبقى نوح والذين معه فى الفلك فقط (٢٤) وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوما .

ص ٨ تكوين (٣) ورجعت المياه على وجه الأرض رجوعا متواليا وبعد مائة وخمسين يوما فنقصت المياه واستقر الفلك فى الشهر السابع من اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط (٥) وكانت المياه تنقص نقصا متواليا الى الشهر العاشر وفى العاشر فى أول الشهر ظهرت رءوس الجبال ، (١٣) وكان فى السنة الواحدة والستمائة فى الشهر الاول أن المياه قد نشفت على الأرض فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فاذا وجه الأرض قد نشف (١٤) وفى الشهر الثانى فى اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض (١٥) وكلم الله نوحا قائلا (١٦) أخرج من الفلك انت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك (١٧) وكل الحيوانات التى معك من كل ذى جسد . الطيور والبهائم وكل الدبابات التى تدب على الأرض اخرجها معك ولتتوالد فى الارض وتثمر وتكثر على الأرض .

وهذا معنى قوله تعالى فى القرآن الكريم (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك) .

وعلى ذلك يكون نوح والذين معه فى الفلك قد أقاموا بها سنة تامة وعشرة أيام .

ومما يلفت النظر فى « ساتا بانا برهمانا » قصة الطوفان التى بينت فى ضمن بيان الضحايا . والقصة وان اختلفت من وجوه كثيرة عما فى القرآن والتوراة ، وان لم يوجد شواهد قاطعة تربط القصة الهندية مع السامية . توجب الاهتمام ؛ ففى هذه القصة البرهمانية يقوم « مانو » بدور سيدنا نوح فى القرآن وفى التوراة ، و « مانو » اسم نال التقديس والاحترام فى أدب الثقافة بأسره من الوثنيين ، فهو ابن الله ومصدر جميع الناس وجدهم الأسطورى . وخلاصة القصة أنه بينما كان « مانو » يغسل يديه اذ جاءت فى يده سمكة . ومما اندهش به أن السمكة كلمته وطلبت انقاذها من الهلاك ووعدته جزاء عليه أنها ستنقذ « مانو » فى المستقبل من خطر عظيم . والخطر العظيم المحدق الذى أنبأت به السمكة كان طوفانا سيجرف جميع المخلوقات ؛ وعلى ذلك حفظ « مانو » السمكة فى المرتبان . فلما كبرت أخبرت « مانو » عن السنة التى سيأتى فيها الطوفان ثم أشارت على « مانو » أن يصنع سفينة كبيرة ويدخل فيها عند طغيان الماء قائلة « أنا أنقذك من الطوفان » فمانو صنع السفينة . والسمكة كبرت أكثر من سعة المرتبان لذلك ألقاها فى البحر ؛ ثم جاء الطوفان كما أنبأت السمكة وحين دخل « مانو » السفينة عامت السمكة اليه ، فربط السفينة بقرن على رأسها فجرتها الى الجبال الشمالية ، وهنا ربط «مانو» السفينة بشجرة . وعندما تراجع الماء وخف بقى « مانو » بوحدته .

هذه هى قصة الطوفان وأهميتها الحقيقية ليست فى الاتصال الموعز فى كلمات مانو ، والسفينة والطوفان الى نوح ، والسفينة والطوفان بل فى النور الذى ترميه القصة فى كشف التاريخ الابتدائى لطقوس القربان ، وهو يرى فى الخطوة التى يتخطى بها « مانو » لنيل القوة الخارقة لايجاد الخلق . ففى بادىء الأمر « مانو » المتمنى للخلف انهمك فى العبادة والمجاهدة. ثم قام بضحيته المسماة « باكا » ومن ثم خلقت المرأة بعد سنة ؛ فالمرأة أخبرت « مانو » أنها بنته لأنها خلقت من ضحيته وقالت له : أنا بركة استعملنى فى القربان وأنت تصبح غنيا فى الأخلاف والمواشى . فمانو على ذلك استمر فى العبادة والمجاهدة مع المرأة . وبواسطتها هو أنتج هذه الذرية ، فهى ذرية مانو ، وأى نعمة طلب مانو بواسطتها أعطيت له .

عمر نوح

ذكر الكتاب الكريم أن نوحا مكث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما وذكرت التوراة أن آدم عمر ثلاثين وتسعمائة سنة وذكرت أيضا أن الطوفان ابتدأ فى السنة الأولى بعد ستمائة من ولادة نوح عليه السلام وذكرت كثيرا من الأنبياء وغيرهم وأنهم عمروا عمرا طويلا — ونحن لا نجد معمرا يعمر مثل هذا العمر أو نصفه أو ربعه من زمن طويل ، وهؤلاء الفراعنة فى مصر نجد أجسامهم كأجسام أهل هذه الأيام ، وأعمارهم لا تختلف عن أعمارنا ، وقد مر لهم أربعون قرنا أو أكثر ، فكيف يكون ذلك ؟

والذى أراه أنه لا مانع من أن يعمر آدم ومن قرب منه أعمارا طويلة ، لأن النوع الانسانى كان فى بدء نشأته لم يحمل هموما ولم تعتوره الأمراض المختلفة ولم تنهك قوته الأطعمة التى لا يقدر على هضمها ، فكان من المعقول أن يعيش طويلا . وأما نحن وأمثالنا ممن كانوا قبل أربعين قرنا فقد جئنا بعد أن أنهكت النوع الانسانى الأمراض وطحنته الأدواء ؛ فالواحد منا عصارة لآلاف الأمراض التى انتابت آباءه وأمهاته ، فلم تعد قوانا تتحمل العمر الطويل .

وعند العلماء بالطب والأحوال الاجتماعية أن الانسان قواه محدودة والحياة العريضة تستنفدها بسرعة بخلاف الحياة الضيقة ، فانها تكون طويلة لقلة ما يستنفد من قوى الأجسام بتلك الحياة ؛ فنحن الآن لا نعيش عيشة البساطة التى كان يعيشها آدم ومن قرب منه ، بل تتفنن فى أنواع الطعام ولذائذ المعيشة بما ينهك قوانا ؛ فلا غرابة أن تكون أعمارنا قصيرة ، وقد اجتمعت عليها الأمراض المتوارثة والتبسط فى العيش . ويقول بعض الأطباء الألمان : ان انسان هذا الزمان يمكن أن يعيش ثلاثمائة سنة اذا اتبع نظاما خاصا .

وهنا رأى آخر : وهو أن الأقوام الأولين كانوا يعدون كل شهر عاما ؛ فاذا قالوا ألفا ومائتى سنة فانما يعنون مائة عام من أعوامنا . وقد أشار الى ذلك المعرى بقوله :

وروَوْا للمعمَّرين أُمورا * لست أدرى ماهُنَّ فى المشهور
أتراهم فيما تَقَضَّى من الأيّام عَدُّوا سنيهمُ بالشهور
كلما لاح للعيون هلالٌ * كان عاماً لديهمو فى الدهور
هكذا ينبغى و إلا فإن الْ * عَقْل يثنى فى حالة المبهور

ولكنى متمسك برأيى وهو الأول وان كان بعض الأطباء يرى الاصابة بالأمراض تورث نسلهم مناعة .

قبيلتا عاد وثمود

لما كانت قبيلة عاد قوم هود من أقدم الأمم وجودا وآثارا فى الأرض كما قال تعالى (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) وليس من البعيد أن يكونوا أقدم من ابراهيم وكان قوم ثمود يتلون قوم عاد فى الوجود والظهور بين الأمم ، كما قال تعالى على لسان صالح عليه السلام (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) أحببت أن أذكر قوم عاد ثم أثنى بثمود ، ثم أذكر بعد ذلك ابراهيم ثم الأنبياء من عقبه ليكون ذكرهم فى نسق . مخالفا فى ذلك الترتيب الذى رتبته فى الطبعة الأولى لأنى بهذا الترتيب أوثق واليه أميل .

هود عليه السلام

وشأنه مع قبيلة عاد

عدد مرات ذكر هود فى القرآن – نسبه – مساكن عاد – عبادتهم – هلاك عاد – العبرة من قصة هود مع قومه .

ذكر هود فى القرآن الكريم سبع مرات . فذكر فى سورة الأعراف فى الآية ٦٥ وفى سورة هود فى الآيات ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٩ وفى سورة الشعراء فى الآية ١٢٤ .

واعلموا – وفقنى الله واياكم – أن عادا لم تذكر فى كتاب من الكتب المقدسة سوى القرآن الكريم ؛ وليس بيد أحد من الناس من أخبارهم ما يوثق به ويصح التعويل عليه ، سوى القرآن وحده ، فقد ذكر مساكنهم وأحوالهم وجسامة أجسامهم وقوتهم وما كانوا ناعمين فيه من خصب ورغد عيش ، وما استمسكوا به من الكفر والأوثان وعتوهم وفسادهم فى الأرض وتماديهم فى الاستمساك بعبادتهم الباطلة وما بذل هود فى سبيل هدايتهم وردهم عن فاسد اعتقادهم ، وما قابلوه به من العناد والسخرية والاستهزاء الى أن تأذن الله بهلاكهم .

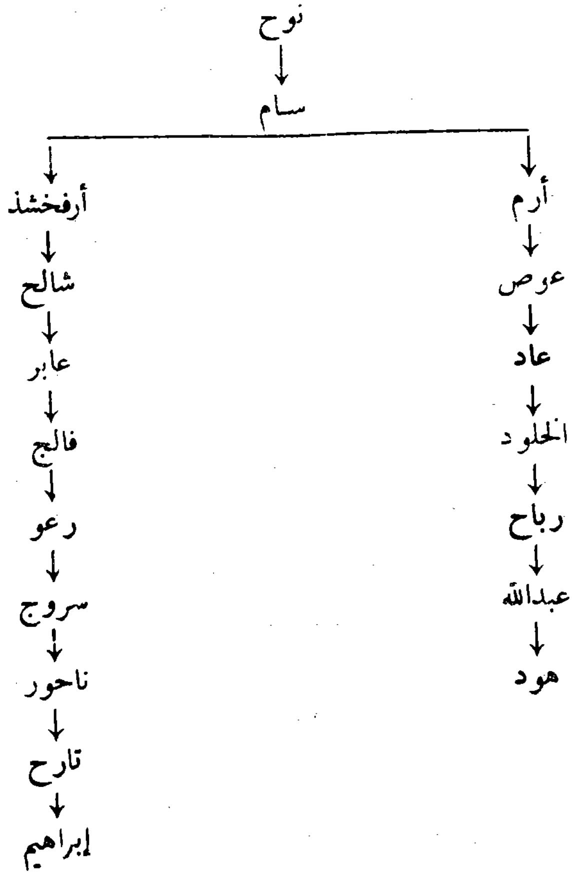
فعلى ضوء ما جاء فى القرآن الكريم نقص قصصهم مع هود رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما جاء فى أثناء القصة مما لا يدل عليه القرآن الكريم فليس يبلغ الشىء القطعى ولا الشىء المؤرخ المأخوذ عن المصادر ذات القيمة التى سجلها التاريخ ؛ وانما هى آثار أثرت عن بعض أهل العلم . هى دون التاريخ .

أما « عاد » فهو اسم لأبى القبيلة وقد اشتهر أنه اسم عربى ، ويقول سيبويه : انه أعجمى ، اذ يقال ان أول من نطق بالعربية « يعرب » . وعن ابن عباس أن هودا أول من نطق بالعربية ؛ ولكنا اذا قدرنا صحة ما يقال من أن العرب انما سموا عربا لأنهم سكنوا غربى الفرات ، فكانوا بادية الآراميين ، وأن الأمم التى أطلقت عليها اسم «عرب» انما تنطق الغين المعجمة عينا مهملة، وأن قبيلة عاد وغيرهم من العمالقة وسواهم هم الذين ينطبق عليهم هذا الاسم حكمنا بأنه عربى كما هو المشهور (١) .

ويقال ان هودا هو ابن شالح بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وعلى هذا الرأى محمد بن اسحق وبعض القائلين بهذا يقولون ان هود ابن عم أبى عاد ، وقيل ابن عوص ابن أرم بن سام بن نوح ، وقيل عبد الله بن رباح بن الخلود بن عوص بن أرم بن سام .

(١) يرى صاحبنا الدكتور اسرائيل ولفنسون أن لفظ عبرى وعربى شىء واحد من العبور وهو الارتحال حصل فيه قلب مكانى فصار لفظ « عبرى » عربى .

وهاكم عمود النسب لكل من هود وابراهيم عليهما السلام .



واذا قارنا بين نسب هود وابراهيم عليهما السلام وجدنا هذا النسب أقرب الى القبول من غيره ؛ اذ بين هود وسام ستة أشخاص على عمود النسب ، وبين ابراهيم وسام ثمانية أشخاص على عمود النسب . والمشهور من أقوال من يتعرضون للكلام عن عاد أنهم بادوا بعد وجـود ابراهيم وبناء البيت بمكة . ومن المحتمل أنّ عادا كانوا أطول أعمارا كما كانوا أكبر أجساما . وأما من يقول ان هودا هو ابن عوص بن أرم فقد أبعد فى الشطط ؛ اذ فى هذه الفترة القصيرة من الزمن يبعد كل البعد أن يتوالد لأرم قبيلة كبيرة ضخمة تعمر الأرض وتعتز بقوتها بالحال التى كانت عليها عاد ؛ فقد كانوا أهل زرع وضرع وعمروا البلاد وأذلوا العباد ؛ كما يشهد بذلك قول هود لهم (أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنـات وعيـون) .

مساكن عاد

كانت مساكن عاد فى أرض الأحقاف ، وهى تقع فى شمال حضرموت ، وفى شمالها الربع الخالى ، وفى شرقها عمان ، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس بعد ذلك العمران والنعيم المقيم ، ولم يتعرض أحد من الأوربيين الباحثين والمنقبين الى الكشف عن بلادهم والتنقيب فى أرضهم ، ولعل تحت الرمال من الثروة العلمية ما لو كشف لكان عظيم القيمة فى عالم الآثار وأبان عن مدنية عظيمة مطمورة تحت تلك الكثبان وقد أخبرنى السيد عبد الله بن أحمد بن عمر ابن يحيى العلوى من أهل حضرموت أنه قام فى جماعة الى احدى المدن البائدة فى شمال حضرموت ونقب فيها وعثر على بعض الآنية من المرمر عليها كتابة بالخط المسمارى ؛ ثم ترك التنقيب لمضايقة البدو له واثقال كاهله بالمطالب المالية (١) .

عبادتهم

كان قوم هود أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى : ضاهوا فى عبادتها قوم نوح حين عبدوا ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا . وفى أثر مروى عن ابن عباس أنهم اتخذوا صنما يقال له صمود وصنما يقال له الهتار ؛ فبعث الله اليهم هودا . وكان هود من قبيلة يقال لها الخلود ، وكان من أوسطهم نسبا وأصبحهم وجها ، وكان فى مثل أجسادهم أبيض بادى العنفقة طويل اللحية ، فدعاهم الى عبادة الله وأمرهم أن يوحدوه وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه وقالوا (من أشد منا قوة) ٤٩٧ ج ٨ تفسير المنار .

كان هود عليه الصلاة والسلام ينذر قومه ويحذرهم بأس الله ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم : اذ زادهم فى الخلق بسطة وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، وبوأهم أرضا تدر عليهم الخير وتخرج لهم الزرع الذى يعيشون منه ، وتنبت الكلأ الذى ترعى فيه ماشيتهم ، وأن عليهم أن يستعملوا عقولهم ليتبينوا أن ما يعبدون من دون الله لا يضرهم ولا ينفعهم ، وأن الذى يضر وينفع انما هو الله تعالى الذى أغدق عليهم نعمه ، وهو الذى خلقهم وبيده مماتهم ؛ وأن الواجب عليهم أن يتقوه ويتوبوا اليه ، وأن يستغفروه لما فرط منهم من اشراك غيره معه فى العبادة ، وأنهم اذا تابوا اليه واستغفروه لما أسلفوا من آثام فانه يرسل المطر عليهم متتابعا من غير أن يصحب نزوله ضرر ، ويزيدهم عزا الى عزهم .

وكان هود يبين لهم أنه لا يطلب على نصيحته لهم أجرا يأخذه منهم ، أو رياسة يتزعم بها بينهم ، وأنه لا يطلب الأجر على ذلك الا من الله تعالى . ومن كان كذلك يكون أبعد عن التهمة ، اذ هو لا يجر لنفسه من وراء ذلك نفعا ولا يبغى لها فائدة من أتاوة يفرضها أو زعامة يتولاها .

(١) فى ص ٣٣٣ ج ٥ من القسطلانى ما نصه : وكان قوم هود يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشحر من اليمن . وهذا يخالف ما هو معروف ؛ فان الأحقاف فى شمال حضرموت وهو يجعلها فى جنوبها على المحيط الهندى .

كان فى ملأ عاد ناس قد عتوا ورأوا كبيرا على أنفسهم أن يصدوا عن أى مراد يريدونه ، كما كان منهم مؤمنون ، الا أن شقوة أهل الكفر والعتو قد غلبت عليهم وكانوا الجمهور الأعظم ، فسفهوا هودا وكذبوه ، وتجاهلوا الحجج الناصعة والبراهين القاطعة التى أقامها على صدقه . وقالوا له (يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) أنك مرسل من الله وأن آلهتنا التى تنهانا عن عبادتها لا تشفع لنا عند الله ، ورموه بالسفاهة والخروج عن السبيل السوى بابتداع ما ابتدع من الدعوة الى ترك الأصنام وافراد الله تعالى بالعبادة ، وذلك غير ما ورثوه عن الآباء من عبادتها والاستشفاع بها .

راجعهم هود بأنه ليس به سفاهة ولكنه رسول من رب العالمين ليبلغهم رسالة ربهم ، وما كان الله ليرسل الى عباده بسفيه يكون الضرر برسالته أكبر وأعظم من النفع بها . وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

ترقى قوم هود فى تكذيبه واتهموه فى عقله وقالوا : اننا لا نقول الا أنك لما عبت آلهتنا وحاولت صرفنا عن عبادتها ، قد اعتراك بعضها بسوء فألحق بك الخبال والجنون ، فأنت عندنا فى حكم أهل العته والجنون . وقد ظنوا أنهم باتهامهم اياه عليه السلام بالجنون ينصرف الناس عن الاصغاء اليه والاعتداد بكلامه .

سمع هود ذلك فأشهد الله تعالى وأشهدهم أنه برىء من تلك الآلهة التى يزعمون لها القدرة على أن تمسه بسوء ؛ وتحداهم وآلهتهم أن يكيدوه اذا كان ذلك فى قدرتهم وأن يسرعوا الى ذلك مبادرين دون أن ينظروه ؛ فانه واثق من الاله الذى بيده نواصى كل ما على الأرض من دابة أنه سينصره ويمنعه أن يصلوا الى مسه بأذى . وانما خص الناصية لأن الحيوان اذا أمسك بشعر ناصيته انقاد وصار الممسك بناصيته مسيطرا عليه ، وكانت العرب تجز ناصية الأسير ليعلم أن ناصيته ملكت وجزت .

وأعلمهم هود عليه السلام بأنهم اذا تولوا معرضين عن قوله ولم يستمعوا لنصيحته ؛ فانه قد قام بواجبه الذى كلف به من ربه وأن الله تعالى سيبيدهم ويستخلف قوما غيرهم ، وأن هذا لا يضر الله شيئا لأنه حافظ ومستول على كل شىء وكل شىء فى قبضة قدرته .

لم يزل هود يمحضهم النصح ويعلمهم أنه ناصح لهم خالص النية فى العمل بكل ما ينفعهم ، أمين على ما يقوله لهم عن الله تعالى ، فهو لا يدعوهم الا الى ما فيه سعادتهم وحسن حالهم ، وأنه لا ينبغى لهم أن يعجبوا لأنه جاءهم رجل منهم لينذرهم ، لأن ذلك من سنة الله تعالى أن يجعل الرسول الى القوم منهم ليكونوا أشد فهما لما يلقيه اليهم ولأنهم أعلم بحقيقته وأمانته وما هو عليه من خلق حسن .

راجعه قومه متعجبين مما يطلبه منهم من عبادة الله وحده وترك ما وجدوا آباءهم يعبدونه من الأصنام ؛ اذ فى ذلك تحقير للآباء وامتهانهم برميهم بالكفر ؛ وفيه أيضا تحقير أوليائهم وشفعائهم

عند الله بترك التوجه بهم اليه تعالى وهم وسيلتهم اليـه وهم المقصودون بالتعظيم لصـورهم وتماثيلهم ؛ ثم ترقوا الى تحديه قائلين (فأتنا بما تعـدنا — من العـذاب — ان كنت من الصادقين) فى انذارك بقولك (انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) .

حينئذ أنذرهم هود بأن الله تعالى سيحل بهم عذابا قريبا بقوله (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) أى عذاب وغضب ، ومعنى ذلك أنه قد قرب الانتقام المحتم ، وانما عبر بـ «وقع» لأنه محقق الوقوع ، ثم وبخهم قائلا (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان) ثم قال لهم : انتظروا حلول العذاب بكم ، انى معكم من المنتظرين .

فلما عتا قوم هود على ربهم وعصوا رسوله وكذبوه وجحدوا بآيات الله التى أقامها هود على صدقه فى أنه مرسل من ربه واتبعوا أمر كل جبار عنيد من ملأ قومهم ولم تبق فائدة فى انذارهم . أحل الله تعالى بهم نقمته فى الدنيا بأن أمسك الله عنهم المطر حتى جهدوا ، وكان كلما نزل بهم الجهـد ذكرهم هود بدعوته وأنه لا ينجيهم من البلاء سوى الاستماع له والعمـل بنصائحه ، فكان ذلك يزيدهم عتوا الى أن أرسل الله عليهم الريح العقيم : سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فأهلكهم الله وأبادهم وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل منقعر ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة . ونجى الله تعالى هودا والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ .

وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى . وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع . وقيل : هم ثمود .

ويقول أهل حضرموت : ان هودا عليه الصلاة والسلام سكن بلاد حضرموت بعد هلاك عاد الى أن مات ودفن فى شرقى بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادى برهوت . وقد أثر عن على كرم الله وجهه أنه مدفون فى كثيب أحمر وعند رأسه سمرة فى حضرموت . وأهل فلسطين يدعون أنه دفن عندهم وقد بنوا له قبر ويعملون له فى كل سـنة مولدا . وقول أهل حضرموت أقرب الى المعقول لأنها متاخمة لبلاد عاد وهى الأحقاف دون فلسطين .

وفى تفسير الألوسى : قيل كانوا أربعة آلاف ، وقيل ثلاثة آلاف .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة الأعراف : وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُـــدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ [٦٥] قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [٦٦] قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٦٧] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ [٦٨] أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ

جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ [٦٩] قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ [٧٠] قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [٧١] فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ [٧٢].

سورة هود : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ
إِلَّا مُفْتَرُونَ [٥٠] يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ [٥١]
وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ
وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ [٥٢] قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ
لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [٥٣] إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ
مِمَّا تُشْرِكُونَ [٥٤] مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ [٥٥] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي
وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٥٦] فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيظٌ [٥٧] وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ [٥٨] وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [٥٩]
وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ [٦٠]

سورة المؤمنون : ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ [٣١] فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ [٣٢] وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ
الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ
مِمَّا تَشْرَبُونَ [٣٣] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ [٣٤] أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ
وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ [٣٥] هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ [٣٦] إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ [٣٧] إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ

بمؤمنين [٣٨] قال رب انصرني بما كذبون [٣٩] قال عما قليل ليصبحن نادمين [٤٠] فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين [٤١] ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين [٤٢]

سورة الشعراء : كذبت عاد المرسلين [١٢٣] إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون [١٢٤] إني لكم رسول أمين [١٢٥] فاتقوا الله وأطيعون [١٢٦] وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين [١٢٧] أتبنون بكل ريع آية تعبثون [١٢٨] وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون [١٢٩] وإذا بطشتم بطشتم جبارين [١٣٠] فاتقوا الله وأطيعون [١٣١] واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون [١٣٢] أمدكم بأنعام وبنين [١٣٣] وجنات وعيون [١٣٤] إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم [١٣٥] قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين [١٣٦] إن هذا إلا خلق الأولين [١٣٧] وما نحن بمعذبين [١٣٨] فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين [١٣٩] وإن ربك لهو العزيز الرحيم [١٤٠]

سورة فصلت : فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون [١٥] فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون [١٦]

سورة الأحقاف : واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم [٢١] قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين [٢٢] قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون [٢٣] فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم [٢٤] تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين [٢٥] ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون [٢٦]

سورة الذاريات : وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ [٤١] مَا تَذَرُ مِنْ شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ [٤٢]

سورة القمر : كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ [١٨] إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ [١٩] تَنْزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ [٢٠] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ [٢١]

سورة الحاقة : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ [٦] سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ [٧] فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ [٨]

سورة الفجر : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ [٦] إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ [٧] ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَادِ [٨]

العبرة من قصة هود مع قوم عاد

القارىء لقصة هود عليه السلام مع قومه يخيل اليه أنه يرى انسانا وقورا رزينا يزن الكلام قبل القائه يتجلى الاخلاص وحسن النية على قسمات وجهه ، وهو :

١ — لا يقابل الشر بمثله بل لا يفارقه استعمال اللين فى كلامه مع قومه .

انظروا الى قولهم له (انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين) ثم ماذا كان جوابه ؟ كان جوابه أن قال لهم (يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين) فمن تأمل فى هذا الجواب وجده غاية فى دماثة الأخلاق والتلطف فى اسداء النصيحة الخالصة من شوائب جر أية منفعه .

٢ — تلطفه بذكر نعم الله تعالى عليهم وترغيبهم فى الايمان وبيان أن ذلك يحفظ عليهم حسن حالهم وتذكيرهم بما أنعم الله عليهم به من أموال وبنين وجنات وعيون وأنه زادهم فى الخلق بسطة وجعلهم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح وأن ايمانهم يستتبع رضا الله تعالى فيرسل السماء عليهم مدرارا لسقى زروعهم وانبات الكلأ لماشيتهم وأنه تعالى يزيدهم عزا الى عزهم .

فكان جواب قومه له التعجب من شأنه وشأن رسالته اذ جاءهم ليعبدوا الله وحده وأن يذروا ما كان يعبد آباؤهم من قبلهم ، واتهموه بأن بعض آلهتهم مسه بالجنون الذى أفقده صوابه عقابا له على الخوض فى حقهم والتقليل من سلطتهم .

أقول : ولقد جاء سقراط الى قومه بدون ما أتى به هود ، اذ أراد التقليل من سلطة الآلهة فحكم عليه.أن يتجرع السم بيده ونفذ الحكم .

٣ — أنه مع مشاكستهم له وافترائهم عليه ورميهم له بالجنون الذى اعتراه به بعض آلهتهم لأكلهم لم يزد فى جوابه على أن يقال لهم (انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم) .

٤ — أن الذى يتولى عظة الناس وارشادهم والنصح لهم ينبغى أن يكون آخذا أخذ هود عليه السلام فى سعة الصدر وعدم مقابلة الشر بمثله ويحتمل صلف المدعوين وسوء ردهم عليه رجاء أن يظفر ببغيته منهم ويفوز بهدايتهم أو هداية بعض منهم ، وأن يكون جوابه عند اليأس بعد بذل الجهد واستنفاد أساليب الترغيب ما قاله هود عليه السلام : (فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ان ربى على كل شىء حفيظ) .

صالح عليه السلام

عدد مرات ذكر صالح فى القرآن ـ نسب صالح وثمود ـ مساكن ثمود ـ دين أهل ثمود ـ جعل الناقة آية لهم ـ عقرهم للناقة ـ هلاكهم بالصاعقة ..

ذكر اسم صالح فى القرآن تسع مرات ، فى سورة الأعراف فى الآيات ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، وفى سورة هود فى الآيات ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٩ وفى سورة الشعراء فى الآية ١٤٢ .

وقوم صالح هم ثمود .

نسب صالح وثمود

اختلف فى نسبه فقال الحافظ البغوى أنه صالح بين عنيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر ابن ثمود . وعن وهب أنه ابن عبيد بن جابر بن ثمود .

وأما ثمود فهى القبيلة التى منها صالح ، سميت باسم جدها ثمود بن عامر بن ارم بن سام. وقيل ثمود بن عاد بن عوص بن أرم قال الألوسى : هو المنقول عن الثعلبى .

مساكن ثمود

كانت مساكنهم بالحجر — بكسر الحاء — وموقعها بين الحجاز والشام الى وادى القرى . ومدائن صالح ظاهرة الى اليوم . وقد زارها بعض أصحابى ودخل بيت الملك وهو بيت ذو حجرات به ردهة كبيرة وهو منقور فى الصخر . والمكان الذى فيه ديارهم يعرف الى اليوم بـ « فج الناقة » — ويقول المسعودى : ورممهم باقية وآثارهم بادية فى طريق من ورد من الشام . وحجر ثمود فى الجنوب الشرقى من أرض مدين وهى مصاقبة لخليج العقبة . وقد كان يقال لعاد : عاد ارم ، الى أن هلكوا فقالوا : ثمود ارم .

وقد اختلف الباحثون من المستشرقين فى أوربا فى أصل ثمود وزمن وجودهم ، فقال فريق : انهم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ولم يدخلوا فلسطين ، وهذا القول لا يعدو أن يكون ظنا لا أثر فيه للتحقيق ؛ اذ القرآن ناطق بأنهم قد انقضى أمرهم وعرت ديارهم من كل ديار قبل خروج موسى من مصر ببنى اسرائيل ؛ وهذا مؤمن آل فرعون قام حين كذبوا موسى يخوف قومه بأس الله وأنه يخاف عليهم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم .

وقال آخرون — أى من المستشرقين : انهم بقية من العماليق انتقلوا الى ذلك المكان من غرب الفرات . ويظن آخرون أنهم من العماليق الذين طردهم أحمس ملك مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وقد حذقوا صناعة النحت أيام اقامتهم بمصر ؛ ولذلك نحتوا لهم بيوتا بعضها

نقر فى الصخر وبعضها كان بناء كسائر الأبنية التى تتخذ من الصخر . وقال بعض المؤرخين : انهم بقية من عاد ، وهذا أقرب الى المعقول ، ويدعى أهل حضرموت أن ديار ثمود كانت من مستعمرات عاد ، وهذا القول لا يخالف ما قبله ، وقد يؤيده قول صالح الآتى لقومه (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا) .

أما زمن وجود ثمود فلم يعلم بالضبط ، غير أنى أقول انهم كانوا وبادوا قبل زمن موسى . وأما وجود الكتابة الآرامية على بعض القبور بتلك الأنحاء وكون تلك الكتابة مؤرخة بتاريخ قريب من زمن الميلاد فلا يدل الا على أن ناسا أخذوا الخط الآرامى يخلدون به آثارهم قد نزلوا فى تلك الناحية وكتبوا على مقابرهم ونحوها .

قال جورجى زيدان بك فى كتابه « العرب قبل الاسلام » :

أما الثابت من قراءة الآثار : أن مدائن صالح « الحجر » دخلت قبل تاريخ الميلاد فى حوزة النبطين سكان بطرة الآتى ذكرهم . والأطلال المشار اليها زارها غير واحد من المستشرقين كما ذكرناه فى مقدمة هذا الكتاب ، ودرسوا بقاياها ،وهى منقوشة فى الصخر أهمها أنقاض تعرف بقصر البنت وقبر الباشا ، والقلعة ، والبرج .

وقرءوا ما عليها من نقوش نبطية ، فاذا أكثرها أو كلها تبركات منقوشة على القبور .

هذا مثال منها وجدوه فى الحجر بالحرف النبطى وتاريخه حوالى الميلاد :

« هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لأنفسهن وذريتهن فى أشهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطين محب شعبه فعمى ذو الشرى وعرشه (؟) واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتها — ومن يخالف ما كتب عليه فيلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر (؟) غرامة مقدارها ألف درهم حارثى الا من كان بيده تصريح من يد كمكم أو كليبة ابنتها بشأن هذا القبر ، والتصريح المذكور يجب أن يكون صحيحا صنع ذلك وهب اللات ابن عبد عبادة » .

ولعل المراد بالساحر : الكاتب .

دين أهل ثمود

كانت قبيلة ثمود تدين بعبادة الأصنام يشركونها مع الله فى العبادة ، فأرسل الله اليهم صالحا واعظا لهم ومذكرا لهم بنعم الله وآياته الدالة على توحيده وأنه لا شريك له ، وأقام لهم الأدلة القاطعة والبينة الواضحة على ضلالهم فى عبادتهم وعلى أن الله هو الذى يجب افراده بالعبادة دون سواه .

وقد جاء فى تفسير المنار (٥٠٢ ج ٨) ما نصه :

« قد علمنا من سنة القرآن وأساليبه فى قصص الأنبياء مع أقوامهم أن المراد بها العبرة والموعظة ببيان سنن الله تعالى فى البشر وهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام وحوادث الأمم وضوابط التاريخ مرتبة بحسب الزمان أو أنواع الأعمال . وقد حكى لنا عن صالح عليه السلام أنه ذكر الآية التى أيده الله تعالى بها عقب تبليغ الدعوة وفى قصته من سورة هود أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته وتصريحهم بالشك فى صدقه ، وزاد فى سورة الشعراء طلبهم الآية منه . وكل ذلك صحيح ومراد وهو المسنون المعتاد » اهـ .

ولكن ما هى هذه الآية التى جاء بها ؟ لم يبين الله له آية سوى الناقة ولا مانع من أن يكون جعلها آية صدقة بأنهم سيبقون سالمين على حال حسنة ما دامت الناقة مسلمة لم يعتروها بسوء ولم يمسوها بأذى ؛ فاذا خالفوا غير الله ما بهم وأحل بهم نقمته (١) ويحتمل أنه جاءهم بآية سوى الناقة أو كانت فى الناقة آية أخرى أو عدة من الآيات ليست فى غيرها .

---

(١) **نقد اللجنة**

الموضوع الثالث عشر

(ناقة صالح عليه السلام)

فى صفحة ٢٨٠ سطر ١١ (من الطبعة الأولى)

ولكن ما هى هذه الآية التى جاءهم بها ؟ لم يبين الله لهم آية سوى الناقة ولا مانع من أن يكون جعلها آية صدقه بأنهم سيبقون سالمين على حال حسنة ما دامت الناقة مسلمة لم يعتروها بسوء ولم يمسوها بأذى ، فاذا خالفوا غير الله ما بهم وأحل بهم نقمته اهـ هذا نفس كلامه .

(رأى اللجنة)

لم نستطع أن نفهم لهذا الكلام وجها معقولا ، وذلك أن الله تعالى يقول فى سورة الأعراف (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » فهى تدل قطعا على أنهم قد جاءتهم بينة من ربهم وتلك البينة والآية هى الناقة .

ويؤخذ من قصة صالح عليه السلام فى سورة الشعراء أنها جاءتهم بعد أن طلبوها .

ومن الواضح جدا أنه لا معنى لكون الناقة آية ومعجزة مقارنة لدعوة صالح اياهم الى الايمان الا أنها مشتملة على أمر خارق للعادة يدل على صدقه فى دعوى الرسالة لهم كما أنه من الواضح أنه لا بد أن يعلموا ذلك الأمر الخارق للعادة فى حال حياتهم واطمئنانهم حتى يجب عليهم الايمان وحتى يكون تركهم للايمان بعد علمهم بهذه الآية الدالة على صدقه انما هو على سبيل العناد والاستكبار وحينئذ يستحقون العذاب الشديد .

فهل يعقل أن يكون وجه أن الناقة آية انه جعلها آية صدقه بأنهم ان تركوها سلموا وان مسوها بسوء حل بهم العذاب مع أنهم على هذا لا يظهر لهم صدقه الا بعد أن يظهر لهم أنه قد حقت عليهم كلمة العذاب حينما مسوها بسوء ؟

وهل مثل هذا يعتبر معجزة لهم يجب عليهم بمقتضاها أن يصدقوه ويؤمنوا به مع أنه لا يظهر أنه أمر خارق للعادة بعد موتهم الا بعد حلول العذاب .

نحن لا ندرى السر فى العدول عما قرره المفسرون فانهم ذكروا فى كون الناقة آية أربعة أقوال :

والذى يظهر من قصة صالح انها تلخص فى أن القوم كانوا عاكفين على عبادتهم الباطلة . وكانوا أهل خصب ورفاغة حال ، لما كان لهم من الماشـية الكثيرة والجنـات الوافرة الجنى والعيون التى يستقون منها هم وماشيتهم وزروعهم ، بدليل قوله لقومه (أتتركون فيما ها هنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) .

= الأول – وعليه الجمهور : أنها كانت آية بسبب خروجها من الصخرة .

الثانى – أنها كانت آية بسبب أنه كان لها شرب يوم واستيفاء ناقة شرب أمة عجيب .

الثالث – أنهم كانوا يحلبون منها القدر الذى يقوم لهم مقام الماء فى يوم شربهم .

الرابع – أن جميع الحيوانات كانت يوم مجيئها للماء تمتنع من الورود على الماء وكانت يوم امتناعها تأتى (أى جميع الحيوانات) الماء .

قال الأمام الرازى : واعلم أن القرآن قد دل على أن فيها آية ، فأما ذكـر أنها كانت آية من أى الوجوه فهو غير مذكور ، والعلم حاصل بأنها كانت معجزة من وجه ا هـ .

ونحن نقول : لا بد أن يكون الأمر الخارق للعادة الذى اشتملت عليـه الناقة متحققا فيها قبل أن يمسوها بسوء ، والله أعلم .

فى صفحة ٢٨٤ بعد أن قال : وكان تدمير قوم صالح بالصاعقة المعبر عنها تارة بالرجفة وتارة بالصيحة وتارة بالطاغية ، قال ما نصه :

والصاعقة عبـارة عن استفراغ كهربائى يحصـل بين كهربائيتين متخـالفتين بالايجـاب والسلب الى آخر ما ذكره من بيان الأسباب العادية المنتجة للصواعق وقال فى آخر ما نصه :
فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق .

(رأى اللجنة)

من أين جاء له أن الصاعقة التى دمر الله بها قوم صالح هى اسـتفراغ كهربائى يحصـل بين كهربائيتين متخالفتين ... الخ هل ورد بذلك خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو جاء بذلك أثر عن بعض أصحابه ، أو استبعد على قدرة الله ايجاد الصاعقة من غير تلك الأسباب المعتادة فحكم بذلك بمقتضى عقله وجزم بأن هلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق ؟ .

فالذى نراه أنه لا ينبغى الجزم بكيفية خاصة بدون دليل يثبتها ، مع أن الأقرب فى مثل هذه الأمور أن تكون بغير أسباب عادية ، والله أعلم بحقيقة الأمر .

جواب المؤلف على نقد اللجنة
فى هذا الموضوع
(ناقة صالح عليه السلام)

نصصت فى كتابى ما نقله حضرات الأفاضل أعضاء اللجنـة ، وقد عابوا على أنى اقتصرت على أن الناقة آية لثمود ولم أثبت غيرها مع أن كون الناقة آية لهم هو نص القرآن الكريم وان الله تعالى لم يذكر من أى وجه ، فحملت ذلك على أنها ما بقيت مسلمة منهم لا يمسونها بسوء فهى آية بقائهم ، وقلت لا مانع من ذلك . أما حضراتهم فصالوا وجالوا ، ومما اسـتدلوا به على بطلان ذلك الوجه قول الامام الرازى « واعلم أن القرآن قد دل على أن فيها آية . فأما ذكر أنهـا كانت من أى الوجوه فهو غير مذكور والعلم حاصل أنها كانت معجزة من وجه » وأنا مقر بما قال ولم أذكر ما يناقضه . وأما قولهم « ونحن نقول لا بد أن يكون الأمر الخارق للعادة الذى اشتملت عليـه الناقة متحققا فيها قبل أن يمسوها بسوء » .

فأقول : أنى أسير مع النص والله لم ينص على قولكم هـذا . بل أنا أقول أن الذى قاله المفسرون من أن آيتها كانت الخروج من الصخرة أمر ممكن وليس به نص ، وكذلك بقية الأقوال كاستيفائها شرب الأمة فى يومها وأنهم كانوا يحلبون ما نقوم مقام الماء امتناع جميع الحيـوان =

جـاء اليهم صالح ومحضهم نصيحته وذكرهم أنواع التذكير وخوفهم بأس الله ، فآمن له المستضعفون من قومه ، وكفر الملأ منهم ولم يؤمنوا له ، وقد أبان لهم أنه لا يسألهم أجرا على الهداية التي يسديها اليهم وانما يطلب أجره من الله ، ومن كان شأنه كذلك يكون أبعد من تهمة جر النفع الى نفسه بريئا من اتخاذ الدعوة طريقا للكسب أو الرياسة ، وألح على جمهورهم أن

= من قربان الماء يوم شربها : كل واحد من هذه الأشـياء أو جميعها يحتمل أن يكون فى الناقة ولكن ليس على ذلك نص تجب به الحجة ٠

والذى تبين لى من أقوال حضراتهم فى تقريرهم من أوله الى هذا الموضـع اننى لا ألتقى مع حضراتهم ٠ فانى لا أجزم بالمعجزة ولا بالخارق للعـادة من أمور الأنبياء الا اذا ورد بذلك نص قطعى الثبوت والدلالة ، ودائرة الاثبات لذلك لدى حضراتهم أوسع منها لدى ، فهم يثبتونها بما أثبتها أنا به ويزيدون أمورا :

(١) الحديث المروى رواية آحاد ٠

(٢) الأقوال التى يقولها المفسرون والآراء التى يوردونها ٠

(٣) الاسرائيليات التى ينصها مسلمة أهل الكتاب ٠

وانى لأعيذ الأمة الاسلامية من أن تحقق هذه الأشـياء بأقوال ظنية ٠ فان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، وأربأ بها أن يتحقق فيها قول المعرى:

مالى أرى كل الأنام لجهلهـم ... بالدين أشباه النعام أو النعم
لو قال سيد غضى بعثت بملة ... من عند ربى قال بعضهم نعم

(شىء آخر)

أخذ أصحاب الفضيلة على أمرأ عدوه ذنبا هائلا تنهار له جوانب الايمان ويخر منـه الدين هذا ذلك أنى شرحت الصاعقة بأنها استفراغ كهربائى الخ ثم قلت : فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق ٠٠٠ فوجهوا الىّ أسئلة متداركة متتالية أورد كل سؤال منها ثم أجيب عنه : قالوا :

(١) من أين جاء له أن الصاعقة التى دمر الله بها قوم صالح هى استفراغ كهربائى يحصل بين كهربائيتين متخالفتين الخ ؟

الجواب — ان هذا الذى ذكرته هو التعريف العلمى للصواعق عند علماء الطبيعة — أستغفر الله من الكفر ٠

ومن يقل بالطبع أو بالعـلة ... فذاك كفر عنـد أهل الملة

بل أقول عند العلماء بسنن الله الكونية ، وهـذا من أوليات هـذا العلم فى الفرع الخاص بالكهرباء ، وكان يكفى حضراتهم أن يسألوا أى طالب فى القسم الثانوى بالأزهر ليشرح لهـم ذلك فيعلموا انى على حق فيما أقول ٠

(٢) هل ورد بذلك خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب — لم يرد بما قلته خبر عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، ولكنـه علم تعلمته ودرسته دراسة صحيحة وكنت متميزا فيه بين اخوانى ٠ وامتحنت فيه وأخذت عليه درجات ٠ ومن شاء الوقوف على ذلك فليسأل وزارة المعارف أو مدرسـة دار العـلوم ٠ أو فضيلة الشيخ أحمد ابراهيم بك وكيل كلية الحقوق ٠ وليس فى قدرتى أن أحول علمى جهـلا ومعرفتى غباوة وحيرة — وشأنى فى هذا العلم شأن حضراتهم فى العـلوم من النحو والصرف والمعـانى والبيان والبديع ؛ فان قواعد تلك العلوم وضوابطها لم تنص فى الكتـاب الكريم ولم يرد بهـا حديث صحيح أو غير صحيح ولكنها عـلوم استحدثت فى الملة بعد رسـول الله وأقدمها علم النحو استحدثت بعضه فى أخريات خلافة على كرم الله وجهه ، وقد عاش الصـحابة وتوفوا وهـم لم يتحدثوا فى استعارة مكنية أو تبعية ولم يتكلموا فى توشيح أو تدبيج ٠

(٣) قالوا أو استبعد على قدرة الله ايجاد الصاعقة من غير تلك الأسباب المعتادة فحكم =

يطيعوه ولا يتبعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، لأن الاصلاح يفوت عليهم المنافع التى يجرونها لأنفسهم ؛ فقال المستكبرون من قومه (أؤنزل عليه الذكر من بيننا) استبعادا لأن ينال الخير أحد سواهم واستكبارا عن متابعة رجل منهم لا يمتاز عليهم بالغنى والثراء ، وقالوا لمن استضعف منهم : « أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا انا بما أرسل به

= بذلك بمقتضى عقله وجزم بأن هلاك ثمود كان بظاهرة من تلك الظواهر المنتجة للصواعق ؟

الجواب — انى لا أستبعد على قدرة الله خلق أى شىء مما لا أعلمه ولكنه تعالى عبر بأنه أهلكهم بالصاعقة التى أعلم علمها ولو كان اخترع شيئا لاهلاكهم به يعمل عمل الصاعقة لأخبر بأنه من جنس غير الجنس الذى نعلمه وسماه باسم خاص ، وما الله بمسبوق على أن يخلق مالا نعلم وأن يسميه بالاسم الخاص حتى لايخلط عباده بين ما يعلمون وما لا يعلمون . وما كان لمؤمن على شريعة من العلم أن يدع العلم الذى يثق به وبصحته الى ما لم يعلم فيكون كمن يترك ساقا متمسكا بها من دوحة عالية دون أن يستمسك بساق أقوى منها فيهوى ، ويكون قد ألقى بيده الى التهلكة .

وكان من حق العلم على حضرات الافاضل : أن يذهبوا أولا الى مشيخة الأزهر ويقترحوا عليها أن تأمر مدرسى السنن الكونية أن يكتبوا تعريف الصاعقة بغير التعريف العلمى الذى يدرس فى جميع أنحاء العالم وأن يصوغوه بالتعريف الذى يروق لحضرات أعضاء اللجنة وأن تأمر مشيخة الأزهر بذلك وتحتم على جميع المدارس الثانوية فى الحكومة المصرية أن تأخذ بنظرية حضرات أعضاء اللجنة وتتبع ذلك فى المدارس الطبية على اختلاف أنواعها وفى الجامعة المصرية ، ثم تعقد مؤتمرا بالقاهرة تجمع اليه أساطين العلوم وجهابذة الفنون فى العالم وتحتم على أعضاء المؤتمر أن يكون التعريف الذى اختاره حضرات الأعضاء للصواعق هو المتبع — وانى من مكانى هذا أصيح بحضرات أعضاء المجلس الأعلى للمعاهد الدينية أن يفعلوا ذلك وأحذرهم عاقبة التوانى وأقول لهم : الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

وأما أقوال المفسرين ؛ فقد قالوا : الرعد ملك موكل بالسحاب معه كر من حديد يسوقه من بلد الى بلد كما يسوق الراعى ابله ، فكلما خالف سحاب صاح فزجره ؛ فالذى يسمع صوت الملك . وقد اختلفوا فى حجم الملك وقد قال بعضهم أنه فى حجم الذبابة .

وقال الزمخشرى فى تفسيره — الرعد : الذى يسمع من السحاب كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض اذا حدتها الريح فتصوت عند ذلك .

وأما البرق فقد ذهب المفسرون لقول الله تعالى الى أنه ضرب الملك الذى هو الرعد للسحاب بمخراق من حديد . وروى عن مجاهد أن الله عز وجل وكل بالسحاب ملكا فالرعد قعقعة صوته والبرق سوطه .

وقال الزمخشرى فى تفسيره : الصاعقة قصفة من رعد تنقض معها شقة من نار .

وقالوا : انها تنقدح من السحاب اذا اصطكت أجرامه ، وهى نار لطيفة حديدة لا تمر بشىء الا أتت عليه ، الا أنها مع حدتها سريعة الخمود ، على أنها متى سقطت على نخلة عالية أحرقت أعاليها .

وقال صاحب مناهج الفكر ومناهج العبر :

ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما فى الكيس ولا تحرق الكيس ، وان احترق فانما يحترق باحتراق ما ذاب فيه وسال : قال : وهى اذا سقطت على جبل أو حجر كلسته ونفذته ، واذا سقطت فى بحر ماصت فيه وأحرقت ما لاقت من جوانبه ، وربما عرض لها عند انطفائها فى الأرض برد ويبس . فتكون منها أجرام حجرية أو حديدية أو نحاسية ، وربما طبعت الحديد سيوفا لا يقوم لها شىء اهـ من نهاية الأرب .

وقال القرطبى فى أحكامه : الصواعق جمع صاعقة . وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : اذا اشتد غضب الرعد الذى هو الملك طار النار من فيه وهى الصواعق . وكذا قال الخليل =

مؤمنون » فأجاب الذين استكبروا « انا بالذى آمنتم به كافرون » وطلبوا آية على صـدقه فأتاهم بالناقة كما قدمنا وقال لهم « لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » .

وأمرهم ألا يمسوها بسوء وعليهم أن يذروها تأكل فى أرض الله ، فان سلامتهم بسلامتها من ايذائهم .

ولم يثبت ثبـوتا قطعيا أنه أتى لهم بالنـاقة حسب اقتراحهم من الصـخرة وأن الصـخرة تمخضت عنها فخرجت منها سوداء الحدق حمراء الوبر خلفها فصيلها وأنها كانت اذا شربت أتت على الماء فى يومها ثم تتنفج لهم ويأخذون من لبنها ما يشاءون ؛ لأن ذلك زائد عما فى الكتاب الكريم .

ظلوا على ذلك مدة غير طويلة لم تحدد فى الكتاب الكريم الى أن خاسوا بعهدهم وعقروا النـاقة .

ورد فى القرآن الكريم نسبة الناقة التى أتى بها صالح الى الله فى قول صالح لهم « هذه ناقة الله لكم آية » وهذه الاضافة ذكرت تعظيما لشأنها . وقيل : لأنه خلقها على خلاف سنته فى خلق الابل وصفاتها لم يخلق فى الابل سواها ناقة تختص بالشرب يوما وأهل ذلك الماء يوما آخر وتعرف يومها الخاص بها ولا تقرب الماء فى يوم أهلها ، كما قال تعالى « ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر » وقال تعالى « هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » .

ومجموع آيات القرآن الواردة فى شأن الناقة تدل على أن آية الله تعالى فى الناقة ألا يتعرض أحد من ثمود بسوء لها فى نفسها ولا فى أكلها ولا فى شربها فى الماء الخاص الذى كان قسمة بينهم وبين الناقة ، وأن الوعيد بالعذاب يحل بهم متى اعتدوا عليها فى أحد هذه الأشياء . ولا مانع من أن تكون فيها آية أو آيات من وجه آخر .

وانى على قدم الاستعداد للاقرار بالوجه الذى يكون فيها متى جاء بنص قطعى وأضرب برأيى عرض الحائط .

بذل صالح الجهد فى تذكير القوم بنعم الله تعالى عليهم ونهاهم عن أن يعثوا فى الأرض مفسدين بعبادة غير الله تعالى والتكبر فى الأرض .

= قال : هى الوقعة الشديدة من صوت الرعد يكون أحيانا قطعة من نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة نار من السماء فى رعد شديد .

فأنتم ترون أن أقوال المفسرين فى الصـاعقة والبرق والرعد ينكرها العلماء بسـنن الله الكونية ، ولا يقيمون لها وزنا بعد أن ترقى العلم هذا الرقى الذى نراه اليـوم ، وبعد أن عرفت خواص الكهرباء واخترعت مانعات الصواعق على المصـانع الكبيرة والعمارات الشـامخة اتقـاء لضررها .

ويظهر أنى لو اقتصرت على ما قاله المفسرون مما لا يقيم له العـلم وزنا اليوم لكنت حللت من حضراتهم بمنزلة المحب المكرم .

وحيث أن ما جاءوا به من القول لم يصب شاكلة الصواب ولا يعبأ بهالعلم ولا يعتد به العلماء ، فيكون اعتراضهم لا معول عليـه . وانى أقول لحضراتهم : لم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

أما الملأ المستكبرون من قومه وكانوا ذوى عناد ولهم الزعامة فى الأمة فقد رأوا كبيرا عليهم أن يطيعوا رجلا منهم ويصيروا سوقة مرءوسين ، لأن صالحا سيصير بحكم هدايته اياهم الى الله تعالى رئيسا يفزعون اليه فى كل شأن ، ويكون واسطة بينهم وبين ربهم ودالا لهم على ما يقربهم اليه وناهيا لهم عما يبعدهم عنه ؛ فذهب أولئك السادة الى المستضعفين من قوم صالح وسألوهم متهكمين : (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟) فكان جواب المستضعفين بالايجاب قائلين : (انا بما أرسل به مؤمنون) . فقال المستكبرون : (انا بالذى آمنتم به كافرون) كما قدمنا .

يقول الألوسى فى روح المعانى : وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر كاهنهم . ثم قال : ولم يزالوا فى سعة ورغد ، وكانت الناقة تصيف اذا جاء الحر بظهر الوادى فتهرب منها مواشيهم وتهبط الى بطن الوادى فى حره وجدبه وتشتو فى بطن الوادى فتهرب مواشيهم الى ظهره فى برد وجدب فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذى يريده الله تعالى بهم والبلاء من الاختبار ، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم ، فأجمعوا على عقرها .

وان امرأتين ذواتى مال وابل يقال لاحداهما صدوق عرضت نفسها على رجل يقال له مصدع ان قتل الناقة ، فأجاب . واسم الأخرى عنيزة لها بنات حسان عرضت احدى بناتها على قدار بن سالف فأجاب . واستغويا سبعة رجال فكانوا تسعة ، فأما مصدع فرمى الناقة بالسهم ، وأما قدار فأنحى اليها بسيفه فكشط عن عرقوبها ثم نحرها ، وذهب السبعة وراء سقبها ، ففر منهم الى الجبل ورغا ثلاثا . وعن ابن أسحق أنه تبع السقب أربعة من التسعة فرماه أحدهم بسهم فأصاب قلبه ثم جر برجله فأنزله ووضعوا لحمه على لحم أمه واقتسم أهل البلد لحم الناقة وسقبها ، فأنذرهم صالح بأن العذاب يحل بهم بعد ثلاث لما انتهكوا من حرمة الله ، فكانوا يهزءون منه ويستنجزونه ما أوعدهم به من العذاب . وأنذرهم بأنهم يصبحون وجوههم مصفرة ، وفى اليوم الثانى تكون وجوههم محمرة ، وفى اليوم الثالث تكون وجوههم مسودة : آية هلاكهم ، ثم يصبحهم العذاب اهـ من الألوسى باختصار .

أما أولئك الذين اقترفوا عقر الناقة وأعانوا عليه فقد تقاسموا بالله لنبيتنّ صالحا ويقتلونه وأهله ثم يقولون لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانهم لصادقون فيما يزعمون .

فلما أرادوا تنفيذ عزمهم جاءوا الى صالح يرصدون الفرصة للايقاع به وأهله فأهلكهم الله . قيل : ان الملائكة دمغتهم بالحجارة فأهلكتهم وأراد قومهم قتل صالح لأنهم اتهموه بقتلهم فمنعه قومه .

وقال البيضاوى : روى أنه كان لصالح فى الحجر مسجد فى شعب يصلى فيه — فقالوا — زعم أنه يفرغ منا الى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فذهبوا الى الشعب فوقع عليهم

صخرة حيالهم فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا ثمت ، وهلك الباقون فى أماكنهم بالصيحة ، كما أشار اليه قوله (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم أجمعين) .

وكان تدمير قوم صالح بالصاعقة ، وقد عبر الله تعالى عنها تارة بالرجفة وتارة بالطاغية وتارة بالصيحة . وكلٌ صحيح لأن الصاعقة تكون مصحوبة بصوت عظيم وقد تكون مصحوبة برجفة أشبه بالزلزال ، وقد تكون فى مكان ويطغى تأثيرها حتى يصل الى مكان آخر .

والصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائى يحصل بين كهربائيتين متخالفتين بالايجاب والسلب . فاذا دنا جسم مكهرب كهربائية موجبة من جسم مكهرب كهربائية سالبة اتحدت الكهربائيتان لما بينهما من التعاشق ، فيحصل عن ذلك البرق الشديد ثم الرعد بسبب اضطراب الهواء وتدافع أجزائه فى كل مكان الاستفراغ وذلك هو الصيحة . واذا كان الاستفراغ حصل من دنو سحابة مكهربة كهربائية موجبة من الأرض فحين دنوها تحصل الكهربائية بالتأثر وتتصل الكهربائية السالبة التى فى الأرض بالكهربائية الموجبة التى فى السحابة ، ويكون الاستفراغ أو الاتحاد فى جسم مما على الأرض ، فيصهر اذا كان معدنيا لا سن فيه ، ويحترق اذا كان شجرا أو انسانا ، ويتفتت ان كان صخرا أو بناء . ومبلغ ما تدمره منوط بمقدار كمية الاستفراغ ومبلغ قوة الكهربائيتين ، وعن ذلك تكون الرجفة وهولها .

واذا حصل الاستفراغ بين سحابتين مكهربتين بكهربائيتين متخالفتين بالايجاب والسلب حصل البرق أولا ثم الرعد ثم المطر .

وسبب اختلاف الكهربائيتين فى السحاب أن الجو مكهرب كهربائية موجبة وهو مشحون بها ، والأرض مكهربة كهربائية سالبة . فاذا تكونت السحابة فى مكان مرتفع فى أعالى الجو كانت كهربائيتها موجبة . واذا تكونت فى مكان سافل قرب الأرض كانت كهربائيتها سالبة . فاذا دنت كل من السحابتين الى الأخرى فبمقتضى الناموس المودع فى الكهربائية من ميل كل من الكهربائيتين للاتحاد بالأخرى يكون التفاعل الذى هو الاتحاد — وأما السحابتان اللتان كهربائيتاهما موجبة أو سالبة فان الكهربائية فيهما تميل الى الابتعاد عن الأخرى .

فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق[١] .

أما صالح والذين آمنوا معه فقد نجوا مما حاق بقومهم من العذاب الذى أدركهم بعد ثلاثة أيام من جريمتهم . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين .

ويشبه قوله هذا فى خطابه لقومه بعد هلاكهم ما يكون من الواحد منا اذا هلك له انسان متصل به وقد حذره ذلك السبب الذى هلك به بأن يقول له : ألم أحذرك ما وقعت فيه ؟ —

(١) راجع ما كتب عن ذلك فى النقد والرد بهامش صفحة ٦٠ وما بعدها .

وكذلك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل بدر أصحاب القليب اذ قال لهم « يا فلان بن فلان وفلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا » وقد قالوا ان الله أحياهم حتى أسمعهم . قال العلماء : ومثل هذا انما خص الله به أنبياءه .

وقد قال بعض المفسرين : ان صالحا والذين آمنوا معه ذهبوا بعد هلاك قومهم الى ناحية الرملة من فلسطين . ويقول أهل حضرموت : انهم ذهبوا الى حضرموت وأقاموا بها لأن أصلهم من تلك الناحية . أو هى فصيلة من أهل الأحقاف وهناك قبر يزعمون أنه لصالح .

وقال آخرون : انهم أقاموا فى ديارهم بعد هلاك قومهم وآخرون ، انهم ذهبوا الى مكة وأقاموا بها الى أن ماتوا وقبورهم غربى الكعبة.

وأقرب الأقوال عندى الى التصديق أنهم ذهبوا الى الرملة ونواحى فلسطين لأنها أقرب بلاد الخصب اليهم . والعربى انما يطلب الكلأ لرعى ما شيته والأرض ذات الماء . وفى الألوسى : أن الذين نجوا مع صالح كانوا مائة وعشرين ، أما الهالكون فكانوا أهل خمسة آلاف بيت .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة الأعراف : وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٧٣] وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [٧٤] قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ [٧٥] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [٧٦] فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ [٧٧] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [٧٨] فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ [٧٩]

سورة هود : وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ [٦١] قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا

إِلَيْهِ مُرِيبٍ [٦٢] قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ [٦٣] وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ [٦٤] فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ [٦٥] فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ [٦٦] وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [٦٧] كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ [٦٨]

سورة الحجر وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ [٨٠] وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ [٨١] وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ [٨٢] فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ [٨٣] فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٨٤]

سورة الشعراء : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ [١٤١] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ [١٤٢] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [١٤٣] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [١٤٤] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٤٥] أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ [١٤٦] فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [١٤٧] وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ [١٤٨] وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ [١٤٩] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [١٥٠] وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ [١٥١] الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ [١٥٢] قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [١٥٣] مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [١٥٤] قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [١٥٥] وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ [١٥٦] فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ [١٥٧] فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [١٥٨] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [١٥٩]

سورة النمل وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ [٤٥] قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [٤٦] قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ [٤٧] وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ [٤٨] قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [٤٩] وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [٥٠] فَانْظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [٥١] فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [٥٢] وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [٥٣]

سورة فصلت وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [١٧] وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [١٨]

سورة الذاريات وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ [٤٣] فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ [٤٤] فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ [٤٥]

سورة النجم وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ [٥٠] وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ [٥١]

سورة القمر كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ [٢٣] فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ [٢٤] أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ [٢٥] سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ [٢٦] إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ [٢٧] وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ [٢٨] فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ [٢٩] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ [٣٠] إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ [٣١] وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [٣٢]

سورة الحاقة كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ [٤] فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ [٥]

سورة الشمس كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا [١١] إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا [١٢] فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا [١٣] فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا [١٤] وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا [١٥]

كلمة أخيرة

الذى أقوله : ان صالحا نصح لقومه وذكرهم بآيات الله وأقام لهم من الأدلة على صدقه فى دعوته ما على مثله آمن الناس ، ولكن قومه أبدوا غاية الجحود وقالوا له (فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) وكما قال الله تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) ولا يكون قد هداهم الله الا بأن أقام لهم الأعلام البينة على صدق صالح ، فلما جحدوا بآيات ربهم وعصوا الرسول أرسل الله اليهم الناقة آية ، ولكنها لم تكن آية صدق صالح فى دعواه ولا بد ولكنها آية فتنة وابتلاء كما قال تعالى (انا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر) ولما كانت آية فتنة وابتلاء صح أن تكون آية مقارنة ، لأن الله تعالى قد فرغ من أدلة صدق رسوله صالح . على أنى لا أمنع أن يكون فيها آية أو آيات من وجوه أخرى والله أعلم .

ابراهيم عليه السلام

عدد مرات ذكره في القرآن ـ قصته ـ تبييته الشر للأصنام ـ المحاكمة محاجته للملك ـ مواقفه ـ اخفاقه فى هداية قومه ـ رحلاته ـ رحلته الى مصر ـ دخوله بهاجر ـ ولادة اسماعيل من هاجر ـ الختان

هو ابراهيم خليل الله بن تارحّ بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن آرفكشاذ بن سام بن نوح عليه السلام .

هذا هو نسبه الموجود فى التوراة والتواريخ ..

وقد جاء فى الكتاب الكريم قوله تعالى (واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة) .

اختلف المفسرون فى اسم أبى ابراهيم — فقال بعضهم ان لفظ « آزر » فى الآية بدل من لفظ « أب » فى « أبيه » ويكون مقول القول (أتتخذ أصناما آلهة) الخ وقال آخرون اسمه « تارح » وان لفظ « آزر » كلمة ذم فى لغته ومعناه « أعرج » قاله السهيلى فى التكملة .

وقال آخرون ان معناه الخاطىء والخرف وفى التكملة « يا مخطىء يا خرف » وقيل معناه « يا شيخ » أو هى كلمة زجر عن الباطل « راجع ص ١٢ ج ٣ تاج العروس » .

أقول : بعيد فى نظرى أن يكون ابراهيم عليه السلام قد واجه أباه بكلمات فيها تحقير أو عيب أو زجر كأعرج وخرف ومخطىء لأن والد ابراهيم عليه السلام لما هدده بقوله (أراغب أنت عن آلهتى ياابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) لم يكن له جواب على هـذه الجفوة القاسية وهذا التهديد العنيف الا أن قال لأبيه (سلام عليك سأستغفر لك ربى أنه كان بى حفيا).

وقال آخرون : ان تارح اسمه العلم ، وان آزر وصف له كما قال البيضاوى .

أقول : اذا صح أن والد ابراهيم كان له اسم علمى واسم وصـفى ، يكون معناه القـوى أو الناصر أو المعين ؛ لأن لفظ آزر من الأزر أى القوة والنصر والعون ومنه الوزير أى المعين « تاج العروس ص ١١ ج ٣ » وهى كذلك فى اللغات السامية التى منها لغـة ابراهيم ، ومن ذلك عازر وعزير وعازر فى العبرية . فان هذه المادة تفيد التقوية والنصرة والاعانة فى تلك اللغة كما هى فى اللغة العربية . قال تعالى (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ... الخ) ومعلوم أن العين والهمزة يتعاوران على موضع واحد .

وفى أسماء ملوك الأشوريين « اسرحدون » ولفظا «اسر» و«ازر» فى غاية القرب . وفيهم أيضا « توخلات ابال ازار » وعلى ذلك فلا يبعد عن علماء الفيلولوجيا وعلماء اللغات السامية على الخصوص أن يثبتوا النسب بين هذه الألفاظ فى اللغات السامية .

وقد جاء فى دائرة المعارف الاسلامية ما نصه : « آزر » اسم أبى ابراهيم فى القرآن — سورة الأنعام الآية ٧٤ — ويظهر أن فى هذا بعض الخلط لأن اسم آزر لم يرد مطلقا على أنه أبو ابراهيم فى غير هذا الموضع . كما أن تارح أو تارخ قد ورد فى روايات بعض المؤرخين والمفسرين من المسلمين على أنه أبو ابراهيم أيضا . ولذلك لجئوا الى التحايل للتوفيق بين هاتين الروايتين . ولكن هذا التحايل لا قيمة له .

ويقول مراتشى Prodrani Maracci ، جـ ٤ — ص ٩٠ » ان صيغة آزر نشأت عن قراءة خاطئة Agae التى وردت فى تاريخ الكنيسة ليوز بيوس ؛ الا أنه لم يعين لا هو ولا من نقلوا عنه الفقرة التى ورد فيها هذا الاسم . أضف الى ذلك أن هذا المؤرخ قد ذكر فى مواضع متعددة . ومهما يكن من شيء فان ما ذهب اليه مراتشى بعيد الاحتمال .

ولمعرفة حياة آزر وابنه ابراهيم نحيل القارىء الى مقال « ابراهيم » « جـ ا ص ٢٥ » الذى ذكرنا فيه المصادر الخاصة بهذا الموضوع أيضا ا هـ فنسنك .

وقد علق على هذه النبذة صديقنا الأستاذ الفاضل الشيخ أمين الخولى « مساعد أستاذ بالجامعة المصرية » فى دائرة المعارف الاسلامية بما يأتى :

(١) اطلاق القول بأن آزر اسم أبى ابراهيم فى هذه الآية غير صحيح ، لأن الآية قرئت قراءات مختلفة اختلفت بها معانى كلمة « آزر » باختلاف اعرابها . وفى بعض هذه القراءات يتعين ألا تكون آزر اسما لأبى ابراهيم ، وفى بعضها يحتمل ذلك . واليك طرفا من بيان هذه القراءات والأعاريب :

كتبت الكلمة فى المصحف هكذا « آزر » أتتخذ أصناما .. وقرئت « أأزرا » بالنصب مع التنوين و « آزر » بالنصب بلا تنوين و « آزر » بالضم . ففى القراءة الأولى تفسر الكلمة على أنها عربية بمعنى القوة ، والهمزة الأولى للاستفهام الانكارى ، والمعنى ألأجل القوة تتخذ أصناما ؟ (كقوله تعالى) أيبتغون عندهم العزة النساء . ١٣٩ وان فسرت « آزر » فى هذه القراءة باسم علم لم يقل انه أبو ابراهيم . وعلى قراءة النصب بلا تنوين ، قد تعرب نعتا فلا تكون « آزر » علما بل صفة ، فليست كذلك اسم أبى ابراهيم . وقد تعرب بدلا أو عطف بيان فيحتمل أن تكون اسما له . وعلى قراءة الضم للنداء تحتمل كذلك أنها اسمه فهذه أربعة أوجه نقلت فى تخريج قراءات الآيات — على نظر فى بعضها — يتعين فى اثنين منها ألا يكون « آزر » اسم أبى ابراهيم ويحتمل فى اثنين ؛ فليس من الصنيع العلمى أن يطلق ناقل عن القرآن القول بأن « آزر » اسم أبى ابراهيم .

(٢) مع التسليم بأن أكثر الأوجه التى ذكرها من تصدوا للتوفيق بين آية الأنعام ورواية المؤرخين فى اسم أبى ابراهيم لا تقع عندى موقعا . فانى ألاحظ على كاتب المادة ملاحظتين :

ا — اطلاق القول بأنهم لجئوا الى التحايل للتوفيق . مع أن منهم من جهر برد رواية النسابين وضعف اجماعهم ؛ لأنه اجماع ينتهى الى خبر واحد أو اثنين منهم . فلم يتكلف التوفيق لا فى

تحايل ولا فى غير تحايل . وقد نقل هذا الرأى فى كثير من كتب التفسير المتداولة ، فالاطلاق غير صحيح . وكان الحق أن يقول منهم من وفق أو تصدى للتوفيق ومنهم من رد الرواية التاريخية.

ب — استعمال لفظ الحيلة والتحايل فى وصف عمل المفسرين ، فان هذه الكلمات النازلة والتى يتصدى فيها للحكم الخاطىء على النوايا الخفية ليست من عبارات العلماء الذين ينقدون بل هى من عبارات غيرهم .

٣ — من الانصاف الصادق للعلم أن يعرف القارىء أن مراتشى قسيس ايطالى عاش فى القرن السابع عشر . وأن ترجمته للقرآن لم يسمح بنشرها الا بعد الحاق معارضات القرآن بها ، وقد قدم لها ببحث فى القرآن والاسلام انتهى فيه الى الحكم للمسيحية على الاسلام ثم نشرت هذه الترجمة بعنوان « عقيدة الرسول الكاذب محمد بن عبد الله .. » جازاهم الله بما يستحقون عن الحق والعلم .

وبعد : فانى ألاحظ — دون مجاوزة حدود النقد العلمى النزيه — أن المادة لم يكتب فيها شىء . النقول الاسلامية غير محررة ، وفرض مراتشى مردود . فالواجب الحق فى درس الآية أن نستوفى القول فى كلمة « آزر » أو « أزر » هذه واستعمالها العربى وأصلها اللغوى والتاريخى على نحو علمى عميق نرجو أن تتضافر عليه قوى نزيهة تستجيب على الأقل لقول قدمائنا « ان علم التفسير لم ينضج » ونحن أهل الواجب الأول فى ذلك اهـ كلام الأستاذ أمين الخولى .

أقول : ذهب فريق من المفسرين الى أن « آزر » اسم صنم كان يعبده تارح والد ابراهيم وكان سادنا له .

قال السيد المرتضى الزبيدى فى « ص ١٢ ج ٣ تاج العروس » : وروى عن مجاهد فى قوله تعالى (آزر أتتخذ أصناما) قال لم يكن بأبيه ولكن آزر اسم صنم فموضعه نصب على اضمار الفعل والتلاوة كأنه قال : « واذ قال ابراهيم أتتخذ آزر الها أى أتتخذ أصناما آلهة » .

وقال الصغانى : التقدير أتتخذ آزر الها ، ولم ينتصب « أتتخذ » الذى بعده لأن الاستفهام لا يعمل فيما قبله ولأنه قد استوفى مفعوليه : اهـ .

وقد نقل شيخ العروبة المرحوم أحمد زكى باشا عبارة تاج العروس السابقة فى أول كتابه « تكملة كتاب الأصنام لابن الكلبى » .

وهذا القول الذى قاله مجاهد أولى الأقوال عندى بالقبول . وعلى ذلك يكون والد ابراهيم لم يذكر باسمه العلمى فى القرآن الكريم . ومما يستأنس له بأن « آزر » اسم اله أننا نجد فى الآلهة القديمة عند المصريين الاله « أزوريس » ومعناه الاله القوى المعين . وقد كانت الأمم السالفة يقلد بعضهم بعضا فى أسماء الآلهة .

وهذا جدول مواليد نوح الى ابراهيم على عمود النسب : —

خــام	ولد	من أبيه	نــوح	وهو	ابن	٥٠٠	سنة
أرفكشاذ	«	«	ســام	«	«	١٠٠	«
شــالح	«	«	أرفكشاذ	«	«	١٣٥	«
عــابر	«	«	شــالح	«	«	٣٠	«
فــالج	«	«	عــابر	«	«	٣٤	«
رعــو	«	«	فــالج	«	«	٣٠	«
سروج	«	«	رعــو	«	«	٣٢	«
ناحــور	«	«	سروج	«	«	٣٠	«
تارح	«	«	ناحور	«	«	٢٩	«
ابــرام	«	«	تارح	«	«	٧٠	«
			المجموع			٨٩٠	«

وقد رأيتم الجدول الذى بين عمر كل واحد من نوح وأبنائه على عمود نسب ابراهيم — حين ولد ولده المذكور بعده كما ذكر فى التوراة — ومن جميعها ترون أن بين ولادة ابراهيم وولادة نوح ٨٩٠ سنة . فاذا قلنا بما قالته التوراة من أن عمر نوح كله قبل الطوفان وبعده ٩٥٠ سنة كان ابراهيم قد عاصر نوحا ستين سنة .

وفى اعتقادى أن اليهود فى العصور الأولى دونوا ما كانوا يسمعونه من الحكايات بدون ضبط ولا مراعاة للأزمان .

جاء فى دائرة المعارف الاسلامية « ص ٢٧ من المجلد الأول » ما يأتى نقلا عن فنسنك : —

كان شبرنجر « جـ ٢ ص ٢٧٦ وما بعدها » أول من لاحظ أن شخصية ابراهيم — كما فى القرآن — مرت بأطوار قبل أن تصبح فى نهاية الأمر مؤسسة للكعبة .

وجاء سنوك هجرونييه « ص ٢٠ وما بعدها » بعد ذلك بزمن فتوسع فى بسط هذه الدعوى فقال : ان ابراهيم فى أقدم ما نزل من الوحى « الذاريات آية ٧٤ وما بعدها . الحجر آية ٥٠ وما بعدها . الصافات آية ٨٢ وما بعدها . الانعام آية ٧٤ وما بعدها . هود آية ٧٢ وما بعدها مريم آية ٤٢ وما بعدها . الأنبياء آية ٥٢ وما بعدها . العنكبوت آية ١٥ وما بعدها » هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل . ولم تذكر لاسماعيل صلة به والى جانب هذا يشار الى أن الله لم يرسل من قبل الى العرب نذيرا « السجدة آية ٢ . سبأ آية ٤٣ . يس آية ٦ » ولم يذكر قط أن ابراهيم هو واضع البيت . ولا أنه أول المسلمين .

أما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك فابراهيم يدعى حنيفا مسلما وهو واضع ملة ابراهيم . ورفع مع اسماعيل قواعد بيتها المحرم — الكعبة — « البقرة آية ١١٨ وما بعدها . آل عمران آية ٦٠ ، ٨٤ .. الخ » وسر هــذا الاختلاف أن محمدا كان قد اعتمد على اليهــود فى مكة ، فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء ؛ فلم يكن له بد من أن يلتمس غيرهــم ناصرا هناك هداه ذكاء مسدد الى شأن جديد لأبى العرب « ابراهيم » وبذلك اســتطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية ابراهيم تلك اليهودية التى كانت ممهدة للاسلام . ولمــا أخــذت مكة تشغل جل تفكير الرســول أصبح ابراهيم أيضــا المشيد لبيت هــذه المدينــة المقدس اهـ فنسنك .

(١) والذى أقوله : ان هجرونيه وفنسنك كغيرهما من أكثر المستشرفين الذين نصبوا أنفسهم لحرب الاســلام والصاق النقص به والعيب على القــرآن الكريم وســتر محاســنه ليظهروه بمظهر لا يمتاز عن كتب النصــارى المقدســة ؛ فهم كما قال الله تعالى (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) .

فالذى يعزوه كل من هجرونييه وفنسنك — ومن على شاكلتهما — أن يقولوا ان الاسلام فى مكة غير الاسلام فى المدينة بالنسبة لابراهيم عليه السلام .

فان ابراهيم فى مكة أو فى القرآن المكى لم تكن له صلة بالعرب فليس أبا لهم ، ولم يكن بانى البيت ، ولا صلة له باسماعيل ولا بالعرب .

(٢) أن النبى لما جاء الى المدينة كان يحمــل أكبر الآمال فى أن يؤمن به اليهود ويظاهروه على أمره . فلما أخلفوه ما أمله وكذبوه أراد أن يتصل بهم عن طريق ابراهيم ، وعبر عن ذلك بـ « يهودية ابراهيم » وهم فى ذلك كله على ضلال مبين .

(أما عن الأول) فقد أخطأ خطأ ظاهرا . فانى ألاحظ أن المستشرق فنســنك يقول : لم تذكر فى السور المكية أية صلة لاسماعيل بابراهيم . وذلك ترويجا لفكرته التى يريد أن يصل اليها وهى : أن محمدا ظل بعيدا عن صلة العرب بابراهيم واسماعيل الى أن هاجر الى المدينة ، فبدت له فكرة هى أن يصل حبل العرب الذين هو منهم باليهود عن طريق اسماعيل وابراهيم ، مع أنه لا صلة بينهم وبين ابراهيم واسماعيل . وهذه الفكرة تهدم التوراة قبل أن تهدم القرآن لأنها ذكرت صلة ابراهيم باسماعيل وأنه جدّ عدة قبائل فى بلاد العرب . وحين عد السور المكية عمد الى التى يذكر فيها ابراهيم مجرّدا عن الصلة باسماعيل والعرب ؛ لذلك تخطى سورة ابراهيم وهى مكية وقد شهدت بعكس ما يقول ، وآياتها شاهدة بأن ابراهيم واسماعيل بنيا البيت ، وانهما كانا يدعوان الله تعالى بالهــداية وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام . وابراهيم يذكر أنه أسكن من ذريته بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، ويدعو الله أن يرزقهم من الثمرات ، ويحمد الله أن وهب له اسماعيل واسحق . واقرءوا قوله تعالى فى سورة ابراهيم .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [٣٥]
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٦]
رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ
أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ [٣٧] رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي
وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ [٣٨] الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي
عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ [٣٩] رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي
رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ [٤٠] رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ [٤١]

ولا يمكن أن يمر بخاطرى أنه لم يعرف هذه الآيات ولم يلتفت اليها ؛ بل أكبر اعتقادى أنه تخطاها عمدا غاضا النظر عما تقضى به الأمانة فى سبيل تأييد نظريته .

(وأما عن الأمر الثانى) فان النبى ما أمل أن يعتز باليهود ، ولكن لما كانوا أهل توحيد ويجانبون الأصنام ويعادون أهلها ، والنبى له ذكر عندهم فى كتبهم لم تزل آثاره الى اليوم ناطقة تنادى عليهم بأنهم يكتمون ما أنزل الله — كان يتوقع أن يؤمنوا فلما جحدوا كانوا عنده بمثابة غيرهم فقط . ومعلوم أن القرآن يرفض أن يكون ابراهيم يهوديا لأن اليهود هم أبناء اسرائيل . واسرائيل انما هو ولد اسحق بن ابراهيم ، وغريب أن يكون المتقدم معزوا وتابعا لولد ولده الذى لم يره ولم يعاصره (ما كان ابراهيم يهوديا) سورة آل عمران .

بقى أمر ثالث يعزوه هؤلاء المستشرقون : وهو أنهم ينكرون أن يكون ابراهيم أو اسماعيل رسولا الى العرب مستندين الى قوله تعالى (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) وأشباهها اذ لو كان ابراهيم قد دعا العرب الى دينه أو اسماعيل قد دعا العرب الى دين ابراهيم لما صح ذلك القول .

والجواب على هذا : أن المفسرين يقولون ان معنى ذلك أن الموجودين من هؤلاء القوم لم يباشرهم رسول يبلغهم دين الله ويهديهم الى الدين الحق — فلا تناقض — لأن تبليغ اسماعيل أو ابراهيم انما كان لآبائهم .

أما أنا فأجيب بأن العرب كان دين كثير منهم عبادة الأوثان وكان لهم قرابين يقدمونها اليها ، وقد سيبوا السوائب وبحروا البحائر ووصلوا الوصيلة ، وسنوا لهم قواعد ما أنزل الله بها من سلطان . فجاء محمد لينذر هؤلاء القوم الذين يدعون أنهم على دين وأن الله قد أمرهم بما هم عليه مع أن الله ما أرسل اليهم نذيرا شرع لهم هذه الشرائع الباطلة ، لأنهم كانوا

اذا ظلموا أنفسهم بشرائعهم الباطلة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . وقد ناقشهم الله فى ذلك وردّ عليهم فى غير موضع من القرآن كقوله (ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) .

ففى سورة الصافات بعد أن ذكر دعاوى الوثنيين بقوله (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون . ألا انهم من افكهم ليقولون : ولد الله وانهم لكاذبون اصطفى البنات على البنين . ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون) ففى هذه الآيات من الأنباء عن السخط العظيم والانكار الفظيع لأقاويلهم والتضعيف لعقولهم واتهامهم مع استهزاء بهم . وفى قوله (فأتوا بكتابكم) أى الناطق بصحة دعواكم والأمر فيه للتعجيز واضافة الكتاب اليهم للتهكم .

وفى قوله (أم لكم سلطان مبين) اضراب انتقالى من توبيخهم بما ذكر بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود أصلا أى بل ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لابد له من سند حسى أو عقلى وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلى وهو لا يوجد عندهم .

فالمعنى فى هذه الآيات مثله فى قوله تعالى فى سورة الأحقاف (أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ايتونى بكتاب) تبكيت لهم بتعجيزهم عن الاتيان بسند نقلى بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الاتيان بسند عقلى ، فهو من جملة القول أى ائتونى بكتاب الهى كان (من قبل هذا) الكتاب أى القرآن الناطق بالتوحيد وابطال الشرك دال على صحة دينكم (أو أثارة من علم) أى بقية من علم بقيت عندكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم العبادة ، وهكذا كل آية وردت فى المعنى .

وتدل العبارة التى نقلها « فنسنك » عن « هجرونييه » بفحواها على أن ابراهيم لم يذكر بأنه حنيف الا فى السور المدنية ، وهو خطأ أيضا ؛ لأنه ذكر بأنه كان حنيفا فى سورة الانعام مرتين وفى سورة النحل كذلك وهما مكيتان .

سورة الأنعام مكية إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [٧٩]

وقوله تعالى : قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [١٦١]

سورة النحل مكية إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [١٢٠] شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [١٢١] وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [١٢٢] ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [١٢٣]

من ذلك كله يتبين القارىء المنصف فساد ما يقوله المستشرقون غير المنصفين .

وهاكم بيان السور والآيات التى ذكر فيها اسم « ابراهيم » فى القرآن :

	السورة	رقمها	أرقام الآيات
١	البقرة	٢	١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ٢٥٨، ٢٦٠
٢	آل عمران	٣	٣٣، ٣٥، ٦٧، ٦٨، ٨٤، ٩٥، ٩٧
٣	النساء	٤	٥٤، ١٢٥، ١٦٣
٤	الأنعام	٦	٧٤، ٧٥، ٨٣، ١٥١
٥	التوبة	٩	٧٠، ١١٤
٦	هـــود	١١	٦٩، ٧٤، ٧٥، ٧٦
٧	يوسف	١٢	٦، ٣٨
٨	إبراهيم	١٤	٣٦
٩	الحجر	١٥	٥١
١٠	النحل	١٦	١٢٠، ١٢٣
١١	مريم	١٩	٤١، ٤٦، ٥٨
١٢	الأنبياء	٢١	٥١، ٦٠، ٦٢، ٦٩
١٣	الحج	٢٢	٢٦، ٤٣، ٧٨
١٤	الشعراء	٢٦	٦٩
١٥	العنكبوت	٢٩	١٦، ٣١
١٦	الأحزاب	٣٣	٧
١٧	الصافات	٣٧	٨٣، ١٠٤، ١٠٩
١٨	ص	٣٨	٤٥
١٩	الشورى	٤٢	١٣
٢٠	الزخرف	٤٣	٢٦
٢١	الذاريات	٥١	٢٤
٢٢	النجم	٥٣	٣٧
٢٣	الحديد	٥٧	٢٦
٢٤	الممتحنة	٦٠	٤
٢٥	الأعلى	٨٧	١٩

واعلموا أن قصة ابراهيم ترتبط بها قصص أخرى كقصة لوط ؛ لأن ابراهيم ولوطا كانا متعاصرين ، ولوطا ابن أخ لابراهيم . قد آمن لوط بعمه ابراهيم كما قال تعـالى (فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى) واسماعيل كذلك رزق به ابراهيم وهو ابن ست وثمانين سنة [1] .

(١) على ما فى الآية ١٦ من الاصحاح ١٦ — تكوين .

وقد عاش ابراهيم مائة وخمسا وسبعين سنة (١) .

فيكون اسماعيل قد عاصر ابراهيم تسعا وثمانين سنة ، واسحق ولد لابراهيم وهو ابن مائة سنة ؛ فيكون قد عاصر أباه خمسا وسبعين سنة(٢) .

أما لوط فقد ذكر فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة .

وهاكم أرقام الآيات فى السور التى ذكر فيها :

السورة	رقمها	أرقام الآيات
الأنعام	٦	٨٦
الأعراف	٧	٨٠
هـــود	١١	٧٠، ٧٤، ٧٧، ٨٢ . ٨٩
الحجر	١٥	٥٧؛ ٥٨
الأنبياء	٢١	٧١، ٧٤
الحج	٢٢	٤٣
الشعراء	٢٦	١٦٠، ١٦١، ١٦٧
النمـــل	٢٧	٥٤، ٥٦
العنكبوت	٢٩	٢٦، ٢٨ . ٣٢ . ٣٣
الصافات	٣٧	١٣٣
ص	٣٨	١٣
ق	٥٠	١٢
القمر	٥٤	٣٢، ٣٤
التحريم	٦٦	١٠

اسحق ذكر ست عشرة مرة فى القرآن الكريم . واليكم أرقام الآيات فى السور التىذكر فيها:

السورة	رقمها	أرقام الآيات
البقرة	٢	١٣٣، ١٣٦، ١٤٠
آل عمران	٣	٨٤
النساء	٤	١٦٣
الأنعام	٦	٨٦
إبراهيم	١٤	٣٩
مريم	١٩	٥٤
الأنبياء	٢١	٨٥
ص	٣٨	٤٨

وذكرت قصة ابراهيم فى عدة مواضع من القرآن . تارة باختصار ، وتارة بالتطويل ، وتارة

(١) كما فى الآية السابعة من الاصحاح الخامس والعشرين — تكوين .
(٢) راجعوا آية ٥ من الاصحاح الحادى والعشرين — تكوين .

بذكر شأن من شؤونه فى سورة ، ثم شأن آخر من شؤونه فى سورة أخرى . ومثل ذلك فى شأن لوط واسماعيل .

قصة إبراهيم

تتلخص فى أنه كان فتى من أهل « فدان آرام » بالعراق [1] وكان قومه أهل أوثان . وكان أبوه نجارا ينحت الأصنام ويبيعها ممن يعبدها — كما نص على ذلك فى انجيل برنابا — وأن ابراهيم كان قد أنار الله بصيرته وهداه الى الرشد ؛ فعلم أن الأصنام لا تسمع ولا تبصر ، ولا تسمع نداء ولا تجيب دعاء ، ولا تضر ولا تنفع ، وأنها لاتباين بنات صنفها من سائر الخشب ، وأن أباه هو الذى يصنعها .

اقرءوا قوله تعالى فى سورة الأنبياء :

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ [٥١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ [٥٢] قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ [٥٣] قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [٥٤] قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ [٥٥] قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ [٥٦]

تبييت إبراهيم الشر للأصنام

وأن ابراهيم نوى الشر فى نفسه لهذه الآلهة التى جمدوا على عبادتها ولم تفدهم موعظة ولا برهان عن الغواية بها ، فأقسم فى نفسه أن يلحق بها الأذى .

وهذه طريقة أراد بها أن يفهم القوم مركز آلهتهم . ويقيم لهم الحجة عملا على أنها لايمكن أن تلحق بهم أذى اذا تركوا عبادتها ، أو تكسبهم خيرا اذا عبدوها ؛ لأن البرهان العملى أوقع فى النفس وأرجى أن يحرز القبول .

فقال فى نفسه :

سورة الأنبياء : وَتَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ [٥٧] فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ [٥٨] قَالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ [٥٩] قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ [٦٠]

(١) كما فى التوراة :

المحـــاكمة

سورة الأنبياء : قالوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ [٦١] قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ [٦٢] قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ [٦٣] فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ [٦٤] ثُمَّ نُكِسُـوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَـــدْ عَلِمْتَ مَا هٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ [٦٥]

حينئذ ظهرت حجة ابراهيم واضحة . ورأى الفرصة سانحة لالزامهم الحجة . قال :

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ [٦٦] أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [٦٧]

فلما أعيتهم الحيلة فيه ووجدت موعظته منهم قلوبا غلفا وآذانا صما ، عمدوا الى ما يلجأ اليه القوى الجبار الذى لا حق معـه بازاء المحق الضعيف .

سورة الأنبياء قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [٦٨] قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ [٦٩] وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ [٧٠] وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ [٧١] وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ [٧٢]

وتوجد طريقة أخرى فى احتجاج ابراهيم لدينه وتزييف دين قومه أتى بها على سبيل التدرج فى الالزام . ويرى فريق من الناس أنها تدرج فى تكوين العقيدة . ذلك أن القوم كانوا يعبدون الأصنام. ينحتونها على أسماء الكواكب كالشمس والقمر ونحوهما . فأراد أن يلزمهم أن الكواكب والشمس والقمر لا تصلح لأن تكون آلهة . وانما الاله هو الذى خلقهن وخلق السموات والأرض . وبيده ملكوت كل ما فيهما . وأن التماس الصحة والعافية والرزق من غيره تعالى باطل .

اقرءوا قوله تعالى فى سورة الأنعام :

وَإِذْ قَالَ ابْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ [٧٤] وَكَذٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ [٧٥] فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ [٧٦] فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ [٧٧] فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ

هٰذَا رَبِّى هٰــذَا أَكْبَرُ فَلَمَّــا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّــا تُشْرِكُونَ [٧٨] إِنِى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [٧٩] وَحَاجَّهُ قَوْمُــهُ (أى خوفوه سطوة آلهتهم) قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَــذَكَّرُونَ [٨٠] وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْــكُمْ سُلْطَانًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٨١] الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [٨٢] وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَــكِيمٌ عَلِيمٌ [٨٣]

وهناك رأى آخر : وهو أنه حين التفت الى النظر فى المعبودات لم ترقه الأصنام فظن النجم هو الاله فلما أفل لم يعجبه فانتقل الى القمر ، فلما أفل انتقل الى الشمس ، فلما أفلت علم أن الاله سوى هذه كلها . وقد قصها برنابا فى انجيله نقلا عن المسيح عليه السلام .

اقرءوا قصة ابراهيم كاملة فى الآية ٢٥ من الفصل ٢٣ الى آخر ٢٥ من برنابا .

محاجة إبراهيم للملك

تشعرنا قصة ابراهيم المحكية فى القرآن أن هؤلاء القوم كانوا يعبدون ملوكهم مع آلهتهم . يدل على ذلك المحاجة التى كانت بين ابراهيم وبين الملك فأحب الملك أن يرجع ابراهيم عن نحلته الجديدة المخالفة لنحلة قومه وأن يعبده وآلهتــه .

وقد قص الله ذلك فى قوله تعالى فى سورة البقرة (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [٢٥٨]

تعدد مواقف إبراهيم

وقد كانت مواقف ابراهيم مع قومه متعددة ، فتارة يحاج والده وتارة يحاج الجمهور ، وتارة يحاج الملك ، وتارة يفعل ما يستفزهم به الى محاجته كتكسير الأصنام ليكلموه فى شأنهــا الى أن أوقدوا النار لتحريقه ، فنجاته منها بعــد أن ألقى فيها ، فهجرته . انظروا الى قوله تعالى فى سورة الصافات :

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ [٨٣] إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [٨٤] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ [٨٥] أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ [٨٦] فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٨٧] فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ [٨٨] فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ [٨٩] فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ [٩٠] فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ [٩١] مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ [٩٢] فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ [٩٣] فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ [٩٤] قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ [٩٥] وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [٩٦] قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ [٩٧] فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ [٩٨] وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ [٩٩]

وهذه الآيات أيضا تدل على أنهم كانوا يأتون بالطعام الى آلهتهم ولعل السدنة كانوا يأخذونه ويوهمونهم أن آلهتهم رضيت عنهم فأكلت طعامهم .

اقرءوا قوله تعالى فى سورة الشعراء :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ [٦٩] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ [٧٠] قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ [٧١] قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ [٧٢] أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ [٧٣] قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [٧٤] قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ [٧٥] أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ [٧٦] فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ [٧٧] الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [٧٨] وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ [٧٩] وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ [٨٠] وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ [٨١] وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ [٨٢] رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [٨٣] وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [٨٤] وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ [٨٥] وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ [٨٦] وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ [٨٧] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ [٨٨] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [٨٩]

قصة ابراهيم فى القرآن تدل على أنه كان حليما رقيق القلب عطوفا رءوفا بارا بوالده مع قسوته عليه . وأنه كلما باعد والده بينه وبينه تلطف هو فى المقاربة وترفق فى دعوته وهدايته وتحذيره . ولكن ذلك كله لم يفد لغلبة الشقاء عليه .

سورة مريم : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا [٤١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا [٤٢] يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا [٤٣] يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا [٤٤] يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا [٤٥] قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا [٤٦] قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا [٤٧] وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا [٤٨]

إخفاق إبراهيم فى هداية قومه

ان ابراهيم صلوات الله عليه بعد أن جهد الجهد كله فى سبيل هداية قومه وبعد أن حاول أن يقنعهم بكل وسائل الاقناع ؛ لم يحل من قومه بطائل . وجفاه قومه وألقوه فى النار فجعلها الله تعالى بردا وسلاما عليه . وهدده أبوه بأن يرجمه اذا استمر على جحد الأصنام . ولم يؤمن له من قومه سوى زوجه سارة ولوط بن هاران بن تارح .

رحلته إلى أور الكلدانيين ثم حاران أو « حران »

تبرأ ابراهيم من أبيه . ولم يطب له المقام بين أهله وقومه . فذهب الى أور الكلدانيين (١) ثم حاران . وكان ابراهيم قد ظفر من أبيه بعدة : هى أنه سيؤمن به فاستغفر الله له . ولكنه علم بعد ذلك أنه مقيم على دين قومه فتبرأ ابراهيم منه .

يدل على ذلك قوله تعالى فى سورة التوبة (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبراهيم لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)[١١٤]

رحلته إلى فلسطين

رحل ابراهيم بعد ذلك الى فلسطين غريبا ومعه زوجه سارة وابن أخيه لوط ، ومع لوط زوجه كما قال تعالى فى سورة العنكبوت :

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٢٦]

---

(١) مدينة كانت قرب الشاطىء الغربى للفرات .

وقد ورد أن عثمان لما هاجر بزوجه رقية بنت رسول الله الى الحبشة قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان عثمان أول مهاجر بأهله بعد لوط »وسكن ابراهيم ولوط فى تلك الأنحاء وكانت أرض الكنعانيين . وأقام فى « شكيم » وهى مدينة « نابلس » ولكنه لم يطل به المقام ؛ بل كان ينتقل نحو الجنوب كما تدل على ذلك عبارات التوراة فى رحلتيه الى مصر ثم الى أرض أبى مالك .

رحلته إلى مصر

حدث جدب فى الأرض فانتقل ابراهيم الى مصر وذلك فى عهد ملوك الرعاة وهم العماليق ويسميهم الرومان « هكسوس » فأظهر أن التى معه أخته . وأراد الملك أخذها زوجة له فأرى فى نومه أنها ذات بعل فعاتب ابراهيم وأعطاه أموالا وماشية وجوارى وعبيدا ، وعاد ابراهيم كما بدأ وأنا أستبعد ما نصته التوراه فى ذلك[1] وأحــذر كل مؤمن أن يصدق ما جاء بها من

---

(١) نقد اللجنــة (الموضوع الثامن)

(قصة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام والسيدة سارة زوجته مع الجبار) .

قال فى صفحة ٦٣ « رحلته الى مصر » : —

حدث جدب فى الأرض فانتقل ابراهيم الى مصر وذلك فى عهد ملوك الرعاة وهم العماليق ويسميهم الرومان « هكسوس » فأظهر أن التى معه أخته وأراد الملك أخذها زوجة له ، فأرى فى منامه أنها ذات بعل فعاتب ابراهيم وأعطاه أموالا وماشية وجوارى وعبيدا ، وعاد ابراهيم كما بدأ ، وكان لوط مع ابراهيم ... الخ ، ثم قال : يراجع الاصحاحات ١٢ و ١٣ — تكوين .

وقال فى صفحة ٧٥ ما نصه « مسألتان » — أى من الطبعة الأولى —

الأولى : ان كان صحيحا ما جاء فى عبارة التوراة من أن ابراهيم اتفق مع سارة على أن يقول « انها أختى وتقول هى انه أخى » وكانا أخوين حقيقة يكون ذلك قبل تشريع تحريم الأخت على أخيها ، وهذا هو الذى أميل اليه ، وحينئذ لاحاجة الى قول (أنهــا أختـــه فى الدين) لأن أولئك المتأولين ما دعاهم الى التأويل الا اعتقادهم أن الشريعة التى كان عليها ابراهيم كانت كشريعة موسى صلى الله عليه وسلم من تحريم الأقارب دينا كالأخت والعمة ، ثم أيد ذلك بأن موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب — اسرائيل الله — كان متزوجا عمته كما فى الاصحاح ٢٦ من سفر العدد .

وقال فى صفحة ٤٩١ ما نصه « تنبيهات » الى أن قال : —

الثانى : قدمنا ما ذكرته التوراة من أن ابراهيم حين تغرب فى مصر قال عن سارة أنها أخته ، فأخذها الملك وقبل أن يقربها ضــويق فى منامه بسببها ، وأنه عاتب ابراهيم لأنه قال انها أختى ولم يقل هى زوجتى ، وفعلا مثل ذلك مع أبى مالك (ملك جرار) واشتد فى عتاب ابراهيم .

وقد تأملت فى المسألتين فوجدتهما بعيدتى الحصول ، لأن سارة ذهبت الى مصر مع ابراهيم وسنها نحو سبعين سنة ، ومن كانت فى مثل تلك السن لا يطمع فيها طامع ، وعندما كانا فى جرار كانت سنها تسعين سنة ، وقبل ذلك بسنة قد قالت عن نفسها « عجوز عقيم » وقالت (أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا) وبعيد فى مجرى العادة أن يطمع ملك مترف فى بنت تسعين !

(رأى اللجنة)

هذا ما ذكره فى هذه القصة . وقد اعتمد فى بيانها على التوراة ، واستبعد حصولها من أجل أن سارة كانت سنها اذ ذاك نحو سبعين سنة، ومثلها لا يطمع فيها طامع ، وقرر أنه يميل — على فرض صحة هذه القصة — الى أن قول ابراهيم (أنها أختى) محمول على الحقيقة ، فانهما كانا أخوين حقيقة ، وكان زواج الأخت جائزا إذ ذاك فلا داعى الى التأويل بأنها أخته فى الاسلام . =

ذلك فانها توهم أن ابراهيم كان يستغل وضاءة وجه زوجته وجمالها « ان كانت فى ذلك الوقت

= وأنا نلاحظ عليه اعتماده فى هذه القصة على التوراة مع أنهـــا ذكرت ووردت فى الأحاديث الصحيحة بسياق مخالف لسياق التوراة ، وهذه الأحاديث تثبت وقوعها وتدل على خطأ ما رواه ومال اليه من أن سارة كانت أخت ابراهيـــم حقيقة ٠

وقبل أن نورد تلك الأحاديث ونبين من خرجها من أئمـــة الحديث – رأينـــا أن نبدى ما لحقنا من الدهشة لعدم الاشارة لتلك الأحاديث المتعلقة بهذه القصة فى مثل هذا الكتاب الذى يدرس لعلماء التخصص فى فرق الوعظ والارشاد – ولذلك أخذنا نتلمس الحكمة فى تركه الاشارة لتلك الأحاديث ونطلب المعاذير فاجتمع لدينا احتمالات أربعة نذكرها ونبدى رأينا فى كل احتمال منها٠

الأول أنه لم يقف عـــلى تلك الأحاديث التى وردت فى هذه القصة ٠ ونرى أنه احتمال بعيد، اذ يستبعد جدا من أستاذ فاضل متخصص فى التاريخ نصب نفسه لتأليف كتاب فى قصص الأنبياء ليدرس للعلماء المتخصصين فى الوعظ والارشاد ألا يقف على تلك الأحاديث ، خصوصا وأنه جعل صحيح البخارى من الكتب التى رجع اليها وقت التأليف وهى مذكورة فيه ، وأيضـا فان كتب التـــاريخ المشهورة كتاريخ ابن الأثير ، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير ، ذكرت هـــذه القصة على نحو ما وردت به الأحاديث ، بل صرح ابن كثير بالنقل عن البخارى ٠ وأيضا قد استدل المؤلف نفســـه بحديث الشفاعة فى قصة نوح ٠

الثانى أنه وقف على تلك الأحاديث ورأى فيها مطعنا أخرجها عن دائرة الاحتجاج بها فى الحوادث التاريخية ، وهو بعيد أيضا ، لأنه لو كان كذلك لذكرها ونبه على ضعفها ، وكان ذلك خـيرا من اعتماده على التوراة المعلوم أمرها من حيث القبول والرد ، وأفيد من الوجهة العلمية ٠

الثالث أنه وقف على تلك الأحاديث ولم يعلم فيها مطعنا ، ولكنـــه يرى أن الأحاديث – وان صحت لا تصح مصدرا للحوادث التاريخية ٠ وهذا الاحتمال لا يتصور أن يصـــدر من مثل فضيلة الأستاذ بل لا يصح أن يصدر من مسلم ٠

الرابع أنه يعلم تلك الأحاديث ويعلم أنه لا مطعن فيها ، ويعتقد أن الأحاديث الصحيحة أهم مصدر بعد كتاب الله للحوادث التاريخية ؛ الا أنه حين تدوينه لهذه القصة سها عن تلك الأحاديث، وهذا الاحتمال هـــو الذى نميل اليه والله أعلم بحقيقة الحال ٠

وانا نورد تلك الأحاديث ونبين من خرجها :

الأول عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لم يكذب ابراهيم النبى عليه السلام قط الا ثلاث كذبات ثنتين فى ذات الله : قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة فى شأن سارة فانه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها : ان هذا الجبار ان يعلم أنك امراتى يغلبنى عليك فان سألك فأخبريه أنك أختى فانك أختى فى الاســـلام فانى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرك وغيرى ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون الا لك فأرسل اليها فأتى بها فقام ابراهيم عليه السلام الى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده اليها فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها أدعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين فقال أدعى الله أن يطلق يدى فلك الله أن لا أضرك ففعلت فأطلقت يده ودعا الذى جاء بها فقال له انك انمـا أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بانسان فأخرجها من أرضى وأعطها هاجر « قال » فأقبلت تمشى فلما رآها ابراهيم عليه السلام انصرف فقال لها مهيم فقالت خيرا كف الله يد الفاجر واخدم خادما » قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بنى ماء السماء ٠

هـــذا الحديث أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبيـــاء من طريقين : مرفوعا وموقوفا ٠ وقال الحافظ ابن حجر : ان ابن سيرين كان غالبـــا لايصرح برفع كثير من حديثه ٠

وأخرجه أيضا مرفوعا من طريقين فى كتاب النكاح ٠ وأخرجه أيضا من طريق فى كتاب البيع٠ وأخرجه مسلم فى الفضائل مرفوعا ٠ واللفظ الذى ذكرناه له ٠ وأخرجه أحمد بسياق مخصوص ٠ قال الحافظ بن كثير: وقال ابن حاتم حدثنا أبى حد ثنا سفيان عن على بن زيد بن جدعان عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كلمات ابراهيم الثلاث ٠٠٠ الخ ٠ =

على حال جمال » استغلالا شائنا معيبا . فهي تذكر أنه اتفق معها على أن تقول انه أخي وهو

= **الثاني** حديث الشفاعة في فصل القضاء يوم القيامة : هو حديث طويل يتضمن أن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحدا بعد واحد يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم . وفيه « أنه حينما يأتون ابراهيم عليه السلام يطلبون منه ذلك يقول لست هناكم اني كذبت ثلاث كذبات : قوله اني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لامرأته أخبريه أني أخوك »

أخرج هـذا الحديث البخاري من عدة طرق في أبواب متعددة – أخرجه في تفسير سورة البقرة عن أنس ، وفي تفسير سورة بني اسرائيل عن أبي هريرة ، وفي كتاب الرقاق عن أنس ، وفي التوحيد عن أنس من طريقين . وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة . ورواه أحمد عن أنس من طريقين ، وعن ابن عباس من طريقين ، وأخرجه ابن خزيمة عن أنس . وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود . والطبراني من حديث عبادة بن الصامت . وأخرجه ابن أبي شيبة من حديث سلمان الفارسي . وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة . وأخرجه أبو عوانة من رواية حذيفة عن أبي بكر الصديق .

ثم أنه روى مطولا ومختصرا ، فان في بعضها الاختصار على القول بأن كل رسول يذكر خطيئته ، وفي بعضها التصريح بالخطيئة بأن يقول ابراهيم كذبت ثلاث كذبات وفي بعضها يبين الكذبات الثلاث كما ذكرناه أولا ، وفي بعضها زيادة قول النبي صلى الله عليه وسلم « ما منها كذبة الا ماحل بهـا عن دين الله » وماحل : كجادل ، وزنا ومعنى .

هذا ما وقفنا عليـه من الأحاديث الصحيحة المثبتة للقصة ، والدالة بصريح العبـارة على أن سارة لم تكن أخت ابراهيم حقيقة . وهي كما ترى تكاد تكون القدر المشترك المثبت لأصل القصة والدال على أن سارة لم تكن أخت ابراهيم عليه السلام حقيقة يكون متواترا ، فلسنا في حاجة الى أن ندعي كما ادعى ابن الصلاح من أن ما اتفق عليه البخاري ومسلم قطعي الثبوت لتلقي الأمة لكتابيهما بالقبول ، خصوصا وأن الأكثرين لم يوافقوه على دعوى القطعية . والمحققون منهم فصلوا تفصيلا حسنا يعلم من محله ولا حاجة لنا في بيانه .

بل نحن تنزلنا الى أبعد حد ممكن ، فراجعنا الأحاديث التي انتقدت على البخاري من قبل بعض الحفاظ كحافظ عصره الدارقطني – على الرغم من الاجابة عن معظمها – فلم نجد هذه الأحاديث التي ذكرناها لاثبات هذه القصة من ضمن الأحاديث المنتقدة ، فلم يبق شك في صحتها ولا مجال للطعن فيها .

لا يقال ان في هذه الأحاديث نسبة الكذب الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد قرر علماء التوحيد : أن ما ورد وفيه نسبة المعصية الى نبي من الأنبياء – فان كان مقطوعا به وجب تأويله ، وان كان منقولا بآحاد وجب رده . وقال الامام الرازي في تفسيره في شأن الحديثين اللذين ذكرناهما ما نصه : فلأن يضاف الكذب الى الرواة أولى من أن يضاف الى الأنبياء .

لأنا نقول هذا من قبيل المعاريض ، وهو نوع من البديع . وابراهيم عليه السلام قد صرح بذلك اذ قال « فانك أختي في الاسلام » وحينئذ فليس فيه نسبة الكذب حقيقة اليه . وأما كلام الامام الرازي فمردود ، وقد رد عليه العلماء وخطأوه وأثبتوا صحة الأحاديث ، وهو نفسـه قال : فان صح فهو محمول على المعاريض .

ومن راجع ما سبق لنا من بيان من خرج هذه الأحاديث قطع بصـحتها ، بل تواتر القدر المشترك فيها والله أعلم .

ولا يقال : اذا كان الصادر من ابراهيم عليه السلام ومن غيره من باقي الرسل المذكورين في حديث الشفاعة ليس بخطيئة ، فلم امتنعوا من الاقدام على الشفاعة وأظهروا حالة الخوف من الله تعالى لصدور ما ذكروه عنهم ؟ لأنا نقول : لأن ما صدر عنهم وان لم يكن خطيئة في الواقع فهـو صورة خطيئة . وعدم صدوره بالنسبة لمقام الأنبياء أولى من صدوره « من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين » فلم يروا في أنفسهم بالنسبة الى ذلك أهليـة الشفاعة العظمى التي هي من خصائص سيد الخلق على الاطلاق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

أما ما ذكره في وجه الاستبعاد من أن سن سارة اذ ذاك كانت سبعين ، فلم يثبت ذلك من طريق صحيح . وانما الثابت قطعا أنها قالت حينما بشر ابراهيـم عليـه السـلام باسحاق (يا ويلتا أألد وأنا عجوز) واختلفوا في سنها اذ ذاك فقيل تسعون وقيل غير ذلك . =

يقول أختي لئلا يقتلوه ، ويكون له خير من ذلك . وأنا أعيذ ابراهيم من هذا النقص الشـائن

= وذكر ابن كثير فى تاريخه نقلا عن أهل الكتاب : أنه لما كان لابراهيـم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة وهبت السيدة سارة له هاجر ودخل بها وجاءت باسماعيل عليه السلام ، وذكر أيضا أن ولادة اسماعيل كانت قبل ولادة اسحاق بثلاث عشرة سنة ·

ومعلوم أن هاجر أم اسماعيل هى التى قدمها الجبار خادمة لسـارة · فاذا صح ما ذكرناه وكان مكث ابراهيـم فى بيت المقدس المدة الموضحة بعد خروجه من مصر مباشرة لم يتخللها مدة أخرى تكون سنها حينما كانت عند الجبار سبعا وخمسين سنة ·

وعلى تسليم أن سنها كانت اذ ذاك سبعين – لا وجه للاستبعاد · لأن مثل هـذه السن بالنسبة للأعمار الطويلة التى كانت فى تلك الأيام تعتبر سن شباب لا سن شيخوخة ، خصوصا بالنسبة للسيدة سارة التى أعطيت حظا كبيرا من الحسن والجمال – كما هو نص الحديث الأول – ولأنها أعطيت حظا كبيرا من التقوى وعدم الميل الى الشهوات ولايخفى ما فىهذا من حفظ القوى· وكما ذكره الحافظ ابن حجر : أعطى يوسف وأمه شطر الحسن يعنى سارة ·

. هذا ولنختم هذا الموضوع بما ذكره الحافظ ابن كثير فى تاريخه فى نسب سارة – ليعلم منه خطأ القول بأنها أخته حقيقة – فقال « قيل انها ابنة ملك حران ، والمشهور أنها ابنة عمه هاران، ومن قال انها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السـهيلى عن العبسى فقد أبعد النجعة وقال بلا علم ومن ادعى أن ذلك كان مشروعا فليس له على ذلك دليل · ولو فرض أن هذا كان مشروعا فى وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فان الأنبياء لا تتعاطاه ··· » اهـ · والله أعلم ·

رد المؤلف على نقد اللجنة

ذكرت فى قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ما ذكرته التوراة الى آخر ما نصـه أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة ، وقد رابهم من شأنى أنى تركت الأحاديث ونصصت ما قالته التوراة ، وأبدوا احتمالات أربعة :

١ – أنى لم أقف على تلك الأحاديث التى وردت فى هذه القصة واستبعدوا ذلك ·

٢ – أنى وقفت على تلك الأحاديث ورأيت فيها مطعنا أخرجها عن دائرة الاحتجاج ··· الخ واستبعدوا ذلك أيضا ·

٣ – أنى وقفت على تلك الأحاديث ولم أعلم فيها مطعنا ولكنى لا أراها تصلح مصدرا للحوادث التاريخية ·

٤ – أنى أعلمها وأعـلم ان لا مطعن فيها وانها أهـم مصدر بعد كتاب الله تعالى للحوادث التاريخية الا أنى سهوت عنها · ثم كان من عطفهم وحسن ظنهم أن مالوا الى هذا الفرض وهو حسن ظن بى أشكر حضراتهم عليه ·

بعد ذلك سردوا حديث أبى هريرة الذى أخرجه البخارى فى حديث الأنبياء مرفوعا وموقوفا · وأخرجه أيضا مرفوعا من طريقين فى كتاب النكاح ، وأخرجه من طريق فى كتاب البيع ، وأخرجه مسلم فى الفضائل مرفوعا · وأخرجه أحمد بسياق مخصوص علىشرط الصحيح،وأخرجه النسائى والبزاز وابن حبان ، الى آخره ·· ما نصوا ، ثم حديث الشفاعة الذى أخرجه البخارى من عدة طرق وأخرجه مسلم وغيره الى آخر ما قالوا وكلها تثبت كذب ابراهيم بقوله : أختى ··· الخ ·

والذى أجيب به حضراتهم أنى أعلم هذه الأحاديث ، وأعـلم أنهـا من الأحاديث التى صح اسنادها ، ولكنها ترمى الى اسناد الكذب الى ابراهيـم ، فهى تنص على وجوب اعتقاد الكذب فى جانب ابراهيم عليه الصلاة والسلام · والأحاديث وان كانت صحيحة الاسـناد لا يمكن أن تكون برهانا على اثبات أمر اعتقادى ·

نقل صاحب الفتح – ج٨ص ٤٣١ – قول العلماء « الأحاديث اذا كانت فى مسائل عملية يكفى فى الأخذ بها بعد صحتها افادتها الظن ، اما اذا كانت فى العقائد فلا يكفى فيها الا ما يفيـد القطع : متنا وسندا »

وعلى ذلك فلا تصلح تلك الأحاديث أداة لتقرير اعتقاد كذب ابراهيم لوجوه : –

وأقول : ان سارة لما كانت فى مصر كانت بنت سبعين سنة أو أكثر !

= ١ — ان ابراهيم نبى كريم ومن أخص الصفات الواجبة للانبياء الصدق اللهم الا ان يكون من يريد اثبات الكذب واتصاف ابراهيم به ممن يجوز على أنبياء الله الكذب ولست منهم .

٢ — ان الله تعالى يقول « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » مريم ٤١ — فقد رأيت الله فى هذه الآية لم يكتف باسناد الصدق اليه ، بل عبر عن ذلك بصيغة المبالغة ، والصديق من خلقه الصدق وجرى ذلك منه مجرى الأمور الطبيعية التى لا تتغير .

٣ — قال الله تعالى « انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون » . النحل ١٠٥ .

وما كنت لأسمح لنفسى أن أنظم ابراهيم فى سلك الذين لا يؤمنون بآيات الله بنسبة الكذب اليه — ولو على سبيل الصورة — لأن أقل ما فيها أن أسىء الأدب فى حقه بنسبته الى ذلك الوصف الدنىء ولو صورة .

٤ — قال الله تعالى فى حق ابراهيم عليه السلام « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم » النحل ١٢٠ و ١٢١ .
وما كان الله ليجتبى كذابا ، ولا من الهداية الى الصراط المستقيم أن يكون المهدى كذابا .

٥ — يقول الله لمحمد صلى الله عليه وسلم « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا » النحل ١٣٣ وما كان الله ليأمر خاتم أنبيائه باتباع ملة رجل كذاب .

٦ — أمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقول للزارين عليه أنه هدى الى ملة ابراهيم بقوله « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين» الأنعام ١٦١ .

٧ — قال الله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » الأنبياء ١٥١ .
وليس من رشد الرجل فى شىء أن يكون كذابا .

٨ — بعد أن ذكر الله تعالى ابراهيم وما حاج به قومه وذكر معه سبعة عشر نبيا قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فهل كان الله تعالى يأمره بالاقتداء برجل كذاب ؟ .

٩ — قال الله تعالى فى ابراهيم « آتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين » النحل ١٢٢ .
قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية بأن الله حببه الى الناس حتى ان أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه .

١٠ — وقال تعالى «رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين» الشعراء ٨٣ ، ٨٤
قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية : أى وفقنى للكمال فى العمل لأنتظم به فى عداد الكاملين فى الصلاح الذى لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره .

١١ — قال الله فى ابراهيم « وتركنا عليه فى الآخرين » أى أبقينا له دعاء الناس فى الزمن الباقى وتسليمهم عليه أمة بعد أمة وسلامهم الحسن وثناءهم عليه ، فأى ثناء حسن يبقى لرجل ينبز بأنه كذاب قارف الكذب ثلاث مرات أو ستا فى الدنيا ، والكذب ينتظره أيضا يوم القيامة وقد قال المفسرون فى قوله تعالى «كذلك نجزى المحسنين» اشارة الى ابقاء ذكره الجميل بين الأمم .

١٢ — سئل رسول الله : أيكون المؤمن جبانا ؟ قال « نعم » قيل : أيكون بخيلا ؟ قال « نعم » قيل أيكون كذابا ؟ قال « لا » والكذاب جرىء على الله جبان أمام الناس فهو يستخفى من الناس بكذبه ويجابه الله بلا حياء ، وما كنت بالذى يصم ابراهيم بذلك .
هذا وقد نص العلماء على أن الحديث اذا كانت روايته آحادا وفيه نسبة المعاصى أو الكذب الى الأنبياء يرد ، وقد أورد ذلك حضراتهم .
=

وكان لوط مع ابراهيم ، وكان الرجلان لهما أمـوال كثيرة . وكان الرعاة يزدحمـون على

= ففي شرح العصام على العقائد النسفية بعد أن ذكر وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق ما نصه :

اذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية . فما كان منقولا بطريق الأحاد فمردود ، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره ان أمكن . والا فمحمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة .

وجاء في الحاشية عليه « قوله فما كان منقولا بطريق الآحاد» سواء بلغ حد الشهرة أو لا فمردود لأن نسبة الخطأ الى الرواة أهون من نسبة المعاصي الى الأنبياء . وما كان بطريق التواتر فقسمان ما يمكن حمل خصوصياتها على أمر يخرجها عن كونها ذنوبا كحمل قول ابراهيم عليه السلام « انى سقيم » على انى سقيم فيما بعد فيحمل عليه أن أمكن والا فيحمل لفظ الذنب الواقع فيه على ترك الأولى ... الخ - راجع صفحة ٤٦٨ .

وجاء في شرح عبد الحكيم السيالكوني على العقائد العضدية ما نصه : « واذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مما يشعر بمعصية أو كذب ، فما كان منقولا بطريق الأحاد فمردود ، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهـره أن أمكن ، والا فمحمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة ص ٢٠٣ » .

نظرت الى ذلك والى الأحاديث التى فيها رمى ابراهيم بالكذب وهى أحاديث آحاد - فتركتها وصرفت النظر عنها .

لقد افترضت أنها منقولة نقل تواتر . وانى أشرع فى تأويلها على وجه ملائم ان أمكن ، ولكنى وجدت قراء كتابى سوف لا يكونون من صنف واحد ، ومتى سمعوا الأحاديث وفيها كذب ابراهيم ثلاث كذبات يعلق ذلك فى أنفسهم ، ولا ضمان على اقتلاع ذلك من عقولهم بالحمل والتأويل فيكون ذلك سببا لضلالهم .

وقد نظرت أيضا الى ما نصه الفخر الرازى « ج ٦ صفحة ١٢ الطبعة الثانية سنة ١٣٢٤ » فى تفسيره سورة الأنبياء فوجدته يقول : فان قيل قوله « بل فعله كبيرهم » كذب . والجواب : للناس فيه قولان ، أحدهما وهو قول كافة المحققين أنه ليس بكذب . وذكروا فى الاعتذار عنه وجوها .

ثم أطال فى تلك الوجوه وبعد ذلك قال :

القول الثانى : وهو قول طائفة من أهل الحكايات : أن ذلك كذب .

واحتجوا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات كلها فى ذات الله تعالى : قوله انى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله لسارة هى أختى » .

وفى خبر آخر : أن أهل الموقف اذا سألوا ابراهيم الشفاعة . قال انى كذبت ثلاث كذبات . ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا : الكذب ليس قبيحا لذاته فان النبى عليه السلام اذا هرب من ظالم واختفى فى دار انسان وجاء الظالم وسأل عن حاله فانه يجب الكذب فيه ، واذا كان كذلك فأى بعد فى أن يأذن الله تعالى فى ذلك لمصلحة لا يعرفها الا هو .

واعلم أن هذا القول مرغوب عنه :

أما الخبر الأول : وهو الذى ردوه فلأن يضاف الكذب الى رواته أولى من أن يضاف الى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه، فلنجوز هذا الاحتمال فى كل ما أخبروا عنه وفى كل ما أخبر الله تعالى عنه . وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة الى كلها . ثم ان ذلك الخبر لو صح فهو محمـول على المعاريض على ما قاله عليه السلام « أن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » .

فأما قوله تعالى « انى سقيم » فلعله كان به سقم قليل ، واستقصاء الكلام فيـه يجئ فى موضعه وأما قوله (بل فعله كبيرهم) فقد ظهر الجواب عنه - أى فى كلام الفخر .

الأسامة والورد فاتفق رأيهما على أن يفترقا فى الاقامة حفظا لعلاقة المودة والرحم . »

= أما قوله لسارة : أنها أختى ، فالمراد أنها أخته فى الدين . واذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب الى الأنبياء عليهم السلام فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب اليهم الا زنديق « سورة يوسف » من الفخر الرازى ج ٥ ص ١١٩ .

وأعلم أن بعض الحشوية روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما كذب ابراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات» فقلت الأولى ألا تقبل مثل هذه الأخبار ، فقال على طريق الاستنكار : فان لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة . فقلت له : يا مسكين ان قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب ابراهيم عليه السلام ، وان رددناه لزمنا تكذيب الرواة . ولاشك أن صون ابراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب .

لذلك كله نحيت الحديث أو تنحيت عن طريقه ، حتى لا يشهد الجمهور اصطدام الحديث بآيات الكتاب الكريم وتركت تكذيب الفخر الرازى وغيره لسند ذلك الحديث واجابة المجيبين وتوجيه الموجهين ، لأن الجمهور لا خير له فى الوقوف على هذا الضرب من الكر والفر .

وقد نظرت الى التوراة فوجدتها اذا تتبعت كانت سن سارة زوج ابراهيم نحو سبعين سنة حين كانت فى مصر ووجدت أمرها مع ملك مصر محكيا فيها . وهو أن ابراهيم اتفق معها أن تقول عنه أخى وهو يقول أختى لئلا يقتل . وأن الملك أخذها وأنه ضويق فى منامه وأخبر بأنها ذات بعل فعاتب ابراهيم على ما كان منه ثم أحسن اليها واليه . وقد وقع فى نفسى أن ملكا مترفا يبعد أن تشره نفسه الى من كانت تناهز السبعين فقلت ذلك .

ورأيت أن التوراة تذكر أن مثل هذه الحادثة تماما حصلت لابراهيم وسارة فى أرض أبى مالك ، بعد أن بشرت باسحق وصكت وجهها وضحكت وقالت عجوز عقيم . أى بعد أن بلغت أكثر من تسعين سنة ، كما هو نص التوراة — فاستبعدت ذلك أيضا .

جاء حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة وخفضوا العمر الذى بلغته سارة حين كانت فى مصر الى سبع وخمسين سنة ، بناء على ما نقله الحافظ بن كثير فى تاريخه البداية والنهاية ، من أن ابراهيم دخل بهاجر بعد خروجه من مصر بعشرين سنة .

أقول : انى نقلت من كتب أهل الكتاب ما قلته كما نقل ابن كثير . وهى تقول «تكوين — ص١٦ — ٣١» فأخذت ساراى امرأة ابرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لاقامة ابرام فى أرض كنعان وأعطتها لابرام رجلها زوجة له . وقد راجعت نسخ التوراة بالعبرية والعربية وراجعت كتاب اظهار الحق لعله يكون قد أخذ هذا الموضع على أهل الكتاب — حين عد تخالف النسخ العبرية والسامرية واليونانية — فلم أجد لذلك أثرا فلعل العشرة حرفت الى العشرين من خطأ نساخ كتاب : البداية والنهاية ، أو أن الله رمى بالبركة فى العشرة فصارت عشرين .

ثم انهم فهموا ان السنوات العشر ابتداؤها من حين خروج ابراهيم من مصر الى بلاد كنعان ، وليس على ذلك دليل ، والأقرب الى الحقيقة أن ابتداءها من نزوله من حران الى كنعان ، وفى أثناء السنوات العشر كان تغربه فى مصر وعوده الى أرض كنعان .

لهذا أقول أن سارة كان لها من العمر نحو سبعين سنة حين كانت فى مصر .

أما الحديث فلم يبين كم كان عمرها . فاذا سلمنا جدلا أن ابراهيم قد كذب وكان من ضمن كذبه — أجله الله عن ذلك ونزهه — هذه الفعلة ، فلا يرد عليه الايراد الذى أوردته على التوراة ولكنى كنت أناقش شيئا وضعته أمامى وهو محط الاستبعاد . وليس الحديث أمامى وهو لم يعين سنا ولا يأتى عليه ذلك الاعتراض . وأعجب شىء أنهم يشتدون فى المدافعة عن التوراة كأنها نص قرآنى عندهم .

أما قول حضراتهم « وعلى تسليم أن سنها كانت اذ ذاك سبعين لاوجه له ... الخ » .

فأقول : ذلكم ليس الى حضراتكم . فانكم تفرضون للمراة التى رمت خلفها سبعين هلالا من أهلة الأعوام أنها لم تزل حافظة لنضارة الشباب يرى الملوك المترفون أنها من آرابهم ؛ فلكم ما شئتم ، وليس لكم ولا فى قدرتكم أن تزيلوا الاستبعاد من نفسى . فانى أتمشى مع سنة الوجود ومع المألوف المعروف ، ومع طبيعة الملوك وأهل الترف الذين لا يرون التنعم الا مع من كانت غير بعيدة العهد بأول الحياة وأما من قدمتها السن الى الشاطىء الثانى للحياة فلا يرون التمتع بها غنيمة . =

فذهب لوط الى سادوم وعامورة فى دائرة الأردن وأقام ابراهيم حيث كان (١) .

= أنا لا أمانع في أن سارة كانت وضيئة ، ولكن وضاءة وجهها ما كانت لتحول دون ظهور أمارات الكبر عليها ، وما كانت لتكف يد الدهر عن أن ترسم على جبينها وفي وجناتها وعند فمها الخطوط المنبئة عن قدم ميلادها الشاهدة بما حملت من أعباء الأعوام ، بحيث لا تكون موضع طماعية المترفين من الملوك ·

ولعل حضرات أصحاب الفضيلة اقتدوا بقول القائل .

تعشقتها شمطاء شاب وليدها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

لينظر القارىء الكريم معي الى لفظ الحديث الذى يعزونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه واجد قول ابراهيم لسارة · « ان هذا الجبار ان يعلم أنك امراتى يغلبنى عليك فان سألك فأخبريه أنك أختي ··· الخ » فالمنطق المعقول يقتضى أنها اذا كانت امرأته يتركها لأنها مشغولة، واذا كانت أخته فانه يأخذها لأنها غير مشغولة ببعل ·

ولكن المفسرين قالوا : ان السياسة كانت على أن القوم كانوا لا يتعرضون لغير ذات البعل،وانما كانوا يعرضون لذات البعل ويأخذونها قهرا · أقول:سلمنا جدلا أن السياسة كانت كذلك ،فما بالكم ناقضتم أنفسكم ونقضتم ما أبرمتم وقلتم ان الجبار أخذها ؟ وما هو الحامل للجبار على مخالفة القاعدة التى زعمتم أنها كانت متبعة مرعية بين أولئك الأقوام،وبعد هذا فأين النقل الصحيح لذلك؟

على أن حضرات أصحاب الفضيلة لو تحروا الحق فى شأن ابراهيم وكان كاذبا حاشاه كما يقولون لوجدوه قد كذب ست كذبات وهى : ١ ـ قوله انى سقيم ٢ ـ قوله بل فعله كبيرهم هذا ٣ ـ قوله عن زوجه أنها أختي ٤ ـ قوله هذا ربى حين رأى كوكبا ٥ ـ قوله هذا ربى حين رأى القمر ٦ ـ قوله هذا ربى حين رأى الشمس · فهذه ست كذبات ينتظره كذبات غيرهن يوم القيامة حين يهرع الناس اليه طالبين أن يشفع لهم فى فصل الخطاب اذ يقول لهم لست هناكم انى كذبت ثلاث كذبات » مع انهن ست ، وهكذا يجعلونه كذابا فى الدنيا كذابا فى الآخرة ·

ولم يكفهم تلك السبع من الكذبات حتى يتأولوا فيهن ، فتكون نتيجة التأول أنه احتال على الناس وصرفهم عن اجابة طلبهم الى الشفاعة فى الموقف بما ليس عذرا حقيقيا ، اذ كذباته ليست مما يوجب عقابا؛فاجابته انما هي تملص من طلبهم الذى افتدى منه بالصاق الكذب بنفسه ، وهو اعتذار لا يحسن لأن كذبه لا تبعة عليه فيه · فهل هذا لسان الصدق الذى جعله الله لابراهيم ؟ اللهم أشهد على أنت وملائكتك أني أشهد أن ابراهيم لم يكن كاذبا ولا مفتريا ·

بقي أن أقول أن رد الفخر الرازى للحديث الذى ينبز فيه ابراهيم بالكذب هو الصواب الذى لا يشوبه خطأ ، والحق الصريح الموافق لأصول الاسلام ، لأنه حديث آحاد يلصق بأحد الأنبياء ، بل بأبى الأنبياء من بعده وهو خليل الله ابراهيم نقيصة شنيعة وهى الكذب والتهاون فى العرض، وقد مر بك أيها القارىء الكريم أن مثله يرد طبقا لما جاء فى العقائد النفسية وشرحها ، والرسالة العضدية، وحاشية عبد الحكيم السيالكوتى عليها ، وما نقلناه عن ابن حجر فى فتح البارى ·

كتب أصحاب الفضيلة فى الرد على ما ذهب اليه الفخر الرازى من عدم قبول الأحاديث الدالة على كذب ابراهيم صلى الله عليه وسلم فأجابوا عن شق وقالوا لقد رد عليه العلماء · ومع كونهم هم ومن ردوا على الفخر الرازى لم يصيبوا المحز ولم يطبقوا المفصل ، لأنهم لم ينقضوا الأصل الذى رمى اليه ، وقد اجتمعت عليه كلمة المتكلمين وأهل الحديث ، فقد تركوا ما أورده من القطع بأن الله تعالى لا يرخص لأحد من أنبيائه فى الكذب ، لأن ذلك يرفع الثقة من الأوامر الالهيـة والنواهى لاحتمال أنها مما رخص الله فيه لهم بالكذب ·

وبعد هذا : فهل ما حصل من ابراهيم هو كذب أو صورة كذب كما يدعون ؟

والجواب : كلا ! فان قوله:انى سقيم،يحتمل أنه كان به سقم خفيف،أو انه كان سقيم الباطن والضمير،قلق الخاطر مألوما فى نفسه ولرؤية قومه يعبدون غير الله،ولا يصغون لعظة ولا نصيحة·

وأما قوله : بل فعله كبيرهم هذا ، فان الجواب عليه يحتاج الى أن نشرح ما هو الكذب فنقول : الكذب:الأخبار عن الشيء على غير ماهو عليه فى الواقع ،مع اعتقاد المخبر أن ماقاله غير مطابق للواقع، =

(١) يراجع الاصحاحان ١٢ و ١٣ ـ تكوين ·

دخول إبراهيم بهاجر

كانت سارة زوج ابراهيم عاقرا لم تلد وكان ملك مصر قد أعطى سارة على ما تقول التوراة جارية مصرية وتألمت سارة اذ لم تجد لابراهيم نسلا — وهى قد شاخت ولا يرجى لها أن تكون أما — فأتمرت مع ابراهيم . وكان عاقبة ذلك أن دخل ابراهيم على هاجر فأتت منه بغلام هو اسماعيل عليه السلام .

= قاصداً بذلك خديعة السامع لخبره وايهامه أن الشيء على ما أخبر به ، ابتغاء اضلاله عن الحق مع امكان أن يقع كلامه من المسامع موقع الصدق .

فاذا كان الكلام لا يمكن أن يفيد ذلك لم يكن هناك كذب فى الخبر .

فهل كان ابراهيم يضلل قومه ، ليعتقدوا أن الصنم الأكبر قد حطم سائر الأصنام ؟

كلا ، فان الذى يعتقد أن الصنم المصنوع من خشب أو غيره — من حجر أو معدن — يأخذه الغيظ من أمثاله فيعمد الى تحطيمهن لا يكون عنده ذرة من عقل . وما كان القوم بهذا المقدار من الغباء! بل مثله فى ذلك الاخبار مثل من يأتى الى مصحف قد كتبته بخط بديع، فيقول لك : أأنت كتبته؟ فتقول له — وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب — بل أنت كتبته! على سبيل التهكم والاستهزاء به . فانك لا تريد أن تضله عن الحق وتجعله يعتقد أن الكتابة الجميلة من صنع يده، ومتى خرج الخبر الى التهكم خرج عن الخبرية الى الانشاء ولم يكن محتملا للصدق والكذب أصلا ، فابراهيم انما قال لهم ما قاله على سبيل الاستهزاء بهم ، وليجرهم الى اقامة حجته واضحة جلية ، ومعلوم أنه لا كذب فى ذلك .

وأما قوله عن زوجة : أختى ؛ فانه اذا كان قد وقع منه ذلك فيحتمل أن تكون أخته حقيقة، كما يحتمل أن تكون ابنة عمه ، واطلاق الأخت على بنت العم سائغ لا تنكره اللغة، ويحتمل أن تكون بعيدة منه وأنه يريد أختى فى الدين ؟ كل محتمل ولا كذب فيه .

وعلى ذلك لم يحصل من ابراهيم كذب ولا صورة كذب .

بقى أن أقول : أن لى سلفا فى رد الأحاديث الناطقة بكذب ابراهيم — نزهه الله عن ذلك — وهو الفخر الرازى ، وقد حاول حضراتهم الحط من هذا القول ، لأنهم متى زيفوا الفخر الرازى فقد زيفوا قولى . وأكبر ظنى أنهم لو لم يجدوا كلام الفخر الرازى مطابقا لما أوردته لما خطر ببالهم هذا الخاطر لأنى أنا المقصود بذلك دون غيرى . وآية ذلك أنهم يعلمون أن الفخر الرازى قال ذلك قبل أن يصدر كتابى ومع ذلك فلم تنشط بأحد منهم همته الى الرد عليه وأن يعلنوا للأمة حتى لا تضل بقول الفخر الرازى .

وبعد هذا : فهل يظن حضراتهم أن قولهم ، و من ردوا على الفخر الرازى، أولى عندى بالقبول من قوله ؟ أو أن ثقتى بعلم الرادين وصحة فكرهم فى كتاب الله وثقوب ذهنهم أكبر عندى من الثقة بالفخر الرازى فى ذلك كله ؟ اذا كان أحد قد أخبرهم بذلك فقد افترى اثما عظيما ولم يصدقهم سن بكره!

على انى لو كان حتما على أن ألغى عقلى ولم يكن لى بد من أن أقلد، فانى لا أختار حضراتهم ومن ردوا على الفخر الرازى ، أن أكون تابعا خطواتهم سائرا على نهجهم . بل انى أختار الفخر الرازى ومن كانوا على سبيله أن أقتدى بهم اذا كان لا بد من الاقتداء ، فانى لم أعهده الا قوالا للحق غير متجانف عن سبيل الرشد ولا محكم هواه ولا حاطب فى حبل غيره ، وهو مأجور على ما يبدى من رأى أو فهم أصاب أو أخطأ لأنه مجتهد فى تحصيل الحق على كل حال .

قال أصحاب الفضيلة : « هذا ولنختم هذا الموضوع بما ذكره الحافظ ابن كثير فى تاريخه فى نسب سارة ليعلم منه خطأ القول بأنها أخته حقيقة ، قيل انها ابنة ملك حران، والمشهور أنها ابنة عمه هاران ، قال : ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلى عن العبسى فقد أبعد النجعة وقال بلا علم . ومن ادعى أن ذلك كان مشروعا فليس له على ذلك دليل ، ولو فرض أن هذا كان مشروعا فى وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فان الأنبياء لا تتعاطاه » ا هـ . =

ولادة إسماعيل بن إبراهيم من هاجر

لم تفصل قصة ولادة اسماعيل ورزق والده به فى القرآن الكريم . وانما ذكرت فى سفر التكوين مفصلة — وأما التى ذكرت فى القرآن الكريم فلم يذكر فيها اسماعيل . وسنذكرها عند موقفه فى ذبح ابراهيم ولده (١) .

= والذى أقوله : أنى لم أجزم بأن سارة كانت أختا لابراهيم حقيقة . بل قلت « اذا صح أنها كانت أخته حقيقة وصح أنه قال انها أختى كما قالت التوراة ... الخ » فايهامهم أنى جزمت فى كلامى بأنها أخته غير صحيح . وقولى : « هو الذى أميل اليه » ليس قطعا منى بذلك ، بل هو الذى أميل اليه اذا تحققت الفروض السابقة .

ووجهة نظرى فى ذلك : أنى أعلم كما يعلم حضرات أصحاب الفضيلة أن الأصل فى الأشياء الاباحة ، الى أن يأتى الشرع بالحظر كما فى شرب الخمر،فانه كان مباحا الى أن أتى دين الاسلام بالحظر . ونعلم ويعلمون أن آدم كان يزوج أبناءه من بناته . فهذا الأصل:وهو الاباحة، يستصحب الى أن يأتى أمر الشارع بالمنع . وبعد هذا نقول : يحتمل أن تكون سارة أختا لابراهيم كما يحتمل أن تكون أجنبية منه أو قريبة له قرابة بعيدة أو قريبة . وأنى على أتم الاستعداد للقول بأنها غير أخته قطعا متى أوقفنى حضراتهم على نص من عند نا معشر المسلمين يقطع بأنها ليست أختا له .

هذا وقد سبق أن جزم بأنها أخته العلامة رحمة الله الهندى فى كتابه « اظهار الحق » وهو أعظم كتاب وجد فى مكافحة أهل الكتاب ورد افترائهم على دين الاسلام ، وفى اثبات تحريف أهل الكتاب لكتبهم خطأ وعمدا .

وأما قول الحافظ بن كثير : والمشهور أنها ابنة عمه هاران . فانى أقول : يحتمل أن يكون لابراهيم عم اسمه هاران ولكنى لم أقف على ذلك ، ولم أدر من أين أخذه . ولو صح ذلك كان اطلاقه لفظ الأخت على بنت العم سائغا لجريان العرف بذلك . فلعلهم كانوا مثلنا فى ذلك .

وأما قوله : فان الأنبياء لا تتعاطاه فهذه الدعوى ينقصها الدليل . وعلى ذلك فيبقى الأمر محتملا كما قدمت .

ان الضجة التى أثارها أصحاب الفضيلة حول هذه المسألة التى ربوها — حتى صار أمرها أمرا وشبت عن الطوق — كانت سببا فى اطلاق ألسنة المستهزئين والخلعاء فى ابراهيم ، ونسبته الى ما أنزه ابراهيم عنه وأنزه لسانى عن أن ينطق به وقلمى عن أن يخطه ، حتى أن بعضهم شبه موقفى مع حضراتهم بموقف عبد الرحمن بن الحكم مع معاوية .

أما كان الأجدر بحضراتهم أن يطووا هذا الأمر كما طويته ، وأن يربأوا بأنفسهم عن أن يكونوا سببا فى قالة السوء عن نبى كريم ، واطلاق ألسنة من يساوى ومن لا يساوى فى حقه ؟ أأمنتم أن يلاقيكم ابراهيم فى الآخرة وأن يعاتبكم على ما كان منكم من جعله عرضة لقالة مكروهة أو منديلا يمسح به أعداء الله ورسله مقاذيرهم ؟ أيكون اعتذارهم بأنهم قد عز عليهم أن تكون ساحته بريئة من الكذب فأحبوا أن يكملوا نقصه ؟

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب »

(١) وأما عبارة التكوين فهى فى الاصحاح ١٦ هكذا : —

١ — وأما ساراى امرأة ابرام فلم تلد له . وكانت لها جارية مصرية : هاجر .

٢ — فقالت ساراى لابرام هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة ، أدخل على جاريتى لعلى أرزق منها بنين فسمع ابرام لقول ساراى .

٣ — فأخذت ساراى امرأة ابرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لاقامة ابرام فى أرض كنعان وأعطتها لابرام زوجة له .

٤ — فدخل على هاجر فحبلت . ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها فى عينها .

ســـــنة الختـــــان

وقد عهد الله الى ابراهيم بالختان وكانت سنه اذ ذاك تسعا وتسعين سنة . وكان اسماعيل قد بلغ ثلاث عشرة سنة ، فاختتن ابراهيم واسماعيل وكل من كان لابراهيم من العبيد [1] وفى انجيل برنابا أن سبب الختان أن آدم لما عصى ربه نذر أن يقطع من نفسه عضوا اذا تاب الله عليه فلما قبلت توبته وأراد الوفاء بنذره احتار ماذا يصنع ؟ فدله جبريل على هـذا الموضع فقطعه . ولعل أبناءه تركوا هذه السنة حتى أمر الله ابراهيم باحيائها .

إبراهيم والملائكة

ومن مواقف ابراهيم عليه السلام أنه رأى ثلاثة رجال فى البرية فاستقبلهم — وكان ابراهيم يحب قرى الأضياف — فمالوا اليه ، فصنع لهم طعاما وعمـد الى عجل سمين فذبحه وسـواه فى النار وجاء به حنيذا ، قد أثرت فيه النار وجعـلت لونه الحمـرة ، وقـربه اليهـم . فلم تمتد الى طعامه أيديهم ، فارتاب فى شـأنهم وأوجس منهـم خيفـة . فخاطبهم فى هـذا الشأن فعلم أنهم ملائكة أرسلهم الله للانتقام من أهـل سـادوم وعامورة ، وهم المعبر عنهـم بقوم لوط . وكانت سادوم وعامورة فى مكان البحر الميت المعروف اليوم ببحر لوط ، ويقال انه ظهرت بشاطئه بعض آثارهما .

= ٥ — فقالت ساراى لابرام : ظلمى عليك ! أنا دفعت جاريتى الى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت فى عينها ، يقضى الرب بينى وبينك .

٦ — فقال ابرام لساراى : هو ذا جاريتك فى يدك افعلى بهـا ما يحسن فى عينك ، فأذلتها ساراى فهربت من وجهها .

٧ — فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية ، على العين التى فى طريق شور .

٨ — وقال : يا هاجر جارية ساراى: من أين أتيت والى أين تذهبين ؟ فقالت : أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى .

٩ — فقال لها ملاك الرب : ارجعى الى مولا تك واخضعى تحت يديها .

١٠ — وقال لها ملاك الرب : تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة .

١١ — وقال لها ملاك الرب : ها أنت حبلى فتلدين ابنا اسمه اسماعيل . لأن الرب قد سمع لذلتك .

١٢ — وأنه يكون انسانا وحشيا (*) يده على كل واحد ويد كل واحد عليه .

١٣ — فدعت اسم الرب الذى تكلم معها « أنت ايل رئى » لأنها قالت : أها هنا أيضا رأيت بعد رؤية .

١٤ — لذلك دعيت البئر « بئر لحى رئى » ها هى بين قادش وبارد .

١٥ — فولدت هاجر لأبرام ابنا . ودعا ابرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر : اسماعيل .

١٦ — وكان ابرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر اسماعيل لأبرام .

---

(١) كما فى الاصحاح ١٧ — تكوين .

(*) عبارة التوراة العبرية هكذا — وهو بهى « فرء آدم » فغيروها بقولهم « انه يكون انسانا وحشيا » وحقيقتها « أنه يكون انسانا قويا » ولكنهم لم يجدوا أسوأ من كلمة « وحشى » ليصفوا بها اسماعيل .

دفاع إبراهيم عن لوط ابن أخيه

خاف ابراهيم من هذا العذاب النازل أن يمس ابن أخيه فقال لهم : ان فيها لوطا ؟ فقالوا له : نحن أعلم بمن فيها وأنه وأهله من الناجين .

مجادلة إبراهيم عن قوم لوط

كان ابراهيم عليه السلام رجلا رقيق القلب ، فلما علم أن قوم لوط هالكون وأن الملائكة قادمون لانفاذ الأمر فيهم ، أخذته الشفقة عليهم ، فأخذ يجادل فى شأن قوم لوط ويستنزل الرحمة بهم — رجاء أن ينظر الله اليهم نظر رحمة . قال تعالى . (فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب) — وهذه المجادلة عنهم لم تفصل فى القرآن الكريم (١) .

البشرى باسحاق

والبشرى التى بشر بها ابراهيم هى أن الملائكة قالوا له اننا جئنا لنبشرك بغلام عليم ؛ فراجعهم قائلا : أبشرتمونى على أن مسنى الكبر وصار لا يرجى لمن كان مثلى أن يلد وامرأتى عاقر قد بلغت سن اليأس . وكانت سارة تسمع كلام الملائكة لابراهيم فضحكت من هذه

---

(١) ولكنها فصلت فى سفر التكوين ص ١٨ هكذا :

٢٢ — وانصرف الرجال « الملائكة » من هناك وذهبوا نحو سدوم . وأما ابراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب .

٢٣ — فتقدم ابراهيم وقال : أفتهلك البار مع الأثيم .

٢٤ — عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه ؟

٢٥ — حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر . أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشا لك . أديان كل الأرض لا يصنع عدلا ؟

٢٦ — فقال الرب : ان وجدت فى سدوم خمسين بارا فى المدينة فانى أصفح عن المكان كله من أجلهم .

٢٧ — فأجاب ابراهيم وقال : انى شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد .

٢٨ — ربما نقص الخمسون بارا خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة ؟ فقال : لا أهلك أن وجدت هناك خمسة وأربعين .

٢٩ — فعاد يكلمه أيضا وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون! فقال لا أفعل من أجل الأربعين.

٣٠ — فقال : لا يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد ثلاثون ! فقال : لا أفعل أن وجدت هناك ثلاثين .

٣١ — فقال انى شرعت أكلم المولى . عسى أن يوجد هناك عشرون فقال لا أهلك من أجل العشرين

٣٢ — فقال لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط عسى أن يوجد هناك عشرة فقال لا أهلك من أجل العشرة .

٣٣ — وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع ابراهيم ورجع ابراهيم الى مكانه .

البشرى العجيبة ، وقالت : كيف آلد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ ! وأبدت غاية الاستغراب ! فأحال الملائكة الأمر على قدرة الله الذى لا يعجزه شىء ، وأقتوا وقتا لهذا الأمر . ثم فصلوا عن ابراهيم الى سدوم وعامورة .

اقرءوا هذه الآيات فى سورة هود :

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ [٦٩] فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ [٧٠] وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [٧١] قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ [٧٢] قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ [٧٣] فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ [٧٤] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ [٧٥] يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ [٧٦]

وفى سورة الذاريات (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ [٢٤] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ [٢٥] فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ [٢٦] فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ [٢٧] فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ [٢٨] فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ (١) فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ [٢٩] قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ [٣٠] قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ [٣١] قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ [٣٢] لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ [٣٣] مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ :

حب الاستطلاع فى إبراهيم

كان ابراهيم عليه السلام محبا للاستطلاع شغوفا بأن يرى الشىء الذى يقع عنده موقع الغرابة . وقد أوحى اليه أن الله سيحيى الموتى ويحشرهم ليوم لا ريب فيه ، ويجازى المحسن باحسانه والمسىء باساءته . فأحب أن يرى ميتا عاد حيا ، فسأل الله ذلك فقال الله له : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعة من الطير فيقتلها ويفرق

(١) أى فى شدة من الكرب .

أجزاءها على الجبال ، ثم يدعوها فانه سيجدها آتية اليه ، وحينئذ يكون قد رأى الميت قد عاد حيا . ففعل ودعا الطيور فعادت اليه صحيحة كأنها لم تذق للموت طعما (١) .

اقرؤا قوله تعالى فى سورة البقرة : إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢٦٠]

والقرآن نزل مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه فهو الواجب التصديق دوما خالدا .

---

(١) وهذا الشأن من شؤون ابراهيم قد ذكر فى سفر التكوين فى الاصحاح الخامس عشر على غير هذا الوجه . بل على وجه أن ابراهيم أراد أن يعلم أنه سيرث الأرض التى وعده الله أن تكون لنسله وذريته ، فأراد الله أن يعلمه ذلك ، وأمره أن يأخذ عجلة ثلاثية وعنزا ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة ، فأخذها وشق ما عدا الحمامة واليمامة وجعل كل شق مقابل صاحبه . فنزل الجوارح على الجثث ، وعند الغروب وقع سبات على ابراهيم وظلمة ورعب ، وفى تلك الحال قال الله لابراهيم أن نسلك سيستعبدون فى أرض الغربة ويذلون أربعمائه سنة ثم يخرجون فى الجيل الرابع يرجعون الى هذه الأرض ويملكونها . ولما غابت الشمس أنزل الله تنور دخان ومصباح نار جازا بين القطع ، وقطع الله العهد لابراهيم أن أولاده يأخذون هذه الأرض ويطردون منها أهلها .

الاصحاح الخامس عشر تكوين : ــ ٧ ــ وقال له أنا الرب الذى أخرجك من «اور» الكلدانيين (*) لأعطيك هذه الأرض لترثها :

٨ ــ فقال ابراهيم : أيها السيد الرب بماذا أعلم أنى أرثها .

٩ ــ فقال له : خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة .

١٠ ــ فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه .

١١ ــ وأما الطير فلم يشقه فنزلت الجوارح على الجثث وكان ابرام يزجرها .

١٢ ــ ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على ابرام سبات واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه .

١٣ ــ فقال لابرام : أعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم أربعمائة سنة (**) .

١٤ ــ فالأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة .

١٥ ــ وأما أنت فتمضى الى آبائك بسلام و تدفن بشيبة صالحة .

١٦ ــ وفى الجيل الرابع يرجعون الى هنا لأن ذنب الأموريين ليس الى الآن كاملا .

١٧ ــ ثم غابت الشمس فصارت العتمة واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع .

١٨ ــ وفى ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير ؛ نهر الفرات .

١٩ ــ القينيين والقنزيين والقدمونيين .

٢٠ ــ والحثيين والفرزيين والرفائيين .

٢١ ــ والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين .

(*) بلد كان قرب الشاطىء الغربى للفرات كما تقدم .

(**) ليعلم القارىء أن الأربعمائة السنة تحسب من وقت الميثاق ؛ لا أنها مدة بقائهم فى أرض الغربة؛ فان المحققين على أن مدة غربة بنى اسرائيل فى مصر (٢١٥ سنة) .

إسحاق عليه السلام

رزق أبيه به

قدمنا أن الملائكة بشروا ابراهيم بابنه اسحاق ، وأن سارة ضحكت من هـذه البشرى عجبا من أن يكون نسل بين شيخ وامرأة عاقر قد بلغت من الكبر عتيا ، وأن الملائكة قالوا لها : ان هذا وعد من الله القادر (قالوا أتعجبين من أمر الله) .

لم يحل الحول على سارة وهي بنت تسعين سنة حتى حملت باسحاق ، ولما ولدته أسمته « يصحق » وترجمتها « يضحك » تريد أن كل من سمع بولادة هـذا الولد من أبويه هذين يضحك لما فى هذه الولادة من الغرابة ، وقد آل أمره الى أن يكون نبيا لقوله تعالى (وبشرناه باسحاق نبيـا من الصالحين) وقوله (وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) — (ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا * ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) (١) .

تغرب إبراهيم فى أرض أبى مالك .. « ملك جرار »

قبل أن يرزق ابراهيم بابنه اسحاق كان قد انتقل الى الجنوب وتغرب فى جرار ، وسـكن بين قادس وشور .

وشور هذه هى الطريق الذى يسلكه من خرج من مصر يريد بلاد العراق، ولما كان فى جرار خاف الملك أن يهلكه اذا علم أنه زوج لسارة حتى تخلص له ، فقـال حين سـئل عنهـا : انهـا أختى . وكانت وضيئة ، فأرسل الملك فأخذها ، وقبل أن يقترب الملك الى سارة أرى فى منامه ما أفزعه ، وأنذر أنه ميت بسبب المرأة التى أخذها وهى متزوجـة ؛ فاحتج فى نومه بأنه برىء لا يستحق ما يهدد به من القتل ، لأنه قال عنها أختى وهى قالت عنه أخى ، وأنه لم يعمل الا

(١) وقد جاء فى التوراة قصة رزق ابراهيم وزوجه بولدهما اسحاق هكذا فى سفر التكوين الاصحاح الحادى والعشرين .

١ — وافتقد الرب سارة كما قال وفعل الرب لسارة كما تكلم .

٢ — فحبلت سارة وولدت لابراهيم ابنا فى شيخوخته فى الوقت الذى تكلم الله عنه .

٣ — ودعا ابراهيم اسم المولود له الذى ولدته سارة « اسحاق » .

٤ — وختن ابراهيم اسحاق وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله .

٥ — وكان ابراهيم ابن مائة سنة حين ولد له اسحاق ابنه .

٦ — فقال له الله فى الحلم : أنا أيضا علمت كل من يسمع يضحك لى .

٧ — وقالت من قال لابراهيم سارة ترضع بنين حتى ولدت ابنا فى شيخوخته ، فكبر الولد وعظم وصنع ابراهيم وليمة عظيمة يوم فطام اسحاق .

بسلامة قلبه ونقاوة يده ولم يقترف اثما ، فأمر برد المرأة الى زوجها لأنه نبى ، وأنه سيدعو له فلا يموت بهذا السبب ، وأنه اذا لم يردها فانه يموت .

فلما هب الملك من نومه أخبر عبيده وخاصته ، وأرسل الى ابراهيم وعاتبه فيما صنع معه حتى كاد يجلب عليه وعلى شعبه غضب الله . وأنه بقوله « أختى » عمل معه ما لا يعمل ، وأطال فى عتاب ابراهيم ، فما كان جواب ابراهيم الا الاعتذار بخوفه من أن يقتلوه لأجل امرأته ، وما يظن أن أحدا فى هذه الأرض يخاف الله . ثم ترقى فى الاعتذار بأنه لم يكذب لأنها أخته حقيقة لأبيه ولم تكن أخته لأمه فلم يقل الا حقا .

فأخذ الملك غنما وبقرا وعبيدا واماء وأعطاها لابراهيم ورد عليه سارة ، وأباح له أرضه يتبوأ منها حيث يشاء ، وقال لسارة : انى أعطيت أخاك ألفا من الفضة اكراما لك ، فدعا له ابراهيم فشفى الملك وجواريه ونساؤه من كل ما كان الله قد ابتلى به الملك ونساءه وجواريه ، لأنه كان قد أعقم أرحامهن . وفى تلك الجهة كانت ولادة اسحاق ! وقصة ارتحال ابراهيم الى آخرها لم تذكر فى القرآن وانما ذكرت فى التوراة — وقد أعادوا لنا بها القصة التى وقعت فى مصر وأنا أستبعد حصولها لأن سارة أيام كانت فى مصر كانت بنت سبعين سنة ، وحين كانت فى أرض أبى مالك كانت سنها احدى وتسعين سنة ، وليس من المستساغ أن يطمع ملك مترف فى بنت سبعين أو تسعين (١) .

---

(١) ١ — وانتقل ابراهيم منهناك الى أرضالجنوب ، وسكن بين قادش وشور ، وتغرب فيجرار .
٢ — وقال ابراهيم عن سارة امرأته : هى أختى ؛ فأرسل أبو مالك ملك جرار وأخذ سارة .
٣ — فجاء الله الى أبى مالك فى حلم الليل قال له : ها أنت ميت لأجل المرأة التى أخذتها فانها متزوجة ببعل .
٤ — ولكن لم يكن أبو مالك قد اقترب اليها فقال : يا سيد أأمة تقتل بامرأة ؟
٥ — ألم يقل هو لى انها أختى ، وهى أيضا نفسها قالت هو أخى ، بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا .
٦ — فقال له الله فى الحلم : أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبكفعلت هذا وأنا أيضا أمسكتك من أن تخطىء الى ، لذلك لم أدعك تمسها .
٧ — فالآن رد امرأة الرجل فانه نبى فيصلى لأجلك فتحيا ، وان كنت لست تردها فأعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك .
٨ — فبكر أبو مالك فيالغد ودعا جميععبيده وتكلم بكل هذا الكلام فى مسامعهم ، فخاف الرجال جدا .
٩ — ثم دعا أبى مالك ابراهيم قال له : ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت اليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطيئة عظيمة ؟ أعمالا لا تعمل عملت فى .
١٠ — وقال أبى مالك لابراهيم : ماذا رأيت حتى عملت هذا الشىء ؟
١١ — فقال ابراهيم انى قلت : ليس فى هذا الموضع خوف الله ألبتة فيقتلوننى لأجل امرأتى .
١٢ — والحقيقة أيضا : هى أختى ابنة أبى ، غير أنها ليست ابنة أمى فصارت لى زوجة .
١٣ — وحدث — لما أتاهنى الله من بيت أبى — انى قلت لها هذا معروفك الذى تصنعين الى فى كل مكان نأتى اليه قولى عنى هو أخى .
١٤ — فأخذ أبى مالك غنما وبقرا وعبيدا واماء وأعطاهم لابراهيم ورد اليه سارة امرأته .
١٥ — وقال أبى مالك : هو ذا أرضى قدامك أسكن فيما حسن فى عينك .

مسألتان

الأولى : ان كان صحيحا ما جاء فى عبارة التوراة من أن ابراهيم اتفق مع سارة على أن يقول انها أختى وتقول هى انه أخى ، وكانا أخوين حقيقة يكون ذلك قبل تشريع تحريم الأخت على أخيها . وهذا هو الذى أميل اليه ان كان ذلك حقا ، وحينئذ لا حاجة الى قول « أنها أخته فى الدين » لأن أولئك المتأولين ما دعاهم الى التأويل الا اعتقادهم أن الشريعة التى كان عليها ابراهيم كانت كشريعة موسى صلى الله عليه وسلم من تحريم الأقارب دينا كالأخت والعمة ، وهذا ما ليس فيه نص قطعى .

هذا موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب — اسرائيل الله — وأمه يوكابد بنت لاوى ؛ فيكون عمران متزوجا بعمته — كما تدل عليه عبارة الآيات ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ من الاصحاح السادس والعشرين من سفر العدد ، وهو من الأسفار الخمسة التى يعزونهن الى موسى — وقد رأيت فى تاريخ القضاعى أنه مر بمسألة اخوة سارة ولم يذكرها أصلا ، وحسنا فعل . وأنتم تعلمون أنى أشك فيها شكا قويا . وفيه أيضا كانت ابنة عمه .

الثانية : لاشك أن ابراهيم كان عالما بأنه متى قال عن زوجه أنها أختى ، فان الملك أو غيره من الأمراء سيأخذها زوجة أو جارية له ويفترشها افتراش الزوجة أو الأمة — فكيف تسمح نفس ابراهيم بهذا العمل يؤتى الى زوجته ؟ والرجولة والمروءة تأبيان مثل هذا العمل ؛ بل الموت فى هذا السبيل فخر وذكر .

وليس لنا جواب بازاء هذا الا أن نقول — اذا صح وقوع شىء من ذلك — أن ابراهيم لا يمكن أن يأتى هذا العمل الا بسابق وعد من الله تعالى أن يحفظها ممن يريد أن يمسها ؛ فأتيا هذا الأمر وفى يد ابراهيم وثيقة من الهه القادر بحفظة فيها وحياطتها من كل من يريد أن يقترب اليها بسوء ، وعاقبة ذلك كله الخير لابراهيم بما يدره الملك عليه وعلى زوجه — كما حصل فى هذه الدفعة وفى مصر وهى تشبه هذه تماما — على أنى أشك فى ذلك كما قدمت .

إسماعيل عليه السلام

وإقدام أبيه على ذبحه

هنا نذكر قصة اسماعيل لقصرها ، ولأنها على التحقيق جزء من قصة ابراهيم ، فليس غريبا أن تذكر فى خلالها .

سورة مريم : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا [٥٤] وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا [٥٥]

وجاء فى القرآن قصة ذبح ابراهيم لولده وهمه بذلك الى أن نودى بالكف عن ذبحه ، وأنه فدى بكبش يذبح عوضا عنه .

كانت المنامات عند الصالحين من عباد الله بمثابة الوحى والأمر المباشر . وقد رأى ابراهيم فى منامه أنه أمر أن يقدم ابنه قربانا لله ويحرقه كما تقدم القرابين وتحرق ، وكان ذلك الولد اسماعيل — على ما نذكر فيما بعد — فصدع ابراهيم بذلك الأمر الصادر اليه فى المنام ، وعرض الأمر على ولده فتقبل القضاء بالرضا وقال (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين) . ويقول بعض المفسرين أنه رأى فى منامه أنه يذبح ذلك الولد عملا ، فقص ذلك على ولده فشجعه ابنه على أن يحقق منامه . فلما حقق العمل وأهوى بالمدية الى ذبحه ناداه الله بالكف ، وأن هذا العمل منه يكفى تصديقا للرؤيا . ورأى ابراهيم كبشا قريبا منه فذبحه فدية عن ولده والآيات الخاصة بهذه الحادثة لم تذكر اسم ذلك الولد . ولكن سياق الكلام وذكر تبشير ابراهيم باسحاق بعدها لا يكاد يبقى شكا فى أن الذبيح اسماعيل .

اقرءوا قوله تعالى : —

سورة الصافات : وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ [٩٩] رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [١٠٠] فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ [١٠١] فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ [١٠٢] فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ [١٠٣] وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ [١٠٤] قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [١٠٥] إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ [١٠٦] وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ [١٠٧] وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي

ٱلْآخِرِينَ [١٠٨] سَلَامٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ [١٠٩] كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ [١١٠] إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ [١١١] وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ [١١٢] وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ (١).

ولا شك أن الضمير فى « عليه » راجع الى الذبيح . فالاتيان بالبشرى باسحاق بعد ذكر القصة صريح فى أن اسحاق غير الغلام الذى ابتلى الله ابراهيم بذبحه ، وعود الضمير الى الغلام الذبيح وذكر اسم اسحاق معه صريحا ، يقتضى التغاير بين الذبيح واسحاق . ومعنى « تله » صرعه وألقاه على عنقه وخده .

أما هذه القصة فى التوراة فبطلها عند اليهود اسحاق . وفى اعتقادى أن لفظ اسحاق حشر حشرا فى غضون القصة ، وذلك حرصا منهم على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذى جاد بنفسه فى طاعة ربه وهو فى حالة صغره .

ودليلى على أن الذبيح هو اسماعيل من التوراة نفسها أن الذبيح وصف بأنه ابن

(١) قصة الذبح فى التوراة ـ الاصحاح الثانى والعشرين :

١ ـ وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن ابراهيم فقال له : يا ابراهيم . فقال : ها أناذا .

٢ ـ فقال الرب : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه « اسحاق » واذهب الى أرض الموريا (*) وأصعده محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك .

٣ ـ فبكر ابراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه واسحق ابنه ،وشقق حطبا لمحرقة ، وقام وذهب الى الموضع الذى قال له الله .

٤ ـ وفى اليوم الثالث رفع ابراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد .

٥ ـ فقال ابراهيم لغلاميه أجلسا أنتما هنا مع الحمار ، وأما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ثم نرجع اليكما .

٦ ـ فأخذ ابراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحاق ابنه . وأخذ بيده النار والسكين .

٧ ـ فذهب كلاهما معا وكلم اسحاق ابراهيم أباه وقال : يا أبى ، فقال : ها أنا ذا يا ابنى. فقال : هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة ؟

٨ ـ فقال ابراهيم : الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابنى . فذهبا كلاهما معا .

٩ ـ فلما أتيا الى الموضع الذى قال له الله ، بنى هناك ابراهيم المذبح ورتب الحطب وربط اسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب .

١٠ ـ ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه .

١١ ـ فناداه ملاك الرب من السماء وقال : يا ابراهيم فقال : ها أنذا .

١٢ ـ فقال : لا تمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئا ، لأنى الآن علمت أنك خائف الله ، فلم تمسك ابنك وحيدك عنى (**) .

١٣ ـ فرفع ابراهيم عينيه ونظر ، واذا كبش وراءه ممسك فى الغابة بقرنيه ، فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه .

١٤ ـ فدعا ابراهيم اسم ذلك الموضع «يهوه يرأه» حتى أنه يقال اليوم فى جبل الرب يرى.

(*) كما فى التوراة شليم .

(**) وفى رأيى أن مسألة الذبح كانت قبل ولادة اسحق ، وأن ابراهيم أسكن اسماعيل وأمه مكان مكة قبل مسألة الذبح وأنها حصلت بنواحى مكة لا فى جبل الموريا .

وتحريف أهل التوراة لتوراتهم أمر معلوم كثير الوقوع، ومن شاء شيئا عن ذلك فليراجع « اظهار الحق » لرحمة الله الهندى . راجع صفحات ١٢٦ الى ١٩٦ من الجزء الأول من كتاب اظهار الحق .

ابراهيم الوحيد — أى الذى ليس له سواه اذ سخاوة نفس ابراهيم بولده الوحيد يذبحه امتثالا لأمر ربه له فى منام ، أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله . وهذا هو الاسلام بعينه . اذ الاسلام هو الطاعة والامتثال . وهو دين الله فى الأولين والآخرين . واذا رجعنا الى اسحاق لم نجده وحيدا لابراهيم فى يوم من الأيام ، لأن اسحاق ولد ولاسماعيل نحو أربع عشرة سنة — كما هو صريح التوراة — وبقى اسماعيل الى أن مات ابراهيم . وحضر اسماعيل وفاته ودفنه . وأيضا فان ذبح اسحق يناقض الوعد الذى وعد به ابراهيم أن اسحق سيكون له نسل . وستعلمون فيما يأتى أن مسألة الذبح وقعت فى مكة . لأن اسماعيل ذهب به أبوه اليها رضيعا — كما فى حديث البخارى الآتى :

رحلة إسماعيل وهاجر إلى وادى مكة

رحلة اسماعيل وهاجر الى مكة لم تفصل فى الكتاب الكريم . ولم يذكر منها فيه سوى قوله تعالى على لسان ابراهيم (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم).

ويظهر لى أن ابرهيم دعا هذا الدعاء بعد بناء البيت .

والوادى الذى لا زرع فيه هو الوادى الذى به مكة اليوم .

ولم يبن بمكة شىء بعد البيت الا فى القرن الثانى قبل الاسلام ، فى عهد قصى بن كلاب . فانه بنى دار الندوة وتبعته قريش تبنى حول المسجد . وكان المسجد ساحة فبنوا حوله وذلك من نحو خمسين ومائة سنة قبل الاسلام — راجع صبح الأعشى صفحة ٢٥٠ جزء رابع — ومكة والحرم الذى حولها لا تنبت شجرا يثمر سوى شجر البادية . ففى صفحة ٢٥٥ من الجزء الرابع من صبح الأعشى قال ابن حوقل : وليس بمكة والحرم شجر يثمر (١) الا شجر البادية . أما خارج الحرم ففيه عيون وثمار .

ولقد فصلت مسألة ذهاب اسماعيل عن بلاد أبيه الى فاران فى سفر التكوين . ونحن أولاء نسوقها هنا فى الهامش (٢) .

(١) فى رايى ان ذلك مبالغه فقد رأيت بجياد نخلتين .

(٢) الاصحاح الحادى والعشرين تكوين :

٩ — ورأت سارة ابن هاجر الذى ولدته من ابراهيم يمزح .

١٠ — فقالت لابراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى اسحاق .

١١ — فقبح الكلام جدا فى عينى ابراهيم لسبب ابنه .

١٢ — فقال الله لابراهيم لا يقبح فى عينك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه باسحاق يدعى لك نسل .

١٣ — وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك .

١٤ — فبكر ابراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر ، واضعا اياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت فى برية بئر سبع .

١٥ — ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار .

وفي البخاري : عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسماعيل ، اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة . ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ووضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى ابراهيم منطلقا ، فتبعته أم اسماعيل فقالت : يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انس ولا شيء ، فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قالت اذا لا يضيعنا . ثم رجعت . فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت . ثم دعا بهؤلاء الكلمات ، ورفع يديه فقال : رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . حتى بلغ « يشكرون » . وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى — أو قال : يتلبط — فانطلقت كراهية أن تنظر اليه . فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى

= ١٦ — ومضت وجلست مقابلة بعيدا نحو رمية قوس ، لأنها قالت لا أنظر موت الولد فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت .

فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها . مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله سمع لصوت الغلام حيث هو .

١٧ — قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة .

١٨ — وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام .

١٩ — وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس .

٢٠ — وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

والذي ألاحظه :

أولا : أن مؤلف كتاب التكوين أراد أن يوجد لسارة عذرا في طلبها طرد هاجر وابنها ، فأتى بالآية الأولى من الاصحاح الحادي والعشرين ، ولكن الآية الثانية ناطقة بأن الحامل لها على طلب تغريب اسماعيل انما هو غيرتها منه وأثرتها ، وحبها أن يرث ابنها وحده ابراهيم دون اسماعيل .

وقد قدمت أن هجرة اسماعيل وأمه أو ابعادهما كان قبل وجود اسحق ، وانهما وجدا بتهامة الحجاز قبل ذلك . وفي حديث البخاري : أن اسماعيل كان رضيعا حين أبعد هو وأمه الى مكة . ومحال أن يكون من رضيع مزح ولا غيره ، وانما هي غيرتها من أن يكون لابراهيم ولد من غيرها تراه معها في البيت . وتحريف اليهود لكتابهم أشهر من نار على علم .

ثانيا : أن عبارة الآية ١٤ تفيد أن البلاد التي سكنها اسماعيل وأمه انما هي برية بئر سبع ، ثم ذهب الى فاران ولم يذكر الوادي الذي هو مكة اليوم .

ثم قال في الآية : وسكن في برية فاران . وفاران تطلق على مواضع منها جبال مكة — كما قال في لسان العرب — ونص عبارته : وفي الحديث ذكر فاران وهو اسم عبراني لجبال مكة — شرفها الله — ذكر في أعلام النبوة .

ويدل على أن اسماعيل سكن مكة الآية ١٨ من الاصحاح ٢٥ تكوين . ونصها في الترجمة العربية : وسكنوا من حويلة الى شور التي أمام مصر ، حينما تجيء نحو أشور ، أمام جميع اخوته نزل .

وحويلة : هي خولان . وخولان : قبيلة يمانية تسكن سراة اليمن مما يلي الحجاز وهذا دليل على أن مكة تشملها مساكن اسماعيل وبنيه .

اذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى . ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات» قال ابن عباس: قال النبى صلى الله عليه وسلم « فذلك سعى الناس بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه — تريد نفسها — ثم تسمعت فسمعت أيضا . فقالت قد أسمعت ان كان عندك غوث ؛ فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه — أو قال بجناحه — حتى ظهر المـاء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف » قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم « يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم — أو قال لو لم تغرف من الماء — لكانت زمزم عينا معينا . وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة فان ها هنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه . وأن الله لا يضيع أهله . وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم — أو أهل بيت من جرهم — مقبلين عن طريق كداء . فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين ، فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء . فأقبلوا » قال « وأم اسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ، فقالت نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء ، قالوا نعم » قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم « فألفى ذلك أم اسماعيل وهى تحب الانس . فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب . فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل . فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر نحن فى ضيق وشدة ، فشكت اليه . قال : فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئا فقال هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة ، قال فهل أوصاك بشىء ؟ قالت نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك ، قال ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، الحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج أخرى . فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت خرج يبتغى لنا ، قال كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله ، فقال ما طعامكم؟ قالت اللحم ، قال فما شرابكم ؟ قالت الماء ، قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء » قال النبى صلى الله عليه وسلم « ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دعا لهم فيه » قال « فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة الا لم يوافقاه » قال « فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء اسماعيل قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ، فأخبرته أنا بخير ، قال فأوصاك بشىء ؟ قالت نعم

هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال ذاك أبى . وأنت العتبة ؛ أمرنى أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله . ثم جاء بعد ذلك . واسماعيل يبرى نبلا له قريبا من زمزم ؛ فلما رآه قام اليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا اسماعيل ؛ ان الله أمرنى بأمر ؛ قال فاصنع ما أمرك ربك ، قال وتعيننى ؟ قال : وأعينك ، قال فان الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتا وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها » قال «فعندك ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة وابراهيم يبنى . حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم» قال « فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » اهـ وقد قرأت فى كتاب من كتب الأدب العبري قريبا من ذلك .

بنـــاء البيت

لما ترك ابراهيم اسماعيل وهاجر بالوادى الذى به مكة اليوم ، كان يزور ولده اسماعيل — الحين بعد الحين — ففى احدى هذه الزيارات أمر الله تعالى ابراهيم واسماعيل أن يبنيا البيت فصدعا بالأمر وبنيا الكعبة . ولما تم بناؤها أمره الله تعالى أن يعلم الناس بأنه بنى بيتا لعبادة الله تعالى وأن عليهم أن يقصدوه للنسك . وطلب ابراهيم واسماعيل من الله تعالى أن يريهما المناسك التى ينسكانها . وبقى ابراهيم بعد ذلك زمنا طويلا حيا :

والكعبة أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى . فى حين أن بقية الشعوب والقبائل فى سائر أنحاء الأرض كانوا يبنون البيوت لعبادة الأصنام والتماثيل .

كان أهل مصر يعبدون آلهة متعددة ، تارة فى وقت واحد . وتارة فى أوقات متعددة . فمن عبادة الشمس . الى عبادة الثور ، الى عبادة الآلهة الثلاثة : أزوريس وايزيس وابنهما حوريس. وكانوا يرمزون بذلك الى صفات الله تعالى . ويصنعون التماثيل لتلكم الرموز . وكان الأشوريون يعبدون بعلشموش أى الاله الشمس ويصنعون له صنما على نحو أبى الهول له رأس انسان وجسم أسد وله أجنحة .

وكان الكنعانيون يعبدون البعل ، وهو على وصف بعل شموش بدون أجنحة ، وقد رأيته مشوها فى معبد بعلبك — المعروف الآن بقلعة بعلبك — وكان أهل نواحى غزة يعبدون داجون [1] ويصورونه انسانا له جسم سمكة : والعمونيون وأهل باشان كانوا يعبدون بعل فغور . وآخرون كانوا يعبدون العشتارون — أى القمر — صنم على هيئة أنثى .

(١) هذا الاسم مأخوذ من كلمة (دج) العبرية ومعناها سماك .

اقرءوا قوله تعالى فى سورة آل عمران : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ [٩٦] فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ [٩٧]

وفى سورة البقرة: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ [١٢٥] وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [١٢٦] وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [١٢٧] رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [١٢٨] رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [١٢٩]

وفى سورة إبراهيم: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [٣٥] رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٦] رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ [٣٧]

وفى سورة الحج : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ [٢٦] وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ [٢٧] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ [٢٨] ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ [٢٩] ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ [٣٠] حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ [٣١]

ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ [٣٢] لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ [٣٣] وفيها : وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٣٦] لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ [٣٧]

استطراد

يريد بعض الناس أن ينفى العرب عن ابراهيم واسماعيل ، فيتذرع الى ذلك بنفى وجود ابراهيم واسماعيل تاريخيا ، بمعنى أنه لم يكن فى ذلك الوقت الذى يدعى لهما من يدون التاريخ ويسطر أحواله . ومعلوم أن عدم وجود مؤرخ يكتب عن ابراهيم واسماعيل لا ينفى أنهما وردا سجل الحياة ، فان الجد الذى يكمل العشرة من أجدادى ، لم أعلم اسمه ، ولم يسجله تاريخ ، فهل معنى ذلك أن ليس لى جد عاشر ؟

وعلى النافى أن يثبت أن حوادث عصرهما مسجلة — كبيرها وصغيرها — بيد مؤرخين كانوا فى تلك الأمكنة ، فتركهما محدث للريبة ، على أن ابراهيم واسماعيل قد ورد الخبر عنهما متواترا والتواتر حجة قطعية .

يقولون : ان وجود ابراهيم واسماعيل انما هو أمر اخترعه اليهود بعد الهجرة ليتقربوا الى العرب المسلمين ، وهذا القول حجة داحضة ، لأنه يقتضى أن ذكر اسماعيل وأنه أبو العرب المستعربة شىء اخترع زمن البعثة ، بعد الهجرة ! اخترعه اليهود ليوجدوا صلة بينهم وبين العرب ، فى حين أن مسألة اسماعيل موجودة فى سفر التكوين من أسفار التوراة ! وقد ترجم فى نحو سنة ٢٨٠ قبل الميلاد من العبرية الى اليونانية ، فى عصر بطليموس فيلادلف — وهو بطليموس الثانى — فى الترجمة المشهورة بالسبعينية التى قام على ترجمتها بالاسكندرية سبعون حبرا من أحبار اليهود ، وذلك قبل هجرة محمد صلى الله عليه وسلم بتسعة قرون ، وهو دليل مؤرخ معروف فى التاريخ ، وتلك دعوى لا دليل عليها . رجعوا بعد ذلك يقولون : ان ابراهيم لم يبن البيت ، واسماعيل لم يكن ولم يوجد بمكة ، وانه ربما كان هناك بلدة أخرى اسمها بكة خارج بلاد العرب وهى غير مكة ، وجد بها ذلك البيت الذى أخبر الله أنه أول بيت وضع للناس ، وقد أعياهم أن يجدوا ذلك .

ومعلوم أن لفظ « مكة » عربى والعربية احدى اللغات السامية ، وقد قال جورج زيدان بك فى كتابه العرب قبل الاسلام : أن لفظ « بيك » معناه البيت ، وعزا ذلك الى لغة سامية . ومعلوم

ان اللغة العربية فيها ابدال الباء ميما وبالعكس . ومن القبائل التى تفعل ذلك مازن ، فيقولون فى بكر مكر ، وفى مكان بكان . وعندنا فى بلاد الصعيد وغيرها أثر من ذلك الى اليوم . وفى بلاد العرب كذلك كما نص عليه صديقنا البحاثة الرحالة محمد لبيب البتنونى بك فى رحلته الحجازية . فمكة هى عين بكة ، ومعناها البيت اطلق على ما جاوره توسعا . وهذه كلمة « بعل بك » مركبة من كلمتين « بعل » ومعناه الاله و «بك» ومعناه البيت ؛ أى بيت البعل ، اسم للمعبد الذى أقيم باسم البعل ووضع به صنمه ، وهو به الى اليوم مشوه الوجه كما رأيته فى سنة ١٩٠٨ ، وقد أطلق هذا الاسم على المدينة التى فيها بيت البعل — كما هو الواقع بمكة .

هذا وأما وصف الكعبة والحرم ومكة وتاريخ مكة والبيت فقد وفاه صديقنا البحاثة محمد لبيب البتنونى بك فى كتابه الرحلة الحجازية .

أولاد إسماعيل

وقد ذكر فى الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين أولاد اسماعيل الذكور وهم اثنا عشر ولدا رؤساء قبائل[١] .

عمر إسماعيل ووفاته

وفيها أن اسماعيل عاش مائة وسبعا وثلاثين سنة . وفيها أيضا ما يشير الى أنه مات بفلسطين. ولكن ما عليه مؤرخو العرب أنه بمكة . ويظن أنه دفن بالحجر الذى بجوار البيت هو وأمه.

بقية أولاد إبراهيم غير إسماعيل وإسحاق

هؤلاء الذين نذكرهم لم يبينوا فى القرآن ، ولم يذكر أحد منهم فى معرض أنه من أولاد ابراهيم .

ولكن هذه الأمور ذكرت فى الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين ، ونص عبارته كاف عن الشرح وهو :

(١) عاد ابراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة فولدت له : زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا .

---

(١) وهذا نص العبارة :

١٢ — وهذه مواليد اسماعيل بن ابراهيم الذى ولدته هاجر المصرية جارية سارة لابراهيم

١٣ — وهذه أسماء بنى اسماعيل بأسمائهم حيث تواليدهم :

١ — نبايوت بكر اسماعيل ٢ — وقيدار ٣ — وادبئيل ٤ — ومبسام ٥ — ومشماع ٦ — ودومة ٧ — ومسا ٨ — وحدار ٩ — وتيما ١٠ — ويطور ١١ — ونافيش ١٢ — وقدمه .

١٦ — هؤلاء بنو اسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم ؛ اثنا عشر رئيسا حسب قبائلهم .

وفاة إبراهيم

لم يجر لوفاته ذكر فى القرآن ، ولكن ذلك ورد فى الاصحاح الخامس والعشرين تكوين ، من أول الآية السابعة الى آخـر الآية العاشرة . وملخصها أن ابراهيم عاش مائة وخمسا وسبعين سنة ، ولما مات دفنه اسحاق واسماعيل فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صرصر الحثى ، وفيها دفنت سارة من قبل ، وهو الموضع الذى عليه مقام الخليل فى حبرون ، وتسمى مدينة الخليل ، وكان اسمها فى الأصل « قرية أربع » .

قصة إسحاق

قدمنا ما كان من تبشير الملائكة ابراهيم وزوجه سارة بولدهما ، وأنها أسمته اسحاق . ولم يذكر فى القرآن الكريم من قصصه الا البشارة ، وأنه غلام عليم ، وأنه نبى من الصالحين ، وأن الله بارك عليه . وقدمنا أن اليهود والنصارى يدعون أنه الذبيح مع تكذيب التوراة لهذه الدعوى أيضا . ودليلهم هو الاصحاح الثانى والعشرون . وقد تقدم فى قصة اسماعيل .

زواج إسحاق

ومما لم يقصه القرآن من أمر اسحاق . زواجـه من ابنة بتوئيل بن ناحور . وانما قصته التوراة فى الاصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين ، وملخصها أن ابراهيم لما شـاخ أتى بعبده المستولى على بيته « لعازر » وأحلفه على أنه لا يأخذ لابنـه اسحاق زوجـة من بنات الكنعانيين الموجودين فى فلسطين ، بل يأخذ له زوجة من عشيرته وبنى أبيه . وأنه لا يرد ابنه الى الأرض التى خرج هو منها اذا تأبت عليـه الزوجة وامتنعت من الانتقال . فذهب ذلك العبد وهيأ ما يصلح أن يكون هدية للزوجة ، وأخذ من الجمال والأموال ما أحب ، وذهب الى آرام وأناخ جماله خارج المدينة التى بها أسرة ناحور — أخى ابراهيم — واذا هو بفتاة حسنة المنظر خرجت من المدينة وجرتها على كتفها ، فملأت الجرة فقال لها العبد : اسقينى ! فأنزلت الجـرة وأعطته اياها ليشرب وقالت : استقى لجمالك أيضا ، فتفرس فيها الى أن فرغت من سقى الجمال ، وحلى أنفها بخزامة من ذهب ويديها بسوارين من الذهب وسألها : بنت من هى ؟ وهل عنـد أبيها مكان لمبيته وجمـاله فأخبرته بأنها بنت بتوئيل بن ناحور وأن عنـدهم مبيتا وعلفا لماشـيته وأسرعت الى البيت وأخبرت بما رأت ، وكان اسم الفتاة « رفقة » وقام لابان بن بتوئيل فى الحال الى حيث عبد ابراهيم وأضافه وأكرم مثواه . وفى الحال أخبرهم عبد ابراهيم بما جاء لأجله ، وأنه يريد « رفقة » لابن سيده . فأجابوه الى ما طلب وأعطاها آنية من ذهب وفضة وثيابا وتحفا لأخيها وأمها . ثم طلب اليهم أن ينصرف سريعا ، ووافقته « رفقة » على التعجيل بالمسير . فذهب بها الى ديار سيده .

وكانت عزاء لاسحاق بعد موت أمه . ثم ان رفقة ولدت توأمين هما : عيسو ويعقوب ، وكان خروجهما من بطنها بهذا الترتيب .

وكان عيسو فى كبره مغرما بالصيد ، ويعقوب وادعا ، فأحب اسحاق عيسو ، وأحبت رفقة يعقوب . وكان فى ذلك الزمن للبكر امتياز على غيره فى الميراث بحق البكورية . فجاء عيسو يوما متعبا لم يظفر بصيد . وقد هيأ يعقوب طعامه من عدس فأراد عيسو أن يأكل منه ، فأبى عليه ذلك الا أن ينزل له عن حق البكورية ففعل .

وأن اسحاق — لما كبر — أراد أن يدعو لولده عيسو ويبارك عليه ، وطلب اليه أن يصيد صيدا ويهيئه للأكل ، حتى اذا أكل منه خصه بدعواته . وسمعت رفقة فأحبت أن تكون البركة ليعقوب ، فأمرته فصنع طعاما من جدى ذبحه وقربه الى والده ، وأوهمه أنه عيسو ، وكان اسحاق قد كبر وساعدته أمه على ذلك ، فأكل ودعا له ، فحقدها عليه عيسو فهرب الى خاله « لابان » فى فدان أرام وخدمه وتزوج ابنتيه : ليئة وراحيل . وجاريتيهما : زلفا وبلها .

تغرب إسحاق

وأنا أستبعد أن يكون أبو مالك الذى كان ذكر فى القرآن : أنه حصل جوع فى الأرض — كما حصل فى عهد ابراهيم — وتغرب فى جرار عند أبى مالك . وقالت رفقة عن زوجها اسحاق أنه أخى وهو أيضا قال أختى . ورأى الرجل اسحاق يلاعبها فعلم أنها زوجته ، فعاتب اسحاق . وحصل ما حصل فى شأن ابراهيم وسارة .

وأنا أستبعد أن يكون أبو مالك الذى كان فى عهد اسحاق هو الذى كان فى عهد ابراهيم ، كما هو المتبادر من عبارة الاصحاح السادس والعشرين تكوين . لأن ذلك كان رجلا كبيرا قبل أن تحمل سارة باسحاق . واسحاق كان قد جاوز الأربعين فى تغربه .

ومما ذكر أيضا أن اسحاق قد كثرت أمواله وعبيده وحفر آبارا ، وكلما حفر بئرا نازعه عليها أهل جرار فيتركها لهم ويحفر بئرا أخرى . وأن الملك ورؤساء جنده صالحوا اسحاق أخيرا وعقدوا معه صلحا .

موت إسحاق

وفيها أن اسحاق عاش مائة وثمانين سنة ، ودفن فى حبرون — وهى مدينة الخليل اليوم — بمغارة المكفيلة .

لوط عليه السلام

هو لوط بن هاران — أخي ابراهيم — بن تارح . آمن بابراهيم واهتدى بهديه كما قال تعالى (فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى ... الخ) وتبع ابراهيم عمه فى رحلاته فكان معه بمصر وأغدق عليه ملك مصر كما أغدق على ابراهيم . فكثر ماله ومواشيه . ثم افترق من ابراهيم عن تراض لأن الأرض لم تتسع لمواشيهما ، ونزل الى سدوم فى دائرة الأردن .

أهل سدوم

كان أهل سدوم ذوى أخلاق رديئة لايستحون من منكر ولا يتعففون عن معصية يأتونها على رءوس الاشهاد . كما قال تعالى على لسان لوط وهو يعظهم وينهاهم (وتأتون فى ناديكم المنكر)

قرأت فى كتاب من كتب الأدب العبرى وصفا لهم . وهو أنهم كانوا يتربصون لكل داخل مدينتهم من التجار ويجتمعون عليه من كل أوب ، ويمدون أيديهم الى بضاعته يأخذ كل واحد منها شيئا قليلا حتى لا يبقى فى يده شيء . فاذا جلس حزينا وجأر بالشكوى . يأتى الواحد منهم ويقول كل هذا لأنى أخذت هذا الشيء اليسير ؟ دونكه ، فيقول : ما عسى أن ينفعنى ما جئت به بعد أن ذهبت بضاعتى . اذهب عنى بهذا الذى جئت به . فاذا انصرف جاءه آخر بشيء تافه يريد رده عليه ، فيتركه الرجل لزهادة ما أتى به وينصرف . وهكذا يخسر الرجل بضاعته بتفرقها فى الأيدى الكثيرة . فهم كما قال تعالى (وتقطعون السبيل) .

وفى ذلك الكتاب من دلائل ظلمهم واستغراقهم فيه : أن سارة زوج ابراهيم أرسلت الى لعازر كبير عبيد ابراهيم ليأتيها بسلامة لوط . فلما دخل مدينة سدوم لقيه رجل من أهلها فعمد الى لعازر بحجر ضربه به فى رأسه فأسال منه دما كثيرا . ثم تعلق به قائلا : ان هذا الدم لو بقى لأضر بك ، فأعطنى أجرى . ثم آل الأمر بينهما الى الترافع الى قاضى سدوم . فلما سمع للخصمين حكم على لعازر بأن يعطى للسدومى أجر ما ضربه بالحجر وأسال دمه ، فلما رأى لعازر الجور من القاضى والخصم فى أمره ، عمد الى حجر ضرب به رأس القاضى فأسال دمه وقال له : الأجر الذى وجب لى عليك باسالة دمك — عليك أن تعطيه لضاربى السدومى جزاء ضربه اياى واسالة دمى.

ولقد كنت اقرأ قول المعرى .

وأى امرىء فى الناس ألفى قاضيا　　ولم يمض أحكاما لحكم سدوم

فلم أفهم ما يعزوه بهذا البيت ، ولم أعرف ماسدوم حتى قرأت هذه القصة ففهمت معنى البيت.

هذه الحكاية — مع احتمال وضعها — تفيدنا معرفة الفكر العام فى أحوال هؤلاء النـاس وأنهم من الشر بحيث يصلحون أن تسند اليهم أمثالها .

قدمنا فى قصة ابراهيم أن الملائكة أخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط ، الذين هـم أهل سدوم وعامورة . وأن ابراهيم خاف أن يـمس لوط بأذى ، فأخبر بأنه ناج هو ومن آمن معه ثم أخبر فى آخر القصة بأن وقوع العذاب بالقوم أمر حتم ، لا تقبل فيه شفاعة ولا يغنى جدال (يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود) .

ذكرت قصة لوط بتمامها فى عدة سور باختلاف يسير . وبعضها يكمل بعضا وتتلخص فى أن قوم لوط كانوا من الشر بمكان ، وأنهم كانوا يقطعون الطريق على السابلة ، وقد ذهب الحياء من وجوههم فلا يستقبحون قبيحا ولا يرغبون فى حسن . كما قال الله تعالى حكاية عن لوط (وتأتون فى ناديكم المنكر) وكانوا قد ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم اليه أحد من خلق الله. وذلك أنهم كانوا يأتون الذكران من العـالمين شـهوة من دون النساء . يسـتعلنون بذلك ولا يستترون ولا يرون فى ذلك سوءا أو قبحا . وأن لوطا قد وعظهم ونصحهم ونهاهم وخوفهم بأس الله تعالى فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا . فلما ألح عليهم بالعظات والانذار هددوه تارة بالرجم وتارة بالاخراج من بينهم . الى أن جاء الى لوط الملائكة — الذين مر ذكرهم فى ابراهيم وبشروه بابنه اسحاق — وقد جاءوا الى لوط بهيئة غلمان مرد حسان الوجوه ، فجاء أهل القرية الى لوط طالبين ضيوفه ليفعلوا فيهم الفاحشة . وقد جهد لوط فى ردهم وبالغ فى ذلك حتى طلب اليهم أن يأخذوا بناته فلم يصغوا اليه . حينئذ التفت لوط الى الملائكة وقال (لو ان لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) أى لجاهدتهم بكم وأوقعت بهم ما يستحقون ، وكان لا يعلم أنهم ملائكة الى ذلك الحين ، وحينئذ أعلمه الملائكة بحقيقة أمرهم ، وأنهم جاءوا للتنكيل بأولئك القوم . ولما حاول أهل القرية أخذ أولئك المردان بالقوة وهجمـوا على بيت لوط ، طمس الله أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا الى مكان يقتحمون منه عليه وعلى من معه . ثم أخرج الملائكة لوطا وابنتيه وزوجه من القرية وأمروهم ألا يلتفت منهم أحد وأن يحضروا حيث يؤمرون ، فصدعوا بالأمر الا امرأته فانها التفتت الى القرية لترى ما يحل بها ، وكان هواها فى أهل القرية دون لوط فحل بها من السخط والعذاب ما حل بهم ، وكانت كافرة غير مؤمنة ، فأمطر الله عليهم حجارة من سجيل، وقلبت ديار القوم وجعل عاليها سافلها .

وأعتقد أن البحر الميت — المعروف الآن ببحر لوط وبحيرة لوط — لم يكن موجودا قبل هذا الحادث وانما حدث من الزلزال الذى جعل عالى البلاد سافلها ، وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر وقد جاءت الأخبار فى السنتين الماضيتين بأنهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت .

انظروا إلى قوله فى سورة الأعراف : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ [٨٠] إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ [٨١] وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [٨٢] فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [٨٣] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ [٨٤]

ثم فى هود : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ [٧٧] وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ [٧٨] قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ [٧٩] قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ [٨٠] قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ [٨١] فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ [٨٢] مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ [٨٣]

وفى سورة الحجر : فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ [٦١] قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ [٦٢] قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ [٦٣] وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [٦٤] فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ [٦٥] وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ [٦٦] وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ [٦٧] قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ [٦٨] وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ [٦٩] قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ [٧٠] قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [٧١] لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ [٧٢] فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ [٧٣] فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ [٧٤] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [٧٥]

وفى سورة الشعراء : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ [١٦٠] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ [١٦١] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [١٦٢] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [١٦٣] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٦٤] أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ [١٦٥] وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ

مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ [١٦٦] قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ [١٦٧] قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ [١٦٨] رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ [١٦٩] فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ [١٧٠] إِلاَّ عَجُوزاً فِى الْغَابِرِينَ [١٧١] ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ [١٧٢] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ [١٧٣] إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [١٧٤] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [١٧٥]

وفى سورة النمل : وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ [٥٤] أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [٥٥] فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [٥٦] فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ [٥٧] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ [٥٨]

وفى سورة التحريم : ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ [١٠]

مسألة

كيف سمحت نفس لوط بابنتيه أو بناته يقدمهن لهؤلاء الفسقة وهو نبى معصوم من المعصية كما هو معتقد جمهور المسلمين فى عصمة الأنبياء ؟ وهذه المسألة لها عدة أجوبة :

(أولها) أن لوطا لم يعرض عليهم بنـاته الصلبيات ، وانما عرض عليهم بنات القرية وهن أزواجهم ، لأن كل نبى أرسل الى قوم فأولادهم أبناؤه ونساؤهم بناته — مجازا — وهذا جواب سخيف اذ كيف يكون لوط أبا لهؤلاء الكافرات غير المؤمنات ؟ وكيف يعبر عنهن ببناتى وهن يأبين أبوته ويكفرنه ويجحدون نبوته ورسالته ؟ فهذا الجواب لا أرضاه ولا تطمئن له نفسى .

(ثانيها) أن الملائكة الذين طمع فيهم هؤلاء الفجرة كانوا ثلاثة . ولا يعقل أن يكون كل واحد من أهل القرية — الذين جاءوا اليه يزفون — يأمل أن ينال حاجته منهم ، وأهل القـرية يبلغون ألفا أو يزيدون . ولكن المعقول أنه كان هناك رئيسان مطاعان أو ثلاثة فى القوم — وهم الذين يطلبون الملائكة — وانما عبر بأهل القرية لمظاهرتهم لهم حتى يتم مرادهم ، فعرض لوط على القوم بنتيه الصلبيتين ليأخذوهما بطريق التزوج لا على سبيل الزنا . وهـذا الجواب قابل لأن يحوز مكان القبول . ولكن الذى سأشرحه فيما يأتى أولى منه بالقبول . فقد نص على هذا الجواب أبو السعود فى سورة هود .

(ثالثها) أن لوطا عرض على القوم بناته عرضا سابريا [1] — أى عرضا غير مؤكد — لا يقصد به الجد وأن يعطيهم بنتيه للزنا . ولكن عرض بنتيه اعتمادا على أنهم يستحيون منه ويخجلون ليكفوا عن خزاياته فى ضيفه — كما تقول لرجل يضرب آخر وأنت تحجزه عنه: دعه واضربنى أنا . لأنك تقول هذا القول وأنت جد واثق بأنه لا يضربك . ولو علمت أنه يضربك حقيقة ما قلت هذا القول ولا تعرضت للشفاعة — وهذا القول قد أورده كثير من المفسرين كأبى السعود والفخر الرازى والأصفهانى وغيرهم . وهذا الذى أرضاه وأختاره .

ذكرت قصة لوط فى التوراة على النحو الذى ورد فى القرآن، ولا تخالفه الا فى شىء واحد وهو أنها لم تذكر عرض بناته على القوم . وذكرت أن زوج لوط وهى سائرة للابتعاد من المدينة التفتت فصارت عمود ملح ، وأن لوطا التجأ الى قرية تسمى صوعر — أى الصغيرة — ونجا هو وابنتاه ولم تمس صوعر بضرر .

مسألة أخرى

ما هو مرجع كاف الخطاب فى قوله (لو أن لى بكم قوة) ؟

— الجواب : أنه قومه الذين جاءوا يهرعون اليه . والمعنى لو أجد قوة تمكننى من صدكم واحلال النكال بكم . وهذا الجواب لا أميل اليه . وخير منه أن يقال أن مرجع الخطاب هم الملائكة . وعلى ذلك فان لوطا تمنى لو كان عدد ضيفه كثيرا ليجد بهم قوة على مجاهدة قومه وكفهم والايقاع بهم . ولذلك ردوا عليه بقولهم (يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) .

مكان العبرة فى قصة إبراهيم وما معها

(١) أن العقيدة الحقة اذا تغلغلت فى النفوس وأشربتها القلوب استولت على فكر الانسان واستغرقت كل خطوات قلبه وملكت عليه مشاعره ووجدانه ، فهو يستهين بالنار يلقى فيها وكل عذاب يحل به دون أن يرجع أو يتقهقر ، والمثل الأعلى فى ذلك : ابراهيم : الذى كان أول من ضرب المثل للأمم والأجيال بعده .

(٢) أن ثورة ابراهيم على الأصنام وعبادتها لم تكن ثورة كلامية ، بل كانت ثورة عملية . اذ جعل أصنامهم جذاذا الا كبيرا لهم ، وجعل عمله وسيلة لمحاجتهم حتى أفحمهم . فلجئوا الى مخاشنته والقائه فى النار فكانت عليه بردا وسلاما .

(٣) أن ابراهيم لم يدخر وسعا فى ابتكار أساليب الدعاية الى ما رآه من الحق . فتارة يلجأ الى النجوم عله يجد فيها الها ، فلما أفهمهم أن كواكب السماء كلها لا يصح فيها آلهة جهر بأمره قائلا (وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) فلم يتبرأ من

---

(١) السابرى وهو بَزٌ صفيق النسج متلاحم ، وبائعه لا يلح فى عرضه ولا يزينه للمشترى .

لهتهم لأول وهلة وبادىء الرأى ، بل بعد ما جرهم الى امتحان الآلهة واحدا بعد آخــر وأبان عجزها وعدم صلاحيتها لأن يكون واحد منها إلهاً .

(٤) أن ابراهيم كان جديرا بما قال الله فيه (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) فقد كان يجادل الملك ويحاجه غير متتعتع ولا وجل ، حتى ألزمه الحجة وألبسه الخزى .

واقرءوا قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [٢٥٨] سورة البقرة

(٥) أن ابراهيم كان رقيق القلب . يتجلى ذلك فى جوابه لأبيه اذ قال له (لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) فأجابه بقوله (سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا) وقوله (واغفر لأبى انه كان من الضالين) وقوله (فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) .

وهكذا ينبغى أن يكون الداعى الى الحق حليما واسع الصدر عظيم الأناة طويل البال .

(٦) أن الايمان الحق اذا اطمأن به قلب أورثه الطاعة التى لا معصية معها ، حتى أن ابراهيم لما طلب منه فى المنام أن يقدم ابنه الذى ليس له سواه امتثل ذلك الأمر ، مقدما رضا الله تعالى على رضا نفسه ، وقام بكل استعداد لتقديم ابنه قربانا لله الى أن فداه الله بذبح عظيم .

(٧) أن ابراهيم كان مضيافا ولا يرضى لأضيافه بمــا يقيم أودهم ، بل كان يكثر لهــم من القرى . لأن ثلاثة أضياف لا يقدرون على التهام عجل سمين ، بل هو يفضل عنهم ، وكان يكفيهم عناق صغير أو بعض الفطير يقدم اليهم . ولكنه أظهر حفاوة هونت عليه أن يبذل من ماله كل كريم . ولا يفعل ذلك الا الكريم .

وهانذا استطرد لكم حكاية قرأتها فى بعض الكتب العبرية الأدبية . وهى أن ابراهيم نظر الى البرية يوما فرأى رجلا قد بلغ من الكبر عتيا يمشى وفى يده عكازته . فقام واستقبله وأضافه وقدم له طعاما . فلما طعم الرجل مع ابراهيم قال ابراهيم : هلم نشكر الله الذى أطعمنا ورزقنا هذه النعم . ولكن الرجل أبى وقال : لا أعرف الله الذى تقوله ، وانما أشكر إلهى الذى فى بيتى — يعنى صنمه — فغضب ابراهيم وطرد الرجل . فلما ولى الرجل عنه رجع ابراهيم باللائمة على نفسه قائلا : ان الله سبحانه قد خلق هذا الشيخ وحباه بجلائل النعم وأطال عمره وقد مضى عليه الآن مائة سنة يكفر بالله ويجحده ولا يؤدى شكر شىء من نعمه عليه . ومع اصراره على الكفر وتماديه فى الضلال لم يقطع الله عنه نعمة من نعمه المتواصلة ، وأنا لأنى أطعمته مرة واحدة وخالف مشورتى فى عبادة الله أطرده ، وأسف لذلك أسفا شديدا .

فخلق الكرم فى ابراهيم كان بالغا حده الأعلى .

(٨) كان ابراهيم ذا نفس طلعة يحب استكناه الأشياء والوقوف على دقائق صنع الله تعالى . ولذلك طلب من الله أن يريه أحياء الموتى ليطمئن قلبه. وقد قدمنا موقفه فى ذلك من القرآن والتوراة.

(٩) كان ابراهيم قائما على قدم الاستعداد لتنفيذ أوامر الله تعالى ، فيما أحب أو كره دون تبرم ولا تذمر ، متحليا بالتقوى والطاعة والشكر والصبر . وهى مزايا بارعة قل من الناس من يجمعها . وما اجتمعت هذه الخصال فى شخص الا برع أهل جيله وفضلهم .

انظروا إلى قوله تعالى : وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [١٣٠] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [١٣١] من سورة البقرة

ذلك أن كثيرا من الناس يدعون الى الخير الذى لم يعهده فتكون منهم نبوة عنه لأول وهلة وتوقف عن الاجابة ريثما تطمئن النفس وتأنس بهذا الشيء الغريب الذى لا الف لها به . ولكن ابراهيم لم يكن منه شيء من ذلك . بل كانت نفسه مستشرفة للهداية متلبية للدخول فى الطاعة . فلم تكن منه هفوة ولا نبوة كما قال صلى الله عليه وسلم ما معناه « ما دعوت أحدا من أصحابى الى الاسلام الا كانت منه هفوة الا أبا بكر » وأما صبره على المكاره وايثاره رضا الله تعالى عنه فيتجلى فى تقديمه ولده الواحد « اسماعيل » ليقتله بيده ويقربه قربانا لله تعالى ، ويحرق جثمانه بيده فأقدم على ذلك صابرا غير مكابر ولا متضجر .

(١٠) أن اسماعيل كان عبدا مخلصا من صغره وقبل أن يبلغ حد التكليف صابرا على المكاره . فان أباه أخبره أنه رأى فى المنام انه أمر بذبحه فأجاب الى ذلك صابرا غير متألم ولا متبرم . ولم يعارض فى ذلك ولم يحل على أن ذلك أضغاث أحلام بل قال له (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين) .

(١١) أن اسماعيل كان اذا وعد صدق ، فقد وعد والده الصبر على أن يكون قربانا ، ووفى بوعده وصدق فيما قال . كما قال تعالى فيه (واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا) . وأى صبر لغلام لم يبلغ الحلم — وللغلمان آمال كبار فى الحياة — يقدم لينحر على الحطب كما تنحر الشاة فيتقبل ذلك راضية نفسه ويطلق آماله . ويعتنق آلامه . كل ذلك كثير وصاحبه جدير بالثناء وحقيق بكل وصف كريم .

(١٢) ويدل ما تقدم فى قصة لوط على كرم محتد كريم واستمساك بالذمام ورعاية للجار والنزيل . فقد أراد قومه سوءا بضيفه فقام يذب عنهم ويدافع أهل بلده دونهم . وعرض بناته فدية لهم كراهة أن يخزوه فى ضيفه .

قال أبو السعود فى تفسيره لسورة هود : فانه اذا أخزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل . وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة . وظلم الجار اذلال المجير .

(١٣) تدل قصة لوط على أنه كان عظيم الايمان مطمئن القلب به ، حتى أنه لم يحتج من عمه الى معالجة وأنه فى سبيل الايمان بالله تعالى قد رضى بأن يهاجر من وطنه ويبتعد عن قومه مع علمه بأن الجلا سبا والنقلة مثلة . قال الله تعالى فيه (فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى) .

يعقوب عليه السلام

أولاد يعقوب عليه السلام — يوسف عند أبيه — يوسف عند سيده — محنة يوسف — يوسف وامراة العزيز — شيوع الخبر فى المدينة وتحدث النساء به — دعوة امراة العزيز للوائمها — يوسف فى السجن يدعو لدينه — الفرج ليوسف — يوسف بحضرة الملك — أخوة يوسف فى مصر يمتارون — أخوة يوسف عند أبيهم — حيلة يوسف فى ابقاء بنيامين عنده — يوسف يتعرف الى اخوته — الأخلاق التى تستفاد من قصة يوسف واخوته — فضيلة الشكر — العظة البالغة .

هو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام من « رفقة بنت بتوئيل » أخى ابراهيم . كان يعقوب أثيرا عند أمه . فلما دعا اسحاق ليعقوب وهو يظنه عيسو — وجاء عيسو وقد علم بذلك أخذ منه الغيظ مأخذه ، وخشيت رفقة على يعقوب أن يبطش به عيسو . فأشارت عليه أن يذهب الى خاله « لابان » فذهب الى فدان آرام ، وأقام عند خاله يخدمه فى نظير تزويجه بابنته راحيل . ولكن خاله أدخله على ابنته ليئة التى لا يريدها يعقوب . فكلم خاله فى ذلك فقال له اخدمنى عشر سنين أخرى لأزوجك راحيل ففعل وتزوج أيضا من جاريتيهما : زلفا وبلها . ومنهن كان أولاده وقد ولد له أولاده جميعا فى آرام الا « بنيامين » ثم جاء الى فلسطين بمال كثير ونعم جليلة وأهدى الى أخيه بعضها وهو خائف أن يبطش به . ولكن عيسو قابله مقابلة حسنة [1] .

---

(١) هذه الحكاية لم تذكر فى القرآن . ولكن هذا ملخص صغير لما فى التوراة .

يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب — اسرائيل الله — بن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام .

ان قصة يوسف عليه السلام تتصل بقصة يعقوب عليه السلام . وقد مر بعضها فى قصة اسحاق لتدخلها فيها . وسيمر بنا فى قصة يوسف عليه السلام قدر وافر من قصص يعقوب عليه السلام .

أولاد يعقوب عليه السلام

كان ليعقوب من الولد اثنا عشر ولدا ذكرا وهم (١) رأوبين : بكر يعقوب (٢) شمعون (٣) لاوى (٤) يهوذا (٥) ويساكر (٦) زبولون — من ليئة بنت خاله لابان (٧) يوسف (٨) بنيامين — من راحيل بنت خاله لابان (٩) دان (١٠) نفتالى — من بلهـا جارية راحيل (١١) جاد (١٢) أشير — من زلفا جارية ليئة .

وهؤلاء الأولاد ولدوا له وهو فى فدان آرام يرعى غنم خاله لابان فى نظير تزوجه ابنتيه ليئة وراحيل . وعاد بهما بعد انقضاء الأجل — وبعد أن أخذ من غنم خاله نتاج سنة — الى أرض كنعان الا بنيامين فقد ولد فى كنعان .

يوسف عند أبيه

كان يوسف جميل الصورة أثيرا عند أبيه يخصه بقسط عظيم من محبته . وكان ذلك سببا فى حقد اخوته عليه وسببا فى محنته التى كانت خيرا وبركة عليه وعلى الأمم القريبة من مصر ، وعلى مصر .

ذكر اسم يوسف فى ٢٦ آية من الكتاب الكريم : ٢٤ آية فى سورة يوسف ، وآية فى الأنعام وآية فى سورة غافر .

وهاهى ذى أرقام الآيات التى ذكر فيها: فى سورة يوسف ٤ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٩ — وفى سورة الأنعام آية ٨٤ — وفى سورة غافر آية ٣٤ — وقد ذكرت قصة يوسف مطولة فى سورة يوسف .

وسبب نزول هذه السورة فى القرآن الكريم أن كفار مكة لقى بعضهم اليهود وتباحثوا فى ذكر محمد صلى الله عليه وسلم . فقال لهم اليهود : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر ؟ وعن قصة يوسف فنزلت « ٥١ النسفى » .

والقصة أن يوسف كان صغيرا . وتقول التوراة كانت سنه سبع عشرة سنة « ومن كان فى هذه السن يبعد أن يصنع معه ما صنع الى يوسف » فرأى فى منامه أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر سجدوا له . والذى فى القرآن الكريم يفيد أن قصة هذه الرؤيا على والده كان فى غيبة اخوته . وأن أباه قال له (لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم) .

وتفيد عبارة التوراة أن ذلك كان بحضرة اخوته وأن أباه انتهره على هذا القول . وقال : لعلنا نسجد لك أنا وأمك واخوتك ! متهكما . وما فى القرآن هو حق .

رأى أبناء يعقوب من ايثار أبيهم ليوسف وحدبه عليه ما لم يكن منه لواحد منهم فغاظهم ذلك . وهم فى سن الشباب وطيش الحداثة . فأضمروا له الشر فقالوا لأبيهم (مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون ؟ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون) وكأن يعقوب قد أحس الشر الذى يضمره بنوه لأخيهم ولم يشأ أن يعلمهم بتخوفه جانبهم فقال (انى ليحزننى أن تذهبوا به) ثم ترقى فى تعليل ضنه به قائلا (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) والله يعلم أنه يتخوف عدوانهم على ولده أكثر مما يتخوف من عدوان الذئب .

لم يعى أبناء يعقوب بجواب . بل أجابوه جوابا لا يبقى له علة يتشبث بها ، فقالوا (لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون) وهنا تخالف التوراة القرآن فى هذه القصة وتقول ان يعقوب هو الذى أرسل يوسف الى اخوته من تلقاء نفسه ليذهب اليهم فى المرعى ثم يعود ويطالعه بأحوالهم . وكانوا قد أبعدوا فلما جاء وعليه قميص مخطط — قد حباه به والده — قالوا : قد جاء صاحب الأحلام لابس البجاد المخطط ؛ ثم ائتمروا به ما يصنعون ؟ ثم انتهوا الى أن يلقوه فى الجب بعد أن يعروه من قميصه ولا يسفكوا دمه ، وأن يخبروا أباهم بأن مفترسا افترسه .

والقرآن على أنهم تسلموه من يد أبيه (وذهبوا به وأجمعوا على أن يجعلوه فى غيابة الجب) ثم (جاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) أى فى النضال بالسهام (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) .

ولما كان المريب يشعر من نفسه بالتهمة ويتخيل أن كل واحد قد اطلع على خبيئة أمره قالوا لوالدهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب) فلم يخف عليه شأنهم . وكان كمهرة المحققين فى القضايا فى هذه الأيام ، فأخذ القميص ، ولما لم يجد به تمزيقا ولا قطعا قال لهم متهكما : ما أحلم هذا الذئب الذى افترس ولدى ولم يمزق عليه قميصه ولم يعمل فى قميصه نابا ولا ظفرا . وقال لهم (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) .

بعد أن تترك يوسف فى الجب « البئر » وكانت قليلة الماء جاءت سيارة « قافلة » فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فى الجب فتعلق به يوسف ، فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء فاذا غلام وسيم تعلق بها فاستبشر الرجل وقال (يا بشرى هذا غلام) ويقول المفسرون : ان الذين كانوا على الماء ادعوا فى القافلة أنهم اشتروه من سادته . وأسروه بضاعة حتى وردوا الى مصر . وشروه أى باعوه بثمن بخس وكانوا فيه من الزاهدين . وكثير من الناس حتى بعض العلماء يقولون : ان اخوته هم الذين انتشلوه من الجب وباعوه للسيارة ، وعبارة التوراة لا تساعدهم ونظم القرآن لا يساعد على ذلك ، لأنه ذكر السيارة وواردهم ولم يعد الى ذكر اخوة يوسف فى هذا المقـام .

والذى فى التوراة أن اخوة يوسف بعد أن ألقوه فى الجب جلسوا للطعام . ورأوا قافلة من الاسماعيليين تقصد مصر ومعهم الكثيراء والبلسان والطيب . وجاءت قافلة أخرى من المديانيين فسحبوا يوسف من الجب وباعوه للاسماعيليين . وأن يهوذا أشار على اخوته ألا يتركوا يوسف فى الجب وأن يبيعوه ، ولما جاء رأوبين الى الجب لم يجد يوسف فمزق ثيابه وبكى . وهـذا كله ينفى ما اشتهر من أنهم باعوه ، والمفسرون يخبطون فى هذا كثيرا . وباع الاسماعيليون يوسف فى مصر وكان من رأى رأوبين من الأول عدم اهلاك يوسف ، وهو الذى أشار عليهم بالقائه فى الجب لكى يخالفهم اليه ويأتى به الى أبيه .

يوسف عند سيده

بيع يوسـف لرئيس الشرطة فى مصر ولم يعين البلد الذى كان عاصمة الملك فى البـلاد المصرية فى ذلك الحين ، والأقرب أنه مدينة « صان » ببلاد الشرقية قرب بحيرة المنزلة . وذلك أن ملك مصر فى ذلك العهد كان من العمالقة الذين وردوا مصر قبل نزول ابراهيم ، وكان منهم الملك الذى أكرم مثوى ابراهيم وأعطاه الأموال الكثيرة ، وهم الذين شغلوا تاريخ مصر ما بين الأسرة الرابعة عشرة الى الأسرة الثامنة عشرة ، التى منها « أحمس » الذى طرد العمالقة من مصر

ولما حصل يوسف عند سيده ألقى الله على سيده محبته فقال لامرأته (أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) وكان سيده رئيس شرطة المدينة واسمه « فوطيفار » ويعبر عن منصبه فى العبرية بـ « سرها طباحيم » أى رئيس الشرطة . فكان يوسف أثيرا لديه فجعله صاحب أمره ونهيه ، والرئيس على خدمه والمتصرف فى بيتـه بحيث لم يكن لأحـد ممن فى الدار كلمـة أعلى من كلمة يوسف سوى كلمة سيده وسيدته . وقد تولى الله تعالى يوسف بالهداية والتربية والتوفيق وعلمه من لدنه علما عظيما . كما قال تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) .

محنة يوسف

كانت منة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع مكمنا لمحنته . ومحنته مكمنا للمنة العظيمة عليه وعلى آله وعلى أهل مصر وجميع الأمم التى تقرب من مصر . كما قال ابن عطاء الله السكندرى: « ربما كمنت المنن فى المحن » وكانت تلك المحن أن امرأة العزيز نظرت الى يوسف وما هو عليه من الخلق السوى والجمال المفرط فأشعل ذلك فى نفسها جذوة الحب .

وصار ذلك يزداد بتكرر رؤيتها له الى أن غلبها الحب على حيائها . فأخذت تداعب يوسف وهو يعرض عنها لعاملين يكفى كل واحد منهما لعزوفه عما تريد :

أولهما : ايمانه بالله وامتثاله أوامره بالتزام الطهارة من الأرجاس الخلقية . تلك الطهارة التى وجد عليها أباه وجده وجد أبيه .

ثانيهما : أن بعلها سيده الذى حدب عليه ، وأكرم مثواه ، ومكن له فى بيته ، وجعله المتصرف فى أمواله وخدمه ، ووثق به ثقة ليس لها حد . فلا ينبغى أن يقابل نعمته بالكفران . فلو لم يكن له دين يحجزه عن الشر ويلزمه الطهارة لكان ذلك كافيا لحفظ سيده فى أهله ، والبعد عن تدنيس فراشـــه .

كان ذلك دأب يوسف معها ، الى أن هاج بها هائج الغرام ، واعتزمت على شفاء ما فى نفسها من الصبابة فصارحته القول ، ودعته الى نفسها دعوة لا هوادة معها . واحتاطت للأمر وأخذت عدتها له . وغلقت الأبواب . وقالت ليوسف (هيت لك) فأبى وقال (انه) أى بعلها (ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون) وفى هذا الموقف العنيف : شاب فى ريعان شبابه وغضارة الفتوة تدعوه سيدته الجميلة الى نفسها فيغلبه دينه ويعصمه رعى الذمام لسيده . ثم يولى وجهه شطر الباب يطلب النجاة من شيطان غوايتها . وهى تجاذبه ثوبه وهو العصىّ حتى تمزق من خلفه . الى أن يغلبها ويفلت من يدها فيستبقان الباب . هو يريد فتح مغلقه وهى تريد أن تحول بينه وبين ما يشتهى من الافلات من يدها دون قضاء لبانتها . وحينئذ يجد أن بعلها عند الباب [1] .

تدبروا واقرءوا قوله تعالى : وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ [٢٣] وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوءَ وَٱلْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ [٢٤] وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ٱلْبَابِ [٢٥] سورة يوسف

---

(١) ساقت التوراة هذه القصة فى سفر التكوين فى الاصحاح ٣٩ وهى لا تختلف عن القرآن الا فى شىء واحد ، وهو أنها لما أمسكت بثوب يوسف خلعه لها ، فنـــادت الخـــدم واخبرتهم بأن بعلها جاء برجل عبرانى يداعبها ، وأن يوسف لما رأى المكان خاليا طلب أن يضـــاجعها فأبت وصرخت بصوت عظيم ، وكان قد خلع ثوبه استعدادا للأمر فخاف حين استغاثت وهرب وترك عنـــدها قميصه .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية آراء : فقوم يقولون ان امرأة العزيز قد همت بيوسف ليضاجعها وهو هم بها وأنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته . فلما لم يبق شيء دون اتمام ما قصدته وقصده جاء جبريل وأخبره بأنه سيكون نبيا . وهـذا العمل لا يليق من الأنبياء فكف عنها وهـذا : برهان ربه ، ومعنى الآية لولا أن رأى برهان ربه لفعل .

وقال آخرون : ان البرهان الذى رآه وهو على هذه الحـال أن نظر فرأى وجه أبيه وهو يؤنبه على هذا العمل عاضا على أنامله .

وقال آخرون : ان يوسف وهو فى تلكم الحال نودى من الله : يا يوسف انك مكتوب فى ديوان الأنبياء وتعمل عمل السفهاء . الى غير ذلك من الأقوال الباردة . والقائلون بذلك لم يفقهوا قول الله تعالى فى تلك الآية (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) فكيف يكون قد صرف عنه السوء وهو قد تهيأ لفعل الفاحشة وأصغى الى شيطان الغواية ؟ ولم يرجع كما يقولون الا بعد أن رأى من الزواجر والروادع ما يكفى لصرف أعظم الفسقة والمستهترين عن الغى ومتابعة الشهوة ! وكيف يوصف بأنه من المخلصين من كان انصرافه على هذا الوجه ؟

وأعرق هذه الأوجه فى البعد قول من يعتذر عن هم يوسف بأن ذلك كان قبل النبوة — أى فعل المعصية فى هذا الدور غير ممتنع على الأنبياء — فان صاحب هذا القول غافل عن قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فان الرسالة انما يختار لها أصحاب الأعمال المرضية ولا يختار الله رسله من أهل الفسق . وهو تعالى يرشحهم لما يضطلعون به من رسالته فهو يعصـمهم عن الخسائس وسائر ما يعير به الناس ، وأى عار أكبر من أن يذهب الشـخص الى المعصية ثم لا يرجع الا بعد الزجر والنهى ؟

ويقول آخرون : انه هم ، هم الطبيعة وهو أمر لا اختيار للمرء فيه . وهؤلاء أخف قولا مما تقـدم .

ويقول آخرون : انه هم ، هم ترك ولست أطمئن الى هذا القول وأنه وجد منه هم على حال.
وتكلف آخرون فقالوا : انه هم ليضربها .

والقول الذى لا غبار عليه ويلتئم مع قوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) ومع قوله فى الآية نفسها (انه من عبادنا المخلصين) أن همه عليه السلام بها امتنع لوجود البرهان عنده وهو حرصه على الطاعة واستمساكه بآداب آبائه وبأخلاقهم الزكية الطاهرة ، وأن قوله (وهم بها) لا يصلح جوابا لأن (لولا) لها الصدارة . لأنا لا نقول أن هذا هو الجواب ، ولكنه دليل الجواب . ونظير ذلك قوله تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) لأن (لولا) حرف امتناع لوجود . امتنع الهم لوجود البرهان. وامتنع ابداء أم موسى بما فى نفسها على ابنها لوجود ربطنا على قلبها . والجواب محذوف تقدم دليله على (لولا) .

يوسف وامرأة العزيز

يوجد فى الأمثال « ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى » ذلكم المثل هو مثل امرأة العزيز مع يوسف . ذلك أنها لما رأت سيدها لدى الباب يريد الدخول — وكان معه ابن عمها — أرادت أن تشفى غل صدرها وحنقها على يوسف لما فاتها من التمتع به ، وتوقعه فى الشر جزاء ابائه عن مطاوعتها .

تقدمت نحو زوجها باكية شاكية قائلة (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب أليم) وأفهمته أنه راودها عن نفسها وأنها أبت عليه .

وأما يوسف فقد وجد نفسه فى مأزق حرج وأن الصدق سبيل نجاته . وأنه اللائق بمقابلة العزيز بما صنع معه من جميل وما أسدى اليه من المكرمة . فقال (هى راودتنى عن نفسى) وأنا امتنعت وأبيت حتى آل أمرها الى أن نازعتنى ثوبى .

وهنا ظهرت فراسة ابن عمها فى تحقيق الحق من قولهما . فقال (ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين) لأن الهاجم على المرأة وهى تدافعه انما يظهر أثر دفاعها فى مقدمة قميصه . والهارب من المرأة العالقة بثوبه انما يظهر أثر ذلك من الخلف ، لأنه يكون مستدبرا لها وهى تجاذبه من خلف . فظهر حق يوسف وكذب امرأة العزيز بأن رأوا قميصه قد من دبر . فعاد الشاهد أو العزيز على امرأته باللوم وقال (انه من كيدكن ان كيدكن عظيم) وأمر يوسف بكتمان الخبر ، وأمرها بالاستغفار لذنبها وصرح بأنها مخطئة فيما صنعت .

اقرءوا قوله تعالى: قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٢٥] قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [٢٦] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ [٢٧] فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ [٢٨] يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ [٢٩] من سورة يوسف

لطيفـــة

للامام الفخر الرازى كلمة قديمة أوردها فى تفسيره . خلاصتها : أن يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله تعالى (انه من عبادنا المخلصين) وشهد الشيطان ببراءته بقوله (فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وشهد ببراءته الشاهد من أهل العزيز اذ قال (ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من

الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر ، قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين) وشهد ببراءته النسوة اللائى قطعن أيديهن بقولهن (ما علمنا عليه من سوء) وشهدت ببراءته زوجة العزيز بقولها (الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) فالذى يريد أن يتهم يوسف بالهم عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو من حزب الشيطان ، وكلاهما شهد ببراءة يوسف فلا مفر له من الاقرار بالحق على أى حال ، وهو براءة يوسف من الهم بها .

شيوع الخبر فى المدينة وتحدث النساء به

شاع نبأ حادثة امرأة العزيز وفتاها فى أرجاء المدينة ، ولاكته أفواه النساء لائمات لها على هذا الغرام ، وشرعن يضللنها ويلمنها بفادح اللوم . ودوى صدى هـذا القول فى أذن امرأة العزيز فأخذت فى الكيد لهن ليعـذرنها ولا يعزلنها ، فأرسلت الى طائفة من نظيراتها العاذلات وأعتدت لهن مكانا يجلسن فيه ، وقدمت اليهن طعاما يحتاج الى القطع بالسكين . آتت كل واحدة منهن سكينا . وفى تلك اللحظة أمرت يوسف أن يخرج عليهن ، فبهرهن جماله ، وألهاهن عن ان يحسن قطع الفاكهة التى بأيديهن فصرن يقطعن أيديهن . وشغلن بمطالعة محاسن خلقه والتأمل فى جماله واللذة فى ذلك تغمر ألم جراحهن بأيديهن فأعلن اكبارهن لذلك الجمال ، وقلن (ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم) .

حينئذ باحت امرأة العزيز لهن بما تجنه فؤادها من اللوعة . وقالت لهن كما يشـكو العاشـق بلواه لعاشق مثله : (فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ)

فأنتم ترون أن امرأة العزيز كتمت أمرها حتى صادتهن وأوقعتهن فى شـباك غرامه . وصرن كلهن فى الهوى سواء . ثم باحت لهن بذات نفسها آمنة النميمة عليها ومن هذا القبيل قول القائل :

لا تخف ما فعلت بك الأشـواق   واشرح هـواك فكلنا عشـاق

وأنتم ترون أيضا أن عشقها فضحها فى المرة الأولى . وكذبت لتتخلص من العار ولتتشفى من ذلك الرجل الذى وصل حبه الى شغاف قلبها وأنضج فؤادها بنار هواه ، فلم تحسن التخلص ولم يكن كذبها منجيا لها من اللوم . وكان من حقها أن ترتدع ، ولكن الهوى صرعها للمرة الثانية فتوعدته بأن يصـدع بأمرها والا كان مأواه السجن ولقاء الصغار بدخوله .

ولما فشت القالة بذلك ، رأى العزيز وحسن له مشيروه أمرا هو أنه لا يخلصهم من العـار

ويكف ألسنة الناس عنه وعن زوجته الا زجه فى السجن ، ليخيلوا للناس أنه ما زج فى السجن الا لأنه آثم كاذب فى ادعاء البراءة . وأن زوجة العزيز بريئة مما قذفت به . وهذا مصداق قوله تعالى (ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) .

وانى ألفت نظركم الى لفظ (من بعد ما رأوا الآيات) فان رؤية الآيات الدالة على صدق يوسف وكذب امرأة العزيز — فيما حاولت أن تلصقه به من عار الخيانة لسيده — كان ظاهرا واضحا . وكان من حق العزيز أن يوقع بها العقاب على ما اجترحته ، ويكرم يوسف ويظهر للناس براءته (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) ولكن شيئا من ذلك لم يكن . بل عمد هو وآله الى الاساءة الىمن أحسن عمله . وحفظه بالغيب فى زوجه . ورعى له حق السيادة والاكرام . فجزاه جزاء سنمار ، وعمد الىالمسيئة الكاذبة المستهينةبكرامتها وكرامة زوجها ، والتى عرضت عفافها بضاعة مزجاة فى سوق الفسوق فلم يمسها بأذى ، بل قدم يوسف البرىء التقى الطاهر فدية عن سمعتها ، فكانت كأنها الدنيا تحب على كثرة أذاها ويرغب فيها مع اساءتها .

يسىء امرؤ منا فيبغض دائما ودنياك ما زالت تسىء وتومق

والآية تشير من طرف خفى الى أن القوم استعانوا بالقوة القضائية على الكيد ليوسف وزجه فى السجن ، لأن رؤية الآيات على براءته انما تكون أمام القضاء ، وهو اما رسمى أو عرفى، ولعل القضاء الأخير هو الذى استعملوه . وهو قضاء خير منه الاستبداد لأن الاستبداد يجور فاعله على أن عمله جور — سافر غير مقنع — ولكن القضاء الذى يجور ويلبس ثوب العدل هو شر أنواع القضاء .

يوسف فى السجن يدعو لدينه

أدخل يوسف السجن على غير جريمة أتاها . ودخل معه السجن فتيان ، أحدهما : رئيس الخبازين عند الملك ، والثانى : رئيس سقاته . فبعد يوم أتاه صاحب شراب الملك وأخبره أنه رأى فى منامه أنه يعصر فى كأس الملك الخمر ، يتناول العنقود من العنب ويعصره فى كأس الملك. وجاء الخباز وقال له : انى رأيت فوق رأسى طبقا من الخبز والطير تأكل من ذلك الخبز . وطلبا اليه أن ينبىء كل واحد منهما بتأويل ما رأى فى منامه .

انتهز يوسف هذه الفرصة ليعلن لهم دينه ويدعوهم اليه ، وقام فيهم خطيبا ينبئهم بمقدرته على تأويل الرؤيا ، وأنه لا يأتيهما طعام الا نبأهما بتأويله قبل أن يأتيهما ، وأن ذلك مما علمه الله تعالى اياه بتركه ملة الأقوام الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، واتبع ملة آبائه ابراهيم واسحاق ويعقوب . وذلك كله من فضل الله عليهوعلى ذويه وعلى الناس . وسأل صاحبيه: (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟) الذى أمر ألا يعبد الناس ربا سواه . وأن ذلك هو الدين

القويم . وأن جهلة الناس لا يعلمون . وبعد أن فرغ من دعوتهم الى دينه وانتهى من خطبته الوعظية قال (يا صاحبى السجن أما أحدكما « الساقى » فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من راسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) وفى تلك الحال أمل يوسف أن يجد الفرج لما هو فيه من الضيق على يد الذى ظن أنه ناج منهما . وقال له (اذكرنى عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين) وتحقق تأويل المنام كما قال .

الفرج ليوسف

بعد تلك السنين أراد الله أن يعجل بالفرج ليوسف فهيأ لذلك الأسباب ، وذلك أن الملك رأى سبع بقرات جميـــلات طالعة من النهر فارتعت البقرات فى روضة . ثم رأى سبع بقرات أخرى قبيحة المنظر عجافا خرجت من النهر وأكلت البقرات الأولى السمينة . ثم استيقظ من منامه . ثم عاد فرعون الى رقاده فرأى سبع سنابل خضراء حسنة طالعة فى ساق واحدة ، واذا سبع يابسات خلفها قد لفحتهن الريح الشرقية قد عدت على السنابل الخضر فأكلتها .

أصبح فرعون منزعجا لهذين المنامين فدعا بالسحرة وكل من له علم ، يسألهم عن تأويل هذا المنام فلم يجد عند أحد منهم جوابا . بل (قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) .

فى ذلك الوقت انتبه رئيس سقاة الملك الى الأمر . وتذكر ما قدم بما حدث ، ومر على خاطره منامه الذى رآه فى السجن ، ويوسف الذى عبره له تعبيرا كأنه يشاهد أمرا واقعا . فعرض الأمر على الملك ، واقتص عليه حلمه وحلم رئيس الخبازين ، وأن غلاما عبرانيا فى السجن — لرئيس الشرطة — قد عبر لهما رؤياهما . فكان الأمر كما قال ، وطلب أن يرسله الى السجن ليأتى بالتعبير الذى لا مراء فيه من يوسف ، فأرسله الملك اليه.

فلما التقى بيوسف قال له : (أيها الصديق . أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات) تأكل الخضر فأخبره يوسف بتأويل ذلك . وهو أن مصر يأتى عليها سبع سنين مخصبات تجود الأرض فيها بالغلات الوافرة ، ثم سبع سنين مجدبة تأتى على المخزون من السنين السبع التى تقدمتها . ثم بعد ذلك تأتى أعوام الخصب والرغد . وأن عليهم أن يقتصدوا فى سنى الخصب السبع ويخزنوا ما فضل عن القوت فى سنبله . حتى اذا حل الجدب وجدوا فى أهرائهم ومخازنهم ما يسد الرمق ويمسك الحوبة الى أن يأتى الخصب .

عاد رئيس السقاة الى الملك بتأويل رؤياه فسر بها ، وعلم أنه تأويل مناسب متفق مع الرؤيا . فقال الملك ائتونى بيوسف . فلما أرادوه على ذلك أبى أن يخرج من السجن حتى يعرف أمره على حقيقته ، وطلب الى الرسول أن يعود الى الملك ويسأل عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، ولا بد أن يكون قد سماهن له بأسمائهن ، فلما أحضرهن الملك وسألهن عن شأن يوسف ، قلن : حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، وأنكرن أن يكن سمعن شيئا عن شأنه وشأن امرأة العزيز .

وهذه هى الآيات المتعلقة بهذا الموقف : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَٱسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ [٥٠] قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ... [٥١] من سورة يوسف

فى الكلام ايجاز كما هو شأن القرآن من عدم ذكر الأشياء التى تكون معلومة من المقام وفى الكلام شواهد تدل عليها . والذى يفهمه من الآيات كل من له عقل أن يوسف كبر عليه أن يخرج من السجن وعليه سمة المجرمين المحدثين الخائنين ليقف أمام الملك . فأراد ألا يخرج من السجن الا وهو ثابت البراءة مرفوع الرأس أبيض الصحيفة . فذكر الحادثة على وجهها وأنه برىء منها وأن الجانية انما هى زوجة العزيز التى بهتته فى وجهه . وأن الاشاعة فى البلد كانت أن امرأة العزيز راودته عن نفسها . وآية ذلك النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، فانها لما سمعت أنهن لائمات لها دعتهن الى دارها — وسماهن طبعا — وأنهن لما رأينه قطعن أيديهن ، وراودته عن نفسه أيضا لها ولأنفسهن [1] وأن امرأة العزيز أقرت أمامهن قائلة (فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) قالت ذلك على ملأ منهن وأنها نفذت وعيدها بالقائه فى السجن وهو برىء مما يوجب سجنه ، وشهادتهن بما سمعنه من امرأة العزيز برهان براءته وتثبيت لقوله . والذى قلته مفهوم من أساليب القرآن ، وأن الملك أحضرهن وسألهن عن شأنهن فى ذلك اليوم الذى راودن فيه يوسف عن نفسه فكان جوابهن (حاش لله ما علمنا عليه من سوء) .

يمكن أن يفهم قولهن هذا على أنهن لم يسمعن عن يوسف شيئا ولم يعلمن عليه سوءا ، أو يكون قد وقع منهن مراودات .

وحينئذ يكنّ قد أنكرن الشهادة ولم يؤدين ما طلب يوسف منهن : وهو الشهادة بما سمعنه من امرأة العزيز وتوعدها يوسف بالسجن اذا لم يصدع بأمرها . وذلك الموافق لقولهن (حاش لله) لأنه انكار لما سئلن عنه .

وحينئذ يكنّ قد خيبن أمل يوسف فيهن ، وأردن أنهن لا يتهمنه بسوء ، وفى الوقت نفسه يكتمن على امرأة العزيز ما باحت به أمامهن من مراودتها اياه واستعصامه ، وأن نجاته من السجن رهينة بموافقتها على مرادها الذى أرادته عليه من قبل .

وحينئذ يكون يوسف قد اغتر بما أظهرن له من الاكبار والمحبة حتى دعته كل واحدة الى نفسها ، وظن أن ذلك يدعوهن الى أن يقلن الكلام الذى حصل على جهة الحق وفى ذلك براءته ، فلم يقلن ، بل قلن شيئا لم يدعين لأجله وهو قولهن (ما علمنا عليه من سوء) فان عدم علمهن بالسوء عليه لا يجعله بريئا فى الواقع . وهذه شهادة على النفى لا تثبت بها الوقائع المعينة التى أراد يوسف اثباتها .

(١) (والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين) .

ويحتمل أن يكون ما رواه القرآن من قولهن (حاش لله ما علمنا عليه من سوء) عبارة عن خلاصة لما روينه عنه مما يقتضى براءته . وأنهن أتين بالشهادة على وجهها ، وملخصها براءته من السوء . وهذا أولى الاحتمالين عندى . وأقول ان اتيانهن بالشهادة على وجهها هو الذى أحرج مركز امرأة العزيز . وسد فى وجهها المسالك ، فلم تجد للانكار سبيلا فقالت (الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) الخ .

ساقت التوراة حكاية السجن وحلم رئيس السقاة ورئيس الخبازين الخ كما قصها القرآن الكريم . ولم تذكر المراودة بين يوسف والملك فى شأن براءته ، ولم تذكر النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، ولا أى شىء عن شأنهن . وذكرت التوراة أيضا أن يوسف ارتفع شأنه فى السجن وصار كشخص رئيسه وله الأمر والنهى فى كل النازلين فى بيت السجن .

أضيف الى ما تقدم من شهادة النسوة ليوسف بما يبرىء ساحته : أن امرأة العزيز لما رأت أن يوسف الذى زجت به فى السجن ظلما قد أكرمه الله تعالى حتى صار من هم الملك أن يأتى به ليستخلصه لنفسه ، وأن تماديها فى اتهامه بما لم يقترف لا يجديها نفعا ولا يلحق بيوسف ضررا ، وطدت نفسها على الصدق فى شأن يوسف لأول مرة . بعد أن بهتته فى وجهه ورمته بما هو منه براء وظلت مصرة على باطلها السنين الطوال ، فأقرت بما لا تقر به المرأة الا مغلوبة على نفسها وباحت بما كتمته عن زوجها وآلها سنين عدة . فقالت (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم) .

بهذا الاقرار الصريح — الدال على صدق يوسف وبراءته مما قرف به ظلما ، ذلك الاقرار الذى ما كان يوسف يظن أنه يصدر من امرأة العزيز الجانية عليه الموقعة له فى السجن — لم يعد يومئذ فى حاجة الى جمع الأدلة وتصيد البراهين على براءته واقامة الحجج على أنه حبس ظلما وعدوانا ، وقدم فدية عن عرض امرأة العزيز وذبيحة بيد مكرها وقسوتها .

(ملاحظة) يجعل بعض المفسرين قوله تعالى (وما أبرىء نفسى) الآية من كلام يوسف وهو خطأ لأن نظم الآيات وروح الموضوع يأبيان ذلك ، وانما هو من قول امرأة العزيز لأن ذلك صدر ويوسف فى السجن قبل أن يقول الملك (ائتونى به أستخلصه لنفسى) .

يوسف بحضرة الملك

لما ظهرت براءة يوسف لفرعون هذا الظهور ، وخرج يوسف واضح الحجة مستقيم المحجة . قال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى . وحينئذ رأى يوسف أنه لا علة له ، فجاء الملك وكلمه فسر الملك به وأعجبه عقله وحسن تعبيره للرؤيا ، وسأله أى عمل يرضاه لنفسه ويكون فيه

سروره ؟ فقال يوسف (اجعلنى على خزائن الأرض) وما يخرج منها من الغلات والخيرات (انى حفيظ عليم) .

اقرءوا قوله تعالى فى سورة يوسف (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ [٥٤] قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [٥٥] وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [٥٦] وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [٥٧]

هذا الموقف ذكر فى التوراة فى الاصحاح الحادى والأربعين من سفر التكوين ، وهى لم تذكر اباءه الخروج من السجن حتى تظهر براءته . بل ذكرت أن رئيس السقاة أخبر فرعون بأن يوسف قادر على تعبير الرؤيا وأنه عبر له — على النحو الذى قدمناه — وقال لهم : لابد من ادخار خمس غلة الأرض فى السنوات الخصبة ، حتى اذا جاءت سنوات القحط كانت البلاد مستعدة لمكافحة الجوع ، وأن يقوم على ذلك نظار فى أرجاء البلاد . فقال فرعون لجنوده : هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله ؟!

ثم التفت الى يوسف وقال له : بعد ما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على بيتى وعلى فمك يقبل جميع شعبى ، الا أن الكرسى أكون فيه أعظم منك . وقال له أيضا : قد جعلتك على كل أرض مصر ، وخلع خاتمه من يده وجعله فى يد يوسف وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب فى عنقه وأركبه فى مركبته الثانية ، ونادوا على الناس أمامه بالركوع له وجعله على كل أرض مصر وصاحب الأمر والنهى والأمر المطاع والكلمة النافذة ، وسمى يوسف « صفنات فعنيح » وأعطاه « أسنات بنت فوطى فارع » كاهن أور زوجه . وكان يوسف ابن ثلاثين سنة حين كان هذا الحادث فخرج يوسف وارتحل فى كل أرض مصر لتفقد الأحوال وتهيئة الأعمال اللازمة لمقاومة الجوع فى البلاد .

إخوة يوسف فى مصر يمتارون

مرت السبع المخصبة وأعد يوسف عدته فيها ، واتخذ الخزائن والأهراء وخزن الغلات فى غلفها . ثم جاءت السبع المجدبة واشتد الجدب فى جميع أنحاء الأرض . فأما المصريون فذهبوا الى فرعون يطلبون القوت فأحالهم على «صفنات فعنيح » يوسف ، ففتح المخازن وباع لهم من الطعام ما يكفيهم . وأحس أهل فلسطين الجوع وعلموا أن الطعام بمصر ، فأرسل يعقوب أولاده ومعهم الجمال والحمير لحمل الطعام وأعطاهم الثمن ، فقدموا الى مصر لشراء قوت لأهلهم . فلما قدموا الى مصر رآهم يوسف فعرفهم ولم يعرفوه .

وذلك طبيعى لأنه فارقهم أمرد غض الاهاب وقد ناهز اليوم الأربعين من عمره ، وقد كسته أبهة الملك مهابة تغض عنه عين الناظرين اليه . وأما هم فعلى حالهم فى ملبسهم ولغتهم ومنظرهم .

لما جهز يوسف اخوته بالطعام الذى اشتروه . قال لهم ائتونى بأخ لكم من أبيكم ، ءاملكم مرة أخرى ، فاذا لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تأتوا الى . وذلك أنه رأى اخوته جميعا الا أخاه لأمه « بنيامين » وهو أصغر منه . فأخذ فى استدراجهم حتى علم منهم حياته وأنه عند أبيه لم يسمح بمفارقته، فأعطاهم الطعام بلا ثمن فى الواقع ليأتوه بأخيهم دون أن يعلموا أ رد عليهم الثمن . فقالوا له : سنراود عنه أباه ، وكان يوسف قد أكرمهم وأظهر لهم السماحة . وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم التى دفعوها ثمنا للطعام فى أوعيتهم فانهم يعودون بها الينا ، لأنهم لا يقبلون ما ليس لهم . وقد جعل يوسف ذلك شركا لهم ليعودوا اليه .

إخوة يوسف عند أبيهم

عاد اخوة يوسف الى أبيهم وأخبروه أن « وزير التموين والتجارة » منعهم الشراء من الطعام فيما بعد حتى يأتوه بأخيهم لأبيهم ، فتذكر يعقوب قديم أمرهم بحديثه وعاودته لوعته على يوسف فقال لهم (هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل) .

فتح اخوة يوسف متاعهم لاستخراج الطعام الذى أتوا به من مصر ، فوجدوا فضتهم بحالها لم تمس ، فكان ذلك مما شدد عزائمهم فى الكلام مع أبيهم وقالوا له : يا أبانا ما نبغى ! هذه بضاعتنا ردت الينا ! فاذا سمحت بأخينا يذهب فاننا نمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير وهو شىء يسير عند الملك الذى طلب أخانا !

والظاهر أن القحط كان شديدا جعل يعقوب يسمح بسفر ابنه تحت شروط اشترطها على أولاده . فقال لهم : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به الا أن يحاط بكم . أى الا أن تغلبوا على أمركم . فأعطوه موثقهم على الوفاء بما اشترطه . وحينئذ قال : الله على ما نقول وكيل . وأوصى بنيه أنهم اذا أتوا مصر لا يدخلون من باب واحد بل يدخلون من أبواب متفرقة .

ويقول المفسرون : ان ذلك لخوفه عليهم من الحسد . والذى أميل اليه أن ذلك كان منه لئلا يلفتوا نظر الناس . وذلك يدعو الى التحدث بشأنهم والحدس فى مقصدهم . فيظن بهم أنهم جواسيس أو رواد لمن وراءهم ممن يريد الاغارة على البلاد من الأقوام التى عضها الجوع .

ومهما كان من الأمر فقد عاد اخوة يوسف الى مصر فى طلب الميرة ولم يبق عند أبيهم أحد منهم ومعهم البضاعة التى ردت اليهم .

هذا الموضوع ذكر فى التوراة . وليس بينه وبين ما فى القرآن كبير اختلاف .

فقد ذكر فى الاصحاح ٤٢ تكوين : أن اخوة يوسف لما جاءوا اليه تنكر لهم وتكلم معهم

بجفاء وقال لهم : من أين جئتم ؟ فقالوا : من أرض كنعان لنشترى طعاما ! فقال لهم : انكم جواسيس جئتم لتعرفوا أرضنا ومداخلها ومخارجها وعورتها . فقالوا له فى عرض تبرئتهم لأنفسهم بأننا لسنا جواسيس . عبيدك اثنا عشر أخا بنو رجل واحد ، الصغير منا عند أبينا ، وواحد مفقود. أى ولا يعقل ان عشرة من الرجال هم اخوة لأب واحد يكونون جواسيس . فأظهر أنه يريد منهم البراءة من الجاسوسية . ولا دليل على براءتهم الا أن يأتوه بأخيهم الصغير ، وحبسهم ثلاثة أيام وفى اليوم الثالث أتى بهم وقال لهم : انى خائف الله فى أمركم فان كنتم أمناء ولستم جواسيس فليحبس واحد منكم . وانطلقوا أنتم وخذوا قمحا لامساك رمق أهليكم وأحضروا أخاكم الصغير الى لأعلم صدقكم .

وكان اخوة يوسف قد تذكروا حرج مركزهم أمام وزير التموين والتجارة وما هم فيه من الضيق ، فعادوا باللوم على أنفسهم اذ رأوا أخاهم يوسف وهو فى حال شدة حين هموا بقتله ثم ألقوه فى الجب وهو يستغيث بهم فلم يغيثوه فندموا . وأيقنوا أن هذا الموقف الذى وقفوه جزاء من الله تعالى لهم على قسوتهم على أخيهم وقال بعضهم لبعض : حقا اننا مدينون الى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة. فقال لهم رأوبين: ألم أكلمكم قائلا لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا فهو ذا دمه يطلب ؟ ولم يكن القوم يعلمون أن يوسف فاهم لحوارهم . لأنه انما كان يكلمهم بواسطة ترجمان ، فتحول يوسف عنهم وبكى ثم أمر أن تملأ أوعيتهم قمحا وترد فضة كل واحد منهم الى عدله ، وأن يعطوا زادا للطريق فرأى واحد منهم فضته فى عدله فتكدروا وخافوا . وكان يوسف قد استبقى شمعون عنده رهنا على وفائهم .

ولما عادوا الى أبيهم وأوقفوه على حقيقة أمرهم نفر من هذا الأمر فقال : أعدمتمونى يوسف فهو مفقود . وشمعون — الذى تركوه فى مصر — مفقود وتأخذون بنيامين ؟ فان حصل له أمر فى الطريق أهلك من الحزن ! فقال له رأوبين : سلمه لى أرده اليك فان لم أفعل فاقتل ابنى ، فأبى « ص ٤٣ » .

ولما اشتد الجوع طلب يعقوب الى بنيه أن يذهبوا لأرض مصر ويبتاعوا منها طعاما ، فقال يهوذا له : ان الرجل قد أشهد علينا قائلا : لا ترون وجهى بدون أن يكون أخوكم معكم . فلامهم على اخبارهم اياه بأن لهم أخا تخلف . فقالوا : عذرنا أن الرجل اتهمنا بالجاسوسية وسألنا : هل أبوكم حى ؟ هل لكم أخ ؟ وما كانوا يحسبون أنه سيطلبه منهم . وألح يهوذا على أبيه وضمنه له فسمح بذلك . وأمرهم أن يأخذوا هدية للرجل الذى يبيعهم الطعام تكون من البلسان والعسل والكثيراء واللاذن واللوز والفستق . ويردوا له الفضة ، ويأخذوا فضة أخرى ثمنا للطعام الجديد .

نزل اخوة يوسف بعد ذلك الى مصر ، فلما رأى يوسف اخوته ومعهم بنيامين أمر غلمانه باضافتهم وأن يذبحوا لهم ويهيئوا طعاما لأكله معهم وقت الظهر .

ولما فعل رجال يوسف ما أمروا به جاءوا باخوة يوسف الى بيته ، فلما علموا أنهم داخلون الى البيت خافوا على أنفسهم وقالوا فيما يناجى به بعضهم بعضا : ان ادخالنا الى البيت انما هو بسبب الفضة التى وجدناها فى أعدالنا وأنه سيهجم علينا ويأخذ حميرنا ويجعلنا عبيدا له . فكلموا خادما من خدم يوسف وقصوا عليه قصتهم ورجوع الفضة معهم وهم لا يعلمون ، وأنهم عادوا بها وبفضة أخرى لشراء القمح . فهدأ الرجل روعهم ، وأدخل اليهم أخاهم شمعون الذى كان رهينة فى يد يوسف ، وأدخلهم الى دار يوسف للغداء .

ولما جاء يوسف وقت الغداء قدموا اليه الهدايا ، ونظر الى بنيامين وقال : أهذا أخوكم الصغير الذى قلتم لى عنه ؟ ودعا قائلا : الله ينعم عليك يابنى ! ولم يطق يوسف الجلوس معهم لما حضره من الحنين الى أخيه . فذهب الى مكان منفرد وبكى ثم عاد وسألهم عن أبيه وسلامته . ثم قدم اليهم الطعام ، وأكل هو وحده والمصريون وحدهم .

لأن المصريين يعتبرون الأكل مع العبرانيين نجاسة . ولعل عدم أكله مع اخوته لئلا ينتقد المصريون عليه ذلك . وقد أجلس اخوته بحسب ترتيبهم فى السن فبهتوا لأن عمله صادف الواقع الذى يعرفونه وأغدق على بنيامين الطعام ا هـ .

حيلة يوسف فى إبقاء بنيامين عنده

أمر يوسف بتجهيز اخوته فملأ لهم الأعدال طعاما ، وأمر أن توضع فضة كل واحد فى عدله ، وأن توضع طاسة فى عدل الصغير — وهى الطاس التى كان يشرب فيها — فساروا غير بعيد فلم يفاجئهم الا وكيل يوسف يناديهم ويوبخهم على ما صنعوا وأنهم قابلوا الاحسان بالكفر ، وأنهم سرقوا سقاية الملك « يوسف » فأظهروا البراءة من هذا العمل . وقالوا : من وجدت سقاية الملك فى رحله يؤخذ عبدا للملك . ففتش أعدالهم — مبتدئا بالكبير منتهيا بالصغير — فوجد السقاية فى عدل بنيامين ، فرجعوا الى المدينة ودخلوا على يوسف مستعطفين مسترحمين ، ولامهم يوسف على ما صنعوا ، فراودوه على أن يأخذ أحدهم عبدا مكان أخيهم ، فأبى وقال : ان الذى وجد الطاس فى رحله يستعبد لى ، وأما أنتم فاذهبوا الى بلادكم ، وأبى يوسف — بعد الاستعطاف وبيانهم أن أباه متعلق به ، وأنه سلوته عن أخيه المفقود — أن يطلقه . فقالوا بحضرة يوسف وقد ملئوا غيظا على بنيامين لما أوقعهم فيه من الورطة : ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، وقال لهم : أنتم شر مكانا من هذا السارق ، والله أعلم بما تصفون.

وكانوا يعنون يوسف ، ذلك أن أمه ماتت وهو صغير فكفلته عمته وتعلقت نفسها به . فلما اشتد قليلا أراد أبوه أن يأخذه منها ، فضنت به وألبسته منطقة لابراهيم كانت عندها وجعلتها تحت ثيابه ، ثم أظهرت أنها سرقت منها وبحثت عنها حتى أخرجتها من تحت ثياب يوسف ،

وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة ، جزاء له بما صنع ، وبهذه الحيلة استبقته عندها وكف أبوه عن مطالبتها به .

يئس اخوة يوسف من أخذ أخيهم — بطريق المبادلة — فقال كبيرهم « رأوبين » ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله برد أخيكم ، ومن قبل ذلك كان تفريطكم فى يوسف ، وعلى ذلك لن أبرح الأرض « مصر » حتى يأذن لى أبى فى القدوم ، أو يحكم الله فى شأنى وهو خير الحاكمين . وأشار عليهم بالرجوع الى أبيهم واخباره بما كان من أمر أخيهم ومن الملك « يوسف » وأن ابنه صار عبدا للملك بسبب سرقته طاسة . وأن ظهور السرقة كان عن ملأ منهم ومن أهل العير التى كانوا فيها وأنهم صادقون فيما أخبروا به .

عاد اخوة يوسف — عدا أكبرهم وأصغرهم — الى أبيهم وأخبروه بالأمر على جليته فلم يدخل عليه هذا القول . وأحاله على أمر دبروه له كما دبروا لأخيه من قبل ، وزاد به الحزن حتى ابيضت عيناه وعاوده من الوجد على يوسف ماعاوده فقال : يا أسفا على يوسف ! فلامه أولاده على ذكر يوسف وقد انقضى أمره . ثم ان يعقوب رد أولاده الذين وردوا عليه الى مصر ليشتروا طعاما وليتحسسوا له شأن يوسف وأخيه . وأمرهم بعدم اليأس من روح الله ، فان ذلك شأن الكفار . فذهبوا كما أمرهم أبوهم .

اقرءوا قوله تعالى فى سورة يوسف : فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ [٧٠] قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ [٧١] قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ [٧٢] قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ [٧٣] قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ [٧٤] قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ [٧٥] فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ [٧٦] قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ [٧٧] قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [٧٨] قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ [٧٩] فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [٨٠] إِرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ

فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ [٨١] وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [٨٢] قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [٨٣] وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ [٨٤] قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ [٨٥] قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [٨٦] يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ [٨٧]

من المقارنة بين هذا الموقف من القصة فى القرآن وبينه فى التوراة نجد الخلاف قليلا . فأن القرآن يجعل أخذ الموثق على جميع أولاد اسرائيل العشرة . والتوراة تجعله على يهوذا خاصة ، ولعله كان متكلما عنهم وكلمته كلمتهم وعهده عهدهم . والقرآن يذكر أن يوسف آوى اليه أخاه وقال (انى أنا أخوك) والتوراة تجعل يوسف مجهولا من بنيامين الى أن أخبرهم جميعا بأنه أخوهم بعد ذكر قصة الطاس . والقرآن ذكر قولهم (ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل) والتوراة لم تذكرها . والقرآن يذكر عودة اخوة يوسف الى أبيهم واخباره بأن ابنه قد سرق واستعبد فى مصر ، والتوراة لم تذكره .

ومعلوم أن القرآن مهيمن على ما تقدمه .

يوسف يتعرف إلى إخوته

جاء اخوة يوسف وقالوا (يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر « من الجوع » وجئنا ببضاعة مزجاة « لقلتها » فأوف لنا الكيل « وان كان الثمن لا يوجب ذلك » وتصدق علينا « باطلاق أخينا من عبوديتك » ان الله يجزى المتصدقين) فقال لهم يوسف مذكرا بما كان منهم من الاساءة (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون) اذ فرقتم بينهما وألهبتم صدورهما بنار البعد . ولعله انما كلمهم بلغتهم لأول مرة . فعرفوا أنه يوسف ، لذلك (قالوا أئنك لأنت يوسف؟ قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين. قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين . قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين) .

فلما فصلت عيرهم من مصر كانت نفس يعقوب مستشرقة لتغيير مابه من حال ولم يدب اليأس الى نفسه ، بل هو يتوقع الفرج بلقاء يوسف الذى طال حزنه عليه ، فقال لمن حوله من جماعته :

(انى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) ! أى لأخبرتكم بأنى أتوقع لقاءه . فقالوا له (تالله انك لفى ضلالك القديم) أى خطئك القديم فى اعتقادك أن يوسف باق الى اليوم ! ولم يطل به الانتظار حتى جاء البشير الى يعقوب بسلامة يوسف وأخيه . وألقى قميص يوسف على وجه يعقوب فارتد بصيرا وقرت عينه . وبشر نفسه باللقاء فقال للاحين له (ألم أقل لكم انى أعلم من الله مالا تعلمون) ولا بد أن يعقوب لم يقل هذا القول الا وقد أعلمه الله بحياة يوسف وأنه سيلاقيه .

شد يعقوب وآله أجمعون رحالهم الى مصر . فلما جاءوا اليها دخلوا على يوسف فآوى اليه أبويه أى يعقوب وزوجه — خالة يوسف لأن أمه كانت قد ماتت وهو صغير — وسجد له أبوه وأمه واخوته الأحد عشر . وقال لأبيه يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا . وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجعلنى على خزائن الأرض بيدى الحل والعقد والىَّ الأمر والنهى . وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى وهذا كله من لطف الله بى وبكم ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم .

فى هذا الموقف الباهر والاكرام العظيم الذى أكرم الله به يوسف بعد ملاقاة الأهوال التى يلين لها الحجر الصلد ، من ائتمار اخوته به ، فلطمه ، ولكمه ، ولكزه ، فسلبه ثيابه ، فالقائه فى الجب عاريا فريدا لا أنيس ولا معين ، فاخراج السيارة له وبيعه بيع الرقيق فى مصر فمحنته بامرأة العزيز تدبر له الكيد وتمعن فى الاساءة اليه جزاء له على تفويته غايات سافلة لها ، فسجنه السنين الطوال .

كل ذلك وهو مستمسك بدينه وبشرفه وكرامته ووفائه وذمته ودائب على الدعاء الى الله فخروجه من السجن ، فتوليته على خزائن الأرض ، فقدوم اخوته مستجدين حنانه وهم لا يعرفونه ، فمداعبته اياهم ، فقدوم والده اليه بعد أن ابيضت عيناه من الحزن عليه وعلى أخيه ولم يزل بياضهما الا بالقاء قميص يوسف عليه ، وسجود أبيه وأمه واخوته له .

كل ذلك مر بمخيلة يوسف فجاء يشكر الله تعالى معلنا نعمته عليه وما منحه من علم وملك ، داعيا الله تعالى أن يتولاه فى الدنيا والآخرة ، وأن يتوفاه مسلما أى مطيعا لله غير عاص ولا آثم ، وأن يلحقه بالصالحين من آبائه الأنبياء .

اقرءوا قوله تعالى : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [١٠١] من سورة يوسف

الأخلاق التى تستفاد من قصة يوسف وإخوته

هذه القصة مورد غزير المادة لمن يريد أن يستنبط الأخـلاق الفاضلة الطاهرة ، ويشرح الاستقامة على المبادىء الحقة وأثرها فى النفس ، وموضع درس عميق فى علم النفس . ولا يكون العالم النفسى مسرفا اذا وضع فى الأخلاق وعلم النفس : كتابا كبيرا وافيا ، مرجعـه فيه «سورة يوسف» وجعل أحوال يوسف وما حصل منه وله موضع تطبيقها . وقبل أن ألم المامة خفيفة بذلك أذكر مناقشة حصلت بين أحد وزراء المعارف ، فى عهد الخديو السابق وبين أحد المشايخ .

ذلك أن الوزير كان من الذين تعلموا فى مصر التعليم الابتدائى والثانوى . ثم ذهب الى أوربا فكان نسخة صحيحة من التربية الفرنسية والتفكير الفرنسى .

ذهب الوزير يفتش فى مدرسة المعلمين بالزقازيق ، ودخل عند شيخ يدرس الأخلاق ، فأعجبه تدريسه وانتهى المدرس ، فسأله الوزير : من أى مرجع تستقى ؟ فقال : القرآن . فقال متهكما : القرآن ! قرآن ايه يا خويا ؟ أتعلم الأخلاق من (ولقد همت به وهم بها — وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) ؟ .

فقال له الشيخ : ياسعادة الباشا ، ان هذه السورة التى لم تعجبك يمكننى أن أستخرج منها أمهات الفضائل والأخلاق . فأستخرج منها العفة والفضيلة فى شاب فى ريعان شبابه محفوف بالمغريات وموجبات الصبوة ، فلم يكترث لذلك واستمسك بمبدئه ولقد لقى الأهـوال وعانى الصعوبات فى سبيل استمساكه بالفضيلة ، فلم يغير مبدأه السجن والاذلال مع أنه لو أجاب لكان منعما مرفها منظورا اليه بعين الاكبار ، وان الاستمساك بالدين أصل لكل فضيلة فاستمساكه بدينه جعله يستهين بالأخطار . وان الحق وان استتر زمنا بثوب من التضـليل لابد أن يظهر ولو بعد حين .

ولما انتهى الشيخ الى هذا الحد قال له الباشا « ىى الشيخ امسح وأنا أمسح » .

وهأنذا أبين بعضا مما يعن لى :

ان طيب الأصل اذا آزره طيب البيئة ووجد الانسان فى تلكم البيئة زمنا كافيا ، فان ذلك يجعله على أكمل الأوصاف وأروع الخصال ، ويصيره خيرا لا شر فيه ، والاحساس بالشرف عامل حافز على الاستمساك بالفضيلة :

(١) هذا يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم — وكل اذا عد الرجال مقدم — غذى بدر النبوة وارتضع أفاويق الرسالة نشأه أبوه على التقوى ورشحه بالصلاح وتعهده بالأخلاق النبوية الكريمة فنشأ أصلح نشأة ، وأحس من صغره بمجد آبائه وأجـداده . وأبوه يذكره بأولئكم الآباء الصالحين المصطفين الأخيار ، ويمنيه أن يلحق بهم ويسير على قدمهم .

انظروا حين قص يوسف على أبيه رؤياه ماذا قال له ؟ قال (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق) والأصول عليها ينبت الشجر .

أفعـال من تلد الكرام كريمة وفعـال من تلد الأعاجم أعجم

وهكذا يكون الرجل الذى يرشح للنبوة . ويعده الله تعالى لنشر دينه (الله أعلم حيث يجعل رسالته) « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » . ليس بالحديث بل هو موضوع كما قال الألباني في سلسلة الضعيفة ج ٢ ص ٤٢٢ الطبعة الثالثة

(٢) أن يوسف عليه السلام قد شب على أكمل الأوصاف عاملا بما علم من آبائه وأجداده الأنبياء صلوات الله عليهم .

فكفه ذلك عن اتباع الشهوات ؛ بل حصر فكره وعمله فى موجبات الفلاح وما يعقب رضا الله تعالى ؛ لا جرم ان الله تعالى زاده علما على علمه وفتح بصيرته وجعله ذا فطنة ثاقبة ، وعلمه من تأويل الأحاديث فلا يأتيه أحد يقص عليه رؤياه الا أتاه بتأويلها على وجهه ، وذلك من شـدة الملاحظة وثقوب الذهن ومعرفة موارد الأمور ومصادرها مع عون الله تعالى له ، فان ذلك كله يوجب النفـوذ الى بواطن الأشـياء والتفطن للمناسبات على وجه يجعل الظن يقينا ، وذلك هو الألمعية .

الألمعى الذى يظن بك الظـن كأن قد رأى وقد سمعا

(٣) الايمان بالمبدأ يأتى من وراء كل بلاء فى سبيله .

فهو يسهل على صاحبه ملاقاة الصعاب ومواجهة هوج العواصف النفسية والأخطار فى سبيل تأييد ذلك المبدأ الحق .

انظروا الى يوسف وهو الفتى الغض الاهاب المشتعل جمرة الشباب — الذى يقـولون ان الجنون شعبة منه — مع فراغه وارتفاع شأنه فى بيت سيده ، ومع الحياة الجدة التى هو فيها ، والغنى الوافر الذى يتقلب فى أعطافه ويرغد فى أكنافه ، ومعه فى البيت سيدة فى مثل حاله — هى سيدته والحاكمة عليه فى بيئة كلها مغريات بارضاء الشباب وشفاء غلة النفس ، تدعوه الى نفسها فيعرض ، وتلح عليه فيرفض — أرادت قسره على ما فيه السعادة ظاهرا فأبى ، ونازعته ثوبه فنبا . استمساكا بمبدأ العفاف والتقوى . وحذرا من أن يكون عار آبائه وأجداده الذين علم عنهـم العزوف عن كل ما يشينهم أو يخل بأوامر دينهم ونواهيه ، وحفاظا لسيده الذى أكرم مثواه وأحله محل الولد — ومقابلة النعمة بالكفران ليس من دأبه ولا دأب أسرته — وهى لا تصغى لعظة ولا تسمع لنصيحة ، ولا ترعوى عن غى . كل ذلك ينبىء عن نفس كريمـة ، وروح طاهرة ، وعزيمة صماء لا تسمع رقى الغواية ، ولا تجيب داعى الجهالة .

وهذا من أخلاق أولى العزم المستضيئى البصائر ، المؤمنين حق الايمان بالمبدأ الذى اعتنقوه .

(٤) الالتجاء الى الله عند الابتلاء .

لقد اعتمد يوسف على الله تعالى عند كل ضيقة . والتجأ اليه عند كل معضلة . فان النساء المصريات حين رأين يوسف وأكبرن حسنه وجماله ، وبعد أن كن عاذلات لا حيات لامرأة العزيز عدن عاذرات ، وراودنه لها ولأنفسهن . وتوعدته امرأة العزيز قائلة (لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) لجأ الى ربه مستغيثا خائفا وجلا قائلا (رب السجن أحب الىّ مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين) ففرج الله عنه ما نزل به وصرف عنه كيدهن وعملهن لموافقتهن على ما يردن من الفاحشة ، بأن أبعده عنهن بالسجن وهو أهون الشرين على يوسف . وهذه ضراعة الى الله لا تهديد .

(٥) عشق يوسف لدينه والدعوة اليه .

ان المؤمن بمبدأ من المبادىء حق الايمان لا يترك فرصة تمر دون أن يدعو الى مبدئه الذى تغلغل فى أعماق نفسه ويبشر به . فأن يوسف اهتبل فرصة احتياج رئيس الخبازين ورئيس السقاة اليه فى تعبير رؤيا كل منهما ، فأخذ يدعوهما الى دينه بعد أن أبان لهما قدرته على تعبير كل رؤيا . ولو كانت الرؤيا عن طعام يرزقانه لنبأهما بتأويلها قبل أن يأتيهما ذلك الطعام .

وماذا يعيب المرء فى مدح نفسه اذا لم يكن فى قوله بكذوب ؟

ثم أخذ يبين لهما أن ذلك من تعليم الهه . ومجانبته ملة الأقوام الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، واتباعه ملة ابراهيم واسحاق ويعقوب . ثم أخذ يبين شناعة ما عليه أهل مصر من تعديد الآلهة . وتكثير الأرباب وأن دينه دين التوحيد هو الدين القيم ولكن الناس فى غفلة عنه .

اقرءوا قوله تعالى : قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا . ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي . إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [٣٧] وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [٣٨] يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [٣٩] مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [٤٠] من سورة يوسف

فينبغى لكل واحد منكم أن يكون نهازا للفرص لبث عظاته ونصائحه وارشاده فى أنفس الناس واذا لم تعرض له فرصة خلقها .

(٦) رزانة يوسف ومحافظته على شرفه .

ان أحدا سوى يوسف اذا كان مظلوما أو غير مظلوم وجـاءه أمر الافراج والخروج من السجن . لا بد أن يبادر الى الخروج منه ويغتبط بذلك أيما اغتباط . ولكن يوسف كان عنـده خلق الاباء والشمم . شرف نفسه وطهارتها آثر لديه من الخروج من السجن . فلم يشـأ أن يقال عنه مجرم سر منه الملك فعفا عن جريمته وأخرجه من السجن . بل أبى أن يخرج الا بعد أن يثبت أنه برىء الساحة نقى الصـحيفة . فأرسـل الى الملك يبسط ظلامته ويطلب اليـه اعادة التحقيق فى جريمته . فلما أجرى الملك التحقيق على وجهه وظهرت براءته رضى بالخروج من السجن مرفوع الرأس نقى الصحيفة . والشمم والاباء يحملان المتصف بهما على مجانبة كل ما يمس شرفه أو يدنس نفسه ذلك أن نفس الانسان أعز الأشياء عليه وآثرها لديه ، فهو يحب نفسه حبا جما .

ويقول بعض العلماء : ان الانسان لا يحب أصدقاءه وخلانه الا لأنه يجد فيهم لذة نفسه . يرتاح اليهم ويجد سلوته بالقرب منهم . فمحبة الأحباء أثر من آثار محبة المرء لنفسه . واذا كانت نفس انسان عنده بهذه المنزلة من المحبة والاكبار والاعظام . لا جرم أن غرامه بنفسه يدعوه اذا كان من أهل الكرامة الى أن يطهرها من الأدناس ويحرص الحرص كله على أن تكون صفحة حياتها متلألئة لامعة لا يشوبها شىء من النقائص والخسائس .

هكذا كان يوسف عليه السلام . وهذا هو الذى حمله على الاباء من مزايلة السجن الى أن تنجلى عن ساحة شرفه تلك الغمامة التى كانت مخيمة على صفحة كبيرة من صفحات حيـاته فلما انجلت خرج من السجن خروج السيف جلاه صيقله .

(٧) خلق الصبر .

كان يوسف عليه السلام متحليا بفضيلة الصبر . والصبر من أعظم الفضائل وأجلها قدرا . ذكر فى القرآن الكريم فى نيف وسبعين موضعا . وقد رتب الله كثيرا من الخـيرات والدرجات العالية على تحلى الانسان بفضيلة الصبر ، حيث لم يجعل له جزاء محدودا ومكافأة معينة . بل جعله منوطا بكرمه الواسع . وجوده العميم بغير وزن ولا معيار . مع أنه حد لكل مزية جزاءمعينا.

اقرءوا قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا) (اصبروا وصابروا) (بلى ان تصبروا وتتقوا) (وبشر الصابرين). وقال صلى الله عليه وسلم « الصبر[1] نصف الايمان » وسئل عن الايمان فقال « الصبر والسماحة »

الصبر : هو حبس النفس على ما تكره . وهو من خواص الانسان التى تميز بها عن سائر الحيوان . فان البهائم لا تحبس نفسها عن شهوة من الشهوات كالغذاء وغيره ولا تنظر فى عواقب شىء من مشتهياتها . بل هى تنظر شهوتها الحاضرة فقط ولا تحبس نفسها عنها أصلا .

١ - الحديث منكر كما حققه الالباني

... في سلسلة الحديث الضعيفة

الصبر له أسماء تتجدد بالاضافة الى ما عنه الصبر . فان كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمى « عفة » وان كان على احتمال مكروه ، فان كان فى مصيبة سمى « صبرا » وضده الجزع والهلع — وذلك بأن يسترسل فى ضرب الخدود وشق الجيوب — وان كان الصبر فى احتمال الغنى بأن يجاوره بالشكر سمى « ضبط النفس » ويقابله البطر . وان كان الصبر فى الحروب وملاقاة الأهوال سمى « شجاعة » ويضادها الجبن . وان كان الصبر عندموجبات الغضب سمى « حلما » ويضاده التذمر . وان كان الصبر عند نائبة مضجرة من نوائب الزمان ، سمى « سعة الصدر » ويضاده الضجر وضيق الصدر . وان كان الصبر باخفاء كلام يسوء غيره ظهوره . سمى « كتمان سر » . وان كان الصبر على القدر اليسير من الحظوظ سمى « قناعة » . وان كان الصبر عن فضول العيش بأن اقتصر على أقل القوت سمى « زهدا » .

اقرءوا هذه الآية الجامعة لكثير من أنواع الصبر .

(والصَّابِرِينَ فى البَأْسَاء والضَّرَّاء وحِينَ البَأْسِ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمتَّقُونَ)

لقد ضرب يوسف للناس المثل الأعلى فى كثير من أنواع الصبر :

(١) صبر على ايذاء اخوته له . وتجريدهم اياه من ثوبه . ولطمه ولكزه والقائه فى الجب بقصد اهلاكه .

(٢) لا بل صبر على أعظم من هذا حيث اعتبروه شريرا جانيا ، اذ باعه ملتقطوه بأبخس الأثمان قال تعالى (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) .

(٣) صبر على نعمة الله فجاورها بالشكر ، وجانب البطر حين تمكن فى بيت سيده وصار صاحب الأمر والنهى . فلم يسىء استعمال المال بصرفه على الشهوات بل شكر لله ولسيده ، ولم يدخر لنفسه من ذلك الغنى ولم ينل منه الا حاجته ، وكف عن الفضول فكان قانعا .

(٤) صبر على شهوة الفرج وقد هيئت له فى جيش من المغريات يحف به من كل ناحية ؛ فالطالبة سيدته وربة نعمته ، مع ما هى عليه من جمال ورفاغة ورغبة فيه ، وهو شاب ماطر شاربه فى ابان فيضه الحيوى . وأوان التهاب جذوة الشهوة واحتشاد الدواعى الطبيعية ، وانتظار الآمال والأمانى الجسام له اذا لبى ؛ فلم يخرج من بين أولئكم المغريات الا الى العفة متوجا بتاج الصبر عن الشهوات ، وأسقط منازعة دواعى الهوى وقهرها لباعث الدين وكرم النفس والحفاظ والوفاء ، ونصر جند الرحمن على جند الشيطان :

أهان الهوى حتى تجنبه الهوى   كما اجتنب الجانى الدم الطالب الدما

(٥) مسته الضراء وألقى فى غيابة السجن فحالف الصبر الجميل ، وسعة الصدر .

(٦) خرج من السجن ومكن الله له فى الأرض وجعله على خزائنها ، وصار أهــل القطر المصرى فى وثاقه ، والنفوس بين حبسه واطلاقه ، وعزرائيل بين شفتيه ، وكلمته فيها الحياة الطيبة أو الموت الزؤام . وجاء اخوته يمتارون وهم ثأره والذين أبدعوا به وأودعوا عنده اساءتهم سلفا . فلم يجز شرهم بمثله ، بل صبر وغفر . ولما قالوا له أئنك لأنت يوسف ؟ قال أنا يوسف وهــذا أخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين . فأظهروا ندمهم واعترفوا بخطئهم قائلين (تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين) فأسبل ذيل عفوه على اســاءتهم . وأجرهم وسن التجاوز وقال لهم (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) .

هذا قليل من كثير من المشاهد الصالحات والمواقف الكريمة التى تشهد ليوسف آنه رجل بزَّ الرجال بصفاته الكريمة . وضرب الأمثال العالية بأخلاقه الطاهرة وحكمته (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب) .

فضيلة الشكر

كان يوسف متحليا بفضيلة الشكر .والشكرمن أخلاق الربوبية قال الله تعالى (والله شكور حليم) والشكر : هو معرفة النعمة الحاصلة من المنعم والفرح بها والقيام بمقصود المنعم والعمل بما يحبه : وهذا الخلق عزيز فى الناس .

اقرءوا قول الله حكاية عن ابليس (لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) وهذا وان كان قولا لأبليس ولكن الله تعالى صدقه فى قوله (وقليل من عبادى الشكور) وقد أمر الله به فقال (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) . وقال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم) .

وقد استثنى الله تعالى فى خمسة أشياء ولم يستثن فى الشكر . فاستثنى فى الاغناء . وفى الاجابة . وفى الرزق . وفى المغفرة وفى التوبة . فقال (فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء) . (فيكشف ما تدعون اليه ان شاء) . (ويرزق من يشاء بغير حساب) . (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) . (ويتوب الله على من يشاء) — وأما الشكر فقال فيه (لئن شكرتكم لأزيدنكم) . ولم يستثن .

وهذا يوسف يتحدث بنعم الله تعالى عليه وعلى آله وهو من الشكر . فانه لما جاء أبواه رفعهما على العرش وخر له أبواه واخوته سجدا . فقال (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشــيطان بينى وبين اخوتى ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم) .

وكان ختام قصته قوله (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) .

العظة البالغـــة

انكم ترون أن يوسف قد تقلب فى الحالين بؤس ورخاء وتداولته أيدى ريحين : زعـزع ورجاء . وهـو كالذهب الابريز لا يزيد على التقلب فى النار الا صفاءً أو كالياقوت لا تؤثر فيه النيران فبينما هو فى كنف أب يؤثره بالكرامة، ويحوطه بالمحبة ، ويخاف عليه من الليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس ؛ اذا هو فى يد اخوته يسلفونه الاهانة والمذلة . يضربونه ظالمين . ويلقونه فى غيابة الجب غير نادمين . وبينما هو على هذه الحال اذا هو يشم نسيم الحياة من جديد ، ولكنها حياة الرق والعبودية . ثم انتقل الى عبودية هى أشبه بالحرية اذ صار رئيس العبيد والخدم فى بيت سيده . وبينما هو فى هذه النعمة التى يغبطه عليها كثير من الأحرار ؛ اذا هو فى غيابة السجن بلا ذنب اقترف ، ولا جريمة اجترح . وبينما هو فى هذه الحال ، اذا هو فى السجن مبشر دينى يدعو الى عبادة الله ، ويصد الناس عن كل ما سواه من الأرباب المتفرقين ؛ واذا هو يقسم الحظوظ ويخبر بالأشياء الغائبة . ثم ترقت به الحال الى أن صار معبر منام الملك ونذيره بقحط عقب رخاء يعم كل منهما البلاد ، فصيره على خزائن الأرض واصطفاه لنفسه واستخلصه لمملكته . فصار قسيم الملك وكافل المملكة المصرية وعليه اعاشة مصر والبلاد القريبة منها فهو « وزير التموين » .

وبينما هو على هذه الحال لا ينقصه الا أن يشاهد أباه وأمه — خالته — اذا هو باخوته قد وقعوا فى شركه ؛ فداعبهم أجمل مداعبة ، وعبث بهم عبثا كله جـد ، واحتال عليهم حتى أتوه بأخيه لأمه وأبيه ، ثم أتوه بأهلهم أجمعين .

وهو فى كل هذه الأطوار المختلفة مستمسك بأكمل الخصال وجميل الأخلاق .

وان امرأ دامت مواثيق عهده   على مثل هـــذا انه لكريم

فهذه القصة الجميلة عبرة وعظة بالغة لا تلمح العبرة منها عين كل ناظر اليها ولا ينفـذ الى لبابها كل قارىء لها . ولكنها كما قال تعـالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

شعيب عليه السلام

قومه ومكانهم ـ تهديد شعيب والمؤمنين باخراجهم من القرية ـ موت شعيب .

ذكر شعيب فى القرآن عشر مرات — فى سورة الأعراف فى الآيات ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٢ وفى سورة هود فى الآيات ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ وفى الآية ١٧٧ من سورة الشعراء وفى الآية ٣٦ من سورة العنكبوت .

قومه ومكانهم

أما قومه فهم شعب مدين بن ابراهيم عليه السلام ، ويعبر عنهم فى التوراة بمديان . وأما مكانهم فقد كانوا نزولا فى بلاد الحجاز — مما يلى الشام — على خط عرض يوافق خط عرض « قفط » فى البر الافريقى الى الجنوب من القصير فى الجهة المقابلة .

كان أهل مدين فى عيش رافغ ، وهم مع ذلك أهل تجارة . وكانوا يعبدون غير الله تعالى ويفعلون الشرور ولا يكفون . فكانوا يطففون المكيال والميزان ، ويماكسون الناس فى سلعهم ارادة شرائها بثمن بخس . وكان شعيب ينهاهم عن كل ذلك ويحذرهم بأس الله تعالى فأنكروا عليه ما جاء به أشد الانكار وهو دائب على نصحهم وهدايتهم .

ويسميه المفسرون خطيب الأنبياء لحسن مراجعة قومه وبراعته فى اقامة الحجة عليهم ودحض حججهم . وقد جاءهم ببينة من ربه على صدقه فيما يدعو اليه غير أن الله تعالى لم يذكر فى الكتاب هذه البينة . وقد تنوعت أقوال المفسرين فيها بما لا برهان لهم به — فالأولى التسليم لعلم الله تعالى . وقد كانوا يقعدون على الطرق يرصدون الناس الذين يأتون الى شعيب ليصدوهم عن الدين ويعيبون طريقته ، ويوعدون من آمن بشعيب . ويبغون سبيل الله عوجا . ولعل البينة الطريقة الواضحة المقبولة فى العقل وهى شريعة من الله أتاهم بها .

وقد جهدوا جهدهم فى ابطال دعوى شعيب فقد كانوا يقولون (يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) ويحتقرون شأنه بقولهم (وانا لنراك فينا ضعيفا) ظنا منهم أن القوة ميزان الصدق فى القول وهو ضلال منهم ثم يتهددونه بقولهم (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) .

تهديد شعيب والمؤمنين
بإخراجهم من القرية

ولما أحرج شعيب قومه بدعائهم الى ما لا يريدون من الايمان بالله وحسن المعاملة والاستقامة على الجادة . اجتمع ملأ قومه وهددوه هو والذين آمنوا معه باخراجهم من القرية اذا لم يدخلوا فى دين قومهم . فراجعهم بقوله : أو لو كنا كارهين ؟ انا نكون قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم ودينكم بعد اذ نجانا الله منها بالهداية الى أقوم السبل ، وأن العود الى ملتكم ليس بملكنا ، ولكن ذلك يكون اذا أراد الله خذلاننا وابعادنا عما جاءنا به من الحق ، وهذا ما لاسبيل لنا الى علمه وانما يعلمه الله الذى وسع كل شىء علما وهو الذى نتوكل عليه .

وقال الملأ من قوم شعيب يحذرون الجمهور الوقوع فى دين شعيب قائلين (لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون) لأنه يمنعكم التطفيف فى الكيل والميزان ، وهذا مما يزيد فى ثروتكم . وعجبوا كيف ينهاهم عن عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه ؟ وكيف يأمرهم بالعدل فى الكيل والميزان وينهاهم أن يفعلوا فى أموالهم بحسب أهوائهم وما يشتهون ؟ وعابوا عليه صلاته التى تأمره بذلك وتهكموا به قائلين : (أئنك لأنت الحليم الرشيد) ، وهو فى كل ذلك يراجعهم ويقيم الحجة عليهم الى أن تأذن الله بهلاكهم . فأخذتهم الرجفة وهى الزلزال فبادوا كأن لم يغنوا فيها .

وبعد أن فرغ الله من أهل مدين ونجى شعيبا والذين آمنوا معه ، أرسله الى أصحاب الأيكة — وهى غيضة تنبت ناعم الشجر كانت بقرب مدين تسكنها طائفة من عباد الله . قيل كانوا بادية مدين ، وكان شعيب أجنبيا منهم ، وكانوا على مثل طريقة أهل مدين فلما نهاهم عما هم فيه قالوا (انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين) ظنا منهم أن الله لا يرسل الى البشر هداة منهم ، جهلا منهم بأن الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وكان من شدة حماقتهم أن يطلبوا الى شعيب أن يسقط عليهم كسفا من السماء — أى قطعة منها — ان كان من الصادقين . ولشدة جهلهم لم يطلبوا الهداية الى الحق ، فأخذهم عذاب يوم الظلة بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم ، ثم ساق اليهم غمامة فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا . والى ذلك الاشارة فى قوله تعالى (انه كان عذاب يوم عظيم) .

اقرأوا هذه الآيات :

سورة الاعراف : وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ

إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٨٥] وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [٨٦] وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [٨٧] قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ [٨٨] قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ [٨٩] وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ [٩٠] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [٩١] الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ [٩٢] فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ [٩٣]

سورة هود : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ [٨٤] وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [٨٥] بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ [٨٦] قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ [٨٧] قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [٨٨] وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ [٨٩] وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ [٩٠] قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ [٩١] قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ

رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ [٩٢] وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ [٩٣] وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [٩٤] كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ [٩٥]

سورة الحجر : وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ [٧٨] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ [٧٩]

سورة الشعراء : كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ [١٧٦] إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ [١٧٧] إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [١٧٨] فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ [١٧٩] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٨٠] أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ [١٨١] وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ [١٨٢] وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ [١٨٣] وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ [١٨٤] قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [١٨٥] وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ [١٨٦] فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [١٨٧] قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ [١٨٨] فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [١٨٩] إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [١٩٠] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [١٩١]

سورة العنكبوت : وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ [٣٦] فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [٣٧]

زمن شعيب

كنت قد قرأت « فى ص ١٦ ج ٤ من كتاب صبح الاعشى لأبى العباس أحمد القلقشندى » عبارة تفيد الجزم بأن شعيبا عليه الصلاة والسلام كان زمنه بعد زمن موسى بعدة قرون ، وأن وجوده كان فى أوائل القرن الثامن بعد موسى عليه السلام . ونص عبارته :

« ثم ملك بعده — يعنى يوثام — ابنه آحاز ست عشرة سنة أيضا . وكانت الحرب بينه وبين ملك دمشق ، وفى زمنه كان شعيب عليه السلام » اهـ .

ولكن تبين لى أن ذكر « شعيب » فى كلام القلقشندى خطأ وأن الصحيح « شعيا » .

أما شعيب فقد كان زمنه قبل زمن موسى ، فان الله جل ذكره لما ذكر نوحا ثم هودا ثم صالحا ثم لوطا ثم شعيبا قال (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه) سورة الأعراف .

ومثل ذلك فى سورة يونس بعد أن ذكرهم قال (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملائه) ومثل ذلك فى سورة هود وفى سورة الحج وفى سورة العنكبوت — بعد أن ذكر أمم الأنبياء وأحوالهم قال (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات) .

ولبيان الحق واعطاء كل ذى حق حقه أقول ان الذى وجه نظرى الى ذلك هو الشيخ عبد الفتاح خليفة .

بنو إسرائيل بمصر (١)

نزل يعقوب اسرائيل الله بأولاده مصر فى عهد يوسف عليه السلام ولم ينزل فى الكتاب الكريم شىء عن بنى اسرائيل واسرائيل بمصر بعد ذلك الى عهد ولادة موسى . ولكن التوراة ذكرت أن

---

(١) نشرت جريدة الأهرام بعددها الصادر فى ٣ يناير سنة ١٩٣٨ تحت عنوان « فى الآثار المصرية » ما يلى : —

اكتشافات جديدة فى المتحف المصرى — رسالة عن فتح بئر كنعانية — النظام الهجائى الهيروغليفى الصحيح .

(كان المغفور له الملك فؤاد قد أهدى مجموعة نفيسة من الجعارين الى المتحف المصرى ، وقد أتيح للعالم الأثرى الأستاذ الن رو — مدير بعثات متحف جامعة بنسلفانيا الى مصر وفلسطين — بحث هذه الجعارين ، فوفق الى اكتشافين يطلع عليهما القراء فى هذا المقال الممتع الذى كتبه خصيصا « للأهرام ») :

أتاحت لى السلطات المحلية المصرية خلال الأشهر الأخيرة العمل فى مجموعة « الجعلان » أو « الجعارين » التى أهداها المغفور له الملك فؤاد الى المتحف المصرى فى القاهرة ، وقد هيأ لى العمل فى هذه المجموعة النفيسة ، أن أدرك ادراكا تاما ما لها من قيمة تاريخية عظيمة تجعلها بحق أفضل مجموعة من نوعها فى العالم وقد اكتشفت منها ، فيما اكتشفت ، رسالة تعلن فتح بئر كنعانية والنظام الهجائى على المتون الجعلية وسأنشر كليهما مع هذا المقال .

برتيفان كاهن أون

وارى ، قبل البحث فى اكتشافاتى هذه ، أن أصف حجرا عموديا من معالم القبور ورد على المتحف المصرى منذ عهد قريب ، وترجع أهميته الى اتصاله بعهد يوسف الصديق الوارد فى التوراة اليهودية قبل عهد الحفريات العلمية فى مصر وفلسطين ، كانت الاكتشافات الخاصة باليهود وتاريخ اقامتهم فى مصر نادرة جدا ، ولكن الأعمال التى قامت بها البعثات الأثرية الحديثة ، ومنها اعمال الأستاذ سليم بك حسن وغيره من الأساتذة المصريين ، أخذت لحسن الحظ تبدد شيئا فشيئا ذلك الضباب القائم الذى كان مخيما على هذا القسم المهم من رواية التوراة .

فالثابت اجمالا ، يبين أكثر الخبراء ، أن العبرانيين دخلوا مصر فى عهد الهكسوس وهو العهد الذى يمثل الأسرتين المصريتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة والذى بدأ حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد .

وقد كان الهكسوس ، أو « الملوك الرعاة » فى عرف الكتاب المحدثين ، من الشعوب الأسيوية بلغت سلطتهم أوجها الى شمال مصر وأرض كنعان من مدينة أفاريس فى دلتا النيل . ثم طردهم من مصر أحمس الأول ، أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، حوالى عام ١٥٨٠ ق . م . وقد خرج العبرانيون من مصر فى ذلك الوقت أو بعده بقليل . أما الملك الذى لم يعف يوسف الصديق (سفر الخروج ص ١٠ع٨٠) فقد كان أحمس الأول أو غيره من الملوك الذين عادوا الى حكم مصر الشمالية بعد طرد الهكسوس منها .

يعقوب وبنيه لما أقاموا فى مصر خيرهم فرعون فى الأرض التى ينزلون بها . فقالوا — بناء على تعليم يوسف لهم — انهم رعاة ماشية . وطلب يوسف الى فرعون أن يسكنهم أرض جاسان أو جاشان وهى فى شمال بلبيس من بلادها سفط الحنة الآن . ويقول العلماء انها نواحى الصالحية وكانت العلة فى طلب يوسف ذلك لهم أنها أرض مراع وهم رعاة ماشية .

= أما الاسمان الواردان فى تاريخ اقامة اليهود بمصر ، وهما بوتيفيرا وبوتيفار — أولهما كاهن « أون » أو هليوبوليس الذى اقترن يوسف الصديق بابنته (سفر التكوين ص ٦١ ع ٤٥) والثانى رئيس خدم فرعون (سفر التكوين ص ٣٩) — فلم يكونا من نوع الأسماء المعروفة قبل الأسرة الحادية والعشرين ، ولم يكثر استعمال هذا النوع قبل الأسرة الثانية والعشرين . أى فى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد اذ كتبت رواية اقامة اليهود فى مصر بالخط الذى صرنا نعرفه الآن .

وبعبارة أخرى كانت اسماء الأشخاص المعاصرين الأصلية قد ضاعت مع الأجيال فطفق الراوى يستعمل بدلا منها الأسماء الشائعة فى عصره ، ولكن لم يكن يعرف — حتى حين استيلاء المتحف المصرى على الحجر المتقدم ذكره — ان الشكل الأصلى لهذين الاسمين الذى طال البحث عنه وكان العلماء يقدرونه تقديرا — انما هو « بدى — با — راى » الذى حرفه الكتاب من قبل فجعلوه بوتيفيرا وبوتيفار ومعناه الحرفى « الذى أنعم به « رع » آله الشمس » وهذا اسم صاحب الحجر نفسه .



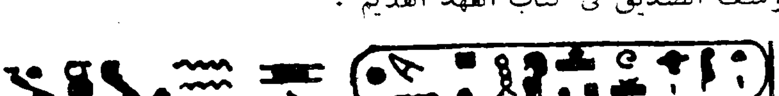
« بدى — با — راى » بالهيروغليفية ، وهو الشكل الأصلى للاسم العبرانى « بوتيفار » الذى ورد ذكره فى التوراة .

فـ « بدى — با — راى » هذا كان مديرا لمستودع الاله « بتاح » الذى كان معبده الرئيسى فى ممفيس ، وقد مثل الميت على هذا الحجر مصليا لأوزيريس قاضى الأموات العظيم الذى يحمل لقب « رق شجرة الزيتون » .

وتدلنا النصوص التى وجدت على هرم الملك ونيس ، احد ملوك الاسرة الخامسة على ان شجرة الزيتون هذه كانت مقدسة فى هليوبوليس . قارن بذلك المثل الوارد فى سفر القضاة ص ٩ ع ٨ خطر مرة للشجر أن يخترن ملكة فقلن للزيتونة « املكى علينا » . وفى المزمور الثانى والخمسين ع ٨ يستدل على أن شجرة الزيتون كانت مباركة فى معبد العبرانيين .

وخلف رسم بدى — با راى على الحجر المتقدم ، توجد رسوم اقربائه ، ويدعى احد ابنائه « ار — هب — يوت » وتعريبه الحرفى (الاله أبيس يمنح العمر الطويل) وهذا الاسم عينه موجود على حجر آخر من بقايا الأسرة الثانية والعشرين من السيرابيوم فهو اذن ذو قيمة لانه يساعد على تعيين تاريخ حجر — بدى — با — راى .

وأنا اترك لعلماء التوراة أن يبحثوا فى الاثر الحقيقى لاسم بدى — با — راى وتاريخ حجره على كتابة قصة يوسف الصديق فى كتاب العهد القديم .



الرمز الهيروغليفى عن « بئر الملك مرنتاح الاول »

رسالة عن فتح بئر كنعانية

لم يكد مرنتاح الأول — احد ملوك الأسرة التاسعة عشرة — يرتقى عرش مصر — حتى أمر باعادة فتح جميع الآبار غير المستعملة والتى كان العدو قد اغلقها (كما يستدل على ذلك من النقوش التى وجدت على حجر النصر الشهير الذى أقامه هذا الملك وكتبت عليه أسماء الاسرائيليين وغيرهم من الشعوب) .

=

ويلوح لى أنه انما عمل ذلك ليبعدهم عن مخالطة المصريين بقدر الامكان ، حتى يكونوا

= أما الحصون قد بقيت على حالها ، وهذه الآبار هى بلا شك التى كان يستمد منها جيشه الماء اللازم له فى أثناء احتلاله لأرض كنعان .

وبهذه المناسبة أقول انى لاحظت أخيرا فى مجموعة الملك فؤاد حجرا لولبيا أسود اللون مستطيل الشكل يشير فعلا الى اكتشاف بئر ، وهى بالبداهة بئر كنعانية تعود الى عصر مرنتاح الأول .

أما النقش الذى عليها فمعناه : « دخلت المياه فى حجر بئر الملك مرنتاح الأول « أو » وجد الماء فى حجر . . . الخ » والحجر يعنى بالطبع الصخر الذى حفرت البئر فيه .

وليس مستحيلا أن تكون هذه البئر هى التى أشار اليها أحد موظفى الحدود الكنعانية فى يومينه الشهيرة اذ سجل أسماء الرسل الذين مروا من أرض كنعان واليها فى عهد الملك مرنتاح الأول ، فقد كتب هذا الموظف السنة الثالثة ، بالشهر الأول من الفصل الثالث ، اليوم السابع ، وصل رؤساء رماة بئر الملك مرنتاح الأول ــ فلتكن لهم الحياة والصحة والقوة التى فى الجبال ــ ليتصلوا بقلعة ثارو (وهى القنطرة الحالية) ولعل قوله « التى فى الجبال » يعود الى البئر ويدل على ارتفاعها فى أرض كنعان ، ويظن الخبراء انها كانت قرب أورشليم ولكن ليس على هذا من دليل .

وأنا أعتقد ان الحجر اللولبى الأسود المنقوش لم يكن الا رسالة خالدة مرسلة الى مرنتاح الأول فى مصر تعلن له اكتشاف الماء فى البئر التى سميت باسمه وعلى كل حال من جانبى الحجر اسم الملك كأنما ذلك عنوان الرسالة !

اكتشاف النظام الهجائى
فى المتون الجعلية



احد الرموز الجعلية
النظام الهجائى
الجديد ، وقراءتها
« أوزيريس »

منذ كان علم الآثار المصرية فى طفولته حار العلماء فى تفسير مجموعات غريبة من العلامات المنقوشة على بعض المتون من الجعلان أو الجعارين ، وقد حسبوها غالبا نقوشا أو رموزا مقدسة لبعض الآلهة ، مثال ذلك أن منها جعلا يحمل رسوم صولجان وسمكة وعقرب واسد ، وقيمة هذه العلامات معروفة ، فالصولجان يدعى « واز » والأسد « رو » وهلم جرا .

وقد حاولت طويلا ، ولكن عبثا ، قراءة هذه العلامات بالطرق المعروفة ، ثم خطر لى أن أقرأ كل مجموعة بأول حرف من أسماء مفرداتها ، فاتخذت الواو فقط من « واز » أى الصولجان ، والراء من « رو » أى الأسد وكان نجاحى سريعا اذ تجلى لى كثير من معانى هذه المجموعات على الجعلان أو الجعارين التى يمتد تاريخها من الأسرة الثامنة عشرة الى عهد البطالسة .

وجميع المجموعات التى فسرتها حتى الآن تشتمل على أسماء آلهة ، واتضح لى أن الكتابة الهيروغليفية التى اكتشفت حديثا على الجعلان انما كانت لاخفاء أسماء الآلهة ، ولهذه المناسبة تذكر ما كتبه هيرودس المؤرخ الشهير عن عملية التحنيط المصرى فى (كتابه الثانى الفقرات ٨٥ الى ٨٨) اذ قال انه يمتنع بكل تدقيق عن ذكر اسم الاله ، وهو يعنى طبعا أوزيريس ، والعبرانيون

=

بمنجاة من وثنيتهم حرصا منه على بقاء ذراريهم على التوحيد ، وذلك أن المصريين كانوا يقذرون الرعاة ولا يخالطونهم لأن ذلك نجاسة لديهم (١)

وتذكر التوراة أن يوسف اشترى من المصريين مواشيهم وكل ما يملكون من الأرضين لفرعون فى نظير ما أعطاهم من الطعام حين اشتد الجوع فى الأرض . ثم اشترى منهم أنفسهم فصاروا عبيدا لفرعون بطعام بطونهم . ونقل الناس الى المدن لأنهم لا خير لهم فى البقاء بداخلية البلاد ، اذ لا زرع ولا ضرع .

وأمامى الآن أطلس تاريخى لحضرة الفاضل الأستاذ محمد رفعت بك . وقد رسم أرض جاشان شمالى بلبيس ومن بلادها « فكوسه » أى سفط الحنة .

وفاة يعقوب

وقد عاش يعقوب سبعا وأربعين ومائة سنة . ومات على رأس سبع عشرة سنة من قدومه الى مصر . وبارك ابنى يوسف « أفرايم ومنسى » ودعا لهما ، وجعلهما صاحبى نصيبين كأولاد يعقوب الصلبيين فى الأرض المقدسة التى يملكها بنو اسرائيل — وهى أرض فلسطين — ودعا أولاده وباركهم وتنبأ لهم بما سيلاقى كل واحد منهم ونسله اجمالا . وأوصاهم بالاستمساك بالدين (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون) .

— وقد مات يعقوب بعد ما أوصى أن يدفن عند أبيه وجده . فأمر يوسف الأطباء بتحنيطه فحنطوه وحمل الى فلسطين ودفن هناك كما أوصى ،أما اخوة يوسف فوقعوا على قدميه تائبين

= أيضا كانوا يرون أسماء آلهتهم أقدس من أن تذكر ، ومعظم ما فسرته من هذه النقوش يحوى اسم أوزيريس القاضى العظيم للأموات فى الآخرة .

لكن أهمية الاكتشاف الجديد تتجاوز قراءة النصوص المنقوشة على الجعلان والجعارين ، لانها تعنى أننا وقفنا على أول استعمال حقيقى للنظام الهجائى الصحيح الذى كان منتظرا فى ذلك العهد من مصر الى سينا الى فلسطين وسوريا .

ومما لا شك فيه أن النظام الهجائى للغة الهيروغليفية نشأ من النظام المعقد الهيروغليفى القديم الذى انتشر فى عهد الأسرة الثانية عشرة حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، ولكن استعماله لم يشع الا فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة . ففى النظام الأخير أعطيت الرموز الهيروغليفية معانى مختلفة تماما عما كان لها من قبل وقد استعمل هذا النظام فى بعض النصوص الدينية وفى أسماء الملوك ، كما أن تفسير المسيو دريوتون ، المدير العام لمصلحة الآثار لهذه الرموز المعقدة ساعدنى كثيرا على قراءة النظام الهجائى المحض للكتابات المنقوشة على الجعارين والجعلان .

(١) وتقول التوراة « فى الآية ١١ من الاصحاح ٤٧ ــ تكوين » فاسكن يوسف أباه واخوته وأعطاهم ملكا فى مصر فى أفضل الأرض من أرض رعمسيس كما أمر فرعون ١٢ ــ وعال يوسف اباه واخوته وكل بيت أبيه ورتب الطعام على حسب الأولاد .

مستغفرين لسابق ذنبهم ضارعين خائفين أن يمسك يوسف عنهم سبب بره ، ويزوى عنهم وجه بشاشته بعد أن كان يكرمهم . مقدرين أنه ما كان يكرمهم الا بسبب وجود أبيهم . وقالوا له : ان أبانا أوصانا أن نبلغك أن تصفح عن اساءتنا اليك وبخعوا له بأنفسهم بالعبودية ، فبكى يوسف وسكن روعهم وعرفهم ما فى اساءتهم من الخير لشعوب الأرض وأن الله فعل ذلك رحمة بعباده ، وعاش يوسف الى أن بلغت سنه عشراً ومائة سنة فحنطوه ووضعوه فى تابوت وبقى محفوظا الى أن أخذه بنو اسرائيل فى خروجهم من مصر .

وقد رأيت فى الحرم الخليلى بحبرون أحد التوابيت الموضوعة قريبا من مغارة المكفيلة وهى مدفن ابراهيم وسارة ورفقة واسحق ويعقوب . وأهل البلاد يقولون انه تابوت يوسف وانه دفن فى المغارة ، وأحسب ذلك منهم وهما لأن يوسف دفن فى أرض « أفرايم » كما تقول التوراة ، وحبرون من أرض يهوذا .

وقد أخبرنى حضرة الفاضل محمد نمر حسن نابلسى بأن يوسف مدفون بنابلس وله ضريح هناك . وكذلك أخبرنى بذلك حضرة الفاضل أمين بك عبد الهادى من أعيان نابلس .

وهذا هو المعقول لأن نابلس من أرض أفرايم واسمها فى القديم « شكيم » أو « شخيم » .

ثم ماذا ؟

ضرب الدهر ضرباته وجاءت الأسرة الثامنة عشرة المصرية . وطردوا ملوك الرعاة الذين كانوا فى مصر وشغلوا من تاريخها نحو أربعة قرون — من الأسرة الرابعة عشرة الى الأسرة الثامنة عشرة .

وجاء أحمس رأس تلكم الأسرة وطرد الرعاة ومزقهم كل ممزق وشردهم كل مشرد . وبنو اسرائيل فى أمكنتهم . وكان بين ورودهم الى مصر وخروجهم منها على يد موسى خمس عشرة سنة ومائتا سنة على ما حققه رحمة الله الهندى .

جاء ملك لمصر لا يعرف يوسف ولا فضله على مصر وغيرها . ورأى بنى اسرائيل يكثرون . فخاف أن يكونوا البا « أى قوة وحزبا » لأعداء أهل مصر فأراد أن يقتل كل ذكر من أولادهم حتى لا يكثر عددهم ويكون منهم ما يحذر على مصر والمصريين[١] . فأمر قابلتى المصريين وكان اسم احداهما « شفرة » والثانية « فوعة » بقتل كل ذكر تلده عبرانية . وأما البنت فتبقى ، فلم تفعلا ما أمرتا به . ولما سألهما قالتا له ان العبرانيات قويات . فهن يلدن قبل أن تأتى القابلة . وكان

---

(١) يقول المفسرون : ان الكهنة أخبروا فرعون بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود لبنى اسرائيل فوجه همه الى قتل ابنائهم واستحياء نسائهم ، وهذا يحتمل ولا بعد فيه .

ذلك الملك أمر باذلال العبرانيين وتسخيرهم فى عمل اللبن والبناء وغير ذلك من الأعمال الشاقة، ووكل بهم من يتبعهم حتى لا يجدوا مس الراحة ، رجاء أن يقلل ذلك من نسلهم ، فلم يفد ذلك فرعون وآله فائدة . لأن العبرانيات كن يحملن كثيرا ، ثم أمر فرعون جنوده والمتدخلين فى الأعمال أن يلقوا كل ذكر من أولاد العبرانيين فى النهر ليموت .

هذا ما ذكرته التوراة وهو عين ما ذكر فى القرآن الا فى تفاصيل جزئية .

اقرأوا هذه الآيات :

سورة البقرة : وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [٤٩]

سورة الاعراف : وإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [١٤١]

سورة ابراهيم : وإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [٦]

سورة القصص : نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [٣] إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [٤] وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ [٥] وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ [٦]

فأنتم ترون أن قتل الأبناء واستحياء النساء بلاء لا يصبر عليه ذو عقل الا بمعونة الله ، وأن الله سبحانه وتعالى انما كافأ بنى اسرائيل بنعمه الوافرة بما كان منهم من الصبر ، وان كانوا على أخلاق جافية وطباع شاذة فى نواح أخرى من نواحى سجاياهم ، من حيث ضجرهم بالخير يسدى اليهم ، وطلبهم من موسى أن يجعل لهم الها حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم — كما سيأتى — ومبادرتهم الى عبادة العجل بلا روية وذلك أن أجر الصبر عند الله تعالى عظيم .

موسى عليه السلام (١)

ولادة موسى وإرضاعه ـ تربيته فى بيت فرعون ـ خروج موسى من مصر الى ارض مدين وسببه ـ أرض مدين ونزول موسى بها ـ قضاء موسى مدة استئجاره ـ موسى بالوادى المقدس ـ بعثته عليه السلام ـ عود موسى الى مصر ودعوته لفرعون ـ تذكير فرعون موسى تربيته فى بيت فرعون ـ موسى يحاج فرعون فى ربوبية الله تعالى ـ فرعون يتجاهل الله ويدعى الألوهية ويأمر ببناء صرح يصعد به الى السماء ـ معجزتا العصا واليد ـ تمادى فرعون وقومه ـ الائتمار بموسى لقتله ـ فرعون يستخف بموسى ويباهى ـ الآيات التى أرسلها الله تعالى على فرعون وقومه لما كذبوا موسى عليه السلام ـ انطلاق بنى اسرائيل ـ فرعون صاحب موسى راى آخر فيه ـ لصوق الوثنية ببنى اسرائيل ـ ذهاب موسى عن بنى اسرائيل ـ اتخاذ بنى اسرائيل العجل ـ ما حقيقة العجل الذى عبده بنو اسرائيل ـ ومن هو السامرى ـ دخول الأرض المقدسة ـ نتق الجبل فوق بنى اسرائيل ـ بنو اسرائيل ومسألة البقرة ـ قصة قارون وموقف موسى بازائه ـ ايذاء بنى اسرائيل لموسى ـ اظهار الله تعالى براءته ـ اختيار موسى سبعين رجلا ـ العبد الصالح صاحب موسى ـ ما اسم العبد الصالح ـ تذكير الله تعالى بنى اسرائيل بنعمه عليهم ـ موت هارون ثم موسى ـ موقف لبنى اسرائيل بعد موسى ـ ثناء الله تعالى على موسى وهارون ـ العظات التى تستفاد من قصة موسى ـ استطراد .

ولادته وإرضاعه

فى أثناء تلكم العاصفة الهوجاء التى مرت ببنى اسرائيل فى مصر والأهوال التى يلاقونها

---

(١) نشرت جريدة الأهرام بعددها الخاص فى ١٠ مايو سنة ١٩٣٩ خبرا لمراسلها فى لندن جاء فيه:

موسى عليه السلام : هل كان مصريا ؟

لندن فى ٩ مايو ـ لمراسل الأهرام الخاص ـ اشارت جريدة « نيوزكرنيكل » الى الطبعة الألمانية التى نشرت فى امستردام لكتاب : « موسى والتوحيد » من تاليف الأستاذ سجموند فرويد ، من علماء تحليل النفس المشهورين ومما نالته الجريدة ان من اهم آراء الأستاذ فرويد فى هذا الصدد ، قوله ان النبى موسى لم يكن يهوديا بل كان مصريا من اتباع اخناتون ، وهو يعتقد ان اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة اخناتون للشمس .

وستنشر الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب يوم ٢٦ مايو الحالى .

ونشرت الأهرام بعددها الصادر فى ١٣ مايو سنة ١٩٣٩ تعليقا على الخبر السابق للأستاذ منصور وهبة جاء فيه :

موسى عليه السلام : هل كان مصريا ؟

نشرت « الأهرام » اخيرا برقية لمراسلها فى لندن عن كتاب « للعالم النفسانى » « فرويد » يقول =

كان رجل عبرانى يقال له عمران « عمرام ، بالعبرى » بن قاهت بن لاوى بن يعقوب عليه السلام —

= فيه أن سيدنا موسى عليه السلام كان مصريا وليس عبرانيا من بنى اسرائيل، وانى — أى فرويد — يرى أن موسى كان من أتباع أخناتون ، وان الدين اليهودى والدين المسيحى اشتق كل منهما من كلمة اخناتون للشمس .

وفضلا عما فى هذا الرأى من تناقض تاريخي ودينى ونفسانى أيضا ، فان المرء لا يسعه الا الاستغراب من صدور هذه النظرية من علامة مثل فرويد ، وذلك أن أساس الدين الاسرائيلى وهو التوحيد بالرب الواحد الأحد ، قائم من أيام سيدنا ابراهيم الخليل قبل المجىء الى مصر بزمن بعيد ، وقبل أن تقوم لأخناتون قائمة . ثم أن اخناتون قد عبد الشمس ، ولم يعبد الرب الواحد القهار . يضاف الى هذا أن موسى عليه السلام لم يأت بجديد على أصول الدين الاسرائيلى سوى الوصايا العشر .

ومما يدعو الى الدهش أن يقال أن سيدنا موسى ليس من سلالة ابراهيم ، مع أن ابراهيم جده. ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى « وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » وقوله جل شأنه ، « وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا » ، وفى آية أخرى « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا » وقوله تعالى « ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » فهذه الآيات تدل دلالة صريحة على أن الكتاب والنبوة لم ينزلا على رجل من آل يعقوب ، وان موسى عليه السلام كان من بنى اسرائيل ، واظننى لست فى حاجة الى أن استشهد بآيات التوراة والانجيل فكلها ناطقة بأن النبوة لم تخرج من بيت ابراهيم عليه السلام .

أما من ناحية التاريخ فلعله قد فات « فرويد » أن الاسرائيليين كانوا يعبدون الله قبل مجيئهم الى مصر أيام الهكسوس وقبل أخناتون بزمان ، وكانوا فى مصر يكرهون عبادات المصريين الوثنية ، ولم يختلطوا بهم قط ، وظلوا محافظين على طقوسهم ودينهم ووحدتهم ، بل لعل اخناتون هو الذى تأثر فأخذ فكرة مشوشة عن أمه « تاى » فتجسمت فى ذهنه بعبادة قرص الشمس .

على أنه فى أثناء ذلك العهد ، ومن قبله بأزمنة بعيدة ، اى من عهد ابراهيم واسحق ويوسف . كان الاسرائيليون لا يعرفون الا عبادة الرب الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

قال تعالى : « لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل » ولم يذكر انسان عاقل أن بنى اسرائيل قد عبدوا قرص الشمس فى اى عصر من العصور .

منصور وهبة
درجة الشرف فى العلوم

ونشرت الاهرام ايضا بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩٣٩ تعليقا على الخبر ايضا للدكتور هلال فارحى جاء فيه :

« موسى عليه السلام هل كان مصريا ؟ »

نشرت « الاهرام » لمراسلها فى لندن منذ أيام أن جريدة « نيوزكرونيكل » اشارت الى طبعة كتاب « موسى والتوحيد » الألمانية ، وما جاء فى هذا الكتاب من أن مؤلفه الأستاذ سيجموند فرويد من علماء تحليل النفس يعتقد أن النبى موسى عليه السلام لم يكن يهوديا بل كان مصريا من أتباع أخناتون وان اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة اخناتون للشمس . =

قد تزوج من عمته يوكابد بنت لاوى — كما هو مقتضى الآية ٢٠ من الاصحاح الثانى من سفر الخروج ونصها « وأخذ عمران يوكابد زوجة له فولدت له هارون وموسى » ومعلوم أن زواج

= هذا ما يقوله الأستاذ فرويد وما من شك فى انه انفرد ، بين سائر العلماء والمؤرخين فى العالم ، بهذا الاعتقاد الغريب الشاذ . ذلك أن كتب التاريخ والكتب المنزلة تؤيد الاعتقاد السائد منذ آلاف السنين بأن موسى كان يهوديا أبا عن جد ومع أنه تربى وتثقف فى بلاط مصر ، فقد قام مع أخيه هارون يناصر اخوانه اليهود ضد رعمسيس . ثم تولى زعامة اليهود ، الى أن أخرجهم من مصر .

فقد جاء فى صفحة ٦٣ من تاريخ يوسيفرس المؤرخ الشهر الذى عاش فى ٣٧ — ١٠٠ م : « كان رجل اسمه عمرام من أشراف العبرانيين وولد له ابن آخر بعد هارون ومريم ، وبعد صدور أمر فرعون باعدام كل مولود ذكر للعبرانيين بالقائه فى النيل . وخبأ عمرام ابنه هذا ثلاثة أشهر . ثم اضطر أخيرا أن يضعه فى صفط مطلى بالحمر ويلقيه فى النيل . والتقطته ثرموسيس ابنـــة فرعون وتبنته وسمته « موريس » من « مو » ماء و « أوزس » أى منتشل من الماء فى اللغةالمصرية »

وهذه العبارات تقارب ما ورد فى التوراة (خر ٢) : وذهب رجل من بيت لاوى وتزوج من بيت لاوى وولدت له ابنا . . . ودعته ابنة فرعون « موشه » « من الفعل ماشه انتشل أى منتشلا » فلو كان موسى مصريا لما طبق عليه فرعون بقتل المواليد الذكور ولا اضـطرت والدته أن تخبئـه .

ثم أننا لو بحثنا عن اسم أبيه عمرام (أى شعب سام) وأجداده : فقاهت من لاوى بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم أبى اليهودى واسم أمه « يوكابد » من « كابود » أى الكرامـــة والاحترام ، وجدناها عبرية محضا .

وأما ما زعم فرويد ، من أن موسى كان من أتباع اخناتون فهو أيضا مناقض للحقيقة لأن موسى ثبت عقيدة جده ابراهيم بتوحيد الله . ثم جاء بالتوراة أساس الشريعة الموسوية ووصاياها من أوامر ونواه من بينها الوصايا العشر التى نهت عن عبادة آلهة أخرى من أى نوع كانت .

وكذلك ما زعمه فرويد أن الديانة اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة اخناتون ، منـاقض للحقيقة . وقد سبق أن حض الأستاذ منصور وهبة فيما نشرته له « الأهرام » هذا الزعم بالأدلة والنصوص القيمة من الكتب المنزلة .

يضاف الى هذا أن أول من آمن بوحدانية الله ابراهيم وذريته . وانه هاجر من بلاد الكلدان ، فرارا من الوثنية وزار مصر فى عهد امنحعت ٢ من الأسرة ١٢ نحو ٢٢٠٠ ق . م . وذلك قبـــل أخناتون بزمن طويل وهو امينوفيس ٤ ١٣٧٥ — ١٣٨٥ ق . م والأسرة ١٨ حمو توت عنخ آمون .

على أن كثيرين يعتقدون أن أخناتون قد أخذ توحيد الآلهة عن العبريين . فان لفظة « أتون » أى قرص الشمس الذى اختاره معبودا له لكونه الها منظورا مأخـــوذة من « ادون وادوناى » بالعبرية أى سيد والسيد والله ، الاله غير المنظور . وقد سمى نفسه اخناتون — أى انعكاس قرص الشمس تيمنا به — وترك طيبة وعبادة امون وبنى معبدا لأتون فى تل العمارنة ووضع اناشيد للشمس .

وقد يبدو للمطالع أن بعض آيات من مزمور ١٩ و ١٠٤ — ٢٤ وغيرها من مزامير داود ، لكثرة مشابهتها لاحدى أناشيد اخناتون مثـل « ما اعظم اعمالك يارب كلها بحكمة صنعت » قد أخذت عهد أخناتون . وهذا أيضا بعيد عن الصواب وما هو الا توارد الخواطر لا اقل ولا أكثر .

الدكتور هلال فارحى

العمات لم يكن قد نزل الأمر بتحريمه [١] لأن ذلك انما كان على يد موسى بعد خروج بني اسرائيل من مصر — ولما ولدته خبأته عن عيون من يطلبون أطفال بنى اسرائيل لقتل ذكرانهم ، فمكث عندها ثلاثة أشهر ، فلما خافت افتضاح أمرها ، أعلمها الله تعالى وعلمها أن تصنع له ما يشبه الصندوق وتطليه بالحمر [٢] والزفت وتلقيه فى اليم ، ففعلت وناطت بأخته أن تتبع أثره وتعلم علمه ، وكان الله تعالى قد أعلمها أنه راده اليها وجاعله من المرسلين . فلم تزل أخته تراقبه حتى علمت أنه التقط وأدخل دار فرعون ، وأن عين زوجة فرعون وقعت عليه فألقى الله عليه محبتها ، فاستحيته وأبقته ليكون قرة عينها وعين فرعون راجية أن ينفعهما أو يتخذاه ولدا ، وهذا تدبير من الله لموسى وأمه لأنه سيعود اليها لتكون ظئرا له وتتقاضى على ارضاعه أجرا وهى آمنة كيد الكائدين وسعى الساعين .

وكيفية اعطائها اياه لترضعه أن الله تعالى زهده فى المراضع فلم يقبل على ثدى احداهن — رحمة منه تعالى بأمه — وكانت أخته تقص أثره وتتبعه أينما سير به حتى رأت اعراضه عن الثدى ، فعرضت على آل فرعون أن تدعو لهم امرأة عبرانية ترضعه وتكفله ، وأنها تكون له ناصحة مشفقة تقوم له مقام الأم وكان اسم أخته مريم .

صادف قول مريم من آل فرعون أذنا مصغية وبعثوها فى طلب الظئر ، فجاءت بأمها وأمه على التحقيق . فأقبل على ثديها فألقوا اليها بموسى لترضعه وهو موضع عنايتهم .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة القصص : وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ [٧] فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ [٨] وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [٩] وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [١٠] وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [١١] وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ

---

(١) قد ينكر بعض الناس صحة زواج العمات . وانا اقول انه ثابت تزويج آدم أولاده من بناته ، فتزوج من بعد منهن من الأقارب بالأولى ، وما ثبت من حل التزوج بالقريبات لا يحظر الا بشرع جديد يأتى بعدم الاباحة العامة — ونحن أسراء النص — فمن أراد ان يثبت حرمة هذا النوع من الزواج فى ذلك العهد فعليه ان يأتى بالنص القاطع على ذلك .

(٢) الحمر — بضم الحاء وتشديد الميم المفتوحة — القطران .

يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ [١٢] فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [١٣]

سورة طه : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى [٣٧] إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى [٣٨] أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي [٣٩] إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ . . . . [٤٠]

وقد ذكرت التوراة قصص ولادة موسى وارضاعه أولا ، ثم صنع سفط له وطلاءه بالحمر والزفت ، والقاءه .

خرجت ابنة فرعون ومعها جواريها الى شاطىء النهر وانها نزلت تغتسل فعثرت على السفط الذى فيه موسى . لأنها رأته بين الحلفاء فأمرت جواريها فأتين به اليها ، فعلمت أنه عبرانى وأحبته.

وللحال عرضت عليهم مريم أخت موسى أن تأتيهم بأمها لترضعه ، فبعثتها فى ذلك فعادت بها وناطوا بها ارضاع موسى وتربيته .

والقصة هناك ليس فيها اختلاف له شأن مع ماقصّه القرآن الكريم . غير أن القرآن يقول ان التى تبنته امرأة فرعون ، وما فى سفر الخروج يقول انها ابنته . ولعل امرأته كانت واسطة بين بنته وأبيها ، وهى التى تولت تحسين أمر استبقائه لفرعون — فالخطب هين .

وأمر آخر هو أن القرآن يذكر أن الله أمرها بالقاء التابوت فى اليم — أى الماء — وأن الماء سيلقيه بالساحل . والتوراة تذكر أنها وضعته بالساحل بدأة ذى بدء .

تربية موسى فى بيت فرعون

طبعى أن تكون أم موسى بعد أن أتمت رضاعته قد أتت به الى بيت فرعون وتولى البلاط الفرعونى تربيته ، كما كانوا يربون أبناء الملوك فى ذلك العهد بواسطة الكهنة [١] ورجال الدين

---

(١) نقد اللجنة « الموضوع التاسع »

(تربية موسى فى بيت فرعون)

فى صفحة ١٤٣ ما نصه :

طبعى أن تكون أم موسى بعد أن أتمت رضاعته قد أتت به الى بيت فرعون وتولى البلاط الفرعونى =

بحسب التقاليد التى كانت لذلك البيت فى تلك الأيام ، وأن يكون موسى قد تعلم تعليما راقيا ويضاف الى ذلك ما أفاضه الله عليه فى كبره من الحكمة والعلم الثابت فى قوله تعالى :

= تربيته كما كانوا يربون أبنـاء الملوك فى ذلك العهـــد بواسطة الكهنة ورجال الدين ، بحسب التقاليد التى كانت لذلك البيت فى تلك الأيام ، وأن يكون موسى قد تعلم تعليما راقيا :

اقرءوا هذه الآية :

سورة القصص « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » هـذا نص عبارته بالحرف .

(رأى اللجنة)

لا نفهم السر فى قوله : اقرءوا هذه الآية « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » .

هل يقصد أن ما آتاه الله من الحكم والعلم — لمابلغ أشده واستوى — هو من تعلمه التعلم الراقى فى البلاط الفرعونى بواسطة الكهنة ورجال الدين بحسب التقاليد التى كانت لذلك البيت فى تلك الأيام ؟ . .

ان كان قصده هذا فعجيب جدا ، فان معنى الآية الكريمة على ما يؤخــذ من الالوسى وغيره باختصار (ولما بلغ اشده) أى المبلغ الذى لا يزيد عليه نشؤه (واستوى) أى كمل وتم تأكيـد وتفسير لما قبله ، وقيل هما مختلفان ، وقد ذكر المفسرون لهما معانى عدة واختـار الألوسى أن المعنى ولما قوى جسمه واعتدل عقله (آتيناه حكما) أى نبوة (وعلما) أى بالدين والشريعة ، وقيل ، الحكم : السنة . والعلم : التوراة . وقيل المراد آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمعتهم قبل البعث فكان عليه السلام لا يفعل فعلا يستجهل فيه .

ثم قال الألوسى — بعد كلام فى ترجيح القول الأخير — ما نصه : ومن ذهب الى ان هذا الايتاء كان قبل الهجرة قال يجوز أن يكون المعنى آتيناه رياسة بين قومه بنى اسرائيل، بأن جعلناه ممتازا فيما بينهم ، يرجعون اليه فى مهامهم ، ويمتثلونه اذا أمرهم بشىء أو نهاهم عنه ، وعلما ينتفع به وينفع به غيره . وذلك اما بمحضر الالهام أو بتوفيقه لاستنباط دقائق وأسرار مما نقل اليه من كلمات آبائه الأنبياء عليهم السلام ، ولا بدع فى أن يكون عليه السلام عالما بما كان عليه آباؤه الأنبياء وبما كانوا يتدينون به من الشرائع بواسطة الالهام أو بسماع ما يفيده العلم من الاخبار : ا هـ المقصود منه .

فهل يرى فضيلة الأستاذ أن النبوة والشريعة، أو التوراة والسنة ، أو سيرة الحكماء والعلماء وسمتهم ، أو الامتياز على قومه والعلم الذى ينتفع به وينفع غيره — والذى حصل عليه اما بمحض الالهام أو بتوفيق الله له لاستنباط دقائق وأسرارمما نقل عن آبائه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين — قد اكتسبه موسى عليه الصلاة والسلام من الكهنة ورجال الدين فى البلاط الفرعونى . لا نظن أنه يرى ذلك ولا نظن الا انه كتب هذه الآية فى هذا المقام سهوا .

أما ما ذكره فى أصل الموضوع من قـوله « طبعى . . . الخ » فنقول فى شأنه أن الثابت قطعا ان موسى عليه السلام قد تربى فى بيت فرعون وهو صغير بدليل قوله تعالى حكاية عن فرعون (الم نربك فينا وليدا) أى صبيا ، ثم الذى نعتقده وندين الله عليه أن الله حماه فى أثناء التربية وهـو صبى من الكهنة الفرعونية ورجال دينه ، وأنه لم يتعلم منهم شيئا ، والله أعلم . =

سورة القصص : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [١٤]

رد المؤلف على نقد اللجنة

الموضوع التاسع

(تربية موسى فى بيت فرعون)

لقد كتبت فى كتابى ما نصه حضرات أصحاب الفضيلة . والذى يظهر لى أنهم تملكتهم الروعة والجزع حين قراوا عبارتى ، وقد ذكرت فيها أن الكهنة لا بد أن يكونوا قد تولوا تربية موسى بحسب التقاليد التى كانت لذلك البيت فى تلك الأيام . وخيل اليهم اننى اقرر أن الكهنة ورجال الدين قد صبغوا موسى بالصبغة الوثنية وصيروه من عباد الأوثان وكان الحق على حضراتهم أن يسألوا العالمين بأحوال القبط فى تلك الأيام عن وظيفة الكهنة ، فانى أؤكد لحضراتهم انهم سيعلمون ان الكهنة كانوا كل شىء لكل شىء . وانهم كانوا الأطباء ومعلمى الحساب والهيئة والأقرباذين والتاريخ والصيدلية والفلسفة ومعلمى القراءة والكتابة ، وفى أيديهم وحدهم كل علوم الثقافة . وانهم كانوا متمكنين فى توحيد الله الحق ، وكان ذلك سرا يكتمونه عن العامة لا عن مثل موسى ولا يبوحون به الا للخاصة ومن يريدون الدخول فى زمرتهم . واما العامة فانهم يلهونهم بهذه الأوثان والتماثيل ويستديمون طاعتهم بتبليغهم أوامر الآلهة وهكذا قال ابن كثير فى « البداية والنهاية » واهل مصر وان كانوا يعبدون أصناما الا انهم يعلمون ان الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له فى ذلك « ص ٢٠٤ ج ١ » .

وليكن فى علم حضرات أصحاب الفضيلة أنى أغار على دين الله وعلى أنبيائه ورسله الأطهار كغيرتهم أو أشد . وانى على اكثر من اليقين بأن موسى عليه الصلاة والسلام لم يلج الكفر بالله قلبه — صغيرا ولا كبيرا — قبل النبوة . وانه رضع عقيدة الايمان مع لبن أمه ، وانه قد عرف وكره الذى فيه ولد وعشه الذى منه درج ، وتلقن الايمان والتوحيد من أمه وأبيه وان مستقر اعتقاده لم يتلوث بشىء من وثنية المصريين ، وذلك كله ماثل للعيان فى كتاب الله الكريم . ومن شاء فلينظر الى قوله بعد أن وكز القبطى فقضى عليه وأدركه الندم على ما فرط منه من غير قصد الى الجريمة والمعصية : (هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين) وكيف ضرع الى الله قائلا (رب بما أنعمت على فلن اكون ظهيرا للمجرمين) فانه لم يضرع الى : آمون رع ، ولا الى آزوريس ، ولا الى ايزيس ، ولا الى حوريس ، ولا الى ابيس وغيرهن .

اذا اطمأنت انفس حضرات أصحاب الفضيلة الى ما قدمت . فانى أقول لهم : ان قصدى من الآية التى اتيت بها ، أن موسى لم يقتصر الله فى امداده على الثقافة التى أصابها فى البلاط الفرعونى ، بل آزر ذلك الحكمة والعلم اللذان أمده الله تعالى بهما — حين بلغ أشده واستوى — وصار بذلك مفزع آل اسرائيل وغوثهم وغياثهم . وقد نص العلماء على أن بنى اسرائيل قد خف عنهم الحيف فى المدة التى كان فيها موسى فى بيت فرعون من حين كبر وعرف أنه من بنى اسرائيل .

بذلك يندفع ذلك التعجب وينهار كل ما بنوا عليه من الحدس والتخمين وفرض الفروض والأخذ والرد ، وأؤكد لحضراتهم أنى لم أكتب هذه الآية سهوا بل عنيت بها ما قدمته والله على ما اقول شهيد وكفى بالله شهيدا .

وانى أقطع — كما قطع حضراتهم — أن موسى قد تربى فى بيت فرعون صغيرا ، وأزيد على ذلك =

وقد ذكرت التوراة أن أم موسى ردته الى ابنة فرعون فاتخذته ولدا وأسمته « موسى » وقالت انى انتشلته من الماء ولفظ « موسى » فى العبرى « موشى » بامالة حركة الشين الى الكسرة .

= انه لم تنقطع صلته بالبيت الفرعونى كبيرا . وادين الله كما يدينون ان الله تعالى قد حماه من كل نزعة وثنية . وأن العقيدة الوثنية لم تجد الى قلبه سبيلا ولم تجد الى مستقر اعتقاده مسربا .

وأما كون موسى لم يتعلم من الكهنة شيئا ، فان عقلى لا يتسع الى هذا الحد ، ولا اجيز فى مجرى العادة أن ابن فرعون — بالتبنى — ينشأ جاهلا لا يقرأ ولا يكتب ولا يتعلم حسابا ، وهو الذى يرشح عند المصريين لجسام الاعمال ، وربما كانوا يعدونه ليتولى الالهية فى يوم من الأيام ، اذا خلا البيت المالك عن ملك من صلب الاسرة ولم يوجد فيها من يتولى ذلك ، واذا كان حضراتهم قد حصلوا من الشجاعة على مقدار تطوع لهم انفسهم معه ان يكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، فانى اقف عندما اعلم وافوض علم ما وراء ذلك الى الله تعالى ، وعلى ما حملت وعليهم ما حملوا .

اذا ما انتهى علمى تناهيت عنده اطال فأملى ام تناهى فاقصرا

وبعد ذلك : فالقرآن الكريم يشهد بصريح عبارته ان موسى لم ينقطع عن البلاط الفرعونى بمجرد فطامه . ففرعون يقول له (الم نربك فينا وليدا) قال فى التاج . « الوليد » الغلام حين يستوصف قبل أن يحتلم « ص ٥٤٤ تكملة ج ٢ » ، ومعنى يستوصف أى يصير بهيئة الشاب لأن الوصيف هو الشاب من الخدم . قال فى اللسان « والخادم ان كان شابا : وصيف » ثم اتبع فرعون ذلك بقوله (ولبثت فينا من عمرك سنين) وقد قال البيضاوى : قيل مكث فيهم ثلاثين سنة ، اى قبل ان يذهب الى مدين . ومعنى ذلك أنه مكث هذه المدة فى بيت فرعون . واذا كان قد انقطع عن البيت الفرعونى منذ صغره لم يكن لفرعون ان يمن عليه بانه مكث فيهم من عمره سنين ، لانه يكون قد مكث مع اليهود وفى اليهود . وما كان موسى بالذى يظل جاهلا لا يثقف بثقافة عصره حتى يبلغ ثلاثين سنة .

وبعد هذا كله : فانى أهمس فى اذن حضرات الافاضل اعضاء اللجنة بكلمة صغيرة فاقول لهم : ان شأنكم فى كتابى أن تبحثوا عن تصريح لى يخالف نصا قطعى الثبوت والدلالة ، أو تصريح لى بمخالفة معلوم من الدين بالضرورة ، فاذا لم يكن هذا ولا هذا فلا شأن لكم ، فاذا سوغتم لانفسكم بأكثر من هذا . فابرزوا لى الوثيقة التى جاءتكم من الله تعالى بأن سلطكم على عقائد عباده وضمائرهم واباح لكم بها أن تتسوروا على وجدانهم وخلجات انفسهم وخواطرهم ، لتلقوا فيها الشك وهى حرم مقدس يجب عليهم الدفاع عنها باشد مما يدافعون عن أرواحهم وأموالهم واعراضهم . وهل أدب الدين أو أدب السلوك أو أدب المروءة ان يعمد العالم من امثالكم الى احد من عباد الله تعالى — لم يستحق اثما ولم يحدث فى الدين جريمة — فيوجه كلامه توجيها يلقى الشبهة فى عقيدته الدينية ، ويخيل لسامع كلام الناقد أنه مرق من الدين واتبع غير سبيل المؤمنين ، لمجرد احتمال لم يدر الا فى خلد ذلك الموجه ، ولا يمكن أن يمر بخاطر انسان سواه ، ليسوىء سمعته ويشينه بين الناس بغير سلطان ولا برهان .

ياقوم لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة . فقد اتهم اسامة بن زيد رجلا بأنه أسلم ونطق بالشهادة متعوذا . ولما جاء الى رسول الله وبلغه خبر فعلة اسامة وكان معرضا عن المخبرين — فرفع راسه الى أسامة فقال « كيف أنت ولا اله الا الله » ؟ فقال : يارسول الله انما قالها متعوذا يتعوذ بها =

خروج موسى من مصر

الى أرض مدين ، وسببه

شب موسى فى بيت فرعون . وكان أيدا قوى البأس وافر القوة . ولم يخف عليه أنه دخيل فى بيت فرعون ، وأنه اسرائيلى من ذلك الشعب المضطهد من فرعون وآله ، فكان ظهيرا للعبرانيين قومه — وقد جاء فى الطبرى أنه من حين شب موسى وقوى كف عادية المصريين عن بنى اسرائيل . ومن الأمور الطبيعية أن يعرف فيه بنو اسرائيل الظهير والنصير . وأن يلجأ اليه المظلومون منهم .

خرج موسى يوما على حين غفلة من أهل المدينة فوجد رجلا مصريا يأخذ عبرانيا ليسخره فى بعض عمله ، فاستغاث العبرانى بموسى فجاء الى المصرى على حال حرد ووكزه وكزة كانت القاضية . فواراه التراب ولم يعلم بذلك الأمر سوى الرجل العبرانى — الذى نصره موسى

وندم موسى على مافعل وقال فى نفسه ، هذا الذى أتيت من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ، وضرع الى الله أن يتوب عليه وألا يجعله ظهيرا للمجرمين وناصرا لأهل الشر .

فلما كان اليوم الثانى خرج الى المدينة وهو يخاف افتضاح فعلته التى فعل — وقد ذكر الطبرى — بسنده الى ابن عباس — خبرا طويلا فى قصة ولادة موسى الى أن ذهب الى مدين جاء فيه : أن المصريين لما عثروا على قتيل موسى ولم يعلموا له قاتلا سبق الى فكرهم أن بنى اسرائيل هم قاتلوه . فقالوا لفرعون ان بنى اسرائيل قد قتلوا رجلا من آل فرعون ، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فى ذلك فقال : ابغونى قاتله ومن يشهد عليه لأنه لا يستقيم أن نقضى بغير بينة ولا ثبت فطلبوا له ذلك .

فبينما هم يطوفون ولا يجدون ، اذ مر موسى من الغد فوجد ذلك الاسرائيلى يقاتل فرعونيا فاستغاثه الاسرائيلى — وهو الذى من شيعته — على الفرعونى — الذى هو من عدوه — فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه بالأمس وكره الذى رأى ، وغضب موسى فمد يده وهو يريد أن يبطش بالفرعونى ، وفى الوقت ذاته قال للاسرائيلى (انك لغوى مبين) قال : فاذا هو

= فقال عليه الصلاة والسلام « هل شققت عن قلبه فنظرت اليه » ثم نزلت آية (يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيرا) ، وقد رويت فى هذه الحادثة روايات أخرى بمعنى ما تقدم « ص ١٥٧ ج ٢ روح المعانى للألوسى » .

وأما قول حضراتهم ان وليدا بمعنى صبى ، فهو يوهم انه انقطع عن بيت فرعون منذ صغره أيام كان لا يعى دينا ، مع أن الوليد ليس معناه الصبى مجردا ، بل هو الغلام اذا بلغ الشباب قبل أن يحتلم .

غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى فخاف الاسرائيلى أن يكون اياه أراد بعد ما قال له (انك لغوى مبين) فحاجز الاسرائيلى الفرعونى وقال لموسى : يا موسى (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) ؟ وانما قال له ذلك مخافة أن يكون موسى اياه أراد ليقتله .

فانطلق الفرعونى فأخبر قومه . ورفعوا الأمر الى فرعون بأن القاتل هو موسى فأرسل اليه الذباحين . فى ذلكم الوقت خالف رجل شريف من آل فرعون قومه وجاء الى موسى من أقصى المدينة مسرعا — ليسبق الذين يطلبون موسى من طريق مختصر — وأعلمه علم القوم وما دبروا عليه . وذلك من فتون الله له . ونصح ذلك الرجل الشريف له أن ينجو بنفسه . ويفارق بلاد مصر حتى لا تمتد اليه أيديهم بسوء ، فقبل منه موسى هذه النصيحة الغالية . وذهب على وجهه يريد أرض مدين — وانما وصفت الرجل بالشرف لأمرين :

الأول — أن من الأمثال الجارية « الأطراف سكنى الأشراف » وذلك أنهم ينالون حاجاتهم من المدينة بفضل مالهم من قوة وثروة . ويسعى اليهم أهل الحاجات بفضل مالهم من جاه وعز .

الثانى — أن الله عبر عن نصيحته بقوله لموسى (ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) والملأ القوم يملأون عين من يراهم مهابة وروعة ، ولا يطلع على أسرار الملأ الا من كان منهم ، ولا يقف على ما يبيتون الا من كان من طبقتهم ولا يحجبون عنه سرهم . ومثل هذا لا يكون الا من أشرافهم وعليتهم .

اقرءوا هذه الآيات — سورة القصص : وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ [١٥] قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ [١٦] قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ [١٧] فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنْصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ [١٨] فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ [١٩] وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ [٢٠] فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ [٢١]

سورة طه: وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا(1) [٤٠]

---

(١) ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى « من الآية ١١ الى آخر الآية ١٥ من الاصحاح =

أرض مدين ونزول موسى بها

هى بلاد واقعة حول خليج العقبة من عنـد نهايته الشمالية وشمال الحجاز وجنوب فلسطين تنسب الى مدين « وتقول التوراة : مديان » بن ابراهيم عليه السلام سميت القبيلة باسمه وكانوا شاوية .

وفى الطبرى عن سعيد بن جبير أن ما بين مصر ومدين ثمان ليال ، وكانت مدين هى البلاد التى وقع اختيار موسى على قصدها والنزول بها ولعله راعى صلة القرابة بين مديان بن ابراهيم واسحق بن ابراهيم الذى من ذريته موسى .

وظاهر أن موسى خرج من مصر على عجل ، فلم يتزود للطريق ولم يعد للسفر عدته . معتمدا على الله فى هدايته الى السبيل السوى . فلم يكن فى قافلة أو رفقة فى ذلك السفر الشاق ، لأن من يطلب النجاة بخيط رقبته ، لا يمكن أن يروى فى أمره أو يعد لسفره عدته .

وفى الطبرى عن سعيد بن جبير أن موسى لم يكن له طعام سوى ورق الشجر . وأنه خرج حافيا ، فما وصل الى مدين حتى وقع خف قدمه — أى أن الجلدة الملاصقة للأرض من قدمه قد أضر بها السير الحثيث المتواصل حتى سقطت . وعن ابن عباس أنه ورد ماء مدين وأن خضرة البقل لتتراءى من بطنه من الهزال .

ورد موسى ماء مدين فماذا رأى ؟

ورد الماء فوجد عليه جماعات كثيرة من الناس يسقون ماشيتهم . ووجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما عن الورد ، وتحبسانها بعيدا عن الحوض انتظارا لأن يسقى أولو القوة من الرعاة ماشيتهم . حتى اذا فرغوا من حاجتهم جاءتا واستقتا لماشيتهما .

وفى الطبرى أنهما كانتا تسقيان من الحياض ومما لا خفاء به أن التقدم فى ورود الماء لسقى الماشية انما يكون لأولى القوة . وأما أهل الضعف فحظهم التأخر حتى اذا لم يبق وارد ولا صادر سواهم أوردوا ماشيتهم . انظروا الى قول الشاعر :

اذا الله جازى قوم سـوء بفعلهم ... فجازى بنى العجلان رهط بن مقبل
أولئـك قـوم لم يكونوا أعـزة ... ولا يظلمون النـاس حبة خـردل
ولا يردون المـاء الا عشـيـة ... اذا صـدر الوراد عن كل منهـل

= الثانى من سفر الخروج » وهى لا تختلف عما فى القرآن فى شىء جوهرى . غاية الأمر أنها ذكرت ان الخصمين فى اليوم الثانى كانا عبرانيين ، وأن موسى قال للمذنب منهما ، لم تضرب صاحبك ؟ فقال له : من جعلك رئيسا وقاضيا علينا ؟ امفتكرانت بقتلى كما قتلت المصرى ؟ وعبارة القرآن تشير الى ان احد الرجلين : صاحبه الذى نصره بالامس ، عبرانى من شيعة موسى والثانى : مصرى عدو لهما . ولم تذكر التوراة ان رجلا جاء من اقصى المدينة يسعى وانبأه ان الملأ يأتمرون به . وأشار عليه بالخروج . ومعلوم أن المعول على مافى القرآن .

يريد أنهم لضعف قوتهم وذلتهم يتأخرون عن الناس فى ورود الماء . حتى اذا صــدر الوراد ولم تبق لأحد حاجة الى الماء ، أوردوا . وانما يطلب أهل القوة والعزة الورود أولا ، لأن الماء فى هذه الحال يكون صافيا ، والذى يرد آخرا انما يرد بعد نضوب الماء . وحينئذ لا تخرج منه الدلاء الا ماء كدرا بما خالطه من طين البئر . قال عمرو بن كلثوم التغلبى :

ونشرب ان وردنا المـاء صـفوا ويشرب غـيرنا كـدرا وطينـا

موسى رجل جد وانسان صدق رأى هذا فلم يعجبه أن يبتعد النسوة . ويتقـدم للورود الرجال . فسأل المرأتين عن شأنهما وحبسهما ماشيتهما عن الورود فقالتا لا نسقى حتى يصـدر هؤلاء القوم ما شيتهم . لأننا اذا حاولنا التقدم عليهم أو مشاركتهم منعونا بفضل قوتهم . وليس لنا من يلزمهم انتظارنا لأن أبانا شيخ كبير لا يقدر على مباشرة شىء من أمر الرعى والسقى فحمى موسى لهما وطرد أولئك الرعاة . وأقدم على البئر ينزع منها بالدلو وسقى لهما غنمهما . ولم يقدر أحد على منعه لأن الناس دائما يحترمون الأقوياء وقد رأوا من قـوة موسى واقدامه ما ألزمهم حد الأدب معه .

ويقول بعض المفسرين : انه وجـد البئر عليها صخرة عظيمة لا يستقل بازالتها عن فم البئر الا جماعة من الأقوياء فنزعها وحده وسقى للمرأتين . غير أن فى هذا القول غفلة عما نطقت به الآية فانها تصرح بأنه وجد على البئر أمة من الناس يسقون فلم يكن بأحد حاجة الى ازالة الغطاء عن البئر ان كان له غطاء اذ القوم يسقون بالفعل ولا يكون ذلك الا اذا كانت البئر مفتوحة لا غطاء عليها (١) .

عادت المرأتان الى أبيهما الشيخ فأنكر منهما تبكيرهما بالعودة على خلاف شأنهما كل يوم وسألهما عن سبب ذلك فأخبرتاه بما كان من الرجل المصرى الذى سـقى لهما . وسنى لهما العودة مبكرتين فأرسـل احداهما اليـه فوافته بمكانه قرب الماء . وقالت له والخجل يأخذ منها (ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) .

رأى موسى الفرج من ناحية تلك المرأة وأبيها وعلـم أن الله اسـتجاب له دعاءه اذ قال (رب انى لما أنزلت الى من خير فقير) وابن عباس وغيره من أهل التفسير يقولون انما طلب الطعام.

---

(١) يريد بعض المفسرين ان يجمع بين القرآن وما قاله بعضهم من انه كان فوق فوهة البئر صخرة رفعها موسى فقال أنها بئران احداهما كان يستقى منها الناس والأخرى كانت عليها الصخرة فرفعها موسى وسقى لهما . وبعض المفسرين يقول رايت هناك بئرين ، وانى اسلم انه راى بئرين ولكن ما حجته على انهما كانتا معا فى الوجود على عهد موسى ؟ اذ من المحتمل أن احداهما حفرت فى

ويقول بعض المفسرين انه أسمع المرأتين هذا القول تعريضا حتى يكون له منهما ما يقوته وهو ليس معه درهم ولا دينار ولا ما يؤكل . فكانت دعوته كدعوة المظلوم سريعة الاجابة .
ومن جهة أخرى فان غرس الجميل قد أثمر وآتى أكله فى أقل من ساعة ، والله يضاعف الحسنات لعباده المخلصين .
تبع موسى المرأة الى منزل أبيها . وجعلها خلفه قائلا : انا لا ننظر الى أدبار النساء ولكن انعتى لى الطريق وأنت خلفى . ويقول بعض المفسرين أنه انما قال ذلك حين تبعها وضربت الريح ثوبها فكشفت عن عجيزتها فأخرها موسى وتقدم وقال لها : انعتى لى الطريق .
موسى رجل ربى على العزة فى بيت فرعون . مدللا فى نعيم دائم ورفاغة وقد نزل به من الجوع ما اضطره الى أن يرضى بأخذ أجر عمل من أعمال المروءة : والجوع يرضى الأسود بالجيف . وأحسبه لو كان فى بلهنية من العيش لم يرض أن يأخذ أجرا على زكاة قوته .
جاء موسى الى ذلك الشيخ فرحب به وأهل وسأله عن خطبه بعد أن قتل عنه سورة الجوع طبعا ، فقص عليه موسى قصصه ولعله وقفه على جلية أمره وفعل فرعون وجنوده ببنى اسرائيل من ذبح الأطفال الذكران وترك النساء ، وأنه أفلت من شفارهم بأعجوبة ، وقص عليه جميع الأدوار التى لقيتها أمه فى سبيله الى أن قتل القبطى على غير عمد وأنهم طلبوه ليقتلوه فهرب منهم الى أن ورد ماء مدين .
فطمأنه ذلك الشيخ قائلا (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) وأحسبه لم يصفهم بالظلم الا لكفرهم أو لذبحهم أبناء الاسرائيليين واستحيائهم النساء ، والا فأى ظلم فى مؤاخذة موسى بما اجترحت يداه من قتل القبطى اذا كانوا لا يجازون الجزاء الحق ؟
ملاحظة : يقول بعض المفسرين أن ابنة الشيخ لما جاءت الى موسى وأبلغته دعوة أبيها كانت تكلمه وكفاها على وجهها حياء منه . وهذا الخفر أمر طبيعى فى النساء اللاتى لم يخلعن نقاب الحياء ولم تكن الواحدة منهن سلفعا ولاجة خراجة متبذلة — اقرءوا هذه الآيات :
سورة القصص : وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ [٢٢] وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ [٢٣] فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ [٢٤] فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٢٥]

ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى بعبارة لا تخالف ما جاء فى القرآن الا فى موضعين :

أولهما : أنها ذكرت أن النسوة كن سبعا لا اثنتين .

ثانيهما : أنها ذكرت أن النسوة كن قد ملأن الحياض لسقيا غنمهن ، فجاء الرعاة وطردوهن وأبعدوا الغنم عن الحوض ، وأخذوا فى سقى ماشيتهم . فغضب موسى لهذا العمل وطرد الرعاة وسقى لهن .

والحق ما قصه القرآن .

مصاهرة موسى للشيخ

لما جاء موسى الى الشيخ وكلمه وطمأنه قالت احدى بنتى الشيخ — وهى التى دعت موسى: يا أبت استأجره لرعى ماشيتنا ليكفينا مؤونة هذا العمل ان خير من استأجرت القوى الأمين . ويذكر أصحاب التفسير أن أباها سألها عن أمانته وقوته من أين علمتهما ؟ ونص عبارة الطبرى فى التفسير : فأحفظته الغيرة أن قال : وما يدريك ما قوته وأمانته ؟ فقالت أما قوته فما رأيت منه حين سقى لنا ، لم أر رجلا قط أقوى فى السقى منه . وأما أمانته فانه نظر حين أقبلت اليه وشخصت له فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر الى حتى بلغته رسالتك . ثم قال : امشى خلفى وانعتى لى الطريق ولم يفعل ذلك الا وهو أمين . فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت .

نشط الشيخ لرأى ابنته وطلب الى موسى أن يخدمه برعى غنمه ثمانى سنوات فى نظير أن يزوجه باحدى ابنتيه وأشار اليها وأنه اذا أجمل معه يتم عشر سنوات فقبل موسى على أنه بالخيار فى أى الأجلين . وتمت الصفقة بينهما على ذلك .

ومن ذلك الوقت صار موسى صهرا لذلك الشيخ وراعيا لغنمه .

ويقول بعض المفسرين انه أخرجها معه من حين العقد . ومعنى قوله (فلا عدوان على) أى أنى اذا قضيت الأجل الأول وهو الحجج الثمان فليس لك أن تطالبنى باتمام العشر ، واذا قضيت العشر فليس لك أن تطالبنى بزيادة عنها .

وأكثر المفسرين على أن اسم ابنة الشيخ التى صارت زوجا لموسى « صفورة » .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة القصص : قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ [٢٦] قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً

فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ [٣٧] قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ [٣٨]

سورة طه : فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى [٤٠] وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي [٤١]

ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى ، وهو لا يخالف ما فى الكتاب الكريم فى شىء سوى أن التوراة لم تذكر طلب ابنة الشيخ استئجار موسى ، بل الذى هناك أن الشيخ طلب استئجاره ابتداء والخطب سهل جدا . وذكرت أن بنات الشيخ كن سبعا .

وقد جمع ابن كثير بين القولين بأن المخاطبتين لموسى كانتا اثنتين وهما المباشرتان للرعى ، وأن سواهما لم يباشرن الرعى .

من هو صهر موسى ؟

ان مفسرى القرآن الكريم قد اضطربت أقوالهم فى اسم صهر موسى عليه السلام الذى استأجره . وكثير منهم يذكر أنه شعيب عليه الصلاة والسلام ، وقد اشتهر ذلك اشتهارا عظيما وأولع به الأدباء وأصحاب السير . وهذا أبو العلاء المعرى يقول مادحا رجلا عظيما زفت اليه عرسه :

كنت موسى وافته بنت شعيب غير أن ليس فيكما من فقير

وآخرون يذكرون غير ذلك وهأنذا أسوق أقوالهم جميعا :

١ — قال جماعة ان اسم والد المرأتين « يثرون » وانه ابن أخى شعيب عليه الصلاة والسلام — قال أبو جعفر جرير الطبرى : وأما أبوهما ففى اسمه اختلاف فقال بعضهم : كان اسمه « يثرون » وحدث بسنده الى أبى عبيدة قال : الذى استأجر موسى « يثرون » ابن أخى شعيب .

٢ — قال آخرون : بل اسمه « يثرى » .

وقد أورد أبو جعفر الطبرى فى ذلك ثلاث روايات تنتهى كلها الى ابن عباس . فى روايتين منها : الذى استأجر موسى « يثرى » صاحب مدين . وفى الثالثة : اسم أبى المرأة « يثرى » .

وليس فى الروايات الثلاث أنه شعيب أو ابن أخى شعيب .

٣ — قال جماعة : ان الذى استأجر موسى هو نبى الله شعيب عليه الصلاة والسلام .

وفى ذلك روى الطبرى بسنده الى قرة بن خالد قال : « سمعت الحسن البصرى يقول : يقولون شعيب صاحب موسى ولكنه سيد أهل الماء يومئذ » ص ٤٠ ج ٢٠ .

أقول : فى كونه سيد أهل الماء نظر ؛ اذ لو كان سيد أهل الماء ما أخر الرعاء ابنتيه عن الورد، ولكانتا تصدران قبل ورد الرعاء .

وقد أخذ الحافظ ابن كثير فى تفسيره من قول الحسن هذا : أنه من القائلين بأن والد المرأتين هو شعيب عليه الصلاة والسلام « ص ٣٣٢ ج ٦ » .

والذى أميل اليه غير ذلك ؛ لأن الحسن انما قال ذلك بصيغة التبرى اذ يقول « يقولون » وصيغة التبرى لا تقضى أن حاكيها يلتزم ذلك القول ويجزم به .

وقد ذكر الحافظ بن كثير فى تفسيره : أن ممن روى أن والد المرأتين هو « شعيب » : ابن أبى حاتم بسنده الى مالك بن أنس أنه بلغه أن « شعيبا » هو الذى قص عليه موسى القصص ومعلوم أن « بلغه » لا تفيد الجزم القاطع . فقد بلغه وبلغنى وبلغ غيرى ذلك . بل وبلغ من قالوا ان اسمه يثرون أو يثرى . ولكن هل هذا يفيد القطع ؟ كلا .

٤ — قال آخرون : ان صاحب موسى والد المرأتين هو رجل مؤمن من قوم شعيب . ذكر ذلك الحافظ بن كثير فى تفسيره « ص ٣٣٢ ج ٦ » ونص عبارته « وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب » .

٥ — قال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد — وما قيل ان شعيبا عاش مدة طويلة انما هو والله أعلم احتزاز من هذا الاشكال .

ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان اياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن ههنا. وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح اسناده — كما سنذكره قريبا ان شاء الله — اهـ « من ص ٣٣٢ ج ٦ — من تفسير الحافظ بن الكثير » .

هذه أقوال خمسة بعضها قريب من بعضها الآخر وبعضها بعيد . وليس أحدها بأولى بالقبول من الآخر ، لأنه لم يؤيد بنص قطعى الثبوت والدلالة ولا بحديث صحيح يرجحه على غيره .

ولقد راودت نفسى على أن أقول أن الشيخ الكبير هو شعيب النبى عليه الصلاة والسلام فتمثل لى شيخ المعرة يقول :

لا تظلموا الموتى وان طال المدى　　　انى أخاف عليكمو أن تلتقوا

وخشيت أن يلقانى شعيب عليه الصلاة والسلام فى عرصات القيامة فيلببنى الى الله عز وجل ويقول : أى ربى سل عبدك هذا لم جعلنى صاحب موسى الذى استأجره ولم أكن صاحبه ولا وجدت فى زمنه ؟ وليس بيدى حجة ولا برهان . وجدت الجزم بأن الشيخ الكبير هو

« شعيب » قول منى على الله بما لا أعلم وهو منهى عنه بقوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) .

لذلك كله آثرت تفويض العلم باسم الشيخ الكبير الى الله تعالى ؛ اذ من المحتمل الذى لا استحالة فيه أن يكون بنفسه شعيبا عليه الصلاة والسلام ، ومن المحتمل أيضا أن يكون ابن أخيه ، كما يحتمل أن يكون رجلا صالحا من أهل مدين . كل ذلك محتمل والله أعلم .

يوجد وجه سادس : وهو التوقف فى أمر ذلك الشيخ الكبير — كما توقفت — ذكره الامام محمد بن جرير الطبرى وأورده الحافظ بن كثير فى تفسيره « فى صفحة ٣٣٢ ج ٦ » ونص عبارة الطبرى ؛ قال أبو جعفر : وهذا مما لا يدرك علمه الا بخبر ، ولا خبر بذلك تجب حجته فلا قول فى ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه اهـ « ٤٠ ج ٢٠ » وهذا يعنى قوله تعالى (وأبونا شيخ كبير) .

هذا ولقد تكلم شيخ من أفاضل العلماء معى وناقشنى فى الشيخ الكبير الذى استأجر موسى. فقال لى : ان موسى نبى كريم ورسول عظيم فلا ينبغى أن يكون الذى استأجره الا نبيا مثله أو قريبا منه فى المنزلة ، ولم يوجد فى مدين من هو بهذه المنزلة سوى شعيب عليه الصلاة والسلام.

فقلت له : لقد انتقلت المسألة من النص الى الاستحسان ، وليس الاستحسان من البراهين التى يحتج بها فى موقف يحتاج فيه الى نص قاطع . على أن موسى لم يكن فى زمن استئجاره نبيا.

وقد أورد الحافظ بن كثير عدة أحاديث مرسلة فى أى الأجلين قضى موسى ؟ وكلها تدل على أن موسى عليه السلام قضى أبر الأجلين وأوفاهما . ولم يذكر فى تلك المراسيل اسم الشيخ الكبير .

ثم قال : قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن المنذر بزيادة غريبة جدا . فقال أبو بكر البزار: حدثنا عمر بن الخطاب السجستانى حدثنا يحيى بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحرث بن يزيد عن على بن رباح اللخمى قال « سمعت عتبة بن المنذر يقول : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أبرهما وأوفاهما » ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم « ان موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت غنمه فى ذلك العام من قالب لون . قال : فما مرت شاة الا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها ، وولدت ثنتين وثلاثا كل شاة وليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا كميشة تفوت الكف ولا ثغول » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا فتحتم الشام فانكم ستجدون بقايا منها وهى السامرية » هكذا أورده البزار .

وقد رواه ابن أبى حاتم بأبسط من هذا فقال : حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنى عبد الله بن لهيعة وحدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة

عن الحرث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن المنـذر السلمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه فلما وفى الأجل قيل يا رسول الله أى الأجلين ؟ قال « أبرهما وأوفاهما ، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت غنمه من قالبة لون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حسناء ، فانطلق موسى عليه السلام الى عصاه فسماها من طرفها ثم وضعها فى أدنى الحوض ، ثم أوردها فسقاها ووقف موسى بازاء الحوض . فما تصدر منها شاة الا ضرب جنبها شاة شاة » قال « فأتأمت وألبنت ووضعت كلها قوالب ألوان الا شـاة أو شاتين ، ليس فيها فشوش » قال يحيى « ولا ضبوب » وقال صفوان «ولاصبوب» وقال أبو زرعة : الصواب «ظنوب» « ولاعزوز ولا ثغول ولا كميشة تفوت الكف » قال النبى صلى الله عليه وسلم « لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السـامرية » ثم قال الحافظ بن كثير — بعد كلام — مدار هـذا الحديث على عبد الله بن لهيعـة المصرى وفى حفظه سوء ، وأخشى أن يكون رفعه خطأ والله أعلم ا هـ .

من هذا نعلم أنه لا يوجد حديث صحيح فيه اسم « شعيب » مصرحا به .

« لطيفة » جاء فى تفسير الامام البغـوى « معالم التنزيل » عند قول ابنة الشـيخ (ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) قال أبو حازم سلمة بن دينار : لما سـمع ذلك موسى أراد ألا يذهب ، ولكنه كان جائعا ، فلم يجد بدا من الذهاب ، فمشت المرأة ومشى موسى خلفها. فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها ، فكره موسى أن يرى ذلك منها ، فقال لها : امشى خلفى ودلينى على الطريق ان أخطأت ففعلت ذلك . فلما دخل على شعيب اذا هو بالعشـاء مهيأ . فقال : اجلس يا شاب فتعش . فقال موسى : أعوذ بالله ! فقال شعيب : ولم ذاك ألست بجائع ؟ قال بلى . ولكن أخاف أن يكون ذلك عوضا لما سقيت لهما . وانا أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضا من الدنيا . فقال شعيب : لا والله يا شاب ، ولكنها عادتى وعادة آبائى، نقرى الضيف ونطعم الطعام . فجلس موسى وأكل .

أقول : انها حكاية جميلة لولا أن موسى كان موقنا أنه انما دعاه ليجزيه أجر ما سقى لابنتيه، فما كان له أن يتجاهل ذلك .

بقيت مسألة : وهى أن حضرموت بها قبر يقول أهل البلاد انه قبر شعيب عليه الصلاة والسلام، وهو يقع فى شمال شبام يبعد عنها ساعتين بعد أن يمر السائر اليه بوادى ابن على ، ويخلص السائر الى سهل بعد الوادى . وليس بجانبه عمران ولا يقصد ذلك القبر الا للزيارة . وشبام تقع فى غربى مدينة سيون . وانى أشك فى أن القبر لنبى الله شعيب .

قضـاء موسى مدة استئجاره

موسى بالوادى المقدس

بعثته عليه السـلام

قضى موسى الأجل الذى بينه وبين صهره . والمفسرون للقرآن الكريم على أنه قضى أكبر الأجلين ، أى أنه خدم صهره عشر سنين . وقد رووا فى ذلك حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم لم يبين عدد السنين التى أقامها بعد انقضاء الأجل. وأكثر المفسرين يتعجلون موسى ويقولون أنه بعد انقضاء الأجل أراد العودة الى مصر وأن حماه جعل له نتاج غنمه تلك السنة فحملت الماشية كلها .

وأنا لا أظن أن موسى يتعجل العودة الى مصر بمجرد انتهاء الأجل لأنه يعلم أن بمصر من ينتظر الظفر به ليورده موارد الردى ، وقد أثبت لديهم أنه مقترف الجريمة هربه منهم عقب افتضاح الأمر . ويدل على ذلك قوله (وقتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) وقوله (ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) .

أما التوراة فتقول ان عودة موسى الى مصر بأمر ربه لاخراج بنى اسرائيل من ذل العبودية كان على أثر بلوغه ثمانين سنة . وأنه على أثر مدة التيه كان قد بلغ مائة وعشرين سنة ، وقد مات ولم يدخل الأرض المقدسة . وقد يكون ذلك صحيحا وهو لا يعارض الكتاب الكريم .

وفى معالم التنزيل أنه أقام بعد انقضاء الأجل عشر سنين والأسلم التفويض الى علم الله .

وربما كان السبب فى أن المفسرين يقولون ان موسى سار عقب انتهاء الأجل قوله تعـالى (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا) وقد فاتهم أن الواو لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا . وتقول التوراة ان موسى رزق ولدا اسمه « جرشوم » وهو اسم يدل على معنى الغربة أى أنه غريب المولد .

بينما موسى يرعى غنمه ومعه امرأته ضل الطريق فى ليلة باردة ؛ وأراد أن يورى نارا فصلد زنده وضن بالنار ، وبينما هو على هـذه الحال رأى نارا من بعيد فقال لأهـله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ؛ فأسأل من عندها عن الطريق يهدوننا . والظاهر أنه كان أبعد من مدين حتى جاء الى سيناء . وهذا ليس بغريب فان الراعى يتبع مواضع الكلأ ومواقع المطر حيث كانت ليرعى ماشيته .

لما قرب موسى من النار وجد النار فى شجرة عليق ، وأن النار لا تطفأ والعليقة لا تشتعل ، ولم يجد أحدا من الناس يسأله عن الطريق وحينئذ سمع صوتا من وسط النار يناديه يا موسى انى أنا الله رب العالمين . وأمره بخلع نعله لأنه بالوادى المقدس طوى فخلعها .

وفى الحديث « كانتا من جلد حمار ميت » .

وفى الطبرى : فلما كانت الليلة التى أراد الله بموسى كرامته وابتداءه فيها بنبوته وكلامه أخطأ الطريق حتى لا يدرى أين يتوجه . فأخرج زنده ليقدح نارا لأهله ليبيتوا عليها حتى يصبح ويعلم وجه سبيله ، فصلد عليه زنده فلم يور نارا ، فقدح حتى أعياه ، ولاحت له النار فرآها (فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) بقبس تصطلون وهدى عن علم الطريق الذى أضللناه بنعت من خبير ، فخرج نحوها فاذا هى فى شجرة من العليق . وبعض أهل الكتاب يقولون فى عوسجة .

فلما دنا استأخرت عنه ، فلما رأى استئخارها رجع عنها وأوجس فى نفسه خيفة ، فلما أراد الرجعة دنت منه ثم كلم من الشجرة ، فلما سمع الصوت استأنس وقال الله : (يا موسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى) فألقاهما ، ثم قال (ما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) أى منافع أخرى . قال (ألقها يا موسى فألقاها فاذا هى حية تسعى) قد صار شعبتاها فمها وصار محجنها عرفا لها فى ظهرها ، تهتز ، لها أنياب فهى كما شاء الله أن تكون . فرأى أمرا فظيعا (فولى مدبرا ولم يعقب) فناداه ربه أن (يا موسى أقبل ولا تخف ... سنعيدها سيرتها الأولى) أى سنعيدها عصا كما كانت . قال فلما أقبل قال خذها ولا تخف . أدخل يدك فى فمها . وعلى موسى جبة من صوف فلف يده بكمه — وهو لها هائب — فنودى أن ألق كمك عن يدك ، فألقاه عنها ثم أدخل يده بين لحييها ، فلما أدخلها قبض عليها فاذا هى عصاة فى يده ، ويده بين شعبتيها حيث كان يضعها ، ومحجنها بموضعه الذى كان لا ينكر منها شيئا . ثم قال (أدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) أى من غير برص — وكان عليه السلام رجلا آدم أقنى جعدا طوالا — فأدخل يده فى جيبه ثم أخرجها بيضاء مثل الثلج ثم ردها فى جيبه فعادت كما كانت على لونها . ثم قال (فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملأه انهم كانوا قوما فاسقين . قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى رداء يصدقنى) أى يبين لهم عنى ما أكلمهم به فانه يفهمهم عنى ما لا يفهمون : قال (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) .

ونقل عن السدى : فأقبل موسى الى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلا فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم فأتاهم فى ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل « المرق » فنزل فى جانب الدار ، فجاء هارون فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه ، فلما أن قعدا تحدثا فسأله هارون من أنت ؟ فقال : أنا موسى ! فقام كل منهما الى صاحبه فاعتنقه .

ولى هناك ملاحظة : هى أن موسى قال (وأخى هارون هو أفصح منى لسانا) وقال فى مرة أخرى (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) وعيره فرعون بعدم الفصاحة فقال (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) والمفسرون يرون لحبسة موسى أو لكنته سببا . هو أن

موسى أخذه فرعون على حجره وهو صغير فمد يده الى لحيته ونتف خصلة منها ، فأراد قتله . فشفعت فيه زوج فرعون وقالت انه لا يعقل ما يفعل . وأشارت باختباره بتمرة وجمرة ، فوضعتا فى طست فأخذ الجمرة ووضعها فى فيه فأثرت فى لسانه ، فلذا نشأ موسى غير فصيح بل عنده حبسة فى لسانه . وأحسب ذلك غير صحيح وان المسألة ذات وجهين :

أولهما : أن موسى ألقته أمه فى اليم ،والتقطه آل فرعون ، وحرم الله عليه المراضع لطفا بأمه الوالهة الى أن جاءوا بها فأرضعته وكفلته ، والطفل عادة اذا تأخرت عنه الرضاعة مدة كهذه يورثه ذلك حبسة فى لسانه .

وقد رأينا من أصحابنا من كان لا يكاد يبين ولا سبب لذلك الا احتباسه عن الرضاعة مدة .

ثانيهما : أن موسى خرج من مصر من عهد بعيد. واعتقادى أنه مكث فى مدين زمنا طويلا فنسى اللغة المصرية — لغة القبط — لطول العهد وعدم وجود من يناغيه بها أو يكلمه . وأما هارون فكان بين المصريين ومقيما معهم ، فهو أفصح من موسى . وحقيق بأن يشافههم بها . ونحن أولاء يسافر الواحد من أبنائنا الى البلاد الأوروبية — ولا تكون مدة اقامته أكثر من خمس أو سبع سنوات — ثم يجىء الى مصر ناسيا كثيرا من لغة أبيه وأمه . وللناس نوادر فى حكاية ألفاظهم وأحوالهم .

بقى أن يقال : اذا كان موسى قد نسى لغة المصريين فكيف يحاور أخاه هارون الذى لم يخرج من مصر ؟ وجوابى على ذلك أن هارون بحكم البيئة كان يجيد القبطية ، وبحكم طينته كان يجيد العبرية . ولغة أهل مدين ولغة العبرانيين متقاربة جدا لأن المديانيين اخوة للعبرانيين . أبوهم واحد هو ابراهيم . لاجرم كان هارون يفهم من موسى ما لا يفهمه عنه المصريون القبط . وانى أميل الى الرأى الأول . ولبيان موقف موسى هذا :

اقرءوا هذه الآيات :

سورة الاسراء : وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً [٢] ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُوراً [٣]

سورة طه : وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى [٩] إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى [١٠] فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى [١١] إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى [١٢] وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى [١٣] إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي [١٤] إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى [١٥] فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى [١٦]

سورة طه : اُذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [٢٤] قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي [٢٥] وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي [٢٦] وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي [٢٧] يَفْقَهُوا قَوْلِي [٢٨] وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي [٢٩] هَارُونَ أَخِي [٣٠] اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي [٣١] وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي [٣٢] كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً [٣٣] وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً [٣٤] إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً [٣٥] قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى [٣٦]

سورة طه : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى [١٧] قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى [١٨] قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى [١٩] فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى [٢٠] قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى [٢١] وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى [٢٢] لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى [٢٣]

ومنها أيضاً : اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي [٤٢] اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [٤٣] فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى [٤٤] قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى [٤٥] قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [٤٦] فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى [٤٧]

سورة القصص : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ [٤٤] وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ [٤٥] وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [٤٦]

سورة الفرقان : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً [٣٥] فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً [٣٦]

سورة الشعراء : وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [١٠] قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ [١١] قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ [١٢] وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ [١٣] وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ [١٤] قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ [١٥] فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٦]

سورة النمل : إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ [٧] فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٨] يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٩] وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ [١٠] إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ [١١] وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ [١٢]

سورة القصص : فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ [٢٩] فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٣٠] وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ [٣١] اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ [٣٢] قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ [٣٣] وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ [٣٤] قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ [٣٥]

سورة السجدة : (١) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ [٢٣] وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ [٢٤] إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [٢٥]

سورة النازعات : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى [١٥] إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى [١٦] اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [١٧] فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى [١٨] وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى [١٩]

---

(١) السجدة : ألم تنزيل

وقوله تعالى (واضمم اليك جناحك من الرهب) معناه أن الله تعالى يأمر موسى بأن يضم يديه الى جنبيه اذا آنس من نفسه رعبا ورهبا من فرعون ، فان الله ينزل عليه السكينة والقوة على مقاومة ذلك فى هذا الحين ، وهذه ليست من الآيات التى ضربها لفرعون وانما هى تأييد خاص من الله لموسى وكأنها تكاد تكون أمرا غريزيا[١] .

المواقف المتقدمة فى التوراة (١)

ذكرت التوراة قصة موسى هذه فيما يلى : ـ

الاصحاح الثالث ـ خروج .

(٤) وأما موسى فكان يرعى غنم « يثرون » حميه كاهن مديان ، فساق الغنم الى وراء البرية وجاء الى جبل الله حوريب ، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة ، فنظر فاذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق ، فقال موسى :أميل الآن لانظر هذا المنظر العظيم لماذا لا تحترق العليقة .

(٥) فلما رأى الرب أنه مال لينظر ، ناداه الله من وسط العليقة وقال : موسى موسى . فقال : هأنذا فقال : لا تقرب الى ها هنا . خلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة .

(٦) ثم قال : انا اله أبيك اله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر الى الله .

(٧) فقال الرب انى رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم ، انى علمت أوجاعهم .

(٨) فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض الى أرض جيدة وواسعة الى ارض تفيض لبنا وعسلا ، الى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين .

(٩) والآن هو ذا صراخ بنى اسرائيل قد أتى الى ، ورأيت أيضا الضيقة التى يضايقهم بها المصريون .

(١٠) فالآن هلم فأرسلك الى فرعون وتخرج شعبى بنى اسرائيل من مصر .

(١١) فقال موسى لله من أنا حتى أذهب الى فرعون ، وحتى أخرج بنى اسرائيل من مصر .

(١٢) فقال انى أكون معك ، وهذه تكون لك العلامة أنى أرسلتك حينما تخرجون الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل .

(١٣) فقال موسى لله ها أنا آتى بنى اسرائيل وأقول لهم اله آبائكم أرسلنى اليكم ، فاذا قالوا ما اسمه فماذا أقول لهم ؟

(١٤) فقال الله لموسى أهيه الذى أهيه وقال هكذا تقول لبنى اسرائيل أهيه أرسلنى اليكم .

(١٥) وقال الله أيضا لموسى هكذا تقول لبنى اسرائيل يهوه اله آبائكم اله ابراهيم اله اسحاق اله يعقوب أرسلنى اليكم ، هذا اسمى الى الابد ، وهذا ذكرى الى دور فدور .

(١٦) اذهب واجمع شيوخ اسرائيل وقل لهم : الرب اله آبائكم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب ظهر لى قائلا : انى قد افتقدتكم وما صنع بكم فى مصر .

(١٧) فقلت أصعدكم من مذلة مصر الى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين الى أرض تفيض لبنا وعسلا .

(١٨) فاذا سمعوا لقولك ، تدخل انت وشيوخ بنى اسرائيل الى ملك مصر وتقولون له الرب اله العبرانيين التقانا ، فالآن نمضى سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب الهنا .

(١٩) ولكن أعلم أن ملك مصر لايدعكم تمضون ولا بيد قوية .

(٢٠) فأمد يدى واضرب مصر بكل عجائبى التى أصنع فيها وبعد ذلك يطلقكم .

(٢١) وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين

(٢٢) بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين .

عودة موسى إلى مصر
ودعوته لفرعون

ذكرنا عود موسى الى مصر عن القرآن والتوراة، وأن موسى أخبر هارون بأنه شريك له فى الرسالة ومعين له على تبليغ حجة الله فامتثل أمر الله تعالى .

فأنتم ترون أنه ليس بين ما جاء فى القرآن وما جاء فى التوراة — خاصا بمواقف موسى المذكورة — سوى فروق ليست بذات بال .

الاصحاح الرابع — خروج

(١) فأجاب موسى وقال : ولكن ها هم لايصدقونني ولا يسمعون لقولى ، بل يقولون لم يظهر لك الرب ..

(٢) فقال له الرب : ما هذه فى يدك ؟ قال : عصا .

(٣) فقال : اطرحها الى الأرض فطرحها الى الارض فصارت حية . فهرب موسى منها .

(٤) ثم قال الرب مد يدك وأمسك بذنبها فمد يده وأمسك به فصارت عصا فى يده .

(٥) لكى يصدقوا أنه قد ظهر لك الرب اله آبائهم اله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب .

(٦) ثم قال له الرب أيضا : أدخل يدك فى عبك فأدخل يده فى عبه ثم أخرجها واذا يده برصاء مثل الثلج .

(٧) ثم قال له : رد يدك الى عبك فرد يده الى عبه ثم أخرجها من عبه واذا هى قد عادت مثل جسده .

(٨) فيكون اذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدقون صوت الآية الأخيرة .

(٩) ويكون اذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يسمعوا لقولك أنك تأخذ من ماء النهر وتسكب على اليابس فيصير الماء الذى تأخذه من النهر دما على اليابس .

(١٠) فقال موسى للرب : استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك بل أنا ثقيل الفم واللسان .

(١١) فقال له الرب : من صنع للانسان فما أو من صنع أخرس أو أصم أو بصيرا أو أعمى أما هو أنا الرب .

(١٢) فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به .

(١٣) فقال : استمع أيها السيد أرسل بيد من ترسل .

(١٤) فحمى غضب الرب على موسى . وقال أليس هارون اللاوى أخاك ؟ أنا أعلم أنه يتكلم وأيضا ها هو خارج لاستقبالك وحينما يراك يفرح بقلبه .

(١٥) فتكلمه وتضع الكلمات فى فمه وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأنا أعلمكما ماذا تصنعان .

(١٦) وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فما وأنت تكون له الها .

(١٧) وتأخذ فى يدك هذه العصا التى تصنع بها الآيات .

(١٨) فمضى موسى ورجع الى « يثرون » حميه وقال له : أنا أذهب وأرجع الى أخوتى الذين فى مصر لأرى هل هم بعد أحياء . فقال « يثرون » لموسى اذهب بسلام .

(١٩) وقال الرب لموسى فى مديان : اذهب ارجع الى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك .

(٢٠) فأخذ موسى امرأته وابنيه وأركبهم على الحمير ورجع الى أرض مصر ، وأخذ موسى عصا الله فى يده .

(٢١) وقال الرب لموسى : عندما تذهب لترجع الى مصر أنظر جميع العجائب التى جعلتها فى يدك واصنعها قدام فرعون ولكنى أشدد قلبه حتى لا يطلق الشعب .

ويقول بعض المفسرين : أن أمهما خافت عليهما وعارضت فى ذهابهما الى فرعون خشية أن يبطش بهما فلم يصغيا لقولها ولم يكن لهما هم الا تنفيذ أمر الله تعالى .

وبعض المفسرين يذكر أنهما دخلا على فرعون بمجرد استئذانهما عليه ، وبعض آخر يقول انهما ترددا على بابه سنتين لا يظفران بالمثول بين يديه حتى دخل عليه مضحكه وأخبره أن بالباب رجلا مجنونا يدعى أن له الها غير فرعون . فكان ذلك حاثا لفرعون على طلب موسى وهارون .

أما القرآن الكريم فلم يتعرض لشيء من هذا . وانما ذكر أنهما أتيا فرعون وبلغاه رسالة الله تعالى له ، أن يرسل معهما بنى اسرائيل لعبادة ربهما . وفى التوراة « أطلق شعبى ليعيدوا فى البرية » وبلغه موسى فيما بلغه أنه لم يقل على الله الا الحق وأنه قد أرسل بآية منه ليرسل معه بنى اسرائيل . وجعل ترخيصه لبنى اسرائيل بالذهاب مع موسى الى البرية لعبادة ربهم نعمة يمنها فرعون على موسى .

وهذا من تلطف موسى ورفقه فى خطاب فرعون طبقا لقوله تعالى (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وهذه الآيات تدل على هذا الموقف من مواقف موسى :—

سورة الأعراف : وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ [١٠٤] حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَى ٱللهِ إِلاَّ ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَائِيلَ [١٠٥]

سورة الشعراء : أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ [١٧]

ومنها أيضاً : وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِى إِسْرَائِيلَ [٢٢]

لا تنسوا أن المفسرين يجعلون الآية الأخيرة « وتلك نعمة تمنها على » توبيخا من موسى لفرعون أن جعل بنى اسرائيل عبيدا وأنه يتهكم به لذلك .

(٢٢) فتقول لفرعون هكذا يقول الرب «اسرائيل ابنى البكر » .
(٢٣) فقلت لك أطلق ابنى ليعبدنى فأبيت أن تطلقه ها أنا أقتل ابنك البكر .
(٢٤) وحدث فى الطريق فى المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله .
(٢٥) فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه فقالت انك عريس دم لى .
(٢٦) فانفك عنه حينئذ فقالت عريس دم لى من أجل الختان .
(٢٧) وقال الرب لهارون : اذهب الى البرية لاستقبال موسى فذهب والتقاه فى جبل الله وقبله
(٢٨) فأخبر موسى هارون بجميع كلام الرب الذى أرسله وبكل الآيات التى أوصاه بها .
(٢٩) ثم مضى موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بنى اسرائيل .
(٣٠) فتكلم هارون بجميع الكلام الذى كلم الرب موسى به وصنع الآيات أمام عيون الشعب .
(٣١) فآمن الشعب ولما سمعوا أن الرب افتقد بنى اسرائيل وانه نظر مذلتهم خروا وسجدوا اهـ .

ولكنى أخالفهم فى ذلك وأقول انه يتلطف به غاية التلطف ليحمله على اطلاق بنى اسرائيل قائلا: ان تعبيدك بنى اسرائيل أى تكريمك لهم وتمكينهم من عبادة ربهم أعده نعمة مننت بها على، تضاف الى تربيتى فيكم وليدا والى مكثى بينكم فيكم من عمرى سنين . وما كان من شأن موسى أن يخرج الهزل فى معرض الجد ولا أن يلجأ الى المعاريض والمجازات . ولكنه كان فى محاوراته كلها مثال الجد والصراحة . يؤدى ما أمر به على الوجه الذى صدر له أن يؤديه . ومهمته العظمى انقاذ بنى اسرائيل من ذلك العذاب المهين الذى كانوا فيه . وهذا طلب لذلك الأمر على وجه اللطف والرفق .

قد يقول بعض الناس : ان هذا المحمل الذى حملت الآية عليه لم يوجد لمفسر ، وكتب اللغة لم تذكر هذا المعنى .

والجواب : أن محور رسالة موسى والغرض الأول المقصود بها هو اطلاق بنى اسرائيل ، والحجة الظاهرة لهذا أنهم يريدون أن يعبدوا الههم فى البرية ، يعملون له عيدا « وفى العبرية حج » فهذا هو الغرض الأصلى الذى جاء موسى لتنفيذه وجاء بالآيات لحمل فرعون وقومه عليه. وأما استعباد فرعون لبنى اسرائيل فليس من النعمة أو المنة فى شيء ، وما كان موسى من المستهزئين أو الذين يأتون بالأمر يكون مغريا لفرعون بالعناد . والاستخفاف بمثل هذا الملك الجبار لا ينتج ما يرجو موسى . فحمل المعنى على ما قالوه لا يجعل فى موسى حكمة الأنبياء الذين جملهم الله تعالى بها .

بل هذا القول الى المشاكسة أقرب ، ومن قوله تعالى (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) أبعد . وأقرب المعانى الى ذلك هو ما ذكرته .

ومعنى « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل » . أى كرمتهم . وتكريمهم يكون بترفيه العذاب عنهم واطلاق الحرية لهم فى عبادة ربهم وارسالهم مع موسى لذلك .

والتعبيد بمعنى التكريم وارد فى اللغة العربية ، فقد جاء فى لسان العرب « مادة (عبد) ما نصه » والمعبد : المكرم . والمعبد : المكرم فى بيت حاتم :

تقول ألا تبقى عليك فاننى أرى المال عند المكثرين معبدا

أى معظما مخدوما . وبعير معبد : مكرم اهـ .

واذا عرفت هذا أيها القارىء الكريم عرفت أن الوجه الذى ذكرته أقرب الى الغرض من ارسال موسى ، وأجدر بأن تحمل الآية عليه .

تذكير فرعون موسى ــ تربيته فى بيت فرعون

لما دخل موسى على فرعون وأدى مقالتــه بواسطة هارون ، كان فيما قال فرعون لموسى وذكره به . أنه ربى فى بيت فرعون وليدا ولبث فيهم سنين من عمره ، وهــذا يقتضى أن يكون حافظا للمودة حريصا على التباعد عن كل ما يغيظ فرعون وآله ، فلا يروعهم بمعتقد غريب عنهم غير

معروف لهم . وهو عبادة غير فرعون وآلهتــه ، بل عليه أن يبادر الى عبادة فرعون . ثم ذكره بفعلته التى فعل من قتل الرجل القبطى وهربه على أثرها فمن كان آثما اثمه لا يأتى بما هو أعظم منه وهو حملهم على ترك آلهتهم وتقديس فرعون وترك التوجه اليه بالعبادة فرد موسى على هذه المسألة الأخيرة بقوله . (فعلتها اذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة الشعراء : قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ [١٨] وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ [١٩] قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ [٢٠] فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ [٢١]

وهذا الموضع من الحوار بين موسى وفرعون لم يذكر فى التوراة .

موسى يحاج فرعون
فى ربوبية الله تعالى

لما فرغ موسى مما قال وذكر لفرعون أنه يريد اطلاق بنى اسرائيل ليعبدوا الههم فى البرية — وفرعون رجل عات تدين الأمة المصرية بعبادته وتذعن بقداسته (١) ، وقد فجأه من موسى أمر لا يقره ولا يرضاه . وهو محاولة انزاله عن عرش الربوبية — أخذ على أثر ذلك يحاور موسى . فيسأله مارب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض وما بينهما ، خالق ذلك ومبتدعه . فالتفت فرعون الى من حوله من ملئه مظهرا العجب قائلا : ألا تستمعون ! واستمر موسى قائلا (ربكم ورب آبائكم الأولين) أى حين لم يكن فرعون موجودا ولا معبودا فقال فرعون لملئــه (ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) لأنه جاءنابشىء لا نعرفه ولا نقره . فاستمر موسى قائلا . (رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) .

ولما علم موسى وهارون عدم ارعواء فرعون عن غيه . وتماديه فى ادعاء الربوبية وأنه مكذب لا محالة . قالا له ، (انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) فقال لهما : فمن ربكما

---

(١) كان الملوك فى قديم الزمان يحيطون أنفسهم بهالة من التقديس ويضعون مكانتهم فى اطار من الالهية لاجهلا منهم بأنهم أناس لايختلفون عن غيرهم ! ولكنهم يفعلون ذلك تمويها على العامة حتى يأمنوا غائلة الثورات الهوج من الذين يطمعون فى تبوء عرش الملك ، مقدرين أن ذلك التقديس يحول بين النازعين الى الثورة وبين ما يشتهون . وهذه كانت حال نمروذ فى عهد ابراهيم وحال الذين أتوا بعد موسى من ملوك اليونان ثم الرومان ، كما كانت حال الفراعنة فى مصر .

يا موسى ؟ فأفهمه أن الهه هو الذى أحصى كل شىء خلقه فهو الذى أعطاهم الحواس والعقول ، وخلق لهم ما فى الأرض جميعا ، وجعلهم فيها خلفاء ، وصرفهم فى خيراتها ومرافقها وما عليها من حيوان ، وجعلهم مستخلفين فى كل ذلك ، وهداهم الى الانتفاع بكل شىء فى مصالحهم كل فيما يصلح له . فسأل فرعون عن القرون الأولى ، فأحال موسى على الله الذى علم كل شىء من شؤونها ، وأن ذلك فى كتاب ، وأن الله لا يضل عن أعمالهم ولا ينسى منها شيئا . وسيحاسب كل انسان بما صنع . ثم ذكر من قدرته على ما صنع ويصنع ماتجب بمثله الحجة على قدرته وحكمته واستحقاقه للعبادة قائلا (الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) . أى أخرج به أنواع النبات على تعدده وأزواجه وتباين ألوانه . وسهل للانسان ما يأكله ولماشيته ما ترعاه . وأن من كانت هذه أعماله ، كانت تلك الأعمال آيات يهتدى بها ذو العقل السليم .

ثم قال : ان الأرض منبتنا الذى أنبتنا الله منه . وفيها يعود الناس اذا فنيت حياتهم . ومنها يخرجون مرة أخرى لمجازاة كل بما صنع .

اقرءوا هذه الآيات فى هذا الموقف : —

سورة طه : إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [٤٨] قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى [٤٩] قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [٥٠] قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى [٥١] قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى [٥٢] الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى [٥٣] كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى [٥٤] مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى [٥٥]

سورة الشعراء : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ [٢٣] قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ [٢٤] قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ [٢٥] قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ [٢٦] قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ [٢٧] قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ [٢٨] (١)

---

(١) ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى فى الاصحاحين الخامس والسادس من سفر الخروج وهاكم نصها :

١ — **وبعد ذلك** دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب اله اسرائيل ، اطلق شعبى ليعبدوا لى فى البرية .

فرعون يتجاهل الله ويدعى الإلهية

ويأمر ببناء صرح يصعد به إلى السماء

لما ألح موسى على فرعون بالدعوة الى الايمان بالله تعالى وهو فى ملأ قومه وذلك يكسر من هيبته ويحط من رتبته . وجه فرعون الى القوم كلامه متجاهلا الاله الذى يدعو اليه موسى وأنه

(٢) فقال فرعون من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق اسرائيل . لا أعرف الرب واسرائيل لا أطلقه .

(٣) فقالوا اله العبرانيين قد التقانا . فنذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب الهنا لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف .

(٤) فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب من أعماله . اذهبا الى أثقالكما .

(٥) وقال فرعون هو ذا الآن شعب الارض كثير وأنتما تريحانهم من أثقالهم .

(٦) فأمر فرعون فى ذلك اليوم مسخرى الشعب ومدبريه قائلا :

(٧) لا تعودوا تعطون الشعب تبنا لصنع اللبن كأمس وأول أمس . ليذهبوا هم يجمعوا تبنا لأنفسهم .

(٨) ومقدار اللبن الذى كانوا يصنعونه أمس وأول أمس تجعلونه عليهم لا تنقصوا منه فانهم متكاسلون . لذلك يصرخون قائلين نذهب ونذبح لالهنا .

(٩) ليثقل العمل على القوم حتى يشتغلوا به ولا يلتفتوا الى كلام الكذب .

(١٠) فخرج مسخرو الشعب ومدبروه . وكلموا الشعب قائلين هكذا . يقول فرعون لست أعطيكم تبنا .

(١١) اذهبوا أنتم وخذوا لأنفسكم تبنا من حيث تجدونه أنه لا ينتقص من عملكم شيء .

(١٢) فتفرق الشعب فى كل أرض مصر ليجمعوا قشا عوضا عن التبن .

(١٣) وكان المسخرون يعجلونهم قائلين كملوا أعمالكم أمر كل يوم بيومه كما كان حينما كان تبن .

(١٤) فضرب مدبرو بنى اسرائيل الذين أقامهم عليهم مسخرو فرعون وقيل لهم لماذا لم تكملوا فريضتكم من صنع اللبن أمس واليوم كالأمس وأول من أمس .

(١٥) فأتى مدبرو بنى اسرائيل وصرخوا الى فرعون قائلين لماذا تفعل هكذا بعبيدك .

(١٦) التبن ليس يعطى لعبيدك واللبن يقولون لنا اصنعوه . وهو ذا عبيدك مضربون . وقد أخطأ شعبك .

(١٧) فقال متكاسلون أنتم متكاسلون لذلك تقولون نذهب ونذبح للرب .

(١٨) فالآن اذهبوا اعملوا . وتبن لا يعطى لكم ومقدار اللبن تقدمونه .

(١٩) فرأى مدبرو بنى اسرائيل أنفسهم فى بلية اذ قيل لهم لا تنقصوا من لبنكم أمر كل يوم بيومه .

(٢٠) وصادفوا موسى وهارون واقفين للقائهم حين خرجوا من لدن فرعون .

(٢١) فقالوا لهما ينظر الرب اليكما ويقضى لأنكما انتنتما رائحتنا فى عينى فرعون وفى عيون عبيده حتى تعطنا سيفا فى أيديهم يقتلونا .

(٢٢) فرجع موسى الى الرب وقال يا سيد لماذا أسأت الى الشعب . لماذا أرسلتنى .

(٢٣) فانه منذ دخلت الى فرعون لأتكلم باسمك أساء الى هذا الشعب وأنت تخلص شعبك. وهذا معنى قوله تعالى (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) .

الاصحاح السادس — خروج

(١) فقال الرب لموسى الآن تنظر ما أنا أفعل بفرعون . فانه بيد قوية يطلقهم وبيد قوية يطردهم من أرضه .

(٢) ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب .

سيتخذ الوسيلة للصعود الى اله موسى ليصفى الحساب بينه وبينه . ولعله فهم من قول موسى رب السماء والأرض أنه موجود فى السماء لأن العظيم القادر على العلو لا ينزل الى أسفل . وأوهم القوم أن الصعود الى السماء أمر تناله قدرته . فأصدر أمره الى هامان أن يطبخ له الآجر ويبنى له صرحا يأخذ فى السماء صعدا حتى ينالها ويطلع الى اله موسى . ثم أردف ذلك بأنه يظن أن موسى كاذب فى أن له الها سوى فرعون .

من الناس من يذكر الفكرة عالما بأنها مبنية على غير أساس ، ثم لا يزال يخادع نفسه ونفسه تخادعه حتى يخيل اليه أن الأمر سهل الوقوع ويعلق نفسه به . شأنه فى ذلك شأن أشعب المشهور بالطمع ، اذ صرف عنه الأطفال بحيلة أنه يوجد عرس فى بيت فلان وأنهم يفرقون على الناس الدراهم ، فانصرفوا ظانين صدقه فتبعهم أملا أن يكون ما قاله لهم حقا . فينال من تلك الدراهم التى تفرق فى ذلك العرس الوهمى .

لا أظن أن فرعون كان من الجهل بدرجة أن يأمل أن ينال السماء ببناء يصعد ولكنه أراد أن يتغفل القوم الذين معه حتى لا يخامر أنفسهم خلجة فى حطه عن عرش الربوبية . فأراد أن يدخل فى روعهم أنه من القدرة بحيث يقدر على منازلة كل اله ولو كان فى السماء . وأنه على استعداد لمحاربة اله موسى الذى فى السماء اذا كان فيها ،وأنه يتهم موسى فى وجود اله سواه وأنه سيأخذ فى أسباب العمل فى تصفية الحساب مع ذلك الاله . ولذلك أمر باتخاذ صرح يبلغ به أسباب السموات ، وعهد بذلك الى هامان .

(٣) وأنا ظهرت لابراهيم واسحاق ويعقوب بأنى الاله القادر على كل شئ . أما باسمى يهوه فلم أعرف عندهم .

(٤) وأيضا أقمت معهم عهدى أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التى تغربوا فيها .

(٥) وأنا أيضا قد سمعت أنين بنى اسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرت عهدى .

(٦) لذلك قل لبنى اسرائيل أنا الرب : وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين . وأنقذكم من عبوديتهم . وأخلصكم بذراع ممـدودة وبأحكام عظيمة ، وأتخذكم لى شعبا وأكون لكم الها .

(٧) فتعلمون أنى أنا الرب الهكم الذى يخرجكم من تحت أثقال المصريين .

(٨) وأدخلكم الى الأرض التى رفعت يدى أن أعطيها لابراهيم واسحاق ويعقوب وأعطيكم اياها ميراثا . أنا الرب .

(٩) فكلم موسى هكذا بنى اسرائيل . ولكن لم يسمعوا لموسى من صغر النفس ومن العبودية القاسية .

(١٠) ثم كلم الرب قائلا .

(١١) أدخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بنى اسرائيل من أرضه .

(١٢) فتكلم موسى أمام الرب قائلا هو ذا بنو اسرائيل لم يسمعوا لى . فكيف يسمعنى فرعون وأنا أغلف الشفتين .

(١٣) فكلم الرب موسى وهارون وأوصى معهما الى بنى اسرائيل والى فرعون ملك مصر فى اخراج بنى اسرائيل من أرضه .

(٢٨) وكان يوم كلم الرب موسى فى أرض مصر .

(٢٩) ان الرب كلمه قائلا أن الرب كلم فرعون ملك مصر بكل ما أنا أكلمك به .

(٣٠) فقال موسى أمـام الرب هأنا أغلف الشفتين فكيف يسمع لى فرعون .

ولا يبعد أن تكون نفسه أشعبية فتخيل ثم خال .

سمعت من أهل السودان أن يونس الدكيم من رجال التعايشى كان أميرا على مديرية دنقلة . فلما قامت الحملة المصرية لاسترجاع السودان سنة ١٨٩٦ م جاء الخبر بأن الترك « المصريون والانجليز » آتون فى البحر « النيل » على السفن لأخذ البلاد السودانية ، وكان رجلا عاتيا قاسيا فحلف قائلا « بتا بالله أشرب البحر » يريد بذلك أن يشرب ماء النيل حتى تقف السفن على الطين فلا تقدر على المسير ، ويكتفى بذلك شر جنود الترك .

ومع علم الحاضرين بكذبه أخذوا يظهرون له أن هذا الأمر وان كان فى مقدوره ولكن البحر « النيل » يشرب منه خليفة المهدى وكل الاخوان ، وبه ينمو الزرع وتشرب منه الناس والبهائم ، واذا شربه فاتت تلك المصالح وهلك الناس . فهم بذلك سلموا له بكذبه وأخذوا يترضونه حتى لا يفعل ، وهم يعلمون أنه كاذب ولو خلى وما أراد ما أثر شيئا ولكنه الملق البارد .

وهكذا كان شأن أصحاب فرعون يعلمون كذبه ولا يجسر أحد منهم على تكذيبه أو رده .

وأخرى : أن الجيش المصرى لما انتهى من وقعة كررى خارج أم درمان خرج عبد الله التعايشى مع بعض الجنود مصعدا نحو الجنوب ، والجيش المصرى يرسل رصاصه على ساقة جيش التعايشى . وخاف التعايشى أن يركب جواده فيصيبه الرصاص فمشى راجلا . وكان فى الجيش عثمان دقنه بطل الحروب السودانية المشهور فقال له : اركب يا خليفة المهدى ! فأجابه بلهجة أهل السودان « كيفن ؟ أركب والخضر ماش أمامى ؟ » فقال له عثمان دقنه « فضنا من كضباتك دى يازول » أى دعنا من أكاذيبك يا رجل « نحنا معردين الخضر معردليشنو ؟ الخضر ما هو شايف رصاص الترك فى جفانا » أى نحن شاردون والخضر لأى شىء يشرد ؟ ألم ير رصاص الترك يأخذنا من خلفنا .

ولكن فرعون لم يجد من المصريين فى ملئه من يقولون له ما قال عثمان دقنه للتعايشى . بل كانوا يؤمنون على قوله .

لم يكن فى ذلك الوقت رجل صادق الفراسة يقرأ لنا أفكار الملأ من قوم فرعون ؟ هل كانوا يفكرون فكره ويترسمون خطواته فيما يخيل اليهم ؟ أو كانوا عالمين باستحالة ما يحاول وانما يؤمنون على قوله مجاراة له ، ومجاملة ينالون بها الحظوة عنده — وان كان فى نفوسهم كاذبا — كما هو شأن الكثير من المصريين فى موافقة الحكام على آرائهم ، وان كانت مباينة لما يكنون فى أنفسهم ؟! — وهل فعل هامان ما أمر به فرعون ؟ والى أى حد بلغ فى علو البناء ؟ والام آل أمر ذلك البناء ؟

كل ذلك لم يذكره القرآن ولم يذكر فى التوراة بطريق التصريح أو الاشارة .

وانما يذكر المفسرون أن هامان بنى له الصرح حتى بلغ نهاية ما قدر عليه من البناء . ثم صعد

فرعون وصوب سهما الى السماء ورمى به فعاد اليه النصل مخضبا بالدم ، فقال : لقد قتلت اله موسى .

ثم ما هو هامان[1] ؟ وما منصبه ؟ وهل لفظ « هامان » علم له أو علم منصبه الذى يشغله ؟ ليس عندنا فى ذلك أثارة من علم . والذى أفهمه أنه وزير العمارات عند فرعون .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة القصص : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ [٣٨]

سورة غافر : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ [٣٦] أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ [٣٧]

أما التوراة فلم تذكر بناء الصرح ولا أمر هامان بذلك .

معجزة العصا واليد

اتهام موسى بالسحر — حشد فرعون السحرة — القاؤهم بسحرهم — تلقف العصا للسحر — ايمان السحرة برب العالمين وثباتهم على ايمانهم — غضب فرعون من السحرة وقتلهم وصلبهم .

لما أعضل موسى وأخوه بفرعون ولم يجد السبيل الى اقرارهما بأنه الاله الحق رجا أن يعجز عن الاتيان بآية تبين صدقهما فيما جاءا به عن الههما . فطلب آية من موسى فألقى عصاه من يده فاذا هى ثعبان لا شك فيه يتحرك ويسعى ، ووضع يده فى جيبه ثم نزعها فاذا هى بيضاء للناظرين. رأى فرعون والملأ من قومه ذلك فعمدوا الى التمادى على تكذيب موسى فيما جاء به من الآيتين وأحالوا ذلك منه على السحر ، وتشاوروا فيما بينهم فى شأن موسى مؤكدين أنه ساحر عليم يريد أن يخرجهم من أرضهم . فأدت بهم خاتمة المطاف الى أن أشاروا على فرعون بأن يرجىء موسى وأخاه حتى يأتى بالسحرة من آفاق مصر ليأتوا بمثل ما أتى به موسى . لأن هذه الآية

---

(١) يقول الأستاذ موسى جار الله : انه يرجح أن فرعون كان يدعو « آمون » معبود المصريين ، وان هذا القول من قبيل الامر . وهو معنى حسن لولا قوله تعالى (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) فان الصنم لا يوصف بالخطأ ، وانما تدل على أنه رجل له قدر عال عند فرعون .

هذا وفى كتاب استير : أن هامان كان من وزراء الملك « احشويرس » وهو : هامان بن همداثا الاجاجى ، وكان عدوا لليهود وكان عاملا على ابادتهم « ١٠ : ١٣ سبتمبر » وعلى ذلك فهو اسم لذى وظيفة .

التى أتى بها متى كان فى مقدور غيره أن يأتى بمثلها فقد بطلت دعواه ، اذ الغرض أن يأتى بشىء لا يقدر غيره على الاتيان بمثله . والا فانه لا يسمى معجزة تدل على صدقه فيما يبلغ عن ربه .

أرسل فرعون فى مدائن مصر حاشرين يأتونه بالسحرة — وكان للسحر منزلة عظيمة فى أرض مصر . يعنى به الملوك والأمراء ويكافئــون عليه . وهـــذا أمر لم يزل كشف الآثار المصرية يبين عنه الى اليوم — فجاءوا بجمهور عظيم من السحرة كانوا مدلين بأنفسهم واثقين من مقدرتهم على السحر والتصرف فى الأعيــان والعيــون ، وعرضوا لفرعون بالأجر ينالونه جزاء قيــامهم بالسحر . فوعدهم الأجر الجزيل . والزلفى لديه وأى زلفى أعظم من زلفى قوم يؤيدون ربوبيته ويثبتون عرش (ألوهينه) — وطلب السحرة الأجر يدل على أن أمور الفراعنة كانت سخرة .

راود السحرة موسى هل يلقون سحرهم أو يلقى هو سحره أولا ؟ وكان الجمع حافلا وفى يوم الزينة ، ويظن أنه يوم وفاء النيل . فانه كان أعظم أعيادهم . فقال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون . وكان عتادهم العصى والحبال ، فألقوها فامتلأ المكان حيات وثعابين ، وخيل الى موسى من سحرهم أنها تسعى .

فى تلك اللحظة ابتهج فرعون وجنوده وعلية قومه ، وأيقنوا أن السحرة قد نجحوا ، وأن موسى لا يمكنه أن يأتى بشىء أعظم من سحرهم ، اذ كل ما فى يده عصاه ، فاذا قلبت حية فهى حية واحدة من مئات وآلاف قد غص بها رحب الساحة التى هم فيها .

وفى تلك اللحظة أيضا هال موسى أمر تلك الحيات وأوجس فى نفسه خيفة . فأمره الله أن يلقى عصاه ، فاذا هى حية تسعى واذا هى تبتلع حيات السحرة وتتلقفها [1] . فوقع الحق وبطل سحر السحرة . ودهش آل فرعون والملأ من قومه . وعلم السحرة أن السحر لا يفعل مثل ذلك . وانما هى القوة الالهية صنعت هذا ، فخروا ساجدين لله تعالى وآمنوا برب موسى وهارون ، مفضلين ذلك على الأجر الذى كانوا يرجونه من فرعون ، مستهينين بجزائه الذى سيوقعه بهم .

علم فرعون أنه لم يعجز موسى ولكن موسى أعجزه فأراد أن يستر عواره فقال للسحرة عن موسى : (انه لكبيركم الذى علمكم السحر ولهذا كان أقوى منكم وغلب سحره سحركم). قال هذا مع علمه بأن موسى لم يعرفهم . ولم يجتمع معهم من قبل بل كان ثاويا فى أهل مدين ، ولم يصل بالسحرة بأية صلة . ولكنه المقهور المغلوب يلتمس لنفسه العذر وان كان لا يغنى « ولا بد للمغلوب من بادر العذر » .

ثم أخذ يتجنى على أولئك السحرة ويقول لهم (آمنتم له قبــل أن آذن لكم) موهما أنه يتصرف فى وجدانهم وأنه كان على وشك أن يأذن لهم ، ولكنهم أجرموا بالايمان قبل صــدور

---

(١) الذى فى القرآن تلقف ما يأفكون قال فى تاج العروس : وفى المحكم اللقف: سرعة الأخذ لما يرمى اليــك باليد أو باللسان . وقال غيره ، اللقف : أن تأخذ شيئا فتأكله أو تبتلعه « من ٢٤٨ ج ٦ — وفى ص ٢٤٩ » اللقف : بالفتح الفم — يمانية .

الاذن ،وهددهم بقطع الأيدى والأرجل من خلاف والتصليب على جذوع النخل ، فلم يثنهم ذلك عن الايمان . وقد نفذ فيهم ما هددهم به . ولقد هم فرعون أن يقتل موسى خوفا من أن يبدل دين المصريين أو أن يظهر فى أرض مصر الفساد .

ولعله انما يعنى بالفساد اطلاق بنى اسرائيل من أسر العبودية ، ويفوت بذلك على فرعون وآله المنافع التى تعود عليهم من تسخير بنى اسرائيل فى الأعمال الشاقة . ولعل الأعمال التى كانت تؤدى الى فرعون كانت على سبيل السخرة فى الأعم الأغلب — كما سبقت الاشارة الى ذلك .

يرشد الى هذا أن السحرة استفهموا من فرعون قائلين (أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين) ولو كانت الأمور سائرة بغير سخرة لما ساغ لهم هذا السؤال .

استنفد فرعون الوسع فى أن يثنى موسى عن دعوته الى الله فلم يفلح ولم يقلع ، وكلما فتح بابا — للتجنى على موسى وأخيه — حول موسى مجرى الجدال الى شىء آخر فيه فرج .

انظروا الى قول فرعون (لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين) والى لباقة موسى فى قوله (أو لو جئتك بشىء مبين) ؟

وكان موسى لا يترك فرصة للدعوة الى الله سواء أمام فرعون أو غيره .

انظروا الى قول موسى لآل فرعون لما اتهموه بالسحر (ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) وقوله لهم (أتقولون للحق لما جاءكم) أى هذه المقالة (أسحر هذا) ؟

كانت عصارة هذه الأحوال كلها أن فريقا من بنى اسرائيل قد آمنوا لموسى ، وهم على خوف من فرعون ومن ملأ بنى اسرائيل أن يفتنهم لأنه كان مسرفا لا يبالى ما يصنع ، ويظهر أنهم كانوا شبابا لقوله تعالى (ذرية من قومه) وكان موسى يعتقد أن طغيان فرعون وملئه واباءهم عن الايمان به سببه : أن الله تعالى أغدق عليهم الأموال فى الحياة الدنيا ومتعهم بلذائذ العيش فقست قلوبهم ، وظنوا بقاء ذلك النعيم فتمادوا فى طغيانهم ولم يصغوا الى العظات التى يغاديهم بها موسى ويراوحهم . فحمله ما عناه من العناء فى ارشادهم وما تحمل من البلاء والعنف فى دعوتهم على أن يدعو عليهم بأن يسد الله تعالى طريق هدايتهم ويقل ما بأيديهم من المال الذى هو سبب طغيانهم واسرافهم فى أمرهم ، وأن يشد على قلوبهم ويبعدهم عن طريق الايمان الى أن يسلمهم ذلك العذاب الأليم . وقد أجاب الله تعالى دعوته .

ولما لم يفد العلاج مع فرعون ، أمر الله موسى أن يتخذ لبنى اسرائيل بيوتا للعبادة فى مصر ويقيم فيها الصلاة لله تعالى .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة الاعراف : قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [١٠٦] فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ [١٠٧] وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ [١٠٨] قَالَ الْمَلَأُ مِنْ

قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ [١٠٩] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ [١١٠]
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ [١١١] يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ [١١٢] وَجَاءَ
السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ [١١٣] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ
الْمُقَرَّبِينَ [١١٤] قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ [١١٥] قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا
سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ [١١٦] وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ
فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ [١١٧] فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١١٨] فَغُلِبُوا هُنَالِكَ
وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ [١١٩] وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ [١٢٠] قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [١٢١] رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَارُونَ [١٢٢] قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [١٢٣] لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ
لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ [١٢٤] قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ [١٢٥] وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ [١٢٦]

سورة يونس : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مُجْرِمِينَ [٧٥] فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ [٧٦] قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ
لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ : أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ [٧٧] قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ [٧٨] وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي
بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ [٧٩] فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ [٨٠] فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ [٨١] وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ
بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [٨٢] فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ
وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ [٨٣] وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ
كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ [٨٤] فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٨٥] وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [٨٦] وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ
تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [٨٧] وَقَالَ

مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ . رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [٨٨] قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [٨٩]

سورة طه : قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى [٥٧] فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى [٥٨] قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى [٥٩] فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى [٦٠] قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى [٦١] فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى [٦٢] قَالُوا إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى [٦٣] فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى [٦٤] قَالُوا يَـٰمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى [٦٥] قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى [٦٦] فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى [٦٧] قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى [٦٨] وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى [٦٩] فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَى [٧٠] قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى [٧١] قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَـٰتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَـٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا [٧٢] إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [٧٣] إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى [٧٤] وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَـٰتُ الْعُلَى [٧٥] جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى [٧٦]

سورة الشعراء : قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ [٢٩] قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ [٣٠] قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [٣١] فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ [٣٢]

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ [٣٣] قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ [٣٤] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ [٣٥] قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ [٣٦] يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ [٣٧] فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [٣٨] وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ [٣٩] لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ [٤٠] فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ [٤١] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [٤٢] قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ [٤٣] فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ [٤٤] فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ [٤٥] فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ [٤٦] قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٤٧] رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [٤٨] قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [٤٩] لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ [٥٠] قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ [٥١] إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ [٥٢]

هذا الموقف من مواقف موسى عليه الصلاة والسلام قد ذكر فى التوراة[1] .

---

(١) فى الاصحاح السابع من سفر الخروج من أوله الى الآية ١٤ وهذا نصها :

١ — فقال الرب لموسى أنظر . أنا جعلتك الها لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك .

٢ — أنت تتكلم بكل ما آمرك وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بنى اسرائيل من أرضه .

٣ — ولكنى أقسى قلب فرعون وأكثر آياتى وعجائبى فى أرض مصر .

٤ — ولا يسمع لكما فرعون حتى أجعل يدى على مصر فأخرج أجنادى شعبى بنى اسرائيل من ارض مصر باحكام عظيمة .

٥ — فيعرف المصريون انى انا الرب حينما أمد يدى على مصر وأخرج بنى اسرائيل من بينهم

٦ — ففعل موسى وهارون كما أمرهما الرب هكذا فعلا .

٧ — وكان موسى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلما فرعون .

٨ — وكلم الرب موسى وهارون قائلا .

٩ — اذا كلمكما فرعون قائلا هاتيا عجيبة تقول لهرون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا .

١٠ — فدخل موسى وهارون الى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الرب . طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانا .

١١ — فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك .

١٢ — طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين . ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم .

١٣ — فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب .

تمادى فرعون وقومه
فى إصرارهم على الكفر

عودهم لايذاء بنى اسرائيل بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم — تشجيع موسى لقومه وأمره لهم بالصبر ووعدهم بحسن العاقبة — فرعون يهدد موسى بالقتل .

رأى فرعون الآيات فتمادى فى كفره وأصر على عناده معرضا عن الآيات التى أتى بها موسى ، وأغراه قومه بموسى لائمين له منكرين عليه ترك موسى وقومه يفسدون فى الأرض بالامتناع عن الأعمال التى سخروا فيها ، وأن يذر فرعون وآلهته لا يعبدها ولا يعبد فرعون . فسكن فرعون روع القوم واعدا اياهم بأن يقتل قوم موسى ويستحيى نساءهم . معتزا بما له عليهم من القهر والغلبة والسلطان . ثم أتبع القول بالعمل .

مما هو طبيعى أن يضج بنو اسرائيل بالشكوى الى موسى مما حاق بهم من الحيف والجور . فوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء النازل . وأن يستعينوا بالله على احتماله . ووعدهم حسن العاقبة . فلم يكفكف ذلك دموعهم وقالوا له (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) . فمناهم هلاك عدوهم واخراجهم من الضيق الى السعة ، وأن يكونوا خلفاء فى الأرض التى وعدوا بها . وأراد فرعون أن يبطش بموسى متحديا الهه حتى لا يكون منه تبديل لدين القوم أو فساد فى أرضهم . ولكن موسى عاذ بالله من شر هذا المتكبر الذى لا يؤمن بحساب ، فكان عياذا .

اقرءوا فى هذا الموقف الآيات الآتية :—

سورة الأعراف : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ [١٢٧] قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [١٢٨] قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [١٢٩]

سورة غافر : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [٢٣] إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [٢٤] فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ [٢٥] وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ

رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ [٢٦] وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ [٢٧] .

لم تذكر التوراة مسألة اعادة تقتيل أبناء العبرانيين

الائتمار بموسى لقتله

دفاع مؤمن آل فرعون عن موسى وانتصاره لدين موسى ــ مخالفة فرعون له ــ رد المؤمن على الملأ من قوم فرعون ووعظه اياهم وتحذيرهم بأس الله ــ تذكيره اياهم بيوسف وما كان منهم من الشك فيما جاءهم به ــ ودعاء القوم له الى منابذة موسى والاستمساك بدين آبائه وأجداده ــ رده عليهم واستمساكه بالايمان بموسى ــ تدبيرهم عليه ونجاته منهم ومن مكرهم .

خلص فرعون والملأ نجيا يأتمرون بموسى لاهلاكه . ولما كان الحق لا يعدم نصيرا قام رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه بموسى ورب موسى الى ذلك الحين — ودافع عن موسى دفاعا يشكره الله له . وأبلى فى ذلك بلاء حسنا . وبين لهم أنه لا ينبغى أن يقتلوا رجلا يقول « ربى الله » لأن قوله ذلك لا يصلح سببا للقتل . وبخاصة اذا كان قد جاءهم بالآيات الدالة على صدقه . وأنه لو فرض أنه كاذب فيما يقول مانالهم ضرر من كذبه . ولا يحملون شيئا من اثمه . ولو فرض أنه كان صادقا أصابهم بعض الوعيد الذى توعدهم به . وقد عارضه فرعون فيما رأى ووجه أقواله الى الملأ ينتصر بهم على معارضته قائلا : ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد !

عاد مؤمن آل فرعون الى الكلام محذرا قومه بأس الله تعالى ووقعاته فى أمم عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم ، ممن انتقم الله منهم جزاء وفاقا بما صنعت أيديهم . وذكرهم بأن الدعوة التى جاء بها موسى اليوم ليست جديدة . فقد جاء الى آبائهم واليهم ضمنا يوسف بالبينات ، فلم ينل تصديقهم اياه حتى اذا هلك قالوا لن يبعث الله من بعده رسولا . وأبان لهم أن ذلك من طبع الله على قلوبهم وامساكه تعالى عن هدايتهم هداية موصلة بالفعل الى المقصود . وأن الله تعالى لا يهمل الحسنات ولا السيئات بل يجازى على كل شىء . وأن المؤمنين لهم الجنات يرزقون فيها بغير حساب .

تمادى قومه وجهدوا أن يردوه الى دين قومه فلامهم على أنه يريد بهم السعادة وهم يريدون له الشقاء الدائم ، فهو يدعوهم الى الايمان وهم يدعونه الى الكفر بالله تعالى العزيز الغفار ، وأن الآلهة التى يدعونه الى عبادتها لا تنفع فى الدنيا ولا تشفع فى الآخرة ، وأن المرد الى الله تعالى ، وأنه سيأتى عليهم وقت يذكرون فيه نصحه اياهم وأنه يفوض أمره الى الله .

ولقد هموا به كما هموا بموسى فوقاه الله سوء عملهم وكانت عاقبته السعادة وعاقبة آل فرعون النار .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة غافر : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ
الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ [٢٨] يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ
فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ
إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ [٢٩] وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ [٣٠] مِثْلَ
دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ [٣١] وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ [٣٢] يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ
مِنْ هَادٍ [٣٣] وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ
قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ [٣٤] الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ [٣٥]

وفي سورة غافر أيضاً : وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ [٣٨] يَا قَوْمِ إِنَّمَا
هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ [٣٩] مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ
عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ [٤٠]
وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ [٤١] تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ [٤٢] لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ
دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ [٤٣]
فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ [٤٤] فَوَقَاهُ (١) اللَّهُ
سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ [٤٥] النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ
تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [٤٦]

---

(١) يصلح أن يعاد الضمير على موسى ؛ اذ كانوا يأتمرون به لقتله ، ويمكن أن يعود على مؤمن آل فرعون .

لم تذكر التوراة ائتمار القوم بموسى لقتله ولا مسألة مؤمن آل فرعون ودفاعه عن موسى وتذكيره قومه بيوسف، لأن القوم نسوا حظا مما ذكروا به، ولعل حقدهم على فرعون وقومه صرفهم عن ذكر أحد من المصريين قد آمن بموسى.

فرعون يستخف بموسى

ويباهي بأنه ملك مصر مع مافيها من الثروة — وينادى بأنه رب الناس الأعلى — وأن كل معبود دونه

كان من موسى بعد أن نصره الله تعالى على سحرة فرعون فآمنوا مستهينين بعذاب الدنيا — أن دأب على دعاء فرعون الى الايمان واطلاقه بنى اسرائيل، وتمادى فرعون فى دفعه، ورأى عظيما أن يلبى دعوة موسى ويتبع دينه، مع ما لفرعون من عزة السلطان ووافر الثروة التى تدرها عليه مصر بسبب نيلها الفياض وماله من الفروع التى تبعث الحياة الرافغة فى مصر كأنها الشرايين تمد مصر بالحياة، اذ تسرى فى أرضها الدانية والقاصية فتسرى فيها الثروة واليسر، وكأنه كان ينظر الى قول الشاعر بعد عصره:

فلا تعجب فكل خليج ماء بمصر مسبب لخليج مال
زيادة أصبع فى كل يوم زيادة أذرع فى حسن حال

غلبت عليه نفسه المادية التى لا ترى الخير والعز الا فى وفرة المال. ولا تعرف أن الله يختص برحمته وفضله من يشاء فقال (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين). ثم لجأ الى الاعنات وطلب ما هو أقل مما أتى به موسى من الآيات البينات على صدقه. وقال (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) كأن هذا الذى يطلبه لا يحال على أنه سحر كما قال عن العصا التى استحالت ثعبانا واليد التى اكتست لون البياض بلا مرض بدل لون الأدمة.

كانت هذه الأقوال من فرعون كافية لاستخفافه قومه. واطاعتهم له ميلا منهم عن الحق وزيغا عن طريق الهدى، لأنهم ألفوا الانقياد له حيث شاء وفى كل وجه أراد، فأفنوا ذاتهم فى ذاته، وأماتوا شخصياتهم فى شخصه، وأهدروا آدميتهم ابتغاء الزلفى لديه. وجره ذلك الى ان حشر الناس من آفاق البلاد قائلا (أنا ربكم الأعلى) الذى ينبغى أن تخصوه بالعبادة دون اله موسى الذى جاءنا به على غير معرفة منا به — اقرءوا هذه الآيات:

سورة الزخرف: وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ [٥١] أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ [٥٢] فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ [٥٣] فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ [٥٤].

سورة النازعات : ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى [٢٢] فَحَشَرَ فَنَادَى [٢٣] فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [٢٤] فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى [٢٥] إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى [٢٦] .

آيات الله على فرعون وقومه

لما كذبوا موسى عليه السلام

لما أخذت فرعون العزة بالاثم وعتا عن أمر الله تعالى وتمادى فى تكذيب موسى واستمر فى اعنات بنى اسرائيل وايقاع ضروب الاذلال والاهانة بهم ، أمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعون وقومه بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب جزاء لهم على تكذيبه وامتناعهم من اطلاق بنى اسرائيل فكانوا كلما وقع بهم عذاب بعد انباء موسى اياهم به وعدوه بالايمان به تارة ، وبارسال بنى اسرائيل معه تارة أخرى اذا سأل ربه كشف ما وقع بهم من العذاب . فاذا كشف الله عنهم ما نزل بهم ، عادوا الى طغيانهم وغدروا بعهدهم وخاسوا بوعدهم . وهكذا الى أن كانت الآية الكبرى والبطشة العظمى وهى اغراق فرعون فى اليم ونجاة بنى اسرائيل والآيات هى :

١ — (الجدب) بأن قل عنهم النيل وقصر عن ارواء أرضهم وسنو الجدب يؤرخ بها ، فيقال لعام الجدب سنة ... ومنها أسنت القوم أى أصابتهم السنة .

٢ — (النقص من الثمرات) بسبب ما يأتى عليها من الجوائح والعاهات .

٣ — (الطوفان) ولم يقطع المفسرون بأن هذا الطوفان كان على أى وجه ؟ فهل كان بطغيان النيل على الأرض وامتداد زمن بقائه على وجه الأرض حتى عاقهم عن الزرع فى الوقت المناسب؟ أو كان بتتابع المطر على أرض مصر فى وقت كان فيه الزرع ناميا حتى أغرقه وأضر به كل محتمل؟ وقد مال البيضاوى الى هذا فى تفسيره .

٤ — (الجراد) بأن أرسل الله على بلاد مصر الجراد ؛ فأكل الزرع واجتاح الثمار .

٥ — (القمل) الذى أقض مضاجعهم وأتعبهم أيما تعب . وفى التوراة « البعوض » بدل القمل .

وفى البيضاوى قيل هو كبار القراد ، وقيل صغار الجراد — قبل نبات أجنحتها — وعبارة القاموس : والقمل كسكر صغار الذر والدبا الذى لا أجنحة له أو شىء صغير بجناح أحمر ، وشىء يشبه الحلم لا يأكل أكل الجراد ، خبيث الرائحة . أو دواب صغار كالقردان واحدتها بهاء — أو قمل الناس . وهذا القول مردود اهـ .

٦ — (الضفادع) قيل انها كثرت عندهم حتى نغصت عليهم عيشتهم بسقوطها فى طعامهم وفراشهم وبين ملابسهم .

٧ — (الدم) بأن استحال الماء لأهل مصر دما . وقيل الله سلط عليهم الرعاف .

٨ — (الطمس على أموالهم) وهو محقها واهلاكها .

٩ — (اليد) اذ كان يضع يده فى جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء .

وبعض المفسرين يعد الآيات على غير هذا الوجه . فيجعل « فلق البحر » من الآيات التسع . وآخرون يجعلون « انبجاس الحجر بالماء لبنى اسرائيل » من الآيات التسع .

ولا يخفى أن فلق البحر انما كان بعد تمام الآيات . وانبجاس الحجر بالماء انما كان بعد هلاك فرعون . فلا يصح ان يكون آية له ولقومه . وانا أعد الآيات هكذا :

(١) السنون (٢) نقص الأموال (٣) نقص الأنفس (٤) نقص الثمرات (٥) الطوفان (٦) الجراد (٧) القمل (٨) الضفادع (٩) الدم .

واعلموا ان هذه الآيات التسع وغير الآيات التى ارسل بها موسى الى بنى اسرائيل وهى المذكورة فى قوله (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم) المذكورة فى سورة الاسراء . فقد فسرها البيضاوى بأنها آيات أرسل بها موسى الى بنى اسرائيل ؛ وهى أحكام أمروا بالأخذ بها آيات عقاب عوقب بها فرعون وجنوده وهو أحد وجوه أوردها فى هذه الآية.

وعبارته بنصها (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) هى : العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وانفجار الماء من الحجر ، وفلق البحر ونتق الطور على بنى اسرائيل. وقيل : الطوفان ، والسنون ، ونقص الثمرات ؛ مكان الثلاث الأخيرة . وعن صفوان أن يهوديا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عنها فقال « لاتشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء لدى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تفروا من الزحف ، وعليكم خاصة اليهود ألا تعدوا فى السبت » فقبل اليهودى يده ورجله .

فعلى هذا المراد بالآيات : الأحكام العامة للملل الثابتة فى كل الشرائع .

اقرءوا هذه الآيات :

سوة الاعراف : وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ [١٣٠] فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [١٣١] وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [١٣٢] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ [١٣٣] وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا

عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ [١٣٤] فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ [١٣٥] .

سورة الاسراء : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً [١٠١] قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً [١٠٢] .

سورة طه : وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى [٥٩] .

سورة النمل : فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ [١٣] وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [١٤] .

سورة القصص : فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ [٣٦] وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [٣٧] .

سورة الزخرف : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٤٦] فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ [٤٧] وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [٤٨] وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ [٤٩] فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ [٥٠]

سورة القمر : وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ [٤١] كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ [٤٢]

سورة النازعات : فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى [٢٠] فَكَذَّبَ وَعَصَى [٢١][1]

(١) ذكرت التوراة الآيات التى جاء بها موسى الى فرعون وملئه وجعلتها ثنتى عشرة آية . ولما كان الاتيان بنص ذلك كله يطيل المقام ؛ أحببت ذكر تلك الآيات التى جاءت فيها مع الاشارة الى مواضع نصوصها طلبا للاختصار . واليكم ما جاء فيها : —

١ — انقلاب العصا حية ؛ وقد تقدم .

٢ — انقلاب نهر النيل دما سبعة أيام وموت السمك فى النهر ونتن مائه ؛ من الآية ١٤ من الاصحاح السابع ــ خروج ، الى آية ٢٥ منه .

انطلاق بنى اسرائيل

ندم فرعون وقومه – رحيل فرعون فى أثرهم لردهم . انشقاق البحر
عبور بنى اسرائيل على أرض البحر – اقتحام فرعون فى أثرهم – انطباق
الماء على فرعون وجنوده وغرقهم – من هو فرعون ؟ – أين موضع العبور ؟ .

انطلق موسى بقومه بنى اسرائيل من أرض مصر ذاهبا الى أرض فلسطين كما قال تعالى (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى) فهل كان هذا الانطلاق بناء على أمر صدر له من فرعون بعد أن أمضه الله وقومه بالعذاب الشديد فى الآيات التسع ؟

تقول التوراة : ان ذلك كان بناء على سماح فرعون لهم بالانطلاق ليخلص من ضروب العذاب التى حاقت بقومه ؛ أى أن سماح فرعون لهم بالانطلاق للتخلص من شر موسى ؛ لا لأنه آمن برب موسى وهارون . والقرآن ساكت عن هذه النقطة .

ندم فرعون على ارسال بنى اسرائيل ، أو أنه رأى أنهم انطلقوا بلا اذن منه ، ولعله قد بلغه ما فعله اليهوديات بالمصريات من استعارة الحلى والزينة وعدم ردها اليهن ، فأرسل فى المدائن حاشرين . فجمع جندا عظيما واتبع بنى اسرائيل ليردهم الى عبوديته ، وكان بنو اسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر – على خليج السويس – واطلع عليهم مع شروق الشمس فأيقنوا بالهلاك وأن فرعون باطش بهم . فسكن موسى روعهم وضرب البحر – كما أمره الله

= ٣ – صعود الضفادع من النهر الى أرض مصر ومضايقتها للمصريين حتى غطت أرض مصر ؛ من أول الاصحاح الثامن الى الآية ١٥ منه .

٤ – كثرة البعوض بأرض مصر على الناس والبهائم – ولعله المعبر عنه بالقمل – والبعوض هو الذى يعبر الناس عنه بالبق ؛ من الآية ١٦ اصحاح ٨ الى آخر الآية ١٩ منه .

٥ – كثرة الذباب فى أرض مصر وبيوت المصريين كثرة فاحشة حتى تنغص عيشهم ؛ فى الآية ٢٠ من الاصحاح الثامن – خروج الى آخر الآية ٢٤ منه .

٦ – تفشى الوباء فى مواشى المصريين من الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم ؛ من أول الاصحاح التاسع الى الآية ٧ منه .

٧ – فشو الدماميل فى الناس والبهائم ؛ من الآية ٨ من الاصحاح التاسع من سفر الخروج الى الآية ١٢ منه .

٨ – نزول البرد العظيم يهلك ما أصاب من المواشى والناس ؛ من الآية ١٣ من الاصحاح التاسع خروج الى الآية الخامسة والثلاثين منه .

٩ – وجود الجراد بكثرة وأكله الزرع والثمار ؛ من أول الاصحاح العاشر من سفر الخروج الى الآية ١٥ منه .

١٠ – اظلام أرض مصر ثلاثة أيام ؛ من الآية ٢١ من الاصحاح العاشر الى الآية ٢٣ منه .

١١ – موت كل بكر من الناس والبهائم فى مصر ؛ من أول الاصحاح الحادى عشر من سفر الخروج الى الآية ٢٩ من الاصحاح الثانى عشر .

١٢ – اليد علم أمرها مما تقدم .

تعالى — فانفلق حتى ظهرت أرضه ، وأمر بنى اسرائيل بالعبور فيــه فعبروا من الشاطىء الغربى الى الشاطىء الشرقى . وأشرف فى ذلك الحين فرعون على الموضع الذى عبر منه بنو اسرائيل ، فرأى طريقا فى البحر لا وعورة فيه ، وبنى اسرائيل بين فرقى الماء لم يمسهم أذى . فطمع أن يعبر فى أثرهم فيردهم هو وجنوده . فاقتحموا الطريق اليابس فى البحر خلف بنى اسرائيل . فلما جاز بنو اسرائيل البحر — ولم يبق أحد منهم بين المياه المنحسرة ، وفرعون قد توسط البحر هو وجنوده انطبق البحر عليهم وعاد كما كان أولا . وغرق فرعون وجنوده ولم يفلت منهم أحد ممن اقتحم الماء .

فى ذلك الوقت الذى أدرك فيه فرعون الغرق . قال (آمنت أنه لا الــه الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) .

والذى أعتقده أن فرعون أراد أن يدفع عن نفسه الغرق بهذه الكلمة التى نطق بها دون أن يعتقدها ، مقدرا انه بذلك يخدع موسى والهه ويمثل فى هذه المرة الأدوار التى مثلها من قبــل لأنه وقومه كانوا يقولون لموسى (ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك) الخ . ويقولون لموسى (يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون) فكان الله يكشف عنهم البلاء ثم يعودون سيرتهم الأولى . فظن انه ينجو فى هذه المرة بمثل الخديعة التى كان ينجو بها أولا . ولا يعجبنى قول الجلال الدوانى « ان فرعون ناج لأنه آمن » والله تعــالى يقول (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن) وقال تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبــل أو كسبت فى ايمانها خيرا) وفرعون لم يكسب فى ايمانه خيرا بفرض أنه آمن .

رأى فى فرعون صاحب موسى

لقد كتبت فى الطبعة الأولى ما عرفته عن فرعون الذى كان فى زمن موسى عليه السلام .
ونقلت ما كتبه المونسنيور لويس ملحمه فى اهــرام ٧ مايو ســنة ١٩٣٢ عن « فرعون الاضطهاد » و « فرعون الخروج » .

ولكنى الآن أردت أن آتى البيوت من أبوابها ، عملا بعموم قول الله تعالى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) فذهبت الى دار الآثار وقابلت حضرة الفاضل أحمد يوسف أحمد أفندى المصور بدار الآثار المصرية وقد نقلت من كتاب له عنوانه « كتاب فرعون موسى — قصة الولادة والرسالة — والخروج » وهو تحت الطبع ما يأتى :

لم يبق شك فى أن يوسف الصديق عليه السلام قد دخل مصر فى عهد الأسرة السادسة عشرة فى أيام أحد ملوكها المدعو « ابابى الأول » وقد وجدت لوحة أثرية عبارة عن شاهد مقبرة ذكر فيها اسم « فوتى فارع » وهو المذكور فى التوراة « فوطيفار — عزيز مصر » كما استدل

من بعض آثار عن الأسرة السابعة عشرة على حدوث جدب فى مصر قبل هذه الأسرة . وهو ما ذكر فى القرآن والتوراة عن سنى القحط .

اذن فدخول يوسف يمكن تحديده قريبا من سنة ١٦٠٠ ق م فى عهد الملك ابابى المذكور . ويكون دخول بنى اسرائيل بعد ذلك بنحو ما يقرب من ٢٧ عاما ، وهى المدة التى أقامها يوسف فى بيت سيده مضموما اليها المدة التى أقامها فى السجن ، يضم الى ذلك مدة الرخاء والخصب ثم بعض مدة الجدب الى أن قال لاخوته (وائتونى بأهلكم أجمعين) .

واذا اطلعنا على حياة ملوك الفراعنة فيما بين هذه الأسرة والأسرة التاسعة عشرة لم نجد أيضا ذكرا يثبت أى اضطهاد حدث لقوم اسرائيل . ولا أى ذكر لهم أثناء ذلك .

ولكن التوراة تذكر ان فرعون مصر الذى اضطهد بنى اسرائيل . كان يستخدمهم فى بناء مدينتين رعمسيس وفيثوم . وقد ثبت من الحفائر الأثرية وجود مدينة باسم « فيثوم » أو « بر — توم » ومعناها بيت الاله توم . ومدينة أخرى باسم « بررعمسيس » أى بيت أو قصر رعمسيس . والأولى اكتشفت بواسطة العالم الفرنسى «نافيل» فى سنة ١٨٨٣ وموضعها تل المسخوطة الآن — فى مديرية الشرقية — والثانية اكتشفت بواسطة العالم المصرى الأستاذ محمود حمزة فى سنة ١٩٢٨ — وموضعها بلدة « قنتير » — وتسمى بالمصرى القديم « خنت نفر » أو الوسط الجميل . وأيضا (بررعمسيس) وهى التى بناها رعمسيس الثانى لتكون عاصمة لملكه فى مصر فى وسط الوجه البحرى — ليكون بها قريبا من الحدود المصرية لتساعده على صد الأعداء — كما انه أيضا بنى مدينة « فيثوم » واتضح من وجود بعض آثار الجدران فى المدينة انها أيضا كانت حصنا مصريا . وتكون التوراة قد أخطأت فى حسبانها مخازن للغلال .

واذن فرعمسيس الثانى قد يعتبر الفرعون الذى اضطهد بنى اسرائيل وولد موسى فى زمنه . ويضاف الى ذلك عداؤه الشديد للشعوب الأسيوية التى ظل يحاربها متغيبا عن مصر زهاء تسع سنوات . وقد يكون كرهه لبنى اسرائيل المقيمين فى مصر مترتبا على خشيته من أن يكون حزبا ممالئا لأعدائه المواطنين لهم من قبل ، ولا سيما وقد تكاثروا فى عددهم وتناسلوا حتى كانت لهم جالية تشمل جزءا عظيما من مديرية الشرقية .

وحيث أن الملك رعمسيس الثانى قد اشرك ابنه الملك « منفتاح » معه فى الحكم قبل وفاته وكان « منفتاح » الولد الثالث عشر لرعمسيس . وقد بلغ أولاده ١٥١ وكان مسنا حين ولايته للعهد . فيكون قد عاصر موسى فى بيت أبيه . وبحق قال لموسى (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين) ويكون منفتاح هو فرعون الخروج . الذى أرسل اليه موسى وهرون عليهما السلام لاخراج بنى اسرائيل من مصر . وتكون التوراة على صواب عند ما قالت : وفى هذه الأثناء كان ملك مصر قد مات .

وقد عثر العلامة فلندرس بترى على حجر من الجرانيت القاتم ورقمه فى الدار « ٥٩٩ » وهو عبارة عن لوحة كبيرة يبلغ ارتفاعها ٣ أمتار و ١٤ سم وهو منقوش من الوجهين أحدهما للملك « امنحتب » الثالث من الأسرة ١٨ يذكر فيه كل ما عمله لمعبد أمون .

أما الوجه الآخر فقد استعمل فى شأن « منفتاح » بن رعمسيس الثانى من « الأسرة ١٩ » وذكر فيه عبارات بأسلوب شعرى يفتخر فيها بانتصاره على اللوبيين ، ويشير الى سقوط عسقلان وجيزر ويانوعيم فى فلسطين . وجاء من ضمنها عبارة تشير الى بنى اسرائيل ونصها الحرفى (لقد سحق بنو اسرائيل ولم يبق لهم بذر) وهذا أول نص رسمى فى الآثار ذكر فيه بنو اسرائيل .

وقد عثر على هذا الحجر فى كوم الحيتان بطيبة الأقصر .

وهذا الحجر يبدو منه للمدقق أن « منفتاح » لم يكتبه فى عهده . والا لكانت لهذه الحوادث الهامة التى يذكرها فيه شأن عظيم كان يجب أن يدون فى أثر خاص . لا أن يستعمل له حجر كان لغيره من قبل .

ويظهر أن الكهنة التابعين لمنفتاح هم الذين استعملوا هذا الحجر ودونوا ما به ليشيدوا بذكره ، فيقوموا بذلك بواجب التخليد حيث لم يكن منتظرا أن يموت الملك بتلك الصورة المعجلة التى مات بها . وقد أرادوا أن يوهموا الناس ان فرعون قد سحق بنى اسرائيل تمويها وقلبا للحقائق ؛ حتى يستروا أمام الشعب المصرى الذى كان يحترم دياناتهم خذلانهم وخذلان الههم أمام موسى ، حين كان فرعون يتعقب بنى اسرائيل .

ويكون العثور على جثة « منفتاح » ووجودها الآن بالمتحف المصرى ؛ مصداقا لقول القرآن الكريم « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » .

وقد وجدت الجثة مع غيرها من الجثث فى قبر « أمنحتب الثانى » بالأقصر .

وظهر من آثار قبر منفتاح انه لم يكن مهيأ كما يجب لدفن ملك مثله ؛ لأن موته لم يكن منتظرا فلم يهيأ له قبر خاص اهـ من الكتاب المذكور .

أما موضع العبور فلم يعلم بالضبط . والتوراة تورد أسماء أمكنة مر بها بنو اسرائيل حتى أتوا الى مكان العبور . وهذه الأمكنة ليست مسمياتها معروفة اليوم . والبحارة فى البحر الأحمر يسمون مكانا فى خليج السويس (بركة فرعون) ويقولون ان العبور كان بها وهى بعيدة عن السويس كثيرا تمر بها السفن البخارية بعد نصف الليل اذا قامت من السويس فى المساء وانى لأستبعد ذلك كثيرا وأعتقد أن خليج السويس كان يمتد من تلك الأزمان الى البحيرة المرة أو يقرب منها وفى هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم . وبعبارة أخرى انهم عبروا مكان شمالى المكان المعروف بـ « عيون موسى » فى البر الأسيوى وهى لا تبعد عن السويس كثيرا .

وبين يدى اطلس تاريخى للأستاذ محمد رفعت « مساعد مراقب تعليم البنات فى وزارة المعارف الآن سنة ١٩٣٦ » وقد رسم فيــه طريق عبور بنى اسرائيل بين السويس وبين البحيرة المرة ، ورسم خطين يدلان على ان خليج السويس كان متصلا بالبحيرة المرة . واحسب انه على صــواب .

وتقول التوراة : ان الله أرسل ريحا شرقية على البحر فأزالت الماء حتى ظهرت اليابسة ، وعبر بنو اسرائيل فتبعهم فرعون فغرق .

وعلى كل حال ، فالآية ظاهرة واضــحة ، سواء أكان ذلك بسبب ضرب موسى البحر أو بهبوب الريح بالكيفية التى شرحتها التوراة . فان الناس لم يعهدوا ان الريح عملت هــذا العمل فى الخليج مرة أخرى . فلم يكن ذلك الا بعناية خاصة من الله تعالى لانفاذ ما فى علمه (١).

---

(١) نقد اللجنة « الموضوع الأول »

(انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام)

فى صفحة ٢٠٠ ما نصه : وتقول التوراة ان الله أرسل ريحا شرقية على البحر فأزالت الماء حتى ظهرت اليابسة ، وعبر بنو اسرائيل فتبعهم فرعون فغرق .

وقال بعد ذلك ما نصه : وعلى كل حال فالآية ظاهرة واضحة سواء كان ذلك بسبب ضرب موسى البحر أو بهبوب الريح بالكيفية التى شرحتها التوراة ، فان الناس لم يعهدوا أن الريح عملت هذا العمل فى هــذا الخليج مرة أخرى فلم يكن ذلك الا بعناية خاصة من الله تعالى لانفاذ ما فى علمه . انتهى بالحرف الواحد .

رأى اللجنة

والذى نراه أن مثل هذه العبارة لا ينبغى أن تصدر منه ، بل يجب أن ينزه عنها قلم فضيلة المؤلف ؛ لأنها ان لم تكن صريحة فى افادة احتمال كذب ما جاء به القرآن الكريم فهى موهمة لذلك، اذ أنه بهذه العبارة ردد فى سبب فلق البحر — الذى هو معجزة لموسى عليه السلام — بين أن يكون ذلك السبب هو ضرب موسى البحر — أى كما جاء به القرآن الكريم — وبين أن يكون ذلك السبب هو هبــوب الريح — أى كمـــا جاء فى التوراة — فكأنه يقول : سواء كان الواقع ما جاء به القرآن فيكون هو الصادق أو ما جاءت به التوراة فتكون هى الصادقة ! ولولا أننـــا نعرف فضيلة المؤلف شخصيا وتذكرنا ما ذكره فى مقدمة كتـــابه فى البند الثالث من « ان القرآن الكريم جاء مهيمنا على غيره من الكتب فلا يعول على ما خالفه » لأسأنا الظن ! من أجل ذلك فكرنا فى تأويل هذه العبارة كثيرا لتؤدى معنى يطابق العقيدة الاسلامية . فمن الاحتمالات التى خطرت فى البال أن مراده منها أن المعجزة ثابتة — سواء كان ذلك بسبب ضرب موسى البحر كما هو الصحيح فى الواقع — ويكون الغرض من ذلك اثبات المعجزة فى اعتقاد الفريقين وهذا الاحتمال وان كان بعيدا جــدا من منطوق العبارة لأنه يحتاج الى عدة تقريرات وتقييدات فى عبارته فهو متعين .

لا يقال يمكن صحة ما جاء به القرآن وما جاءت به التــوراة معا ؛ فتحمل عبارته على تجويز الجمع بين الأمرين ؛ لأن ضرب موسى البحر بعصاه ورد فى التوراة أيضا — كما يؤخذ مما ذكره بعد ذلك « صفحة ٢٠٣ » فى تلخيص الاصحاح الرابع عشر من سفر الخروج » فانه يقول ما نصه :

فأوحى الله اليه أنهم ناجون وأن فرعون وجنده مغرقون ، وحـــال بين فرعون وبينهم وضرب موسى البحر فأجرى الله ريحا شرقية قوية طول الليل حتى جعلت فى البحر طريقا يابسة ، وسار فيه موسى وبنو اسرائيل على اليبس، والماء كالسور على يمينهم وشمالهم الخ ا هـ =

والذى أزيده من ذلك أن الآية واضحة جلية سواء نظر فيها المسلم الى قرآنه ، أو نظر فيها الكتابى الى توراته — ولا حجة للملاحدة الذين يتعلقون بعبارة التوراة ، فيقولون ان السبب هو هبوب الريح المحكى فى التوراة فلا معجزة . لأنا نقول ان المعجزة حاصلة مع فرض هبوب

= لأنا نقول هما متنافيان حتما فلا يمكن الحكم بصحتهما معا . ومن قرأ قوله تعالى فى سورة الشعراء « فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون قال كلا ان معى ربى سيهدين فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين » تيقن من غير شك أن انفلاق البحر لم يكن بسبب الريح القوية التى مكثت طول الليل حتى أزالت الماء وجعلت فى البحر طريقا يابسة ، بل يتيقن أن سبب ذلك هو ضرب موسى البحر بعصاه كما أمره الله تعالى .

نعم ورد فى القصة أنه حينما ضرب موسى البحر أرسل الله ريح الدبور فجففت الأرض من الوحل من غير أن يكون للريح دخل فى انفلاق البحر وازالة الماء . والله أعلم .

رد المؤلف على نقد اللجنة

الموضوع الأول

(انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام)

كتب حضرات الأفاضل أعضاء اللجنة فى هذا الموضوع ما هو مسطر قبل هذا وقد اعتصر أعضاء اللجنة حفظهم الله من عبارة الكتاب ما يأتى :

(١) انى أسوى بين القرآن الكريم والتوراة .

(٢) ان عبارتى تتضمن احتمال صدق القرآن الكريم وكذبه .

ثم أخذت اللجنة تردد فى الاحتمالات — التى عطفت على بها لتصحيح عبارتى — ولم تجد وجها مناسبا الى آخر ما نصت وشرحت ولم ينقذها من بين أمواج هذا الترديد سوى التخطئة لى .

وانى لأتألم لما نال حضرات أعضاء اللجنة من الحيرة والنصب بسببى ، لمحاولة تخريج قولى على وجه صحيح ، ويزيد فى ألمى أنهـا لم تظفر بحاجتها وهى أقرب اليها من حبل الوريد .

فالذى أقوله فى مقابلة ما جاءت به اللجنة الموقرة :

(١) جاء فى صفحة ٤ من كتابى ما نصه « (٣) يغلب أن أذكر ذلك الموقف أن كان له ذكر فى كتب العهد القديم أو العهد الجديد ، وهو أحيانا يوافق القرآن وأحيانا يخالفه ، ولا يغرب عن فكر القارىء الكريم أن القرآن جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فما جاء به الحق الذى لا مراء فيه وكل ما يخالفه لا يعول عليه » .

وجاء فى ص ٤ أيضا ما نصه « ان كتب العهدين : القديم والجديد ليس لهما سند متصل ولم تخل من تحريف المحرفين خطأ أو عمدا » .

لم أضع هذين النصين فى الكتاب للتحلية والزينة فحسب ، ولم أجعلهما مرآة ينظر فيها ولا تمس ولكنى أردت أن يكون ما تضمناه دستورا يستصحبه القارىء فى أثناء قراءة الكتاب وينتفع بهما أثناء فهمه لمضمونه .

ومعلوم أن المقدمة هى أقوال تتقدم الكلام فى موضوع العلم لارتباط لها به ، وانتفاع بها فيه ؛ فاذا لم يستعمل القارىء مضمون هذين النصين فى هذا الموضوع فمتى يستعملهما ؟

وقد جرت عادتى — اذا نبهت على مخالفة عبارة التوراة لما جاء فى القرآن الكريم — أن أنبه على أن ما جاء فى القرآن هو الحق الذى لا مرية فيه اذا كان مدى الخلاف واسعا وشقته بعيدة .

فاذا لاح لى أن الخلاف ليس من الأهمية بمكان — أو أن الجمع بينهما ممكن ولو عن بعد — وكلت حل الاشكال الى فطنة القارىء والى ما قدمت من الدستور الواجب الاتباع الذى نصصته فى المقدمة .

الريح ؛ لأنه لم يعهد أن عملت الريح ذلك فى كل الدهر — سواء قبل الحادثة أو بعدها . فلم فعلت ذلك حين عبور بنى اسرائيل فقط ؟

ويذكر المفسرون أن الطرق كانت اثنى عشر طريقا بعدد أسباط بنى اسرائيل . وعبارة القرآن ليست نصا فيما يقولون .

وانى أحمد الله تعالى أن جعلنى أنا والآلاف الكثيرة من الناس الذين قرءوا هذا الكتاب بحيث لم تطق عقولنا السباحة فى معانيه الا فى ساحله والسلامة فى الساحل ولم يجعل لنا من قوة الذكاء وتوقد الذهن ما يجرئنا على الغوص فى الأعماق البعيدة الغور ، فنخرج من تلك الأعماق بما يحول الكعبة مباءة كفر والحاد ، أو أن ننيخ الشرك فى دار الجهاد ؛ وربما كمنت المنن فى المحن .

لا أريد أن أطيل الكلام فى الجمع بين ما جاء فى الكتاب الكريم وما جاء فى التوراة ، ولكنى أعرض لما جاء فى كتاب اللجنة من أنى سويت بين القرآن والتوراة فأقول :

ان مسلما — (ولو كان ضعيف الايمان ضعيف العقل — لا يمكن أن يسوى بين الكتابين ! فكيف بمن يعلم عن كتب أهل الكتاب وما فيها من الخلل والخطأ والتحريف ما أعلمه مما لم يتسن لكثير من أهل الاسلام أن يعلموه ؟

الكتاب الذى يتضمن : أن الابن أكبر من أبيه بسنتين ! هل يمكن أن يسوى به القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

لا بل انى أعلم بعض المواضع التى أخطأ مترجمو كتب العهد القديم فى ترجمتها . وقد اهتديت الى ذلك بنفسى بمراجعة الأصل والترجمة . ان من يعلم ذلك لا يمكن أن يهجس فى خاطره هاجس بالتسوية بينهما ، ولا يمكن أن يسوى بينهما الا من سفه نفسه !

أما الترديد الذى جعلوا حمله جملا وحبته قبة ، فأمره أبسط مما ظنوا وهو قولى « وعلى أى حال فالآية ظاهرة واضحة » أى عند المسلمين وعند أهل الكتاب . وقولى بعد ذلك « سواء أكان ذلك بسبب ضرب موسى البحر » أى أن موسى ضرب البحر فانفلق البحر فور ضربه كما هو ظاهر نص القرآن واعتقاد المسلمين . وقولى « أو بهبوب الريح بالكيفية التى شرحتها التوراة » أى أن موسى ضرب البحر ، فأهب الله الريح فور ضربه فأزالت الماء ، كما هو ظاهر نص التوراة وكما هو اعتقاد أهل الكتاب ، أى فالاحتمال موزع بين أهل الاسلام الذين يعولون على القرآن وأهل الكتاب الذين يعولون على التوراة . والفريقان يلتقيان فى ثبوت المعجزة وان كانا يختلفان بحسب ظاهر كتابيهما فيما صحب السبب وهو الضرب . هل كان عنه ريح أو لا ؟

وفى حال كتابتى لهذا الموضع كنت ألحظ أن هناك قوما — ليسوا بمسلمين ولا بأهل كتاب — ربما تعلقوا بما فى التوراة من هبوب الريح ، فأنكروا الآية وزعموا أن الريح عملت هذا العمل . وهبوب الريح ليس معجزة أو عجيبة ، فقلت دافعا فى صدر مقالهم « فان الناس لم يعهدوا أن الريح عملت هذا العمل فى هذا الخليج مرة أخرى ، فلم يكن ذلك الا بعناية خاصة من الله تعالى لانفاذ ما فى علمه » .

وفهم الكلام على هذا الوجه متعين ، وقد فهمه الألوف من الناس . ولم يكتب الى أحد أنه توهم فيه حيدا عن الحق أو جنفا عن الصراط السوى .

ظهر أن العبارة صحيحة بكل ما قدمت ، جلية لا غبار عليها . وأن ملاحظة اللجنة انما هى تحميل اللفظ ما لا يمكن أن يحتمله ، ولا يمكن أن يتوصل الى ما قالوا الا بتكلف .

وبخاصة اذا علمنا أن القاعدة : ان الكلام اذا كان يحتمل التأثيم من مائة وجه ، ويحتمل عدم التأثيم من وجه واحد ، وجب أن يصار الى الوجه الذى لا تأثيم فيه .

وفى القوانين الوضعية أن القوانين تفسر دائما فى مصلحة المتهم ، ومعاقبة برىء واحد أشد جرما من افلات مائة مجرم أثيم .

ويكفى أن الألوف من أهل الاسلام الذين قرءوا هذا الكتاب — ومنهم علماء أعلام لهم عقول وأفهام — لم تخامرهم خلجة من الشك فى هذا الموضع . وفى فهم القراء ما يغنى عن الاطالة .

اقرءوا هذه الآيات : —

سورة الاعراف : فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ [١٣٦] وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [١٣٧]

سورة يونس : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءامَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ [٩٠] آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [٩١] فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [٩٢]

سورة الاسراء : فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً [١٠٣] وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً [١٠٤]

سورة طه : وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى [٧٧] فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ [٧٨] وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى [٧٩]

سورة الشعراء : وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ [٥٢] فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ [٥٣] إِنَّ هَـؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ [٥٤] وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ [٥٥] وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ [٥٦] فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [٥٧] وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ [٥٨] كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ [٥٩] فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ [٦٠] فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ [٦١] قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [٦٢] فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ [٦٣] وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ [٦٤] وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ [٦٥] ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ [٦٦] إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [٦٧] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [٦٨]

سورة القصص : وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ [٣٩] فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ [٤٠]

سورة الزخرف : فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ [٥٥] فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ [٥٦]

سورة الدخان : وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ [١٧] أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [١٨] وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [١٩] وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ [٢٠] وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ [٢١] فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ [٢٢] فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ [٢٣] وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ [٢٤] كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [٢٥] وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ [٢٦] وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ [٢٧] كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ [٢٨] فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ [٢٩] وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ [٣٠] مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ [٣١]

سورة الذاريات : وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [٣٨] فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ [٣٩] فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ [٤٠]

طبيعي أن يفهم ان فرح بنى اسرائيل كان عظيما جدا بنجاتهم بهذه الأعجوبة وهلاك فرعون وجنوده فى اليم ؛ حتى صاروا سلفا ومثلا للآخرين على مرّ الدهور وتعاقب الحقب .

وقد ذكرت التوراة نجاة بنى اسرائيل وهلاك فرعون « وفى الاصحاح الرابع عشر من سفر الخروج » ويلخص فى أن بنى اسرائيل ضلوا طريق فلسطين ، وكان ملك الله يسير أمامهم فى عمود دخان نهارا وفى عمود نار ليلا ؛ ليضىء لهم . ثم أمرهم الله بالعودة الى مكان خاص وغضب فرعون من انطلاقهم ؛ فجمع جنوده وخيله ومركباته قاصدا رد بنى اسرائيل الى العبودية والذل . فلما رأى بنو اسرائيل فرعون وجنوده ذعروا وفزعوا الى موسى ، فأوحى الله اليه أنهم ناجون وأن فرعون وجنوده مغرقون . وحال بين فرعون وبينهم وضرب موسى البحر فأجرى الله تعالى ريحا شرقية قوية طول الليل ،حتى جعلت فى البحر طريقا يابسة ، وسار فيها موسى وبنو اسرائيل على اليبس ، والماء كالسور عن يمينهم وعن شمالهم . فساروا فيه حتى عبروا

الى الضفة الأخرى ، ورآهم فرعون يسيرون على اليابسة فسار فى أثرهم ، فلما توسط اليم وعبر بنو اسرائيل جميعا انطبق الماء على فرعون وجنده فأغرقوا جميعا .

ومعلوم انه اذا تخالف ما فى التوراة والقرآن فالمعول على ما جاء فى القرآن لأنه جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .

« وفى الاصحاح الخامس عشر » فرح بنو اسرائيل وأعلنوا فرحهم مترنمين بتسبيح الله تعالى . وأخذت مريم أخت هارون الدف وخرج جميع النساء وراءها يدففن ويرقصن لنجاتهم وهلاك عدوهم .

سوء حال فرعون وقومه يوم القيامة
وما أعد الله لهم من الخزى والنكال

لا يحتاج الى شرح ولا الى تعليق ما جاء فى الكتاب الكريم من الآيات متعلقا بحال فرعون وقومه ، وما أعد الله تعالى لهم من سوء العذاب وأليم العقاب فى الدار الآخرة .

وحسبنا فى ذلك أن نقول :

اقرءوا الكتاب ففيه عبرة لأولى الألباب :

سورة هود : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [٩٦] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ [٩٧] يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ [٩٨] وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ [٩٩]

سورة القصص : وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ [٤١] وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ [٤٢]

سورة غافر : وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ [٤٥] النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [٤٦] وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ [٤٧] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ [٤٨] وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ [٤٩] قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ [٥٠] إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [٥١] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [٥٢]

سورة الدخان : إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ [٤٣] طَعَامُ الْأَثِيمِ [٤٤] كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ [٤٥] كَغَلْيِ الْحَمِيمِ [٤٦] خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ [٤٧] ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ [٤٨] ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [٤٩] إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ [٥٠]

لصوق الوثنية

بقلوب فريق من بنى إسرائيل على عهد موسى

طلبهم الى موسى أن يجعل لهم ألها كما للناس آلهة حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم — توبيخ موسى لهم على طلبهم الها غير الله الذى أنجاهم من سوء العذاب وفضلهم على العالمين — تفجير العيون من الصخر بعدد قبائل بنى اسرائيل — انزال المن والسلوى عليهم فى برية سينا — تظليل الغمام لهم من حر الشمس — طلبهم أن يطعمهم الله تعالى الفوم « الثوم » والقثاء والعدس والبصل .

كان بنو اسرائيل قد ألفوا وثنية المصريين وقلدوهم فى وثنيتهم شأن المغلوب فى تقليد الغالب ولم يؤمن بموسى والهه الا ذرية من قومه على حال رهبة من فرعون وشيوخ بنى اسرائيل ان يفتنهم عن دينهم ويردهم الى الوثنية كما قال تعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) باعتبار الضمير «فى ملئهم» راجعا الى قوم موسى. ولم تكن العجائب التى ضرب الله بها فرعون وقومه لتزجرهم عن تلك الوثنية التى طال الفهم لها .

ما بالكم بقوم لقوا من المصريين ألوان العذاب من الذل والاهانة ، وجاءهم منقذ منهم هو موسى . وقد لقى الأمرين فى انقاذهم من العذاب الأليم ، وتحمل فى سبيل ذلك الاهانة والسخرية والتهديد بالقتل والتكذيب ، ورمى بأنه ساحر مجنون ، وألقى على فرعون وقومه الدروس القاسية بآياته البينات الدالة على صدقه ، ورأوا بأعينهم انفلاق البحر لهم حتى جازوه على يبس قاعه لم تبتل أقدامهم ولا نعالهم ولم يفقدوا نقيرا ولا قطميرا — بل خدعوا نساء المصريين واستعاروا منهن الحلى من الذهب والفضة وذهبوا بذلك المال كله كما ذهب الأسير بقيده !

ولما أراد فرعون أن يدركهم ويردهم الى عبوديته وطمع أن يعبر كما عبروا أطبق الله عليه وعلى جنوده الماء فكانوا من المغرقين !

كل ذلك يجرى أمام أعينهم وموسى يتخولهم بالنصح والموعظة . ويقول لهم ان كل الأعمال التى عملها انما هى من صنع الههم واله آبائهم الواحد الحى المنزه عن الشريك والمعين . ورمال البحر الرطبة لا تزال عالقة بنعالهم ! مع هذا كله غلبت عليهم الوثنية اللاصقة بقلوبهم وغلبت عليهم بلادة الطبع وما ركز فى طبيعتهم من السخف وما استولى على أنفسهم من الغثاثة !

أجل غلبت عليهم كل هذه الخصال الذميمة ودفعتهم الى أن يطلبوا من موسى — وقد مروا على قوم يعبدون الأصنام — أن يتخذ لهم الها كما لهؤلاء القوم آلهة !

لا جرم كان جواب موسى لهم تجهيلا ولوما وذما على طلبهم الها سوى الله الذى فعل بعدوهم العجائب المدهشة ، وأنجاهم من عـذابه بأعجوبة الأعاجيب وخصهم بالاكرام . وفضـلهم على العالمين . وان الها هذه آياته وهذا احسـانه اليهم لا يعدل عن عبادته الى عبادة غيره الا من سفه نفسه وسجل عليها من الجهل عارا لا يمحى !

ولما كان القوم قد عبروا الى سهول شبه جزيرة سـيناء والشـمس فيهـا شـديدة — ولا مساكن يكتن فيها القوم ، ولا شجر يتفيأون ظلاله — شكوا الى موسى ما يلقون من العناء فدعا موسى ربه فساق الغمام الى ذلك المكان ليظلهم ويقيهم وهج الشمس ودام ذلك لهم !

ولما كان زادهم عرضة للنفاد وتاقت أنفسهم الى اللحم — مع خشيتهم الجوع والهلاك — أرسل الله لهم الرياح تحمل لهم المن والسلوى . والمن مادة تنزهر على أوراق بعض الأشجار مثل الطرفاء وغيرها ، يميل طعمها الى الحلاوة فيها لين وهى سهلة الهضـم . والسلوى طائر السمانى كان يغطى الأرض فيأخذ منه كل انسان حاجته . وقد أمرهم أن لا يطغوا فيه بالادخار ؛ لأن ذلك من سوء الظن بالله فخالف قوم منهم وادخروا فداد ما ذخروه — كما بين ذلك فى سفر الخـروج .

ولما جازوا البحر وجاءوا الى الشـاطىء الشرقى لم يجدوا ماء لشربهم وسـقيا دوابهم ، فشكوا الى موسى متذمرين واستسقوه فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه فلما ضربه انبجست منه اثنتا عشرة عينا ، لكل من الأسباط عين تجرى بالماء يشرب منها . وهذه العيون بالبر الشرقى غير بعيدة من مدينة السويس شهيرة بـ (عيون موسى) وقل اليوم ماء هذه العيون وبعضها طمست آثاره . ويزرع على تلك الميـاه بعض النخيل . والظاهر ان ضرب الحجر وانبجاسـه بالماء حصل مرات .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة البقرة : وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ [٦١]

سورة الاعراف : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [١٣٨] إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٣٩] قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [١٤٠]

سورة الاعراف : وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [١٥٩] وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [١٦٠]

سورة طه : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى [٨٠] كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى [٨١] وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى [٨٢]

قد يكون طلبهم البقول والعدس والبصل وأخواتها وسيلة من الله تعالى لتنبيههم الى أن طلبهم لا يكون الا اذا نزلوا مصرا من الأمصار . تجبى اليه ثمرات ريفه . وتجلب اليه خيرات الأرض الزراعية القريبة منه ، حتى اذا علموا بذلك كان مغريا لهم بمنازلة أعدائهم ومكاثرتهم حتى يملكوا عليهم مدينتهم للانتفاع بريفها والحاصلات التى تجبى اليها . ولكن ذلك لم يوقظ همتهم التى أخمدها ظلم فرعون وآله وما صب على رؤوسهم من المصائب فى الأحقاب الطويلة التى جعلت الخنوع والذلة خلقا مركزا فيهم .

وسيأتى لذلك فضل بيان عند طلب موسى اليهم دخول الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم

ذهاب موسى عن بنى إسرائيل

(لميقات ربه . وكتابة الله تعالى له ألواحاً متضمنة الوصايا التى يطلب إلى بنى إسرائيل العمل بها)

أوصى الله موسى أن يصعد الى الجبل ويمكث فيه ثلاثين ليلة ، حتى اذا أتمها أعطاه الله ألواحا وكتب له فيها الوصايا التى يأخذ بها بنو اسرائيل أنفسهم وأعقابهم من بعدهم .

ذكر البيضاوى والنسفى والخطيب والألوسى — وعباراتهم متفاوتة — ان موسى وعد قومه بنى اسرائيل — وهم بمصر — ان أهلك الله فرعون أتاهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره أن يصوم ثلاثين يوما وهى شهر ذى القعدة - فلما أتى الثلاثين أنكر موسى خلوف فمه ، فاستاك أو أكل بعض النبات فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك ، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة .

وأخرج الديلمي عن ابن عباس يرفعه لما أتى موسى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام نهارهن ولياليهن كره ان يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذى كان ، قال أى رب كرهت أن أكلمك الا وفمى طيب الريح ، قال او ما علمت ياموسى ان ريح فم الصائم عندى اطيب من ريح المسك ؟ ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتنى ففعل موسى عليه السلام الذى أمره ربه به اهـ .

وذلك مصداق قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة » .

وقبل ذهاب موسى لميقات ربه أمر أخاه هارون أن يكون خليفــة على بنى اسرائيــل وأكد عليه الأمر بالنظر فى مصالحهم وشؤونهم واليقظة فى أمرهم .

وبعد تمام الأربعين كلم موسى ربه فقال (رب ارنى أنظر اليك) أى مكنى من رؤيتك أو تجل لى فأنظر اليك وأراك : فقال الله تعالى له (لن ترانى ولكن انظر الى الجبــل . فان استقــر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) .

وهنا مجال واسع للكلام بين أهل السنة المجوزين لرؤية الله تعالى والمعتزلة المانعين لها « وهذا مبحث يرى فى موضعه لا هنا » .

ويقــول المفسرون : كيف يطلب موسى رؤية الله مع علمه بأنها غير ممكنة ؟ ويستدلون بذلك على جوازها ، والا لما طلبها موسى . كأن موسى بمجرد نبــوته صار عالمــا بكل شيء . وما دروا أن موسى كان عليه أمور كثيرة ينبغى أن يعلمها . واذا كان حاله مع العبد الصالح أن قال له لما شاء صحبته (هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا) افما كان موسى محتاجا ان يتعلم من الله وعن الله شيئا حتى يقال انه يعلم ان الرؤية ممكنة ولولا ذلك ما سألها ؟

ويعجبنى ما أورده الألوسى من قول المعتزلة : سلمنا أن سؤال الرؤيا ينــافى العلم بالاحالة لكنا نلتزم القول بعدم العلم ، وهو غير قادح فى نبوته عليه الســلام ؛ فان النبوة لا تتوقف على العلم بجميع العقائد الحقة ، أو جميع ما يجــوز عليه تعالى وما لا يجوز . بل علمــه ما يتوقف عليه الغرض من البعثة والدعوة الى الله تعالى وهو وحدانيته . وتكليف عباده الأوامر والنواهى تحريضا لهم على النعيم المقيم . وليس امتناع الرؤيا من هذا القبيل [1] .

---

(١) نقد اللجنة « الموضوع العاشر » .

(طلب موسى عليه السلام رؤية البارى تعالى)

« فى صفحة ٢٠٩ سطر ١٣ » ويقول المفسرون كيف يطلب موسى رؤية الله مع علمه بأنها غير ممكنة ؟ ويستدلون بذلك على جوازها والا لما طلبها موسى . كأن موسى بمجرد نبوته صــار عالما بكل شيء ، وما دروا أن موسى كان عليه أمور كثيرة ينبغى أن يعلمها ، واذا كان حاله مع العبد الصالح أن قال له لما شاء صحبته (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) أفما كان موسى محتاجا أن يتعلم من الله شيئا حتى يقال أنه يعلم أن الرؤية ممكنة ولولا ذلك ما سألها ؟ =

أعلن الله انه لن يراه . اما لأن الرؤية غير ممكنة اصلا كما يقول المعتزلة ، واما لأنها غير ممكنة فى هذه النشأة — كما يقول بعض العلماء — أو لأنه لا يقوى على تلك الرؤية . ثم أراد

= ويعجبنى قول الألوسى : سلمنا أن سؤال الرؤية ينافى العلم بالاحالة لكنا نلتزم القول بعدم العلم ، وهو غير قادح فى نبوته عليه السلام فان النبوة لا تتوقف على العلم بجميع العقائد الحقة أو جميع ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز . بل علمه ما يتوقف عليه الغرض من البعثة والدعوة الى الله تعالى وهو وحدانيته وتكليف عباده الأوامر والنواهى تحريضا لهم على النعيم المقيم . وليس امتناع الرؤية من هذا القبيل ا هـ هذا نص كلامه بالحرف .

(رأى اللجنة)

لا نعجب من أنه اختار أنه لا مانع من أن موسى عليه السلام لم يكن يعلم استحالة رؤية البارى تعالى لأن المعتزلة سبقوه بهذا الرأى، وانما العجب كل العجب من قوله « ويعجبنى قول الألوسى سلمنا الخ ما نقلناه عنه ، فان الناظر فى كلامه هذا وتصرفه فى النقل يعتقد — اذا لم يطلع على كلام الألوسى من أوله الى آخره — انه ؛ أى الألوسى ، يرى هذا الرأى ويعتقد هذا الاعتقاد ، مع أن الألوسى بعد أن قرر استدلال أهل السنة بقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن أنظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) على جواز رؤية البارى من وجهين .

قال بعد بيانه للوجهين ما نصه : واعترض الخصوم الوجه الأولى بوجوه ؛ الأول ... الى أن قال : الخامس سلمنا ... الى آخر ما نقل عنه الأستاذ وبعد أن أتم ذكر جميع اعتراضات الخصوم — أى المعتزلة — أجاب عن كل واحد منها الى أن قال : وما ذكروه فى الوجه الخامس ظاهر رده من تقرير الوجه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما أهل السنة ، وحاصله أنه يلزمهم أن يكون الكليم عليه السلام دون آحاد المعتزلة علما ودون من حصل طرفا من الكلام فى معرفة ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز عليه . وهذه كلمة حمقاء وطريقة عوجاء لا يسلكها أحد من العقلاء فان كون الأنبياء أعلم ممن عداهم بذاته وصفاته العلية مما لا ينبغى أن ينتطح فيه كبشان . ا هـ كلام الألوسى فى تفسيره مأخوذا من شرح المواقف ، ويكاد يكون بالحروف . وعبارة المواقف فى جواب هذا الاعتراض الخامس هكذا .

والجواب : التزام أن النبى المصطفى المختار بالتكليم فى معرفة الله وما يجوز عليه ويمتنع دون آحاد المعتزلة ، ودون من حصل طرفا من علم الكلام ؛ هى البدعة الشنعاء والطريقة العوجاء التى لا يسلكها واحد من العقلاء . ا هـ

فلعل الأستاذ نقل كلام الألوسى من غير أن يطلع على صدره ليعلم أنه من اعتراضات المعتزلة؟ ولا على آخره ليعلم الجواب عنه فلا يعجبه . ولا تستطيع القول بأنه اطلع عليه من أوله الى آخره وتصرف فى النقل هذا التصرف الذى يعتبر تدليسا غير حميد والله أعلم !

وأما قوله فى الرد على أهل السنة « وما دروا أن موسى كان عليه أمور كثيرة ينبغى أن يعلمها فمردود فان ذلك فى غير معرفة الله تعالى ، أى معرفة ما يجب فى حقه ويستحيل ويجوز فان هذه عقائد أولية مكلف بها آحاد الناس ، ثم لا يخفى أن مثل هذا التعبير لا يناسب فى حق موسى عليه الصلاة والسلام .

وأما قوله « واذا كان حاله مع العبد الصالح الخ » فيعلم جوابه مما ذكرناه أولا ومع ذلك نزيده بيانا . قرر الأئمة أنه لا يعقل أن يطلب موسى عليه السلام من العبد الصالح أن يعلمه شيئا من العقائد الدينية أو من الشريعة اللازمة لمن أرسل اليهم ، فان موسى من أولى العزم ؛ أى ممن هم أفضل من غيرهم من الرسل، فيجب أن يكون فيما ذكرناه أعلم من العبد الصالح، وانما طلب أن يتعلم منه شيئا من الأسرار الكونية ومن علم الحقيقة والعلم اللدنى الباطنى قالوا ؛ ولا مانع من أن يكون =

الله أن يعلمه انه انما طلب شيئا عظيما لا تتحمله الجبال فتجلى الله للجبل فصار دكا — أى غاص فى الأرض أو تفتت وخر موسى مغشيا عليه كما يخر من أخذته الصاعقة وذلك لما هاله من صوت ما عرا الجبل حين صار دكا . (فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) بعظمتك وجلالك .

= العبد الصالح أعلم من موسى فى هذا النوع كما أن موسى أعلم منه فى النوع الأول . ولذلك رجح المحققون أن ذلك العبد الصالح وهو الخضر كان نبيا حتى لا يلزم أفضلية الولى على النبى فى علم الحقيقة . اما الأنبياء فلا مانع من تفاوتهم فى هذا النوع ، بل لا مانع من ان يوجد فى المفضول ميزة فى هذا العلم لا توجد فى الفاضل .

وان أردت زيادة تحقيق فى هذا المقام فعليك بالألوسى فى تفسير هذه الآية والله أعلم .

رد المؤلف على نقد اللجنة

الموضوع العاشر

(طلب موسى رؤية البارى تعالى)

كتب أصحاب الفضيلة ما سطر قبل هذا وقد جاء فيه « لا نعجب من أنه اختار أنه لا مانع من أن موسى عليه السلام لم يكن يعلم استحالة رؤية البارى تعالى ؛ لأن المعتزلة سبقوه بهذا الرأى الخ .) كأنهم بهذا القول ينالون منى ويبغضوننى الى الناس والى نفسى !

وانى أقول لحضراتهم أنى لو كنت أرى رأى المعتزلة لبادرت باظهاره دون أن أخشى لومة لائم كما فعل جار الله الزمخشرى . واذا كنت لا أخشى الله الذى برأنى وسوانى « فى نظر اللجنة » فكيف أخشى عبيده وهم لا يملكون لى موتا ولا حياة ولا نشورا ؟

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل من المؤمن ايمانه دون أن يسأله عن أن الله تمكن رؤيته أو لا تمكن ؟ وما أثار هذا الخلاف سوى سلف القدرية ، وهذا ما آخذه عليهم وأنقمه من عملهم فعليهم ما حملوا وعلى غيرهم ما حمل . ومع ذلك فلا ينقص هذا من حفظ أقدارهم التى لهم فى نفسى فانى ألبس كل طائفة على عيبها ولا أنغمس فيما شذت به :

ضمنت وفائى للعشائر كلها   وأمسكت لما عظموا الغار أو خما

ورحم الله من قال فى وجوب التوسط :

لا تكن مجبرا ولا قدريا   واجتهد فى توسط بين بينا
وقال : وان سألوا عن مذهبى قلت خشية   من الله لا طوقا أبت ولا جبرا

وليس على من حرج اذا وجدت كلاما حسنا أن استحسنه — كائنا ذلك القائل من كان — والمؤمن يلتقط الحكمة حيث وجدها . ومن رأيى عن الكلام فى رؤية الله تعالى وامكانها أنه بحث سابق لأوانه . وأنه تسلق على الغيب وتسور على ما لا يمكن القطع به فى دار الدنيا . وأن الأسلم الامساك عنه وتفويض علم ذلك الى الله تعالى . وسنقدم على الله يوم القيامة فنعلم .

ومن جهة أخرى أعتقد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع اعداد الله لهم وافاضته العلم عليهم ينقصهم كثير من المعلومات يساعفهم بها الآن بعد الآن .

أنظروا الى موسى عليه الصلاة والسلام لما شرفه الله تعالى برسالته وبكلامه وقد حكى الله شانه فقال فى سورة الشعراء (واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون) فأراد موسى أن يفر من هذه الرسالة وقال لربه (انى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فارسل الى هرون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) فأجاب الله بقوله (كلا) الخ ولما أمره بالقاء العصا فصارت تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب فقال الله له (لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون) أليس توليه مدبرا . كان سببه أنه لا يعلم أن المرسلين لا يخافون لدى ربه ؟

وانى وأيم الله لا أدرى كيف يفيض الله تعالى على موسى العلم بأحوال ذاته وصفاته كلها وبأن رؤيته تعالى ممكنة ثم يضن على عبده موسى بالعلم بأنه لا يستطيع رؤيته تعالى فى هذه الدار وأن الجبل اذا تجلى له الله تعالى لا يستقر مكانه ، بل يجعله دكا وان موسى لا يطيق ذلك حتى طلبه =

ويقول بعض المفسرين . ان موسى مات ثم أحياه الله تعالى ، وهو قول لا يساعد عليه الكتاب ، لأن الافاقة انما تكون عن غشية ، ومن حيي بعد موته لا يقال له أفاق وانما يقال بعث . وتاب موسى من أن يطلب مثل ذلك الطلب وآمن انه طلب ما لا يقوى على احتماله : وبأن

= ورفض طلبه أما كان في علمه بأحوال ذات الله وصفاته ما ينهاه عن طلب يكون سببا في صعقه ثم توبته منه ؟

ان موسى صلى الله عليه وسلم لا يرى كبيرا على نفسه أن يتعلم من الله أي أمر من الأمور ، ولا يرى نقيصة عليه وزراية على قدره ومنصبه أن يكون متعلما من الله تعالى في أي وقت من أوقات حياته . فلا حق لهم في أن يقولوا « ان مثل هذا التعبير لا يناسب في حق موسى » فاني أقول لحضراتهم لا تدخلوا بيني وبين رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام . وليس بيد حضراتهم توكيل عن موسى بمقاضاتي على شيء كان مني في حقه ، وأحسبه لو كان شاهد أمرنا اليوم لكان أكثر رضا عني !

أطال حضرات الأفاضل في الكلام على قولي « ويعجبني قول الألوسي ... الخ » وقالوا انى لم أطلع على أول الكلام وآخره . وأني أسلم لهم بذلك تسليما تاما ولا أنازعهم ، وأن هذا هو الصواب ، ولكن ما قولهم — دام فضلهم — في انني بعد أن اطلعت على تقريرهم وعلمي بأن الألوسي انما كان يبسط وجهة نظر المعتزلة ويرد على ذلك الوجه الذي ذكروه ، قد ازددت به يقينا ووثقت بأنه ليس دليلا قاطعا . وأن الاحتمال الذي أوردوه لم يدفع باجابة الألوسي ولا غيره . ولا حبا مني في مذهب المعتزلة ولكن لانه مطابق لرأيي وتفكيري ، مع العلم بأني أفوض علم الامكان الخاص برؤية الباري الى علم الله تعالى وأن الكلام في ذلك سابق لأوانه .

ولم أزل أقول أن أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام يفتقرون الى الله في علم مالا يعلمون وقد أمر الله رسوله الكريم بقوله (وقل رب زدني علما) .

وفي جواب الله تعالى لنوح في ابنه اذ يقول (قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين) وغير ذلك مما يشهد لي .

ودعوى أنه علمهم في الحال وعند افاضة النبوة كل ما يتعلق بذاته وصفاته وما يستحيل وما يجوز ، حتى لايبقى عليهم أن يسألوه المزيد في ذلك — كما هو مقتضى كلام أعضاء اللجنة ومايؤخذ من فحوى عباراتهم فأمر ينقصه الدليل القاطع ، وانما حداهم على ذلك أمر حسن وهو حبهم أن يكون الأنبياء في ذروة الكمال المطلق التي لا يقرب ساحتها أي عارض انساني أو نقص بشري . ولكن محبتهم لذلك لا تحول بين الواقع المشاهد المنصوص في الكتاب الكريم من أن الله تعالى كان يتخولهم بالتعليم ويكملهم بمايلقيه اليهم من المعارف . وأني أفهم أن رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم كان يوم وفاته حاصلا على قسط مما علمه الله اياه — في الله وذاته وصفاته وحكمه البالغة — لم يكن حاصلا على مثله يوم جاءه الملك بالوحي في حراء ولا بعدها في ثلاث سنين . ولو كان الله تعالى قد أفرغ عليه العلم بأحوال الله وبشأنه قبل ما عاد الى خديجة وهو في حال رعب وقال لها « لقد خشيت على نفسي » — كما في حديث عائشة في البخاري في بدء الوحي — لما كانت خديجة في احتياج الى أن تسأل ورقة بن نوفل عما رآه صلى الله عليه وسلم في حراء ... الى آخر الحديث .

ولو كان الأمر كما يقولون وأن الرسول من حين النبوة يعلم جميع شؤون الله ؛ لقرت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أوحي اليه في حراء ، ولم يكن منه أن يعمد الى التردى ، ولا يرده الا تبدى جبريل له ومناداته بقوله « يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل » .

جاء في البخاري ولفظه هكذا « وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال يا محمد انك رسول الله حقا فيسكن جاشه فيرجع . فاذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك . فاذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك » .

(بما تقدم) علم أن ما أوردته ليس فيه خطأ أو زلل وليس فيه نصرة لمذهب المعتزلة ، ولكنه رأيي الذي أتحمل تبعته أمام الله تعالى ، وهو أمر سائغ ولا برهان للجنة على بطلانه . ولو كان باطلا حقا كما يدعون لكان المعتزلة الذين استدلوا به على مذهبهم كفارا وهو ما لم يقله أحد من المسلمين .

عظمة الله بالغة الحد الذى لا يطاق . وقد اختلف أهل التفسير فى هل رأى موسى ربه قبل الصعق أو بعده أو لم يره ؟

وأنا أريح نفسى من هذا الاختلاف ملتجئا الى كتاب الله اذ يقول (لن ترانى) . وأقول ان الرؤية لم تحصل قبل الصعق ولا بعده .

بعد أن أفاق موسى من غشيته خاطبه الله تعالى بأنه اصطفاه على الناس برسالاته « وهى أسفار التوراة » وبكلامه تعالى بأن يوحى اليه بلا واسطة ملك . بل يسمعه ما يريد أن يبلغه اليه أمره أن يأخذ ما أعطاه من شرف الاصطفاء والكلام شاكرا الله تعالى على ما أعطى .

وكتب الله تعالى ما يحتاج اليه بنو اسرائيل من بيان الحلال والحرام والمحاسن والقبائح — فى ألواح اختلف المفسرون فى عددها بين عشرة واثنين ، كما اختلفوا فى حقيقتها بين خشب وحجر وزبرجد وياقوت . وكل هذا لا يعنينا — وكان المكتوب فيها مواعظ وأحكام وتفصيل لكل شىء يهم بنى اسرائيل . وأمره الله تعالى أن يأمر بنى اسرائيل أن يأخذوا بأحسنها . أى يسيروا على أحسن وأفضل ما رسم فيها ، بأن يفعلوا ما هو أدعى الى الزلفى من الله تعالى . فاذا نص فيها على خصلتين تقربان الى الله تعالى واحداهما تستدعى ثوابا أعظم ؛ فعليهم أن يأخذوا بالأفضل — وان كان فى كل فضل — ثم وعده الله بأن يريهم دار الفاسقين .

وقد اختلف المفسرون فى دار الفاسقين ما هى ؟ فقال فريق : انها مصر عاد اليها بنو اسرائيل بعد هلاك فرعون وجنده . وهذا القول عندى ليس بشىء .

وقال الكلبى « منازل عاد وثمود » وهو كلام حاطب ليل . لأن « ديار ثمود » وان كانت قريبة من بنى اسرائيل الموجودين فى شبه جزيرة سينا ورؤيتها ممكنة لهم ؛ ولكن « ديار عاد » فى جنوب بلاد العرب . ولا يعقل أن بنى اسرائيل يجتازون الفيافى والقفار ليروا منازل عاد وقد طمست آثارها . ولم ينقل ناقل انهم ذهبوا الى بلاد الأحقاف أصلا . والأقرب ما قاله قتادة من أن المراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة بالشام . ولا أريد بهذه الرؤية ما ذهب اليه بعض المفسرين من أنهم دخلوا بلاد الجبارين وهى الأرض التى كتب الله لهم لأن الله تعالى حرمها على الكبار من بنى اسرائيل . وموسى لم يدخلها وانما رآها فقط. وانما دخلها بنو اسرائيل مع يوشع بن نون فتى موسى — كما سيمر بنا ولعل المعنى سأرى بعضكم وهم الرواد الذين دخلوا البلاد ، ثم عادوا الى بنى اسرائيل بخبر أولئك الجبارين فهال بنى اسرائيل أمرهم وعصوا عن مقاتلتهم والأقرب أن يكون المراد بالبعض يوشع بن نون وكالب بن يفنه .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة الأعراف : وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ [١٤٢] وَلَمَّا جَاءَ

مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ
فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ
سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ [١٤٣] قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي
وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ [١٤٤] وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ
الْفَاسِقِينَ [١٤٥] سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ
لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ [١٤٦] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٤٧]

اتخاذ بنى إسرائيل العجل إلهاً يعبدونه

غضب موسى على هارون — أمر الله بنى اسرائيل أن يقتلوا أنفسهم ليتوب عليهم — احراق موسى العجل ونسفه فى اليم — مجازاة السامرى الذى أضلهم بالعجل — الى أى شىء ينسب السامرى ؟

قلنا فيما مضى أن بنى اسرائيل لم تكن أنفس أكثرهم مرتاضة بالايمان . وانهم كانوا ذوى جهالة لم يحصلوا على الثقافة الكافية لصون عقائدهم من الزيغ . والقوم عاشوا فى مصر وألفوا أن يروا عبادة المصريين للعجل أبيس . وكان للمصريين عناية فائقة بعبادة هذا العجل . وكانت العجول المؤلهة اذا ماتت حنطوها — كما يحنط الآدمى بما يحفظ جسمها من التلف ودفنوها فى مقبرة خاصة فى جهة سقارة . تسمى « سرابيوم » .

كانت بساطتهم والفهم للوثنية مسهلة لرجل ماكر كان فيهم سماه القرآن « السامرى » فجاءهم بعجل له خوار . وقال لهم : هذا الهكم واله موسى نسيه موسى هنا وذهب لملاقاته فى الغيبة الطويلة .

وذلك أن موسى أخبرهم — قبل ذهابه لميقات ربه أن غيبته عنهم لا تطول أكثر من ثلاثين يوما مع مسافة الطريق الى جبل حوريب ، وهو جبل الطور . فلما أمر الله موسى أن يستأنف صوم عشرة أيام طالت غيبته عن قومه ، واستبطأ القوم موسى .

فانتهز رجل يقال له السامرى غيبة موسى وأخذ من بنى اسرائيل بعض حليهم التى كان

نساؤهم أخذنها من المصريات قبل رحيل بنى اسرائيل وألقاها فى النار وسبك منها عجلا . وجعله بحيث انه كان له خوار ؛ أى صوت الثور وقال لهم : هذا الهكم واله موسى .

وليس غريبا أن يكون رجل له علم بالهندسة والحيل يجعل تمثال الثور يخور كما يخور الثور وقد رأيت عند صديق لى تمثال بقرة من الجبس ، عند سرته سلك من الخيط ؛ اذا جذب الى أسفل ثم أرسل الخيط دارت آلة فى داخله ولفته على جسمها ، وحينئذ يحدث ما يشبه خوار العجل الصغير وبعض الناس يأخذ عظم رأس الحمار — بعد أن يبلى عنه اللحم — ثم يضع ضفدعا داخل تجويف الرأس ، ثم يقربها من الحرارة أو من دخان نار ، فتنق الضفدع ويخرج نقيقها من الرأس مكبرا ، حتى ليخيل للسامعين أن الصوت صوت حمار .

سعى اليهم هارون وأراد ردهم عن عبادة هذا العجل . وأفهم القوم انهم فتنوا به وجهد أن يردهم فلم يفلح ولم يصغوا اليه . وقالوا له (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى).

فلما قضى موسى أجل الصوم وكلم ربه وأعطاه الألواح سأله الله تعالى وهو أعلم ؛ عما أعجله عن قومه . فقال انهم آتون على أثرى وعجلت اليك ربى طلبا لرضاك . وحينئذ أخبره الله تعالى بأنهم فتنوا عن دينهم وان السامرى أضلهم ، فرجع موسى الى قومه غضبان حزينا حردا على أخيه اذ لم يردهم عن فتنتهم وظن به التقصير فى النصح . فلما لقيه أخذ بلحية هارون ورأسه يجره اليه وكان موسى رجلا أيدا فيه حدة لا يقوم لغضبه أحد . فاعتذر هارون بأنه عمل جهده ، ولو قام بقتال من ارتد لكان ذلك سببا لفرقة خشى هارون أن تكون سببا لغضب موسى لأنه لم يرتقب رأى موسى فى هذه الفتنة . ولام موسى بنى اسرائيل أشد اللوم وألقى الألواح التى كتبها الله له . ويقال انها كسرت .

بعد ذلك ذهب موسى الى السامرى وسأله عن شأنه والأسباب التى حدت به الى هذا العمل المنكر ؟ فقال (بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى) فقال له موسى : اذهب فان الله عاقبك بأن تقول فى حياتك « لا مساس » وأن لك موعدا لن تخلفه ، وأخبره ان هذا الاله الذى ظل عاكفا عليه سيحرقه موسى وينسفه فى ماء البحر . وقال لبنى اسرائيل (انما الهكم الله الذى لا اله الا هو) .

ثم أن الله تعالى أوحى الى موسى أن توبة بنى اسرائيل : أن يقتلوا أنفسهم بأن يقتل كل انسان من يقابله من قريب أو أخ أو نحو ذلك . ثم عفا الله عنهم بعد أن قتلوا من أنفسهم عددا عظيما . وكان اعتذار بنى اسرائيل انهم حملوا من زينة المصريين شيئا كثيرا فقذفوه هم والسامرى وكان عن ذلك العجل .

ما حقيقة العجل الذى عبده بنو إسرائيل — ومن هو السامرى

ويقول المفسرون والتوراة : انه كان عجلا من ذهب صاغه لهم صائغه من حلى المصريات — كما قدمنا — ويقول المفسرون : ان السامرى اسمه موسى وكان مولودا من سفاح ، وأن الله أمر جبريل أن يربيه ويقوم بمصالحه ، فكان جبريل يأتيه على فرس . وكان يلاحظ — بعد أن كبر أن فرس جبريل لا يضع حافره على شىء الا صار حيا فأخذ من تراب أثر الحافر بعضا ، فلما صاغ العجل من الذهب ألقى ذلك التراب فى فم العجل فصار له خوار .

ويقول البيضاوى : ان الذهب صار عجلا جسدا ذا لحم ودم له خوار — صوت البقر — وقال بعضهم : انه كان صائغا وقد دبره بطريقة خاصة تجعل للريح اذا مرت من دبره وخرجت من فمه صوت البقر .

والذى أراه أن حكاية السامرى وجبريل ليست صحيحة ، فلا جبريل جاء الى السامرى ولا السامرى أخذ ترابا من أثر حافر فرسه . وأن القول بأنه صاغه بحيث اذا استدبر الريح خرجت الريح من فمه ولها صوت البقــر — وهو الخوار — أقرب من ذلك بل لا غرابة فى هذا أصلا .

ولو قال القائل : ان الرجل خدع بنى اسرائيل وأخذ منهم الحلى ، وبصر بعجل على هيئة العجول التى تعبد فى مصر — ولم يبصروا به فاشتراه وجاءهم به وقال لهم ما قال ، وانهم قبلوا ذلك منه واعتقدوا أن ذلك العجل الههم واله موسى ، وعكفوا على عبادته مع انه عجل جسد لحم ودم له خوار لا يفترق من أبناء جلدته من البقر فى شىء ! ومع ذلك كله فانهم لبلادة أذهانهم وسخافة عقولهم قد جعلوه الها وعبدوه ، وظلوا عاكفين على عبادته مع نهى هارون لهم وقوله (انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى) فلم يلتفتوا اليه لما أشربوه فى قلوبهم من حب العجل لما هم عليه من الكفر لم يكن بعيدا من الصواب ولم يكن مخــلا بنظم القــرآن هذا هو الذى أميل اليه . ويكون السامرى قد خدعهم بأخذ الحلى والقائه فى النار ليوهمهم أن حليهم صار عجلا . وأخذ المال لنفسه . فشأنه شأن الدجالين الذين يخدعون النــاس بايهامهم الكنوز المطلسمة وافتتاحها لهم ثم يجردونهم من كل شىء . فيأتون اليهم بالفقر حيث يرجــون الثروة والغنى (١) — وهنا يعرض سؤال لاكه بعض المسيحيين فى الجرائد وهو :

---

(١) نقد اللجنة « الموضوع السادس » .

(حقيقة العجل الذى عبده بنــو اسرائيل)

قال فى صفحة ٢١٥ سطر ١٤ ما نصه :

ولو قال القائل : ان الرجل خدع بنى اسرائيل وأخذ منهم الحلى وبصر بعجل على هيئة العجول التى تعبد فى مصر — لم يبصروا به — فاشتراه وجاءهم به وقال لهم ما قال . وانهم قبلوا ذلك منه واعتقدوا أن ذلك العجل الههم واله موسى ، وعكفوا على عبادته مع أنه عجل جسد لحم ودم له خوار لا يفترق عن أبناء جلدته من البقر فى شىء ومع ذلك كله فانهم لبلادة أذهانهم وسخافة عقولهم قد =

كيف يكون السامرى هو الذى أضل بنى اسرائيل بالعجل مع أن السامرى نسـية الى سامرة — والسامرة بلد من فلسطين لم توجد فى زمن موسى ! وانما اشتراها « عمرى » وهو

= جعلوه الها وعبدوه ! وظلوا عاكفين على عبادته مع نهى هارون لهم (وقوله انما فتنتم به وأن ربكم الرحمن فأتبعونى وأطيعوا أمرى) فلم يلتفتوا اليه لما أشربوه فى قلوبهم من حب العجل لما هم عليه من الكفر لم يكن بعيدا من الصـواب ولم يكن مخـلا بنظم القرآن . هـذا هو الذى أميل اليـه ويكون السامرى قد خدعهم بأخذ الحلى والقائه فى النار ليوهمهم أن حليهم صار عجلا وأخذ المال لنفسه ! فشأنه شأن الدجالين الذين يخدعون الناس بايهامهم بالكنوز المطلسمة وافتتاحها لهم ، ثم يجردونهم من كل شىء فيأتون اليهم بالفقر من حيث يرجون الثروة والغنى ! ا هـ بحروفه .

(رأى اللجنة)

والذى نراه أن هذا القول مخالف لما عليـه جميع المفسرين — فيما نعلم — وبعيد عن الصواب ومخل بنظم القرآن . وذلك أن هذا المعنى يتلخص فى ان السامرى خدع بنى اسرائيل وأخذ منهم الحلى وأوهمهم أنه صاغ منها عجلا جسدا له خوار ، مع أنه فى الواقـع جاء لهم بعجـل حقيقى من نوع البقر !

فالسامرى هو الخادع والموهم — بكسر الهاء — وباقى قوم موسى مخـدوع وموهـم — بفتحها —

ونحن لا ندرى كيف يفهم هذا المعنى من قوله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار . ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) .

على مقتضى أصول اللغة العربية هل يقدر فى نظم الآية خـدع وأوهم — بالبناء للفاعل — قوم موسى انهم اتخذوا من الحلى عجلا . أو يقدر خدع وأوهم — بالبناء للمفعول — أو يراد أحد المعنيين بطريق التجوز ؟ ومن المعـلوم أن افادة التركيب لهذا المعنى انما يعقل بواحد من هذه الاحتمالات .

وحينئذ يقال له (أولا) أن مثل هذا التقرير أو التجوز لادليل عليه أصلا ولاقرينة تصاحب نظم الآية لا حالية ولا مقالية ، بل يعتبر الكلام بالنسبة لهذا المعنى من المعميات الشبيهة بالألغاز . والدليل الواضح على صحة ما قلناه أن هذا المعنى لم يخطر على بال أحد من أرباب التأويل — سواء كانت عربيتهم باكتساب أو كانت سليقة — ولا يوجد نظيره فى كلام المبتدئين ؛ فضلا عن كلام رب العالمين .

(وثانيا) ان جريت على الاحتمال الأول فى التقرير أو التجوز فأين الموهم — بفتح الهاء — أو المخدوع ؟ فان قوم موسى يشمل السامرى وباقى القوم . وان جريت على الاحتمال الثانى فأين الموهم — بكسر الهاء — والخادع ؟ فان قال : انما اسند الايهام سواء كان على جهة الفاعلية أو المفعولية للجميع مع أنه واقع من البعض وعليه على قياس اسـناد الاتخاذ الى الجميع على المعنى المشـهور للآية ، مع أن المتخذ واحد منهم وهو السامرى ؟ قلنا : انما جاز نسبة الاتخاذ الى الكل على المعنى المشهور ، لأن الباقى وافق على عبادته . فهل يمكن أن يقـال ذلك فى الايهـام فيسند الى الموهم والموهم والخادع والمخدوع معا سواء كان مبنيا للفاعل أو للمفعول ؟ وهل لذلك نظير فى اللغة العربية ؟ فان قال : نختار الاحتمال الثانى وهو البناء للمفعول ويراد بقوم موسى ماعدا السامرى . أو الاحتمال الأول وهو البناء للفاعل ويراد بقوم موسى خصوص السامرى ؟ قلنا : هذه ارادة بمجرد التشهى وثانيا يصير المعنى على الاحتمال الثانى هكذا : خدع قوم موسى أى ما عدا السامرى انهم اتخذوا من الحلى ؛ أى أن السامرى اتخذ لهم من الحلى عجلا ، وهو كما ترى واضح البطلان . وأما الاحتمال الأول فينافيه آخر الآية (ألم يروا أنه لا يكلمهم) الخ .

(ويقال له ثالثا) من أين جاء السامرى بالعجل الذى يعبد نظيره فى مصر ؛ ومن أى سوق اشتراه مع أنهم جاوزوا البحر ؟ فهل استصحبه السامرى من مصر وعدى البحر معـه أو كان على شاطىء البحر طائفة من القبط يسكنون هناك ؟ أو وجده عند القوم الذين أتوا عليهم يعكفون على أصنام لهم ؟

(ويقال له رابعا) يظهر من قولك « وبصر بعجل » الخ انه فسر قوله تعالى (فبصرت بما لم يبصروا به) أى فبصرت بعجل لم يبصر به باقى بنى اسرائيل ، وحينئذ يقال له كيف يترتب على =

الرابع من ملوك اسرائيل بعد أن انشقت مملكة اليهود الى قسمين : قسم هو سبط يهوذا ومقره أورشليم وملوكه من ذرية داود وسليمان . وكان أول ملوك اسرائيل «يربعام بن ناباط» ورابعهم

= هذا المعنى قوله تعالى (فقبضت قبضة من أثرالرسول) حتى على تأويله المذكور فى صفحة ٢١٧ التابع فيه لأبى مسلم الأصفهانى وهو أن المرادفقبضت قبضـــة من أثر الرســول الخ ولا ينفعه تأويل أبى مسلم البعيد من منطوق الآية كما يعلم بمراجعته .

(ويقال له خامسا) ان كان الواقع كما تقول أفلا يكون الأجدر اظهار هذه الحالة والنعى على السامرى بأنه اتخذ فى سبيل الاخلال طرقا غيرشريفة من النصب والاحتيال وسـلب الأموال ؟ والنعى على باقى القوم بالغفلة الشديدة من جهةأنه نصب عليهم وأخذ الحلى منهم ؟ ومن جهة أنه لا يوجد لهم أقل شبهة فى عبادة هـــذا العجل الحقيقى المعروف أمره لهم ؟

رد المؤلف على نقـد اللجنـة

(الموضوع السادس)

« مسألة اتخاذ بنى اسرائيل العجـــل »

ذكرت فى كتابى ما نقلته اللجنة من صفحة ٢١٥ ســـطر ١٤ بعد أن ذكرت فى صفحة ١٣ ما ذكره المفسرون من أنه صاغ لهم عجلا من ذهب ودبره ، بحيث اذا استدبرته الريح صار له خوار وعددت ذلك أمرا ليس بالغريب .

وفى صفحة ٢١٥ طرقت الاحتمال المنصوص بها ، وأشهد أن أحدا من المفسرين لم يخطر فى باله هذا واتشرف بأنه لى وحدى .

والذى يؤلمنى أن حضرات أعضاء اللجنة قد حاروا فى فهم قوله تعـالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) حيرة لم يقع فيها أحـد ولم يبتل بهـا من دخل قصر « لبيرانت » ويقولون « فالسامرى هو الخادع والموهم — بكسر الهاء — وباقى قوم موسى مخدوع وموهم — بفتحها — وأنهم لا يدرون كيف يفهم هذا المعنى فى قوله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) الخ ؟

ولو رجعوا الى لأنقذتهم من حيرتهم وقلت لهم : ان من معانى « من » — بكسر الميم — فى اللغة العربية « البدل » وقد مثل ابن هشام فى المغنى ١٣ ج ٢ لذلك بقوله تعالى (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة — لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون) لأن الملائكة لا تكون من الانس (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) أى بدل طاعة الله أو بدل رحمـة الله « ولا ينفع ذا الجد منك الجد » أى لا تنفع ذا الحظ من الدنيا حظه منك ؛ أى بدل طاعتك أو بدل حظك أى بدل حظه منك. ومثلها أيضا بقول الشاعر : « ولم تذق من البقول الفستقا » أى بدل البقول ا هـ

وعلى ذلك يتمشى قول الله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) أى اتخذوا بدل حليهم عجلا جسدا له خوار ، بأن بذلوا الحلى وأخذوا العجل جسدا له خوار . وكما تقول اتخذت من جواهرى دارا ؛ أى بدلها .

وأما التيه الذى اختطوه « بخدع وخادع ومخدوع ، وموهم ، وموهم ، والتساؤل عن البناء للفاعل والبناء للمفعول ، واستجداء التجوز ، والبحث بالميكرسكوب عن القرينة الحالية والمقالية، فأمور لا لزوم لها .

بذلك يعلم حضراتهم أنهم أتعبوا أنفسهم بدون موجب لهذا التعب، وأطالوا الكلام فى غير طائل، وأن الترديد فى هذه الاحتمالات التى قدروها لى لم تخطر لى ببال ولم يكونوا فى احتياج اليها !

أما قول حضراتهم « بل يعتبر الكلام بالنسبة لهذا المعنى من المعميات الشبيهة بالألغاز » فانه شنشنة أعرفها من أخزم . وكل امرىء يجرى على أعراقه .

فهنيئا لحضراتهم من عرضى ما يستحلون ومن عراى ما يحلون !

وظريف جدا قولهم « ويقال له ثالثا من أين جاء السامرى بالعجل » ؟ فان هـذا منهم يشعر أنهم يفهمون أن هذا العجل له سلالة مقدسة لا توجـد الا فى مصر . ولو انهم سألوا علمـاء الآثار والخبراء بتاريخ المصريين وعبادتهم لعلموا أن عجل المصريين ليس له سلالة خاصة يختار منها ! وانما =

« عمرى » اشترى جبل السامرة وبنى تلك المدينة وجعلها مقر مملكة اسرائيل . وذلك بعد موسى بنحو ثلاث وعشرين وخمسمائة سنة ؟

= يختار على الشيات التى توجد فى جلده . ومثل هـذا يوجـد فى بعض الأحيـاء فى عجاجيل بنى اسرائيل والعرب — الضاربين فى شبه جزيرة سينا — والعماليق الذين فى تلك الأصقاع .

واذا أصروا على معرفة القوم البائعين له ، والمكان الذى وجـد فيه ذلك العجل ؛ فليصبروا وموعدنا عرصات القيامة ان شاء الله الى أن يلاقوا السامرى ، فانه هو الذى يعلم أين وجده وممن أخذه ؟ ولعمرى ما الذى يفيد حضراتهم من معرفة المكان الذى وجد فيه ؟!

(قالوا) ويقال له رابعا : يظهر من قولك «وبصر بعجل» الخ أنه فسر قوله تعالى (فبصرت بما لم يبصروا به) أى فبصرت بعجل لم يبصر به باقى بنى اسرائيل . وحينئذ يقـال له : كيف يترتب على هذا المعنى قوله تعـالى (فقبضت قبضة من أثر الرسول) حتى على تأويله المذكور فى صفحة ٢١٧ التابع فيه لأبى مسلم الأصفهانى ؛ وهـو أن المراد فقبضت قبضـة من أثر موسى الرسول . . . الى آخره — ولاينفعه تأويل أبى مسلم البعيد من منطوق الآية كما يعلم بمراجعته اهـ .

والجواب على ذلك سهل جدا وهو أن السامرى بصر بعجل لم يبصر به بنو اسرائيل ؛ فسولت له نفسه أن يطرح ما علمه من موسى ؛ من أن الاله واحد هو الله وأنه لا يعبد سواه وأنه ليس كمثله شىء . فنبذ تلك القبضة من التعاليم وهى أثر من آثار موسى ، ورأى الفرصة سانحة للعب بعقول بنى اسرائيل ، وأخذ الحلى الذى كان عندهم ، فدعاهم الى أن يأتوه به فجاءوا به ، وأوهمهم أنه سيأتيهم باله موسى . وكذلك سولت له نفسه وهو كلام سائغ مشهور لا غبار عليه .

(وأما ما قالوه) خامسا : فقد كفانا الله مؤنة الرد عليه بقوله عز شأنه (أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم انمـا فتنتم به وأن ربكم الرحمـن فاتبعونى وأطيعوا أمرى) وكفى بذلك تجهيلا وتوبيخا لهم .

(وأما قولهم) والنعى على السامرى . . الخ فأقول : ان الذنب الذى أتاه السامرى أكبر من النعى وأربى من التوبيخ ! بل اللائق فى مثل أمره احلال العقاب اذ لا يعاتب الا الأديم ذو البشرة . وقد عاقبه الله بتعذيبه فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأخزى .

بقى أن أصحاب الفضيلة — حفظهم الله — قالوا فى صدر ابداء رأيهم « والذى نراه أن هـذا القول مخالف لما عليه جميع المفسرين فيما نعلم ، وبعيد عن الصواب ومخل بنظم القرآن » ولكنهم بعد رحلتهم الطويلة لم يقولوا لنا ما رأوه صوابا من وجوه تفسير هذه الحادثة ؛ وهذا لا يليق .

وانى أقر وأعترف اقرارا واعترافا لاثنيا فيهما أن هذا الرأى لى ولم أقف عليه لأحد غيرى . فهل فى ذلك ذنب على ؟ أو أنى ارتكبت بذلك اثما ؟

وما أشبه قول حضراتهم هنا بما كان يقوله أعضاء محكمة التفتيش البابوية لمن فهم فى الانجيل معنى من المعانى : ان هذا المعنى لم تأمر به الكنيسة ولم تفهمه ! فهل يريد التاريخ أن يعيد نفسه ؟ يا قوم ان الحجر على العقول أن تعقل ، وعلى الافهام أن تفهم ، وعلى المدارك أن تدرك ؛ ليس من أحـكام الاسـلام الذى خاطب العقول ورفع قدرها وأمر النـاس بالرجوع اليها فيما هـو من اختصاصها .

أما ما قاله المفسرون فمختلف ؛ فقائل أنه صاغ العجل من الحلى ووضع فيه ترابا من أثر حافر فرس جبريل . وقائل أنه صاغه ودبره بطريقة تجعل له خوارا اذا استدبرته الريح . وقائل أنه بعد أن صاغه من الحلى استحال جسدا لحما ودما . فأى هذه الأقوال يرضى حضراتهم ؟

فاذا قالوا : ان هذه الأقوال كلها ترضيهم لأن المفسرين قالوا بها ؟ قلت لهم : محال أن تكون كلهـا صحيحة بل كل منها محتمل لأن يكون صحيحا .

(بما تقدم كله) يتبين القارىء أن المحمل الذى أوردته سائغ ، وكلام الله تعالى يحتمله ، وأنه لا بعد فيه . وهو ما غزوته من ايراده ، وأنا لا أنكر أن أقوال المفسرين التى أوردتها كل منهـا محتمل أيضا . والوجه الذى أوردته أكثر مناسبة لقوله تعالى حـكاية عن موسى (وأنظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا) اذ الذهب لا يحترق ولا ينسف .

والجواب على ذلك أن السامرى ليس منسوبا الى « سامرة » بل الى « شامر » بالشين فى اللغـة العبرية .

ويغلب أن تكون « الشين » فى العبرية « سينا » فى العربية فهو سامر — كما ينطقها أيضا سبط افرايم بن يوسف وقد كان رجال سبط يهوذا فى بعض الحروب يمتحنون الرجل ليعرف هل هو من سبط يهوذا أو افرايمى ؟ بأن يأمروه بأن ينطق «شبولت» — سنبلة — فاذا قال«سبولت» علم انه افرايمى ومعنى شامر أو سامر كما هو النطق العربى والافرايمى « حارس » فالسامرى نسبة الى سامر ونطقها فى العبرية « شومير » من مادة : شمر ؛ أى حرس .

راجعوا الآية ٩ من الاصحاح الرابع من سفر التكوين ونصها : فقال الرب لقابيل أين هابيل أخوك فقال لا أعلم (هـ شومير أحى انواخى ؟) وترجمتها « أحارس أنا لأخى ؟ » .

وقد كان مصير العجل الذى عبده بنو اسرائيل ان احرق وذرى فى الماء .

أما قول السامرى (فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها) فمعناها على ما اخترت : انه قبض قبضة من أثر الرسول ؛ أى تعليمه واحكام التوحيد التى جـاء بها الرسـول — وهو موسى — فنبذتها ؛ أى ألقيتها وأهملتها وكذلك سولت لى نفسى .

كان عقاب السامرى فى الدنيا عقابا بدنيا ، وهو ان يتألم من مس أى انسان له ؛ فكان اذا لقى انسانا وخشى أن يمسه يقول له « لا مساس » وأما فى الآخرة فان الله حسيبه بما صنع .

وأما الذين اتخذوا العجل من بنى اسرائيل فكان جزاؤهم أن الله لا يقبل توبتهم حتى يقتل بعضهم بعضا وستأتى كيفية ذلك فيما نقصه من التوراة .

ويقول أهل الكتاب : ان الذى صنع العجل لبنى اسرائيل هو هارون أخو موسى : حاشاه أن يكفر بعد الايمان وهو نبى معصوم عن ذلك . ولكن هذا دأبهم مع أنبياء الله ينسبون اليهم النقائص وما ينزه نفسه عنه أحط الناس قدرا ويلصقون ذلك بهم .

اقرءوا هذه الآيات : —

سورة البقرة : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [٥٤]

ومنها أيضاً : وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ [٩٢] وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٩٣]

سورة الأعراف : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ
لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ [١٤٨] وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ
ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [١٤٩] وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ
غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ
يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [١٥٠] قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ [١٥١] إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ [١٥٢] وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [١٥٣] وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ [١٥٤]

سورة طه : وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى [٨٣] قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ
رَبِّ لِتَرْضَى [٨٤] قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ [٨٥] فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى
قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ
يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي [٨٦] قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا
حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ [٨٧] فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ
خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ [٨٨] أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ
لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً [٨٩] وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي [٩٠] قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى [٩١] قَالَ
يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا [٩٢] أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي [٩٣] قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ
بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي [٩٤] قَالَ
فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ [٩٥] قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا
وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي [٩٦] قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً

أَن تُخْلَفَهُ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا [٩٧] إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا [٩٨] (١)

---

(١) ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى « من أول الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج » فذكرت أن بني اسرائيل جاءوا أمام الجبل « حوريب » وأن موسى صعد الى الله في الجبل فأوحي اليـــه كلاما يبلغه بني اسرائيل ، وهـــو أن الله سيتخذهم شعبا مقدسـا ومملكة له ان أطاعوا وصاياه . فقبلوا ذلك ووعـدوا أن يفعلوا كل ما يامرهم الله به . ثم أمره الله ان يقول لبني اسرائيل أن يتطهروا لأن الله سيتراءى لهم . وفي اليوم الثالث صارت رعود وبروق على الجبل . وكان موسى يتكلم والله يجيبه . ثم دعاه الله الى الجبل فأوصاه وأمره ونهاه ، ووضع لبني اسرائيل شرائع ، وشـعب بني اسرائيل ارتعد وقالوا لموسى كلمنا أنت ولا يكلمنـا الله لئلا نموت ، فوضـع له الشرائع المذكورة في الاصحاحات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ — خروج . وفي الاصحاح ٢٤ أمر الله موسى أن يصعد الجبل هـو وناداب وأبيهود وسبعون شـيخا من شيوخ اسرائيل ، وأن يسجدوا لله من بعيد ولا يقترب من الرب ســوى موسى . فصعدوا ورأوا الله (تعالى عما يقولون) وتحت رجليه شـبه حجر من العقيق الأزرق الشفاف ، وكذات السماء في النقاوة .

ثم دعا الله موسى الى أعلى الجبل وأمر القوم بالبقاء الى أن يرجـع ، ومعهم هرون ليقيم لهم القضاء . وكان موسى في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة ، فأوحى الله اليه ما أوحى من الشرائع وأعطاه الألواح فيها الشريعة مكتوبة بأصبع الله ؛ وهي ألواح من حجر منسواة . وقال الله لموسى : انزل فقد فسد الشعب وزاغوا عن الطريق ، وأراد الله أن يبطش بهم ، فتضرع اليه موسى ليصفح عنهم .

ولما اقترب موسى من المحلة ابصر العجل والرقص ، فغضـب موسى ورمى اللوحـين من يده فكسرهما في أسفل الجبل . ثم أخذ العجل فأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بني اسرائيل .

ولام موسى هرون فاعتذر بأن الشعب شرير ، وقد قالوا له : اصنع لنـا الها يسير أمامنا فان موسى لا ندري ما أصابه ، وان هارون طلب منهم الذهب فطرحوه في النار فخرج هذا العجل .

ولما رأى موسى ذلك ، طلب من كان للرب أن يأتي فأتاه « بنو لاوى » فأمرهم أن يضعوا سيوفهم على أفخاذهم ، وأن يمروا بالمحلة من باب الى باب ، ويقتل كل رجل أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه ففعلوا . وقتل في ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل . ثم صعد موسى الى الجبل وطلب من الله غفران خطيئة الشعب ؛ فاذا لم يفعل ، يمحو موسى من كتابه . فأجابه : الذى أخطأ أمحوه من كتابي . وأمره أن يذهب بالشعب الى الأرض التي وعدهم أن تكون لهم ميراثا ، وانه سيطرد من أمامه تلك الأمم الساكنة في الأرض ، وأن الله لا يكون معهم . فرجاه موسى أن يكون معهم ليتميزوا عن سائر الأمم .

وتذكر أيضا : أن الله أرى موسى مجده على الجبل وأخفاه في نقرة من الأرض لئـلا يهلك وسجد موسى لله عند اجتيازه ، وطلب اليــه أن يسير في وسطهم ، فاوحى الله اليه بأمور وشرائع ومكث عنـد الله أربعين يوما وأربعين ليـلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء . فكتب الله على لوحين الكلمات العشر « يراجع سفر الخروج من الاصحاح التاسع الى الاصحاح ٣٤ » .

ولا يخفى أنها تخالف القرآن في كثير من المضامين . ولم تذكر جواب بني اسرائيل اذ أمروا بالدخول الى الأرض التي وعدوا بامتلاكها ؟ ولأي شيء بقوا اربعين سنة ؟ مع أن هـذه الحوادث ابتدأت من الشهر الثالث لخروجهم . وسيأتي ما يدل على امتناعهم في اول سفر التثنية .

والذى يظهر من عبارة سفر الخروج : أن ذهاب الشيوخ السبعين كان قبل عبادة العجل .

وأما القرآن فانه يذكر أنه ذهب لتلقي الألواح قبل عبادتهم العجل ، وذهب مع الشيوخ السبعين بعد ذلك وهذا هو المعقول .

أمر الله بني إسرائيل

على لسان موسى بدخول الأرض المقدســة

عصيانهم موسى ـ تحريم الله الارض عليهم ـ اتاهتهم فى البرية أربعين ســـنة .

قرب بني اسرائيل من أرض الموعد وهي فلسطين : التي وعد الله ابراهيم واسحاق ويعقوب أن تكون ملكاً لأولادهم ، وأن يطردوا من أمامهم الأمم التي يسكنونها ، فى ذلك الوقت — وأمر الله تعالى موسى أن يذهب ببني اسرائيل الى تلك الأرض لامتلاكها ، ولكن بني اسرائيل قــوم قد ثقفوا بالذلة وتمكن الصغار والهوان من أنفسهم . وألفوا الذل فى أرض الفراعنة فلم تكن لهم قوة على الدخول الى تلك الأرض ، وتمثل لهم شبح الموت فى كل خطوة فى ذلك السبيل فلم يشاءوا أن يذهبوا لأمر ربهم . وقالوا يا موسى (ان فيها قوما جبارين . وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون) .

كان موسى قبل أن يطلب الى بني اسرائيل دخول تلك الأرض قد أرسل من قبــله روادا يتجسسون الأرض وحال أهلها . ويقول المفسرون : انهم كانوا اثني عشر رجلا ، فرأوا من جسامة أجسام أولئك القوم ما هالهم ! فلما عادوا أخبروا بني اسرائيل بما رأوا فضعفت قلوبهم وتراءى لهم شبح الهلاك فى القدوم على هذه البلاد ! فلما أمرهم موسى بالعبــور أبوا . وقال رجــلان من الذين جاسوا خلال البلاد لبني اسرائيل : ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه غلبتم على المدينــة (أريحاء) فأبوا وقالوا لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون) وأبوا عليه كل الاباء .

شكا موسى أمر بني اسرائيل معه الى الله قائلا (رب اني لا أملك الا نفسي وأخي فافرق — احكم — بيننا وبين القوم الفاسقين) فأخبره الله تعالى بأنها — (أى الأرض) — محرمة عليهم وأنهم سيتيهون فى الأرض أربعين سنة . فكان بقاء بني اسرائيل فى البرية — من عهــد خروجهم من مصر الى أن مات موسى ، وعبروا نهر الأردن ، وملكوا أريحاء وما معها من الأرضين غرب الأردن — أربعين سنة .

والسر فى ذلك كما أوضحه ابن خلدون : أن نفس بني اسرائيل كانت صغيرة ضئيلة لأنهم رئموا الذل والهوان فى ملك المصريين ! ومن كان كذلك لا يصلح لقتال ولا استقلال ! ولذلك ذابت قلوبهم فى صدورهم وملأ الخوف أنفسهم حين أمروا بقتال أولئك الجبارين .

والعلماء يقررون : ان حضانة العلم خمس عشرة سنة ، فاذا ابتدأت أمة تتعلم فانها تجني ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة . وأما حضانة الأخلاق فمدتها أربعون سنة ، فاذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فانها لا تجني الثمرة الا بعد أربعين سنة . لذلك أراد الله تعالى أن يبقى بني اسرائيل فى البرية أربعين سنة ، حتى يفنى الجيل الذى نشأ فى الذل والاستعباد وينشأ جيل ألف

الحرية ولم تذله العبودية . وهكذا كان حال بنى اسرائيل . فان الجيل الذى ولد فى الذل وكبر حتى مرن عليه هلك فى البرية . وجاء الجيل الذى كان صغيرا أيام عبوديتهم فى مصر ، والذى نشأ أو ولد فى البرية فى الحرية والعزة ، فلم يبال بأولئك الناس ودخل عليهم بلادهم مع يوشع بن نون فتى موسى فملكها .

وهنا لطيفة أريد التنبيه عليها : وهى أن يوقف عند قوله (أنها محرمة عليهم) ويبتدأ بقوله تعالى (أربعين سنة يتيهون فى الأرض) لأنها حرمت عليهم تحريما أبديا لا تحريما مقيدا بأربعين سنة . وذلك أن الرجال الصالحين للحرب الذين عصوا أمر موسى وقالوا (اذهب أنت وربك فقاتلا) ماتوا فى البرية أثناء السنين الأربعين ، ولم يدخل أحد منهم الى أرض الموعد . فكانت محرمة عليهم باطلاق .

اقرءوا هذه الآيات : —

سورة المائدة : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ [٢٠] يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ [٢١] قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ [٢٢] قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ . وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٢٣] قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ [٢٤] قَالَ رَبِّ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [٢٥] قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [٢٦]

هذا الموقف من مواقف موسى مع بنى اسرائيل لم يذكر فى سفر الخروج . وكل ما ذكر انما هو مواقف عنيفة بين موسى وقومه ، ووصفهم بصلابة الأعناق والتمرد وأن الله عوقهم فى البرية أربعين سنة ، ولم يشأ لموسى ولا لهرون أن يعبر أحد منهما الى تلك الأرض ، فمات هرون قبل موسى ودفن فى جبل هور من جبال سينا التى فى البرية . وأما موسى فأمره الله أن يصعد الى جبل « نبثو » وينظر أرض الموعد دون أن يدخلها . ففعل ومات على الفسجة أى الأكمة التى هى من رمل أحمر ودفن هناك وخفيت معالم قبره .

وأهل فلسطين يدعون أن قبره فى موضع من بلادهم ويقيمون له مولدا يقصد من كل ناحية فى كل سنة فى موعد معين .

وقد ذكر هذا الموقف « فى الاصحاح ١٤ سفر العدد » وذكر أيضا على سبيل الحكاية والتذكير « فى سفر التثنية » — أثناء تعداد موسى أعمال بنى اسرائيل وعصيانهم عليه ومخالفتهم لأمر الله تعالى ما ننقل بعضه « من الاصحاح الأول — تثنية »[1] .

نتق الجبل فوق بنى اسرائيل

ذكر الله تعالى فى سورتى البقرة والأعراف أنه رفع جبل الطور فوق بنى اسرائيل حتى صار كأنه ظلة وظنوا أنه واقع عليهم أو أيقنوا ذلك . وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الأحكام بقوة بأن يفعلوها دون تذمر أو توقف ، وأن يحافظوا عليها أشد محافظة بجد وعزم قوى على تحمل مشاق ما أوتوه .

وأن يذكروا ما فيه بالعمل به ، وألا يتركوه كالمنسى . فانهم اذا فعلوا ذلك كان مرجوا لهم أن يكونوا ممن اتقى قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق . ثم لم يكن منهم الا الاعراض عن الميثاق بعد أخذه . ولولا فضل الله عليهم ورحمته بتوفيقهم للتوبة لكانوا من الخاسرين المغبونين بالمعاصى والتخبط فى الضلال .

هكذا قال المفسرون ، ونحوا هذا النحو . وشايعهم أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده لأنه لم ير موجبا للعدول عن ظاهر القرآن الى تأويله ؛ اذ لم يصرف عنه صارف والمسألة من الممكنات العقلية وقد خلت الآية من قرينة صارفة عن الظاهر الى تأويله .

وقد أورد السيد رشيد رضا فى تفسير المنار أن هذا المعنى اعترض عليه بأنه اكراه على الايمان والجاء اليه وذلك ينافى التكليف . قال أجيب عنه بأجوبة منها أن ما يفعل بالاكراه يعود اختياريا بعد زوال ما به الاكراه . ومنها أن مثل هذا الالجاء كان جائزا فى الأمم السابقة . ويزيد

---

(١) — (٦) الرب الهنا كلمنا فى حوريب قائلا « كفاكم قعودا فى هذا الجبل » (٧) تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من قرية والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعانى ولبنان الى النهر الكبير نهر الفرات (٨) انظروا قد جعلت أمامكم الأرض التى أقسم الرب لآبائكم ابراهيم واسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم .

(٢٠) فقلت لكم قد جئتم الى جبل الأموريين الذى أعطانا الرب الهنا (٢١) انظر قد جعل الرب الهك الأرض امامك اصعد تملك كما ملك الرب اله آبائك لا تخف ولا ترتعب .

(٣٤) وسمع الرب صوت كلامكم فسخط واقسم قائلا (٣٥) لن يرى انسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة التى اقسمت ان اعطيها لآبائهم (٣٦) ما عدا كالب بن يفنة هو يراها وله أعطى الأرض التى وطئها ولبنيه لانه اتبع الرب تماما (٣٧) وعلى أيضا غضب الرب بسببكم قائلا وانت أيضا لا تدخل الى هناك (٣٨) يوشع بن نون الواقف أمامك هو يدخل الى هناك . شدده لانه هو يقسمها لاسرائيل (٣٩) واما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة . وبنوكم الذين لم يعرفوا اليوم الخير والشر فهم يدخلون الى هناك .

من قال هذا أن نفى الاكراه فى الدين خاص بالاسلام لقوله تعالى (لا اكراه فى الدين) وقوله (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

قال الأستاذ الامام : لا حاجة لنا فى فهم كتاب الله الى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح . فهو لا يحتاج فى فهمه الى اضافات ولا ملحقات . وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بنى اسرائيل ولم يقل أنه أراد بذلك الاكراه على الايمان . وانما حكى عنهم فى آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم . فقد قال تعالى فى سورة الاعراف (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) .

والنتق : الزعزعة والهز والجذب والنفض . ونتق الشيء ينتقه وينتقه من بابى ضرب ونصر نتقا جذبه واقتلعه . وقد يكون ذلك فى الآية بضرب من الزلزال كما يدل عليه التعبير بالنتق وهو فى الأصل بمعنى الزعزعة والنفض .

والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الايمان . وعاهدوا موسى عليه . فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التى رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد لأن رؤية الآيات تقوى الايمان وتحرك الشعور والوجدان ، ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله (خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه) أى بالمحافظة عليه والعمل به . فان العمل هو الذى يجعل العلم راسخا فى النفس مستقرا عندها . أى أن نتق الجبل فوقهم لم يكن الغرض منه الاكراه على الايمان ، وانما كان للعمل بما أوتوه من الشريعة والمحافظة عليه بعد أن أقروا بالايمان .

ثم ذكرهم بما كان منهم من التولى عن الطاعة بعد أخذ الميثاق ومشاهدات الآيات . وقد حال دون ادراجهم فى سلك الخاسرين ما أدركهم من فضل الله عليهم ورحمته بهم .

وقد قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار أيضا : شايع الأستاذ الامام المفسرين على أن رفع الطور كان آية كونية . أى أنه انتزع من الأرض وصار معلقا فوقهم فى الهواء . وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق وان لم تكن ألفاظها نصا فيه ، اذ الرفع هو الارتفاع وجعل الشيء — أو أن يكون الشيء — رفيعا عاليا كما قال تعالى (فيها سرر مرفوعة) وقال (وفرش مرفوعة) فكل من السرر والفرش تكون مرفوعة وهى على الأرض . وقوله تعالى فى سورة الأعراف (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) ليس نصا أيضا فى كون الجبل رفع فى الهواء .

وأصل النتق فى اللغة الزعزعة والزلزلة — كما سبق — قال فى حقيقة الأساس : نتق البعير الرحل زعزعه . ونتقت الزبد أخرجته بالمخض . ونتق الله الجبل رفعه مزعزعا فوقهم . والظلة كل ما أظلك سواء كان فوقك أو فى جانبك وهو مرتفع له ظل .

فيحتمل أنهم لما كانوا بجانب الطور رأوه منتوقا أى مرتفعا مزعزعا فظنوا أن سيقع بهم

وينقض عليهم . ويجوز أن ذلك كان فى أثر زلزال تزعزع له الجبل . ثم قال : واذا صح هـذا التأويل لا يكون منكر ارتفاع الجبل فى الهواء مكذبا للقرآن ا هـ .

أقول قد يكون جزء عظيم من الجبل اقتلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال ، ورأوه بأعينهم وهم فى أسفل الجبل كأنه ظلة وخافوا وقوعه بهم ، وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة(١)

---

(١) الموضوع الثالث « نتق الجبل فوق بنى اسرائيل » .

قال فى صفحة ٢٢٦ سطر ٢١ ما نصه :

وقد قال السيد رشيد فى تفسير المنار ايضا : شايع الأستاذ الامام المفسرين على أن رفع الطور كان آية كونية ؛ أى انه انتزع من الأرض وصار معلقا فوقهم فى الهواء . وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق وان لم تكن الفاظها نصا فيه . اذ الرفع هو الارتفاع وجعل الشىء — أو أن يكون الشىء — رفيعا عاليا كما قال تعالى (فيها سرر مرفوعة) وقال (وفرش مرفوعة) فكل من السرر والفرش تكون مرفوعة وهى على الأرض وقوله تعالى فى سورة الأعراف (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) ليس نصا أيضا فى كون الجبل رفع فى الهواء . فأصل النتق فى اللغة: الزعزعة والزلزلة ؛ كما سبق قال : فى حقيقة الأساس : نتق البعير الرحل ؛ زعزعه . ونتقت الزبد ؛ أخرجته بالمخض . ونتق الله الجبل رفعه مزعزعا فوقهم . والظلة كل ما اظلك سواء كان فوقك أو فى جانبك وهو مرتفع له ظل . فيحتمل أنهم لما كانوا بجانب الطور رأوه منتوقا ؛ أى مرتفعا مزعزعا فظنوا أن سيقع بهم وينقض عليهم . ويجوز أن يكون ذلك فى أثر زلزال تزعزع له الجبل . ثم قال : واذا صح هذا التأويل لا يكون منكر ارتفاع الجبل فى الهواء مكذبا بالقرآن . ا هـ « أى رشيد » أقول : قد يكون جزء عظيم من الجبل قد اقتلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال ورأوه بأعينهم وهم فى أسفل الجبل كأنه ظلة ، وخافوا وقوعه بهم وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة . هذا نص كلامه بالحرف .

ثم بعد ذكره الآيات القرآنية الواردة فى رفع الجبل قال ما نصه بالحرف :

أما التوراة فلم يذكر فيها أن الله نتق الجبل فوق بنى اسرائيل ، وانما ذكر فيها وجود رعود وبروق وارتجاف فى الجبل وبنو اسرائيل أمامه حتى خافوا جدا .

« فى الاصحاح ١٩ — خروج » (١٥) فانحدر موسى من الجبل الى الشعب وقدس الشعب وغسلوا ثيابهم وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث لا تقربوا امرأة (١٦) وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة (١٧) وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله فوقفوا فى أسفل الجبل (١٨) وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدا (١٩) فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا موسى يتكلم والله يجيب بصوت « وفى اصحاح ٢٠ خروج » (١٨) وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن . ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد (١٩) وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت . ا هـ .

رأى اللجنـة

لم يسع السيد رشيدا ومؤلف هذا الكتاب ما وسع الأستاذ الامام فى موافقة جميع المفسرين على أن رفع الطور آية كونية ؛ أى أنه انتزع من الأرض وصار معلقا فوقهم فى الهواء . مع اعتراف الأول بأنه المتبادر من الآيتين بمعونة السياق ؛ بل أبديا احتمالا مخترعا فى الآيتين أخرجاهما عن افادة تلك الآية الكونية بحجة أن الفاظهما ليست نصا فيما أجمع عليه المفسرون وتبعهم عليه الأستاذ الامام .

وهل الحامل لهما رد القرآن الكريم الى ما جاء فى التوراة وهو الذى نقله مؤلف هذا الكتاب، ونقلناه عنه فى عبارته السابقة ؟ فان كان هذا هو الحامل يقف الذهن فى ادراك السر فى ذلك .

اقرءوا هـذه الآيات :

سورة البقرة : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا

ونحن نرى ان هذا الاحتمال فاسد لا يمكن تطبيق الآيتين الكريمتين عليه بأي وجه من الوجوه وذلك أن الله تعالى يقول فى سورة الأعراف (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم) وفى سورة البقرة (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) .

والنتق قال فى لسان العرب : الزعزعة ، والهز ، والجذب ، والنفض . ونتق الشىء ينتقه وينتقه — بالضم — جذبه واقتلعه . وفى التنزيل (واذ نتقنا الجبل فوقهم) أى زعزعناه ورفعناه ا هـ .

وفى الأساس : ونتق الله الجبل رفعه مزعزعا فوقهم ا هـ .

وذكر المفسرون : ان ابن عباس فسره بالرفع قالوا وهو أرجح ليتوافق مع الآية الأخرى وهى (ورفعنا فوقكم الطور) والرفع كما فى كتب اللغة : ضد الخفض . وبعد أن بين أنه يكون فى الأجسام والمعانى قال صاحب المصباح ما نصه بالحرف « فالرفع فى الأجسام حقيقة فى الحركة والانتقال ، وفى المعانى محمول على ما يقتضيه المقام » ا هـ . ومعنى الفوقية واضح ، وبيان الجهات الست لا يخفى على كل من قرأ الأجرومية وشراحها .

وعلى ذلك يتعين أن يكون معنى (ورفعنا فوقكم الطور) أننا حركناه ونقلناه وجعلناه فوقكم . ولا يعقل أن يكون فوقهم أى فى الجهة المعروفة من غير أن يكون معلقا فى الهواء .

وهل يتصور أن يكون معنى (رفعناه) جعلناه مرتفعا عاليا وهو بجانبهم وهم بجانبه عن يمينهم أو شمالهم أو أمامهم أو وراءهم ويصدق مع ذلك أنه فوقهم .

ان تصور ذلك فلم قلت يا سيدى رشيد « والظلة كل ما اظلك سواء كان فوقك او بجانبك » ؟ ولم هذا التعميم ان كان ما بالجانب يصدق على انه فوق ؟

نحن نعتقد انه غفل عن قوله تعالى (فوقهم) وقد ذكرت الفوقية فى الآيتين معا . هذا ثم يقال له : هل الزلزال الذى جعل الجبل مرتفعا وعاليا مزعزعا اثره ، حصل اتفاقا — اى بالأسباب العادية كبركان فى داخله كما يحصل فى هذه الأزمان — أو أن الله اجراه من غير تلك الأسباب ؟ وهل الغالب فى الزلزال دك الجبال أو رفعها وجعلها عالية مرتفعة ؟ وهل مثل هذه الحالة يعبر عنها بمثل هذا التركيب فى الآيتين الكريمتين .

ويقال لمؤلف هذا الكتاب بخصوصه : الله سبحانه وتعالى قال (ورفعنا فوقكم الطور) وقال (واذ نتقنا الجبل فوقهم) ولم يقل ارتفع جزء من الجبل اثناء رجفة أو زلزال . ويقال له ان الذى نقلته عن التوراة ويجوز انك نقلته — استئناسا لرايك فى فهم القرآن — ان صح ، يجوز أن يكون اشارة الى موقف آخر من مواقف بنى اسرائيل ؛ كموقفهم حينما قالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون) أو كموقفهم حينما اختار موسى منهم جماعة للميقات وحكاه الله تعالى فى سورة الأعراف بقوله (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى) الخ الآيات :

وهذا على القول بأنهما موقفان مختلفان لبنى اسرائيل ، وفى ذلك خلاف بين المفسرين .

وحيث ظهر فساد هذا التأويل ، وان القرآن الكريم نص فى افادة الرفع المخصوص — كما قرره جميع المفسرين — كان القول بعدمه تكذيبا للقرآن والله اعلم .

رد المؤلف على نقد اللجنة

(الموضوع الثالث)

« نتق الجبل فوق بنى اسرائيل »

كتب حضرات أصحاب الفضيلة اعضاء اللجنة ما هو مسطور قبل هذا . وبه ينكرون على الاحتمال الذى طرقته فى رفع الطور فوق بنى اسرائيل ، وينكرون أيضا على السيد رشيد رضا الاحتمال الذى اورده فى ذلك .

مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[١٣] ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ

والناظر الى ما كتبته اللجنة يرى ان ما اطالوا به فى هذا الباب لا يساوى المداد الذى بعثرته على صفحات تلك الأوراق .

والذى ينظر كتابى يرانى قد أوردت ما أورده جمهور المفسرين وهو الذى يفهم من ظاهر القرآن أول وهلة . وقد جرى عليه استاذنا الامام وقد أيدته وعززته ولم اشر الى أى مخالفة له أو اعتراض عليه . ثم انى رأيت السيد رشيدا قد أورد احتمالا وأحس بما فيه من البعد عن ظاهر الآية فقال « واذا صح هذا التأويل لا يكون منكر ارتفاع الجبل فى الهواء مكذبا للقرآن » .

وقد نظرت الى قوله فأحسست ببعده مع اعتقادى بأنه محتمل ، فأوردت وجها يمكن ان تحمل عليه الآية هو فى نظرى أقرب من الوجه الذى أورده السيد رشيد ، وهو قولى : أقول قد يكون جزء عظيم من الجبل اقتلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال ، ورأوه بأعينهم وهم فى أسفل الجبل فوقهم كأنه ظلة وخافوا وقوعه بهم ، وذلك عند اخذ ميثاقهم على العمل بما فى التوراة . فجاءت اللجنة وقررت ان الاحتمال الذى أوردته فاسد ولا يمكن حمل الآيتين عليه وهما قوله تعالى (واذ نتقنا الجبل فوقهم) الخ وقوله (ورفعنا فوقكم الطور) والى أى حد بلغ ظرف اللجنة فى قولها توبيخا وتجهيلا لى « ومعنى الفوقية واضح وبيان الجهات الست لا يخفى على كل من قرأ الأجرومية وشراحها » وفسرت قوله تعالى (ورفعنا فوقكم الطور) بمعنى اننا « حركناه ونقلناه وجعلناه فوقكم » وقالت : ولا يعقل ان يكون فوقهم أى فى الجهة المعروفة من غير أن يكون معلقا فى الهواء .

فالخلاف بينى وبين أصحاب الفضيلة — أعضاء اللجنة — انهم يقولون أن الفوقية لا تكون الا على مسامتة الرأس . وأنا أقول : أن الفوقية تحصل مع عدم المسامتة ودليلى على ذلك قوله تعالى (اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) فان قوله (من فوقكم) ليس معناه فوقية مسامتة بل من مكان أعلى من مكانكم . قال فى تاج العروس « ص ٥٢ ج ٧ » وقوله تعالى (اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) عنى الأحزاب وهم قريش وغطفان وبنو قريظة وكانت قد جاءتهم من فوقهم ، وجاءت قريش وغطفان من ناحية مكة من أسفل منهم ا هـ .

قال الألوسى « فى صفحة ١٣ ج ٧ » عند قوله تعالى (اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) — (من فوقكم) من أعلى الوادى من جهة المشرق والاضافة اليهم لأدنى ملابسة والجائى من ذلك بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد وبنو قريظة وبنو النضير (ومن أسفل منكم) من أسفل الوادى من قبل المغرب ، والجائى من ذلك قريش ومن شايعهم من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة . وقيل الجائى من فوقهم بنو قريظة ومن أسفل قريش وأسد وغطفان وسليم . وقيل غير ذلك .

وأيضا قال الله تعالى (يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة) « آل عمران آية ٥٥ » فعلى فهم حضرات الأفاضل يكون الله تعالى قد وعد عيسى عليه السلام ان يجعل فوق كل كافر ممن كفروا به واحدا من اتباعه — على سمت رأسه — لا ينفك شأن الكفار بعيسى وشأن اتباعه عن ذلك الى يوم القيامة .

وقال تعالى فى سورة يوسف آخر آية ٧٦ (وفوق كل ذى علم عليم) فمقتضى طريقتهم فى فهم الفوقية ان الله تعالى وضع (عليما) فوق رأس كل ذى علم .

وهذا ما لا يسلم به أحد حتى حضرات أصحاب الفضيلة فيما أظن .

قال أصحاب الفضيلة — أعضاء اللجنة — ويقال لمؤلف هذا الكتاب بخصوصه : الله سبحانه وتعالى قال (ورفعنا فوقكم الطور) وقال (واذ نتقنا الجبل فوقهم) ولم يقل ارتفع جزء من الجبل اثناء رجفة أو زلزال .

وانى أجيب حضراتهم بأنى قرأت من قبل احدى وخمسين سنة فى كتاب اسمه متن السمرقندية فى علم البيان عليه حاشية لأحد العلماء أن اللفظ قد يستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة بينهما ومن تلك العلاقات الكلية والجزئية فيطلق اللفظ ويراد جزء معناه ومثلوا لذلك بقوله تعالى (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) أى جزءا من أصابعهم وهو الأنامل . واعتقد أن علم البيان لم يتغير ولم يتحول عن وضعه فى هذه الحقبة وقد يحمل على المبالغة . قال الألوسى فى قوله تعالى (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) وهل هذا من المجاز اللغوى لتسمية الكل باسم جزئه أو للتجوز فى الجعل أو هو

من المجاز العقلى بأن ينسب الجعل للأصابع وهو للأنامل ؟ فيه خلاف . والمشهور الأول وعليه الجمهور وابن مالك وجماعة على الأخير . . . الخ .

وارى من الجريمة أن أقول لحضراتهم انكم لم تقرءوا هذه النصوص فى علم البيان ولو طوعت لى نفسى ما صدقنى أحد .

وهبنى قلت هـــذا الصبح ليل أيعمى العـــالمون عن الضياء ؟

وارى القول بذلك ذنبا غير مغتفر .

ولكنى أقول أن حضراتهم — مع علمهم بذلك — لم يريدوا الا مداعبتى بطريقة بديعية يقول علماء البديع انها « تجاهل العارف » ولم يكونوا جادين حين قالوا هذا القول أو انهم ارادوا بذلك اختبار مقدار الذكاء عندى فقط .

وجاء فى التقرير أيضا : ويقال له — أى لهــذا العاجز عبد الوهاب النجار — ان الذى نقلته عن التوراة ، ويجوز أنك نقلته استئناسا لرأيك فى فهم القرآن . . الخ .

وجوابى على هذا : ان الذى فهمته اللجنة — من انى استأنســت لرأيى فى فهم القرآن فى هــذا الموضع بما نقلته عن التوراة — يحتاج الى أناس ليسوا من هذا العالم ليفهموا فهمهم . لأنى قلت : من الجائز أن يكون جزء عظيم من الجبل اقتلع وصار معلقا فى الهواء امام اعينهم كانه ظلة ! والذى نقلته عن التوراة ليس فيه هذا ؛ فكيف استأنس لقولى أو رأيى بكلام ليس فيه ما قلت ؟ ثم انى اقــول لحضراتهم : بعيشكم ؟ أليس اقتلاع جزء عظيم من الجبل ورفعه معلقا فى الهواء — يراه القوم كذلك أمام أعينهم — آية كونية ؟ وليس فى وسعى الا أن أقول لهم : يا قومنا (اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) وأما احتمال أن يكون فى موقف آخر من مواقف بنى اسرائيل ؛ فهذا ما لم أرده ولم يخطر ببالى .

قالت اللجنة — فى الرد على — : ان الله لم يقل واذ نتقنا بعض الجبل — وانا اقول لهم ان بعض الجبل يطلق عليه جبل مجازا — كما قدمت — وقد يقف الانسان فوق جزء صغير من الجبل ويقول قد وقفت على الجبل . والواقف على جزء من جبل عرفات يقول قد وقفت على جبل عرفات . وهو لم يقف الا على موضع قدميه ! ولا يمكن أن يكون كاذبا ! ويجزئه ذلك فى الوقوف . وتقول : دخلت قصر عابدين . وانت لم تدخل الا احدى حجره ! واقول : قد نص نقد اللجنة على التشهير بى وانما نص على ذلك فى بعض سطور النقد .

قالت اللجنة : وحيث ظهر فساد هذا التاويل وأن القرآن الكريم نص فى افادة الرفع المخصوص — كما قرره جميع المفسرين — كان القول بعدمه تكذيبا للقرآن الكريم .

وانا أقول : وحيث قد ظهر مما قدمت أن الاحتمال الذى أتيت به سائغ وان الفوقية لا تنحصر فى فوقية المسامتة كما تدعى اللجنة لما قدمت عن تاج العروس وعن الألوسى .

وحيث أن اجماع المفسرين لا يمنع انسانا أن يفهم كلام الله على وجه غير الذى قرروه .

وحيث أن الحجر على العقول أن تفهم كلام الله الا كما فهمه الاقدمون : اكليروسية لا تليق بسماحة الاسلام الذى ما جاء الا لاطلاق العقول من أسر التقليد للآباء الذى تريد اللجنـــة قسر العقول والافهام عليه مع مناقضته لروح الاسلام الذى جاء بوضع الآصار عن الناس والأغـلال التى كانت عليهـــم .

يعلم أن عبارة كتابى لا غبار عليها وأنها لا تحتاج فى فهمها الا الى أنفس خالية من غرض التأثيم نقية من الأهــواء .

وأما نسبة اللجنة الى أنى أكذب القرآن فاقول لأعضائها : انكم لتقـولون قولا عظيما ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين . وانى اكل حســــابكم الى الله يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل . ويومئذ تبيض وجوه وتسود وجوه . وان الذى اقرأكم من سيتبرأ منكم ومما جنيتم على يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله بصير بالعباد ويومئذ يعض الظالم على يديه قائلا : يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) .

سورة الأعراف : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٧١] (١)

بنو إسرائيل ومسألة البقرة (٢)

(أولا) أريد أن أقدم بين يدي الكلام على بقرة بنى اسرائيل : أن المفسرين يذكرون أن القتيل ضرب بجزء من البقرة فحيى وأخبر بقاتله فأخذ وقتل . ويذكرون للبقرة حكايات وروايات وغرائب ما أنزل الله بها من سلطان .

(١) اما التوراة فلم يذكر فيها ان الله نتق الجبل فوق بنى اسرائيل . وانما ذكر فيها وجود رعود وبروق وارتجاف فى الجبل . وبنو اسرائيل امامه حتى خافوا جدا .

فى الاصحاح ١٩ — خروج (١٥) فانحدر موسى من الجبل الى الشعب وقدس الشعب وغسلوا ثيابهم وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث . لا تقربوا امرأة (١٦) وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح انه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة (١٧) وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله . فوقفوا فى اسفل الجبل (١٨) وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون . وارتجف كل الجبل جدا (١٩) وكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا . موسى يتكلم والله يجيبه بصوت .

وفى اصحاح ٢٠ — خروج (١٨) وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن . ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد (١٩) وقالوا لموسى تكلم انت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت .

(٢) الموضوع الثانى « قصة بنى اسرائيل والبقرة » .

يرى أن ما ذكر فى القرآن فى شأن ذبح البقرة هما قصتان منفصلتان — سببا وحكما « احداهما » تبتدىء من قوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) وتنتهى بقوله تعالى (فذبحوها وما كادوا يفعلون) « والثانية » تبتدىء من قوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) ، وتنتهى بقوله تعالى (لعلكم تعقلون) .

فقال فى شأن القصة الأولى صفحة ٢٣٣ سطر ٧ ما نصه :

والذى فهمته من القصة الأولى أن بنى اسرائيل قد وقعت عندهم واقعة قد حاروا فيها ؛ وهى أن شخصا قد قتل فى الحقل وهم لا يدرون من الذى قتله . والحقل واقع بين بلاد كثيرة فأى البلاد تلصق بأهله تهمة القتل ؟

رفعوا أمرهم الى موسى فما كان جوابه الا أن قال لهم (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) ولما كان الجواب بعيدا — فى رأيهم — عن الغرض الذى جاءوا لأجله وقع عندهم موقع الغرابة وقالوا لموسى (اتتخذنا هزوا) ولما كان موسى انسان صدق بعيدا عن الهزء والسخرية بعباد الله قال لهم (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) الذين يهزأون بعباد الله . ثم كانت المراجعة بينهم وبين موسى وربه حتى بين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها أتم بيان ، ومع ذلك لم يمتثلوا بل ذبحوها بعد أن كادوا لا يفعلون ؛ أى أنهم ذبحوها بعد جهد شديد .

أتى موسى برجال أقرب محلة من مكان القتيل ، وأحلفهم عليها بعد ذبحها — أى وهى أمامهم — أنهم ما قتلوا القتيل ولا علموا به وأنهم برءاء على البقرة كما قص ذلك فى التوراة . ثم قال هذه اليمين فى شريعتهم كيمين القسامة عندنا معشر المسلمين . . . الخ .

وذكر قبل ذلك ملخص ما جاء فى التوراة فى شأن هذه القصة صفحة ٢٣٠ فقال ما نصه :

اما ما جاء فى التوراة متعلقا بأمر ذبح البقرة فيلخص فى : ان بنى اسرائيل فرض عليهم انه اذا قتل قتيل فى الحقل يؤتى بأهل أقرب البلاد من موضع القتيل ، ويأتون بعجلة من البقر لم يحرث عليها

أما قولهم : ان القتيل ضرب ببعض البقرة فحيي وأخبر بقاتله ؛ فهذا شيء زائد على ما نص في كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — وكل ما قصوه في هذا الموقف

ولم تجر بالنير ، ويأتي شيوخ القرية بها الى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي . ثم يتقدم الكهنة — بنو لاوى — ويباركون الله ويغسل جميع شيوخ القرية القريبة من القتيل أيديهم على العجلة ويصرخون قائلين « أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر اغفر لشعبك اسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك اسرائيل فيغفر لهم هذا الدم » ا هـ .

ثم ذكر نص التوراة بالحرف في هذا الموضوع من الاصحاح الحادي والعشرين من سفر التثنية

ويلاحظ ان نص التوراة لم يشتمل على يمين ، فلا ندري من أين هذه اليمين التي ذكرها وشبهها بيمين القسامة في الشريعة الاسلامية ؟ اللهم الا أن يقال ان صراخهم قائلين « أيدينا لم تسفك هـذا الدم » الخ يعتبر يمينا عندهم وهو بعيدا جدا . ولعله أخذها من وضع أيديهم في الدم يعتبر ذلك يميـنـــا .

وقال في شأن القصة الثانية صفحة ٢٣٤ سطر ٩ ما نصه :

واما القصة الثانية وهي قوله تعالى (واذ قتلتم نفسا) الخ فهي في شأن قتيل وجد قتيلا في بيته أو محلة قومه ، أو سقط في معركة فيها جماعة وقد دفع كل واحد القتل عن نفسه ولم يتعين قاتله تماما ؛ وكل واحد يتهم سواه بالقتـــل . وحينئذ يكون المتهمون محصورين والقاتل لا يخرج عنهم بدليل قوله تعالى (فادارأتم فيها) ولماكان الله تعالى مخرجا ما يكتمون من القتل علمهم طريقة يميز بها القاتل من البريء ، ذلك بأن يأتوا بالمتهم ثم يضربوه بجزء من تلك النفس — أي من القتيل — بأن يأتي واحد ويضرب المتهم بيد القتيل أو برجله ، فاذا كان المتهم بريئا لم يحدث له شيء ، واذا كان فاعلا ظهر عليه انفعال نفسي ورعدة يعلم بسببها انه القاتل دون سواه . ثم قال وهذا الأمر يرجع الى أحوال الغرائز النفسية . . . الى آخر ما قرره من أصول علم النفس . واستشهد ببيتين من الشعر لشاعر عربي وبحادثة امرأة ملطية ، وبما أجابه به مدرس التحقيق الجنائي ومعاون بوليس العياط مما لا يعنينا صحته ولا فساده .

وقد استند في هذا الرأي الى أن كلا الموضعين اللذين اعتبرهما قصتين مبدوء بقوله تعالى (واذ) على النسق المطرد الذي لم يتخلف في حكاية القصص المتعلقة ببني اسرائيل ؛ فان كل قصة مبدوءة بذلك . وهناك وجه آخر لهذا الرأي يفهم من كلامه ؛ وهو أن الآية الثانية تكون مفيدة لقاعدة مهمة وطريقة عامة في استكشاف القاتل الحقيقي لا تخص بني اسرائيل ، بخلاف ما اذا جعلت قصة واحدة على الرأي المشهور ، فانها تكون فائدة قاصرة على اظهار قاتل واحد في بني اسرائيل .

وذكر حكمة عدم استيفاء القصـــة الأولى في القرآن بأن الغرض أن يقص الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم نموذجا مما بلغ اليه تعنت بني اسرائيل في ابطائهم عن امتثال امر الله تعالى ، ومطاولتهم ومماطلتهم في تنفيذ ما يأمرهم به دون استيفاء القصة استيفاء كاملا يشتمل على بيان الحكمة الباعثة على أمرهم بذبح البقرة . ا هـ .

هذا ما ذكره في ابداء هذا الرأي في تفسير آيات البقرة . وقد رجا العلماء بأن يعيروه اهتماما وان يوافوه بما يرونه من الصواب . . . الخ .

(رأى اللجنة)

والذي نراه أن ما ذهب اليه في تأويل هـــذه الآيات مخالف لما ثبت بالرواية والأثر ، خطأ من جهة الدراية والنظر .

اما الأول فلأنه خالف اجماع المفسرين فيما نعلم سوى صاحب المنار في تفسيره . وسنذكر نص عبارته بعد اتمام الرد على هذا الرأي .

وقد نقل ابن جرير الطبري التفسير المشهور لهذه القصة بأسانيده عن ارباب التأويل ومنهم حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . وذكر الحافظ بن حجر في « فتح الباري » ان قصة البقرة أوردها آدم بن اياس في تفسيره . قال : حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن انس عن أبي العـــالية في قوله تعـــالى (ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة) قال : كان رجل من بني اسرائيل غنيا ولم يكن له ولد ، وكان له قريب وارث فقتله ليرثه ، ثم ألقاه على مجمع الطريق . وأتى موسى

فى كتبهم ليس الا اسرائيليات تلقفها أولئك المفسرون من مسلمة أهل الكتاب ، أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه الذين لا يبالون بما ينسبونه الى كتاب الله التوراة ، والتوراة خالية منه بالمرة

فقال ان قريبى قتل واتى الى امر عظيم . وانى لا اجد احدا يبين لى قاتله غيرك يا نبى الله . فنادى موسى فى الناس من كان عنده علم من هذا فليبينه ؟ فلم يكن عندهم علم فأوحى الله اليه قل لهم فليذبحوا بقرة . فعجبوا وقالوا كيف نطلب معرفة من قتل هذا القتيل فنؤمر بذبح بقرة ؟ وكان ما قصه الله تعالى (قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر) يعنى لا هرمة ولا صغيرة (عوان بين ذلك) اى نصف بين البكر والهرمة (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها صفراء فاقع لونها) اى صاف (تسر الناظرين) اى تعجبهم (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) الآية (قال انه يقول انها بقرة لا ذلول) اى لم يذلها العمل (تثير الأرض) يعنى ليست بذلول فتثير الأرض (ولا تسقى الحرث) يقول ولا تعمل فى الحرث (مسلمة) اى من العيوب (لاشية فيها) اى لا بياض (قالوا الآن جئت بالحق) قال : ولو ان القوم حين امروا بذبح بقرة اشتروا اى بقرة كانت ؛ لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا فشدد عليهم ولولا انهم استثنوا فقالوا وانا ان شاء الله لمهتدون لما اهتدوا اليها ابدا فبلغنا انهم لم يجدوها الا عند عجوز فاغلت عليهم فى الثمن ، فقال لهم موسى انتم شددتم على انفسكم فأعطوها ما سألت . فذبحوها واخذوا عظما منها فضربوا القتيل فعاش فسمى لهم قاتله ثم مات مكانه . فاخذ قاتله — وهو قريبه الذى كان يريد ان يرثه — فقتله على أسوأ عمله .

ثم قال الحافظ بن حجر : واخرج ابن جرير هذه القصة مطولة من طريق العوفى عن ابن عباس ، ومن طريق السدى كذلك . وأخرجها هو وابن أبى حاتم وعبد بن حميد باسناد صحيح عن محمد ابن سيرين عن عبيدة بن عمرو السلمانى احد كبار التابعين .

واما الثانى وهو الخطأ من جهة الدراية والنظر فمن وجوه :

(الأول) انه على هذا الفهم لا يكون للمذكور من القصة الأولى فى القرآن الكريم معنى محصل ؛ اذ يتلخص معنى ما ذكر فى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال لقومه : ان الله يأمركم بذبح بقرة ، وبعد استغرابهم لهذا الأمر طلبوا منه أن يدعو ربه ليبين هذه البقرة — المرة بعد المرة — وبعد بيانها امتثلوا وذبحوها بعد جهد شديد .

هذا ملخص ما ذكر من القصة الأولى ، ولم يبين سبب الذبح ولا فائدته .

والاجابة عن ذلك بأن الغرض ان يقص الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم انموذجا من تعنت بنى اسرائيل فى ابطائهم عن امتثال امر الله تعالى ، ومطاولتهم ومماطلتهم فى تنفيذ ما يأمرهم به دون استيفاء القصة — لا تقنع ؛ لأن فائدة القصص اما الاعتبار واما تقريع الخلف . ولا شك أن اظهار التعنت انما يثير الاعتبار ويحصل به التقريع اذا كان فى أمر معقول يتضح منه انه لا مبرر لهم فى هذا التعنت ولا وجه لهم فى التباطؤ فى الامتثال ، بخلاف اظهار تعنتهم فى أمر لم يظهر سببه ولم يتبين فائدته ، فانه لا يثير اعتبارا ولا يحصل به تقريع ، بل ربما ابدت الطبيعة البشرية لهم بعض العذر على هذا التباطؤ .

على انه لو ذكرت القصة بتمامها على ما فهمه اخذا من التوراة لم يفهم السامع منها فى ذبح البقرة سببا معقولا لاظهار براءة القاتل ، لا خارقا للعادة ولا معتادا اللهم الا أن يكون ذلك السبب هو ما اشتملت عليه من اليمين على تسليم انها اشتملت على يمين .

ثم ما علاقة هذه اليمين بذبح البقرة وغسل الأيدى عليها ؟ لا نفهم لذلك علاقة سوى أنه يرجع لعبادة العجل وتعظيمهم له ! نعوذ بالله من ذلك .

(الوجه الثانى) انه لا يظهر فى هذه القصة ما يقنع بعدم وجود الهزء والسخرية الا مجرد صدور الطلب والقول من موسى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى ، من غير أن يظهر لهم فائدة هذا الأمر الغريب فى العادة ، خصوصا بالنسبة لبنى اسرائيل الذين اشتهروا بالعناد والتعنت وعدم الانقياد مع ظهور الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات .

(الوجه الثالث) اين مرجع الضمير على هذا الراى فى قوله تعالى (فقلنا اضربوه ببعضها) ؟ فان قالوا : يرجع الى المتهم ؟ قلنا : فاين موضع ذكره فى الآيات ؟ فان قالوا : يفهم من قوله

وقد أفاضوا على المسلمين ثروة من تلك الاسرائيليات التى لم ينزل الله بها سلطانا ولا يمكن أحدا من المسلمين أن يجعلها برهانا على أمر من الأمور .

تعالى (قتلتم) ؟ قلنا : كان الظاهر أن يقال : اضربوا أنفسكم ، فان قالوا : يعلم من المقام ؟ قلنا : هذه قصة جديدة على هذا الرای مقامها يبتدىء من قوله تعالى (واذ قتلتم) فلا بد أن يكون مأخذ مرجع الضمير هو قوله تعالى (واذ قتلتم) الآية . ثم انه يؤخذ من القصة أن المتهم متعدد ، فكان الظاهر أن يقال : اضربوهما او اضربوهم . ولا يغنى عن هذا ارادة الجنس — أى جنس المتهم — اذ المعنى عليه : اضربوا جنس المتهم المتحقق فى أشخاص عدة ، وهو تكلف بل تعسف ، ولا يقع نظيره فى الكلام المعتاد فضلا عن فصيح الكلام — البالغ حد الاعجاز فى البلاغه والفصاحة — الا ترى أنه اذا قيل : حكمت المحكمة بسجن المتهم مدة كذا أو باعدامه ، لايفهم جميع من يسمع ذلك الا أن المتهم المحكوم عليه شخص واحد لا أشخاص عدة ، واذا كان الأمر كذلك لا يجوز مخالفة جميع أئمة التفسير — ومنهم صحابة اجلاء لمثل هذا التعسف من التأويل .

ثم يقال : على تسليم هذا النوع من التأويل جدلا لم يبين فى الآية الكريمة ما يترتب على ضرب المتهم ببعض القتيل من حصول الاضطراب والرعدة ، ولم يبين فيها أيضا أن تلك الرعدة انما توجد من القاتل دون غيره ، وحينئذ يتميز عن باقى المتهمين . ومن الواضح جدا أن ذلك هو الأجدر بالبيان والأحق بالارشاد اليه ؛ لأن فائدة الضرب هى الدقيقة التى عليها مدار هـذه الطريقة فى استكشاف القاتل . فان قالوا : ان المخاطبين يعلمونها ؟ قلنا : لا يتصور أن يعلموها ويجهلوا ما يوصل اليها من الضرب أو عرض المتهم على القتيل ! نعم لو كان ما يترتب على الضرب هو اقرار المتهـم بالجريمة لا يحتاج الأمر الى البيان . وفوق هذا فقد دلت الآثار الصحيحة التى نقلنا بعضها سابقا عن أئمة المسلمين من الصحابة وغيرهم على خلاف هذا التأويل . فمن أين جاء له هذا الرای الذى لم يساعده الأسلوب ولم يؤيده المنقول ؟ بل ينافيه وتمجه العقول .

(الوجه الرابع) قوله تعالى (كذلك يحيى الله الموتى) على نحو قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) يحتاج الى التجوز فى قوله تعالى (يحيى) بأن يراد يديم الحياة وفى قوله تعالى (الموتى) بأن يراد من هم فى معرض أن يموتوا لولا هذا الضرب من استكشاف القاتل الحقيقى . وهذا التجوز بعيد من وجهين (الأول) لم يعهد فى القرآن الكريم على ما نعـلم التجوز بلفظ (الموتى) عن هـذا المعنى وأن عهد التجوز بلفظ « الحياة » (الثانى) عدم وجود قرائن لهذه المجازات بخـلاف قـوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) فان القرينة واضحة .

فان قالوا ان صح ما فهمناه من الآيات كانت القرائن واضحة على هذا التجوز مأخوذة من المقام ؛ اذ لا يوجد ميت حقيقى أحياه الله حتى تحمل هذه الألفاظ على الحقيقة ؟

قلنا هذا الفهم فى معرض النزاع فلا يقبل دليلا .

وعلى تسليم أن هنا قرائن تؤخذ من المقام — بناء على هذا الفهم — فهل عهد فى اللغة العربية التعبير بمثل هذه العبارة فى مثل هذا المقام ؟ وبعد ذلك يقف الذهن فى قوله تعالى (كذلك) فانا ان ارجعنا اسم الاشارة الى ما وقع من بنى اسرائيل وتكون تلك الحادثة هى المشبه بها ، والمشبه غيرها من الحوادث امثالها ، توقفت صحة هـذا الكلام على ان تلك الحادثة تبرأ فيها أناس ادام الله حياتهم بعد أن كانوا فى مظنة ان يموتوا . اما اذا فرضنا أن جميع المتهمين فى تلك الحادثة حصلت لهم رعدة واضطراب فثبت انهم قاتلون ، فلا مرجع لاسم الاشارة ، ولا يقال ان الحياة وقعت لغير المتهمين — بالاعتبار على هذا الاحتمال — فلا يقدمون على القتـل لأنه وان ساغ اطلاق الحيـاة عليهم بهذا لا يسوغ اطلاق الموت عليهم ؛ لأنهم ليسوا بمعرض ان يموتوا .

وعلى تسليم الاطلاق ! يكون المقصود من هذه الجملة هو براءة المتهم غير القاتل دون اظهـار القاتل الحقيقى المقصود من القصة . وأين هـذه التعسفات من المعنى المشهور للآية (كذلك) اى كهذا الاحياء العجيب — وهو احياء القتيل بضربه ببعض البقرة ليخبر عن قاتله — يحيى الله الموتى يوم القيامة بالبعث ، فيكون اثباتا للبعث الذى كثر منكره بالمشاهدة لمن حضر تلك الحادثة .

ثم انه لم يتعرض لتفسير قوله تعالى (ويريكم آياته لعلكم تعقلون) على هذا الرای . والمعروف

وإذا كانت المسألة خالية من نص قطعي الثبوت والدلالة جاء فى القرآن الكريم ومن نص عن المعصوم صلى الله عليه وسلم تجب به الحجة وتثبت به القضية ، وليس فيه سوى تلك

فى تفسير الآيات فى مثل هذا الموضع انها الدلائل الدالة على عظم قدرته تعالى ، وذلك انما يكون فى خلق الأمور العجيبة الخارقة للعادة ، والتى ليست من مقدور البشر كاحياء الموتى ، فهل ارشادهم الى هذه الطريقة التى تفطن لها مدرس الجنائى وملاحظ بوليس العياط تعتبر من الآيات التى أراهم الله اياها ؟

(الوجه الخامس) هل الاضطراب الذى يحصل للمتهم بالقتل — اذا عرض على القتيل أو ضرب ببعضه — يجب به قصاص فى الشريعة الموسوية ؟ او فى الشريعة الاسلامية ؟ او بحسب القوانين الوضعية حتى يترتب عليها احياء الله الموتى ؟ لا يستطيع أحد ان يدعى ذلك فى الشريعة الموسوية ، وهو قد صرح بأن هذا الضرب لم يعرف عند أهل الكتاب ، فانه مما ذكروا به ونسوه . ولا يستطيع أحد ان يدعى ذلك فى الشريعة الاسلامية ؛ فان مثل هذا لا يعتبر من موجبات القصاص فى الشريعة الاسلامية . ولا نظن مثل ذلك يعتبر لوثا — اى قرينة — يسوغ بمقتضاها دعوى الدم ؛ فيكلف المدعى يمين القسامة المعروفة فى علم الفقه ! وكيف يعتبر لوثا مع أن هذه الرعدة والاضطراب قد تحصل للبرىء بمجرد اتهامه بالقتل ؛ لأنه لم يتعود العرض على الحكام ، أو لأنه شريف كبير فى قومه ، أو لأنه ضعيف القلب أو غير ذلك من الأسباب . وهى لا تحصل للقاتل غالبا . وقد لا تحصل للقاتل الذى اعتاد الاجرام . ومن ينظر لحالة الطبيب فى مبدأ تعلمه لفن التشريح وبعد كثرة التدريب فى الجراحات . لا يشك فى تغير أحوال الانسان — اضطرابا وعدمه — عند رؤيته لمثل هذه المؤثرات . اما القوانين الوضعية : فانا وان لم نطلع عليها نستبيح لأنفسنا القول بأنه لا يمكن للقضاة بمقتضى هذه القوانين أن يحكموا — لمجرد اضطراب او رعدة — باعدام المتهم أو بسجنه مدة تناسب جريمة القتل . وحادثة « طنوب » التى ذكرها اقر فيها اثنان من المتهمين كما هو صريح الجواب الذى ذكره فضيلة المؤلف .

فهذه خمسة أوجه تدل على خطأ هذا الراى من الوجهة العلمية .

وهناك وجه سادس لانبديه لمثل فضيلة الأستاذ — مؤلف هذا الكتاب — لأنا نعتقد انه ذو دين وعقيدة صحيحة ، وانما نبديه لمن كانت عادته تأويل مثل هذه الآية من الآيات الدالة على معجزات الرسل حتى يخرجها عن كونها خارقة للعادة ويطبقها على النواميس الطبيعية .

ذلك انه يوجد فى هذا الزمن نوع من الالحاد خفى المآل ؛ هو تأويل كل آية او حديث صحيح يدل على معجزة رسول من الرسل حتى يكون مفادها امرا غير خارق للعادة . وهذا النوع اخطر أنواع الالحاد لأنه سبيل الى انكار الأديان السماوية والى هدمها من اساسها ؛ لأن اساس اثباتها المعجزات التى اجراها الله تعالى على أيدى الرسل عليهم الصلاة والسلام . واما ما استند اليه فى هذا الراى — من الوجهين السابقين — فلا يصح ان يكون متكأ لمخالفة سائر المفسرين .

اما الوجهة الأولى : وهو تصدير الموضعين بقوله تعالى(واذ) فلا يدل على انهما قصتان منفصلتان سببا وحكما ؛ اذ يمكن أن يقال انها قصة واحدة كما وردت بذلك الآثار وكما هو المعقول ، والله سبحانه وتعالى حكى هذه القصة بطريقة بديعة غريبة ؛ اذا سمع الانسان مبدأها يبقى متشوقا الى منتهاها بسبب قلب نسقها وتغيير ترتيبها فى الحكاية . وهذا القلب الذى يثير الشوق فى الأنفس يستدعى أن يبدأ كل طرف منها بقوله تعالى (واذ) كأنه قصة قائمة بنفسها . وقد ذكر المفسرون حكما لتغيير الترتيب فى هذه القصة منها : تكرير التوبيخ وتثنية التقريع ؛ فان كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والافتيات على امره وترك المسارعة الى الامتثال به جناية عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحيالها . ولو حكيت على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يختص بها من التوبيخ .

واما الوجه الثانى فلا يحتاج الى الرد ؛ اذ لم يثبت ان ما ذكره قاعدة منضبطة مطردة يصح التعويل عليها فى تمييز القاتل من غيره ، لا فى الشرائع السماوية ولا فى القوانين الوضعية . والله أعلم .

هذا ما يتعلق بكلام مؤلف هذا الكتاب فى تفسير هذه الآيات . وقد راينا ان ننقل عبارة سلفه فى

الاسرائيليات المعلوم أمرها كان من الظلم أن تفسر العقول على فهم وجه ليس به حجة ولا برهان ، وأن تكف عن فهم كتاب الله تعالى على وجه مقبول فى العقول سائغ فى الأفهام .

هذا الراى — اى فى مخالفة المفسرين وان كان بينهما فرق كما سنذكر — وهو السيد رشيد رضا فى تفسير المنار قال ما نصه صفحة ٣٥٠ من الجزء الأول : وأما قوله تعالى (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى) فهو بيان لاخراج ما يكتمون . ويروون فى هذا الضرب روايات كثيرة : قيل ان المراد أضربوا المقتول بلسانها ، وقيل بذنبها . وقالوا انهم ضربوه فعادت اليه الحياة وقال قتلنى اخى او ابن اخى فلان الى آخر ما قالوه . والآية ليست نصا فى مجمله فكيف بتفصيله ؟ والظاهر مما قدمنا ان ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء ، عند التنازع فى القاتل اذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ، ليعرف الجانى من غيره . فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك فى الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية .

ومعنى احياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف فى قتل تلك النفس ؛ اى يحييها بمثل هذه الأحكام . وهذا الاحياء على حد قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) فالاحياء هنا معناه الاستبقاء على الحياة المقصود نقله .

ومراده بما قدمه هو عبارة التوراة التى لخصها مؤلف هذا الكتاب وحمل القصة الاولى فى نظره عليها ، ثم الظاهر من عبارة السيد رشيد أنه فهم أن القصة واحدة وأن قوله تعالى (فقلنا اضربوه ببعضها) اشارة الى الوسيلة التى كانت عندهم للفصل فى الدماء . ورأى مؤلف الكتاب قد يكون أقرب ، وان كان كل منهما بعيدا جدا عما تدل عليه الآيات القرآنية ، بل باطلا .

وقد سبق فى الأوجه التى ابديناها ما يكفى لابطال مثل هذه الآراء والله اعلم .

رد المؤلف على نقد اللجنة
فى قصة بقرة بنى اسرائيل

ابتدأ أصحاب الفضيلة رايهم قائلين « والذى نراه أن ما ذهب اليه مخالف لما ثبت بالرواية والأثر » كلام فخم ضخم رنان يوهم أنى خالفت نصا قطعى الثبوت والدلالة واردا فى الكتاب الكريم ، أو خبرا متواترا عن المعصوم صلى الله عليه وسلم صريحا فى بابه . ولكن القراء اذا تحروا تلك الروايات وتلك الآثار وجدوها اسرائيليات لا أكثر ولا اقل ؛ لا عيب على مخالفها ولا اثم على مزيفها .

هذا وانى اقول : لما وصلت فى كتابى الى قصة بقرة بنى اسرائيل نصصت بايجاز ما قاله المفسرون القدم والحديثون من أن المسألتين قصة واحدة فيها تقديم وتأخير وان الضمير فى (ببعضها) يعود على البقرة . وان القتيل حى واخبر بقاتله — على النحو الذى نقله حضرات أعضاء اللجنة — ولم ازيف هذا الراى ولم انقضه . وانما عن لى أن أفهم الأمر على انهما قصتان لا قصة . ونصصت ما نقلته اللجنة عارضا اياه على انظار العلماء ليوافونى برأيهم حتى أثبت لكل انسان رأيه عند اعادة طبع الكتاب ، مقدرا انه وجه مما تحتمله الآية ، وأنه ليس يناقض الوجه الأول ولا بمزيف له — وان كنت أعتقد أن رأيى خير منه — وكنت أنتظر من اللجنة أن توافينى برأيها خالصا دون تأفف او تذمر ، ودون رمى بمنديات — كما فعلت — وهى تعلم انى مستعد لقبول الرأى والانصياع له اذا رأيته قاطعا . والعدول عن رأيى متى علمت بطلانه من كل وجه . ولكنها عمدت الى التشهير بى قائلة « انه خالف اجماع المفسرين فيما نعلم سوى صاحب المنار » كأن ذلك الذى تقوله يخيفنى . أو كأنى لم أجهر به من اول الأمر .

وطريف لدى جدا قول اللجنة « وقد نقل ابن جرير الطبرى التفسير المشهور لهذه القصة بأسانيده عن ارباب التأويل ، ومنهم حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس » والظاهر انهم كانوا فى احتياج الى هذه التعويذة او الرقية ، حتى اذا سمعتها لا يكون منى سوى الاستخذاء والتسليم بأن الوجه الذى أوردته انا باطل فاسد وكأن هذا الراى الذى نصه ابن عباس نص قطعى الثبوت والدلالة ! وليت شعرى ماذا يقولون فى كبار المفسرين الذين خالفوا ابن عباس فى كثير من آرائه فى التفسير ؟

(ثانيا) أريد أن أناقش الوجه الذى فسروا عليه آيات الكتاب الكريم وحملوها من المعنى ما لم يأذن به الله فأقول : اذا فرضنا المستحيل فى العـادة وأن القتيل حيى وأخبر بقاتله ، فمـا فائدة ذلك ؟

هبوا أنى سمعته من ابن عباس نفسه أليس من حق العلم على أن أسأله عمن أخذ هذا القول ؟ أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سمعه من مسلمة أهل الكتاب أو رأى رآه من نفسه ؟

يا قوم انى لا أنكر القول الذى نصه القوم عن ابن عباس ، ولكنى أنكر أن يكون قاطعا فى الموضوع لا يمكن معه أن يتطرق احتمال آخر . ولا أنكر وجـود الخوارق على يد موسى فقد أوجـد الله على يده ما هو أبلغ وأعظم ، ولقد اتعبتم أنفسكم فى نقل ذلك النص فلستم بقائلين شيئا من هذا الا وقد رأيته ، وليس الفرق بينى وبينكم الا أنكم تقولون ان الآيتين لا تفهمان الا على مقتضـاه ؛ وبذلك تجعلونه قطعى الثبوت والدلالة . وأنا أقول بامكان فهمها على وجه آخر وأنه ليس قطعى الثبوت والدلالة ؛ كما يوهمه كلامكم .

وقد ذهب على اللجنة الموقرة ان تبين لنا الفائدة المترتبة على حياة الميت بضربه بجزء من البقرة والاخبار باسم قاتله بعد حياته .

قد يقولون اننا ذكرنا ذلك بقولنا « فأخذ قاتلهوهو قريبـه الذى كان يريد أن يرثه فقتـله على أسوأ عمله » فانى أقول ان هذا على خلاف شرعهم ، لأنه لا يحكم عنـدهم على أحد الا بشـهادة شاهدين أو ثلاثة تثنية « ص ١٩ » (١٥) لا يقوم واحد على انسان فى ذنب ما أو خطيئة ما من جميع الخطايا التى يخطىء بها . على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر .

وأقول أيضا ما يقوله جمهور العلماء : من أن قول المقتول « دمى عند فلان أو فلان قتلنى » خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا خلاف فى أن دم المدعى عليه معصوم ممنوعة اباحته الا بيقين ، ولا يقين مع الاحتمال . قد يقولون : ان قتيل بنى اسرائيل كان أمره معجزة ،وأخبر تعالى أنه يحييه، وذلك يتضـمن الأخبـار بقـاتله خبرا جـزما لا يدخله احتمال ، فافترقا .

اقول كما قال ابن العربى : المعجزة انما كانت فى احيائه ، فلما صار حيا كان كلامه ككلام الناس كلهم فى القبول والرد . ا هـ « ٣٨٨ الأحكام للقرطبى » .

ولا توجد شريعة تأخـد المتهم بقول المجنى عليه وحده . ولو أن قتيل بنى اسرائيل الذى عاش بعد قتله ــ كما يقولون ــ ادعى على رجل درهما ؛ ما قبل قوله فيه ولا حكم لورثته به بسـبب شهادته وحده فكيف يقبل قوله فى الدماء المعصومة المحترمة ؟ وهى لا تحـل الا بيقين لا يتطرق اليه شـك !

وبعد هذا كله فان قولهم « وأخبر تعالى أنه يحييه » الى آخـره أمر زائد عما يسـتفاد من القرآن الكريم ، وليس عليه نص فى القرآن .

أقر وأعترف ــ وأنا فى حال طواعيتى واختيارى وصحتى بدنا وعقلا وجواز الاشهاد على شر ونفاذ تصرفاتى فى الوجوه كلها بدون اجبار ولا اكراه ــ أن الوجه الذى أوردته فى تفسير مسألة بقرة بنى اسرائيل مخالف لما جرى عليه المفسرون جميعا من أقدم العصور الى الآن : فهل أنا فى ذلك آثم ؟

عابت على اللجنة أنى فهمت القرآن الكريم فهما لم يفهمه المفسرون من قبل ، وأتيت بوجه لم يأت به أحد . وعد أعضـاؤها ذلك منى خطأ أوجبوا على أن أفهم بما فهم المفسرون من قبل . والذى اجيب حضراتهم به أن ما أوجبوه على لم يوجبه الله تعالى ولا رسوله . واقول لحضراتهم ايضا : ان الله تعالى قد أكمل دين الاسلام من قبل ، وأتم نعمته على أهله ورضـيه لهم دينـا قبل اثنتين وأربعين وثلاثمائة وألف سنة ، ولم ينزل الله تعالى قرآنا يتعبد الناس فيه بآراء فريق من عباده ، وقد انقطع التشريع بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسـلم فانى لهم هـذا التشريع الذى لا يعرفه الاسلام ؟ ان القرآن أنزله الله تعالى على رسوله ليتدبر الناس آياته ويفقهوا عظاته بمـا منحهم من عقول وقرائح .

(١) « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » . **سورة القتال : =**

أنا نعلم أن القتيل اذا أحيي بعد قتله كان حكمه حكم سائر الناس ، فهو مخاطب بأحكام الشرع فاذا شهد فلا تقبل شهادته وجده ، بل لابد من قيام نصاب الشهادة ، فاذا شهد بمال لواحد من الناس على انسان فلا بد من شاهد آخر . واذا شهد بالزنا على أحد فلا بد من شهادة

= (٢) « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . سورة النساء
(٣) « كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » . سورة ص
(٤) « افلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » . سورة المؤمنين

ان الله تعالى انما خاطب الناس بما منحهم من العقول . وعلى مقتضى عقولهم وما أدركوه من الايمان والدين يحاسبهم ، فيثيبهم أو يعاقبهم على ما اجترحوا من طاعة أو معصية ، ولا يسألهم عما عقله غيرهم أو فهمه سواهم أو ادركه أحد من عباده الآخرين ؛ بل هم مسئولون عن سمعهم وابصارهم وأفئدتهم (ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا) .

هل يجب فى عرفهم أن يكون للناس قلوب لايفقهون بها واعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها ، وأن يكونوا اضل من الأنعام لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلا ؟

فاذا كان الله تعالى قد منحنى عقلا وفكرا وذكاء وقريحة ؛ أليس من الكفران لنعمته والجحد لمنته أن أطرح كل أولئك النعم خلفي ظهريا ، واعطلهن كافة واحسب نفسى كمن رمى بالشلل فيهن جميعا ! فلا أعقل الا بعقل غيرى ولا أفكر الا بفكره ولا أتدبر كتاب الله الا بتدبره وأن لا أجد ولا احس الا بوجدانه وحسه ؟

وهل يعنى أحد عنى من الله شيئا اذا سألنى عن تلك النعم لم عطلتها ولم استعملها فيما خلقت لأجله ؟ وهل ينجينى من عقابه أن أقول له انى عطلت نعمك ولم أستعمل منها شيئا واهملتها اهمالا تاما لأنك أعطيت بعض عبادك عقلا وفكرا وذكاء وقرائح .

ان هذا التشريع الجديد الذى جاء به حضرات أعضاء اللجنة — بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم باثنتين وخمسين وثلاثمائة وألف سنة ، بعقل العقول وغل الافهام عن فهم كتاب الله تعالى — تشريع لم يعرفه الاسلام . وهؤلاء المفسرون الأولون كان كل منهم يفسر القرآن الكريم بما وصل اليه ادراكه ، لا بما أدركه سواه ممن حوله من المفسرين .

هذا ابن جرير الطبرى قد اورد فى شأن صهر موسى أربعة أقوال عن ائمة المفسرين ثم اختط لنفسه طريقا آخر ولم يعول على قول منها بل قال « المسألة تحتاج الى خبر تجب حجته ، ولا خبر فى المسألة . فلا قول احق بالصواب من قول الله عز وجل يريد به — (وأبونا شيخ كبير) .

ان الاسلام هو الدين الذى أطلق العقول من عقلها وفك أغلال الفكر البشرى وأزال عنه القيود التى كان مكبلا بها ، ونعى عن الأمم ما كانوا فيه من اسر التقليد للآباء والسابقين من الأجداد ، وأعلن أن اتباع الآباء والأجداد بغير سلطان أتاهم حجة داحضة . وان جماله وجلاله وروعته لتتجلى لأعين من لا يدينون به فى أنه الدين الذى كتبت له الصيانة من عبث العابثين ، لأنه ليس فيه كهنوت ولأنه بعيد عن الاكليروس .

قال « شارل جنيبير » مدرس مقارنة الاديان فى السربون : ومؤلف كتاب « تطور الديانات » : ان كل دين من الأديان يحمل فى طياته عوامل تطوره وتحوله والدين الوحيد الذى نجا من هذا التطور انما هو دين الاسلام . والسر فى ذلك أنه ليس فيه « اكليروس » ا هـ بالمعنى .

ولكن هذه الطريقة الجديدة — التى يريدنى حضرات السادة الأفاضل أعضاء اللجنة على اتباعها — ترمى الى ادخال الاسلام فى طور كهنوتى — على مثله قامت محكمة التفتيش البابوية فى القرون الوسطى فى أوروبا — فقد كانت الكنيسة تهيمن على عقائد الناس وعلى خطرات أنفسهم وهواجس أفكارهم . فكل انسان محرم عليه أن يقرأ الانجيل الا باذن خاص من الكنيسة ، ومحرم على كل فرد أن ينطق لسانه أو يهجس فى خاطره تفسير للانجيل بغير ما فسرته به الكنيسة . فاذا نطق لسانه أو مر بخاطره تفسير لم تأمر به الكنيسة لم يكن له جزاء الا التعذيب الشديد يذوق ألوانه ، ثم الاعدام بعد رض عظامه فى جسده بالمعاصير ، ثم الاحراق بالنار حيا آخر الأمر =

ثلاثة سواه معه ويحد اذا لم يتم نصاب الشهادة ولا بد من الاعذار الى المشهود عليه فيه كما يعذر اليه فى سائر الشهود — لعل له طعنا عليه أو على غيره تسقط به أقواله . ولا تقبل شهادته لأبيه

= وفى جميع أدوار العذاب يقف الآباء الرحماء رجال الدين والقساوسة يرتلون عليه الآيات ، ويسألون الله الرحمة لهذا المعذب . فهم يسألون له رحمة لا تجد قلوبهم مسها فى انفسهم .

ان حرمان العقول والأفهام من التغذى بمعانى القرآن وقضاء لبانتها من جماله وجلاله وبهائه ، وقسر العقول عن أن ترفض ما عقلت ، وأن تقبل من المعانى ما عقله الغير وفهمه ، لا يليق بالاسلام ، وانما يليق بالكهنوت الذى جاء الاسلام بحل النفوس من أسره وأرسل الله لذلك محمدا صلى الله عليه وسلم وهو (النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباعندهم فى التــوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

قال حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة فى تقريرهم — دليلا على خطأى — ان نص التوراة لم يشمل على يمين ، فلا ندرى اين اخذ هــذه اليمين التى ذكرها وشــبهها بيمين القســامة فى الشريعة الاسلامية ؟ . اللهم الا ان يقال : ان صراخهم قائلين « ايدينا لم تسفك هذا الدم ... » الخ يعتبر يمينا عندهم وهو بعيد جدا . ولعله اخذها من وضع أيديهم فى الدم ويعتبر ذلك يمينا» اهـ .

اقول : انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا . وهذا امر اصطلاحى يرجع فيه الى اهل الذكر (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر) .

ولكى ازيد حضراتهم بيانا اقول انكم لم تروا اسم الله محلوفا به عندهم فارتبتم فى كون ذلك القول منهم يمينا . ولكن اذا علمتم أن اليهودى لا ينطق لسانه باسم الله تعالى وهو عندهم (يهووا) علمتم السر فى عدم ذكر اسم الله فى القسم . ذلك انه جاء عندهم فيما يسمونه التوراة « ٢٠ : ٧١ — خروج » لا تنطق باسم الرب الهك باطلا . لأنه لايبرىء من نطق باسمه باطلا .

فهذه العبارة جعلتهم يتحرجون من ذكر اسم الله مطلقا فى باطل او حق ، وهم الى اليوم حتى فى اثناء قراءة التوراة اذا عرض لهم اسمه اثناء القراءة يبدلونه باســم آخر يدل على الله تعالى وليس اسما له . فاذا جاء فى التوراة مثلا « ويؤمر يهووا لأبرام » فان اليهودى يقرأ هكذا « ويؤمر هـ شم لابــرام » .

و « هـ شــم » معناها الاسم أو يقرأ هــكذا « ويؤمر الوهــيم لابرام » او « يؤمر ادوناى » . وهذا هو السبب فى خلو القسم عندهم عن ذكر اسم الله .

اذا عرف حضراتهم هذا فقد استبان اعتبار قولهم صارخين « أيدينا لم تسفك ... الخ » قســـما .

قال اصحاب الفضيلة اعضاء اللجنة فى الوجه الأول « من وجوه الخطأ من جهة الدراية » : انه على هذا الفهم لا يكون للمذكور من القصة الأولى فى القرآن الكريم معنى محصل ... الخ .

والذى اقوله لحضراتهم : إن المعنى ظاهر واضح الأثر اذا قراتم بعد تلك القصة قوله تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) اى ان الله تعالى يقطع طماعيـــة المســلمين فى ايمان اليهــود ببيــان عنادهم وابطائهم عن اجابة امر الله تعــالى — بعد تبليغه لموسى وتبليغ موسى اياهم — بل صاروا يتلمسون العلل للتسويف والابطاء . وهؤلاء ابناؤهم الذين طبعوا على غرارهم وصــبوا فى قالبهم « والأصول عليها ينبت الشجر — والعصــا من العصية — والحية لا تلد الا حية » فهم اشبه بهم من الغراب بالغراب . فالعظة بذلك تحصل للمؤمنين . وتبين لهم السبب فى وقوفهم عن الايمان وتقطع طماعيتهم فى أن يؤمنوا . وهى مع ذلك تقرعهم وتظهر صلابة اعناقهم .

وليس من الضرورى فى وجوب طاعة الله ورسوله ان يظهر السبب للمامور حتى يمتثل ؛ بل كون الأمر صادرا من الله مبلغا بلسان الرسـول الكريم الذى لا ينطق عن الهوى كاف . فليس من حق كل من اصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة أن يخالف عن أمر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم =

ولا لابنه ، كما لا تقبل شهادة سائر الناس بذلك . واذا أوقع على زوجته طلاقا وقع كما يقع طلاق سواه . واذا أقر بمال لغيره على نفسه قبل منه الاقرار وأخذ به — كما يقبل من غيره

= اذا بلغه أمر الله اياه بذبح بعيره أو ناقته انه عاصره (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

وبذلك ادفع قولهم « والاجابة عن ذلك بأن الغرض ... » الى قولهم « بل ربما أبدت الطبيعة البشرية لهم بعض العذر على هذا التباطؤ » .

قالوا « على انه لو ذكرت القصة بتمامها على ما فهمه أخذا من التوراة لم يفهم السامع منها فى البقرة سببا معقولا لاظهار براءة القاتل لا خارقا للعادة ولا معتادا » .

أقول : ليعلم أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة انى لم ادع ان موسى عليه السلام امر قومه بذبح البقرة ليأتيهم فى هذا الشأن بأمر خارق للعادة وهم لم يطلبوا منه ذلك .

وليس من الضرورى أن تكون امور النبى من الأنبياء كلها خارقة للعادة ، فلا يأكل الا بأعجوبة ، ولا يشرب الا بأعجوبة ، ولا ينام الا بأعجوبة ، ولا يصحو الا بمعجزة ولا يمشى الا بمعجزة ، ولا يتكلم الا بمعجزة ، ولا يقعد الا بمعجزة بل قلت « ان موسى اتى برجال أقرب محلة من مكان القتيل وأحلفهم عليها بعد ذبحها » الخ .

وبنحو الذى قلت قال صاحب تفسير المنار . ونص عبارته « والظاهر مما قدمنا ان ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القاتل — اذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله — ليعرف الجانى من غيره . فمن غسل يده وفعل ما رسم فى الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية . وأما قول حضراتهم « ولا معتادا » فاذا كانوا يريدون ان ذلك الأمر ليس معتادا عندنا فالأمر ظاهر . وأما اذا كانوا يريدون انه ليس معتادا عند اليهود ؛ فقد علموا انهم ليس لهم ان يحكموا هذا الحكم على قوم لم يدرسوا كل شريعتهم ولا عاداتهم .

ان ذلك الذى ذكرتموه من انها قصة واحدة ، وان القتيل حى واخبر بقاتله ؛ لا يتم لكم الا اذا كانت الآية القرآنية صريحة فى ان الله قال لهم اضربوا النفس التى قتلتموها ببعض البقرة التى ذبحتموها فيحيا القتيل ويخبركم بقاتله فضربوه ببعضها فحيى واخبرهم بقاتله .

اما وهذه الأمور لم تبين فى الكتاب الكريم فليس لديكم نص قرآنى صريح على ان ماذهبتم اليه وذهب اليه المفسرون هو الوجه الذى لا محيد عنه .

يقول أصحاب الفضيلة « ثم ما علاقة هذه اليمين بذبح البقرة وغسل الأيدى عليها » ؟

والذى اقوله لحضراتهم : ان اليهود فى تشريعهم تقديم القرابين فى كثير من الأشياء التى يعملونها . فالمراة اذا طهرت من الحيض تقدم قربانا . واذا طهرت من نفاسها تقرب قربانا . واذا أخطأ الرجل خطيئة قدم قربانا . واذا ولدت أبقاره قدم أبكار أولادها قربانا . ويقدم باكورة حنطته وزيته وخمره . من هذا كله نجد طقوسهم الدينية حافلة بوجوب تقديم القرابين والمحرقات . فكان الحلف للبراءة من جريمة سفك الدماء مما يقدم بين يديه قربان . وهذا أمر مفهوم فى دين تقوم طقوسه على القرابين بدون معرفة علة لذلك أو سبب .

جاء فى « ص ١٤ — لاويين » ما نصه :

(١) وكلم الرب موسى قائلا (٢) هذه تكون شريعة الأبرص يوم طهره يؤتى به الى الكاهن (٣) ويخرج الكاهن الى خارج المحلة فان رأى الكاهن واذا ضربة البرص قد برئت من الأبرص (٤) يأمر الكاهن أن يؤخذ للمتطهر عصفوران حيان طاهران وخشب ارز وقرمز وزوفا ويأمر الكاهن ان يذبح العصفور الواحد فى اناء خزف على ماء حى (٥) أما العصفور الحى فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفا ويغمسها مع العصفور الحى فى دم العصفور المذبوح على الماء الحى (٦) وينضح على المتطهر من البرص سبع مرات فيطهره . ثم يطلق العصفور الحى على وجه الصحراء (٧) فيغسل المتطهر ثيابه ويحلق كل شعره ويستحم بماء فتطهر . ثم يدخل المحلة لكن يقيم خارج خيمته سبعة أيام (٨) وفى اليوم السابع يحلق كل شعره : راسه ولحيته وحواجب عينيه وجميع شعره يحلق =

ويؤخذ به — واذا ادعى مالا على الغير لا يحكم له به بمجرد دعواه بل لا بد من اثبات ذلك بالبينة العادلة . فهو انسان كبقية الأناسى لا فضل له على سواه ولا مزية له على سائر البشر.

= ويغسل ثيابه ويرحض جسده بماء فيطهره (٩) ثم فى اليوم الثامن يأخذ خروفين صحيحين ، ونعجة واحدة حولية صحيحة ، وثلاثة اعشار دقيق ، تقدمه ملتوتة بزيت ولج زيت (١٠) فيوقف الكاهن المتطهر واياها امام الرب لدى باب خيمة الاجتماع (١١) ثم يأخذ الكاهن الخروف الواحد ويقربه ذبيحة . ثم مع لج الزيت يرددهما ترديدا أمام الرب (١٢) ويذبح الخروف فى الموضع الذى يذبح فيه ذبيحة الخطية والمحرقة فى المكان المقدس. لأن ذبيحة الاثم كذبيحة الخطية للكاهن . انها قدس اقداس (١٣) ويأخذ الكاهن من دم ذبيحة الاثم ، ويجعل الكاهن على شحمة اذن المتطهر اليمنى وعلى ابهام يده اليمنى وعلى ابهام رجله اليمنى (١٤) ويأخذ الكاهن من لج الزيت ويصب فى كف الكاهن اليسرى (١٥) ويغمس الكاهن اصبعه اليمنى فى الزيت الذى على كفه اليسرى وينضح من الزيت بأصبعه سبع مرات أمام الرب (١٦) ومما فضل من الزيت الذى فى كفه يجعل الكاهن على شحمة اذن المتطهر اليمنى وعلى ابهام يده اليمنى وعلى ابهام رجله اليمنى على دم ذبيحة الاثم (١٧) والفاضل من الزيت الذى فى كف الكاهن يجعل على راس المتطهر ،ويكفر عنه الكاهن امام الرب (١٨) ثم يعمل الكاهن ذبيحة الخطية ويكفر عن المتطهر من نجاسته ، ثم يذبح المحرقة (١٩) ويصعد الكاهن المحرقة والتقدمة على المذبح ويكفر عنه الكاهن فيطهر . ا هـ .

فحضرات اعضاء اللجنة يرون جعل دم الذبيحة على شحمة اذن المتطهر ، وعلى ابهام يده اليمنى وعلى ابهام رجله اليمنى . ومثل ذلك جعل الزيت على هذه المواضع لا نعرف له معنى ولا يعرف له اليهودى معنى كذلك . ولكنها أوامر شرعية عندهم .

اما قول اصحاب الفضيلة بعد ذلك — اى بعد ذكر اليمين وذبح البقرة وغسل الأيدى عليها — لا نفهم لذلك علاقة سوى انه يرجع لعبادة العجل وتعظيمهم له نعوذ بالله من ذلك ! فانى اقول : ما كنت آمل أن يمتد بى زمنى حتى ارى فريقا من جلة العلماء بالأزهر الشريف يفهمون من ذبح بقرة من البقر والحلف من الناس — وهى امامهم — انهم ما سفكوا دما ولا راوا سافكه وغسل أيديهم عليها يعتبر ضربا من ضروب عبادة العجل وتعظيم أولئك القوم له ، ولكن الأيام أرتنى ما لم ترنى الأحلام . أسأل الله تعالى ان يبقى حضراتهم لاستخراج نفائس العجائب وفوائد الغرائب .

الوجه الثانى

قال اصحاب الفضيلة اعضاء اللجنة « انه لا يظهر فى هذه القصة ما يقنع بعدم وجود الهزؤ والسخرية الا مجرد صدور الطلب من موسى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى من غير أن يظهر لهم فائدة هذا الأمر الغريب فى العادة ، خصوصا بالنسبة لبنى اسرائيل الذين اشتهروا بالعناد والتعنت وبطء الانقياد مع ظهور الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات » ا هـ .

والايراد الذى أوردوه على الوجه الذى اوردته هو بعينه يرد على الوجه الذى اختاره المفسرون ورضيه أعضاء اللجنة ، فان موسى عليه السلام لم يبد لهم فى مقابلة قولهم (أتتخذنا هزوا) الا قوله (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) فكان مجرد صدور ذلك منه كافيا لهم عن طلب الوقوف على الأسباب والنتائج لطلبه هذا . ولطف الله تعالى بعبده موسى بن عمران اذ لم يكن حضرات أعضاء اللجنة شهودا ، حتى يبصروهم بأن هذا القول غير مقنع وأنهم لابد لهم من الاستقصاء ومتابعة السؤال عن الأسباب والنتائج . ومن لطف الله تعالى بموسى عليه السلام أن كان وجود حضراتهم بعد آلاف من السنين مضت على الحادثة .

انا لا اقول فى هذا الوجه انه خال من الفائدة والقيمة ! وانما أقول انى لم افهم الحكمة العالية من ايراده ، وهو وارد على ما فهمته ، وعلى الوجه الذى فهموه أيضا ، ولا الحكمة فى استصغار طلب موسى منهم ان يذبحوا البقرة امتثالا لأمر الله تعالى ، واسأل الله أن يهبنى من العلم ما افهم به ذلك .

الوجه الثالث

كتب اصحاب الفضيلة فى هذا الوجه ما نص فى كلامهم — وهم يتساءلون عن مأخذ مرجع الضمير — ثم جزموا بأنه قوله تعالى (قتلتم) وانه يؤخذ من القصة أن المتهم متعدد وكان الظاهر أن يقال :

وقتله ثم حياته لم يخرجه عن البشرية ولم يجعل له حكما خاصا به ليس لغيره من الناس . واذا لم تقبل دعواه فى درهم مع قلة خطره فكيف يقبل قوله فى الدماء المعصومة ! وكيف تهدر بقوله

= اضربوهما او اضربوهم ، ولا يغنى أن يقال اضربوا جنس المتهم المتحقق فى أشخاص عدة ، وان هذا تكلف بل تعسف . ثم تساءلوا من أين جاءنى هذا الرأى الذى لم يساعده الأسلوب ولم يؤيده المعقول ؟ بل ينافيه وتمجه العقول ! سامحهم الله .

والذى اقوله ان الكتاب الكريم يقول (واذ قتلتم نفسا) ومن البديهى أن بنى اسرائيل كانوا اكثر من مئات الوف ، ولا يمكن ان يكونوا قاتلين جميعا . والمخاطبون فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسوا بأنفسهم قاتلين ؛ بل الذى باشرالقتل واحد او اثنان . على عهد موسى . ومثل هذا يقال فى قوله (فاداراتم) فان الذين تداراوا ليسوا جميع بنى اسرائيل ، ومن البين بنفسه ان التدارؤ هو أن يدفع الشخص القتل عن نفسه ويلصقه بآخر بعينه . وهذا لا يكون الا فى محصورين . وضرب من وقعت عليهم الشبهة لا يكون جملة واحدة ؛ بل يقدم واحد فان ظهرت عليه امارة القتل اكتفى به واذا لم تظهر عليه اتى بواحد آخر . فالذى يقع عليه الضرب واحدمن المتدافعين الىان تظهر الأمارة على واحد . فمأخذ مرجع الضميرهو قوله تعالى (فاداراتم) ولما كان الضرب لايكون على المتدارئين دفعة واحدة ؛ بل الضرب يقع كل مرة على فرد واحد كما قدمنا عبر بقوله (قلنا اضربوه ببعضها) اذ قد يستبين الأمر من اول واحد ، وحينئذ يكون مرجع الضمير معلوما من المقام منطويا ضمنا فى قوله (فاداراتم) وقد جاء فى القرآن الكريم عود الضمير على معلوم من المقام غير مذكور فى الكلام .

اقرءوا قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف . ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد . فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه الثلث فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها اودين) فان الضمير فى قوله (مما ترك) وما بعدها يعود على المورث المعلوم من المقام ومثل ذلك قوله تعالى (وان خفتم شقاق بينهما ... الخ) فان الضمير يعود على الزوجين المعلومين من المقام المندرجين ضمنا فى قوله قبل ذلك (الرجال قوامون على النساء) وانى أؤكد لحضراتهم انى قرات فى كتب النحو « ان الضمير يعود الى أقرب مذكور » واقرب مذكور يمكن ان يعود الضمير عليه مؤنثا فى قوله (ببعضها) هو النفس . وأما البقرة فهى ابعد مذكور . وما كان لعربى او فاهم للعربية أن يفعل ذلك ، وان العربى اذا اراد أن يرجع الضمير الى البعيد صرح بالاسم ، فكان مقتضى مرادكم ان يقول « فقلنا اضربوه ببعض البقرة » . فالاحتمال الذى أوردته هو الموافق لقواعد العربية التى انتم جهابذتها فان قال حضراتهم : انا جعلنا مرجع الضمير فى قوله (اضربوه) هو النفس باعتبار انها فى الحقيقة نفس رجل ؟ قلت : ومن اين يتعين انها نفس رجل ؟ واين الدليل على ذلك ؟ ومن ذلك كله يتبين أن ما قالوه ليس بمانع من جواز الاحتمال الذى اوردته . بل هو الصق واوفق بقواعد اللغة ونص المفسرين ليس مانعا من جواز ذلك الاحتمال .

فالناظر الى أقوال حضراتهم والى أقوال المفسرين يجد أنهم فرضوا اولا قتيلا حيي واخبر بقاتله . ثم اخذوا يقدمون فى آيات القرآن ويؤخرون ، ويعودون بالضمير على البعيد دون القريب وهو غير مناسب للعربية ، ويصلون ما فصل الله ولم يسايروا القرآن حتى يهجم بهم على المعنى ، بل قسروه على المعنى الذى فرضوه قسرا .

الوجه الرابع

كتبت اللجنة فى هذا الوجه ما هو منصوص ــ وبعد ان ذكرت أن الكلام يحتاج الى التجوز فى لفظى « يحيى ــ وموتى » قالت : لم يعهد فى القرآن الكريم ــ على ما نعلم ــ التجوز بلفظ (الموتى) عن هذا المعنى ــ وهو يقتضى أن القرآن الكريم لا يصح أن يجىء فيه مجاز الا اذا عهد مجىء مجاز آخر قبله على شاكلته ــ وهذا مشكل لأن أول مجاز جاء فى القرآن لا بد أن يرد لأنه لم يعهد فى القرآن مثله . ثم قالت : الثانى عدم وجود قرائن لهذه المجازات . =

وحده النفس التى لا تباح الا بحقها من كفر بعد ايمان ! وزنا بعد احصان ! وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ؟!

= والذى اقوله لحضراتهم . ان القرآن الكريم قد عهد فيه المجاز فى الحياة والموت لما هو ابعد من هذا المعنى قال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى النـاس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) فعبر بلفظ (ميتا) عن الضال ، وبلفظ « الاحياء » عن الهداية . ومن كان على خطر الموت اقرب الى الموت من الضال .

واما القرينة التى نشدوها ولم يجدوها فهى موجودة ، وهى المعبرة عنهم بالموتى موجـودون احياء يرزقون ، ولا شك ان حفظ حياة من كان على خطر فراقها يعبر عنه بالاحياء ، وبذلك سقط قول اللجنة « وهذا الفهم فى معرض النزاع فلا يقبل دليلا » وقولها « فهل عهد فى اللغة العربية التعبير بمثل هذه العبارة فى مثل هذا المقام » واقول ايضا : قد عهد التعبير فى العربية عن حفظ الحياة بما هو اغرب من هذا ، فهذا الشاعر يقول :

ما زلت تعمل من لطف احتيالك لى حتى اختلست حياتى من يدى اجلى

وانى ليحزننى ان يقف ذهن حضراتهم فى قوله تعالى (كذلك) وحيرتهم فى مرجع اسم الاشارة ، وما كنت اظن ان حضراتهم يتوقفون هذا التوقف فى شئ لم يتوقف فيه احد . فان اسم الاشارة يرجع الى ما أمرهم به من ضرب المتهم ببعض النفس التى تداراوا فيها ، فان الله يحفظ به حياة من كانوا عرضة للقتل للاشتباه فيهم وهم برءاء واما قولهم « توقف صحة هذا الكلام على ان تلك الحادثة تبرأ فيها اناس ادام الله حياتهم بعد أن كانوا فى مظنة أن يموتوا الخ » .

فالذى اقوله لحضراتهم : ان الكتاب الكريم يبين لنا أن القتل الذى وقع كان المتهمون فيه عددا ، وكان كل واحد منهم يدفع القتل عن نفسه وينسبه الى آخر ، ومن البين بنفسه انهم ليسوا برءاء جميعا ولا قاتلين جميعا . بل القتل صدر من بعضهم أو واحد منهم فقط . واهل الخبرة بهذه الأمور قالوا ان القاتل الحقيقى تعتريه انفعالات نفسية وجزع يدوم بخلاف غير القاتل . وعلى ذلك : فانى لا اخشى مفندا اذا قلت أن قرينة القتل قد ظهرت على بعض المتهمين ولم تظهر على البعض الآخر وهم الذين عبر عنهم بأنه يحييهم بعد ان كانوا على خطر الموت . والتعبير بالاحياء عن استنقاذ حياة الشخص من خطر الموت وارد فى قوله تعالى (من اجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس او فساد فى الارض فكانما قتل الناس جميعا ومن احياها فكانما احيا النـاس جميعا) فكل أمر يؤدى الى معرفة القاتل الحقيقى احياء لسائر المتهمين واستنقاذ لحياتهم من الهلاك .

قالت اللجنة : ثم انه لم يتعرض لتفسير قوله تعالى (ويريكم آياته لعلكم تعقلون) .

اقول : ان من آيات الله تعالى الباهرة الدالة على قدرته وحكمته أن جبل الانسان وركز فيه هذه الغريزة — غريزة تبكيت الضمير والأسف على ارتكاب الجرائم والانفعال — حين رؤيته لآثارها بعد ظهورها وانها لا تنقص عن اختلاف الالسن والألوان فى دلالتها على القدرة . والحكمة فى قوله تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف الســنتكم وألوانكم) . وليس من الضرورى أن تكون آيات الله مرتجلة تشده منها العقول وتدهش منها الألباب — كما يريدون — فبارشـادهم الى هذه الطريقة التى شرحتها فى الكتاب قد اراهم بعض آيات قدرته وحكمته .

وهاكم بيان معنى الآية واستعمالاتها فى القرآن الكريم :—

الآية فى استعمال القرآن

قال الراغب : الآية هى العـلامة الظاهرة وحقيقته لكل شئ ظاهر هو ملازم لشئ لا يظهر ظهوره . فمتى ادرك مدرك الظاهر منهما علم انه أدرك الآخر الذى لم يدركه بذاته اذ كان حكمهما سواء . وذلك ظاهر فى المحسوسات والمعقولات . فمن علم ملازمة العلم للطريق ثم وجد العلم علم انه وجد الطريق . وكذلك اذا علم شيئا مصنوعا علم انه لابد له من صانع . وقيل للبناء العالى آية نحو (اتبنون بكل ريع آية) ولكل جملة من القرآن هـ . —

قد يقولون : انه لما كان أحياؤه معجزة كان قوله فى الدماء مقبولا . فانا نقول ان المعجزة انما كانت فى احيائه اذا كانت قد حصلت وكان عنها عود الحياة اليه . فلما حيى كان قوله كسائر

= **تعريف معنى الآية فى كليات ابى البقاء ص ٨٨**

الآية فى الأصل هى العلامة الظاهرة ، واشتقاقها من « أى » لانها تبين « ايا » عن « اى » وتستعمل فى المحسوسات والمعقولات . يقال لكل ما تتفاوت به المعرفة بحسب التفكير والتأمل فيه وبحسب منازل الناس فى العلم « آية » ويقال على ما دل على حكم من احكام الله ، سواء كانت آية او سورة أو جملة منها .

والآية ايضا طائفة حروف من القرآن علم بالتوقيف انقطاع معناها عن الكلام الذى بعدها فى أول القرآن ، وعن الكلام الذى قبلها فى آخره ، وعن الذى قبلها والذى بعدها فى غيرهما غير مشتمل على مثل ذلك والآية تعم الأمارة والدليل القاطع ا هـ .

الآية — بمعنى طائفة حروف من القرآن

قال تعالى (منه آيات محكمات — الر تلك آيات الكتاب الحكيم — تلك آيات الكتاب المبين — واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل) .

الآية — بمعنى العلامة

قال تعالى (قال رب اجعل لى آية — ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت — يوم يأتى بعض آيات ربك — اتبنون بكل ريع آية تعبثون — ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون — لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية) .

الآية — بمعنى المعجزة

قال تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات — اذهب انت واخوك بآياتى — واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها — فان استطعت ان تبتغى نفقا فى الأرض او سلما فى السماء فتأتيهم بآية — وأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات — وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون — وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله — وادخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات) .

الآية — بمعنى العبرة والعظة

سواء استقل بها الله او أجراها على يد انسان ، وسواء أكانت خارقة للعادة ام غير خارقة للعادة:

(١) فما استقل بها الله قوله تعالى :

(ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب — وجعلنا الليل والنهار آيتين — وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون — وهو الذى انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) — ومن آياته ان خلقكم من تراب — وآية لهم الليل نسلخ منه النهار — ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) .

(ب) ومن التى اجراها الله تعالى على يد الانسان قوله عز وجل :

(ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله — ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم — وآية لهم انا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق — ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام — الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى كلوا وارعوا انعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى أفلم يهد لهم كم اهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) . =

أقوال الناس — كما نص على ذلك الامام أبو بكر ابن العربى ونقله عنه القرطبى فى أحكامه — وليس من المعقول ولا المقبول فى الأفهام أن يقبل قوله فى دعوى القتل ، وتباح بذلك اراقة الدم =

الآية — بمعنى حكم من احكام الله

قال تعالى (تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) .

الآية — بمعنى السلطان

قال تعالى « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون » .

وقد تحصل لنا من ذلك ان الآية من آيات الله لا تنحصر فى الشىء الخارق للعادة المعجز للبشر تشده له العقول فقط — كما فهم حضرات أعضاء اللجنة — ولكنها تطلق على :

١ — الطائفة من القرآن .

٢ — العـلامة .

٣ — المعجزة .

٤ — العبرة والعظة سواء استقل بها الله تعالى أو اجراها على يد الانسان ، وسواء أكانت خارقة للعادة أم غير خارقة لها .

٥ — الحكم من احكام الله تعالى .

٦ — السلطان والبرهان .

وما ذكرته ليس خارجا عنهـا بل هو من صميمها . واكبر ظنى انهم يعرفون الآية ولكنهم ينكرونها لغرض خاص هو الذى جعلوا وكدهم فيه ، وهو تزييف قولى على كل حال .

(الوجه الخامس) جاء فيما كتبته اللجنة تحت هذا العنوان ما نصه « وهل الاضطراب الذى يحصل للمتهم بالقتل اذا عرض على القتيل او ضرب ببعضه ، يجب به قصاص فى الشريعة الموسوية أو فى الشريعة الاسلامية او بحسب القوانين الوضعية حتى يترتب عليها احياء الله الموتى » ؟

اقول : اما الشريعة الموسوية فلا شأن لكم ولا لأحد بها فى هذه الحادثة . فان موسى رسول الله عليه الصلاة والسلام كان شاهد هذه الحادثة ولم يتركهم حيارى ، بل انفذ أمر الله تعالى وبين لهم ما يعملون فى امثالها بيانا كافيا . واذا كانت كتبهم خالية من مثل هـــذا العمل فليس ذلك عيب شريعتهم ، ولكنه عيب اولئك اليهود الذين جعلوا كتابهم قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا . وقد استحفظوا على كتابهم فلم يحفظوه كما يشهد التاريخ وكتبهم بذلك .

واما الشريعة الاسلامية فانكم تعلمون — كما أعلم — ان بعض الأئمة يرى الأخذ بالقرائن فى بعض الأمور . وقد عول الله تعالى عليها فى قوله تعالى فى المنافقين . (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) فهذه القرينة التى بينها الله لرسوله — لتدل على المنافق — لها خطر عظيم . فانه ينبنى عليها انه لا يستغفر لمن ظهرت عليه ولا يصلى عليه رسول الله ولا يقوم على قبره . وقد جعل الله ذلك الحكم منوطا بتلك القرينة فكيف يسوغون لانفسهم القول بأن القرينـــة لا يعول عليهـا شرعا ؟

= قال ابن القيم فى كتابه « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٥ . فان السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر بعين الشريعة ، علمها من علمها وجهلها من جهلها . ولا تنس فى هذا الموضع « نور » نبى الله سليمان صلى الله عليه وسلم للمراتين ، كذا فى الأصل ولعلها « قول » اللتين ادعتا الولد فحكم به داود صلى الله عليه وسلم للكبرى . فقال سـليمان : ائتونى بالسكين اشقه بينهما فسمحت الكبرى بذلك وقالت الصغرى : لا تفعل — رحمك الله — هو ابنها ! فقضى به للصغرى . فأى شىء أحسن من اعتبار =

المعصوم . ثم اننا نرد دعواه فى الشىء الحقير التافه كالدرهم اذا ادعاه — فان الدماء يجب فيها الاحتياط اذ الحياة اذا ذهبت فلا عودة لها فى هذه الدار ، بخلاف الدرهم فان خطبه يسير

= هذه القرينة الظاهرة ؟ فاستدل برضا الكبرى وانها قصدت الاسترواح الى الناس بمساواة الصغرى فى فقد ولدها وشفقة الصغرى عليه وامتناعها من الرضا بذلك دل على انها أمه ، وان الحامل لها على الامتناع من الدعوى ما قام بقلبها من الرحمة والشفقة التى وضعها الله فى قلب الأم . فاتضحت هذه القرينة عنده حتى قدمها على اقرارها فانه حكم به لها مع قولها هو ابنها وهذا هو الحق . فان الاقرار اذا كان لعلة اطلع عليها الحاكم لم يلتفت اليه أبدا . ولذلك ألغينا اقرار المريض — مرض الموت — بمال لوارثه لانعقاد سبب التهمة ، واعتمادا على قرينة الحال فى قصده تخصيصه .

ومن تراجم قضاة السنة والحديث على هذا الحديث ترجمة أبىعبد الرحمن النسائى فى سننه قال : التوسعة للحاكم فى أن يقول للشىء الذى لا يفعله افعل كذا ليستبين به الحق . ثم ترجم عليه ترجمة اخرى احسن من هذا فقال : الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه اذا تبين للحاكم من الحق غير ما اعترف به ، (فهذا (*) يكون الفهم عن الله ورسوله . ثم ترجم عليه ترجمة اخرى فقال : نقض الحاكم ما حكم به غيره ممن هو مثله أو أجل منه . فهذه ثلاث قواعد . (ورابعة) وهى ما نحن فيه وهى الحكم بالقرائن وشواهد الحال . (وخامسة) وهى انه لم يجعل الولد لهما كما يقوله ابو حنيفة . فهذه خمس سنن فى هذا الحديث .

ومن ذلك قول الشاهد الذى ذكر الله شهادته ولم ينكرها ، بل لم يعبه ، بل حكاها مقررا لها فقال تعالى (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من اراد بأهلك سوءا الا ان يسجن أو عذاب اليم ، قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من اهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما راى قميصه قد من دبر قال انهمن كيدكن ان كيدكن عظيم) .

فتوصل بقد القميص الى تمييز الصادق منهما من الكاذب ، وهذا لوث فى احد المتنازعين يتبين به وجه الحق . وقد ذكر سبحانه اللوث فى دعوى المال فى قصة شهادة أهل الذمة على المسلمين فى الوصية فى السفر وأمر بالحكم بموجبه . وحكم النبى صلى الله عليه وسلم بموجب اللوث فى القسامة وجوز للمدعين ان يحلفوا خمسين يمينا ويستحقوا دم القتيل ، فهذا لوث فى الدماء . والذى فى سورة المائدة لوث فى الأموال . والذى فى سورة يوسف لوث فى دعوى العرض ونحوه .

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه والصحابة معه برجم المراة التى ظهر بها حمل ولا زوج لها ولا سيد . وذهب اليه أحمد ومالك فى أصح روايتيه اعتمادا علىالقرينة الظاهرة . وحكم عمر وابن مسعود رضى الله عنهما — ولا يعرف « لهما » مخالف من الصحابة — بوجوب الحد برائحة الخمر من فى الرجل او قيئه خمرا ، اعتماد على القرينة الظاهرة . ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون بالقطع اذا وجد المال المسروق مع المتهم . وهذه القرينة أقوى من البينة والاقرار ، فانهما خبران يتطرق اليهما الصدق والكذب . ووجود المال معه نص صريح لا يتطرق اليه شبهة . وهل يشك أحد رأى قتيلا يتشحط فى دمه وآخر قائم على رأسه بالسكين انه قتله ؟ ولا سيما اذا عرف بعدوانه . ولهذا جوز جمهور العلماء لولى القتيل أن يحلف خمسين يمينا ان ذلك الرجل قتله . ثم قال مالك وأحمد : يقتل به .

(فصل) ومن ذلك أن ابنى عفراء لما تداعيا قتل أبى جهل فقال « هل مسحتما سيفيكما ؟ » قالا : لا ، قال « فأريانى سيفيكما » فلما نظر فيهما قال لأحدهما « هذا قتله » وقضى له بسلبه (**) وهذا من أعظم الأحكام وأحقها فى الاتباع ا هـ .

(*) لعلها « هكذا »

(**) أى رسول الله

والحصول عليه بعد فوته غير عسير ، والأنفس تسمح به ؛ بخلاف الحياة التى ليس لها عودة فى هذه الفانية .

= واما القوانين الوضعية ؛ فقد استباح حضرات أصحاب الفضيلة لأنفسهم القول بأنه ليس للقضاة ـ بمقتضى هذه القوانين ـ أن يحكموا لمجرد اضطراب أو رعدة باعدام المتهم او بسجنه مدة تناسب جريمة القتل .

اقول : كان فى حكم الحق الواجب على حضراتهم للعلم الا يطفروا هذه الطفرة ، وأن يتريثوا حتى يسألوا اهل العلم بالقوانين التى يجرى العمل فى هذه البلاد على مقتضاها ، حتى لا يظهروا بمظهر المتوطن فى قارة غير هذه القارة فلا يعلم من أمرها شيئا .

ان اصغر كاتب فى مكاتب المحامين يعلم علما ليس بالظن : أن القاضى الجنائى ليس مقيدا فى جمع الأدلة التى يكون بها اعتقاده فى ادانة المجرم الا بضميره فقط ، فله أن يقذف بالشهادات التى قدمت له من حالق . ولا يمنعه اعتراف المجرم بارتكاب الجريمة من تكذيبه وأن يضرب باقراره عرض الحائط ، ويحكم ببراءته من الجريمة التى اعترف باقترافها كاذبا . فهو يكون اعتقاده من الأحوال والمناسبات والقرائن التى تحتف بالجريمة وظروفها ، ومن انفعالات المتهم ، وما يبدو على الشهود من اضطراب أو اصفرار أو تلعثم . فكل ذلك له دخل فى تكوين اعتقاد القاضى فى الجريمة والفاعل . وبحسب اعتقاده الادانة او البراءة يصدر حكمه . وليس لمحكمة النقض والابرام سيطرة عليه فى هذا . وانما سيطرتها على الاجراءات والخطأ فى التطبيق فقط .

ومن الأمثلة على ما قدمت : أن قتل قتيل من اسرة شتا المشهورة فى الجهات البحريه من مديرية الغربية وهو جمال الدين شتا . وكان القتل بمنزل الأسرة بدرب الأبشيهى بطنطا . وشرعت النيابة فى التحقيق واتهم بالقتل احد أبناء الأسرة ، فجاء خادم المنزل وأقر طائعا مختارا أنه هو القاتل . ولما قدمت القضية الى المحكمة وحصلت المرافعة حكمت ببراءة القاتل ـ المعترف بالقتل والمصر عليه الى ما بعد النطق بالحكم ـ وحكمت على قريب القتيل بالسجن .

يا قوم ان شعرة واحدة توجد بين أظافر القتيل ـ تحلل كيمائيا ويقابل تحليلها بتحليل شعرة من المتهم ـ تكفى لجعله متهما وللحكم عليه بأنه مرتكب الجريمة ويعاقب عليها . وقطعة من القماش توجد بين أسنان القتيل يوجد نظيرها مقطوعا من ثياب المتهم كافية لاعتباره قاتلا .

لا ؛ بل قطعة من المواد البرازية تكفى للدلالة على المتهم واعتباره مجرما ؛ اذا اتحدت العناصر الأصلية فى العينة التى وجدت بمكان الجريمة بالعناصر الأصلية فى براز المتهم . بل اثر حذاء المجرم اذا وجد فى مكان الجريمة أو فى المكان الذى وجد فيه أثر للمسروقات كاف لاعتباره مجرما والحكم عليه بالعقوبة . وكذلك وجود اثر عضة فى جسم القتيل تكفى لاثبات الجريمة على المجرم متى ثبت أنها اثر أسنان المتهم . وكذلك وجود اثر عضة فى جسم المتهم تثبت عليه انه القاتل ، متى قورنت بأسنان القتيل ووجدت مطابقة لها .

أما كان الأجدر بأصحاب الفضيلة ان يكلوا الأمر فى هذا الشأن ـ الذى لم يدرسوا فيه سطرا ولم يقرءوا عنه صفحة واحدة من كتاب ـ الى من هم أولى به واقوم عليه .

وأما ما قالوه من أن الارتعاد والاضطراب قد يحصل للبرىء ، للأسباب التى ابدوها ؛ فقد تكفل خطاب مدرس التحقيق الجنائى بمدرسة البوليس بالاجابة عنه ؛ اذ يقول « على انه يجوز أن المتهم البرىء يجزع عند رؤية القتيل ، ولكن جزعه لا يدو وهو خارجى اكثر منه داخلى لرؤية المنظر فقط ، ولا بد أن يعود حالا الى الحالة الاعتيادية الأصلية لا الحالة الثانوية التى سنتكلم عنها » .

ويعجبنى جدا قول اللجنة « وهى لا تحصل للقاتل غالبا » اى أن القاتل يغلب عليه الا تعروه رعدة اذا عرض عليه القتيل . وأنا أنزه حضرات أعضاء اللجنة عن أن يكونوا قد باشروا القتل مجتمعين أو منفردين ، وقد جربوا أن الرعدة لم تحصل لهم حين عرض عليهم القتيل ! فكيف علموا ذلك ؟ =

(ثالثا) قد تقرر فى علم العربية أن الضمير يعود الى أقرب مذكور . فاذا طال الكلام وكان مرجع الضمير بعيدا ، فالبلاغة تقضى بأن يعاد الاسم مرة أخرى ليكون أقرب مذكور ليتأتى عود الضمير اليه بلا تشويش على القارىء أو السامع ، وتفاديا من تشتيت الضمائر .

= ان اهل الفن الذين درسوا ومارسوا وراوا مئين من القضايا يقولون انه لابد من حصول الجزع او الجذل للقاتل حين يرى قتيله ، وكل من الجذل والجزع امارات على حصول القتل تبعا للعوامل النفسية التى اعترت القاتل . واما حضرات أعضاء اللجنة فيقولون ان ذلك لا يحصل للقاتل ، فاى الفريقين احق بالاتباع ؟ ان رجال القوانين يقدرون القرائن والأحوال النفسية قدرها ويعولون عليها فى قبول شهادة الشاهد او ردها .

هذا الأستاذ محمود حسن وكيل وزارة الداخلية ــ سابقا ــ والمستشار الملكى بوزارة المالية حالا يقول :

اشترطت القوانين ان يؤدى الشاهد شهادته شفاها ، واعتبر علماء النفس كيفية الأداء وسيلة من وسائل تحقيق صحة الشهادة ، لما يبدو على الشاهد وقت الأداء من تاثر او انفعال كالاضطراب والحركات او الغضب او اصفرار الوجه ، وغير ذلك من التغيرات ، وصعوبة الأداء او سهولته ، والعبارة التى يؤدى بها شهادته ، والتانى والتردد ، ودرجة تاكيده للوقائع التى يشهد بها .

كل هذه يرى علماء النفس انها امارات تدل على صحة الشهادة وصدقها او كذبها ، وهى امارات تبدو على الشاهد اراد او لم يرد ، فهى تتكلم دائما وهى تصدق دائما . اما اللسان فقد يسكت وقد يسير فى غير الطريق المستقيم بخلاف تلك الأمارات ا هـ .

فهل يرى القارىء الكريم ان اتباع اعضاء اللجنة واجب فى مسألة هم ابعد الناس من العلم بها ! او الواجب اتباع راى اهل الخبرة الذين يقولون عن علم ودراسة ؟

جاء فى صفحة ١٣١ من كتاب التحقيق الجنائى « القسم الفنى » :

« امثلة القضايا المحكوم فيها بدليل بصمات الاصابع والأيدى الشأن المهم فى اكتشاف مرتكبيها او تعزيز الادلة عليهم ، وصدرت فيها الأحكام منصوصا فى اسبابها على ذلك ، ولا نستطيع ان نحصرها لكثرتها ، على اننا سنذكر على سبيل المثال قضية الجناية « نمرة ١٨٥٣ سنة ١٩٢٥ عابدين » ويتضح من بيان ما جاء بنص حكم محكمة جنايات مصر الصادر بتاريخ ٢٨ مايو سنة ١٩٢٧ » وقائع الدعوى فيها ، وأن بصمة اصبع المحكوم عليه التى تركها سهوا عنه فى محل الحادثة على الآنية الزجاجية التى كان بها بعض المصاغ المسروق ، هى التى دلت عليه ، بل كانت الدليل الوحيد القاطع الذى اخذت به المحكمة فى الحكم عليه .

الحكم واسبابه

وحيث انه بتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٥ وقعت سرقة فى منزل الخواجة الفريد عفيف وآخرين بواسطة مفاتيح مصطنعة حالما كانوا غائبين عن المنزل ، ولما حضروا وتبينت لهم سرقة مصوغاتهم ونقودهم واوراق مالية اخرى بلغوا البوليس . وهذا لاحظ عند المعاينة وجود بصمة اصبع على آنية زجاجية من الأوانى التى كانت بها بعض المصوغات المسروقة ، فحافظ عليها وانتدب احد موظفى قلم تحقيق الشخصية لاجراء اللازم نحوها ، فهذا الموظف رفع هذه البصمة بواسطة الفتوغرافية ، ثم بعد ذلك اخذ البوليس يتحرى ويضاهى بصمات اصابع المشتبه فى امرهم والمشهور عنهم ارتكاب السرقات ، وخصوصا سرقات الخزانات الحديدية ، حتى استدل على المتهم « عزب سلامة » الذى كان وقتئذ مقبوضا عليه فى سرقة من السرقات الكبيرة بناحية « بيلة » فاحضروه واخذت بصمة اصبعه الابهام ليده اليسرى مع شخص آخر كما أخذت بصمات اصبعه الموجودة =

يقول المفسرون : انه كان فى بنى اسرائيل شيخ موسر له ابن واحد قتله ابن عمه طمعا فى ميراثه . ثم جاء يطلب بدمه قوما آخرين . فأنكر الآخرون قتله ، وترافع القوم الى موسى ، فأمرهم

= له بأوراق الفيش ، واجريت عملية المضاهاة بمعرفة الموظف المذكور فتبين له بطريقة واضحة ان البصمة الموجودة على الآنية الزجاجية هى بصمة اصبع عزب سلامة المذكور .

وعلى ذلك قدمت النيابة القضية ضد المتهم المذكور بهذا الدليل وحده . فى الجلسة طعن المحامى عن المتهم على أعمال نجيب افندى تادرس موظف قلم تحقيق الشخصية المذكور ، وطلب تعيين خبراء آخرين فى هذا الفن لبيان الحقيقة . فالمحكمة ندبت محمد بك شعير وحسن بك رفعت الملمين بهذا الفن ، وقررت ايضا ان ينضم نجيب افندى تادرس اليهما فى العمل ، وذلك للاطلاع على البصمة التى وجدت على الآنية الزجاجية المضبوطة وعلى صورها الفتوغرافية ، ومضاهاتها على بصمات المتهم الموجودة بالأوراق ، وعلى ما ياخذونه من البصمات وقت العمل ، وبيان ما اذا كانت البصمة الموجودة على الآنية الزجاجية هى عين بصمات المتهم أم لا ؟ وقد قام الخبراء بهذه المامورية وقدموا تقريرا جاء مؤيدا لتقرير نجيب افندى تادرس واوضحوا فيه ايضا انهم وجدوا (١٦) علامة فى بصمة أصبع المتهم منطبقة على العلامات الموجودة فى بصمة الآنية الزجاجية .

وحيث ان المحكمة تاخذ بهذا الدليل القاطع لما ثبت علميا « من عدم تطرق الشك اليه » .

وحيث ان المتهم له ثلاث سوابق فى سرقات — وهى المبينة بصحيفة سوابقه — وتلك السوابق تجعله عائدا . . فلهذه الأسباب . . حكمت المحكمة حضوريا باعتبار عزب سلامة مجرما اعتاد الاجرام وارساله الى المحل المخصوص ليسجن به طبقا للمادة الأولى من دكريتو الاجرام الى ان يأمر وزير الحقانية بالافراج عنه .

ومن الأمثلة لتقرير الادلة قبل المتهم — اى بالقرينة — القضية نمرة ١٤٦٨ جنح جزئية عابدين سنة ١٩٢٦ وقد صدر الحكم من محكمة عابدين الجزئية على المتهم — الذى وجدت بصمة يده وكانت الدليل الوحيد على ارتكابه جريمة السرقة — بالحبس شهرين مع الشغل يوم ١٩٢٦/٩/٩ .

الم ياتكم يا حضرات الافاضل نبأ الجريمة التى هزت فرنسا ؟ تلك الجريمة التى نقلت جريدة الأهرام تفصيلها عن الجرائد الفرنسية فى شهر اكتوبر سنة ١٩٣٣ ؟

تلخص تلكم الجريمة فى أن رجلا له بنت وحيدة فى مقتبل العمر — مستهترة فى ارضاء شبابها تأوى الى حى الطلبة ، كثيرة الاخلاء — وجدت احد خلانها يشتهى ان يقتنى سيارة ؛ فصممت على قتل ابيها وامها وارسالهما الى الدار الآخرة ، وان تستولى على ما عندهما من نقود ليقتنى خليلها سيارة ، ولتتمتع هى وهو بما بقى فى السرف والبذخ ، فعمدت الى والديها فدست لهما السم . فأما والدها فلم يتوقف فى سبيله الى الآخرة ، وبزت منه بضعة عشر الف فرنك ، واما والدتها فصابرت الموت وتشبثت بأذيال الحياة ، فاثخنتها بالجراح حتى وثقت من ان ذلك كاف لازهاق روحها ، وابتزت منها الفا وخمسمائة فرنك . وأسرعت الى حى الطلبة — حيث ينتظرها خليلها — وظلت فى رقص ومعاقرة وما يتبع ذلك ثلاثة ايام .

اما ابوها فقد علم به البوليس وامرت الحكومة بدفنه ، واما والدتها فقد عثر عليها فاقدة الصواب فعولجت من السم وضمدت جراحها ونجت من الموت .

لما عثر البوليس على الفتاة فى بعض المراقص ومعها بعض اخلائها واسمها « فيوليت نوزير » وسئلت عن الجريمة اعترفت بها فى غير خوف ولا وجل ولا حياء ، وقالت : انها قتلت اباها انتقاما منه « لشرفها » الذى دنسه لانه كان يكرهها على الزنا بها . ولما حان الوقت لمواجهتها بوالدتها كان المنظر مروعا واليكم ما جاءت به جريدة الأهرام فى العدد ١٧٥٦٠ — الصادر فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٣٣ =

أن يأتوه ببقرة ليذبحوها ليبين لهم المجرم من البرىء فقالوا له انك تهزأ بنا ، فاستعاذ بالله من أن يكون من الجاهلين الذين يهزأون بغيرهم . فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟ فقال لهم ان الله

= على مسرح الحياة :

الجريمة التى هزت فرنسا
مواجهـــة البنت بالأم

« لن اغفر لك الا بعد الحكم عليك .. بعد موتك ! »

يرمى القضاء بالمواجهة ان يصل الى قبس جديد ينير السبيل للعدالة . بيد ان مواجهة فيوليت نوزيير — قاتلة ابيها بأمها لم تأت بشىء يذكر ؛ لأن التأثير بلغ مداه حتى انه لا القاضى ولا المحامى قد استطاع احدهما او كلاهما ان يتدخل ويوجه اقل سؤال .

اما الأم فكانت لا تزال نزيلة مستشفى سانت انطوان ، فما طلع صباح اليوم المحدد للمواجهة حتى لم يعد فى شارع المستشفى موضع لقدم ، وفى الساعة السابعة صباحا لزم الأمر لتدخل البوليس لحفظ النظام وافساح الطريق للسيارات ، وكان الجمهور يتلهف على رؤية الفتاة القاتلة. وكان يعلم انه سيؤتى الى المستشفى بالتى سممت والديها ، فهو يريد أن يتملى من تلك الخلقة الغريبة عنده . وبعد ذلك يعود الناس يحدث بعضهم بعضا « بانهم قد شاهدوا .. » .

بيد ان كل الذين انتظروا الساعات الطوال قد خاب أملهم ، لأن البوليس خشى ان يلحق بالفتاة اعتداء من الجمهور — الكاره لها — فساقها من السجن فى مركبة مقفلة الى باب صغير خلفى بالمستشفى مخصص لدخول الأطعمة والأدوية . وكانت فى ذلك الثوب الأسود الذى قضت به ليالى الهوى الاخيرة . ولم تفه بكلمة وعرضوا عليها طعاما ، فأكلت قليلا .وجلست معتمدة راسها بيدها وقد تاهت نظرتها ؛ تنتظر ...

وفى تلك الأثناء كان قد وصل المسيو لنوار قاضى التحقيق ورئيس النيابة والمحاميان عن فيوليت نوزيير ، والطبيب الشرعى ، ومندوبو الصحف .

وجاءوا بالأم محمولة على عربة يد من غرفتها الى القاعة التى اعدت بالمستشفى للمواجهة — وبدا الاستجواب . وبعد الوصول الى تفاصيل عن السرقة الأخيرة ، وعن وقوع الأم مغمى عليها ، وعن تذكرة الطبيب المزورة — التى ادعت الفتاة بأنها قد اشترت الدواء بموجبها وكان ذلك الدواء هو السم الزعاف — بدات المواجهة . وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة .

فقال قاضى التحقيق مخاطبا فيوليت نوزيير : « والآن ! أواجهك بأمك » .

فاذا دموعها تنسكب مدرارا للحال . واذا بها تزفر وتنشج نشيجا مؤلما وتصرخ صراخا غامضا . واشارت بيدها كانها تقول « لا ! » ولم تنهض ، ولكن المواجهة كانت امرا مختوما . ودنا المحاميان من الفتاة كما لو كانا سيشدان ازرها .

وفتح الباب الفاصل بين القاعتين : فكشف مشهد له الهول . فهناك على مقعد كبير امراة غارقة فى ضمادات الجروح ، شاحبة شحوبا لا يخفى شبابها وجمالها . وما ان فتح الباب حتى اعتدلت فى جلستها وادحلت عليها فيوليت فصرخت الأم :

« فيوليت ! فيوليت ! فيوليت ! اقتلى نفسك !ماذا صنعت ؟ فيوليت ! فيوليت . لقد قتلت أباك ذاك الذى كان طيبا الطيبة كلها ! لقد قتلت ذاك الرجل ! اما انا فلست شيئا ! ولكن اباك يا فيوليت !! زوجى ! ابوك ! .... » .

وتحشرج صوتها وغص بالعبرات . وكانها تريد ان ترتمى بكل جسمها الى الأمام ، ثم اذا بصوتها يعلو بالألم والحقد معا :

يقـول : انها بقرة بين الفتية والمسنة وأنها عوان . ثم طلب منهم أن يفعلوا ما أمرهم الله به ولكن بنى اسرائيل قوم جبلوا على عدم امتثال أمر الله وعدم المسارعة الى أوامره ؛ بل اعتادوا المماطلة

« فيوليت ! أبوك ! أطيب الرجال ! . اقتلى نفسك .. اغربى .. انتحرى ... » .

ووقف صوتها ثانية . وكأن فيوليت قد جعلت تتلاشى وتفنى من الوجود . فجعلت تزفر وتبكى بكاء مرا . وكان الطبيب شديد التأثر موزع القلب بين الأم والبنت وكان الجميع كأن على رءوسهم الطير . وعاد صوت الأم يقول :

« فيوليت ؟ ابيك ؟ تتكلمين ؟ تقولين ؟ تتهمين ؟ أباك ! مثل هذا الرجل أين مثـــله ؟ ! انتحرى يا شقية ! فلن أغفر لك جرمك أبد الدهر ! .. » .

فانهارت الفتاة من طولها كأنها بيت مشيد قد سقط . وكان اليأس قد هدمها وســال دمعها مدرارا وزحفت الى قدمى أمها زحفا ، وكان الحضور قد عصرت قلوبهم واشتد خفقانها وحزنها ، وزاد ذلك ما سمعوه من البنت اذ قالت بصوت متقطع متمزق :

ــ غفرانك يا أماه غفرانك ! ..

« كلا ! .. فلن أغفر لك أبدا ! .. » .

وكان صوت الأم عندئذ قد ثبت وتجلى ، فان ما لقيته من أهوال واستعرضته فى تلك الدقيقة قد أعطاها قوة جديدة .

أتوسل اليك يا أماه أن تسامحينى ! « كلا ! أبدا » .

صفحا يا أماه ! « سأصفح عنك بعد الحكم عليك ، عندما تنزلين الى قبرك ! .. » .

سكوت وصمت ! بكاء وألم ! ضيق وانزعاج ! أم موتورة صارخة باكية ، وبنت يائسة متهدمة ، وشهود فى حزن ليس بعده حزن ! وتمنى الجميع ان يوضع لهذه المواجهة حـدها . وهى لم تكد تستغرق ربع الساعة ، ومع ذلك كانت ممتلئة بالهول والرعب والويل . وكان من صالح الأم المريضة نفسها الكف عن ايلامها . ولم ينبس قاض او محام ببنت شفة . وكان المشهد لم يسبق له مثيل فى تاريخ القضاء . وكان الجميع ــ من قضاة ومحامين ورجال الشرطة واطباء وممرضين ــ قد عجزوا عن استبقاء دموعهم فانسكبت ، وقد بلغ تأثر القاضى حدا جعله لا يملى كاتبه شيئا .

وصرح الطبيب الشرعى فيما بعد أنه منذ اربعين عاما لم يشهد مثل هذا الموقف الفاجع ، وكان الأستاذ هنرى جيرو ــ محامى الفتاة ، وهو نفسه محامى جرجولوف الروسى قاتل رئيس الجمهورية الفرنسية السابق المسيو بول دومير ــ قد تأثر عندئذ أكثر مما كان متأثرا اذ سار الى جنب موكله جرجولوف عند الفجر ، منذ بضعة أشـهر الى المقصلة .. فهو هنا قد اهتز وارتجف من قمـة راسه الى قدميه لهـــذه الأم التى تحكم وتأبى الصفح ..

وانتهى المشهد ... ولزمت الأم عندئذ الصمت . والقت براسها الى الخلف ، وثبتت نظرها كأنه قد تسمر بالسقف ولم تلق على بنتها نظرة ــ اذ أخذوها عنها الى السجن ــ وعادوا بها على محملها الى غرفتها . وتأجلت المواجهة من جديد شهرا .

لقد قالت الأم كلمتها الأولى . وهذه الكلمة هى حكم بوضع رقبة ابنتها فى حبل المشنقة ..

على أن حضراتهم لو سألونى مسترسلين لأجبتهم بأنى لم أدع أن الرعدة هى الدليل الوحيد الموصل الى القتل قصاصا ؛ بل أقول لهم انما رعدة المتهم باب يوصل الى الاعتراف المؤيد بالأدلة المادية الشاهدة على صـدقه فى اعترافه ؛ كضرب المتهم عند مالك الموصل الى الاعتراف بالجريمة اعترافا مصحوبا بما يدل على صدقه فى اعترافه . وحينئذ يكون دليل القصاص ليس هو الرعـدة فقط ؛ بل ما أدت اليه من الأدلة المادية ــ والرعدة أساسه .

فالرعدة الحاصلة للمتهم عند توجيه التهمة اليه هى ظاهرة من هـــذه الظواهر التى كثيرا

والمطاولة فبحكم عادتهم لم يمتثلوا . فسألوه عن لونها فبين لهم أن الله يقول : انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين اليها لحسنها . فلم يشاءوا الامتثال وقالوا له : ان البقر تشابه علينا فبين

= ما تعترى المجرم الحقيقى ، فتضيق دائرة الاتهام امام المحقق فيسعى فى جمع الأدلة فى هذه الناحية واستخراج الواقع من تضاعيف تصوراته ؛ لأن نفس المتهم تصغر ، وتضعف عنده قوة المقاومة فيستسلم أمام الحقيقة ولا يجد مناصا من الاعتراف الصحيح .

قد يحصل ان تشهدوا المتهم وهو يسأل عن جريمته ، وترونه جريئا ثابتا فى نظركم فى وقت يراه فيه المحقق المجرب مضطربا مذعورا وانتم لا تعلمون .

فالمسألة فنية محضة يعرفها ارباب الفن وأهل الدراية الخاصة .

حضرات أصحاب الفضيلة عندى — فى موضع الاحترام والاجلال — لذلك لا اريد ان اجبههم بعدم الثقة بقولهم الصادر من غير تجربة ولا خبرة ؛ بل اسكت وكفى .

وأما ضربهم المثل بالطبيب الذى يزاول التشريح ، وانه يتأثر اول الأمر ثم يزول ذلك التأثر منه ! فانى أجيب حضراتهم بأن المشرح بوصف انه طبيب يعمل ذلك وهو مطمئن القلب جازم بأن عمله ليس وراءه مسئولية ، ولا يظن ان تبعة عمله ستوقفه موقف الاتهام ، بل يرى انه يقوم بواجب يجب عليه اداؤه ، والمسئولية انما تترتب على التقصير فيه .

لذلك نراه مطمئنا هادئا ؛ بخلاف المجرم فان شعوره بفداحة الجريمة التى اقترفها وبعظم المسئولية يجعله مضطربا أبدا . فالقياس على الطبيب قياس مع ألفارق . وايضا فان الطبيب اذا كان مشرحا أو معالجا غيره اذا كان مجرما آثما .

قال حضرات اعضاء اللجنة « فهذه خمسة أوجه تدل على خطأ هذا الراى من الوجهة العلمية » وانا اوافق حضراتهم موافقة تامة على ان هذه — خمسة أوجه — تدل على خطأ الراى من الجهة العلمية ، ولكن اى الفريقين هو المخطىء ؟

ان أدنى نظر يهدى من اطلع على نقدكم وردى عليه الى نسبة الخطأ الى الفريق الذى ارتكبه ؛ فنظر القارىء كاف ! والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ونظر القارىء الى ناحية الصواب انفذ ، ورأيه فى الحكم لى أو لهم أعلى .

ظريف جدا قول اللجنة « وهناك وجه سادس لا نبديه لفضيلة الأستاذ .. الخ » .

فقد أرادوا أن يلهبونى بالسياط على أرجل قوم آخرين — لا اعلمهم — فهل هم بذلك يريدون ان يتأسوا بقول القائل « اياك اعنى واسمعى يا جاره » ؟

قال أصحاب الفضيلة بعد ذلك « وأما الوجه الأول : وهو تصدير الموضعين بقوله تعالى (واذ) فلا يدل على انهما قصتان منفصلتان — سببا وحكما — اذ يمكن ان يقال انهما قصة واحدة ، كما وردت بذلك الآثار وكما هو المعقول » .

أقول : وهل قلت فى كتابى غير هذا يا حضرات أصحاب الفضيلة المدققين ؟ لقد قلت فى ص ٢٤٢ — ٢٤٣ « والذى أريد أن أخرج به من هذا البحث : هو ان القول بأن القصة الأخيرة مرتبطة بما قبلها ليس متعينا . وأن مسألة ضرب القتيل بجزء من البقرة فحيى واخبر بقاتله لم يرد به نص قطعى الثبوت والدلالة ؛ وأن الراى الذى رأيته تحتمله الآية . والله الموفق للسداد » .

وها أنتم تقررون ما قررت « اذ يمكن ان يقال انهما قصة ، واحدة » وهذا عين ما قلته فأين موضع الرد يا حضرات الأجلاء الأعلام ! وعلى اى شىء تخالفنا ؟

وانى أختم الكلام فى مسألة البقرة بأن أتقدم الى أصحاب الفضيلة اعضاء اللجنة بهذا السؤال :

ما قولكم دام فضلكم فى رجل قال لزوجته : انت طالق ان كان موسى رسول الله عليه الصلاة والسلام أو أحد من بنى اسرائيل قد ضرب ببعض البقرة التى أمر الله بنى اسرائيل بذبحها فذبحوها =

لهم البقرة بأنها غير مذللة بالعمل ، وأنها سليمة الأعضاء ، وأن لونها واحد لاشية فيه تخالف لون جسمها . فطلبوا تلك البقرة فذبحوها ، وبعد الذبح جاء موسى بلسانها وضرب به القتيل

=وما كادوا يفعلون — قتيلا فحيي القتيل وأخبر بنى اسرائيل باسم قاتله ! فهل يقع عليه الطلاق بذلك وتحرم عليه زوجته فى الحال وتحل لغيره بعد العدة ، مع أن حلها لزوجها ثبت بيقين فلا يرفع الا بيقين مثله ، وحرمتها على غيره ثبتت بيقين فلا ترفع الا بيقين مثله ؟ .

وهل صاحب الفضيلة الشيخ الكبير — مفتى الديار المصرية — يفتى بحرمتها على زوجها بمقتضى هذه الآية ! ويعتبرها نصا قطعى الثبوت والدلالة على حياة قتيل بنى اسرائيل وأخباره بقاتله ؟

وهل فضيلته لا يرى حرجا فى أن يشهد على الله تعالى ، بأن طلاق المرأة على ذلك شرعه الذى رضيه لأهل الاسلام ؟

أسأل الله تعالى لى ولأعضاء اللجنة الهداية الى سواء السبيل .

بعد هذه السياحة الطويلة ، أقول لحضرات أعضاء اللجنة الأجلاء : ان الاحتمال الذى طرقته فى مسألة البقرة — وطلبت رأى حضرات العلماء فيه — قد رن صداه فى معهد الدراسات الجنائية بكلية الحقوق ، وصار له فى أنفس الدارسين لعلم النفس الجنائى والمحاضرين مكانة مكينة ، وقد تناولوه فى محاضراتهم بالبحث والدرس والتحليل ، وما كنت أظن أن يكون لهذا الوجه هذه الأهمية وأن يكون علماء النفس المتناولين له وأنا حى أرزق ؟

فهذا النجاح الذى نلته ، لا سبب له سوى أعضاء اللجنة ! جزاهم الله خيرا عما وصل الى على أيديهم من خير وان لم يقصدوه .

وهل أنى حضراتهم : ان الروايات التى أوردها المفسرون فى شأن البقرة والقتيل ؛ الذى يدعون انه ضرب ببعضها فحيى .. الى آخره انما هى اسرائيليات ؟

قال الحافظ بن كثير — بعد أن سرد الآثار الواردة فى شأن البقرة — وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية والسدى وغيرهم ؛ فيها اختلاف والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى اسرائيل ، وهى مما يجوز نقلها . ولكن لا تصدق ولا تكذب ؛ فلهذا لا يعتمد عليها الا ما وافق الحق عندنا والله أعلم .

ونقل فى تفسير المنار قول ابن كثير « أكثر التفسير المأثور قد سرى الى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب » .

وحيث قد ظهر من كل ما تقدم أن مسألة ضرب القتيل ببعض البقـــرة فحيى وأخبر بقاتله لا تستند الى نص قطعى الثبوت والدلالة . وأن أكثر ما فيها من الاسرائيليات فيكون الجرى على ذلك القول غير متعين ،ولا حرج على ما يفهمها على وجه آخر ، ما دام محافظا على أسلوب الكتاب الكريم غير مخل بمقصد من مقاصد الدين ، ويكون ما أوردته وجها محتملا ، وهذا ما أردته .

استدراك

قال حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة « وعلى تسليم الاطلاق ، يكون المقصود من هذه الجملة هو براءة المتهم غير القاتل دون اظهار القاتل الحقيقى المقصود من القصة » .

أقول : انى أشهد الله وجميع خلقه وأسأل أهل الأرض قاطبة ؛ عن جماعة أريد امتحانهم بعـرض القتيل عليهم ، وضرب كل واحد منهم بيد القتيل — مثلا — فأمضى كل واحد منهم الامتحان — بدون تغير ولا اختلال فى موازين عقله وحركات نبضه — الا واحدا أخذته الرعدة وعراه من هذه المشاهدة ما يعرو من أصيب بمس ، وظهر عليه من أمارات الجزع والاضطراب شىء لم يظهر على غيره من الجماعة ؛ فهل تحكمون بأنهم جميعا فى البراءة من سفك دم القتيل سواء ؟ ويكون من ظهرت عليه أمارة من ذلك بريئا براءة جميعهم ؟ وهل جميع الحكام فى الدنيا عندهم من طيبة القلب والرفق ما عند حضرات الأعضاء ، فيأمروا لمن ظهر عليه الاضطراب وحده بمكافأة حسنة ويخصوه برعاية وملاطفة لا يجدها من أبيه وامه ؟

فحيي وأخبر بقاتله بقدرة الله تعالى . ومع ظهور ذلك كله لبنى اسرائيل ؛ فان قلوبهم بقيت على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة منها ولم تؤثر تلك العجيبة فى قلوبهم اليناً .

ان نظر القراء فى الموازنة بين ما قلت وما قالوه كاف ! ولا ألجأ فى الحكم — على شأن الذى انفرد بالاضطراب والارتعاد الا الى ضمائر حضرات القراء .

وأما قول حضراتهم « وأين هذه التعسفات من المعنى المشهور للآية » فهو آية فخار لى وعنوان شرف أحرص عليه ، ليس شيئاً فى جنبه ما نلت من أوسمة أو دبلوم ؟ قالوا « (كذلك) أى كهذا الاحياء العجيب — وهو احياء القتيل بضربه ببعض البقرة — يحيى الله الموتى يوم القيامة بالبعث فيكون اثباتا للبعث الذى كثر منكروه ، بالمشاهدة لمن حضر تلك الحادثة » .

والذى أقوله : ان السياق الذى جاءوا به فى هذه الجملة يدل على أنهم يرون أن الباعث على احداث الله تعالى هذه المعجزة — التى يقولون بحصولها وهى احياء القتيل بضربه ببعض البقرة — أن يثبت موسى لبنى اسرائيل ما ينكرونه من البعث واحياء الله الموتى . وانى لهم أن يثبتوا أن بنى اسرائيل قد أنكروا البعث يوم القيامة ؛ فأوجد الله تعالى حادثة قتل القتيل والتدافع فيه — الى غير ذلك مما يحكونه فى تلك القصة — ليبرهن لبنى اسرائيل على قدرة الله تعالى على احياء الأنفس بعد موتها فى الدار الأخيرة ؟ وأن الآيات التى صنعها الله لهم من قلب عصا موسى حية ، واليد ، وسائر الآيات التسع التى ضرب بها المصريون وفرعون ، ونجاة بنى اسرائيل بفلق البحر ، وضرب طريق لهم فى البحر يبسا ، وتظليل الغمام عليهم ، وأنزال المن والسلوى لهم ، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وانباط الماء من الصخر — بضرب موسى الحجر بعصاه — كل ذلك لم يكفهم بل طلبوا أن ينظروا بأعينهم أحياء الله الموتى الى أن كان ما كان مما يقولون ؟ فأين ما يدل على ذلك من الكتاب الكريم ؟

قرأت فى جريدة الجهاد الصادرة فى هذا اليوم « ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٦ » خبرا جاء فيها ، عن معاينة النيابة ورجال المباحث لمكان وقعت فيه جناية قتل فيها شاب فرنسى فى حجرته ، وكان مستخدما فى محل « فلوران » وقد جد البوليس فى تتبع الجريمة حتى انتهى الى اتهام اثنين بالقتل ، وقد ذهبت النيابة وضابط المباحث لمعاينة مكان الجريمة ، بعد ان اعترف بها أحد المتهمين «عطية»

والى القراء ما جاء فى « الجهاد » عن ذلك : وقد بدأت المعاينة فى غرفة القتل ثم انتقل حضرة المحقق الى الغرف والممرات المحيطة بها التى مر منها المتهمان قبل تنفيذ الجريمة وبعدها .

وقد علم مندوبنا أن المتهم « عطية » اعترف فى التحقيق الذى أجرته النيابة ، غير أنه لما استأنف حضرة المحقق صباح أمس التحقيق معه أصر على الانكار ، وكان يمتنع عن الأسئلة التى توجه اليه . وقبل ان تتم المعاينة أخذ المتهم عطية يصيح بأعلى صوته « مظلوم يا ناس حرام عليكم » ولما سيق الى غرفة بها آلة للفرم ، وقف بجوارها وهم بأن يضرب راسه بها ، ولكن حارساه تداركاه فمنعاه .

وقد عمل حضرة المحقق على الوقوف على كيفية تمكن المتهمين من الوصول الى غرفة القتيل وتنفيذ القتل ؛ غير أن الحالة النفسية التى كان عليها المتهم عطية حالت دون اتمام المعاينة .

ومما لاحظناه أن المتهم عطية كان فى ذهول يدل على أنه يعانى من تأنيب الضمير آلاما وانفعالات ا هـ المراد منه .

ففى عرف حضرات الأفاضل أعضاء اللجنة أن هذا المتهم « عطية » الذى عراه الانفعال والذهول برىء من جريمة القتل ؛ لأن الانفعال عند معاينة مكان الجريمة انما يصيب البرىء لا المجرم هذا عرف حضراتهم . والواجب على الحكومة أن تقدم هدية لهذا المتهم المنفعل ، وأن تقضى ببراءته ؛ لأنه ظهر عليه الذهول والانفعال . وكل ذلك فى عرف حضراتهم أمارة البراءة غالبا .

وهكذا يكون النقد البرىء الراقى للبحوث العلمية العالية .

وقفت على حكم « طنوب » واقتطفت منه ما يأتى :

عبد الغفار السيد منصور ، منجود علام على ، بسيونى أحمد عبد الغفار ، عبد العزيز سيد أحمد ، قتلوا بطنوب عمدا « عبد الحميد موسى ابو سعدة » بأن ذبحوه وقطعوه مع سبق الاصرار — ليلة ٩ ديسمبر سنة ١٩١٩ — وقد حكم على الأول بالاعدام ، وعلى الثانى والثالث بالأشغال الشاقة ، وبراءة الرابع « فى القضية نمرة ٢٧٦ احالة سنة ١٩٢٠ ، وكان رئيس الجلسة صالح بك حقى ، وتاريخ الحكم ٢١ يوليه ١٩٢٠ » .

اقرءوا هذه الآيات : —

سورة البقرة : وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ [٦٧] قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ [٦٨] قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ [٦٩] قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ [٧٠] قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ [٧١] وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّارَأْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ [٧٢] فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [٧٣] ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ . وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [٧٤]

ويكون نظم القرآن فى هذه القصة هكذا : قتل بين بنى اسرائيل قتيل فتدافعوا فيه ، يدفع كل تهمة القتل عن نفسه . فلما ترافعوا الى موسى ؛ أمرهم بذبح البقرة . وبعد المراودة بينه وبينهم وبين الله ذبحوها بعد جهد شديد . يقولون فأمرنا موسى أن يضربه ببعضها فحى القتيل وأخبر بقاتله (وكذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ثم انكم توليتم بعد ذلك وقست قلوبكم . فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) .

اذا تأمل الانسان فى هذه الحادثة وجدها — اذا كانت قد وقعت كما يقولون — قد اشتملت على معجزة غريبة صنعها الله لموسى ، وقد صنع الله له من الآيات فى تأييده ما هو أبدع منها وأعجب ويجد مع ذلك أنها قد حلت مشكلة من مشاكل بنى اسرائيل حلا وقتيا فقط . ففائدتها قاصرة ، وخير منها أن يأتيهم بعجيبة تحل مشاكلهم أبدا على الدوام .

ظاهر الكتاب يقتضى أن سنة الله فى احياء الموتى دائما أن يأتى ببقرة تذبح ويضرب من يريد احياءه ببعض البقرة فيحيا ذلك الميت وليس مرادا .

أرأيتم لو قتل قتيل اليوم أو قبل اليوم من بنى اسرائيل أو من سواهم من البشر وذبحنا أو ذبحوا بقرة على هذا الوصف المذكور فى السورة أو ألف بقرة وضرب ببعضها هل يحيا ؟ كلا ففائدة هذه الحادثة جزئية لا تحل مشاكلهم على فرض وقوعها !

أما ما جاء فى التوراة متعلقا بأمر ذبح البقرة فيلخص فى أن بنى اسرائيل فرض عليهم أنه اذا قتل قتيل فى الحقل يؤتى بأهل أقرب البلاد من موضع القتيل ويأتون بعجلة من البقر لم يحرث عليها ولم تجر بالنير ، ويأتى شيوخ القرية بها الى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ، ويكسرون عنق العجلة فى الوادى . ثم يتقـدم الكهنة — بنو لاوى — ويباركون الله ويغسل جميع الشيوخ الذين من القرية القريبة من القتيل أيديهم على العجلة . ويصرخون قائلين «أيدينا لم تسفك هذا الدم . وأعيننا لم تبصر اغفر لشعبك اسرائيل الذى فديت يارب ولا تجعل دم برىء فى وسط شعبك اسرائيل فيغفر لهم هذا الدم ا هـ » (١) .

فالناظر الى التوراة يرى أنها جعلت الأمر شريعة معدة لأن تتبـع فى النوازل والوقائع التى تقع لبنى اسرائيل .

على أن ذلك لا ينافى أن حادثة وقعت عمل فيها موسى ما قصه القرآن . ثم كتب الله عليهم أن يكون ذلك شريعة تتبع فى الحوادث المستقبلة المماثلة لها .

وهذا الذى حدث عند بنى اسرائيل يشبه فى الجملة ما يحدث عند الأعراب فى البلاد المصرية .

فان الأعراب اذا قتل عندهم قتيل — لا يعلمون قاتله — واتجهت التهمة الى قوم آخرين أرسلوا اليهم رسولا يقول لهم : ان دمنا عندكم فاذبحوا انا ذبيحة . فاذا فعلوا جاء أولياء الدم وأقسم المتهمون يمين القسامة أنهم لم يقتلوا ذلك القتيل ولا يعلمون قاتله . ثم يسوى لهم لحم الذبيحة فيأكلون ويأمن بعضهم بعضا وتثبت براءتهم من القتيل . ويقولون : الدم يمسح العيب .

ولى فى هذه الحادثة نظر آخر سوى ما ذهب اليه المفسرون .

هو أننا اذا نظرنا الى القصص التى قصها الله فى هذه السورة قبل هذه القصة — وكلها متعلقة ببنى اسرائيل — وجدنا كل قصة مستقلة عما قبلها وما بعدها مبدوءة بقوله تعالى (واذ) .

اقرءوا (واذ أنجيناكم من آل فرعون — واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم — واذ واعدنا موسى أربعين ليلة — واذ آتينا موسى الكتاب — واذ قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم —

---

١ — وهذا نصها من أول الاصحاح الحادى والعشرين من سفر التثنية :

(١) اذا وجد قتيل فى الأرض التى يعطيك الرب الهك لتمتلكها واقعا فى الحقل لايعلم من قتله .

(٢) يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون الى المدن التى حول القتيل .

(٣) فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بنير .

(٤) وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة الى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة فى الوادى . (٥) ثم يتقدم الكهنة — بنو لاوى — لأنه اياهم اختار الرب الهـك ليخدموه ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة . (٦) ويغسـل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنـق فى الوادى . (٧) ويصرخون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر . (٨) اغفر لشعبك اسرائيل الذى فديت يا رب ولا تجعل دم برىء فى وسط شعبك اسرائيل . فيغفر لهم الدم ا هـ .

واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة — واذ قلنا ادخلوا هذه القرية — واذ استسقى موسى لقومه — واذ قلتم ياموسى، لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة — واذ قلنا ادخلوا هذه القرية — واذ استسقى موسى لقومه — واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد — واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور — واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة — واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) .

فهذا النسق المطرد الذى لم يتخلف يجعل مسألة قتل النفس والتدارؤ فيها مسألة مستقلة بنفسها غير مرتبطة بما قبلها ولا مدمجة فيها وقد حاك فى نفسى أن هاتين القصتين تفهمان على ضرب آخر من الفهم وقد قوى عندى ذلك كل القوة ·

وها أنا أعرضه على حضرات القراء ، راجيا أن يعيره حضرات العلماء اهتماما وأن يوافونى بما يرونه الصواب بعد قتل المسألة بحثا ، حتى اذا ظهر لى الحق عدت الى ما رسموا ضاربا بقولى عرض الحائط فلست بالمتعنت ولا بالمفتون بقولى ورأيى ، ولا ممن تنزهوا عن الخطأ ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

ذلك أن القصة التى أمر فيها موسى قومه بذبح البقرة لم يكن الغرض منها الاتيان بكل ما اشتملت عليه واندرج فيها من الحالات والأحكام ؛ بل الغرض أن يقص الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم نموذجا مما بلغ اليه تعنت بنى اسرائيل فى ابطائهم عن امتثال أمر الله ومطاولتهم ومماطلتهم فى تنفيذ ما يأمرهم به ، دون استيفاء القصة استيفاء كاملا يشتمل على بيان الحكمة الباعثة على أمرهم بذبح البقرة ؛ بل هو يقص علينا نمطا من تعنتهم وصلابة أعناقهم .

وأما القصة الأخرى المبينة فى قوله تعالى (واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) فانه تعالى يقص علينا فيها لونا من أفضاله على بنى اسرائيل وحل مشكلاتهم بطريقة لم تخطر لهم ولا لبشر ببال وظلت هذه الحكمة العالية المشتملة عليها تلك الطريقة غامضة على بنى اسرائيل وعلى جميع البشر الأجيال الطوال .

والذى فهمته من القصة الأولى أن بنى اسرائيل قد وقعت عندهم واقعة قد حاروا فيها . وهى أن شخصا قد قتل فى الحقل . وهم لا يدرون من الذى قتله والحقل واقع بين بلاد كثيرة فأى البلاد تلصق بأهله تهمة القتل ؟ رفعوا أمرهم الى موسى فما كان جوابه الا أن قال لهم (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) — ولما كان الجواب بعيدا فى رأيهم عن الغرض الذى جاءوا لأجله وقع ذلك عندهم موقع الغرابة وقالوا لموسى (أتتخذنا هزوا ؟) — ولما كان موسى انسان صدق بعيدا عن الهزء والسخرية بعباد الله — قال لهم . أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين الذين يهزءون بعباد الله.

ثم كانت المراجعة بينهم وبين موسى وربه حتى بين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها أتم بيان ومع ذلك لم يمتثلوا بل ذبحوها بعد اذ كادوا لا يفعلون أى أنهم ذبحوها بعد جهد شديد .

أتى موسى برجال أقرب محلة من مكان القتيل وأحلفهم عليها بعد ذبحها أى وهى أمامهم أنهم

ما قتلوا القتيل ولا علموا به وانهم برءاء من دمه وكانوا يغسلون أيديهم على البقرة كما قص ذلك فى التوراة .

هذه اليمين فى شريعتهم كيمين القسامة عندنا معشر المسلمين . اذا قتل قتيل فى محلة غير محلة قومه أو بقرب تلك المحلة ولم يعلم قاتله وكان هناك لوث يقع به فى النفس صدق المدعى وهو ولى الدم (واللوث القرينة) حلف خمسين يمينا واستحق الوارث بالقسامة فى القتل الخطأ أو شبه العمد الدية فى القتل العمد حالة على المقسم عليه . ولا قصاص فى الجديد لأن القسامة حجة ضعيفة فلا توجب القود احتياطا للدماء . وان لم يكن هناك لوث أو أنكر المدعى عليه اللوث فى حقه فاليمين على المدعى عليه . وأظهر الأقوال أنه يغلظ عليه بالعدد . انتهى باختصار من شرح الخطيب على متن أبى شجاع .

فتلك عند اليهود شرع كالقسامة عند المسلمين فى الجملة .

وأما القصة الثانية وهى قوله تعالى (واذ قتلتم نفسا) الخ فهى فى شأن قتيل وجد قتيلا فى بيته أو محلة قومه أو سقط فى معركة فيها جماعة . وقد دفع كل واحد القتل عن نفسه ولم يتعين قاتله تماما وكل واحد يتهم سواه بالقتل . وحينئذيكون المتهمون محصورين ، والقاتل لايخرج عنهم بدليل قوله تعالى (فادارأتم فيها) ولما كان الله تعالى مخرجا ما يكتمون من القتل علمهم طريقة يميز بها القاتل من البرىء . أو هى على الأقل تضيق دائرة الاتهام وتوجه نظر القاضى الى استنباط الأدلة على المتهم أو من له اتصال بالقتل .

ذلك بأن يأتوا بالمتهم ثم يضربونه بجزء من تلك النفس أى من القتيل وهو متصل ببقية الجسم بأن يأتى واحد ويضرب المتهم بيد القتيل أو رجله ، فاذا كان المتهم بريئا لم يحدث له شىء واذا كان قاتلا ظهر عليه انفعال نفسى ورعدة يعلم بسببها أنه القاتل دون سواه ، أو هو على اتصال به .

وهذا الانفعال قد يكون فرحا وجذلا وقد يكون خوفا ورعدة تبعا لسبب القتل .

وهذا الأمر يرجع الى أحوال الغرائز النفسية والى العقل الباطن فى الانسان ، ذلك أن القاتل حين يباشر الجريمة — وبخاصة القتل — يكون واقعا تحت تأثير انفعال خاص يغلى منه دمه — يدفعه ذلك الانفعال الى ارتكاب جريمة القتل . فاذا سكن ثائره وهدأت أعصابه ، وزال ذلك الدافع الذى أكسبه الجرأة حتى طوعت له نفسه ارتكاب الجريمة ، عاوده الندم وتبكيت الضمير وصار شبح الجريمة مخفيا فى نظره ، ويتمثل له شبحها فى كل شىء يتعلق بها ، فهو يكره رؤية مكان الجريمة والأشياء التى رآها رؤية مقارنة لارتكابها ، وتضطرب نفسه ويرتفع نبضه ويسرع اذا ذكر بشىء من الجريمة .

ويكثر أنه اذا أدخل على القتيل أو عرض عليه تألم أشد ألم عرفه ، واضطرب ، ولم يستطع

النظر اليه ولا الى مكان حدوث الجريمة . فكيف اذا حرك عضــو من أعضــاء القتيل وضرب به القاتل لا شك فى أن ذلك العمل يكون ذا تأثير عظيم فى أعصابه لا يطيق معه ذلك المنظر .

هذا اذا كان القتل لحادث عارض . أما اذا كان انتقاما للشرف أو لثأر فان الأعراض التى يأتى بها الانفعال تكون فرحا وجذلا .

هذا « قابين » بن آدم طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، وحار فى أمره لا يدرى ماذا يصنع بجثته فلما بعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه أدركه الندم فأصبح من النادمين .

وهذا العربى يقول فى قريب له أراد قتله فذكر ما بينهما من الرحم . فلم يؤثر ذلك فيــه فقتله وندم فقال :

فلما رأيت انه غــير منتــه   أملت له كفى بلدن مقــوم

فلما رأيت أننى قد قتلتــه   ندمت عليه أى ساعة مندم

على أنى لا أذهب بكم بعيدا ، فهذه « مدام ما كوش المالطية » قتلتها بنتها بمساعدة ابنتها الأخرى وبنت بنتها . وكان الباعث على القتــل الحصول على المــال وهو ستمائة جنيه كانت عندها . وحصرت الشبهة فى ابنتها . فلما أراد المحقق ادخالها الى غرفة نوم أمها التى ارتكبت الجريمة فيها — وقد هيئت كما كانت وقت ارتكاب الجريمة — أبت أن تدخلها اباء مطلقا . وقد حكم عليها بالسجن ، وذهبت أختها الأخرى لتحاكم فى بلاد فرنسا . والى الآن لم يصدر الحكم . ونحن فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٣٢ وكان حصول الجــريمة بالاسكندرية فى شــهر يونيه سنة ١٩٣٢ .

وقد أرسلت خطابا لحضرة ولدنا الفاضل أحمد أفندى فؤاد عبد المجيد — مدرس التحقيق الجنائى بمدرسة البوليس والادارة — وسألته أن يمخض لى رأيه فى عرض معالم الجريمة على القاتل المتهم وآراء العلماء القانونيين فى هذا الموضوع فجاء منه الرد الآتى :

مصر فى يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢ .

سيدى صاحب الفضيلة الأستاذ الجليــل الشيخ عبد الوهاب النجار .

أقبل الأيدى وأدعو لفضيلتكم بكل خير وسعادة .

تشرفت بخطابكم الكريم أمس فقط . ويسرنى استمرار فضيلتكم على البحوث العلميــة والاجتماعية وهذا يذكرنى الأيام الماضية .

وانى بكل سرور أجيب فضيلتكم ولعلى أنال رضاكم كما فزت به عندما كنت تلميذكم .

لم يكتب فى هذا الموضوع على ما أذكر أحدمن الأوربيين الانجليز ولا الفرنسيين على الأخص وقد اطلعت على أكثر كتب التحقيق الجنائى الفرنسية والانجليزية ، ولم تزد الاشارة الى هــذا

الموضوع فى بعضها ، الا أن العرض قد يؤدى الى اعتراف القاتل أحيانا . ولم يذكروا الأسباب كل ذلك لأن هذا البحث خاص بعلم النفس الجنائى .

ولم يوجد للآن كتاب ذو قيمة فى علم النفس الجنائى بالذات فى العالم الأوربى ، مع كثرة المؤلفات فى علم النفس على العموم ، لا سيما علاقته بالتربية ونظريات « فرويد » وأتباعه ومعارضيه . وهذه مست نفسية المجرم مسا خفيفا .

على أن تجاربى العلمية واستنباطى من المؤثرات المشابهة تمكننى من اجابتكم على قدر ما وسع علمى وهو :

لا شك أن القاتل يتأثر لحظة عرض جثة قتيله عليه . وسبب ذلك الانفعال الشديد الناتج من تصور الحالة التى كان فيها مع القتيل أثناء ارتكاب الجريمة . فمتى ارتسمت فى ذهنه وتصورها هزت أعصابه فارتبكت دورته الدموية والنفسية . ولا تلبث هذه الانفعالات الداخلية ترتسم خارجا على وجهه وبصره وعقله ولسانه . فيبدو على لسانه من الكلام ما يدل على ارتكابه الجريمة ، وقد يعترف خروجا من هذا الضيق ، وقد يلتمس لنفسه الأعذار الغريبة . على أنه بعد هذه البرهة لا يلبث أن يعود الى حالة ثانوية وهى حالة الجذل أو الحزن ، وقد تطول تلك البرهة أو تقصر حسب اعتياد القاتل على ارتكاب القتل فاذا لم يسبق ارتكابه قتل الانسان أو الحيوان طالت ، وان سبق له قتل حيوان قصرت قليلا . فان كان انسانا قصرت ... الخ بالتدريج .

ولكن لا بد من هذه البرهة وانفعاله فيها ، وظهوره الخارجى يتمشى مع طول أو قصر وجود البرهة .

على أنه يجوز أن المتهم البرىء يجزع عند رؤية القتيل ، ولكن جزعه لا يدوم ، وهو خارجى أكثر منه داخلى لرؤية المنظر فقط . ولا يلبث أن يعود حالا الى الحالة الاعتيادية الأصلية لا الحالة الثانوية التى سنتكلم عنها .

أما عودة القاتل الى الحالة الثانوية بعد تلك البرهة السابق بيانها ، فهى حالة جذل أو حزن وهى تستند على الغرائز النفسانية للجانى وارتباطها بسبب الجريمة . فان كان القتل انتقاما لدم أو شرف أو كراهية ، حصل الجذل وارتسم خارجيا . وان كان القتل لزعل أو دافع من الدوافع الوقتية حصل الحزن وارتسم خارجيا أيضا . ويكون عميقا اذا كان القاتل عالما بداخليات القتيل وما تركه من الأولاد وما كان له من الفضل . والعكس بالعكس .

وقد حصل أن غاب شاب حمَّار عن أهله ببلدة « معمل القزاز » التابعة لمركز كفر الدوار وعادت حميره التى كانت معه من تلقاء نفسها دون أن يعود هو ، وبلغت أمه بغيابه . ومن التحريات ظهر أنه رئى مع اثنين يركبان حمارين معه ، وهذان الشخصان أنكرا بتاتا وقبض

عليهما . ووجدت جثة الشاب مدفونة بجوار جسر. وبعرضها عليهما انفعلا واعترفا . انما كل منهما يرمى زميله بأنه هو الذى ارتكب الخنق بالذات وأعدما شنقا . وغير ذلك من الحوادث ا. لا تعيها الذاكرة .

هذا ما علمته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وهذا بحث شيق . وسأبحث فيه بالذات ان شاء الله . وانى فى خدمتكم وخدمة العلم دواما .

وتفضلوا يا صاحب الفضيلة بقبول أسمى تحياتى ومزيد تشكراتى .

تلميذكم المخلص : أحمد فؤاد عبد المجيد

مدرس التحقيق الجنائى بمدرسة البوليس والادارة

وقد كتبت الى ولدنا راغب عطية أفندى معاون بوليس مركز العياط لما أعرفه من اجتهاده وتمرسه بضبط المجرمين ويقظته لأحوالهم . وقد اشتغل فى فرع المباحث الجنائية بمصر والجيزة مدة ليست بالقليلة وعينت له حادثة يذكر ما حصل من الانفعال للجانى فيها ، فجاءنى منه ما يأتى:

حضرة الوالد المحترم صاحب الفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار .

تحية وسلاما — وبعد فقد قرأت خطابكم الكريم الذى تسألوننى فيه عن ملاحظتى على أحوال المجرمين وموقفهم بازاء جرائمهم . وخصوصا عن الأحوال التى شاهدتها فى حادثة طنوب .

وجوابى على ذلك أن المجرم حين يرى مكان الجريمة يلمحه ببصره ثم يحول وجهه ولا يحب الاتجاه اليه بعد ذلك . وكان حصول ذلك يغرينى على الحرص على تفتيش المكان الذى حول وجهه عنه تفتيشا دقيقا .

وأيضا فان المجرم لا يحب أن يدخل المكان الذى فيه الأشياء التى يحرص على اخفائها ، كالمسروقات والحشيش والهورايين والكوكايين ، كما حصل من المتهم الذى باشرت ضبط الأشياء التى سرقت من المرحوم السيد باشا شعير بكفر عشما عنده . وكانت المسروقات نقودا ونياشين وبراءات وحججا أخفاها أحد السارقين فى احدى القاعات فى بيته . فلما هممنا بدخول القاعة وقف عن الدخول فكان توقفه حاملا لى على زيادة البحث والتفتيش ، حتى أخرجنا المسروقات كلها من الحيطان . وردت الى صاحبها — عدا بضعة مئات من الجنيهات تصرف فيها السارقون قبل الضبط — وكان ذلك سنة ١٩١٩ .

وأما حادثة طنوب التى سألتنى عنها ، فهى أنه كان يوجد رجل من « تلا » منوفية اسمه أبو سعده أعطى ثلاثة أشخاص من ناحية طنوب مركز تلا منوفية مبلغ أربعين جنيها للاتجار فى العجول الصغيرة ، على أن يكون له نصف الربح فى هذه التجارة وللثلاثة النصف الباقى. والثلاثة هم عبد الغفار السقا ومنجود علام والثالث قد غاب اسمه عن ذاكرتى الآن . وقد اتجروا وكانوا يبعثون له فى كل أسبوع نصف الربح ، وبعد خمسة أسابيع أو خمس أسواق قطعوا عنه نصيبه فى الكسب ، فجاء اليهم ولقيه الثلاثة ، وأضافه عبد الغفار فى بيته ومعه زميلاه . وبعد

أن تناولوا طعام العشاء قدم له قهوة فيها كثير من الحشيش . ولما فقد الرجل وعيه ولم تبق فيه قوة على المدافعة — لتخدر أعصابه — نقلوه الى زريبة البهائم ، وجاء عبد الغفار « بقرمة » وهى الخشبة التى يقطع عليها الجزارون اللحم ، ووضع رأسه عليها وفصل عنقه مع الرأس بالساطور . ثم أخرج أمعاءه وفصل أعضاءه من المفاصل ، ورمى بعضها فى النيل وبعضها دفن دفنا متفرقا .

ولما جاء أهله للبحث عنه قيل لهم « كان هنا وذهب الى سوق كذا ولم يعد » وذهب عبد الغفار معهم للبحث عنه فى البلاد — وكان يبكى لبكاء أهله — ولما أعياهم الأمر حصروا شبهتهم فى عبد الغفار وزميله ، وبلغوا النقطة ، فاهتمت بالأمر وتولى أحمد بك الخازندار — وكان وكيل النيابة — التحقيق . ولما بحثت لم أجد من أعضاء القتيل سوى الرأس ومعه العنق والفخذ اليسرى واحدى القدمين . ولما عثرت على الرأس — كان بعد ثلاثة عشر يوما من وقوع الجريمة — أردت أن أعرضه على المتهم عبد الغفار وسألته أهذا رأس القتيل ؟ فعراه انفعال شديد . ووضع يديه على عينيه جزعا وكان يتقهقر مبتعدا عن الرأس مستغيثا قائلا « حوشوها من قدامى مش قادر أشوفها » وجلس على الأرض وأبى أن يتقدم لنظر الرأس بتاتا .

ومع ما تقدم فقد استمر على انكار القتل واعترف زميلاه بكل شىء وألصقا به تهمة مباشرة القتل واعداد كل شىء فى بيته . وقدمت القضية الى محكمة جنايات طنطا سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ فحكم على عبد الغفار بالاعدام شنقا ، وعلى زميليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .

هذا ما حضرنى الآن وتفضلوا بقبول وافر احترامى .

ولدكم

اليوزباشى : راغب ابراهيم عطية
معاون بوليس مركز العياط

٢٢/١٢/١٩٢٢

ان العلم اليوم قد كشف عن بعض الغرائز النفسية وأدخلها تحت سلطانه وأخضعها لقوانينه. هذه أمريكا قد اخترع علماؤها آلة تسجيل ضربات القلب — كمّا وكيفا — فهى تسجل عدد الضربات فى الثانية الواحدة ، وتبين حالة الضربات ان كانت مرتفعة أو منخفضة . ومن ذلك يمكنهم أن يقرءوا فى ضوء هذه الآلة الأحوال النفسية للمتهم فى جريمة من الجرائم . وطريقة ذلك أن تناط الآلة بمكان نابض من جسمه كالساعد . ثم يذكر المحقق أسماء الأمكنة والآلات والأدوات — التى يمكن أن تستعمل فى الجريمة — والأحوال والأزمان التى يمكن أن تقارنها أو يكون المتهم قد لابسها .

فان المتهم اذا سمع اسم الآلة التى استعملت ، عراه انفعال (١) خاص فنبض نبضه نبضا عاليا

---

(١) جاء فى كتاب « علم النفس » لحضرات الأفاضل الأساتذة . حامد عبد القادر أفندى وعطية الابراشى أفندى ، ومحمد مظهر سعيد أفندى ؛ فى الصفحة ٢٦٠ من الجزء الأول منه ما يأتى :

روى أنه عرض — على ابن سينا — احد الأمراء وقد أعيا الأطباء أمره ؛ فلما رآه وخاطبه فى شأن مرضه تبين له أن مرضه هو الحب ، ولم يشأ المريض ان يبوح باسم محبوبته ، ولما علم ابن سينا أن =

متواترا يتغير به نظام النبض ، ثم يعود الى الحالة الطبيعية . فيأخذ المحقق كل كلمة اقترن بها اضطراب النبض ثم يضمها الى قرنائها ، حتى يخرج بتقرير عن الجريمة وآلتها ومكانها وملابساتها من حصولها فى ظلمة أو ضوء ، وهل حصلت من المجنى عليه مقاومة أو لا ؟

وهكذا فالله تعالى — مكون الغرائز ومشتهاف الأنفس — شاء أن يدل بنى اسرائيل على طريقة تبين لهم الفاعل اذا تدافعوا فى قتل نفس ولم يعلم الفاعل ، فدلهم على هذه الطريقة التى لا تتخلف غالبا ؛ لتحقن بها الدماء وتحيا الأنفس .

وهذا هو المراد بقوله جل ذكره (كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته) .

ذلك أن ولى الدم ربما حصر شبهة قتل قريبه فى برىء ؛ فاغتاله على حين غرة منه ومن الناس ! ويأتى ولى المقتول الثانى ويحصر شبهته فى برىء آخر ؛ فيغتاله بالطريقة التى اغتيل بها قريبه .

فالله سبحانه وتعالى أراد — ببيان هذه الطريقة — أن يعلم الفاعل بلا لبس ، ويقتص منه ، ويحيا من كانوا مظنة للاتهام وهم براء .

وأيضا — من تحدثه نفسه بقتل غيره غيلة — ويظن أنه يفلت من العقاب — اذا علم أنه لا نجاة له لأن هذه الطريقة ستظهره ؛ يكف عن القتل ويحقن دم من هم بقتله ودم نفسه . وفى ذلك حياته وحياة غيره ، على حد قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) لأن الحياة التى فى القصاص ليست للقتيل ولا للقاتل ! ولكن لمن كانوا على طريق القتل من الأحياء !

بقى أن يقال ان أهل الكتاب ليس عندهم هذا الضرب الذى مشيت عليه فى الآية . وجوابى على ذلك : أن الله تعالى شهد عليهم بأنهم نسوا حظا مما ذكروا به . فليكن هذا مما ذكروا به ونسوه .

وليس هذا الشأن بأول شىء نسوه مما ذكروا به ! فكم من حادثة ذكرها القرآن وليس لها ذكر عندهم ؟ فقد سكتت التوراة عن هلاك زوجة نوح وعن مسألة ابنه وهلاكه وذكرهما القرآن .

= شفاء المريض متوقف على معرفة محبوبته وازالة ماعنده من وجدانات وعواطف كامنة مرتبطة بها ، أخذ على عاتقه أن يعرف اسمها بأية وسيلة . فأمر باحضار اكبر سكان المدينة سنا . فلما حضر قال له : اتعرف شوارع هذه المدينة وسكانها ؟ قال : نعم ، فأمره بان يذكر اسماء الشوارع — شارعا شارعا — وهو قابض على يد المريض ليتحقق من مقدار سرعة نبضه . فلما ذكر الرجل اسم احد الشوارع أسرع نبض المريض ؛ فأمر الرجل بأن يذكر اسماء الشوارع المتفرعة من هذا الشارع ؛ فلما أتى الى اسم أحدها ازدادت سرعة النبض ثانية . فأمر الرجل ان يقص عليه أسماء البوت الواقعة فى هذا الشارع الصغير ؛ فلاحظ ابن سينا ازدياد نبضه عند ذكر أحد البيوت ؛ فقال له : اخبرنى عن أسماء سكان هذا البيت من الفتيات ؛ فلما أتى اسم المحبوبة أسرع النبض ، فالتفت ابن سينا الى المريض وقال له : اليست هذه محبوبتك ؟ فأجابه : نعم ! وبالبحث علم أنها ابنة عمه ، وأن الشاب كان يحبها حبا جما ، ولم يجرؤ أن يذيع سره خوفا من اهله ؛ ولكنهم لما علموا أن شفاءه فى التزوج بها زفوها اليه ؛ فبرىء من مرضه وعاد الى حالته الطبيعية . فسبحان من يعلم السر واخفى ا هـ .

والذى أريد أن أخرج به من هذا البحث : هو أن القول بأن القصة الأخيرة مرتبطة بما قبلها ليس متعينا ، وأن مسألة ضرب القتيل بجزء من البقرة فحيي وأخبر بقاتله ، لم يرد به نص قطعى الثبوت والدلالة ، وأن الرأى الذى رأيته مما تحتمله الآية . والله تعالى هو الموفق للسداد .

بعد كتابة ما تقدم وطبعه ، أطلعت عليه حضرة العلامة البحاثة الأستاذ محمد فتحى « رئيس مجلس حسبى مصر » فأظهر لى ارتياحه وأهدى الى رسالتين عنوان كل منهما « علم النفس الشرعى وكشف الجرائم » ثانيتهما تشتمل على ما نشره فى مجلة المحاماة « عددى مايو واكتوبر سنة ١٩٢٧ » وفيها عدة مباحث لكشف الجرائم بالوسائط العلمية . وقد خطر لى أن أنقل لحضرات القراء بعض الكلمات التى جاءت فى بحث طريف من أبحاث الرسالة وهو : —

« قياس الانفعالات النفسية عن طريق الجلد »

قال : ان كشف آثار الانفعالات النفسية لا يقف عند حد قياس زمن التفاعلات العقلية بالكرونسكوب ، بل هناك من الوسائل العلمية الأخرى ما لا تقل عنه خطورة وأهمية .

ولقد أشرت فى محاضرة ألقيتها فى نادى الحقوق « فى يناير سنة ١٩٢٥ » ومنشورة فى مجلة المحاماة عدد نوفمبر من تلك السنة — تحت عنوان « علم النفس الشرعى » وآثار الانفعالات النفسية فى كشف التأثرات النفسية ، بقياس قوة مقاومة سطح الجلد للتيارات الكهربائية بتمرير تيار كهربائى ضعيف فى الجسم ، ثم رصد آثار الانفعالات التى تنتاب الشخص الذى تحت الاختبار بمقياس دقيق لمقاومة التيار معروف باسم « جلفانومتر » وهو جهاز ذو ابرة مغناطيسية حساسة للتيارات الكهربائية وتسجل ما يطرأ عليها من التغيير .

فان هذه الظاهرة الجلدية العجيبة قد درست من الوجهة الطبية وأجريت فيها عدة أبحاث فنية قام بها نخبة من خيرة العلماء أمثال « شارل فيريه C. Féré » و «ڤيجورو R. Vigourou» و«ستكر Sticker » و « تارشنوف Tarchanof» و « زومر Sommer » و « فورنستنو Furnstenau وغيرهم من رجال العلم وأبطال البحث — فدلت التجارب المتعددة التى قاموا بها على أن كل خاطر يمر بالبال ، أو كل لفظ يطرق السمع ولو كان مدلوله تافها وظاهره مجردا عن المغزى ، له تأثيره الخاص فى النفس . ويظهر بوضوح فى جهاز الاختبار .

أما أساليب الاختبار فكثيرة متنوعة . ويكفى هنا ذكر الطريقة الأكثر شيوعا : وهى أن يؤمر المختبر بأن يستوى على مقعد مريح وثير الفراش — ذى متكأين يركز عليهما منكبيه — ثم يبسط راحته على لوحين نحاسيين ، أو يضع أطراف بعض أصابعه فى اناءين صغيرين — من الصينى — بهما محلول ملح الطعام ، ثم يسلط على اللوحين أو الاناءين تيار كهربائى ضعيف من بطارية « قوتها ١٥ ڤولتا » بحيث لا يكون التيار محسوسا طول مدة الاختبار .

وتقاس التقلبات التى تطرأ على التيار بجلفانومتر دقيق ذى مرآة عاكسة ، ويوضع على مسافة

متر — تقريبا — تجاه المرآة مصباح قوى يلقى أشعته عليها ، وهذه تعكسها على لوح كبير من السليوليد — مقسم الى سنتيمترات، وملليمترات — بحيث ان كل تغيير فى قوة مقاومة التيار — مهما كان طفيفا — يؤدى الى تحرك الجلفانومتر بالمرآة ، فيظهر أثر هذه الحركة مكبرا فى رحلات الأشـعة الساقطة على اللوح المقسم . وبهذا يمكن قياس درجات انحراف الأشـعة عن موضعها الأصلى بسهولة .

فكل لفظ يحدث فى النفس انفعالا — مهما كان طفيفا — يؤثر فى قوة مقاومة الجلد للتيار تأثيرا خاصا يبدو على اللوح مكبرا ، وبذلك يتسنى للخبير أن يرصـد مراتب الانفعالات المختلفة لكل خاطر بدقة ووضوح تام . فيدرس مما تسطره يد العلم على لوح الامتحان نفسية المختبر — درسا غاية فى الدقة — حيث ينطق الجلد قبل اللسان بما يكنه الفؤاد ويضمره الجنان.

ان هذا الأسلوب العجيب من البحث قد استخدم فى الأبحاث الطبية وتشخيص الانفعالات النفسية فى الحالات المرضية بمهارة واحكام .

ولقد اتجهت أنظار العلماء أخيرا الى تطبيقه فى الأبحاث الجنائية لكشف التأثرات الخفية الخاصة بالذكريات الاجرامية فوصلوا فى أبحاثهم الى نتائج جديرة بكل اعتبار واهتمام .

أقول : ان العلم فى كل زمان يخدم القرآن الكريم ، ويبين البيان الوافى أن الغرائب التى فيه صحيحة مؤيدة بالبراهين الناصعة .

ورد فى القرآن الكريم : أن أهل الذنوب ينطق الله تعالى جلودهم يوم القيامة ، فتشهد عليهم بما اقترفوا من الذنوب فى الحياة الدنيا .وهذا العلم جاء اليوم يؤيد ذلك !

اقرءوا قوله تعالى فى سورة فصلت : وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [١٩] حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٢٠] وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٢١]

لا أريد حمل الآية على أن المراد بها أن الله تعالى ينطق الجلود بتلك الآلة ! ولكنى أقول ان العلماء ينطقون الجلود فى الدنيا بما أوتوا من العلم ، والله ينطقها فى الآخرة بما له من القدرة الغالبة والحكمة العالية .

ويعجبنى قول الأستاذ العلامة محمد فتحى فى آخر رسالته المذكورة : وكلما ازدادت أساليب الاختبار تحسينا واتقانا ، زادت معها نسبة النجاح فى اقتحام ضمير المتهم وكشف بواطن عقـله واستخلاص ما يكنه فى سويداء قلبه من الخبايا وانتزاع أعز ما يحرص عليه بين حنايا ضلوعه من الأسرار . اهـ .

فاذا كان ذكر أسماء الأشياء التى لها ذكريات فى الجريمة كافيا لفضح سر المتهم . فمن باب

أولى يكون عرض القتيل على القاتل وضربه بجزء منه حاملا على اضطرابه وظهور أمارة الاجرام عليـــه ؟

جاء فى أهرام يوم السبت ٩ مارس سنة ١٩٣٥ بمناسبة الحكم على هويتمان — قاتل : ابن لندبرج — بعد أن تكلم على الآلة الفاضحة لأسرار المجرمين قال :

وفاضحة الأسرار مفيدة ليس فى الدلالة على الذنب أو البراءة فحسب ؛ بل فى ايضاح بعض أمور مشكوك فيها تتعلق بالجريمة ، ففى قضية هويتمان — مثلا — قد تفضح كذبه فى انكار رقاع الفدية التى لا تزال هدفا للشك ، وفيما اذا كان هو واحدا من عصابة دبرت طريقة الخطف أو أنه أتمه وحده ، وتساعد أيضا على معرفة صدق بعض المشتبه بهم أو كذبه ، ولا سيما الآنسة « ڤيولات شارب » خادمة أسرة زوجة لندبورغ التى انتحرت بشرب السم عندما أراد رجـال البوليس استجوابها مرة ثانية ، والتى يعتقد كثيرون أن لها اصبعا فى المكيدة .

فآلة البوليجراف مماثلة فى فعلها من بعض الوجوه للسائل المعروف — بمصل الصد — الذى اذا أعطى المتهم مقدارا معلوما منه أرغم على ايراد ما فى ذاكرته ، وماتت قوة ارادته فحال دون تبرمه أو اختلاق ما لا يكنه صدره فلا يتفوه بغير الحقائق ، وقد جربوا هذا المصل فى سارق بعد اتهام آخرين غيره فكانت النتيجة مدهشة اذ اعترف بارتكابه الجريمة وحـده وهو الآن يكفر عن جريمته فى السجن .

وفى جريمة قتل حدثت فى « شكاغو » سألت الحكومة الدكتور « كيـلر » عن اسـتخدام البوليجراف لفصل الأبرياء عن المذنبين ففعل وكان نجاح الآلة فى كشف مخبآت صـدورهم مدهشا اذ اعترف المرتكبون بفعلتهم بعد أن سجلت الآلة كذبهم وبرأت الآخرين ، وهنـاك عدة جرائم أخرى — أماطت هذه الآلة عنها نقاب الكذب والتمويه — لا يتسع المجال لايرادها بالتفصيل بعد أن عجز رجال الحكومة عن الوقوف على خفاياها .

وجاء فى الأهرام الصادر يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٣٨ تحت عنـوان « آلة لفضح الكذب : استعمالها لأول مرة فى احدى محاكم أمريكا » ما نصه :

نيويورك فى ١٠ مايو — لمراسل الأهرام الخاص — ان الطريقـة الآلية التى يعرف بهـا صدق المتهم أو كذبه ، قد خطت خطوات واسعة الى الأمام ، عندما استعين بها . وقبـل القاضى ما رسمته من هذا القبيل فى دعوى جرت مؤخرا فى هذه المدينة ، وذلك للمرة الأولى فى التاريخ القضائى ، وكانت المحاكم تأبى استخدام آلة مثلها لذلك القصد ، كان الاعتماد فيها على اعتبار دقات القلب والعرق الذى يتصبب من المتهم بتأثير مجازيها الكهربائية السارية فى جسمه .

وهكذا أصبحت آلة فضح الكاذب معتبرة شاهدا صادقا ، كما تعتبر بصمات الأصـابع والكتابة وغير ذلك من الأمور التى يلجأ اليها لاثبات ارتكاب المتهم ، ولهذه الآلة مزية أخرى

أيضا ، هى أنها تبرهن على براءة المتهمين ، الذين يكونون ضحية الغرض أو الشهادات الاستدلالية. وقد قبل القاضى شهادة الآلة فى محاكمة شاب متهم بأخذ ٣٥ دولارا بالقوة من مخزن بقال ، وكانت للشاب سابقة أخرى سجن بسببها ، فتعرض بذلك للحكم عليه بالحبس من ثلاثين الى ستين سنة .

وتبرأ الشاب من التهمة الأخيرة بقوله انه كان — وقت ارتكاب السرقة — فى منزله مع زوجته وأبيه وأمه ، وأقسم صاحب المخزن اليمين على أنه ، أى المتهم ، هو الذى اغتصب المال ، وكان لكل من المدعى والمدعى عليه شهود يؤيدونهما فيما قالاه ، وعندئذ عرض المحامون عن المتهم نتيجة آلة فضح الكذب كبرهان على براءة موكلهم . وهذه الآلة هى اختراع الكاهن « والتر سمرس : من جامعة فوردهام » فبعد أن تروّى القاضى مليا فيما رسمته الآلة ، أشار على المحكمين بأن يعتبروا ما اختبرته الآلة ، وهكذا برأوا ساحة الشاب وأطلقوا سراحه .

وهذه الآلة تتأثر بفعل مجار كهربائية تخترق جسم المتهم بينما يكون قابضا بكلتا يديه على نصابين متصلين بسلكين كهربائيين بالآلة ويشرع فى الاجابة عن أسئلة تلقى عليه ، فترسم أجوبته خطوطا على خريطة بيضاء ملصقة بالآلة ، فاذا كانت أجوبته كاذبة كانت الخطوط معوجة ، واذا كان صادقا جاءت الخطوط مستقيمة ، وقال الأب سمرس مخترعها للمحكمة : انه ألقى على المتهم ١٩ سؤالا منها ١٦ سؤالا لا علاقة لها بالتهمة مطلقا والثلاثة الباقية تتعلق بالسرقة رأسا ، وأعادها عليه ثلاث مرات ، فجواب المتهم عنها واستواء الخطوط على خريطة الآلة كانت البراهين على براءته .

وسأل المدعى العام الكاهن مخترع الآلة قائلا : أليس من الممكن أن يسيطر المتهم على انفعالاته بصورة تفسد عمل الآلة ؟ فقال الكاهن : كلا ، لأنه ان تمكن المتهم من ذلك فانه لا يؤثر فى الآلة أقل تأثير ، وزاد الكاهن على هذا أن خريطة الآلة منقسمة الى ثلاثة أقسام : فقسم منها يسجل الذنب ، والقسم الثانى يسجل ما يدل على أن للمتهم علما بالجريمة ، والقسم الثالث يسجل البراءة .

فاذا كان المتهم بريئا كانت الخطوط التى ترسمها الآلة على الخريطة مستقيمة واذا كانت للمتهم معرفة بالجريمة كانت الخطوط شبيهة بالهضاب والأودية ، واذا كان مذنبا يزداد ارتفاع الهضاب الى أعلى حد ، فاذا أجازت المحاكم العليا الاعتماد على هذه الآلة أصبحت معرفة المذنب والبرىء من أسهل الأمور وتخلصت المحاكم من عناء كثير ونفقات طائلة فى اثبات الذنب على المجرم ونجا البرىء الذى توافرت عليه الشبهات والأدلة من عقاب جريمة لم يرتكبها .

ونشرت الأهرام بعددها الصادر فى ٨ يونية سنة ١٩٣٨ مقالا علق فيه لفيف من الكتاب على الرسالة الواردة من نيويورك بخصوص آلة فضح الكذب ونصه :

نشرت « الأهرام » منذ أيام لمراسلها الخاص فى نيويورك ، رسالة عن آلة فضح الكذب التى اخترعها الكاهن الأمريكى « والترسمرس » وطبقها القضاء الأمريكى فى احدى الدعاوى ؛ اذ اتخذ منها شاهدا صادقا لاثبات الذنب على المجرم أو لتسجيل براءته .

وعلق الأستاذ عبد العليم رزق الدهشـــان المحامى على ذلك فقال : ان محققا مصريا لا يذكر اسمه — قد سبق الكاهن الأمريكى بالفكرة منذ عشرين سنة اذ اتخذ من نبض القلب فى سرعته وبطئه مقياسا لتعرف أسباب الجريمة .

ولقد أثار هذا الموضوع اهتمام بعض القراء .

الرئيس ابن سينا أسبق الجميع

فقد تلقينا تعليقا بهذا العنوان من حضرة « ابراهيم عابدين : خريج دار العلوم» استهله بقوله: انه وان كان يوافق على أن مصر سبقت أمريكا فى فكرة الآلة الا أنه يرى أن الرئيس ابن سينا كان أسبق الجميع بها . ثم روى عنه القصة التالية :

« أقبل على الرئيس ابن سينا — ذات يوم — أهل مريض أسقمه الحب وحل به ما حل بأبى نواس حيث قال :

حامل الهوى تعب   يســتخفه الطرب
ان بكى يحــق له   ليس ما بــه لعب
تضحكين لاهيــة   والمحــب ينتحب
تعجبين من سقمى   صحتى هى العجب

وزعم أهل المريض لابن سينا أن مرضه كسائر الأمراض وأنهم يأملون أن يبرئه من سقمه ويذهب عنه ألمه .

ولكن الرئيس ابن سينا لم يكد يراه ، حتى قرأ فى عينيه آيات الحب ولمح فى وجهه شاهدا من الخبر ، فأخذ يجس نبضه ثم أحضر رجلا يعرف قرية المريض — شوارعا وبيوتا وأهلا — ثم طلب اليه الرئيس أن يعد أسماء شوارع القرية ففعل ، وكان كلما اقترب من شارع حبيبته ازداد نبضه . حتى اذا ما انتهى الى الشارع كان أكثر نبضا ، فطلب الرئيس الى ذلك الرجل عد ما فى الشارع من بيوت فذكر بيوته ، حتى اذا ما انتهى الى بيت حبيبته كان أكثر نبضا ، فطلب اليه ذكر أسماء من فى البيت حتى اذا ما ذكر اسمها كان النبض قد بلغ أشده فسأله الرئيس عما يربطه بها ، فعلم أنها ابنة عمه فنصح الى أهل المريض بتزويجه منها .

ثم روى بعد ذلك القصة الطريفة التالية أنها وقعت فى الريف منــذ ٣٠ سنة . كان عمادها جس النبض للوقوف على الحقيقة وهى :

« كثيرا ما يرحل بعض الأعراب الى الريف أيام الحصاد فيتخذون الأجران مقاما يضربون

فيها خيامهم . وقد حدث مرة أن خرج رجل منهم ليلا لبعض شأنه فانتهز أحد أفراد القرية فرصة غيابه ، فدخل على امرأته فى خبائها ورغب فى مداعبتها — على كره منها — واتفق أن جاء فى هذا الوقت ، فلما أحس الفلاح وقع قدميه ولى مدبرا ، وتوسط جماعة الفلاحين الذى كانوا نائمين فى الجرن كعادتهم صيفا ، فلما علم الأعرابى من زوجته بأمر ذلك القروى أسرع الى جماعة الفلاحين وهم رقود ، ثم أخذ يجس نبضهم واحدا واحدا ، فعرف أن شخصا منهم كان أسرعهم نبضا ، فترك عليه قلنسوة ليميزه بها من غيره ، ثم رجع الى خبائه ليحضر عصا ولكن القروى كان أحذق منه فما أن غادره حتى وضع القلنسوة على رأس شخص آخر برىء ، فلما حضر الأعرابى بعصاه أوسع ذلك البرىء ضربا من غير ما ذنب جنى ؛ وهكذا تكون مجاورة رجال السوء .

ان هذا الأعرابى وان أفلح فى فراسته لم يأخذ حيطته . ولعل جس النبض للوقوف على الجريمة فكرة عند العرب من قديم حتى فعلها ذلك الأعرابى الساذج .

ثم ختم تعليقه بقوله : ان الرئيس ابن سينا يعد بحق أول الجميع فى السبق بالانتفاع بالفكرة.

وأشار الأستاذ « محمد طاهر الخشاب : المحامى » فى مستهل مقال له حول الموضوع الى تعليق الأستاذ الدهشان وما قاله من أن محققا مصريا — لا يذكر اسمه — قد سبق الأمريكى بعشرين سنة فى الأخذ بفكرة النبض كمقياس للكشف عن الجريمة ثم قال :

« واننى بصفتى أحد تلاميذ هذا الأستاذ المحقق ، وهو قاض كبير الآن ، أود — انصافا له ولجهوده — أن أذكر أنه هو الأستاذ « محمد فتحى بك رئيس محكمة المنيا الابتدائية وأستاذ علم النفس الجنائى بمعهد الدراسات الجنائية فى كلية الحقوق » وكان الأستاذ قد شغف بدراسة هذا العلم منذ بعيد . فقرأ كثيرا من الكتب والمؤلفات حتى أصبح حجة فيه .

ثم انتقل الى الكلام عن الحادثة التى رواها الأستاذ الدهشان فقال : انها حادثة قتل لا سرقة، وقد وقعت فى مركز السنبلاوين سنة ١٩١٤ حين كان الأستاذ وكيلا لنيابة المركز . كما يتبين ذلك من مراجعة العدد السابع من مجلة القانون والاقتصاد فى سنتها السابعة ، ومن المذكرات التى كتبها الأستاذ فى ذلك الصدد .

الى أن قال : ولقد ذكر الأستاذ فى مذكراته هذه أنه لم يعتمد فقط على تجربة جس النبض بل وعلى تجارب أخرى معروفة لدى المشتغلين بعلم النفس الجنائى ، منها تجربة كرة العين وهى احدى التجارب التى قام بها الأستاذ « هوجو منستربرج » فى الولايات المتحدة . ومما يذكر بالفخار لأستاذنا الكبير أنه لم يشأ أن يترك هذه الحادثة تمر دون أن يكون لها أثر رسمى ثابت، فسجلها فى محضره الذى أخذت به محكمة الجنايات فيما بعد واعتمدت عليه فى أدانة المتهم .

واذا كنا نذكر أستاذنا فتحى بك بالاجلال والتقدير اللائقين به وبجهوده الموفقة ، الا أنه

يجب علينا انصافا للعلم ولرجاله أن نذكر أن هذه التجربة التى استعان بها فتحى بك فى تحقيقاته كان قد سبقه اليها عالم أمريكى هو الأستاذ « هوجو منستر برج ، أستاذ علم النفس الجنائى بجامعة هارفار » فى الولايات المتحدة . ولقد ذكر أستاذنا ذلك صراحة فى مقالته المنشورة بمجلة القانون والاقتصاد اذ قال ما نصه :

« ... وبينما أنا مسترسل فى أفكارى وحيرتى ، اذ تذكرت فى الحال بعض تجارب العلامة « منستر برج » بشأن ضربات القلب ، وتأثير الانفعالات النفسية فيها فوضعت يدى فى يد المتهم .. الخ » .

ولقد أثبت القضاء المصرى جدارة تستحق الاعجاب حين أخذ بهذه الفكرة واعتمد فى حكمه على نتيجة هذه التجربة فى وقت كان يعتبر فيه علم النفس ضربا من ضروب الشعوذة والخيال.

ثم أشار بعد ذلك الى الرئيس ابن سينا وحادثته المشهورة ، التى عالج بها مريضا وعرف داءه عن طريق جس نبضه ، وقال : انه وان كان الأستاذ « هوجو منستر برج » هو صاحب صياغة الفكرة فى قالب عملى بواسطة آلة ميكانيكية ، الا أن صاحب الفضل الحقيقى فى الفكرة هو هذا العلامة الاسلامى المشهور : ابن سينا .

ثم ختم تعليقه بقوله : ولقد ذكر الزميل الأستاذ الدهشان شيئا عن واقعة سرقة — الحمار — ولم يذكر أسم عضو الهيئة الذى ذكر الأستاذ فتحى بك صاحب الفكرة بتجربة جس النبض ، وأستطيع أن أقول ان عضو الهيئة المقصود هو الأستاذ « محمد البابلى بك : مدير الجيزة والأستاذ بمعهد العلوم الجنائية » .

ونشرت جريدة الأهرام بعددها الصادر فى ١٣ يونيه سنة ١٩٣٨ مقالا للأستاذ محمد فتحى بك فى هذا الموضوع ونصه :

قرأت فى جريدة « الأهرام » من بضعة أيام — ذلك النبأ الذى بعث به مراسل الأهرام فى نيويورك بشأن اختراع كاهن أمريكى يدعى « والتر سمرس : من جامعة فوردهام » لجهاز كهربائى يفضح كذب المتهم . وذلك بتمرير تيار كهربائى يخترق جسم المتهم ، بينما يكون قابضا بكلتا يديه على نصابين بسلكين متفرعين من الجهاز . ثم يشرع فى توجيه بعض الأسئلة الى المتهم ، فترسم أجوبته خطوطا وموجات على خريطة بيضاء — متصلة بالآلة — يستدل من شكلها وأبعادها على ماإذا كان المتهم صادقا أو كاذبا . كما اطلعت على ماكتبه الأستاذ «عبد العليم رزق الدهشان» بأهرام ٥ الجارى — تعليقا على النبأ المتقدم ، وعلى حكاية المحقق الذى كشف جريمة خطف بندقية خفير عن طريق جس نبض المتهم ، بينما كان المحقق يجاذبه أطراف الحديث ويجوب به الأمكنة التى يغلب أنه أخفى البندقية فيها ، وكيف وفق فى النهاية الى كشف مكان البندقية ؟ — وانى أشكر الأستاذ الدهشان على حسن ظنه بذلك المحقق المجهول الذى يقول عنه انه

استعمل فكرة الكاهن « والتر سمرس » من عشرين سنة خلت ، كما أستسمحه فى تصحيح ما ورد فى روايته من تحريف غير مقصود للوقائع باعتبار اننى ذلك المحقق المصرى الذى أشار اليه فى مقاله ، ملتمسا له العذر خصوصا وأنه ناقل عن سواه .

وانى ما كنت أريد أن أتصدى للمناقشة فى موضوع فنى دقيق كهذا على صفحات الجرائد اليومية ، لأن مجال هذه الأبحاث هى المجلات العلمية المخصصة لذلك — طبية كانت أوقضائية — غير أن واجب الأمانة للعلم يدفعنى الى تصحيح وقائع رواية محرفة اسندت الى ، كما يدفعنى الى ابداء ملاحظاتى من الناحية العلمية الذى بعث به مراسل « الأهرام » والذى كان موضوع تعليق الأستاذ الدهشان . وانى أبدأ بملاحظاتى على النبأ فى ذاته أولا ، ثم انتقل بعد ذلك الى التعليق على تعليق حضرة الزميل المحترم .

فالجهاز الكهربائى الذى أسند اختراعه الى الكاهن الأمريكى « والتر سمرس » يلوح لى من وصفه المجمل أن المقصود به هو الجهاز المعروف باسم « Psycho Galvanometer » المخصص لرصد الظاهرة المعروفة باسم « Psycho-galvanic Reflex » أو بعبارة أخرى هو جهاز معد لقياس مبلغ التأثرات النفسية عن طريق الجلد بوساطة تمرير تيار كهربائى بالجسم ، ورصد آثار الانفعالات التى يحدثها توجيه بعض الأسئلة المحرجة أو الأجوبة عليها بجلفانومتر حساس يوضع فى طريق التيار . فان كان الأمر كذلك فهو جهاز قديم مضى على اختراعه عشرات السنين ويسنده البعض الى العلامة « فيريه » والبعض الآخر الى العلامة « تارشانوف » حتى لقد أطلق أحيانا اسم كل منهما على هذه الظاهرة ، فيقال عنها «ظاهرة فيريه» وأحيانا «ظاهرة تارشانوف» وقد تلقى العلامة «هويتلى سمث» طريقة استخدام هذا الجهاز عن الدكتور « بريدو » كما أشار الى ذلك فى مقدمة مؤلفه المعروف باسم قياس الانفعالات النفسية . وتحت يدى نسخة منه طبعة سنة ١٩٢٢ وقد استخدمه فى قياس الانفعالات استخداما صالحا موفقا ، وانى لا أستبعد أن يكون هذا الجهاز عن الدكتور « بريدو » كما أشار « والتر سمرس » انما هو تحريف لاسم « ويتلى سمث » صاحب المؤلف المذكور لما بين الاسمين من تشابه كبير مع اتحاد فى أسلوب البحث .

وانى قد أشرت الى هذا الجهاز وما يرجى له من الأثر فى كشف الجرائم فى محاضرة ألقيتها فى نادى الحقوق سنة ١٩٢٥ ، ونشرت مجلة المحاماة نصها فى العام التالى على ما أذكر ، وقد أتيت على وصف مجمل لهذا الجهاز فى مقال نشر بمجلة القانون والاقتصاد — التى يصدرها أساتذة الحقوق فى العدد الخامس من السنة السابعة — ولست أرى بأسا من أن أورد هنا نص ما نشر خاصا بوصف الآلة تحت عنوان « قياس الانفعالات النفسية عن طريق الجلد » ص ٨٧٧ زيادة فى الايضاح وتعميما للفائدة العلمية :

« ان كشف آثار الانفعالات النفسية لا يقف عند حد قياس زمن التفاعلات العقلية

بالكرونسكوب ، بل هناك من الوسائل العلمية الأخرى ما لا يقل عنه خطورة وأهمية ، ولقد أشرت فى محاضرة ألقيتها فى نادى الحقوق — فى يناير سنة ١٩٢٥ — الى امكان كشف التأثيرات النفسية بقياس قوة مقاومة سطح الجلد للتيارات الكهربائية بتمرير تيار كهربائى ضعيف فى الجسم ، ثم رصد آثار الانفعالات التى تنتاب الشخص الذى تحت الاختبار بمقياس دقيق لمقاومة التيار معروف باسم «جلفانومتر» وهو جهاز ذو ابرة مغناطيسية حساسة للتيارات الكهربائية وتسجل ما يطرأ عليها من التغيير فان هذه الظاهرة الجلدية العجيبة قد درست من الوجهة الطبية وأجريت فيها عدة أبحاث فنية قام بها نخبة من خيرة العلماء أمثال : شارل فيريه ، وفيجورو ، وشتكر ، وتارشنوف، وزومر ، وفورنستنو ، وغيرهم من رجال العلم وأبطال البحث ، فدلت التجارب المتعددة التى قاموا بها على أن كل خاطر يمر بالبال ، أو كل لفظ يطرق السمع — مهما يكن مدلوله تافها وظاهره مجردا عن المغزى — له تأثيره الخاص فى النفس ويظهر بوضوح فى جهاز الاختبار .

« أما أساليب الاختبار فكثيرة متنوعة . ويكفى هنا ذكر الطريقة الأكثر شيوعا : وهى أن يؤمر المختبر بأن يستوى على مقعد مريح وثير الفراش ذى متكأين — يركز عليهما منكبيه — ثم يبسط راحتيه على لوحين نحاسيين أو يضع أطراف بعض أصابعه فى انائين صغيرين من الصينى بهما محلول ملح الطعام ، ثم يسلط على اللوحين أو الاناءين تيار كهربائى ضعيف من بطارية قوتها نحو « ١٥ فولتا » بحيث لا يكون التيار محسوسا طول مدة الاختبار ، وتقاس التقلبات التى تطرأ على التيار « بجلفانومتر » دقيق ذى مرآة عاكسة ، ويوضع على مسافة متر — تقريبا — تجاه المرآة مصباح قوى يلقى أشعته عليها . وهذه تعكسها على لوح كبير من السليوليد يقسم الى سنتيمترات وملليمترات بحيث أن كل تغيير فى قوة مقاومة التيار — مهما يكن طفيفا — يؤدى الى تحرك الجلفانومتر بالمرآة ، فيظهر أثر هذه الحركة مكبرا فى رحلات الأشعة الساقطة على اللوح المقسم ، وبهذا يمكن قياس درجة انحراف الأشعة عن موضعها الأصلى بسهولة ، فكل لفظ يحدث فى النفس انفعالا — مهما يكن طفيفا — يؤثر فى قوة مقاومة الجلد للتيار تأثيرا خاصا يبدو على اللوح مكبرا ، وبذلك يتسنى للخبير أن يرصد مراتب الانفعالات المختلفة لكل خاطر بدقة ووضوح تامين ، فندرس مما تسطره يد العلم على لوح الامتحان نفسية المختبر درسا غاية فى الدقة والاتقان ، حيث ينطق الجلد قبل اللسان بما يكنه الفؤاد ويضمره الجنان.

ان هذا الأسلوب العجيب من البحث قد استخدم فى الأبحاث الطبية وتشخيص الانفعالات النفسية فى الحالات المرضية بمهارة واحكام . ولقد اتجهت أنظار العلماء أخيرا الى تطبيقه فى الأبحاث الجنائية لكشف التأثرات الخفية الخاصة بالذكريات الاجرامية ، فوصلوا فى أبحاثهم الى نتائج جديدة بكل اعتبار واهتمام وقد نشرت احدى المجلات العلمية المعروفة باسم « Popular Science » بعض هذه الأبحاث بقلم « E. E. Free » بعدد ديسمبر سنة ١٩٢٦ ص ١٤ .

ولست أرى من الوجهة العلمية مانعا يمنع من أن يسير مثل هذا الأسلوب الجديد من البحث بجانب الاختبار «بالتداعي اللفظي» فى كشف الجرائم ، حيث ينضم الجلفانومتر الى الكرونسكوب فى العمل انضمام تكاتف وتعاون فى دراسة الخواطر المختلفة مع ما يتبعها من الانفعالات ، وما على الباحث الا أن يدون فى مذكراته ما يسجله «الجلفانومتر» من جانب وما يسجله «الكرونسكوب» من الجانب الآخر . وبذلك يتوافر لدى الباحث ضمانان علميان بدلا من ضمان واحد ، كما يمكنه بهذه الوسيلة المزدوجة الرشيدة أن يرقب البواعث المختلفة التى أثرت فى سرعة التفاعلات العقلية « Reaction time » وما اذا كان مصدرها التأثرات النفسية والانفعالات ، أم مصدرها مجرد التأملات الباطنية والمحاولات .

فمن الاطلاع على النبذة المتقدمة مما سبق نشره يتبين أن الفكرة لم تكن جديدة فى بابها ، ولا هى وليدة عام أو عامين انما الطريف فيها أن أخذت بها بعض المحاكم الأمريكية — لأول مرة — لا على سبيل الاستدلال فحسب ، ولكن كدليل مباشر على براءة المتهم ان صح النبأ الذى وافانا به مراسل « الأهرام » بنيويورك وهو ضرب جديد من ضروب التدليل العلمى فى ساحة القضاء .

وليس « السيكوجلفانومتر » هو الجهاز الوحيد لقياس الانفعالات النفسية ورصد آثارها ، بل هناك غيره من الأجهزة التى ترمى الى نفس الغاية . وان اختلفت عنه من حيث الوسيلة أو الأسلوب .

(فمنها) ما أعد لرصد حركة القلب ونبضاته وما يطرأ عليها من التغيير — سواء من حيث السرعة والبطء أو القوة والضعف — بتأثير الانفعالات . وقد أطلق عليه اسم سفجموجراف « Sphegmograph » (ومنها) جهاز وضع لرصد حركات التنفس كذلك وأطلق عليه اسم : نومو جراف « Pneumograph » وقد ظهر بالتجربة أن لكل نوع من أنواع الانفعالات تأثيرا خاصا فى حركتى التنفس وضربات القلب .

ففى حالة السرور يسرع التنفس ويصير خفيفا — أى قريب الشبه بحالة الضحك — وفى حالة الحزن يبطىء التنفس ويصير عميقا — كأنه تنهدات مخففة — وفى حالة الغضب يسرع التنفس ويصير قويا . وفى حالة الهبوط يبطىء التنفس ويصير خفيفا . كما وجد أن النبض عند السرور يكون بطيئا وقويا ، وفى الحزن يكون سريعا وضعيفا — أى النبض فى هاتين الحالتين يكون على عكس ما فى التنفس — وفى الغضب يكون سريعا قويا . وفى الهبوط بطيئا ضعيفا — كما هى الحال فى التنفس .

وهناك جهاز يسمى بالبلثز موجراف « Plethysmograph » لقياس مقدار توارد الدم فى عضو من الأعضاء وقد وجد بالتجربة أن لكل انفعال تأثيرا خاصا فى كمية الدم التى تتوارد على ذلك العضو الموضوع تحت التجربة ، كذلك تظهر آثار الانفعالات النفسية فى حركة الساق

الناشئة من الدق على وتر الركبة بتأثير الفعل المنعكس ، بمعنى أن الزاوية التى تتكون من هذه الحركات وجدت تختلف درجتها باختلاف الحالات النفسية المتنوعة . وقد استخدم لذلك جهاز خاص ذو مطرقة صغيرة تدق على ذلك الوتر دقات متساوية فى فترات منتظمة ، ثم رصدت الحالات النفسية المختلفة حال اجراء هذه العملية .

وهناك جهاز آخر لتسجيل حركة الذراع أو المعصم حين بسطه عليه فتعين اتجاه اليد اتجاها — لا شعوريا — نحو شيء معين يكون له أهمية خاصة من نفس الشخص الموضوع تحت الاختبار ، فيوضع ضمن مجموعة من أشياء أخرى تصف على المائدة فى شبه دائرة حول الجهاز فتشاهد أن اليد تحرك الجهاز عن غير قصد فى اتجاه الشيء الخاص . وقد أطلق عليه اسم « Automatograph » أى مسجل الحركة الذاتية فلو كان شخص متهما فى جريمة قتل وجيء بالسلاح الذى ارتكب به القتل ، وكان هذا الشخص ينكر الجريمة وملكية السلاح ، ووضع السلاح ضمن قطع أخرى — من أسلحة مختلفة — حول الجهاز لشوهد أن يد المتهم تحركه فى اتجاه السلاح المقصود بالذات ان كان سلاحه ، واذا نقل من مكانه الى مكان آخر تحركت اليد فى اتجاه ذلك المكان الجديد .

وهناك غير ذلك من التجارب والأجهزة التى يمكن استخدامها فى كشف آثار الانفعالات ، وبالتالى فى فضح نفسية المتهم لا يتسع المجال لذكرها ، انما الذى يجب لفت النظر اليه ، أن هذه الاختبارات لم تصل بنا بعد الى الدرجة التى يمكننا معها استخدامه كغاية فى ذاتها لاقامة الدليل على متهم ليس عليه دليل سواها ، ولكن ذلك لا يمنع من استخدامها فى الوقت الحالى كمجرد وسيلة للوصول الى الأدلة المعتبرة أمام القضاء ، والتى تثبت الجرم على المتهم بالبرهان المقبول قانونا . فهناك فرق عظيم بين اعتبار هذه الأبحاث كواسطة للوصول الى غاية معينة وبين اعتبارها غاية فى ذاتها ، ولكى أقيم الدليل العملى على فائدة مثل هذه الاختبارات للمحقق فى كشف معميات الجريمة ضربت المثل للطلبة فى مذكرات التدريس بحكاية البندقية التى أشار اليها الأستاذ الدهشان فى مقاله ، وانى أنتهز الفرصة لذكرها الآن مصححة نقلا عن مذكراتى الخاصة متوخيا الايجاز بقدر المستطاع .

فى عام ١٩١٤ وقع حادث شروع فى قتل باحدى القرى التابعة لمركز السنبلاوين ، وملخصه : أن شخصا من الأهالى أطلق عليه عيار نارى من يد مجهول — حال خروجه من القرية قاصدا غيطه — وكان الوقت قبيل العشاء ، وقد أطلق العيار من مزرعة على جانب الطريق فأصيب المجنى عليه فى ساعده الأيسر . ولما كنت وكيلا لنيابة ذلك المركز وقتئذ فقد قمت بالتحقيق ، وفى خلاله حامت الشبهة حول شخص كان خطيبا لزوجة المجنى عليه ، ولكن والدها أبى أن يزوجها منه لسوء سلوكه وزوجها من المجنى عليه ، ولما كان المتهم خفيرا خاصا لزراعة بعض الأعيان ومرخصا له بحمل السلاح فقد سئل بطبيعة الحال عن سلاحه ، فادعى فقده من عشرين يوما ،

غير أن بعض الشهود شهدوا بأنهم رأوه يحمله قبل الحادثة بيوم واحـد ، كما شهد اثنان من أهالى القرية بأنهما رأيا المتهم — عقب سماعهما العيار — يسير على شاطىء الترعة متجها نحو المزرعة التى وجد فيها . وكان مجدا فى السير قليلا وبيده عصا ، ولكن نتيجة التحقيق لم تتقدم بعد ذلك خطوة واحدة ، فى حين أن ما وصلت اليه من الأدلة لم يكن سوى شبهات لاتكفى لادانة المتهم قانونا ، غير أنها كونت عندى شبهة عقيدة بأنه هو الفاعل ، ولذلك حصرت اهتمامى فى البحث عن السلاح ، لأنه كان الطريق الوحيد المفتوح أمامى للبحث ، ولما لم يكن لدى المتهم من الوقت ما يكفى للعودة الى القرية بعـد الحادثة ، فالسـلاح لا بد وأن يكون خارجها فأرجـأت التفتيش الى الصباح ، لأن البحث عن السـلاح فى وسط المزارع والغيطان ليلا ضرب من العبث ، فأمرت بوضع الحرس الكافى حول تلك المزارع ، لكى لا يقربها أحد ، ولما طلع النهار خرجت لاجراء البحث والتفتيش وبصحبتى المتهم — كعادتى عند كل تفتيش — لعلى أستفيد مما قد يبدو عليه من التأثيرات النفسـية حال اجراء البحث . ولكنى بمجرد أن خرجت من القـرية وقفت برهة حائرا لأنى وجدت أمامى ميـدانا للتفتيش متسع الأرجاء مترامى الأطراف ، وأنى لى أن أهتدى الى المكان الذى خبأ المتهم سلاحه فيه ؟ وأن التفتيش فى الخلاء يتطلب عناء شديدا ومجهودا عظيما قد يستغرق كل نهارى ولا أصل الى نتيجة ما ، وبينما أنا مسترسل فى أفكارى وحيرتى ، اذ تذكرت فى الحال بعض تجارب العلامة « منسـتربرج » بشـأن ضربات القلب ، وتأثير الانفعالات النفسية فيها ، فوضعت يدى فى يد المتهم ، وبينما كنت ممسكا بمعصمه وضعت أصبعى — خلسة — على الشريان الكعبرى « وهو الذى يجس منه الأطباء النبض عادة » وبعد أن تملكت موضع النبض منه جيدا — وأصبحت دقات قلبـه تحت اشرافى ومراقبتى — ألقيت عليه عدة أسئلة متتابعة بشأن محل اخفاء السلاح ، وعددت الأمكنة التى يحتمل أن يكون قد أخفاه فيها ، فذكرت له بعض المزارع ، ثم ساقيته الخاصة ، ثم الترعة فالقناة فالمصرف وهكذا. فلاحظت أن النبض عند ذكر المصرف كان يشتد ويسرع كثيرا ، واذا ما حولت الكلام عنه الى أماكن أخرى كان النبض يهدأ ويكاد يكون طبيعيا ، وهكذا كلما ذكرت المصرف يعود النبض فيقوى ويسرع . وكان أثر الانفعال محسوسا لدرجة أثارت دهشـتى ، وكانت دقات قلبه قوية واضحة حتى خيل الى أنى أسمعها من صدره ، فترجح لدى أن المتهم ألقى سلاحه فى ذلك المصرف ، فطلبت الى مأمور المركز أن يكلف بعض الخفراء بالبحث عن البندقية فى قاع المصرف ، ولكن المتهم عندما رأى الرجال المكلفـين بهذا البحث متجهين نحو المصرف بدت على وجهـه دلائل الارتباك والحيرة وشحب لونه وجف لعابه ، ولكى يدارى اضطرابه وقتئذ ويظهر عدم اكتراثه بما يجرى حوله أخذ يولى وجهه شطر موضع آخر ، ويحوله عن مكان البحث من المصرف ، ولكنه بالرغم من كونه أدار وجهه فان كرتى عينيه كانتا لا تزالان فى اتجاه نفس ذلك المكان ، فازداد اعتقادى بوجود السلاح فيه وقوى أملى فى الحصول عليه ، وبالفعل لم تمض بضع دقائق فى البحث حتى انتشلت البندقية من قاع المصرف وتبين أنها مطلوقة حديثا . فلم أشأ أن أترك

هذه التجربة — على تفاهتها — تمر دون أن يكون لها أثر رسمى ثابت ، فسجلتها فى محضرى الذى أخذت به محكمة الجنايات فيما بعد واعتمدت عليه فى ادانة المتهم » .

فمما تقدم : نرى كيف كان البحث عن سلاح المتهم فى ميدان مخيلته أسهل منالا وأقل عناء من البحث عنه فى ميدان الطبيعة الفسيح المتعدد الأمكنة المتشعب الأرجاء ، فالتجارب النفسية قد تؤدى — على تفاهتها وسهولة تناولها فى بعض الأحيان — أجل الخدم للمحقق وأعظمها فائدة اذا عرف كيف يستخدمها وينتفع بها .

انما الذى أريد أن أوجه النظر اليه أن الاستدلال على مكان اخفاء السلاح عن طريق جس النبض انما يختلف فى أسلوبه عن طريقة الاختبار بالجهاز الكهربائى — الآنف الذكر — وانى لم أسبق العلامة « ويتلى سمث » فى بحثه كما أسند الى ذلك الأستاذ « الدهشان » خطأ فى مقاله . وان كان ما أسنده الى يعد أكرم تحية لمحقق مصرى . ولكن الحقائق العلمية لا تقبل مجاملة ولا تسمح للمرء أن ينتحل لنفسه فضلا لا يستحقه . فطريقة الاستدلال على مخبأ السلاح عن طريق مراقبة نبض المتهم عند تعداد الأمكنة المحتمل اخفاء السلاح فيها ، ما هى الا طريقة اجتهادية قد تنجح فى بعض الأحيان ، ولكنها قد تفشل فى أحيان كثيرة حيث يكون أثر الاضطراب طفيفا فلا يتسنى ادراكه بجس النبض أو يكون اضطراب النبض مستمرا بسبب الحالة النفسية التى يكون عليها المتهم — سواء كان مرتكبا أو بريئا — فهى طريقة لا تستند فى رصد آثار الانفعال الى جهاز دقيق الحساسية كجهاز « فريه » الكهربائى ولكنها لا تخلو مع ذلك من الفائدة ، وقد علمت فيما بعد أن الامام ابن سينا قد لجأ الى استخدام النبض فى دراسة الحالة النفسية لشاب هام بحب فتاة ثم كظم حبه فى أعماق نفسه فبدت عليه أعراض مرضية أعيت نطس الأطباء ، غير أن ابن سينا قد وفق الى كشف علة دائه الدفين عن طريق رصد آثار الانفعالات البادية على حركة النبض ، عند ذكر اسم بلد الفتاة دون غيره من البلاد ، ثم القسم ثم الشارع ثم المنزل ثم اسم الفتاة التى كان يحبها من بين سكان هذا المنزل .

واستخدام آثار الانفعالات فى الحياة العملية ليس أمرا غريبا على الانسان فى نوعه ، بل يرجع الى أزمنة قديمة ربما امتدت الى أقدم العصور ، فمن الأمور الشائعة المألوفة أن انفعال الخوف يجفف اللعاب ، لأنه يشل نشاط الغدد المخصصة لافرازه ، ويعطل وظيفتها ، وكانت هذه الظاهرة معروفة للانسان منذ فجر المدنية فكانت بعض القبائل تهاجم الشخص اذا لاحظت أنه لا يبصق حال مروره بها ، متخذة ذلك دليلا على الخوف والجبن ، أما اذا بصق فلا تتعرض له بسوء لاعتقادها بجرأته وشجاعته . وربما كانت عادة البصق بقصد الاحتقار التى لا تزال شائعة الى وقتنا هذا بين العامة وليدة تلك العادة القديمة الموروثة عن الانسان الأول . كما أنه من الأمور المألوفة فى كشف الجرائم لدى بعض القبائل العربية — والتى لا تزال على الفطرة الى وقتنا هذا أن تحمى قطعة حديد الى درجة الحرارة الحمراء ، ويطلب من كل من وقعت عليهم

شبهة الجرم أن يلعقها بلسانه فمن كان بريئا نجا لسانه من الحرق ، ومن كان مدانا حرق لسانه « وتسمى بالبشعة » وفى اعتقادى أنها لا تزال شائعة بين عرب سينا ، أما تعليلها فراجع الى كون البرىء يستطيع أن يجمع كمية من اللعاب فوق سطح لسانه يستطيع أن يتقى بها حرارة الحديد عند الملامسة بسبب تحويل اللعاب الى بخار ، بعكس المذنب فان لسانه يكون جافا فتشويه النار ، و « لقمة الزقوم » المعروفة لدى العامة لكشف البرىء من المجرم بسرعة البلع وبطئه لتستند الى نفس هذه الظاهرة .

غير أن مثل هذه الأمور لا تخرج عن كونها مجرد محاولات اجتهادية قابلة للخطأ ، ولا يصح الاعتماد عليها فى البحث العلمى ، ولا تبلغ مرتبة التجارب الفنية التى هذبتها يد العلم ، ولا دقة الاستدلال التى يمكن أن نصل بها عن طريق الأجهزة التى سبقت الاشارة اليها ، وعسى أن يفطن القضاة فى المستقبل القريب الى ما تقتضيه العدالة من وجوب اظهار الصدق من الكذب بوسائل علمية وتجارب فنية صحيحة على يد خبرا مدربين محنكين ، وربما لا تكون حاجة رجل القانون الى الخبير النفسانى أقل منها الى الخبير فى الطب أو الكيمياء ، ان لم تكن حاجته اليه أمس وألزم ، لأن أبحاثه تدور حول أمور كلها فى صميم مهمة رجل القانون ، وهى قائمة على فحص عقليات ، ودراسة نفسيات .

محمد فتحى

قصة قارون وموقف موسى بازائه

إيذاء إسرائيل لموسى — إظهار الله تعالى براءته (1)

أما قصة قارون : فتلخص فى أنه كان رجلا من بنى اسرائيل آتاه الله بسطة فى الرزق وأدرّ عليه أخلاف الثراء حتى ان مفاتيح خزائنه كانت تنوء بالعصبة أولى القوة ، فكان مرموقا من قومه بعين الغبطة . كل من رآه فى زينته وأبهته يتمنى أن يرزق مثل ما رزقه من الحظ فى الدنيا ويستعظمون ذلك أيما استعظام !

---

(١) نقد اللجنة « الموضوع السابع » .

(ايذاء موسى وتبرئة الله اياه)

فى صفحة ٢٤٨ سطر ٧ ما نصه :

اما ايذاء بنى اسرائيل لموسى فقد اختلف فى نوع الايذاء ، فقال قوم : انهم قالوا ان موسى به عيب جسمى واتهموه بالادرة . وقال آخرون : بالبرص فنزل الماء ليستحم ووضع ثوبه على حجر فجرى الحجر بثوب موسى ، فصار موسى يجرى خلفه خارج الماء ويقول : ثوبى حجر ثوبى حجر ، الى أن وقف الحجر فى مجتمع بنى اسرائيل وموسى مكشوف العورة فظهر لبنى اسرائيل انه برىء من العيب الذى اتهموه به .

وانا لا ندرى ما هو الحامل أو الداعى الذى أراده الله من جعل الحجر يشتد فى الجرى وموسى فى أثره مكشوف العورة ، ولم كانت هذه المعجزة التى تهتك ستر نبى كريم يحنق بسببها ويضرب الحجر حتى يؤثر فيه ندوبا ! وايضا فانى لم افهم كيف يكون ابتلاء موسى بالأدرة عيبا يحول بينه وبين الوجاهة عند الله تعالى ؟

=

كان أولو البصائر من قوم قارون يعظونه ويبذلون له النصح ويحذرونه عاقبة ما هو عليه من الخيلاء والزهو ، ويشيرون عليه بالابتعاد عن سوء مجاورة نعمة الله بالافساد فى الأرض ،

= واذا كان الاتهام بالادرة هو الأمر الذى اوذى به موسى فكيف ينافى هذا علمهم بأنه رسول الله اليهم ـ كما يشعر بذلك قوله لهم (يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله اليكم) فلا بد ان يكون الايذاء أكبر من الاتهام بالادرة ؟

نعم ورد الحديث بمسألة الحجر ، ولكن فى رجاله « عوف » وقد جاء عنه فى تذهيب التهذيب انه كان شيعيا رافضيا شيطانا هذا نص كلامه :

(رأى اللجنة)

نلاحظ عليه أنه استبعد وقوع قصة الحجر الذى جرى بثوب موسى ، وطعن فى الحديث الوارد بها بأن فى رجال سنده عوفا وقد جاء عنه فى تذهيب التهذيب انه كان شيعيا رافضيا شيطانا .

وانا نورد هذا الحديث ، ثم نبين من خرجه ليتبين ان فضيلة الأستاذ لم يكلف نفسه استقصاء البحث حتى يكون حكمه صحيحا :

فى صحيح مسلم فى « فضائل موسى عليه الصلاة والسلام » حدثنا محمد بن رافع حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا ابو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أحاديث منها : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم الى سوأة بعض ، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده ، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا الا انه آدر . قال : فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه ، قيل فجمح موسى بأثره يقول ثوبى حجر ثوبى حجر ! حتى نظرت بنو اسرائيل الى سواة موسى فقالوا : والله ما بموسى من بأس ! فقام الحجر بعد حتى نظر اليه . قال : فأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربا ، قال ابو هريرة : والله ان بالحجر ندوبا ستة أو سبعة من ضرب موسى عليه السلام بالحجر .

ثم رواه مسلم بسند آخر فقال : وحدثنا يحيى بن حبيب الحارثى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا خالد الحذاء عن عبد الله بن شقيق قال : انبانا ابو هريرة . . . الى آخره نحو ما تقدم ، الا انه زاد فى آخره : ونزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) الآية . واخرجه البخارى فى ثلاثة مواضع فى التفسير ، وفى أحاديث الأنبياء بسند واحد فيه عوف مع زيادة نزول الآية السابقة ، وفى باب الغسل بسند آخر ليس فيه عوف ، فقال : حدثنا اسحق بن نصر حدثنا عبد الرازق عن معمر ابن همام بن منبه فهو متفق مع السند الأول لمسلم ما عدا شيخه وهو أسحق بن نصر .

واما عوف فقال الحافظ ابن حجر فى مقدمة فتح البارى فى بيان من طعن عليه من رجال البخارى ما نصه : عوف ابن ابى جميلة الأعرابى البصرى أبو سهل من صغار التابعين ، وثقه أحمد وابن معين ، وقال النسائى : ثقة ثبت ، وقال محمد بن عبد الله الأنصارى : كان من أثبتهم جميعا ولكنه كان قدريا وكان شيعيا ، قلت : احتج به الجماعة ـ يعنى أصحاب الكتب الستة ـ ثم قال الحافظ : قال مسلم فى مقدمة صحيحة : واذا قارنت بين الأقران كابن عون وايوب مع عوف بن أبى جميلة وأشعث الحمرانى وهما صاحبا الحسن وابن سيرين كما أن ابن عون وأيوب صاحبهما كان البون بينهما بعيدا فى كمال الفضل وصحة النقل وان كان عوف واشعث غير مدفوعين عن صدق وامانة . ا هـ .

وقد صحح النووى رضى الله عنه الاحتجاج برواية المبتدع غير الداعية ، وقال فى شرح مسلم ما نصه « ففى الصحيحين وغيرهما ـ من كتب أئمة الحديث ـ الاحتجاج بكثير من المبتدعة ـ غير الدعاة ولم يزل السلف والخلف عن قبول الرواية منهم والاحتجاج بها والسماع منهم واسماعهم من غير انكار منهم . والله أعلم ا هـ .

من ذلك نعلم أن الحديث الوارد بقصة الحجر الذى جرى بثوب موسى صحيح وانه ورد فى الصحيحين من ثلاث طرق اتفق البخارى ومسلم على طريق منهما ، وانفرد كل بطريق ، وان عوفا =

ويحضونه على أن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا يسى نصيبه من الدنيا ، بأن يظهر عليه أثر معرفة نعمة الله بالاحسان الى الفقراء من عباد الله كما يظهر أثرها عليه في تناول المباحات

= أحد رجال طريق واحدة وهي التي انفرد بها البخاري . فعلى فرض انه ضعيف لا يلزم ضعف الحديث لوروده من طريقين آخرين لا يوجد عوف بين رجالهما على انك علمت مما نقلناه عن الحافظ ابن حجر أن اكثر ائمة الحديث ومنهم اصحاب الكتب الستة — على توثيق عوف والاحتجاج بروايته وان ابتداعه لا يمنع من ذلك ، كما قرره النووي وما نقله في شأنه عن « تذهيب التهذيب » نقلها صاحبه وهو الحافظ الذهبي فيه وفي ميزان الاعتدال عن بندار فلعلها مبالغة في بيان تشيعه والا فغيره نقل عنه : انه كان شيعيا ، ولا يلزم منه أن يكون رافضيا والله أعلم .

أما ايذاء بني اسرائيل لموسى فقد ذكر المفسرون في نوعه عدة اقوال منها : أنهم نسبوا اليه عيبا في بدنه وهو ما ذكر في الحديث . ومنها أنهم نسبوا اليه انه قتل اخاه هارون . ومنها : أن قارون أغرى مومسا على قذفه بنفسها . ومنها : ما نسبوه اليه من السحر والجنون . ومنها : ما حكى عنهم في القرآن من قولهم (اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون) وقولهم (لن نصبر على طعام واحد) وقولهم (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) الى غير ذلك . قال الألوسي : ويمكن حمل ما قالوه على جميع ما ذكر . ا هـ . واذا صح ما قال الألوسي فلم يكن هناك من تناف بين صحة هذه الرواية في بيان نوع الايذاء وصحة غيرها من الروايات في بيان نوع آخر . واما تردده فيما اراده الله من جرى الحجر فلا وجه له — فان الله اراد بذلك اظهار براءة موسى من العيب الذي اتهموه به والذي يجب تنزيه الأنبياء عنه عند المحققين . قال النووي — في شرح مسلم — ومنها ؛ أي من فوائد هذا الحديث — ما قاله القاضي وغيره أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين منزهون عن النقائص في الخلق والخلق سالمون من العاهات والمعايب . قالوا : ولا التفات الى ما قاله من لا تحقيق له من أهل التاريخ في اضافة بعض العاهات الى بعضهم بل نزههم الله من كل عيب وكل شيء يبغض العيون او ينفر القلوب . ا هـ .

ثم ان الله تعالى أظهر براءته بمعجزتين عظيمتين ظاهرتين (احداهما) مشي الحجر الى ملأ بني اسرائيل (والثانية) حصول الندب في الحجر .

وأما استبعاده لوقوع هذه المعجزة لأن فيها هتكا لستر نبي كريم فلا وجه له ايضا لثلاثة أمور:

(الأول) أن المقصود كما علمت أظهار البراءة مما نسبوه اليه وذلك يستلزم الكشف ، وقد اقترن بمعجزة باهرة لتبكيت بني اسرائيل على هذا الظن السيء ؛ الذي لا ينبغي أن يكون منهم في حق هذا النبي العظيم الذي يؤيده الله تعالى بالمعجزات الباهرات في جميع مواقفه معهم . وما أكثر مواقف بني اسرائيل في المراوغة والعناد والتنطع .

(الأمر الثاني) ووجهه انه لو كان محرما في شرعهم لكانوا جميعا عصاة وهو بعيد ، ولما كان هناك وجه لاتهامهم له بالأدرة بسبب انفراده بالغسل ؛ لأنه يكون انفراده حينئذ امتثالا للشريعة؛ كما قاله الحافظ ابن حجر : ان اغتسال بني اسرائيل عراة ونظر بعضهم الى بعض كان جائزا في شرعهم ، وانما كان موسى يغتسل وحده أخذا بالأفضل . واذا كان كذلك فلا شيء في كشف ستره امامهم . واستقباح النفس له الآن لأنه محرم في شرعنا والله أعلم .

(الأمر الثالث) ما يترتب عليه من المصلحة التي لا توجد اذا بقي الأمر مكتوما ؛ بل يكون حينئذ مفسدة وأي مفسدة . حيث يكون منهم استمرار العجاج في الطعن على موسى بما يؤدي الى زيادة شدتهم في عنادهم له ، ويفضي الى بعدهم عن قبول ما جاء به ، والنفور من الايمان به ، والرجوع الى الكفر الذي هو مفسدة واثم كبير ! فأي الأمرين ارجح في نظر فضيلة المؤلف ؟ اكفر امة بأسرها وانتقاص وايذاء نبي كريم ام كشف عورة لا مفسدة فيه ؟! كما اشار شراح الحديث من أن كشف العورة كان جائزا في شريعة موسى ، واجتنابه عليه السلام لكشف عورته كان أخذا بالأفضل .

ثم ان مقتضى كونه وجيها عند الله ان يبرئه من كل تهمة تلصق به كذبا ، سواء كان ما يتهم به كذبا — عيبا يتنافى مع الرسالة او لا — كما ان مقتضى كونه رسول الله اليهم انقذهم من ظلمات الضلال =

من اللذائذ ، وألا يصرف نعمة الله فى طرق الافساد فى الأرض . لأن ذلك يغضب الله تعالى ، ولأن مجاورة نعمة الله بالافساد فى الأرض تدعو الى أن يغير الله تلك النعمة . فأعطاهم أذنا صماء ولم يصغ الى نصائحهم . وقال فى المال الذى عنده (انما أوتيته على علم عندى) .

= الى نور الايمان واخرجهم من استعباد فرعون وقومه لهم الى الاطلاق والحرية ان لا يؤذى منهم بأى نوع من أنواع الايذاء ، ولا شك أن اتهامه كذبا بعيب فى بدنه يعتبر ايذاء ، وان لم يتناف ذلك العيب مع الرسالة .

على أنك علمت أن المحققين على ان مثل هذا العيب مما يجب تنزيه الأنبياء عنه . وبذلك يعلم أن ما قاله الأستاذ « ثم انى لا افهم كيف ... » الخ لا وجه له . والله سبحانه وتعالى أعلم .

رد المؤلف على نقــد اللجنة

الموضوع الســابع

(ايذاء موسى وتبرئة الله اياه)

نظرت الى لفظ الايذاء فى القرآن الكريم فوجدته انما يكون فى أمور هامة غليظة غالبا .

فقد قال الله تعالى :

١ ــ « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبراه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » . الأحزاب آية ٦٩ .

٢ ــ « ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة واعد لهم عذابا مهينا » الأحزاب آية ٥٧ .

٣ ــ « الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتــانا واثما مبينا » الأحزاب آية ٥٨ .

٤ ــ « ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو اذن قل أذن خـــير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » التوبة آية ٦١ .

٥ ــ « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله » الأحزاب ٤٨ .

٦ ــ « ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ابراهيم ١٢ .

٧ ــ « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » النساء آية ١٦ .

قال الامام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قسم رسول‌الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار : ان هذه القسمة ما اريد بها وجه الله ، قال : فقلت يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمــا قلت . فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه ثم قال « رحمة الله على موسى فقد اوذى بأكثر من هذا فصبر » أخرجاه فى الصحيحين من حديث سلمان بن مهران به .

طريق آخر . قال الامام احمد : حدثنا حجاج سمعت اسرائيل بن يونس عن الوليد بن هشام مولى همدان عن زيد بن زائد عن عبد الله بن مسعود قال : قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه « لا يبلغنى أحد عن أحد من اصحابى شيئا فانى احب ان اخرج اليكم وانا سليم الصدر » فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال فقسمه ، قال : فمررت برجلين واحدهما يقول لصــاحبه : ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، قال فثبت حتى ســمعت ، قال : ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول‌الله انك قلت « لا يبلغنى ... الخ » وانى مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليه ثم قال « دعنا منك فقد اوذى موسى اكثر من هذا فصبر » وقد رواه ابو داود فى الأدب عن محمد ابن يحيى الذهلى عن محمد بن يوسف الفريابى عن اسرائيل عن الوليد بن هشــام ، وكذا رواه الترمذى فى المناقب عن الذهلى .

ويقول المفسرون انه كان واقفا على سر الصناعة أى الكيمياء [١] أى احالة المعادن الخسيسة الى معدن نفيس هو الذهب — ذاهلا عن أن فضته وذهبه لم يغنيا عنه من الله شيئا ، لأن الله

= ان الذين كانوا يؤذون الله ورسوله انما كان بقولهم « شاعر . كاهن . ساحر . مجنون » وقيل كسر رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج وجهه فى غزوة أحد . وقيل طعنهم فى نكاح صفية ، وقال الألوسى : والحق العموم فى ذلك .

وقوله تعالى (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ... الخ) قيل فى منافقين كانوا يؤذون عليا ويسمعونه ما لا خير فيه . وقيل فيمن اشتركوا فى حديث الافك بقذفهم عائشة رضى الله عنها . وقيل فيمن كانوا يتبعون النساء اذا برزن فى الليل لقضاء الحاجة . قال الألوسى والظاهر العموم لكل ما ذكر . من هذا كله نعلم ان الايذاء ورد فى القرآن والأحاديث فى كل استعمالاته تقريبا ، فى أمور شائنة كالطعن فى الكرامة ، أو فى العرض أو فى الدين .

وقد نظرت الى ما قاله المفسرون فى مسألة ايذاء موسى وتبرئة الله اياه ، فوجدت الحافظ ابن كثير قد روى حديث البخارى فقال : قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا اسحق بن ابراهيم حدثنا روح بن عبادة حدثنا عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن ابى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شىء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بنى اسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التستر الا من عيب بجلده ؛ اما برص واما ادرة واما آفة ، وان الله اراد ان يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده ، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ اقبل الى ثيابه لياخذها ، وان الحجر عدا بثوبه فاخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر ثوبى حجر ؛ حتى انتهى الى ملأ من بنى اسرائيل فراوه عريان احسن ما خلق الله وابراه مما يقولون ، فقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فو الله ان بالحجر لندبا من اثر ضربه ثلاثا أو اربعا او خمسا فذلك قوله (يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبراه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) » .

وقد اورد بن كثير فى تفسيره هذا الحديث بتمامه . ثم قال : ان هذا الحديث من افراد البخارى دون مسلم ، ثم رواه ايضا عن احمد عن ابى هريرة ، ورواه ابن جرير من حديث سليمان ابن مهران الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير ... الخ .

وقال ابن ابى حاتم : حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العزام عن سفيان بن حسين عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن على بن ابى طالب رضى الله عنهم فى قوله تعالى (فبراه الله مما قالوا) قال : صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون ، فقال بنو اسرائيل لموسى عليه السلام : انت قتلته ، كان ألين لنا منك واشد حياء فآذوه من ذلك ، فامر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بنى اسرائيل . وهكذا رواه ابن جرير عن على بن موسى الطوسى عن عباد ابن العوام وقد أورد نحو هذا الكلام الامام البغوى فى معالم التنزيل كما أورد حديث ابى هريرة .

وقال ابو العالية : هو ان قارون استأجر مومسا لتقذف موسى على راس الملأ فعصمه الله وبرأ موسى من ذلك واهلك قارون .

فتلخص لنا فى المسألة ثلاثة أقوال : (١) اتهام بنى اسرائيل لموسى بالأدرة او غيرها من العيوب الجسمية ، وعدو الحجر بثوبه وعدو موسى فى اثره عريان حتى راوه بريئا . (٢) اتهام بنى اسرائيل موسى بقتل هارون الى أن براه الله من ذلك ، اذ أمر الملائكة بحمل هارون على سرير والطواف به على مجالس بنى اسرائيل حتى راوه لا اثر فيه للقتل « أخرج ذلك ابن منيع وابن جرير وابن المنذر » . (٣) اتهام قارون اياه بالزنا واستأجر لذلك مومسا فاقرت ببراءة موسى ، وبان قارون هو الذى أغراها على اتهامه ، فبرأ الله موسى واهلك قارون .

(١) ظل الاوربيون يقولون باستحالة تحول المعادن حقبة من الدهر ولكنهم بالاستمرار فى البحث فى الذرة — أو الجوهر الفرد — صاروا يقولون ان ذلك من الممكنات ، وهم جادون فى تفريق أجزاء الذرة ، حتى اذا تم لهم هذا امكنهم ايجاد أى مركب كالذهب وغيره . وحينئذ يكون ما كان يبدو مستحيلا صار جائزا .

تعالى قد أهلك من القرون من هم أشد منه قوة وأكثر جمعا ، فما أغنى عنهم جمعهم وما كانوا يعتزون به من مال ونسب ، ولم يفلتوا من عذاب الله تعالى .

= هذه اقوال ثلاثة ؛ للمتفهم لكتاب الله تعالى ان يأخذ منها ما شاء وان يدع ما شاء . فأما ابن جرير فقد جوز ان يكون حديث الحجر هو المراد ، وجائز ان يكون اتهامه بقتل هرون هو المراد ، وآخر عبارته يشير الى تفويضه العلم الى الله تعالى . ونص عبارته بعد ان اورد اتهام بنى اسرائيل موسى بقتل هارون « وجائز ان يكون هذا هو المراد بالأذى . وجائز ان يكون الأول هو المراد . فلا قول اولى من قول الله عز وجل » .

وابن كثير يقول : قلت يحتمل أن يكون الكل مرادا .

وقال الألوسى بعد ان اورد الأقوال الثلاثة : ويبعد هذا القول — أى رمى قارون موسى بالزنا — جمع الموصول . وقيل ما نسبوه اليه من السحر والجنون .

أقول : لا استبعاد فى ذلك لأن قارون يحتمل أن يكون رئيسا لجماعة واطؤوه على ذلك فليس عجيبا أن يعبر بالذين الدال على الجمع !

لما كان للانسان أن يختار ما تطمئن نفسه اليه — أنه المراد من كلام الله — اخترت القول الثالث هو طعن قارون على موسى . وحجتى فى ذلك ؛ أن الايذاء انما يستعمل فى الشىء العظيم — كما بينت ذلك فى اول الكلام — وأن الايذاء بذلك هو الذى يتنافى مع علمهم بأنه رسول الله اليهم ، المبين فى قوله (يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله اليكم) وهو الذى ينافى الوجاهة عند الله تعالى المبين فى قوله تعالى (وكان عند الله وجيها) .

وليس من لوم على متدبر كتاب الله تعالى اذا جنح الى رأى أو وجه او تأويل وجده لائقا بفكره وارتاح اليه ضميره ؛ مادام لا يخالف قطعي الثبوت والدلالة ، وليس لأحد من خلق الله ان يقول له : اخلع هذا الرأى وخذ هذا الرأى والبسه لأن بعض الناس قاله . وقد راينا ابن جرير الطبرى يروى عن المتقدمين الأحاديث أو الآثار ، ثم انه يترك ذلك كله ويسير فى طريق آخر . وان قسر العقول والأفهام على رأى خاص — غير قطعي الثبوت والدلالة ، وطلب العدول عن رأى او تأويل الى مثله — تحكم فى الضمائر ودخول بغير حق فيما بين العبد وربه . واملاء ارادة ما انزل الله بها من سلطان .

وليعلم حضرات أصحاب الفضيلة انى انما يعجبنى الحديث النقى — الذى لا عيب فى رجاله — وتطمئن نفسي اليه . فأما الحديث الذى طعن فى أحد من رجاله بطعن — ولو كان خفيفا أو ضئيلا — فان نفسى تنفر منه مهما وثقه آخرون . فانى اقدم الجرح على التعديل وبخاصة اذا كان مبتدعا دعا الى بدعته أو لم يدع . واخص من ذلك اذا كان شيعيا يستحل الوقوع فى الشيخين أو لا يتولاهما، ولم يسلم من ذلك أحد من طوائف الشيعة فى نظرى سوى الزيدى وقد رأيت فى « تذهيب التهذيب » الطعن على « عوف » من رجال حديث ابى هريرة ، بانه شيعى رافضى شيطان . فمع ما قدمت لا ارى الثقة به مهما قال حضرات أصحاب الفضيلة فى توثيقه وجواز الرواية عنه . واطمئنان النفس شيء يأتى عن طريق الوجدان لا باملاء الارادة كما يريدون .

وازيدهم الآن فى حديث ابى هريرة : الحسن عن ابى هريرة . والحسن موثوق به فى نظرى ونظر كل المحدثين ، ولكنه لم يسمع من أبى هريرة .

قال فى عمدة القارىء : واما الحسن فلم يسمع من أبى هريرة عند المحققين من الحفاظ ، ويتولون ما وقع فى بعض الروايات من سماعه عنه فهو وهم . وفيه أيضا « خلاس » عن أبى هريرة . وقد جاء فى عمدة القارىء : واما « خلاس » ففى سماعه عن أبى هريرة خلاف . فقال أبو داود عن احمد : لم يسمع خلاس من أبى هريرة ... الخ .

وأما الرواية الثالثة للبخارى التى ليس فيها عوف وهى التى قال فيها :

حدثنا اسحق بن نصر حدثنا عبد الرازق بن معمر عن همام بن منبه . فان فيها عبد الرازق وقد جاء فى « عمدة القارىء ٢٥٣ ، ٢٥٤ ج ١ » وقال الحافظ ابو احمد بن عدى : قال بن معين ليس بالقوى ، ونسبة العباس بن عبد العظيم الى الكذب . قال : والواقدى اصدق منه . وقال =

كان من أحداث الزمان أنه خرج على قومه فى زينته ، فقال المولعون بالدنيا الذين يزدهيهم زخرفها : (يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم) ووعظهم أهل البصر النافذ فيماوراء

= أبو احمد : لعبد الرازق حديث كثير وقد رحل اليه الناس وكتبوا عنه ولم يروا بحديثه باسا ، الا انهم نسبوه الى التشيع . وقد روى أحاديث فى فضائل اهل البيت ومثالب غيرهم مما لم يوافقه عليها احد من الثقات . فهذا أعظم ما ذموه به من روايته المناكير .

وبعد هذا كله ، فان أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة جعلوا هذا الحديث حجة على حدوث معجزة ، وهى جرى الحجر بثياب موسى . وزادوا فيها معجزة اخرى وهى حدوث ندب فى الحجر بضرب موسى له بالعصا .

أقول : اولا — أن الحديث بفرض خلوه عن جميع الملاحظات ليس الا خبر آحاد ، وخبر الآحاد لا تثبت به المعجزة . لأن المعجزات لا تثبت الا بيقين لا يتطرق اليه شك . وخبر الآحاد ليس فيه يقين لأنه ظنى الثبوت .

ثانيا — المعجزة لا تكون الا مقرونة بالتحدى ، وما تحدى موسى بهذا الأمر احدا ولا طلب احد من موسى هذه المعجزة .

ثالثا — ان المعجزة انما تأتى بطلب الرسول ، او باقتراح قومه عليه ان يأتى بها ، ولم يحصل أن موسى طلب ذلك من الله تعالى ولا طلب أحد من قومه ذلك !

رابعا — ان جرى الحجر حصل رغما عن موسى ، وكان موسى كارها لذلك . وما عهدنا معجزة تأتى رغم انف الرسول والرسول يكون كارها لحصولها .

خامسا — ما هو موقف الرسول من امر خارق للعادة يعمله الله له ثم هو يكره ذلك ! هل يحل ذلك للرسول ولا يقدح فى رضاه بما صنع الله لاجله واكرمه به ؟

سادسا — اما كان لموسى وقد رأى الحجر يشتد فى الجرى — ويفعل امرا ليس من شأنه ان يعمله — أن يعلم أن الحجر لم يكن منه ذلك الا لأمر يعلمه الله قد قهره عليه وسخره له فيسكت عند الغضب ويرجع الى الصواب من أمره ؟

سابعا — هل كان موسى حين طفق بالحجر ضربا بالعصا ، يظن ان الحجر يتألم من هذا الضرب ويندم على ما كان منه ، وان هذا سيصرفه عن العودة الى مثل ما صنع مرة أخرى ؟

ثامنا — يرى أصحاب الفضيلة حصول الندب من اثر العصا معجزة ، ومع اكبارى لأشخاص حضراتهم أرى أنه لم توجد معجزة — اخرى ولا أولى — فى هذا الأمر اصلا ؛ اذ الحجر جسم صلب ومن المألوف فى مثله أنه اذا تلاقى مع جسم صلب تفتت بعض الحجر ، وصار اثر ذلك كهيئة الندب « الندب : اثر التئام الجرح ، شبه به الأثر فى الحجر » فليس ذلك بغريب او غير مألوف !

تاسعا — ادعى حضرات الأفاضل أن بنى اسرائيل كان التعرى جائزا فى شرعهم وكانوا يغتسلون عراة ولا يستترون . وانى اقول لحضراتهم ولكل من قال قبلهم بهذا الراى : هذه دعوى عريضة فى ذمتكم ان تثبتوها ، ولا ينفع فى ذلك الاحتمال أو نحوه ، بل لابد فيها من النص من كتاب الله أو من كتبهم ، وهو ما لم يوجد ولن يوجد .

فانى اعرف أن السوأتين مركوز فى الطبيعة الانسانية استقباح كشفهما ، بدليل ان آدم وزوجه حين نزع عنهما لباسهما — حين الأكل من الشجرة — طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة — ولا عبرة بالأمم التى نزلت الى الدرك الأسفل من الانسانية كزنوج المناطق الاستوائية . فان شأنهم ليس شأن بنى اسرائيل الذين يقول الله فيهم (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وانى فضلتكم على العالمين) ويقول أيضا (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) وانى بذلك أدفع ماجاء فى الأمر الثانى .

عاشرا — عظم حضرات الأفاضل الأدرة وجعلوها منافية للنبوة وعيبا لا يصح ان يتصف به النبى ، ولم يقيموا الدليل الذى ينص على عدم اتصاف الأنبياء بها وأنها من المنفرات التى تمنع المتصف =

المظاهر الخلابة وقالوا لهم : (ويلكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) طالبين صرفهم

= بها أن يكون نبيا ، وكل ما ساقوه عمومات ليس فيها تنصيص ، وقد عظموا الادرة تعظيما لم يأذن به الله وفخموا من شانها ومن ضررها ما هو ضئيل حقير .

حقيقة الادرة

الأدرة هى ورم فى الخصية . ويسميه الأطباء « القيلة الدوالية » وهى تنشأ من ميكروب يسمى « ميكروب الفلاريا » وهذا الميكروب يصيب الانسان من ناموس يوجد فيه ذلك الميكروب ، فاذا لقح انسان به فانه يحدث التهابا فى بعض أعضاء الجسم ، فاذا أصاب الساق انصبت اليها الدماء من الشرايين ولا تعود تلك الدماء تسير فى الأوردة ، فتضخم الرجل حتى تصير كرجل الفيل وتصير اليافا ، ومن ذلك اشتق « الفيلاريا » .

واذا وجد الميكروب فى الخصية أحدث التهابا فى طبقاتها ، فيحصل من ذلك الورم — وبذلك يكون الناس بمأمن من العدوى به الا من طريق الناموس ، وهى مستترة بالملابس . فكم من رجل جليل القدر مالىء الأسماع والأبصار وهو مصاب بالقيلة الدوالية ، وهو يجالس العلماء والملوك والكبراء لا تنبو عنه اعينهم ولا تزدريه انفسهم ولا يعلمون من امره شيئا . فمثل هذه القيلة لاتكون عيبا فى رسول ولا نبى لأنهم انما ينزهون عن العيوب الجسمية التى تستقذرها الأعين وتنفر منها النفس ، لأنهم معلمون والناس فى حاجة اليهم ، ولا يمكن ان يؤدوا مهمتهم مع المرض المنفر المستقذر . ولذلك تجوز عليهم الأمراض غير المنفرة ، وهذا منها . اللهم الا اذا كبرت وزادت عن الحد وصارت كانف ذلك الرجل الذى داعبه بعض الشعراء بقوله :

رأينا للذكى جدار انف ... يحاكى فى تشامخه الجبالا
تصدى للهلال لكى يراه ... فلولا انفه لرأى الهلالا

وبقوله :

لك انف ذو انوف ... انفت منه الانوف
انت بالقدس تصلى ... وهو بالبيت يطوف

والادرة مهما عظمت ليست مرضا مستعصيا ، بل الجراحون يستأصلون اليافها ويعيدون الخصية سيرتها الأولى .

قال أصحاب الفضيلة : (الأمر الثالث) ما يترتب عليه « على كشف عورة موسى » من المصلحة التى لا توجد اذا بقى الأمر مكتوما ، بل يكون حينئذ مفسدة وأى مفسدة ، حيث يكون منهم استمرار العجاج فى الطعن على موسى بما يؤدى الى زيادة شدتهم فى عنادهم له ، ويفضى الى بعدهم عن قبول ما جاء به ، والنفور من الايمان به والرجوع الى الكفر الذى هو مفسدة واثم كبير . فأى الأمرين ارجح فى نظر فضيلة المؤلف ؟ اكفر امة بأسرها . وانتقاص وايذاء نبى كريم ام كشف عورة لا مفسدة فيه ؟ كما اشار شراح الحديث من أن كشف العورة كان جائزا فى شريعة موسى ، واجتنابه عليه السلام لكشف عورته كان اخذا بالأفضل .

اقول : لقد اكبروا من شأن ورم الخصية ما أصغرته العادة ! وعظموا منها ما حقره الطب ! ووضعوا الخصية الدوالية فى كفة الميزان وكفر امة بأسرها واستمرار الفساد فى كفته الثانية ، وربطوا ما فى كل من الكفتين بمورب من العقد ضلت حله الأرباء . واقرر منع ما يقولون واقول : ان مرضا كورم الخصية مستتر بالثياب ، لو فرض وجوده فى نبى كريم لا ينبنى عليه ما قالوا ولا يمكن أن تكون الأمم مطبوعة بالطابع الذى قدره حضرات الأفاضل ، مصبوبة فى القالب الذى هيأه حضراتهم فكم من ملوك كرام على أممهم ورؤساء قد بخعت لهم رعيتهم بالطاعة كانوا مصابين بعيوب ظاهرة وبقوا حافظين لمكانتهم واحترامهم ورياستهم ، ولم يترتب على ذلك نشوز الرعية أو مخالفتهم ؟

ان العلماء والمدرسين فى كل الأمم انما هم خلفا الأنبياء فى تعليم الأمم . وقد افتى حضرات =

عن المطامع الباطلة فكانت عاقبة طغيانه وانصرافه عن شكر الله على نعمته أن أزال الله عنه لباس النعمة وأذاقه وبال أمره فخسف به وبداره الأرض ولم يجد له ناصرا أو معينا .

الأفاضل بأن الأدرة عيب منفر — يفرق بين المعلم والمتعلم وفى الأزهر الشريف وسائر المعاهد الدينية علماء يدرسون ويعلمون . وقد أصبحت أشك كل الشك فى براءة كثير منهم من الأدرة . فهل يسمح فضيلة الشيخ الأكبر بأن يأمر بالكشف على حضراتهم ! وأن يأمر بتنحية من كان مصابا بالأدرة منهم وابعاده عن التدريس لأنه مصاب بمرض مستقذر منفر ؟ وليعلم فضيلته ان عدم ابعاد العلماء المأدورين عن التعليم ينبنى عليه نفور الأمة الاسلامية من معرفة دينها والاهتداء بهدى الرسول صلى الله عليه وسلم . فليوازن بين جهالة الأمة الاسلامية بدينها وتنحية المأدورين عن التعليم فى معاهد الدين . ورأيه الأعلى ان شاء الله تعالى .

أراد بعد ذلك حاذق منهم أن ينقذ الموقف — لما رآه من عدم السداد فيما اوردوا — فكتب الفقرة الآتية :

ثم ان مقتضى كونه وجيها عند الله ان يبرئه من كل تهمة تلصق به كذبا — سواء كان ما يتهم به كذبا عيبا يتنافى مع الرسالة أولا — كما ان مقتضى كونه رسول الله اليهم انقذهم من ظلمات الضلال الى نور الايمان ، واخرجهم من استعباد فرعون وقومه لهم الى الاطلاق والحرية الا يؤذى منهم بأى نوع من انواع الايذاء . ولا شك ان اتهامه كذبا بعيب فى بدنه يعتبر ايذاء وان لم يتناف ذلك العيب مع الرسالة ، على أنك علمت أن المحققين على أن مثل هذا العيب مما يجب تنزيه الأنبياء عنه . وبذلك يعلم أن ما قاله الأستاذ « ثم انى لا افهم كيف ... الخ » لا وجه له . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وانى اجيب حضرة الفاضل الذى كتب هذه الفقرة بما يأتى :
ان مواضع الخلف بيننا هى : —
١ — هل ثبت بنص قاطع انهم رموه بهذا العيب الذى هو الأدرة ؟
٢ — هل الأدرة تنافى الوجاهة عند الله ، وان الله ينظر الى ادر الناس فيسقطهم من الوجاهة عنده ولا ينظر الى قلوبهم وضمائرهم ؟
٣ — هل كان بنو اسرائيل محللا لهم ان يتكشفوا وليس عندهم شىء اسمه عورة ؟
٤ — هل جرى الحجر بثوب موسى معجزة حصلت له رغم انفه ؟
٥ — هل ثبتت المعجزة بغير نص قطعى ؟

كل واحد من هذه الأمور لم يثبت على الوجه الحق ، واحاديث الآحاد لا يثبت بها امر على سبيل القطع ، فلم تزل ذمة حضراتهم مشغولة بالبرهنة على سبيل القطع الذى لا يقبل شكا ولا احتمالا على هذه الأمور . وأن المحققين الذين يعزون اليهم انهم « على ان مثل هذا العيب يجب تنزيه الأنبياء عنه » لم ينصوا على أن الادرة عيب يجب تنزه الأنبياء عنه ، وعبارته ليست نصا . وقضية قوله « ان المحققين يرون كذا » ان فريقا من العلماء يرى خلاف رأيهم وذلك يخرج المسألة عن أن يكون فيها نص .

وما دام الأمر كذلك ، فلا برهان لكم — على ما تزعمون — يوجب أن يكون التفسير للآية لا يصح الا على رأيكم . وليعلم حضرات الأفاضل أن اثبات معجزة — غير ثابتة لنبى من الأنبياء — يساوى اثمه اثم انكار معجزة ثابتة ثبوتا قطعيا .

وآخر الكلام أقول لحضراتهم : انى كنت جادا حين تساءلت عن الحكمة التى ارادها الله تعالى من كشف عورة رسوله موسى ، وهتك ستره وابداء سواته للملأ من قومه ؟ وليس فى كلام حضرات الأفاضل ما شفى أو كفى ! ألم يجد الله تعالى طريقة لتبرئة عبده موسى سوى ذلك الذى يكرهه موسى ؟

أما دعوى حضراتهم ومن نقلوا عنهم ان ذلك كان جائزا عند بنى اسرائيل ، فدعوى تحتاج الى نص عندنا أو نص عندهم ، وهو ما لا يوجد فهى افتراض افترضوه . ولم تزل ذمة حضراتهم مشغولة ببيان الوجه الوجيه الذى لا ينازع فيه أحد .

من هذا كله : يتبين انى لم أحد عن طريق الصواب فى اختيار الوجه الثالث ، وانه لا حرج على فى ذلك . وما اعترضوا به وما قالوه لم يغير موقفى ولم يزحزحنى قيد شعرة .

اقــرأوا هذه الآيات .

سورة القصص : إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ [٧٦] وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [٧٧] قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ [٧٨] فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [٧٩] وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ [٨٠] فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ [٨١] وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ [٨٢] تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [٨٣]

أما ايذاء بنى اسرائيل لموسى فقد اختلف فى نوع الايذاء . فقال قوم : انهم قالوا ان موسى به عيب جسمي واتهموه بالأدرة . وقال آخرون : بالبرص ، فنزل الماء ليستحم ووضع ثوبه على حجر فجرى الحجر بثوب موسى . فصار موسى يجرى خلفه خارج الماء ويقول : ثوبى حجر ! ثوبى حجر ! الى أن وقف الحجر فى مجتمع بنى اسرائيل ، ورأوا أنه بـرىء من العيب الذى اتهموه به .

وأنا لا أدرى ما هو الحامل أو الداعى الذى أراده الله من جعل الحجر يشتد فى الجرى وموسى فى أثره مكشوف العورة ؟ ولم كانت هذه المعجزة التى تهتك ستر نبى كريم يحنق بسببها ويضرب الحجر حتى يؤثر فيه ندوبا ؟ وأيضا فانى لم أفهم كيف يكون ابتـلاء موسى بالأدرة عيبا يحول بينه وبين الوجاهة عند الله تعالى ؟

واذا كان الاتهام بالأدرة هو الأمر الذى أوذى به موسى فكيف ينافى هذا علمهم بأنه رسول الله اليهم ؟ كما يشعر بذلك قوله لهم (يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله اليكم) ؟ فلا بد أن يكون الايذاء أكبر من الاتهام بالأدرة .

نعم ورد الحديث بمسألة الحجر ولكن فى رجاله « عوف » وقد جاء عنه فى « تذهيب التهذيب » أنه كان شيعيا رافضيا شيطانا .

والذى أميل اليه فى مسألة ايذاء بنى اسرائيل موسى ما ذكره البيضاوى فى تفسير آية الأحزاب والألوسى فى تفسيره وابن الأثير فى تاريخه وعبارة ابن الأثير أوسع ، ذلك أن موسى طلب الزكاة من قارون . فشحت نفسه بالمال . وأراد أن يكيد لموسى ليرجمه . فاتفق مع امرأة أن تقول عن موسى انه زنى بها . ولما أصبح قال لموسى : أليس من الشريعة أن الزانى يرجم ؟ قال : بلى قال : فانك قد زنيت بفلانة ويجب أن تسلم نفسك لنرجمك .

فلما جاءت المرأة أخبرت أن قارون لقنها أن تدعى هذه الدعوى على موسى وهو برىء منها . وبذلك (برأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) وهذا هو اللائق أن تحمل عليه الآيات لأن من كان زانيا لا يكون وجيها عند الله تعالى .

ويظهر أن قارون اجتمع عليه كثرة المال والشح به على الواجبات . والتيه على قومه حتى آل أمره الى الافتراء على موسى . فكان عاقبته أن خسف الله به وبداره الأرض . ولما كان أكبر اعتقادى ارتباط الايذاء بقارون وأضرابه — الذين شايعوه على موسى — فأنا أميل الى هذا الرأى وقد أورد الألوسى احتمالات كثيرة لا أرى ضرورة لنقلها .

اقرأوا هذه الآيات : —

سورة الأحزاب : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا.

سورة الصف : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

ذكرت قصة قارون فى الاصحاح السادس عشر من سفر العدد . وملخصها : أن قورح — قارون وهو ابن عم موسى — وداثان وأبيرام — ابنا الياب — وأون — ابن فالت بنو رأوبين — كانوا يقاومون موسى مع أناس من بنى اسرائيل مائتين وخمسين رؤساء الجماعة . فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما ان الجماعة كلها مقدسة وفى وسطها الرب . فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب ؟

فلما سمع موسى سقط على وجهه وقال غدا يعلن الرب من هوله ، ومن المختار والمقدس حتى يقربه اليه . وأمر القوم أن يأخذوا مجامرهم وأن يضعوا فيها النار وأن يضعوا على النار بخورا . والرجل الذى يختاره الله هو المقدس . وعاتب موسى قورح قائلا : اسمعوا يا بنى

لاوى ! أقليل عليكم أن اله اسرائيل أفرزكم من جماعة اسرائيل وقربكم اليه لخدمته ؟ اذن أنتم متفقون على الله وعاصون لأوامره والا فما هو هارون حتى تتذمروا عليه ؟ وأرسل يدعو داثان وأبيرام بن ألياب فلم يصعدا اليه . قالا لرسوله قل له : أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبنا وعسلا كما وعدتنا ولم تعطنا نصيب حقول وكروم ؟ لا نصعد اليك ، فاغتاظ موسى وقال لله : لا تلتفت الى تقدمتها « حمارا واحدا لم آخذ منهم ولا أسأت الى أحد منهم » .

وأمر موسى قورح أن يكون مع أولاده والجماعة المظاهرين له فى أبواب خيامهم ، ويكون معه أبناؤه ، ويأتى هارون بمجمرته ويكون الجمر فى المجامر ، ويتقـدمون أمام الله مائتين وخمسين مجمرة ، وأن الله كلم موسى وهارون وأمرهما أن ينفرزا عن كل بنى اسرائيل ليهلكهم ، فتضرع موسى الى الله حتى لا يأخذ كل القوم بخطيئة رجل ، فأمره أن يبعد جماعة بنى اسرائيل عن خيام هؤلاء المشاقين ففعل .

ولما حضروا من الغد ، قال موسى للجماعة : اذا كان الله قد أرسلنى لأعمل هـذه الأعمال وليست من نفسى . أن موت هؤلاء كموت كل انسان فليس الله قد أرسلنى . ولكن أن ابتدع الله بدعة وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وكل مالهم ، فيهبطوا أحياء الى الهـاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالله .

فلما فرغ موسى من قوله انشقت الأرض وابتلعتهم وبيوتهـم وكل من كان لقـورح مع الأموال ، وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من كل الجماعة ، وأرسل الله نارا على المائتين والخمسين من أعداء موسى الذين قربوا البخور . اقرءوا من أول الاصحاح السابع عشر : من سفر العدد الى آية ٢٤ منه . فهذا هو ايذاء بنى اسرائيل لموسى وهذه براءته عندهم .

اختيار موسى سبعين رجلا

من شيوخ بنى اسرائيل لطلب المغفرة من الله والندم على ما صدر من قوم موسى على عبادة العجل — طلب بعضهم من موسى ان يروا الله جهرا ليؤمنوا به — اخذ الصاعقة اياهم — تضرع موسى الى الله الا يهلكهم بفعل السفهاء الذين طلبوا الرؤية — احياؤهم بعد موتهم من الصعقة — التبشير بمحمد على أثر ذلك .

لما رأى القوم أنهم قد ظلموا أنفسهم وقارفوا اثما كبيرا بعبادة العجل ، اختار موسى من القوم سبعين رجـلا يذهبون معـه الى الجبل — الذى اعتاد أن يناجى الله فيه — ليقدموا الطـاعة لله والندم على ما اقترفوا من اثم ، ويتوبوا الى الله مما جناه عبدة العجل ، فذهب بهم الى الجبل « حورب » وهو جبل الطور . فلما كلم الله تعالى موسى وهم شهود يسمعون كلام الله عاودت جماعة منهم جبلة التمرد والعصيان ، فلم يؤمنوا أن الله تعالى هو الذى يكلم موسى وأنه أعطاه التوراة . وقالوا له : لن نؤمن لك أن الله نبأك وأعطاك الكتاب حتى نرى الله تعالى جهرة بأعيننا

لا يحجبه حجاب ولا يستره ساتر . والظاهر أنهم لم يؤامروا موسى فى هذا الاقتراح من قبل . ولو فعلوا لأرشدهم وأعلمهم علمَ ما لقى من التجربة القاسية ، وهى الصعقة التى نالته على أثر ذلك الاقتراح الذى صدر منه وتجلى الله تعالى للجبل الذى صار دكا من هيبته تعالى . ولا يبعد أن يكون أعلمهم بذلك كما يقول بعض المفسرين ، وأنهم لم يقبلوا منه قوله .

على أثر هذا الطلب من القوم أخذتهم الصاعقة وهم ينظر بعضهم الى بعض ، يتهافتون على أديم الأرض ليكون ذلك برهانا فعليا لديهم على أن ما أصابهم حق لا شبهة فيه . ثم بعثهم الله من بعد موتهم بعد التضرع والتذلل من موسى ، وطلب العفو عما صدر من سفهائهم والغفران لزلتهم ، فغفر الله لهم ذلك وأعادهم الى الحياة . وكان من طلب موسى المغفرة والرحمة فى الدنيا والآخرة ؛ أن أخبره الله تعالى بأن ذلك راجع لمشيئته . وأخبره الله تعالى بأنه كتب رحمته للمتقين الذين يؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله ولا يعارضون فيها ولا يتعنتون فى الاقتراح بعد ايمانهم، كما فعل قوم موسى . وهم الذين يتبعون النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا فى التوراة والانجيل، ومن أوصافه أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، الى آخر الآيات .

فكأنه تعالى كان يباهى بمحمد وأتباعه أتباع موسى قبل وجود محمد وأمته بأكثر من ألف وخمسمائة سنة ، ويوبخهم بأن له عبادا ليسوا على شاكلة قوم موسى يؤمنون بالله وآياته بدون تعنت أو تذمر بعد اتسامهم بالايمان ، ووصفهم بأروع الأخلاق وأجل الصفات .

نبوة محمد موجودة فى التوراة رغم ما اعتورها من التحريف والتشذيب . وها أنذا أسوق تلك المواضع من التوراة تعجيلا للفائدة ، ولأنها أيضا من قصة موسى .

ففى الآية العشرين من الاصحاح السابع عشر — تكوين « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه هأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا » .

ولفظ العبارة الأخيرة فى العبرية « هِنِّي بِيرَخْتِي أُوتُو وهِفْرِيتِي أُوتُو وهِرْبِيتِي أُوتُو بماد ماد » بامالة فى « بماد ماد » الى واو .

ومن عادة العبرانيين الاعتماد فى الوقائع والأسماء على قيمة حروف الكلمة من جهة الحساب، فلو حسبنا لفظ « بماد ماد » بالجمل ! لكانت جمل « محمد » بلا زيادة ولا نقصان ٩٢ وهو من أبناء اسماعيل الموعود بالبركة والأثمار فى أبنائه (١) .

---

(١) ثانيا — فى الآية ١٥ من الاصحاح ١٨ من سفر التثنية : قول موسى لبنى اسرائيل (١٥) يقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلى له تسمعون (١٦) حسب كل ما طلبت من الرب الهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلا لا أعود أسمع صوت الرب الهى ، ولا ارى هذه النار العظيمة لئلا أموت (١٧) قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا (١٨) أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه فيتكلم بكل ما أوصيه .

فقوله من اخوتهم فى الآية (١٥) وقوله من وسطهم من اخوتهم فى الآية (١٨) تدل على ان =

أما بقية كتب الأنبياء ففيها أخبار كثيرة تنطبق على « محمد » صلى الله عليه وسلم والبلد الذى يخرج منه . آما هذا الموقف من مواقف موسى فاقرءوا هذه الآيات التى تدل عليه :

سورة البقرة : وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [٥٥] ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٥٦]

سورة الأعراف : وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ [١٥٥] وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ [١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [١٥٧]

وقوله (ثم بعثناكم) دليل على أنهم ماتوا . لأن البعث لا يكون الا عن موت ولا مانع أن يكون فى الكلام مجاز فشبه افاقتهم من الصعق بالاحياء .

= الموعود به لا يكون من بنى اسرائيل بل من اخوتهم . واخوتهم بنو اسماعيل كما تدل على ذلك الآية « ١٨ من الاصحاح ٢٥ — تكوين » وسكنوا « أى أبناء اسماعيل » من حويلة الى شور التى أمام مصر حينما تجىء نحو اشور امام جميع اخوته نزل . وحويلة هى بلاد خولان على تخوم اليمن — مما يلى الحجاز — ولا مقابل لأبناء اسماعيل فى جهة شور سوى بنى اسرائيل . وكما تدل على ذلك أيضا الآية « ١٢ من الاصحاح ١٦ — تكوين » « وأمام اخوته تسكن » وأيضا فان قوله « واجعل كلامى فى فمه » الخ يدل على انه يكون اميا لا يقرا ولا يكتب، ولم يدع احد من ابناء اسماعيل ذلك سوى « محمد » صلى الله عليه وسلم . ولم يقم نبى أمى سواه منذ خلق الله الدنيا الى اليوم .

ثالثا — الآية الثالثة من الاصحاح الثامن والثلاثين — تثنية (٢) قال جاء الرب من سينا واشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران واتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم .

جبل فاران بمكة وهى البلاد التى سكنها اسماعيل .

العبد الصالح صاحب موسى

حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال : أخبرنى سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس ان نوحا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى اسرائيل؛ فقال ابن عباس كذب عدو الله . حدثنى ابن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان موسى قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه فأوحى الله اليه : ان لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى يارب فكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . فأخذ حوتا فى مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون — حتى اذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطلق . فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمر الله به . فقال له فتاه « أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا » قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا . فقال موسى « ذلك ماكنا نبغى فارتدا على آثارهما قصصا » قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا الى الصخرة ، فاذا رجل مسجى ثوبا فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام . قال : أنا موسى، قال : موسى بنى اسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا . قال : انك لن تستطيع معى صبرا ، يا موسى انى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ! فقال موسى : ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . فقال له الخضر : فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ الا والخضر قد خلع لوحا من السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا امرا ! قال : ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الأولى من موسى نسيانا . قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل اذ بصر الخضر بغلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه ، فقال له موسى : أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا !؟ قال : ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال : وهذه أشد من الأولى ؛ قال ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى

عذرا ، فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض . « قال : مائل » فقام الخضر فأقامه بيده فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجرا ؟ قال : هذا فراق بينى وبينك — الى قوله — ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وددنا أن كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » .

قال سعيد بن جبير : فكان ابن عباس يقرأ (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا) وكان يقرأ (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين) .

ما اسم العبد الصالح

وأما العبد الصالح فقد اختلف العلماء فى اسمه . وهل هو نبى أو رسول أو ولى؟ واختلفوا فى زمنه وهل هو حى الى اليوم أو ميت ؟

أما اسمه فقالوا : انه « الخضر » وقيل « بليا بن ملكان » وقيل « اليسع » وقيل «الياس» وقيل « ملك من الملائكة » وقيل اسمه « عامر » وقيل « أحمد » . واختلفوا فى اسم أبيه فقيل انه « ابن آدم » لصلبه وقيل انه « ابن فرعون » وقيل « ابن العيص » وقيل « ابن كليان » . والجمهور على انه « بليا بن ملكان » وأن « الخضر » لقب له . وعلى أنه نبى . وقال غير الجمهور : انه رسول : وقال آخرون : انه ولى . وعليه الكثير .

واختلف هل هو حى اليوم أو ميت ؟ فذهب جمع الى أنه ليس بنبى . وأنكر البخارى أن يكون حيا . وفى صحيح مسلم : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل موته « ما من نفس منفوسة يأتى عليها مائة سنة وهى حية » وسئل غير البخارى من الأئمة فتلا قوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) وسئل شيخ الاسلام ابن تيمية عنه فقال : لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتى الى النبى صلى الله عليه وسلم ويجاهد بين يديه ويتعلم منه . وسئل ابراهيم الحربى عن بقائه فقال : من أحال على غائب لم ينتصف منه ، وما ألقى هذا بين الناس الا الشيطان. ونقل فى البحر عن شرف الدين أبى عبد الله محمد بن أبى الفضل المرسى : القول بموته . ونقله ابن الجوزى عن على بن موسى الرضا رضى الله تعالى عنهما ا هـ من الألوسى .

ويقول بعض أهل التفسير : انه و « الاسكندر المقدونى» ابنا خالة ، وكان وزيره . وهو قول جاهل ؛ لأن الاسكندر كان بعد موسى بأكثر من ألف سنة ! فكيف يكون ابن خالته معاصرا لموسى رسول الله ؟

القرآن الكريم لم يرد فيه هذا الاسم ؛ ولولا وجوده فى حديث البخارى ما صدقت بوجود صاحب هذا الاسم ! ولكان « هيان بن بيان » وانى أكتفى بما قدمته من ذكر الآيات الكريمة . ومن شاء فليقرأ سورة الكهف فهى فيها .

تذكير الله تعالى لبنى إسرائيل بنعمه عليهم

ان الناظر الى أحوال بنى اسرائيل والقارىء للقرآن ولكتب أنبيائهم يجد الله تعالى قد دللهم وأعطاهم حكم الصبى على أهله . فأتاهم بالعجائب وفعل بالأمم الظالمة لهم الأفاعيل ، واحتمل صلفهم وطغيانهم ولم يترك وسيلة من وسائل استرضائهم الا فعلها ، وهم لا يزيدون الا عنادا ومخالفة عن أمره .

والظاهر أن الأمم — التى طردها الله أمام بنى اسرائيل وأورثهم أرضهم وديارهم — كانوا غاية فى الرداءة والعصيان والكفر ، حتى أن بنى اسرائيل الذين نعرف حالهم كانوا مختارين من الله عليهم . وقد رأيت فى الكتاب المقدس . أن موسى — على ما أذكر — قال لبنى اسرائيل: لا تظنوا أن الله تعالى سيأتى بكم الى الأرض المقدسة بسبب قداستكم وطهارتكم وأنكم أفضل الناس فى طاعته ! كلا فانه انما يطرد الأمم أمامكم لرداءتهم ورجسهم العظيمين .

وقد ذكر الله تعالى بنى اسرائيل بما صنعه لهم من الاحسان ، وبالآيات التى صنعها فى سبيل اطلاقهم من أسر فرعون وقومه ما نورده فى هذه الآيات :

سورة البقرة : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [٤٧] وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ [٤٨] وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [٤٩] وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [٥٠] وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ [٥١] ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٥٢] وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [٥٣] وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [٥٤] وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [٥٥] ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٥٦] وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [٥٧]

ومنها أيضاً : وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [٦٠] وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ [٦١]

ســورة الأعراف : وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [١٤١]

سورة ابراهيم : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [٦] وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ [٧] وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ [٨]

موت هارون ثم موسى

أما هارون فقد أمر موسى أن يذهب هو وهارون الى جبل « هور » فذهبا وهناك مات هارون ودفنه موسى ، وعاد الى بنى اسرائيل وأخبرهم بموت هارون ، ويقول مفسرو القرآن : ان بنى اسرائيل قد شغبوا على موسى واتهموه بقتل هارون الى أن أراهم الله هارون على سرير بين السماء والأرض ليس به أثر للقتل . وأما موسى فقد أمره الله أن يذهب الى جبل « نبو » وأن ينظر الى الأرض المقدسة ولا يدخلها ، وهناك مات موسى ودفن على الفسحة وهى الكثيب الأحمر .

موقف لبنى إسرائيل بعد موسى

بعد وفاة موسى قام بأمر بنى اسرائيل « يوشع بن نون » من سبط يوسف ومعه بنو اسرائيل وعبروا الى الأرض التى وعدوا بها ، وكان أول بلد ملكوه مدينة « أريحا » وقد أمرهم الله أن يدخلوا باب المدينة حين يدخلونها سجدا أى خاشعين متذللين لله تعالى وأن يقولوا (حطة) ولكن القوم عاودتهم سجية مخالفة أمر الله تعالى ، فقالوا قولا غير الذى أمرهم بأن يقولوه ، ودخلوا وهم على هيئة غير التى أمروا بها ، فغضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب .

ومعنى (حطة) حط عنا خطيئتنا أو أمرنا حطة . وليس من البعيد أن يكون هـذا اللفظ عبريا ومعناه خطيئة لأن لفظ أخطأ بالعبرية « حطا » بحاء مهملة فطاء تقول « انى حطاتى » أى أنا أخطأت و « أتا حطاتا » أى أنت أخطأت .

ولكن يلزم عليه أن القرآن فيه لفظ غير عربى . وقد جوز بعض العلماء ذلك ومنعه آخرون. ولا مانع من أن يكون هذا اللفظ دخل فى العربية وصار منها .

ويقول البيضاوى : ان المدينة هى بيت المقدس أى « أورشليم » أو « أريحا » . ونعل القول بأنها « أورشليم » الذى دعا أهلها لأن يسموا أحد أبوابها « باب حطة » والقرآن لم يبين المدينة والتوراة لم تذكر المسألة أصلا .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة البقرة : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ [٥٨] فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [٥٩]

سـورة الأعراف : وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ [١٦١] فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ [١٦٢]

ثناء الله تعالى على موسى وهارون

علمنا من هذه القصة ما كابده موسى وهارون فى معالجة شؤون بنى اسرائيل وسياستهما لذلك الشعب المشاغب . وأن هارون مات فى جبل « هور » وأن موسى مات ودفن فى جبل « نبو » بعد أن أشرف على أرض الموعد . وقد أثنى الله تعالى ثناء طيبا على موسى وهارون لما كابدا من عنت قومهما وشدة مراسهم ، مع ما كانا عليه من الايمان المحض والاخلاص .

اقرءوا الآيات الآتية :

سـورة مريم : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا [٥١] وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا [٥٢] وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا [٥٣]

سـورة الصافات : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ [١١٤] وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [١١٥] وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ [١١٦] وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ [١١٧]

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [١١٨] وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ [١١٩] سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ [١٢٠] إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [١٢١] إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [١٢٢]

سورة غافر : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ [٥٣] هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [٥٤]

العظات التى تستفاد من قصة موسى

١ — أن الابتلاء الذى يصاب به الانسان فى الدنيا ينبغى أن يقابل بالرضا ، فقد يكون الخير العظيم فى هذا الابتلاء . فهذا موسى قد خرج خائفا من آل فرعون متبعا نصيحة ذلك الرجل الذى جاءه من أقصى المدينة ناصحا له بالابتعاد عن مصر لأن الملأ يأتمرون به . فهاجر من مصر وكان الخير كله فى هجرته ، فقد وجد أهلا بأهل وجيرانا بجيران ، واصطفاه ربه على الناس برسالاته وبكلامه وجعله واسطة لانقاذ قومه من فرعون وآله .

٢ — أن المتوكل على الله المعتمد عليه تعالى فى أموره يقيض الله تعالى من ينقذه ويهيىء له من أمره يسرا ، كما قيض ذلك الرجل لموسى فكان سببا لنجاته أولا وكان فى هذه النجاة أن يخصه الله بوحيه .

٣ — أن الشخص المستمسك بالحق لا يبالى بمن خالفه ولو كان عظيما .

فهذا موسى قال له فرعون (انى لأظنك يا موسى مسحورا) فقال له موسى فى غير مبالاة به ولا اكتراث لما هو فيه من أبهة الملك وعز السلطان (لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا) أى هالكا بعد أن حاسنه موسى كل المحاسنة وتلطف به كل التلطف ، فلما لم يفد أخشن له القول .

٤ — أن الحق لا يعدم نصيرا . ذلك موسى جاء الى فرعون لينزله عن عرش الربوبية ويدعوه الى عبادة الله فاعتزم قتله وأمر قومه ، فقام رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه ينافح عن موسى ويدافع عنه ويحذر فرعون وآله بطش الله ضاربا الأمثال بالأمم الخالية غير مبال بمخالفة فرعون .

٥ — أن لذة الايمان اذا تذوقها الانسان ملكت عليه مشاعره واستهان فى سبيلها بكل عقاب . لذلك آمن السحرة بموسى والهه ، غير مبالين بفرعون وما أعد لهم من عذاب .

٦ — أن الصبر على البلوى حميد العاقبة . فهؤلاء بنو اسرائيل ابتلوا فصبروا على الاهانة والذل والتسخير وتقتيل الأبناء واستحياء النساء الى أن أعقبهم الله الحسنى كما قال (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا) .

٧ — أن موسى كان حليما على بنى اسرائيل رءوفا بهم . فان الله قد غضب عليهم بسبب عبادة العجل وهددهم بالابادة . وكذلك الشيوخ الذين ذهبوا لتقديم توبة الشعب طلبوا رؤية الله تعالى جهلا وعنتا فأخذتهم الصيحة ، فأخذ موسى يتضرع الى الله ويقول « رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

استطراد

بمناسبة هذه الآية الكريمة عرض لى أن أسائل نفسى سؤالين . وهما : —

١ — أن التواريخ قد دلت على أن اليهود قد احتلوا جهات من الحجاز ؛ كتيماء ووادى القرى وفدك وخيبر ومدينة يثرب .واتخذوا تلك الأمكنة مقاما وجعلوها دار قرارهم وأثاروها وعمروها وبنوا فيها المصانع والآطام العظيمة والحصون المنيعة . واستقر من قبائلهم هناك : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . فما الذى أزعجهم عن فلسطين تلك الأرض التى اذا تكلموا عنها قالوا انها تفيض لبنا وعسلا ؟

٢ — ولم كان اتجاههم الى تلكم الأرض القليلة الريف وأرض الله واسعة أمامهم ؟ فهذه مصر متاخمة لأرضهم والشام من شمالهم والعراق مهاجرهم الأول . فلم اتجه هؤلاء الناس الى تلك الناحية ؟

١ — أما السؤال الأول فجوابه فيما أعتقد أن بنى اسرائيل انما أزعجهم من فلسطين التى كانوا يحبونها حبا جما . اغارة « طيطس » الرومانى على بلادهم وايقاعه بهم ، وتخريبه بيتهم المقدس وهيكلهم الذى كانوا يفاخرون به كل الأمم ويباهون بضخامة بنيانه وما فيه من آنية الذهب والفضة ، وذلك سنة ٧١ بعد الميلاد .

٢ — وأما جواب الاستفهام الثانى : فان بنى اسرائيل قد وعدوا بنبى يقوم من بين اخوتهم وهم العرب الاسماعيليون ، وأنه سيكون ظهوره واعلان أمره فى مدينة يثرب . فلما ضاقت أنفسهم مما أنزله بهم الرومان . رجوا أن يأتيهم الفرج ويعود لهم العز بمظاهرة هذا النبى الذى وصف لهم فى كتب الأنبياء ، فجاءوا الى مكان ظهوره انتظارا لمقدمه وعلى الطريق بين البلد الذى يظهر منه وبين فلسطين .

جاء فى أشعيا (١٠) غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض . أيهـا المنحدرون فى البحر وماؤه والجزائر وسكانها (١١) لترفع البرية ومدنها صوتها . الديار التى سكنها قيدار. لتترنم سالع من رءوس الجبال ليهتفوا (١٢) ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر (١٣) الرب كالجبار يخرج كرجل حرب ينهض غيرته . يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه ا هـ .

فسالع هذه التى يدعوها أشعياء للابتهاج ليست سوى « جبل سلع » اذ الوادى الذى به المدينـة المنورة يكتنفه جبـلان : أحدهما شرقى وهو « جبل أحـد » . وثانيهما غربى وهو جبل سـلع .

والأغنية الجديدة انما هى الدين الجديد الذى يعلن توحيد الله وافراده بالعبادة ، ويكون حربا للأصنام التى تعبد من دون الله تعالى كما فى قول أشعيا « ص ٤٢ » قد ارتدوا الى الوراء يخزى خزيا المتكلمون على المنحوتات . القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا .

لم يأت نبى بعد أشعيا كان حربا على الأصنام وعبادتها وأعلن ثورته عليها حتى آبادها من بلاده سوى « محمد » صلى الله عليه وسلم لهذا السبب جاء اليهود الى « يثرب » بلصق « سـلع » التى دعاها أشعيا الى الابتهاج بشريعة الله الجديدة والنبى القائم بها .

وقد يكون قد هجس لبعض اليهود أن يكون منهم النبى الذى يقوم من سالع وتبتهج به ، فنزلوا فى تلك الديار رجاء أن يبعث ذلك النبى منهم وتكون لبقيتهم العزة به .

داود عليه السلام

تمهيد ـ رجع الكلام الى داود ـ نعم الله على داود ـ موقفان لداود ـ الزبور ـ هبة سليمان لداود ـ حكمة داود ـ ما يتعلق بالفتنة من القرآن ـ مكان العبرة من قصة داود .

هو كما فى انجيل متى : داود بن يسى . بن عوبيد . بن بوعز . بن سلمون . بن نحشون . ابن عمينا داب . بن أرام . بن حصرون . بن فارص . بن يهوذا . بن اسحاق . بن ابراهيم عليه السلام .

ورد اسم داود فى القرآن الكريم فى ستة عشر موضعا . فى الآية ٢٥١ من سورة البقرة . وفى ١٦٣ من سورة النساء . وفى ٧٨ من سورة المائدة . وفى ٨٤ من سورة الأنعام . وفى ٥٥ من سورة الاسراء . وفى ٧٨ ، ٧٩ من سورة الأنبياء . وفى ١٥ ، ١٦ ، من سورة النمل . وفى ١٠ ، ١٢ ، من سورة سبأ . وفى ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ من سورة ص . وقد آتاه الله النبوة والملك فى بنى اسرائيل . وقد ذكرت قصته فى القرآن مرات كثيرة — تارة مختصرة وتارة مطولة — وكلها يكمل بعضها بعضا وقد طالت مدته فى الملك . وله مواقف أيام ملكه وقبله .

والكلام فى داود وتلخيص قصته يحتاج الى تمهيد نبدأ به فنقول :

تمهيد

لما دخل بنو اسرائيل بلاد فلسطين مع يوشع بن نون عليه الصلاة والسلام وقسم لهم الأرضين قام يوشع بأمرهم الى وفاته . وأقاموا على ذلك ، يقيم لهم أمرهم قضاة منهم ، وليس فيهم ملك ستا وخمسين وثلاثمائة سنة بعد موسى عليه السلام .

وكان بنو اسرائيل فى تلك الأثناء عرضة لغزوات الأمم القريبة منهم — كالعمالقة من العرب والمديانيين والفلسطينيين والآراميين وغيرهم — وكانت الأيام دولا بين الفريقين : تارة يغلبهم اليهود وتارة يغلبون اليهود . وكان الأنبياء فى ذلك العهد مرشدين لأولئك القضاة والحكام من اليهود وواسطة بينهم وبين الله تعالى . وفى بعض الأحيان يكون النبى قاضيا .

وكان فى أواسط المائة الرابعة — فى أيام عالى الكاهن — أن العبرانيين دخلوا فى حرب مع الفلسطينيين سكان أشدود بالقرب من غزة . وقد أخذ بنو اسرائيل معهم تابوت العهد وهو التابوت الذى فيه التوراة أى الشريعة ليستنصروا به . فغلبهم الفلسطينيون وأخذوا تابوت العهد ودخلوا به الى بيت « داجون »[1] الههم « وهو رأس انسان على جسم سمكة » . وكانت هزيمة بنى اسرائيل عظيمة وذلهم شديدا .

---

(١) توجد قرية قرب الرملة من بلاد فلسطين اسمها « بيت دجن » أعتقد أنها « بيت داجون » وأن معبد هذا الاله كان بها ، وأن بها كان تابوت العهد الذى لبنى اسرائيل ورد أيام طالوت .

ندع تابوت العهد فى بيت داجون مؤقتا ، ونذكر لكم أنه كان من قضاة بنى اسرائيل نبى اسمه صمويل [1] قضى لبنى اسرائيل زمنا ، وعين ابنين اه للقضاء فى أحياء اسرائيل فلم يعدلا ، وخاف بنو اسرائيل أن يفسد عليهم الأمر بعد صمويل ،وجاءوا اليه فى بلدة الرامة وألحوا عليه فى أن يقيم عليهم ملكا منهم ، يأتمرون بأمره ويقودهم الى قتال أعدائهم الذين أذلوهم دهرا طويلا ، ويدافع عنهم من يريد الاغارة عليهم . وكان صمويل عالما بعقلية بنى اسرائيل وعاداتهم وما انطوت عليه أنفسهم . فقال لهم (هل عسيتم أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا) « فصل بين عسى وخبره بالشرط » والمعنى أتوقع جبنكم عن القتال ان كتب عليكم ، فأجابوه قائلين (وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) والمعنى أن دواعى القتال موجودة وهى أن الأعداء أخرجونا من ديارنا وأسروا أبناءنا . فلا يتأتى منا النكول ونحن على هذه الحال .

وقد جاء فى الكتاب الكريم أنهم لما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم .

عرفهم صمويل بعد ذلك أن الله قد جعل « طالوت » ملكا عليهم واسمه فى سفر صمويل « شاول بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح » من سبط بنيامين . وكان « شاول » شابا جميلا لم يكن فى بنى اسرائيل أحسن منه .

عرفنا أن الشاب « شاول » هو الذى اختاره الله ليكون ملكا لليهود وقد نصت حكاية « شاول »الذى هو « طالوت » فى سفر صمويل الأول من الاصحاح الثامن الى الحادى عشر .

وكان من قصته وأمر تمليكه أن ضلت أتن لقيس أبى شاول ، فقال لابنه خذ معك واحدا من الغلمان وفتش على الأتن ، فبحث فى أمكنة كثيرة الى أن أتى الى المدينة التى فيها صمويل، فأشار الغلام على شاول أن يقصد النبى صمويل ليدله على الأتن ، فذهب اليه فالتقى به فى وسط المدينة يريد صمويل لقاءه ، فسأله على الأتن فطمأنه وأكرمه اكراما عظيما فى ذلك اليوم ، وفى اليوم الثانى صب صمويل الدهن على رأس شاول ومسحه به وقبله وأخبره بما سيصير اليه أمره .

ثم أخذ صمويل فى العمل لتعيين من اختاره الله ملكا اليهود أمام الشعب ، وطلب شاول فوجد مختبئا بين الأمتعة . ولما جاءوا به كان أطول الناس فرضى به الشعب وهتفوا له وغضب آخرون . واحتقروه .

وفى القرآن الكريم أن نبيهم لما أخبر بنى اسرائيل أن الله قد بعث لهم طالوت ملكا تذمروا (وقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال . فقال لهم نبيهم

---

(١) رأيت قبره على جبل على يمين الذاهب من بيت المقدس الى الرملة ، بعد أن يجاوز لفته وأبى غوش . وقد قيل انه دفن فى الرامة ، ولعل ذلك الموضع يقال له الرامة .

ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء) وكان شاول طــويلا .

وكان مما أخبر به صمويل بنى اسرائيل ، أن آية ملك طالوت أن يأتيهم التــابوت الذى أخذ منهم و (فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون) أى موسى وهارون على حد قول عمر : لو ضاع عقال بشط العراق لخشيت أن يسأل الله عنه آل عمر ؛ يريد نفسه (تحمله الملائكة ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) .

نعود الى التابوت الذى فى بيت داجون فنقول : ذكر فى سفر صمويل أن الفلسطينيين كانوا يجدون الههم « داجون » ملقى عن مكانه فى كل ليلة وسلط الله عليهم الفيران فأفســدت عليهم حاصلاتهم ، وخرجت لهم البواسير ، وعلموا أن ذلك من وجود التابوت عندهم . فصنعوا تماثيل فيران من ذهب وتمــاثيل بواسير من ذهب ووضعوها مع التابوت قربانا ، وجاءوا بعجلة جديدة وعلقوا فيها بقرتين مرضعتين ووضعوا التابوت على العجلة وأطلقوا البقرتين ، فجاءتا بالتابوت بدون سائق أو قائد الى قرية « بيت شمس » الى أهل قرية « يعاريم » اليهودية ، فأخــذوا التابوت وما معه وأوجدوه فى بيت وخصوا به أحد الكهنة لخدمته ، وكان مكث التابوت عند الفلسطينيين سبعة أشهر ، وأقام فى يعاريم عشرين سنة .

وصعود التابوت من عند الفلسطينيين هو الذى أقامه صــمويل آية على ملك طالوت . ومعنى (تحمله الملائكة) على هذا أنها كانت تدل بالبقرتين الجارتين للعجلة .

جمع بعــد ذلك طالوت الجنود لقتــال الفلسطينيين ، وكان شــجاعهم وعظيمهم رجــل يقال له « جالوت » — أو « جليات » عنــد العبرانيين — قد هابه النــاس وتحاموا حربه لشجاعته وقوته .

وكان فى ذهاب طالوت اليه أن قال لجنوده (ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده) فأصاب القوم ظمأ شديد ، فلما أشرفوا على النهر لم يملكوا أنفسهم أن شربوا منه الا قليلا منهم امتنعوا وصبروا عن الماء وآثروا طاعة الله وكانوا قليلا . فلما جاوز النهر هو والذين آمنوا معه على قلتهم قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده — لأنهم نظروا الى قلتهم وكثرة أعدائهم — فقــال الذين يظنون أنهم ملاقو الله أى المؤمنون بأنهم ملاقو الله وانما عبر بالظن للاشارة الى أن مجرد الظن كاف للعاقل فى العمل لما ينجيه لأنه أخذ بالأحوط (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وقد كان من حاضرى الحرب داود بن يسى وكان صغيرا يرعى الغنم لا فضل فيه للحرب ولكن أباه أرسله الى أخوته الثلاثة الذين مع طالوت ليأتيه عنهم بما يطمئنه عليهم — فرأى جالوت وهو يطلب المبارزة والناس قد تحامته لما ملأ أنفسهم من هيبته وتيقن كل مبارز له أنه هالك . فسأل داود

عما يصير لقاتل هـذا الفلسطينى فأجيب بأن الملك يغنيه غنى جزيلا ويعطيه ابنته ويجعل بيت أبيه حرا فى اسرائيل .

كان داود فى ذهابه الى اخوته المحاربين لا يعلم أنه سيحارب ولم يكن قد جرب نفسه فى الحرب ولكنه ذهب الى شاول وطلب الاذن بمبارزة جالوت فضن به شاول وحذره . فقـال انى قتلت أسدا أخذ شاة من غنم أبى وكان معـه دب فقتلته . وألبسه شاول لامة حرب فلم يعرف داود أن يمشى فيها فخلعها وتقدم بعصاه وخمسة أحجـار ماس فى كنفه [1] انتخبها من الوادى ومعه مقلاعه وبعد كلام مع جالوت رماه داود بحجر فثبت فى جبهته وأخذ منه السيف وفصل به رأسه عن بدنه وهزم الفلسطينيون ووعد الملك داود أن يزوجـه ابنته ميكال وجعـله رئيس الجند .

اقرءوا الآيات الآتية :

سـورة البقرة : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قالوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ [٢٤٦] وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٢٤٧] وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٢٤٨] فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا ٱللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [٢٤٩] وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ [٢٥٠] فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ ٱللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ ٱللهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ...... [٢٥١]

---

(١) وعاء يحمل فيه الراعى خبزه ونحوه .

رجع الكلام إلى داود

بعد هذا التمهيد الذى قدمناه نقول لما هـزم داود جالوت ورجاله حسنت حاله عند شاول وصار مقدما بين رجال الحرب فى بنى اسرائيل ، وعظمت منزلته وزوجه ابنته وانعقدت أواصر المحبة الصادقة بين داود وبين يو ناثان ابن شاول.

تغير قلب شاول بعد ذلك على داود لما أحس من تعلق الشعب به وعظمه فى أعينهم ، فعمل على اهلاكه خشية أن تمتد عينه الى الملك . وكان يوناثان بن شاول يعمل على تحسـين مركز داود عند أبيه ويطريه ويشيد باخلاصه فى خدمة الملك ولما اعتزم شاول الفتك بداود أنذرته زوجتـه ميكال بنت شاول ، فهرب وأوهمتهم أنه على سريره ولم يكن فوق السرير سـوى متاع مغطى وكان داود قد أعطى شاول صداقها مائة غلفة من الفلسطينيين .

وكان شاول حين ولى حرب الفلسطينيين — بعد أن تغيرت نيته فيه — يريد بذلك أن يلى الأعداء قتله ويكفوه أمر داود . ولكن داود كان مظفرا فى حروبه . فلما لم يهلك أحب أن يهلكه بجنده وأعوانه ففاتهم . وكان داود مع علمه بخبث نية شاول عليه لا يقصر فى النكاية بأعداء الملك . ولما أيقن داود أن نية الملك قد صحت على قتله هرب منه . حتى لقد هم شاول أن يطعن ابنه يوناثان بالرمح لأنه كان يحاجه فى داود فراغ منه ونجا . فتمت عزيمة داود على الهرب منه وأن يغيب وجهه عنه .

انتهى داود فى هربه الى « أخيش » ملك « جت » وهم أعداء شاول الألداء ولداود أسوأ النكايات بالقوم فى الحرب . فلما ظفروا به جاءوا به الى الملك وحرضوه على قتله . فتظاهر داود بالجنون . وأوقع الله فى قلب الملك طرد هذا المجنون من حضرته . فأمر غلمانه باطلاقه وابعاده عنه ففعلوا وقد لامهم الملك على ادخال مجنون الى بيته .

ذهب داود الى مغارة « عدلام » وجاء اليه جميع اخوته وجميع بيت أبيه ، واجتمع اليـه كل رجل متضايق وكل مدين . فانتقل الى مصفاة موآب وأرسل أباه وأمـه الى ملك موآب ليكونا فى كفالته الى أن يعلم مصير أمره . ثم انتقل بمن معه الى أرض يهوذا .

سمع شاول بداود ومن اجتمع له من الرجال ، فلام رجاله على عدم اخباره بأمر داود مع ابنه يوناثان أنهما تعاهدا على الصداقة والوفاء . فأغراه أحـد رجـاله بأخى مالك بن خيطوب الكاهن وأخبره أنه أعطى داود طعاما وسلحه بسيف جالوت ، وأن الكاهن دعا له بالنجاح . فأتى شاول بالكاهن ولامه فى أمر داود فأثنى الكاهن على داود وقال : انه مخلص فى خـدمة الملك وقد شاع أمره واشتهر ، وأن الملك لا ينبغى أن يكافىء داود عن الاحسان شرا . فأمر الملك بقتله وقتل الكهنة فقتل منهم خمسة وثمانين ولم ينج منهم سوى طفل يقال له أبياثار ابن

خيطوب وهرب الى داود وأخبره بكل ما فعل شاول . فرحب داود بأبياثار وأقامه عنده لأن أهل بيته قتلوا بسببه .

أقام داود فى البرية وشاول يطلب الفرصة لاهلاكه ، وعلم داود بكل ما يدبر عليه وقد جمع شاول ثلاثة آلاف للتفتيش عليه والايقاع به ، واختبأ ومعه بعض رجاله فى كهف فجاء شاول ونام فى ذلك الكهف وداود ورجاله فى داخله ! ولاحت الفرصة لداود فى قتله وأغراه رجاله بذلك فوبخهم ولم يفعل ، واقتصر على قطع طرف جبة شاول . ولما استيقظ شاول وخرج من الكهف تبعه داود وأخبره بأنه قد كانت له الفرصة فى قتله فلم يمد اليه يدا ، وان آية ذلك أنه قطع طرف جبته وعف عن الحاق الأذى به . فندم شاول وقال : أنت أبر منى .

لم يلبث شاول أن عاوده الخوف على ملكه من داود فألح فى طلب اهلاكه وخرج مع رؤساء جنده فى جيش لاهلاك داود . فصبر داود حتى نزلوا منزلا ناموا فيه وقد ركز الملك رمحه عند رأسه ونام ، فجاء داود وتخطى الجند ورؤساءهم ، وأخذ الرمح وكوز ماء كان عند رأس الملك ، ووقف على ربوة ونادى رؤساء الجند موبخا لهم على تقصيرهم فى حراسة الملك ، فاستيقظوا ودعا داود أحدا منهم يجىء اليه ليأخذ رمح الملك وكوز الماء . وأعلم الملك بأن الفرصة قد سنحت له فى قتله ولكنه لم يفعل . فأظهر الملك الندم وعاد الملك الى بيته وأقام داود فى حصن اتخذه لنفسه .

لما يئس داود من صلاح الحال بينه وبين الملك ذهب الى الفلسطينيين فطلب من ملكهم ان ينزله فى احدى القرى يقيم فيها هو ورجاله .

ولعل ملك الفلسطينيين قد رأى الفرصة سانحة لعمل هدنة داود ليكتفى شره . ورأى ذلك خيرا من بقائه على العداء ودوام النكاية بالملك وجنده فأجاب طلب داود .

لم يطل المقام بداود حتى قام شاول لمحاربة الفلسطينيين ، وخرج داود برجاله معهم ، ولكن قادة الجند تخوفوا جانبه وأغروا الملك برده فرده بعد مسير ثلاثة أيام ، وكان الملك به ضنينا . فلما عاد الى المكان الذى فصل منه وجد الفلسطينيين خالفوا الى نساء داود والرجال الذين معه وأولادهم ، فسبوهم ونهبوا كل شىء وأحرقوا القرية التى كان داود نازلا بها وتدعى « صقلغ » فجد وراء المغيرين وخلص السبى وأفحش فى قتل أولئك القوم وغنم منهم غنائم عظيمة .

أما شاول فلقيه الفلسطينيون فانهزم جيشه ، وقتل هو وثلاثة من بنيه ، وهزم رجاله وجلا العبرانيون عن المدن القريبة من الموقعة وسكنهاالفلسطينيون .

فى أثناء هذه الخطوب مات صمويل — صلوات الله عليه — وقام فى بنى اسرائيل نبى آخر اسمه جاد . وكان صمويل قد تغير على شاول وابتعد عنه ولم يشأ أن يذهب اليه مع الحاح الملك فى الطلب . وقد أخبر داود أن الملك صائر اليه بعد موت شاول .

لم يكن داود يعلم بما تم على شاول وجنده من القتــل والهزيمة والتشريد ، حتى جاء اليه غلام عماليقى . وأخبر بما تم على شاول وجنده . وأن شاول كان فيه بقية من رمق بعد سقوطه فى الحرب . وعلم أنه مأخوذ لا محالة فطلب الى الغلام العماليقى أن يقتله ففعل ، وأنه أخذ اكليله وسواره وجاء بهما الى داود ، فغضب عليه داود وقتله ؛ وأقام مأتما على شاول ويوناثان صديقه ورثاهما رثاء عظيما . والظاهر أن شاول كان حسن السياسة وأن مدته كانت مدة رفاغة وهناءة لبنى اسرائيل كما تدل عليه مرثية داود .

صعد بعد ذلك داود الى « حبرون » وهى مدينة الخليل اليوم . فجاء رجال يهوذا وأقاموا داود ملكا على بيت يهوذا .

وأما بقية اسرائيل فدانوا بالطاعة « ايشبوشث » بن شاول وقام بأمره رجال أبيه ورؤساء جنـــده .

وقد حصلت حروب بين رجال داود ورجال ايشبوشث بن شاول الى أن هلك ابن شاول بعد سنتين ، وأقام داود ملكا فى حبرون ، وجاء اليــه بقية رؤساء اسرائيل وملكوه عليهم ، وأقام فى حبرون سبع سنوات . ثم انتقل الى صهيون وهو حصن سماه مدينــة داود وكان المقيمون فى جبل الموريا من اليبوسيين . فأقام داود بجانبهم فى صهيون الى أن صارت جميعها لبنى اسرائيل .

قام داود فى أيام ملكه بحروب كثيرة كان موفقا فيها منصورا على أعدائه واتسع ملكه حتى صار من أيلة — خليج العقبة — وهى المدينة التى على الخليج الى الفرات ، فدانت له تلك البلاد كلها بعد حروب كان الظفر حليفه فيها كلها ، فافتتح بلاد الفلسطينيين وأخــذ دمشق عاصمة ملك الآراميين بعد حرب شديدة ، وحارب الأقوام الذين على الفرات ونصر عليهم قبل أن يملك دمشق وما معها .

وقد أحسن داود الى غلام بقى من بيت شاول ورد عليه أملاك أسرته ، ملك داود شرقى الأردن بعد أن حاربه بنو عمون .

نعم الله على داود

قد ذكر الله تعالى لداود مواقف صالحات وأنه أنعم عليه نعما عظيمة فمن ذلك :

١ — أن الله ذكر فى الكتاب الكريم أنه سخر الجبال مع داود يسبحن بكرة وعشيا ، وقد دل على ذلك بقوله فى سورة سبأ (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوّبى معه والطير) .

وفى سورة ص (انا سخرنا الجبال معــه يسبحن بالعشى والاشراق) .

قال البيضاوى فى قوله (أوّبى) رجّعى فى التسبيح كلما رجّع فيه اهـ وهذا أمر يدل على عظم شأنه وكبرياء سلطانه حيث جعل الجبال لعقلاء المنقادين لأمره فى نفاذ مشيئته .

٢ — تسبيح الطير معه كما تفعل الجبال أيضا — كما تقدم فى سورة سبأ .

وفى سورة ص (والطير محشورة كل له أوّاب) .

٣ — علم منطق الطير : فقد جاء فى سورة النمل (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء) .

قال البيضاوى : والضمير فى (أوتينا — وعلمنا) له ولأبيه أو له وحده — على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة — ويؤيد — فى نظرى — أنه يتكلم عنه وعن أبيه :

(أولا) قوله تعالى : يا جبال أوبى معه والطير (ثانيا) قوله تعالى : والطير محشورة كل له أواب (ثالثا) قوله تعالى : وورث سليمان داود اذ الظاهر أنه ورثه فى العلم والحكمة .

٤ — الانة الحديد له كما فى قوله تعالى فى سورة سبأ (وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد) النسج أو الثقب قال البيضاوى (ألنا له الحديد) جعلناه فى يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير احماء وطرق بآلاته أو بقوته ا هـ فكان يعمل الدروع المسردة أى ذات الحلق من الحديد بيده معجزة له وأمرا خارقا للعادة . ولو كان يعمل الدروع بواسطة النار لم يكن فى ذلك امتنانا من الله عليه اذ كل الناس يعملون كذلك . اللهم الا أن يدعى مدع أن الانة الحديد لم تكن معروفة قبل داود وأن الله هداه الى هذا الأمر الذى لم يكن معروفا قبله . وهذا ما لا سبيل الى تحقيقه .

٥ — عمله الدروع المركبة من حلق الحديد(١) وكانت تعمل صفائح ، فكان هو الذى نسجها من حلق الحديد ، تناط الحلقة بأمثالها الى أن يكمل الدرع ، وهى أخف من الدروع الأخرى وأبعد من مضايقة لابسها ، وهى تقى لابسها من أن تعمل فيه الأسلحة . فهى على لابسها حصن يتنقل بتنقله كما قال تعالى (وعلّمناه صنعة لبوس لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) .

واعلموا أن الدروع لم تبق لها فائدة حربية بعد اختراع المدافع والبنادق ، فان مقذوفات البنادق تخترقها ، وقد سمعنا أنهم فى بعض الأحيان يتخذون الدروع من الحديد المقسى « أى المقوى بالنيكل » فتكون لها قوة لا تخترقها قذائف البنادق ولكنها غالية جدا .

٦ — تشديد ملكه . ذلك أن الله تعالى قواه فى الملك وجعله منصورا على أعدائه ، فقد انتصر على جميع مبغضيه . ومناوئيه — قبل الملك وبعده — ومكث دهرا لا يقوم له معارض الا غلبه ، ولا يعتدى على ملكه معتد من خارج مملكته فى أواخر ملكه . وقال البيضاوى (شددنا ملكه) قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود . وقرىء بالتشديد للمبالغة . قيل ان رجلا ادعى بقرة على آخر وعجز عن البيان ، فأوحى الله اليه أن اقتل المدعى عليه . فأعلمه فقال : صدقت انى قتلت أباه وأخذت البقرة . فعظمت بذلك هيبته .

---

(١) لعل الذى جعله يفكر فى عمل الدروع المسرودة ، عدم قدرته على المشى فى لامة الحرب التى ألبسه اياها « شاول » يوم برز داود لجالوت — كما تقدم — .

٧ — آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب . والمراد بالحكمة : النبوة . وأصل معناها اللغوى وضع كل شيء فى محله . أى يقول الانسان القول لا خلل فيه ، وليس فيه موضع لليت أو للو . ويفعل الصواب الذى لا اعتراض لأحد عليه . بل يأتى به الانسان على وجه الكمال .

ومعلوم أن النبوة هى من هذا القبيل . ولكن الحكمة بمعنى النبوة تكون هبة من الله تعالى ؛ دون أن تكون نتيجة بحث أو درس . ولكن حكمة غير الأنبياء تكون بعد البحث والدرس ومجاهدة النفس ورياضتها على السير بمقتضى الحكمة فالنبوة طريق الى الحكمة مختصر يختص الله به من اصطفاهم من عباده . وهو الفاعل المختار .

قال البيضاوى فى تفسير (فصل الخطاب) فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل . أو الكلام الملخص الذى ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس يراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والاضمار والحذف والتكرار ونحوها . وانى الى الأول أميل .

٨ — ان الله تعالى أعطاه الزبور كما فى قوله تعالى (وآتينا داود زبورا) وهو عبارة عن قصائد وأناشيد تتضمن تسبيح الله وحمده والثناء عليه والتضرع له ، وبعض أخبار مستقلة كما قال تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) أى أنه تضمن الأخبار بشأن النبى الآتى وهو (محمد) صلى الله عليه وسلم وأصحابه — كما فى الزبور الخامس والأربعين .

وكان داود عليه الصلاة والسلام حسن الصوت حسن الانشاد ، حتى أنه الى اليوم مضرب للمثل بحسن الصوت ، فيقال للحسن الصوت : انه أعطى مزمارا من مزامير داود «عليه السلام» والزبور يسمى عند أهل الكتاب « المزامير » وعددها مائة وخمسون مزمورا . وليست كلها لداود بل بعض المزامير منسوبة لقورح أمام المغنين ، وبعضها منسوب الى داود ، وبعضها منسوب للمغنين على السوسن ، وبعضها غير منسوب . والكثير منها منسوب الى داود . وليس فى الزبور أحكام ولا أوامر ولا نواه ، بل كله كما وصفنا . وبعض المزامير ألف بعد داود بمئات السنين . كالمزمور أوله « على أنهار بابل » فانه ألف بعد سبى الاسرائيليين الى بابل فى حادثة « بختنصر » .

موقفان لداود

(الأول) لا يختص بداود وحده بل يشترك معه ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام .

قال المفسرون : ان حرثا — أى زرعا أو كرما — تدلت عناقيده نفشت فيه غنم لغير أهله — أى أكلته ليلا — فجاء المتحاكمون الى داود وعنده سليمان فحكم داود بالغنم لصاحب الحرث عوضا عن حرثه الذى أتلفته الغنم برعيها اياه ليلا . فقال سليمان — وهو ابن احدى عشرة

سنة — غير هذا أرفق . فأمر بدفع الغنم الى أهل الحرث فيستفعون بألبانها وأولادها وأشعارها. والحرث الى أمل الغنم يقومون عليه حتى يعود الى ما كان ثم يترادان .

قال البيضاوى (والأول) نظير قول أبى حنيفة فى العبد الجانى . (والثانى) مثل قول الشافعى بغرم الحيلولة للعبد المغصوب اذا أبق . وحكمه فى شرعنا عند الشافعى : وجوب ضمان المتلف بالليل ؛ اذ المعتاد ضبط الدواب ليلا . وكذلك قضى النبى صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطا وأفسدته ، فقال « على أهل الأموال حفظها بالنهار ، وعلى أهل الدواب حفظها بالليل » وعند أبى حنيفة : لا ضمان الا أن يكون معها حافظ .

(الثانى) قالوا ان داود جزأ أزمانه يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للوعظ ويوما لخاصة نفسه ، فتسور عليه ملائكة فى صورة الناس فى يوم الخلوة والاحتجاب — والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه — ففزع منهم فقالوا له لا تخف نحن فوجان مختصمان (بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط) تجر فى الحكم (واهدنا الى سواء الصراط) وهو العدل (ان هذا أخى) فى الدين والصحبة (له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) وهى الأنثى من الضأن وقد يكنى به عن المرأة (فقال أكفلنيها) أى ملكنيها (وعزنى فى الخطاب) أى غلبنى فى الحجة أو فى خطبة المرأة . فأجاب داود قائلا (لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه) منكرا فعل خليطه ومهجنا طمعه (وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) أى قليل وجودهم وكأنه يتعجب لقلتهم (وظن داود أنما فتناه) ابتليناه بالذنب وامتحناه بتلك الحكومة ليتنبه (فاستغفر ربه) لذنبه (وخر راكعا وأناب) الى الله بالتوبة . ولعل داود رأى أنه أسرع بالحكم قبل سؤال المدعى عليه ، وعلم أنه تجاوز الحق بذلك (فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) وهو أحد الآراء التى تحمل عليها الآية وهو حسن .

قال البيضاوى : وأقصى ما فى هذه القصة : الاشعار بأنه عليه السلام ود أن يكون له ما لغيره ، وكان له أمثاله فنبهه الله بهذه القصة ؛ فاستغفر وأناب . وما روى أن بصره وقع على امرأة فعشقها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان — ان صح — فلعله خطب مخطوبته أو استنزاه عن زوجته وكان ذلك معتادا فيما بينهم ؛ وقد واسى الأنصار المهاجرين بمثل هذا . وما قيل انه أرسل « أوريا » مرارا الى الحرب وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها ؛ هزء وافتراء . ولذلك قال على رضى الله عنه من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين .

أقول ان المائة والستين حدا قذف . وكأنه رضى الله عنه أراد أن يحده حد القذف ، والثانى تغليظ لأن المقذوف نبى أما مواساة الأنصار للمهاجرين بنحو هذا ؛ فمبلغ علمى أن سعد بن الربيع عرض على عبد الرحمن بن عوف أن يطلق احدى زوجتيه ليتزوجها عبد الرحمن فأبى. وحاصل ما يفهم من هذه القصة أن داود عليه السلام كان يرى بعض الأشياء عند غيره فيستحسنها ،

وتقع من نفسه موقعا ، ويتمنى لو كانت له . وهذه الأشياء أعم من أن تكون امرأة أو سواها . وهو لا يريد بذلك أن يكون له الشيء الا من وجه حل طبعا . فأراد الله تعالى أن ينبهه على القناعة بما عنده من أمثال ما يستحسن مما أنعم الله به عليه . فأرسل الملكين بهيئة متخاصمين ، فلما أفتاهما وتحقق بعد ذلك أنهما ملكان ظن أن الله تعالى ابتلاه وأنهما معاتبان فى الواقع . وليسا بخصمين ، فاستغفر الله تعالى وأناب اليه . وأولى منه أن يكون ندم على الحكم قبل سؤال المدعى عليه — كما قدمنا — هذا هو الذى ينبغى المصير اليه وهو اللائق بمقام داود الذى يقول الله تعالى فيه (نعم العبد انه أواب) ويقول أيضا (وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) ويقول أيضا (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وبعيد من الحكمة أن يكون الحكيم فاسقا قاتلا من غير حق ولا برهان .

بقى أن القول الذى نقلناه عن البيضاوى وفرض صحته ، وهو احتمال أنه خطب على خطبة رجل آخر أو طلب اليه أن ينزل له عن زوجته . وان ذلك كان سائغا عندهم . انما هو قول تلطف به المسلمون . وأما أهل الكتاب فانهم يقولون : ان داود نظر وهويمشىعلى سطح داره الى امرأة تستحم فأعجبته وأغرم بها ، وأتى بها واضطجع معها فحملت منه وأعلمته ، وكان زوجها « أوريا الحثى » فى الحرب فأتى به ليسأله عن أمر الحرب فى الظاهر ، وليحدث الرجل بامرأته عهدا حتى لا يرتاب بأمرها اذا علم فيما بعد أنها حامل ، ولكن الرجل كان تقيا جدا ، فبات بباب داود ولم يزر امرأته . لأنه رأى من عدم التقوى أن يتمتع بزوجه واخوانه فى الحرب بعيدون عن أزواجهم . فلما علم داود بأمره لم ير وسيلة لعدم افتضاح أمره الا تعريض أوريا لجبهة القتال حاملا الراية ، وأن يتأخر عنه الجند بعد التقدم ، وبهذه الوسيلة قتل الرجل ، وأتت امرأته بولد من تلك الزنية ! وتزوجها داود . ثم مرض الولد فحزن داود لمرضه حزنا شديدا حتى لا يقدر أحد على تسرية همه . ثم مات الولد . ومن هذه المرأة كان سليمان . وكل هذا منهم كذب وافتراء ! وانى أرد كذبهم بالشهادات الحسنة التى شهدت بها كتبهم لداود .

ففى سفر صمويل الثانى فى الاصحاح الثانى والعشرين يقول داود « يكافئنى الرب حسب برى حسب طهارة يدى يرد على لأنى حفظت طرق الرب ولم أعص الهى ، لأن جميع أحكامه أمامى فرائضه لا أحيد عنها » .

وهذا السفر يقرون أنه كتب بالهام ، وهو واجب التسليم وكل ما فيه صدق عندهم ، ومحال أن يكون الزنا من البر واتباع وصايا الله والمحافظة على شريعته .

وفى الاصحاح الثالث من الملوك الأول « فقال سليمان : انك قد فعلت مع عبدك داود أبى رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك ، فحفظت له هذه الرحمة

العظيمة وأعطيته ابنا يجلس على كرسيه كهذا اليوم » فهل من البر والاستقامة أن يكون زانيا قاتلا ؟

وفى الاصحاح السادس من أخبار الأيام الثانى قول الله لداود «ان يكن بنوك طرقهم يحفظون حتى يسيروا فى شريعتى كما سرت أنت أمامى » فهل يريد الله لأبناء داود الذين يقويهم ويملكهم أن يكونوا كداود زناة قتلة ؟ وهل هذا الوصف مما يكافىء الله عليه بحفظهم وتشديد ملكهم ؟ ويكون ذلك حفظا للشريعة ؟

وفى سفر الملوك الأول قول الله ليربعام بن ناباط عن سليمان اصحاح ١١ (٣٤) ولا آخذ المملكة من يده لأجل داود عبدى الذى اخترته الذى حفظ وصاياى وفرائضى (٣٨) فاذا سمعت لكل ما أوصيك به وسلكت فى طرقى وفعلت ما هو مستقيم فى عينى وحفظت فرائضى ووصاياى كما فعل داود عبدى أكون معك وأبنى لك بيتا آمنا كما بنيت لداود وأعطيك اسرائيل .

وكانت مدة ملك داود أربعين سنة . منها سبعة أعوام وهو ملك فى « حبرون » لسبط يهوذا وحده . ولاسرائيل كلهم : ثلاث وثلاثون سنة ملكا لجميع اليهود فى صهيون . وجعل ابنه سليمان ولى عهده قبل أن يموت ومات وهو شيخ كبير جدا .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة البقرة : أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [٢٤٦] وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٢٤٧] وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٢٤٨] فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً

بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [٢٤٩] وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [٢٥٠] فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ [٢٥١] .

الزبور

ذكر الزبور فى الآيتين الآتيتين من القرآن الكريم :

سورة النساء : وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ..... [١٦٣] .

سورة الاسراء : وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا [٥٥] .

هبة سليمان لداود

سورة ص : وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [٣٠] .

حكمة داود

تسبيح الجبال والطير معه واشتغاله بعمل الدروع

سورة الأنبياء : وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ [٧٨] فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ [٧٩] وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ [٨٠]

سورة سبأ : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ [١٠] أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [١١] .

سورة ص : اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ [١٧] إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ [١٨] وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ [١٩] وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ [٢٠] .

سورة النمل : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ [١٥] وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ [١٦] .

ما يتعلق بالفتنه من القرآن

سورة ص : وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ [٢١] إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ [٢٢] إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ [٢٣] قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ [٢٤] فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ [٢٥] يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [٢٦] .

مكان العبرة من قصص داود

أولا : أن داود عليه السلام اختاره الله تعالى ليفعل العجائب بيده ، ولم يكن من أهل تلك الأفعال لأنه كان غلاما راعيا للغنم ، فقتل الله تعالى بيده جالوت الجبار الذى تحامته الأبطال ، ولم يقاتله بسيف ولا رمح ، ولم ينزل اليه بدرع ولا ترس ، وانما قتله بحجر أرسله من المقلاع فكان ذلك أدل على قهر الله تعالى للجبابرة بأحقر الأشياء على يد أضعف العباد .

ثانيا : أن الشخص الضعيف لا ينبغى له أن ييأس من النجاح واحراز أسباب الفلاح ما دام معتصما بأسباب التقوى والشكر لنعم الله تعالى .

ثالثا : أن انتصار داود على جالوت لم يغير من طباع داود ولم يذهب به مذهب أهل الكبرياء ، بل لم يزده هذا الأمر الا تواضعا ، وكان الله يرفعه درجات كلما تواضع وشكر .

رابعا : أن طاعة الله تعالى وشكر نعمه مما يوجب المزيد منها . فان الله تعالى لما رأى طاعة داود وشكره زاده من نعمه ، فألان له الحديد وعلمه صنعة الدروع المسرودة لتحصن الناس من البأس ، وأنعم عليه بولده سليمان الذى ورثه ملكه وعلمه وحكمته .

سليمان عليه السلام

في سبع سورة

ذكر سليمان فى القرآن ست عشرة مرة فى الآية : ١٠٢ من البقرة ، وفى ١٦٧ من سورة النساء ، وفى ٨٤ من الأنعام ، وفى ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ من الأنبياء ، وفى ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٣٦ ، ٤٤ من النمل ، وفى ١٢ من سبأ ، وفى ٣٠ ، ٣٤ من ص . وقد جاء فى القرآن كثير من الآيات فى نعم الله المترادفة عليه وعلى أبيه ، وهى لا تكون كلها قصة تسرد من أولها الى آخرها ، وانما هى مواقف أنعم الله عليه فيها وأظهر فضله . ونحن أولاء نثبتها هنا .

الأول : أن الله منحه الذكاء واصابة الحكم منذ صباه . تدل على ذلك قصة الحرث الذى نفشت فيه غنم غير أهله ، فقد وفق الى الحكم الأقوم ، وقد تقدمت . وقد ذكر فى القرآن فى قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال) . وهذه القصة لم تذكر فى كتب أهل الكتاب .

الثانى : أن الله تعالى علمه منطق الطير « المنطق والنطق : كل لفظ يعبر عما فى الضمير » والأصوات الحيوانية من حيث انها تابعة للتخيلات فى منزلة العبارة « ولا سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما هو من جنسه .

قال البيضاوى : ولعل سليمان مهما صوت حيوان علم قوته الحدسية التخيل الذى صوته والغرض الذى توخاه به ! ومن ذلك ما حكى أنه مر ببلبل يصوت ويترقص فقال يقول « اذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء » وصاحت فاختة فقال : انها تقول « ليت الخلق لم يخلقوا» فلعل صوت البلبل كان عن شبع وفراغ بال . وصياح الفاختة عن مقاساة شدة وتألم قلب اهـ .

والذين لهم مراقبة للحيوان والطير يجدون أصواتها تتكيف بكيفيات مختلفة باختلاف حاجاتها ومطالبها . فمواء الهرة المحبوسة غير موائها اذا طلبت السفاد والطعام أو الماء . فلكل صوت كيفيات ونبرات ليست فى الصوت الآخر يفهمه عنها أبناء جنسها . وقد أخبرنى صديقى الشيخ أحمد عمر السكندرى : أن أطفالا ألقوا فى بيته حدأة بعد أن عبثوا بها ونهكوا قوتها ورضوا بعض عظامها ، فألقاها أولاده فوق السطح ، فكان يصدر عنها صوت خاص كلما رأت الحدأ ، فكن يحمن عليها وفى كل يوم يلقين اليها بعض الطعام من عظام بها بعض اللحم وأرجل دجاج ونحوه مما يرزقهن الله . وكان أولاده يقدمون لها الماء وبعض الأكل الى أن أبلت وقويت وطارت .

وعلى كل فادراك كل صوت من الطير وما يقصد به لم يكن الا هبة من الله تعالى يختص بها من يشاء من عباده وقد وهبها سليمان (١) .

اقرءوا قوله تعالى فى سورة النمل :

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ [١٥] وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ [١٦]

والمراد بقوله « من كل شىء » كثرة نعم الله تعالى عليه ، ومنها تعليمه كلاما لا يعلمه سواه . وهذه المنحة لم تذكر فى كتب أهل الكتاب ، وانما يذكرون أن سليمان كان عظيم الحكمة ، ولذلك يسمونه سليمان الحكيم ، ولا يلقبونه بالنبى أصلا .

الثالث : تسخير الرياح له يصرفها بأمره كما يصرف الانسان عنان دابته وكانت تسير وقت الغدوة مسيرة شهر ومثلها فى وقت الرواح .

يقول المفسرون : ان سليمان كان له نحو البساط من الخشب له ألف ركن ، فى كل ركن ألف بيت يكون فيها جند سليمان من كل صنف ، وتحت كل ركن ألف جنى يحملون ذلك الشىء الخشبى حتى يرتفع فى الجو ، وحينئذ تسير به الريح وكان يخرج من القدس فيقيل فى اصطخر ، ثم يبيت بخراسان (٢) .

---

(١) نشرت جريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم الاحد ٤ فبراير سنة ١٩٣٧ ما يلى :

« لغة الطير »

كشف عالم المانى — بعد ملاحظات دقيقة وصبر طويل — أثرا لم ينتبه اليه احد قبله وهو ان الطيور لا تصدح فقط ولكنها تتكلم . ولها على مثال البشر لهجات خاصة .

مثال ذلك : ان الشحرور النمساوى لا يفهم لهجة الشحرور البافارى والشحرور الفرنساوى لا يفهم لهجة الشحرور الانكليزى .

(٢) نشرت جريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٣٨ المقالة الآتية :

هل عثروا على أسطول سليمان

الذى يرجع عهده الى ألف سنة قبل المسيح

جاء فى سفر الملوك ، أحد أسفار التوراة ما خلاصته :

« وبنى الملك سليمان سفنا فى « عصيون جابر » التى بجانب أيلة عند شاطىء بحر القلزم فى أرض أدوم »

وقد انقضى تسعة وعشرون قرنا على ذلك الحادث .

وفى هذه الأيام جاءت برقية فى ١٦ مايو ١٩٣٨ من بلدة نيوهافن بولاية كونكتيكوت احدى الولايات المتحدة ، فحواها : أن الأستاذ « ميلار بوروس » رئيس المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية اذاع أن الدكتور نلسن غلوك مدير فرع تلك المدرسة فى بيت المقدس كان على رأس البعثة التى كشفت ثغر عصيون جابر ، وهو ثغر يرتقى عهده الى ثلاثة آلاف سنة .

وأقول : تحريك الريح لأى شىء عظيم ليس ببعيد .

ومسير الريح هذه المسافة شىء ضئيل فى قدرة الله تعالى . ولكن الذى أريد الحصول عليه هو وقوع ذلك بالفعل والدليل عليه . فانى لم أجد ذلك فى القرآن ، ولا أدرى لم ذهب سليمان

= وقال الدكتور غلوك أنه عثر على ادلة تبين أهمية عصيون جابر كمركز تجارى للنحاس ومصنع لانشاء السفن قبل الميلاد بألف سنة .

حلم سليمان

ورأى سليمان « يهوه » ربه فى الحلم ، فقال له : « أطلب ما أعطيناك » .

فقال المليك الشاب : « يهوه » ياالهى أنك ملكت عبدك مكان داود أبى ، وانا غلام صغير السن ، لا أعرف أن أخرج وأدخل ، فأجابه الرب : هأنذا قد أعطيتك قلبا حكيما فهما حتى أنه لم يكن قبلك مثلك ولا يقوم بعدك نظيرك ، وأيضا ما لم تسله قد أعطيتك اياه الغنى والمجد » .

وغمر اليسر والاقبال الأمة ومليكها ، وأصاب ابن داود « الطيبوما » اى الدهاء فى العمل الذى كانت الأمثال تضرب عن رغبة الناس فيها أكثر من رغبتهم فى الحكمة أو المعرفة النظرية .

وبما أن الحكمة تجلب الغنى ، فان الملك شيد القصور وغرس الكروم ، وانشأ الحدائق فكانت كفردوس الجنان .

وكان وزراؤه يشغلون المناصب على الترتيب التالى : قيم القصر ، ورؤساء الأسباط الاثناعشر ، ومستشار الدولة فى الأشغال العامة ، وقائد الجيش ، والمستشار الملكى الخاص ، وكانوا يتنافسون فى الاسراف واظهار العظمة ، ومع ذلك الاسراف كان الشعب راتعا فى بحبوحة الرخاء والهناء .

وكان الملك يستقبل فى قصره المشيد بالمرمر على أكمة فى ظلال اشجار النخيل — الوفود الأجانب الذين كانوا يحترمون فضائله ويتهيبون حكمته وارسل اليه حرام ملك صور ألغازا وأحاجى فحلها الا أن الألغاز والأحاجى التى أرسلها اليه الملك سليمان لم يستطع حلها ، فكبر عليه ذلك الأمر ولكنه كان داهية فأرسل اليه سميه حيرام رئيس البنائين وشرع حيرام هذا فى بناء الهيكل على جبل الموريا وكان العمال يحسدونه على النعمة التى أسبغها عليه الملك سليمان، فقاموا عليه وقتلوه، وكان قد ألقى فى قلب سليمان الحكيم حب البناء ، وجعله يعتقد ان تشييد الأبنية الثابتة رمز العظمة ، وأقنعه أيضا بأن ثمة مبانى أخرى متنقلة ومصنوعة من خشب الارز تشق العباب وترتاد أقاليم شاسعة مجهولة ، لا تقل فى العظمة عن المبانى الثابتة .

وبعد ما فرغ سليمان الملك من تشييد تلك المبانى انصرف الى اقتناء الجياد المطهمة ، فكان يجلس كل يوم فى المركبة الحربية ويخرج الى التنزه على مرأى من الشعب ، يحف به فرسان حسان المنظر .

الا أنه ما لبث أن تبرم من ذلك ، وقد خطر له أن يبهر الابصار بسناء لم يألفوه فتسقط التجار عما يعرفونه من البدائع فى قصور بلاد فارس وكنوز ملوك الهند ، والنباتات النادرة الجميلة التى شاهدوها فى الشرق الأقصى ليجلبها الى « أورشليم » ويزين بها قصوره .

قافلة الكنوز — واخذ سليمان يعمل فكرته فأنتجت له أن انتصارات اليهود على عماليق وسعير حررت من النهابين البلاد الممتدة من حدود يهوذا الى بلاد أدوم الى أيلة وعصيون جابر ، على شواطىء ذلك البحر الذى سكن هائجه فى غابر الحين أمام الشعب المختار .

ففى ميناء عصيون جابر « ومعناه بالعبرية العمود الفقرى للجبار » عزم سليمان ، بمشورة حيرام ، أن ينشىء مصنعا لبناء أسطول عظيم الحول والطول لم يسبق له مثيل ، وسمى ذلك الأسطول باسم « أسطول ترشيش » =

الى اصطخر ثم الى خراسان ؟ وليستا من ملكه واذا ذهب زائرا لملوك تلك البلاد فأى داع الى أخذ الجند الذين لا يقل عددهم عن مليونين ؟ وكيف يسمح الملوك لملك زائر بادخال الآلاف المؤلفة من الجند الى ممالكهم ؟ واذا كان سليمان لم يعلم بمملكة سبأ وملكتها حتى هداه الهدهد الى ذلك ! فكيف يترك اليمن التى فى متناول يده ويذهب الى اصطخر ثم الى خراسان ؟ ولم لم يكن ذلك الى مصر ومصر أقرب البلاد اليه ؟ هذا وبعض المفسرين يقدر مسير الريح بشهر ؛ أى بمسير الذاهب للتنزه بحيث يكون سيره فى اليوم فرسخا أو تسعين ميلا فى الشهر . ولما كان الفرسخ البرى ٤٤٤٤ مترا كان مدى غدوة الريح فى الشهر ١٣٣و٣٢٠ ك وهو مقدار ضئيل .

نعرف أن متوسط سرعة الريح المعتدلة ما بين ٤٠ الى ٥٠ كيلو مترا فى الساعة . فاذا كانت الغدوة ست ساعات فقط ، وجب أن تكون المسافة نحو ٣٠٠ كيلو مترا فى اليوم غدوا وهو شىء قليل . ولعل الذى حداهم الى ذلك أنهم حسبوا السير المعتدل للابل فوجدوا أنها تقطع فى الشهر ٣٠ × ٤٢ = ١٢٦٠ كيلو مترا . فاذا فرض سير الريح فى الغدوة ست ساعات ، كان ما تقطعه الريح فى الساعة ١٨٠ كيلو مترا . وهذا انما يكون فى وقت العواصف الشديدة . لذلك عدلوا عن القول بذلك الى كون الشهر بسير الشخص الطالب للنزهة ! وقد فاتهم أن الله تعالى قال :

= وتولى الفينيقيون تدريب العبرانيين فى الملاحة ، فان أولئك البحارة التجار البارعين فى خوض البحار حتى داخل المحيط الذى لا نهاية له علموا الكنعانيين أصول الملاحة . واختص سبطا زيولون ودان من بين الاسباط الاخرى ، باقتناء الزوارق ولذلك كان عندهم رجال تعودوا التمرس بالبحر للصيد ، فقدموا بحارتهم لخدمة الملك سليمان .

واكتمل أول أسطول لاسرائيل فى خلال سنتين ، وحينئذ أخذ يمخر البحر حتى وصل الى مصاب نهر السند ، متحديا فى السير المنهاج الذى كان أهل صور يسيرون عليه ، وكان ينقل الى الهند زجاج فينيقية المنقطع النظير والأرجوان ومنسوجات مصرايم وبلسم جلعاد .

وشاهد الكنعانيون بلاد العرب ومصر ونوتيا وبلاد كوش التى تتخذ المرأة فيها ثلاثة ازواج ووصلوا الى بلاد أوفير الفتانة والى مصاب نهر السند . وكانوا يقايضون بالسلع التجارية ــ التافهة القيمة ــ التبر الذى يجدونه عند تلك الشعوب .

وعاد الأسطول بعد ما غاب ثلاث سنوات مثقلا بالكنوز التى جلبها من تلك الأصقاع الشاسعة فى عصيون جابر ، ونقل ما جاء به على ظهور الجمال الى بلاد كنعان .

وشاهدت ابيجابل ، واخواتها المنشرحات الصدور والمتحليات بكل ضروب الزينة ، على مثال عروس نشيد الانشاد ، موكبا فخما يدخل اورشليم وكانت القافلة تجلب ٤٢٠ قنطارا من الذهب ومثلها من الفضة ، فذوبها الصاغة وحولوها الى « عيارات » لوزن الحنطة وكان على ظهور تلك الجمال والهجان خلائق غريبة الشكل مفشاة بالشعر لم يكونوا قد شاهدوا أمثالها قبلا ، ولم تكن تلك الخلائق الا القردة بعينها .

ومما زاد دهش العبرانيين تلك الطيور التى تفوق ببهائها عظمة سليمان وبلاطه ، ولم تكن تلك الطيور الا الطواويس ، وكان فى جملة الأشياء التى جلبوها من الديار السحيقة خشب الصندل فانهم صنعوا منه القياثير للترنم بمدائح الأزلى .

هذا ما تعيده الى الأذهان فى ١٩٣٨ قطع من لعشب وجدوها بين الصحراء والبحر وقد عبثت بها يد الاجيال التى مرت عليها .

(فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) وفى آية أخرى (ولسليمان الريح عاصفة تجرى الى الأرض التى باركنا فيها) أى أن الريح العاصفة تجرى بأمره رخاء ؛ فهى فى هـذه الحالة تقطع مثل ما تقطعه وهى عاصفة . وبعد هذا ؛ فهـل من لوم على من يقول : ان الريح كانت مسخرة لسليمان يصرفها تجرى بأمره رخاء فيأمرها بأن تهب فى هـذه الناحية لاحتياج أهلها الى الريح الرخاء للانتفاع بها فى زرعهم ومعاشهم أو فى تزجية السفن تصل الى المرافىء سالمة ؟ وبذلك يندفع ما قد يقال ؛ وما فائدة تسخير الريح اذا لم تحمله وجنوده الى مسافات بعيـدة .

لو أن القائلين ببساط سليمان — الذى تحمله الريح — اقتصروا به على عشرة أذرع فى مثلها أو عشرين ذراعا فى مثلها أو مائة ذراع فى مثلها ؛ لكان الأمر معقولا مقبولا . أما وهـم يقولون : ان فيه ألف ركن فى كل ركن ألف بيت فانهم يجعلون له من السـعة وترامى الأطراف ما لا يقبله تصور . بل لم يكن فى ملك سليمان كله ما يكفى لشغله من الجند — اذ جعلوا به مليونا من البيوت للجند — فاذا كان بالبيت الواحد جنديان فقط كان به مليونان من الجند . ولا يصح أن يكون قد خلف من الجند أقل منهم لحمـاية البـلاد . فتلك أربعة ملايين . فاذا كانوا عشر السكان وجب أن يكون السكان أربعين مليونا وهو عـدد لا يمكن أن تسـكن فلسطين ولبنان وسوريا بنصفه أو بربعه .

ويكون البساط فى مساحة أكبر من مائة كيلو متر مربع ، ومحال أن تجد فى فلسطين مكانا مستويا يستقر عليه هذا البساط فضلا عن البلاد التى ينتقل اليها على غير استعداد ! وهذه مدينة بيت المقدس ليس فيها مكان مقداره عشرة أمتار فى خمسين يوجـد مستويا أصلا . فأين كان سليمان يبسط بساطه ؟

على أن سليمان كانت أسفاره مع جنوده على الأرض لا على متن الريح — كما يقولون — وهذا القرآن الكريم يقص علينا قول النملة حين مر بجنده على وادى النمل اذ قالت (يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) وما كان سليمان وجنـوده ليحطموا النمل وهم على بساط الريح الذى يزعمون !

ان مملكة سليمان وداود لم تمتد الى أكثر من خليج أيلة وفلسطين وشرق الأردن ولبنـان وسوريا الى شط الفرات فقط .

وهذا المقدار لا يحتاج فى السفر الى الشهور بل يحتاج الى أيام ، فما كان فى حاجة الى بساط تحمله الريح ولم يكن له من الجند ما يتلاءم مع مقدار البساط ؟ فهذا ابن خلدون يقول : ان مبلغ خيله لم يزد على اثنى عشر ألف فرس . ومثل ذلك فى كتب الأنبياء .

وعلى كل ؛ فهذا البساط بهذا المقدار انما هو أسطورة تكفل برواجها تبرع الناس بحمل

كل ما للأنبيـاء صـلوات الله عليهم عـلى الغرابة وعدم السير على السنن الطبيعي ! وحبهم للتزيد على ما منحهم الله اياه من غرائب المعجزات . ونحن نقر بالمعجزات والعجائب التى منحها الله لأنبيائه مما جاء به نص قطعي الثبوت والدلالة ، ولكنا لا نبذر فيها ولا نسرف .

واعلموا أن اثبات معجزة لنبى — لم تكن — كذب عليه يساوى اثمه انكار معجزة ثابتة .

الرابع : سليمان والصافنات الجياد .

ذكر هذا الموقف فى سورة ص فى قوله تعالى : (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب . اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد : فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق) ويقول بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية : ان سليمان عرض عليه خيل جياد — فى وقت العصر — فألهاه ذلك عن صلاة العصر ؛ فغضب لذلك وطلب من الله أن يرد عليه الشمس بعد غروبها ليصلى العصر حاضرا ، فردت ثم غضب على الخيل التى كانت سببا فى فوت الصـلاة فقطع أعناقها وسـوقها . وان الضمير فى قوله (حتى توارت) وفى قوله تعـالى (ردوها) للشمس المفهومة من قوله (بالعشى) ومعنى (أحببت حب الخير عن ذكر ربى) أنه أحب هذه الخيل معرضا عن ذكر ربه وهو الصلاة . وهذا التأويل وما تضمنه أراه بعيدا ! بل أراه بعيدا بعد المشرقين !

وانى أترك الفخر الرازى يرد عليه فى تفسيره قال : ان هذه القصص انما ذكرها الله تعالى عقيب قوله تعالى : (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وأن الكفار لما بلغـوا من السفاهة الى هذا الحد قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم . (اصبر على ما يقـولون واذكر عبدنا داود .) وذكر قصة داود ثم ذكر عقبها قصة سليمان : وهذا الكلام لا يكون لائقا الا بقولنا : ان سليمان عليه السلام أتى فى هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله وأعرض عن الشهوات واللذات . فلو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذه المواضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر القصة لائقا بهذا الموضع ! فثبت أن كتاب الله تعالى ينادى على هـذه الأقـوال بالرد والافساد والابطال . بل التفسير المطابق للحق ولألفاظ القرآن والصواب : أن نقول ان رباط الخيل كان مندوبا اليه فى دينهم كما أنه مندوب اليه فى دين محمد صلى الله عليه وسلم . فاحتاج الى الغزو فجلس وأمر باحضار الخيل وأمر باجرائها ، وذكر أنه لا يحبها لأمر الدنيا ونصيب النفس وانما يحبها لأمر الله تعالى وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله (عن ذكر ربى) ثم انه عليه السلام أمر باعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب . أى غابت عن بصره . ثم أمر الرائضين أن يردوا تلك الخيل اليه ، فلما عادت اليه طفق يمسح سوقها وأعناقها . والغرض من ذلك المسح أمور :

(الأول) تشريفا لها وابانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان لدفع العدو .

(الثانى) أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك متضع الى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه .

(الثالث) أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ؟ فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق انطباقا مطابقا موافقا ، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات الى سليمان عليه السلام ·

ثم قال الرازى : وأنا شديد التعجب من الناس ! كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن النقل والعقل يردانها ؟ وليس لهم فيها شبهة فضلا عن حجة . وقد أطال الفخر الرازى فى الرد على من يقول خلاف هذا · وهذا الموقف ليس فيه عند أهل الكتاب كلام أصلا .

(الخامس) فتنة سليمان والقاء الجسد على كرسيه [1] .

جاء فى القرآن الكريم فى سورة ص (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب .

---

(١) نقد اللجنة « الموضوع الحادى عشر »

فتنة سليمان والقاء الجسد على كرسيه

بعد أن ذكر فى هذه الفتنة ما يقوله أهل الحشو وضعفه ورد عليه كما رد عليه المفسرون قبله وذكر أن الفخر الرازى فى تفسيره أبدى لتفسير الآية الواردة فى هذه الفتنة وجوها وذكر احسن الوجوه قال ما نصه ــ صفحة ٣٢٥ سطر ٤ ــ

اقول وعندى وجه لم يذكره احد من العلماء ، وهو أن كرسى داود انما هو كرسى سليمان ، لان داود كان يرشح سليمان للملك والجلوس على كرسيه . وقد قام « أبشالوم » ابن داود وثار على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسى الذى هو فى الواقع كرسى سليمان ، وهرب منه داود الى شرق الأردن ، وسرح الجيوش لمقاتلته وباشر ابشالوم الحرب بنفسه فقتل ابشالوم ، اذ مر به بغله تحت بطمة فتعلق فى اغصانها من شعره ، فأتى رئيس الجند « يوآب » وقتله ، وعاد سليمان الى كرسيه بعد أن تزعزع بفعل أخيه ابشالوم وتضرع الى الله وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده .

لا شك فى ان سليمان فى تلك البرهة كان يعتقد اعتقادا جازما ــ لا شك فيه ــ ان الكرسى الملكى افلت من يده ولا راد له سوى الله تعالى فاستغفره تعالى لما قد أسلف من هواجس نفسية ــ لايخلو منها من كان مثله فى سن الصبا ــ من زهو بذلك الكرسى الذى ينتظره ، والملك العريض الذى سيكون بيده صولجانه . فامتحنه الله تعالى بمن اغتصب ذلك الكرسى وتسرب الى نفسه دبيب اليأس ، فاستغفر سليمان ربه لتلك الهواجس التى تعد على المقربين ذنوبا ــ وهى غير ذنوب ــ واناب اليه ضارعا أن يهب له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فآتاه الله ذلك الملك بعد وفاة أبيه داود الذى كان قد بلغ من الكبر عتيا . الى أن قال : واما ما روى أنه عزم على الطواف على سبعمائة أو سبعين من نسائه فى ليلة واحدة ، فتاتى كل واحدة منهن بولد يجاهد فى سبيل الله ولم يقل (ان شاء الله) فعاقبه الله بأنهن لم يحملن كلهن الا امراة واحدة جاءت بشق انسان،فجيء اليه به وهو على كرسيه ووضع فى حجره ! فبعيد اذ قدرة الانسان تعجز عن الطواف بسبعمائة امراة أو سبعين فى ليلة واحدة والليلة لا تسع ذلك اصلا مهما قدرت حظا صغيرا لكل امراة من الزمن . ولم يجعل الله تعالى معجزة الأنبياء فى الفساد وغشيان النساء ومسابقة الحيوان فى هذا الضرب ، ولا يوجد متحد بمثل هذا حتى تتم المعجزة فالمعول عليه ما اوردنا ــ فيما سبق .

أما قولهم ان السبب فى عدم اتيان النساء بالاولاد عدم قوله (ان شاء الله) فعجيب لأن هذه اللفظة لا يقصد بها الا التعبد لا انجاح المطالب ؛ فقد قال موسى للعبد الصالح (ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) ولم يصبر . ا هـ كلامه .

قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب) يقول أهل الحشو ومن لا يبالون بأن يأتوا فى تفسير كتاب الله تعالى بكل ما يتخيلون من الحكايات المصطنعة : ان سليمان بلغه خبر مدينة (١) اسمها صيدون بجزيرة فى البحر ، فخرج اليها بجنوده تحمله

(١) يقول المفسرون عن المدينه انها صيدون . وصيدون هى مدينة سيداء وليست جزيرة ، وانما هى بين بيروت وعكا . وهو لا يحتاج فى حربها الى عناء . وقصاراه أن يرسل اليها بعض جنده فينال مأربه منها .

«راى اللجنة »

والذى نراه أنه فى هذه الفتنة أبدى وجها لم يذكره احد من العلماء – كما قال – وهو باطل أو بعيد . وانكر حديثا صحيحا واستبعد حصول مضمونه .

اما الوجه الذى أبداه فيتوقف أولا : على صحة قصة ابن داود بالكيفية التى ساقها فى كتابه ، وثانيا على أن داود أصدر مرسوما ملكيا بولاية العهد لابنه سليمان عليهما السلام ، وأن سليمان زها بذلك واخذه العجب ، وان التعدى الذى حصل من أخيه ابشالوم على أبيه داود حتى نحاه عن كرسى مملكته وجلس عليه انما هو انتقام منه ؛ اى من سليمان على هذا الزهو والعجب ، ودون اثبات هذه الأمور خرط القتاد . بل نستطيع القول بأن الواقع عدمها . أما قصة ولد داود بهذا السياق الذى ذكره فى كتابه فلم نعثر له فيها على سلف ، وقد ظننا أن مرجعه فيها التوراة لكثرة اعتماده عليها فى أمثال هذه الآراء فراجعناها فوجدنا سياقها فى هذه القصة مخالفا لما ذكره .

وانا نذكر عبارة ابن الأثير فى تاريخه ثم خلاصة ما فى التوراة :

قال ابن الأثير فى الجزء الأول ما نصه : ووثب عليه ابن له يقال له ايشا وأمه ابنة طالوت، فدعا الى نفسه فكثر أتباعه من أهل الزيغ من بنى اسرائيل ، فلما تاب الله على داود اجتمع اليه طائفة من الناس فحارب ابنه حتى هزمه . ووجه اليه بعض قواده وأمره بالرفق به والتلطف – لعله يأسره ولا يقتله – وطلبه القائد وهو منهزم فاضطره الى شجرة فقتله فحزن عليه داود حزنا شديدا وتنكر لذلك القائد ا هـ .

وخلاصته أن ابنه خرج عن طاعته ودعا الى نفسه فوافقه بعض أهل الزيغ فحاربهم داود وهزمهم وقتل ابنه فى تلك الحرب . وليس فيه أن داود أخلى كرسى المملكة وهرب فجلس عليه ابنه !

وخلاصة ما ذكر فى التوراة فى الاصحاحين السابع عشر والثامن عشر من سفر صموئيل الثانى: ان شخصا اسمه أخيتوفيل اشار على ابشالوم بن داود بالهجوم على ابيه باثنى عشر ألف رجل ، فاستشار ابشالوم شخصا آخر اسمه حوشاى فقبح له مشورة أخيتوفيل وخوفه من بأس والده وبعد ان ثبط حوشاى عزيمة ابشالوم اخبر داود بهذه المؤامرة بواسطة شخصين ، فقام داود وجمع الشعب وعبروا نهر الاردن فتبعهم ابشالوم ومن معه فتقابل الجيشان واقتتلا وهزم جيش ابشالوم وقتل الخ . ا هـ .

فليس فيها أن ابشالوم ثار على والده ، وأن داود هرب وجلس ابشالوم على كرسى المملكة ! وأما الأمر الثانى بجميع انواعه فواضح البطلان ، خصوصا وأن سليمان كانت سنه حين وفاة والده ثلاث عشرة سنة – على ما ذكره المفسرون والمؤرخون – ويجوز أن تكون حادثة أخيه مع أبيه قبل وفاة ابيه بمدة ، وحينئذ يكون صغيرا لم يصل الى حد التكليف ، فلا معول على زهوه وعجبه ، على فرض حصوله . على أن مثل هذه الخواطر النفسانية ليس من شأنها أن يترتب عليها مثل هذا الأمر العظيم .

وبعد ذلك ، يحتاج على هذا الراى الى التجوز فى اضافة الكرسى اليه وفى التعبير عن أخيه بالجسد وليس فى الكلام قرينة عن هذا التجوز ! بل التركيب ينبو عن افادة مثل هذه المعانى .

ولا يجوز مخالفة جميع ائمة التفسير لمثل هذه التكلفات بل التعسفات التى ليس لها أساس .

الرياح فدخلها وقتل ملكها ، وأخذ بنتا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجها ، فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكي على أبيها أبدا ، فأمر سليمان فمثل لها صورة أبيها فكستها بمثل كسوته ، وكانت تذهب الى هذه الصورة بكرة وعشيا مع جواريها يسجدون لها ، فأخبر آصف آسف

= هذا : وقد ابدى المفسرون فى هذه الفتنة احتمالات ـ بعد أن ابطلوا ما يقوله اهل الحشو ـ اختار منها العلامة ابو السعود وتبعه الالوسى ما ورد فى الحديث الصحيح الذى انكره ، وكذلك اختاره صاحب المواقف وعبارة ابى السعود فى تفسيره (ولقد فتنا سليمان) اظهر ما قيل فى فتنته عليه الصلاة والسلام ما روى مرفوعا أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل (ان شاء الله) فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون ا هـ .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين رواه البخارى ـ سبع مرات ـ رواه مسندا ست مرات ومرة واحدة معلقا . ورواه مسلم فى كتاب الايمان بطرق متعددة . ثم ان الروايات التى ورد بها هـذا الحديث فى البخارى ومسلم وغيرهما مختلفة فى بيان عدد النساء. ومحصلها (ستون . وسبعون . وتسعون . وتسع وتسعون . ومائة) والجمع بين هذه الروايات على ما ذكره الحافظ بن حجر أن الستين كن حرائر وما زاد عليهن كن سرارى أو بالعكس . وأما السبعون فللمبالغة . وأما التسعون والمائة فكن دون المائة وفوق التسعين . فمن قال تسعون ألغى الكسر ومن قال مائة جبره .

واما رواية سبعمائة التى ذكرها مؤلف هذا الكتاب فلم نقف لها على أصل . وحيث صح الحديث فلا وجه لاستبعاد ما جاء به من طواف سليمان على هذا العدد من نسائه فى ليلة واحدة .

على انه فى ذاته ليس ببعيد من مثل سليمان عليه السلام ـ الذى اعترف مؤلف هذا الكتاب بأن له الف امرأة ـ ثم أن للرسل عليهم الصلاة والسلام خصائص فى مختلف الأحوال وكلها عند التحقيق ترجع الى الطاعات والقرب ما يعود على رسالتهم من المصالح . فما ينبغى ان يصور طواف سليمان بمثل ما صوره المؤلف ، فانه يشبه كلام المستشرقين فى حق النبى صلى الله عليه وسلم بالنظر لتعدد زوجاته وطوافه عليهن فى ليلة واحدة !

وأما رده آخر الحديث الشريف بقوله (وأما قولهم ان السبب فى عدم اتيانه بأولاد عدم قوله أن شاء الله فعجيب ..... الخ) فلا ندرى كيف استباح لنفسه مثل هذا الكلام ؟ فقد صح أن هذا القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولفظه (وأيم الذى نفس محمد بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون) فكان ينبغى له أن يقف موقف المذعن المتفهم لا المتعجب المستشكل !

ثم لا يلزم من اخباره صلى الله عليه وسلم بذلك فى حق سليمان فى هذه القصة ان يقع ذلك فى حق كل من استثنى فى أمنيته ، بل فى الاستثناء رجو الوقوع وفى تركه خشية عدم الوقوع . وبهذا يجاب عن قول موسى للخضر (ستجدنى ان شاء الله صابرا) مع قول الخضر له آخرا (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه) صبرا . والله اعلم .

رد المؤلف على نقد اللجنة

« الموضوع الحادى عشر »

فتنة سليمان والقاء الجسد على كرسيه

نصصت فى كتابى جميع ما نقله أصحاب الفضيلة اعضاء اللجنة ولم أزل مصرا عليه . وقد أبدى حضراتهم رأيهم فقالوا « والذى نراه أنه فى هذه الفتنة ابدى وجها لم يذكره أحد من العلماء ـ كما قال ـ وهو باطل أو بعيد .

أقول : قولهم « وهو باطل » باطل . وقولهم (أو بعيد) بعيد .

سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرآة . ثم خرج وحده الى خلاء وفرش الرماد وجلس عليه تائبا الى الله تعالى ، وكانت له أم ولد يقال لها « أمينة » اذا دخل للطهارة أو لاصابة امرأة وضع خاتمه عندها ، وكان ملك سليمان فى خاتمه فوضعه عندها يوما ، فأتاها الشيطان صاحب

= قالوا « وأنكر حديثا صحيحا واستبعد حصول مضمونه » اقول : انى لم أنكر الحديث — كما يقولون — ولكنى وجدته يتعلق بأمر اعتقادى ، وحديث الآحاد كما قدمنا ليس أداة صالحة لاثبات أمر اعتقادى لأن الاعتقادى انما يبنى على اليقين .

قال حضراتهم : أما الوجه الذى أبداه فيتوقف :

أولا — على صحة قصة ابن داود بالكيفية التى ساقها فى كتابه .

ثانيا — على أن داود أصدر مرسوما ملكيا بولاية العهد لابنه سليمان عليهما السلام .

ثالثا — أن سليمان زهى بذلك وأخذه العجب .

رابعا — ان التعدى الذى حصل من اخيه ابشالوم على ابيه داود — حتى نحاه عن كرسى مملكته وجلس عليه — انما هو انتقام منه أى من سليمان على هذا الزهو والعجب . ثم قالوا بعد ذلك : ودون اثبات هذه الأمور خرط القتاد ، بل نستطيع ان نقول بأن الواقع عدمها .

اقول — أولا — انني أوردت هذا الوجه الذى ذكرته ، وهو موجود فى كتب أهل الكتاب — كما سيأتى — وهو من الأقوال التى لا يجب تصديقها كما لا يجب تكذيبها وهو وجه محتمل ، وما ذكروه فى ابطاله باطل — كما سيأتى .

ثانيا — أطلب من حضراتهم — اولا — أن يثبتوا لى اثباتا قاطعا أن ترشيح احد الملوك فى ذلك الزمن احد اولاده للملك لا يكون الا اذا أصدر الملك بذلك مرسوما ملكيا ، وان يأتونى فى ذلك بصورة صحيحة لأحد المراسيم خالية من شبهة التصنع والتزوير ، فاذا أبرزوا لى ذلك ابرز لهم صورة صحيحة من المرسوم الذى اصدره داود بولاية العهد لسليمان .

غير انى لا انتظر أن يفعلوا ما طلبته بل آخذ بأيديهم الى قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) .

فالآية الكريمة شاهدة بأن داود عليه السلام كان يحضر ابنه سليمان مجلسه ، ويشركه فى نظر الدعاوى والفصل فى الخصومات أو الحوادث التى تعرض عليه ، وأن سليمان كان يبدى رأيه فى الحكم وانه فى هذه الحادثة كان ابرع رأيا من ابيه داود مع شدة التفاوت فى السن بينهما ، وان الله فهمه الوجه الأصوب فرجع داود الى الحكم الذى أبداه سليمان .

فاذا لم يكن ما نصه القرآن ترشيحا للملك فليس فى العالم شىء يعتبر ترشيحا . وكيف لاولم يذكر القرآن أن داود كان يحضر أحدا من أولاده — وهم اكبر من سليمان سنا — فى مجلس الحكم ويشاركونه فى الأحكام ؟

ثالثا — أما كون سليمان تحدثه نفسه بذلك الملك العريض الذى ينتظره ، والكرسى الذى يعد له فأمر طبيعى لا يخلو منه أحد من أولياء العهود ! ولا تعوزنا الشواهد على ذلك فى بنى أمية وبنى العباس وغيرهم ! فانا لم الجأ فى هذا الأمر الا الى الطبيعة البشرية التى لا تكذب ولاتوارى ولاتمارى .

رابعا — من نظر الى كلامى الذى قدمته — ونقله حضرات أصحاب الفضيلة — وقارنه بما قالوا فى الوجه الرابع رأى كلمتين غريبتين عزوهما الى : احداهما لفظة (عجب) والثانية لفظة (انتقام) فانى لم أكتبهما ولم يكونا فيما نقلوه عنى ، فقد حشروهما فى أقوالى حشرا . وانما قلت « فامتحنه الله بمن اغتصب ذلك الكرسى وتسرب الى نفسه دبيب اليأس فاستغفر سليمان ربه لتلك الهواجس التى تعد على المقربين ذنوبا ، وهى غير ذنوب » .

البحر على صورة سليمان ، وقال : يا أمينة خاتمى ! فتختم به وجلس على كرسى سليمان فأتى عليه الطير والانس والجن وتغيرت هيئة سليمان ، فأتى أمينة يطلب الخاتم فأنكرته وطردته ، فعرف أن الخطيئة قد أدركته ، فكان يدور على البيــوت يتكفف واذا قال « أنا سليمان » ؟

= وقولى : فامتحنه الله تعالى ... الى آخره ، مرده قوله تعالى (ولقـد فتنا سليمان ... الخ) وهذا الوجه مرتب على ما قبله من مسايرة الطبيعة البشرية فى أوليـاء العهود ــ وبذلك انهـار قول حضراتهم « ودون ذلك خرط القتاد » ووقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

أخذ حضرات الأفاضل بعد ذلك يتكلمون عن قصة ولد داود ، ويعجبنى قول حضراتهم « أما قصة ولد داود بهذا السياق الذى ذكره فى كتابه فلم نعثر له فيها على سلف » كأنهم لم يقفوا على قولى من قبل « وعندى وجه لم يذكره أحد من العلماء » ولم يعلموا أنه لو كان لى فيه سلف لم أقل هذا القول ؟

عطفوا على ما ذكره ابن الأثير ولم يروا فيه ما يقنعهم ، غير انى اقول انهم راوا فيه عنـــاصر الثورة التى قلت عنها . فلينظر القارىء الى قول ابن الأثير « ووثب عليه ابن له » أليس هذا يدل على الثورة ؟ وقوله « فدعا الى نفسه فكثر اتباعه من أهل الزيغ من بنى اسرائيل » وقـــوله « فحارب ابنه حتى هزمه » فأى شىء ادل على الثورة من ذلك ؟ عمد حضراتهم الى الاصـــحاحين السابع عشر والثامن عشر من سفر صمويل الثانى فلخصوهما ثم قالوا انهـم لم يروا فيهمـــا ما قلته !

اقول : كنت أود من أصحاب الفضلة ان يكونوا حاصلين على قسط أوفى من الشجاعة الادبية ، فيلخصوا الاصحاحين المذكورين تلخيصا تكتنفه الأمانة فى النقل ــ يأتى على عناصر الموضوع ولو كان ضد ما قدروا ــ وهذا هو اللائق بأقدار علماء الاسلام وهداة الأنام ، ولكنهم لخصوا الاصحاحين تلخيصا مخدجا وابرزوا للناظرين مسيخا من القول لا يحلى ولا يمر . ومع ذلك لم تزل فى ذلك التلخيص آثار تدل على صحة ما قلت . ومثال ذلك قولهم « فقام داود وجمع الشعب وعبروا نهر الأردن فتبعهم أبشالوم » وهذا عين قولى . « وقد قام أبشالوم بن داود وثار على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسى ــ الذى هو كرسى سليمان ــ وهرب منه داود الى شرق الأردن »

فهل مع اعتراف حضراتهم : بأن داود جمع الشعب وعبر الأردن وتبعهم أبشالوم . يقال انه لا ثورة ولا انتزاع ملك ! وان ملك داود كان مع كل ذلك فى أمان واطمئنان ؟

وها أنا ألخص القصـــة من أولها تلخيصـــا صحيحا من أول « ص ١٥ : صمويل الثانى » .

كان أبشالوم بن داود يقف بجانب طريق الباب ، وكل صاحب دعوى آت الى الملك يدعوه ويقول له « ليس من يسمع لك من قبل الملك » ويتمنى يجعله قاضيا على كل الأرض لينصف المظلومين ، وكل من اراد أن يسجد له يمسكه ويقبله . فاسترق قلوب رجال بنى اسرائيل . وفى نهاية اربعين سنة استأذن أبشالوم اباه ليذهب الى حبرون ليوفى بنذر نذره ، وأرسل جواسيس فى جميع أسباط بنى اسرائيل قائلا اذا سمعتم صوت البوق فقولوا قد ملك أبشـــالوم فى حبرون ، وكانت الفتنة شديدة والشعب يتزايد مع أبشالوم ، وأخبروا داود ان قلوب رجال اسرائيل سارت وراء أبشالوم . فقال داود لجميع عبيده الذين كانوا معه فى اورشليم : قوموا بنا نهرب لأنه ليس لنا نجاة من وجه أبشالوم . فعبر الملك ورجاله وأهل بيته والذين لحقوا به وكانت جميع الأرض تبكى بصوت عظيم ، وأخرج اللاويون التابوت فقال الملك لصادوق « ارجع تابوت الله الى المدينة فان وجدت نعمة فى عينى الرب فانه يرجعنى ويرينى اياه ومسكنه » وصعد داود فى مصعد جبل الزيتون حافيا باكيا مغطى الرأس ، وكذلك الذين معه ، وفى الطريق جاءه حوشاى الأركى باكيا فأمره داود بأن يكون مع أبشالوم ويتودد اليه ويظهر له الاخلاص ، ويشير عليه بما يبطل مشورة اخيتوفل . وأمره بالاتحاد مع أناس من خلصاء داود ورتب من يرسلونهم لاخباره بكل جليل ودقيق . وكان بعض أعداء داود يظهرون =

حثوا عليه التراب وسبوه . ثم أخذ يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطوه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحال أربعين يوما — عدد ما عبد الوثن فى بيته — فأنكر آصف وعظماء بنى اسرائيل حكم الشيطان ! وسأل آصف نساء سليمان فقلن: ما يدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل

= الشماتة به ويسبونه ، واراد بعض اتباعه ان يقتل الرجل البنياميني الذى يسبه ، فصرفه عنه بلطف وقال له : ان الله أمره ان يسبنى ، واذا كان ابنى يطلب نفسى فكم بالحرى بنياميني . ورجا ان ينظر الله اليه نظر رحمة ويرثى لذله ويكافئه عوضا عن مسبته .

واما ابشالوم وجميع الشعب فأتوا الى أورشليم ومعهم أخيتوفل مستشاره ، وجاء حوشاى الأركى وصار يرفأ ابشالوم بطيب القول ، ويعده الاخلاص لأن الشعب قد اختاره ، والرب اختاره كذلك ، حتى وثق به .

« وهناك أترك عملا شائنا — ذكر أن ابشالوم عمله — فلا اذكره » .

ثم اشار اخيتوفل على ابشالوم أن يعطيه اثنى عشر الف جندى ليبيت بهم داود والذين معه ، ويضرب داود وحده منتهزا فرصة اعياء داود والذين معه ، فأبطل حوشاى هذه المشورة واشار عليه بجمع الجموع الكثيرة ويحيطوا بداود حيث كان ، وارسل سرا رسولين الى داود ألا يبيت فى البرية . فذهب الرسولان بعد خطوب الى داود واعلماه وأشارا عليه بعبور الأردن فعبره ، وكتب ابشالوم الكتائب وسار فى أثر والده وعبر الأردن أيضا ، ونزل ابشالوم واسرائيل فى أرض كلعاد .

وارسل داود قواده وأوصاهم ان يحقنوا دم ولده ابشالوم ، وأراد الخروج معهم فلم يرضوا . والتقوا فى وعر « أفرايم » وكانت مقتلة عظيمة . وهزم شعب اسرائيل أمام عبيد داود ، وكان ابشالوم راكبا بغلا فدخل به البغل تحت شجرة بطمة ملتفة ، فتعلق بأغصانها من شعره ومر البغل من تحته وبقى هو معلقا بين السماء والأرض فجاء « يؤاب » رئيس الجيش ورمى ابشالوم بالسهام وأمر غلمانه بقتله . وانتهت هذه الفتنة » .

فالقارىء الكريم يرى حضرات أصحاب الفضيلة قد أنكروا أنهم رأوا فى « سفر صمويل الثانى » أثرا للحادثة على النمط الذى وصفت . ولخصوها تلخيصا مشوها !

فهل كانوا يظنون — أن داود عبر الأردن وتبعه ابشالوم — أن داود ذهب الى مدينته أورشليم حيث مقر الملك وكرسى الملك ؟ ان بين أورشليم وبين الأردن مسافة اذا لم تبلغ مائة كيلو مترا فهى لا تقل عن ثمانين . وقد قطعتها بالسيارة فى مسافة تزيد عن ساعتين فى طريق ملتوية ذات اليمين وذات الشمال صاعدة هابطة ، والأردن والبحر الميت يكون منخفضا عن سطح البحر الملح بما لا يقل عن أربعمائة متر . وانى لآسف كل الأسف لظهورهم فى هذا التقرير بهذا المظهر الذى لايتمناه أحد لنفسه .

قال حضرات أصحاب الفضيلة : وبعد ذلك يحتاج على هذا الراى الى التجوز فى اضافة الكرسى اليه .

أقول : نعم ! ومجاز الأول لم يبطل من علم البيان ، وقديما قال صاحب يوسف فى السجن (انى ارانى اعصر خمرا) أى عنبا يؤول أمره الى ان يكون خمرا . فهذه كتلك ، ولا حرج فى هذا الاستعمال . أما القرينة على ذلك ؛ فان أخاه ابشالوم — الذى صار جسدا هامدا — قد ألقى على الكرسى الذى يؤول الى سليمان ، وداود حى يرزق وسليمان لم يصر مالكا له .

قالوا « ولا يجوز مخالفة جميع ائمة التفسير » أقول قد ذهب على حضراتهم انى قررت وجها أتى به العلامة الفخر الرازى . فلم أخالف الجميع الا فى هذا الوجه . ثم أقول : أى نص قطعى يلزمنى بأنى لا أفكر ولا أفهم القرآن الا بفكر المفسرين؟ اللهم الا الطريقة الكهنوتية التى عليها أنشئت محكمة التفتيش البابوية . فليتق الله حضرات أعضاء اللجنة فى الاسلام فما جاء لمثل هذه الأغلال ، وما انزل الله =

من جنابة ! وقيل بل قد نفذ حكمه فى كل شىء الا فيهن ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة فى يد سليمان ، فبقر بطنها فاذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجدا لله تعالى ورجع اليه ملكه ، وأخذ ذلك الشيطان وأدخله فى صخرة وألقاه فى البحر .

= تعالى القرآن ومعه الكبول التى تكبل بها العقول ، بل جاء محاربا للحجر على العقول وأمر باطلاقها من كل اسر وقيد .

قال حضراتهم « ويجوز أن تكون حادثة اخيه مع ابيه قبل وفاة أبيه بمدة وحينئذ يكون صغيرا لم يصل الى حد التكليف ... الخ » أقول : ان عبارة صمويل الثانى أن ذلك كان فى السنة الأربعين . اى فى آخر ملك داود وبذلك سقط ما فرضوه

واما قول حضراتهم « لمثل هذه التكلفات بل التعسفات التى ليس لها اساس » فأمر قد وجدته عم حتى هان وخشن حتى لان ، والفته النفس حتى لو غاب لطلبته ، وقد استقر فى الاعتقاد أن هذا الضرب من التحيات المباركة خير بضاعة تحويها العياب ويضمها الوطاب .

نص اصحاب الفضيلة الحديث الذى ذكر فيه « ان سليمان قال لأطوفن الليلة على سبعين امراة ... الخ » وهذا الحديث لاانكر انه موجود . وهو يقرر امرا خارقا للعادة يريد حضرات اعضاء اللجنة أن اقول به واعتقده ، وهو أن سليمان عليه السلام طاف على سبعين أو مائة من نسائه فى ليلة واحدة والخبر الذى يكون رواية آحاد لا يقبل فى أمر اعتقادى ولا فى اثبات معجزة لنبى . لذلك لم اتعرض له ، لأن خوارق العادات انما تثبت عند الانسان بالمشاهدة أو بنص قطعى الثبوت والدلالة ، ولم يوجد ولا يوجد نص يلزمنى بأن اعتبر هذا الوجه . وقد أورد المفسرون كثيرا من الآراء والاحتمالات سوى هذا واختاروا غيره ، فلم نر أحدا فى زمن من الأزمان فى الثلاثة عشر قرنا الماضية قد جمع لجنة لتحاكم آراءهم أو تبطل ما عداه من الآراء والأقوال ! فماذا على اذا اخترت غير هذا الراى أو أبديت فيه رايا لى فهمته وملت اليه ؟!

اما قولهم بانهم لم يقفوا على القول « بأنه قال لأطوفن على سبعمائة » فلهم الحق فى ذلك . لأنى اردت انه قال لأطوفن على الف امراة فخان القلم فى ثلاثمائة امراة وجعلها سبعمائة ، ذلك انى عنيت ما رواه الحافظ بن كثير فى « البداية والنهاية ص ٢٩ ج ٢ » ونصه :

قال اسحق بن بشر : انبأنا مقاتل عن أبى الزناد وابن أبى الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن سليمان بن داود كان له اربعمائة امراة وستمائة سرية فقال يوما : لأطوفن الليلة على الف امراة فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله — ولم يستثن — فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن الا امراة واحدة منهن جاءت بشق انسان ... الى آخر الحديث . فأنا اعترف لحضراتهم بهذا الخطأ .

جاء بعد ذلك فى أقوال حضراتهم فى هذا الباب عبارات هى مماحكات لفظية لا طائل تحتها ولا فائدة منها .

وقصارى القول أن الوجه الذى جاءوا به — واختاره أبو السعود وتبعه الألوسى وجعلوا مستندهم فيه الحديث — يشتمل على خارق للعادة ولم يرد به نص قطعى الثبوت والدلالة . وأحاديث الآحاد لا تصلح حجة عليه . وأنا لم أزل أقول باستبعاده ، ولو أيقنت انه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان لى أن أماحل فيه ، ولكنه رواية ظنية لا يثبت بها أمر يحتاج فيه اليقين .

وعلى ذلك فاعتراضهم على مافى كتابى ساقط لايعول عليه الا فى نقطة واحدة وهى لفظة « سبعمائة » فالواجب أن يحل محله لفظ « الف » .

وقبل ان القى القلم من يدى انقل لحضراتهم ما نصه الحافظ ابن كثير « فى صفحة ٢٩ ج ٢ من تاريخه الموسوم بالبداية والنهاية » عند كلامه على فتنة سليمان وهو « ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من المفسرين ههنا آثارا كثيرة من جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقاة من الاسرائيليات ، وفى كثير منها نكارة شديدة . وقد نبهنا على ذلك فى كتابنا التفسير واقتصرنا هنا على مجرد التلاوة » .

ولهم رواية ثانية : وهي أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان . وكان الخاتم يسقط من يده ولا يتماسك فيها فقال له آصف انك لمفتون بذنبك فتب الى الله . ولهم رواية ثالثة : وهي أن سليمان قال لبعض الشياطين : كيف تفتنون الناس ؟ فقال : أرنى خاتمك أخبرك ، فأعطاه اياه فنبذه فى البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه . ثم يسوقون الحكاية بتمامها كما فى الرواية الأولى . ففتنة سليمان ابتلاؤه . والقاء الجسد على كرسيه هو جلوس الشيطان عليه ونفاذ أمره فى الرعية والملك : ولهم قول رابع وهو أن سليمان احتجب ثلاثة أيام عن الناس فسلب الملك وجلس الشيطان على كرسيه عقوبة له .

هذه أقوال لم يرد بها قرآن ولا نقل صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تنطبق على عقل ولا على حكمة فهي حرية بالرد وقد رد عليها العلماء بوجوه .

الأول : أن الشيطان لو قدر على التشبه فى الصورة والخلقة بالأنبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع ، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس فى صورة محمد وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ما كانوا أولئك . بل كانوا شياطين تشبهوا بهم فى الصورة لأجل اغواء الناس واضلالهم ، ولما كان ذلك باطلا لأنه يؤدى الى ابطال الدين بالكلية كان ما أدى اليه باطلا بالكلية .

الثاني : لو قدر على سليمان يعامله هذه المعاملة لقدر على مثلها من العلماء والزهاد فيقتلهم ويمزق كتبهم ويمحوها ويثبت فيها شيئا آخر ، ولما كان المشاهد خلاف ذلك وأنه لم يقدر من أحد منهم على هذا ، فوجب أن يكون سليمان ممن لا يقدر عليهم بالأولى .

الثالث : لو قلنا ان المرأة عبدت صورة أبيها ، فلا يخلو الأمر اما أن يكون ذلك بأمر سليمان وحينئذ يكون كافرا وهو محال ، واما أن يكون بدون أمره وعلمه وحينئذ لا جريرة صدرت منه ولا عقاب عليه .

الرابع : يقولون ان الشيطان لما جلس على كرسى سليمان اجتمعت عليه الطير والانس والجن . وقائل هذا فى غفلة عما جاء فى الكتاب الكريم من أن تسخير الجن لسليمان انما كان بعد الفتنة لا قبلها بدليل قوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص) .

وقد ذكر الفخر الرازى فى تفسيره وجوها لتفسير هذه الآية : أحسنها أن سليمان ابتلى بمرض شديد ضنى منه حتى صار لشدة المرض كأنه جسد أو جسم بلا روح (ثم أناب) أى رجع الى حالة الصحة .

أقول : وعندى وجه لم يذكره أحد من العلماء . وهو أن كرسى داود انما هو كرسى سليمان . لأن داود كان يرشح سليمان للملك والجلوس على كرسيه : وقد قام أبشالوم بن داود وثار

على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسى — الذى هو فى الواقع كرسى سليمان — وهرب منه داود الى شرق الأردن . وسرح الجيوش لمقاتلته وباشر أبشالوم الحرب بنفسه ، فقتل أبشالوم اذ مر به بغله تحت بطمة فتعلق فى أغصانها من شعره ، فأتى رئيس الجند يوآب وقتله . وعاد سليمان الى كرسيه بعد أن تزعزع بفعل أخيه أبشالوم . وتضرع الى الله وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده .

لا شك فى أن سليمان فى تلك البرهة كان يعتقد اعتقادا جازما لا شك فيه : أن الكرسى الملكى أفلت من يده ولا راد له سوى الله تعالى ، فاستغفره تعالى لما قد أسلف من هواجس نفسية لا يخلو منها من كان مثله فى سن الصبا من زهو بذلك الكرسى الذى ينتظره ، والملك العريض الذى سيكون بيده صولجانه ، فامتحنه الله تعالى بمن اغتصب ذلك الكرسى وتسرب الى نفسه دبيب اليأس فاستغفر سليمان ربه لتلك الهواجس التى تعد على المقربين ذنوبا وهى غير ذنوب ، وأناب اليه ضارعا أن يهب له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فآتاه الله ذلك الملك بعد وفاة أبيه داود الذى كان قد بلغ من الكبر عتيا ، وسخر لسليمان ما سخر من الجن والانس والطير والرياح التى تجرى بأمره . وكل ما يدعى خلاف ذلك فلا يخلو من أن يكون هاجس نفس أو جموح خيال . وقد علمتم رأيى فى الوجه الذى أتى به الفخر الرازى .

وأما ما روى أنه عزم على الطواف على سبعمائة أو سبعين من نسائه فى ليلة واحدة ، فتأتى كل واحدة منهن بولد يجاهد فى سبيل الله . ولم يقل « ان شاء الله » فعاقبه الله بأنهن لم يحملن كلهن الا امرأة واحدة جاءت بشق انسان ، فجيء اليه به — وهو على كرسيه ووضع فى حجره — فبعيد ؛ اذ قدرة الانسان تعجز عن الطواف بسبعمائة امرأة أو سبعين فى ليلة واحدة ، والليلة لا تسع ذلك أصلا مهما قدرت حظا صغيرا لكل امرأة من الزمن . ولم يجعل الله تعالى معجزة الأنبياء فى السفاد وغشيان النساء ومسابقة الحيوان فى هذا الضرب . ولا يوجد متحد بمثل هذا حتى تتم المعجزة . فالمعول عليه ما أوردنا فيما سبق .

أما قولهم ان السبب فى عدم اتيان النساء بأولاد عدم قوله « ان شاء الله » فعجيب ؛ لأن هذه اللفظة لا يقصد بها الا التعبد لا انجاح المطالب فقد قال موسى للعبد الصالح (ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) ولم يصبر .

السادس — إسالة عين القطر لسليمان عليه السلام

ذكر الله تعالى فى كتابه الكريم أنه أسال عين القطر لسليمان ، وذلك فى معرض تعداد النعم التى أنعم الله بها عليه — والقطر : هو النحاس المذاب — ونحن نعلم أن سليمان كان رجل عمارة وبناء للمصانع العظيمة ، ويكفيه فخرا أنه بنى الهيكل وما حوله من المبانى العظيمة الضخمة بالحجارة العظيمة ، التى لا يفوقها سوى حجارة قليلة ، فى البناء المعروف اليوم بقلعة بعلبك ،

وبعض المبانى المصرية . فهو يحتاج الى القطر فى معالجة توثيق المبانى ، فأسال الله تعالى له العين نحاساً تقذفه مذابا . وسبب ذوبانه أن الأرض التى فتحت فيها العين مصطهرة بالنار ، فالنحاس المختلط بصخور تلك الأرض يصهر ويقذف من فوهة تلك العين سائلا . فيأتى عمـــال سليمان ويأخذونه للانتفاع به فى الصناعات ونحوها مما يحتاج اليه سليمان .

قد يقول بعض الناس : ان سليمان كان أول من صهر النحاس وأساله ، وأن الله لم يسل له عينا من الأرض .

والذى أقوله انى أسلم بذلك متى علم علما صحيحا أن القطر لم يوجد قبل سليمان ؟ وعلى كل فقد من الله تعالى عليه وهداه الى ما لم يهتد اليه أحد قبله . والتوراة خالية من هذا .

السابع — تسخير الجن لسليمان

أخبر الله تعالى فى كتابه الكريم بأنه سخر الجن لسليمان اذ قال . (ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب الســعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) وقال بعد أن ذكر تسخير الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب (والشياطين كل بناء وغواص) وقال أيضا (وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون) .

فهذا كله دل على أن الله تعالى سخر لسليمان الجن تطيعه وينفذ أمره فيهم ، ويعملون له ما يشاء من ضخم المبانى والعمائر والتماثيل « وكانت التماثيل يجوز صنعها عندهم » والقدور الراسيات والجفان التى كأنها الحياض لسعتها .

وقد ذكر « فى سفر الملوك الأول ص ٩ » العمائر التى قام بعملها سليمان وهى (١) بيت الرب « وهذا البيت وتوابعه كان يقع على مساحة تقدر بما يقرب من ستين فدانا ، كما شاهدت رقعته بنفسى » (٢) وبيت الملك (٣) وسور أورشليم (٤) وحاصـــور (٥) ومجدو (٦) وجازر (٧) وبيت حورون السفلى (٨) وبعله (٩) وتدمر فى البرية . كل ذلك عدا المخازن ، ومدن المركبات ومدن الفرسان وما بناه فى لبنان وغيرها من سائر مملكته ، وسخر فى ذلك بقايا الشعوب الذين كانوا فى فلسطين ولم يبدلهم الاسرائيليون . ولم يكن من الشعب الاسرائيلى مســخر ، وكان رؤساء المسخرين خمسمائة وخمسين رئيسا .

ومن نظر الى هذه الأعمال وفخامتها وضخامة أحجارها لم يستبعد أن يكون للجن عمل عظيم فى ذلك ، وبخاصة « تدمر » . وبعض آثارها الضخمة ماثل اليوم .

وقد ذكر النابغة الذبياني تسخير الجن لسليمان فى شعره الذى يعتذر به الى النعمان اذ يقول :

ولا أرىَ فاعلا فى النـاس يشبهه ولا أحاشى من الأقـوام من أحد
الا سـليمان اذ قـال الالـه لـه قم فى البرية فاحـددها عن الفنـد
وخيس الجن انى قـد أذنت لهـم يبنـون تدمـر بالصفاح والعمـد

هذا ، والكتابات التى على مبانى تدمر — الماثلة اليوم — تدل على أنها هياكل لعبـادة الكواكب . والكتابة رومانية . غير أنه لا مانع من أن تكون المدينة بنيت فى عهد سليمان : فلما جاء الرومان حولوا بعض مبانيها الى هياكل وكتبوا عليها ما كتبوا . وليس من شأنى أن أقطع فى شيء من ذلك فان علماء الآثار أملى بذلك .

قال البيضاوى : روى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فاذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، واذا قعد أظله النسران بأجنحتهما . ويصنعون له القدور الراسيات على أثافيها لا تحرك لعظمها وثقلها ، والجفان كالجوابى ؛ أى الحيـاض الكبيرة . وقد كان بناء الهيكل وما معه فى سبع سنوات فقط ، وهو زمن يسير بالنسبة لعظمه .

الثامن — سليمان وملكة سبأ

دلت الآيات فى القرآن الكريم على أن سليمان كان يفهم ما تريده الطير بأصواتها اذا صوتت ، ويفهمها ما فى نفسه ويحاورها : وكانت مسخرة بأمره يأمرها فتأتمر ويستعملها فى بعض مهماته : فمن ذلك أنه تفقد الطير يوما فلم يجد الهدهد :فعد ذلك جريمة اقترفها وتهـدده بالذبح أو التعذيب الا اذا أتاه بعذر بين أوجب هذا التخلف : فلما جاء الهدهد سأله عن غيبته فأخبره أنه كان فى سبأ من بلاد اليمن : ويخبره بملك عظيم وملكة تملك على تلك الأمـة : وأنهم صابئة وثنيون يعبـدون الشمس من دون الله وأن لملكتهم عرشا عظيما فيه أنواع الزينة والجواهر .

أراد سليمان أن يختبر الهدهد : صادق فى خبره أم كاذب ؟ فأعطاه كتابا ليوصله الى الملكة . فذهب الهدهد بالكتاب وألقاه على سريرها ؛ فأخذته فاذا به (انه سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) .

لم ترد الملكة أن تستبد باجابة فجمعت رجال دولتها وأهل مشورتها من الأقيال وغيرهم ، وأعلمتهم على الكتاب . فأخذتهم العزة وثارت فيهم الحماسة وقالوا لها (نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين) .

كانت الملكة عاقلة فنظرت فى الأمر بعين الفطنة . ولم تغتر بما أبداه رجالها من الحماسـة — وقالت لهم ، ان دخول الملوك الى المدن ليس من الهنات الهينات وأثره ليس بالسهل على أهلها . فانهم (اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) وعرضت عليهم رأيا آخر وجـدته أقرب الى حل هـذه الأزمة التى أتتها من حيث لا تحتسب . ذلك أن ترسـل الى سليمان بهدية تصانعه بها وتستنزل مودته بسببها : ثم تنظر ماذا يرجع به رسلها الى سليمان .

ظاهر أنها كانت تريد من ارسال الهدية أن يقف رسلها على أحوال هذا الملك الذى أرسل يتهددها على غير جريرة ، ويطلب حضورها اليه خاضعة بلا تردّد . ثم يعودون اليها بالتقرير الوافى عن حقيقته : وقوته فى ملكه ، ومبلغ ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة اذا لم تخضع لأمره لتكون على بينة مما تأتى وتدع ، وتكون على رأس أمرها . حتى اذا فعلت أمرا فعلته بعد تقدير عواقبه : فلما جاءت رسلها الى سليمان بالهدية لم يقبلها وأظهر أنه ليس فى حاجة الى أموالهم وأنه فى حال حسنة وانفساح ثروة أكثر مما فيه الملكة وقومها ، وتوعدهم وملكتهم بأن يرسل الى بلادهم بجنود لا قبل لهم بها . وأن عاقبة ذلك اخراجهم من بلادهم أذلة صغرة .

جاء الخبر من الرسل الى الملكة وعلمت عظمة سليمان وقوة ملكه وأشفقت على قومها . فأجمعت الذهاب اليه فى رجال ملكة دولتها وجاءت الى أورشليم بهدية عظيمة .

لما علم سليمان باعتزام ملكة سبأ على زيارته — فى عاصمة ملكه — شيد لها صرحا عظيما . ومرّد أرضه بالزجاج : وهذا شىء لا عهد لأهل اليمن بمثله .

ولما قربت من ديار سليمان أراد أن يظهر لها من دلائل عظمته ونعم الله تعالى عليه ما يبهرها . وأن ترى بعينها ما لم ترها الأحلام بفعل عجيبة ظاهرة ، وهى أن يأتيها بعرشها الجميل ليكون جلوسها عليه فى ذلك الصرح . فسأل جنوده عن قوىٍّ يأتيه بذلك العرش : فانتدب له عفريت من الجن وقال له (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) هذا (وانى عليه لقوى أمين) على ما فيه من الجوهر والحلى و (قال الذى) شخص من الانس أو الجن (عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) وكان الأمر كما قال . فجاء به ووضع فى الصرح الذى هيىء لاستقبالها ونكر لها : ولا أدرى بأية كيفية نكر ؟

فلما جاءت ورأت العرش (قيل لها أهكذا عرشك) ؟ فقالت (كأنه هو) ولما أرادت دخول الصرح والوصول الى العرش ظنت الزجاج ماء ، فكشفت عن ساقيها لئلا تبتل ثيابها بالماء وأخبرت بأن ما ظننته ماء انما هو زجاج فقالت (رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

أما الطريقة التى أتى بها العرش على يد الذى عنده علم من الكتاب . فشىء لم يكشف عنه العلم وهو نص صريح قاطع الثبوت والدلالة ، ومن التعسف تأويله بأنه خريطة بلادها كما يقول بعض من كتبوا فى التفسير . وما دام الأمر معجزة خارقة للعادة فلا معنى للمكابرة : اذ خالق النواميس له أن يخرقها بقدرته التى أوجدها بها . ولعل لمثل هذه الأعمال نواميس أخرى لم يكشفها العلم أطلع الله عليها بعض عباده معجزة لهم فى وقت يجهل كل الناس تلك النواميس . والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار .

وأهل القصص وأهل التفسير يذكرون أن سليمان تزوج منها وأتى منها بولد . ويزعم بعض ملوك الحبشة أنهم أبناء سليمان من الولد الذى أتى به منها .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة النمل : وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ [٢٠] لَأُعَذِّبَنَّهُ
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [٢١] فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ
تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ [٢٢] إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ [٢٣] وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ [٢٤] أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ [٢٥] اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [٢٦] قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [٢٧] اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ [٢٨]
قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ [٢٩] إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ [٣٠]
أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ [٣١] قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
تَشْهَدُونِ [٣٢] قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ [٣٣] قَالَتْ
إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ [٣٤] وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ
إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ [٣٥] فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ
خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ [٣٦] ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ
لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ [٣٧] قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ
يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ [٣٨] قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ
لَقَوِيٌّ أَمِينٌ [٣٩] قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .
فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ [٤٠] قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي
أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ [٤١] فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا
الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ [٤٢] وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ
كَافِرِينَ [٤٣] قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا . قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ
مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٤٤] .

وقد قدمت أن التوراة وأهلها لا يعرفون قصة ملكة سبأ بهذا الوصف ، وانما يذكرون أنها سمعت بحكمة سليمان فأتت اليه وشاهدت بنفسها تلك الحكمة العظيمة .

ولعل اتصال ملكة سبأ بسليمان كان سببا فى وجود الديانة الموسوية فى بلاد اليمن . وأن ذلك هو الأساس الذى بنى عليه « ذو نواس الحميرى » دخوله فى اليهودية نكاية بالدولة الرومانية الشرقية التى أرسلت الى اليمن القسوس مقدمة لاستعمار اليمن . فلم ير أنكى لهم من الدخول فى اليهودية ، وتعصب لها حتى قتل أهل نجران وخدّ لهم الأخدود وحرقهم بالنار — كما هو بعض الآراء فى فهم الآية — فكان ذلك سبب غزو الحبشان لليمن — كما هو معروف فى التاريخ — ولم يزل بصنعاء عشرة آلاف يهودى الى اليوم .

أما ما يدعيه أهل الحبشة من أن الأسرة المالكة فيهم يرجعون فى نسبهم الى سليمان ، فليس عندى ما يؤيد هذه الرواية أو ينفيها ، والناس مأمونون على أنسابهم . وقد تراخى الزمن وتطاول ولا يعلم الغيب الا الله .

النملة وسليمان

جاء فى القرآن الكريم (وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون . حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) .

فأين مكان وادى النمل هذا ؟

قالوا هو واد تسكنه الجن ومراكبهم النمل . ولكن أين هو ؟ لا جواب ! وقالوا وادى النمل فيما وراء الهند ، وأنه فى بلاد التبت . ويقولون انه فى بلاد اليمن . والذى فى بلاد اليمن « وادى نمل » بفتحين فى أوله . وقالوا فى الطائف وكل ذلك لا يبنغى التعويل عليه . والذى فى ياقوت « قيل انه بين بيت جبرين وعسقلان » وقال ابن بطوطة الرحالة الشهير « ان بظاهر عسقلان وادى النمل ويقولون انه المذكور فى الكتاب العزيز » وهذا الذى ذكراه هو اللائق المعول عليه .

وللمرحوم أحمد زكى باشا مقالتان : كتبت ثانيتهما فى أهرام ٦ أغسطس سنة١٩٣٣ ما قدمته خلاصة لها لزكى باشا رأى انفرد به . وهو أن المراد بوادى النمل: الوادى الكثير الناس ؛ كأنهم النمل فى الكثرة . وليس ما قاله بشىء لأنه ينافيه قولها (وهم لا يشعرون) اذ كيف لا يشعر جند سليمان بالناس وبخاصة اذا كانوا كثيرين كالنمل ؟ (١) .

---

(١) نشرت جريدة الأهرام بعددها الصادر فى ٦ أبريل سنة ١٩٣٩ الخبر التالى :

النمل الأبيض يدمر قرية مصرية

أعلن النمل الأبيض حربا شعواء على احدى القرى المصرية منذ عهد قريب ، فهب أهلوها للدفاع عنها وذود هذا العدو عن مساكنهم وأرزاقهم ، ثم طلبوا النجدة من الحكومة فأرسلت اليهم جنود قسم الحشرات بوزارة الزراعة ، لكن النمل انتصر على هؤلاء جميعا وأتى على القرية . وأعلن قسم الحشرات عجزه عن ابادة جيوش النمل ، وانسحب الأهلون من الميدان تاركين مساكنهم !

موت سليمان عليه الصلاة والسلام [1]

جاء فى سورة سبأ بشأن موت سليمان قوله تعالى (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) .

= وقد سجلت الوثائق الحكومية اخبار هذه الحرب ، فى مذكرة رفعها معالى وزير المالية الى مجلس الوزراء ، وعرضت على مجلس النواب ثم مجلس الشيوخ فى جلسته . ومما قيل فى هذا الموضوع انه على اثر شكوى تقدمت من أهالى ناحية « برسيق » التابعة لمركز « أبى حمص مديرية البحيرة » باصابة قريتهم بحشرة النمل الأبيض قامت وزارة الصحة العمومية المرافق العامة بمعاينة هذه القرية فاتضح أن عدد سكانها يبلغ ٥٠٠ نفس، وعدد منازلها ٦٥ منزلا ، وأنها مقامة على تل كفرى . ولما بدأ الأهالى فى استخراج الأسمدة من تل القرية ظهرت مقابر قديمة وبدأت حشرة النمل الأبيض فى الانتشار ، واخذت تلتهم الأخشاب والملابس وتخترق جدران المنازل المشيدة بالطوب الأخضر ، بدرجة اضطرت كثيرا من الأهالى الى هجران مساكنهم ، ولما استطلعت الوزارة راى قسم الحشرات فى وزارة الزراعة عما اذا كان من الممكن ابادة تلك الحشرة ، قرر القسم تعذر معالجتها وانه لا بد من اقامة قرية جديدة . وقد وقع الاختيار على مساحة قدرها ثلاثة افدنة على الطريق الزراعى وعلى ترعة النخلة ، وقد لوحظ فى اختيار مساحة قطعة الأرض الجديدة ابتعادها عن التلال الكفرية التى يعيش النمل فى اعشاش بداخلها .

وقد وافق البرلمان على فتح اعتماد بستة آلاف جنيه لبناء القرية الجديدة .

(١) نقد اللجنة « الموضوع الثانى عشر » .

(موت سليمان عليه السلام)

ذكر ان المفسرين يذكرون فى موته عجائب ويستدلون بالآية الكريمة (فلما قضينا عليه الموت الآية) ويؤولونها على الوجه الذى يدعو الى الغرابة . وكل ما جاء فى هذا الباب أحاديث منكرة . ويظن ابن كثير انها مما يقوله اهل الكتاب . واليكم نفس ما قاله فى تفسيره ، ثم ساق عبارة ابن كثير وهى طويلة . ثم قال بعد ذلك صفحة ٣٣٦ سطر١٨ :

ونحن اذا نظرنا الى متن الحديث وجدناه مضطربا ومخالفا لسنة الأنبياء وخصوصا فى عهد بنى اسرائيل ، اذ شريعتهم تقضى على كل اسرائيلى أن يأتى فى العيد ويقرب القرابين ويقوم بالطقوس الدينية ، وسليمان شريعته التى يتبعها هى التوراةالتى جاء بها موسى وليس له شريعة سواها . وغير معقول ان يكون سليمان ـ النبى الكريم ـ هو الذى يخالف الشريعة ويمكث فى محرابه دون أن يقوم بالمراسيم التى أوجبتها التوراة على كل اسرائيلى ، فيغيب عنها فى وقت يقوم بها الرؤساء والسوقة . واذا فعل يكون قد سن لبنى اسرائيل سنة سيئة تجرىء سواه على مخالفة الشريعة التى أمر الله بنى اسرائيل بحفظها وعدم الاخلال بها . ومعلوم أن اليهود فى عيد الفصح يجب عليهم أن يأكلوا الفطير سبعة أيام وان لا يرى الخمير فى جميع تخومهم ، فاذا كان سليمان قد مكث ميتا سنة أفما كان له زوجة تسأل عنه وتبعث له بالفطير الواجب فى الفصح فتعلم انه ميت وعنده الف امراة ؟

فى اصحاح ١٦ تثنية ف (١٦) ثلاث مرات فى السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب الهك فى المكان الذى يختاره فى عيد الفطير وعيد الأسابيع وعيد المظال ولا يحضرون أمام الرب فارغين (١٧) كل واحد حسبما تعطى يده كبركة الرب الهك الذى أعطاك .

فمن الذى يقوم بتلك المراسيم عن سليمان والله لم يسن لهم البدل ؟ ثم أن سليمان بمقتضى مركز الملك الذى يشغله عليه مسئولية اقامة العدل بين الناس ـ كما كان يفعل داود ـ وقد رأينا =

والمفسرون يذكرون فى موته عجائب ويستدلون لذلك بالآية الكريمة ، ويؤولونها على الوجه الذى يدعو الى الغرابة . وكل ما جاء فى هذا الباب أحاديث منكرة . ويظن ابن كثير أنها مما يقوله أهل الكتاب . واليكم نص ما قاله فى تفسير هذه الآية بعد أن ذكرها قال :

= داود فى فصل خصومة الحرث ، الى أن قال : وهو أيضا بمقتضى منصبه الملكى تأتيه الوفود من الملوك ويطالعه العرفاء والرؤساء بمشكلات نواحيهم . فليس من المعقول أن يكون قد مات وبقى سنة كاملة لايعلم بموته أحد ويهمل اهمالا لا يهمله أحد من السوقة ! والمسألة تحمل على أحد وجهين :

الأول : أن يكون قد مات كما يموت سائر الناس ، وبقى موته معمى على الجن دون سواهم من الانس . ودفن وانتهى أمره . وقام فى الملك ابنه ، والجن فى أمكنة نائية كتدمر لا يفترون عن العمل دائبين عليه خشية أن يعاقبهم سليمان ، وبعد مدة — لم يحددها القرآن — علم أحد الجن بموته اذ رأى عصاه ملقاة على الأرض فرفعها فاذا الأرضة قد أكلتها ، فاستدل من أكل الأرضة اياها على أن سليمان قد تركها ملقاة على الأرض مدة طويلة . وما كان ليتركها الا لحدث من موت أو مرض ، فتقصى الأمر فاذا هو قد مات فأعلم الجن بالأمر وكانوا لا يعلمونه كما كانوا يوهمون النـاس أنهم يعلمون الغيب ، وأيقنوا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين .

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى (فلما خر) أى مات لا (خر) بمعنى وقع على الأرض لعجز العصا عن حفظ توازنه : قال فى القاموس : الخر ؛ السقوط كالخرور من علو الى أسفل يخر ويخر والشق والهجوم من مكان لا يعرف والموت . وفى لســـــان العرب ج ٥ ص ٣١٧ وخر أيضا : مات وذلك أن الرجل اذا مات خر ، ومن ذلك قول حكيم بن حزام بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الا أخر الا قائما . معناه أن لا أموت . لأنه اذا مات فقد خر وسقط .

الوجه الثانى : أنه عليه السلام وجد فى محرابه ، فأدركه الموت وهو جالس متكىء على عصاه ، فجاءت الأرضة واشتغلت بأكل طرف العصا فأكلت بعضه ، فانهار الجزء الذى أكلته فاختل توازنه فخر ، فدل ذلك أهله على موته . وأكل جزء من العصا يكون انهياره سببا فى اختلال التوازن لايحتاج الى زمن طويل . ومن رأى فعل الأرضة فى دنقلة العجوز لا يستبعد ذلك . فقد أخبرنى المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك : أنه أهمل وضع أرجل مكتبه فى اناء فيه ماء — وهو بدنقلة — فلم تمض أيام حتى وجد الأرضة قد أثرت فى جزء من تلك الأرجل . وترك جبته بجانب الحائط بضعة أيام ثم جاء اليها فاذا بها بهيئة الجبة ، فلما مد يده اليها فاذا هى هباء ا هـ المقصود نقله .

ثم رجح الوجه الأول فى آخر عبارته .

(رأى اللجنـــة)

استبعد موت سليمان عليه السلام على النحو الذى يذكره المفسرون وفسر قوله تعالى (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) باحتمالين ما أنزل الله بهما من سلطان فانهما — كما سيتبين — أن لم يكونا فاسدين فهما بعيدان كل البعد عما تدل عليه الآية الكريمة .

وقد استند فى استبعاده الى ما يتلخص فى أمرين :

الأول : أن شريعة سليمان التى هى شريعة موسى عليهما السلام فيها طقوس دينية وأعياد تقرب فيها القرابين . كعيد الفصح المعلوم عند اليهود اليوم ؛ والذى يأكلون فيه الفطير دون الخمير ، وعيد المظال ، وعيد الأسابيع . فغير معقول أن يمكث سليمان مدة طويلة تمر فيها الأعياد كعيد الفصح ولا يقوم بالطقوس الدينية ، ولا تقدم له امرأة الفطير ليأكله فى عيد الفصح .

الثانى : أن سليمان كان ملكا فعليه مسئولية اقامة العدل بين الناس ، كما أنه — بمقتضى مركزه الملكى — تأتيه الوفود من الملوك ويطالعه العرفاء والرؤساء فى مشكلاتهم ، فغير معقول أن يمكث هذه المدة الطويلة ميتا ولا يعلم به أحد . هذا ملخص كلامه فى الأمرين اللذين استند اليهما فى استبعاد =

يذكر الله تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فانه مكث متوكئا على عصاه — وهى منسأته — كما قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد مدة طويلة نحوا من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض

= ما ذكره المفسرون وما كان اغنانا عن ابطال هذين الامرين بعد ان لخصناهما وصورناهما بما سبق ، لولا أن بعض الناس يجوز أن يغتر بتنسيق عبارته فى بسطهما . لذلك رأينا أن نشير الى ابطالهما فنقول :

اما الوجه الأول : فانه متوقف على أن من شريعة موسى التى كان يتعبد بها سليمان الطقوس الدينية والأعياد التى نراها اليوم عند اليهود ، كعيد الفصح وتحريم الفطير دون الخمير وأن التوراة الموجودة الآن المبين فيها تلك الطقوس والأعياد هى التوراة التى أنزلها الله على موسى عليه السلام ! ودون اثبات ذلك خرط القتاد .

وعلى تسليم أن الأمر كذلك فما المانع من أن تمر الأعياد والطقوس الدينية وتأتى سليمان زوجته لتقدم اليه فى عيد الفصح فتراه واقفا على عصاه بهيئة المصلى فترجع ؟ ولم لا يجوز أن تكون عادة سليمان أن يتعبد وحده عبادة خاصة به وفى حال قيامه بها لا يستطيع احد من الانس والجن أن يقرب من مكانه .

وأما الأمر الثانى : فيتوقف على أن المركز الملكى الذى نراه للملوك فى هذه الأزمنة هو بعينه كان لمثل سليمان عليه السلام فى زمنه ، تأتيه وفود الملوك وتجرى لهم احتفالات وزيارات رسمية ومواعيد محدودة فى المقابلات وشىء من ذلك لم يقم عليه دليل .

وعلى تسليم ذلك فما المانع من أن يكون له عرفاء ورؤساء ينوبون عنه فى مقابلة الوفود وفى اداء هذه المهمات ؟ وأن يكون له قضاة من قبله يفصلون فى الخصومات كما هو الحاصل اليوم ؟

وبعد فلنشرع فى تزييف الاحتمالين اللذين ابداهما فى تفسير الآية :

اما الاحتمال الأول : فلأن معنى الآية عليه هكذا (فلما خر) اى مات (تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) وذلك باطل فى الواقع ، وعلى ما قرره فى هذا الاحتمال لأنه قال ان الجن لم تعلم بموته الا بعد مدة لم يحددها القرآن لأنها كانت تشتغل فى مكان بعيد كتدمر .

فان قال : يقدر فى نظم الآية بأن يقال فلما مات اى علم الجن بموته ؟ قلنا : فاى دليل على هذا التقدير ؟ وهل يجوز أن يفاد هذا المعنى بمثل هذا التركيب لدى المبتدئين فى فن الكتابة ؟ .

ثم يقال لصاحب هذا الاحتمال : هل الأرض التى وجدت العصا ملقاة عليها هى التى يشتغل فيها الجن او هى التى مات فيها سليمان عليه السلام ؟ فان كان الأول فمن الذى أوصل العصا الى تلك الأرض ؟ وان كان الثانى فمن الذى مكن أحد أفراد الجن من أن يترك عمله ويأتى بلد سليمان عليه السلام حتى رأى العصا ملقاة على ارضها ؟ فان قال : انه لم يكن ممن يشتغل فى الأمكنة البعيدة بل هو من المقيمين فى بلد سليمان ؟ قلنا : فهل يعقل أن يكون موجودا فى البلد ولا يعلم بموت سليمان ؟

نحن اذا طبقنا هذه الحادثة على النواميس الطبيعية وعلى المعتاد فى أمثالها ، نقول انه لا يعقل أن يموت موتا عاديا مثل سليمان ذلك الملك العظيم الذى كان ملكا على الانس والجن والطير وغيرها ولا يعلم بموته معظم افراد رعيته .

ثم يقال : هل تلك العصا كانت ممتازة معروفة حتى عرفها الجنى وتقصى بواسطتها او لا ؟ فان كان الأول فكيف ترمى على الأرض رمى القمامة ؟ وان كان الثانى فكيف عرفها ذلك الجنى ؟ وعلى تسليم انه عرفها على اى حال ، فمن اى وجه استدل بواسطة اكل الأرضة منها على حدوث حدث حتى تقصى الأمر فعرف أن صاحبها سليمان قد مات ؟ هل فى رميها واستبدالها بما هو احسن منها ما يدل على حدوث امر غريب عجيب يحمل الجنى على التقصى والبحث .؟

واما الاحتمال الثانى فواضح البطلان لان ذلك يتنافى مع عجز الآية وهو قوله تعالى (ما لبثوا فى العذاب المهين) فان ذلك يستدعى بقاءهم مدة طويلة يشتغلون فيها وهو ميت ولا يعلمون موته . =

وهى الأرضة ضعفت وسقط الى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويله ، وتبينت الجن والانس أيضا أن الجن لا يعلمون الغيب — كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع غريب وفى صحته نظر .

= وما ذكره عن فعل الأرضة فى « دنقلة » وما اخبره به المرحوم الشيخ الخضرى فلا يفيده فى دعواه بشىء ما . فان أحدا لم يدع ان كل ارضة فى جميع الأزمان وبالنسبة لجميع أنواع الخشب تأكل مع التأنى فى مدة طويلة ، كما انه لا يستطيع أن يدعى أن كل ارضة فى جميع الأزمان وبالنسبة لجميع انواع الخشب وغيره تأكل بسرعة مثل الأرضة التى اكلت مكتب الشيخ الخضرى وجبته ، على انه يجوز أن تكون دابة الأرض المذكورة فى القرآن دابة أخرى غير ما هو معروف لنا والله أعلم .

رد المؤلف على نقد اللجنة
« الموضوع الثانى عشر »
وفاة سليمان عليه السلام

كتبت فى قصة وفاة سليمان ما نقله حضرات أعضاء اللجنة ، وهو كلام مضىء واضح لا غبار عليه ، ولكن حضرات الاعضاء عز عليهم مخالفتى لتلك الاسرائيليات فمضوا يدافعون عنها مدافعتهم عن الحق الواضح . وانى لأرثى لهم وهم يعصرون القرائح فى الرد على والتكلف باد على هذا الرد يكاد يلمس باليد .

قالوا — « اما الوجه الأول فانه متوقف على ان شريعة موسى التى كان يتعبد بها سليمان والطقوس الدينية والأعياد التى نراها اليوم عند اليهود ، كعيد الفصح وتحريم الفطير دون الخمير وان التوراة الموجودة الآن المبين فيها تلك الطقوس والأعياد هى التوراة التى أنزل الله على رسوله موسى عليه السلام ودون ذلك خرط القتاد » والجواب على ذلك :

اولا : ان العبارة التى أتوا بها مضطربة مفككة ومعاذ الله ان اقول لحضراتهم أن هذه الجمل الركيكة المتخاذلة يستحى صبيان الكتاتيب أن يكتبوها أو تنسب اليهم ، ولكنى أحيل الأمر على خطأ الناسخ ولا اكافئهم بعملهم أو قولهم الذى يوجهون به الى ولا يتعففون عن مواجهتى به .

ثانيا : لم اقل ان التوراة تحرم الفطير دون الخمير كما قالوا . وانما قلت « ومعلوم ان اليهود فى عيد الفصح يجب عليهم أن يأكلوا الفطير سبعة ايام وان لا يرى الخمير فى جميع تخومهم » ولعل ذلك من غلط الناسخ ايضا .

ثالثا : لو لم تحرثوا على عجلتى لما عرفتم احجيتى ! فان مستندكم هو ما نصصته فى أول كتابى من أن التوراة لا يوجد بها سند متصل . ولكن اعلموا علمكم الله الخير ان اليهود اذا كانوا قد منوا كتابهم بالتحريف فليس معناه انهم قد غيروا جميع المعالم وهدموا البيت من الأساس . بل هم على اثارة منه وان حرفوه ، بدليل ان الله تعالى قال لهم (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) فلولا أن الله تعالى يعلم أن منها ما هو باق — لم يتحول — لم يستدل بها عليهم ويقيمها حجة على زيغهم عنها . وليست مسائل العبادات والأعياد مما يقصد بالتغيير والتصرف . وانما هى الأمور التى تعود عليهم بالفائدة كحل الربا مع الأجنبى اذا كان اليهودى هو رب رأس المال . ومثل تأثيم الانبياء ليخففوا عن انفسهم ملامة الوقوع فى الاثم . وتغيير وصف رسول الله .

وعلى الجملة فان الأعياد والعبادات لم تكن مقصودة بالتغيير .

وايضا فالكتاب قد وجد والأصل عدم تغييره حتى يثبت فيه فقط . وقالوا « وعلى تسليم ان الامر كذلك فما المانع من أن تمر الأعياد والطقوس وتأتى سليمان زوجته لتقدم اليه الفطير فى عيد الفصح فتراه واقفا على عصاه بهيئة المصلى فترجع ؟ ولم لا يجوز ان تكون عادة سليمان ان يتعبد وحده عبادة خاصة به وفى حالة قيامه بها لايستطيع احد من الانس والجن ان يقرب مكانه » =

قال ابن جرير : حدثنا أحمد بن منصور حدثنا موسى بن مسعود حدثنا أبو حذيفة حدثنا ابراهيم بن طهمان عن عطاء عن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كان نبى الله سليمان عليه السلام اذا صلى رأى شجرة بين يديه فيقول

= اقول : ان سليمان نبى كريم وملك عظيم له الخدم والحشم والعبيد يحرصون عليه ويخدمونه ولا يفترون عن ذلك ولا يقصرون ، ولا يمكن أن يهملوه ويسقطوه من حسابهم بلا اكل ولا شرب ولا تغيير ملابس ولا نظر فى شىء من مصالحه ومصالح ملكه ! والفروض التى ذكرتموها لا تقوى على ان تمر من الامتحان سالمة .

ان الملك من الملوك اذا تأخر عن الظهور للناس يوما واحدا ، أو تغير وقت خروجه الى عمله اضطربت الأفكار وملكت الناس الهواجس ورموا بالظنون كل مرمى وما كان سليمان بدعا منهم .

وهل يظن حضراتهم أن زوجة سليمان أو قيم طعامه اذا جاء بالطعام فى عيد أو غيره ووجده بهيئة المصلى يكون ذلك مسوغا لاهماله واطراحه سنة كاملة .

يا قوم ان أحدكم تضل دجاجته او لا تعود الى قنها أو عنزه فلا تأتى من الحقل فلا يهدأ له نوم ولا يقر له قرار حتى يأتى بالمنادى ينادى عليها ويصرح بالجعل لمن يردها ! فكيف تنام أمة سنة كاملة عن نبيها الكريم وملكها العظيم ؟ انى أقول ان هذا مستحيل فى مجرى العادة ، وكل كلام يخالف ذلك لا يقام له وزن ولا يساعد عليه منطق ولا عرف ملوك ولا سوقة . وكله مماحلة لا جدوى منها .

قالوا « واما الأمر الثانى فيتوقف .. الخ » فهم يقدرون ان سليمان يجوز أن يكون مهملا . فى مملكته وفى بيته وفى نظر جيرانه من الملوك — فلا يأتيه رسول ! ولا يطالعه أحد بتمام عمارة قلعة ! ولا بالشروع فى عمل حصن ! ولا بقدوم سفن ! ولا باقلاع أسطول ! ولا بشىء مما يجرى فى هذا العالم . ويمكث مهملا سنة تامة لا يأتيه خطاب ولا يقدم عليه رسول فى عيد ولا موسم !

هذا منطق يحتاج الى أمة لم تخلق وعقول ليست من هذا العالم .

الم يقرأوا قول الله تعالى حكاية عن ملكة سبأ (وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) وقول سليمان لرسلها (أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) وان ملكة سبأ جاءت الى سليمان واحتفى بها أيما احتفاء وبنى لها صرحا ومرده بالقوارير وبالغ فى الزينة لها وأتاها بعرشها ... الخ فهذه حجة من القرآن الكريم على أن سليمان كان يقصد بالوفود من اقاصى الممالك فما بالكم بجيرانه الادنين فهذه حجة قرآنية اظن انهم لا يردونها .

قالوا « وعلى تسليم ذلك فما المانع من أن يكون له عرفاء ورؤساء ينوبون عنه فى مقابلة الوفود واداء هذه المهمات وأن يكون له قضاة من قبله يفصلون فى الخصومات كما هو الحاصل الآن » ؟

اقول ان العرفاء والرؤساء الذين ينوبون عن الملك لا يستغنون عن مطالعته فى أمر القادمين ، وما ينبغى أن يكافئوهم به أو ما يعدونه لهم من النزل ، والقادمون لا بد ان يؤدوا الى ملوكهم عن الملك جوابا عن رسالاتهم . وما كان النواب ليستقلوا بذلك دون الملك ودون مطالعته فى تلك الشؤون !

قالوا « وبعد فلنشرع فى تزييف الاحتمالين » الى ان قالوا « فان قال يقدر فى نظم الآية بأن يقال فلما مات اى علم الجن بموته قلنا فأى دليل على هذا التقدير ؟ وهل يجوز أن يفاد هذا المعنى بمثل هذا التركيب لدى المبتدئين فى فن الكتابة » .

اقول أن قليلا من الفكر يهدى حضرات أصحاب الفضيلة الى ان هذا التقدير سائغ ليس فيه غرابة وانه لا اعتراض عليه . وان قليلا من التدبر يهدى حضراتهم الى أن هذا التقدير بنفسه لازم جدا للوجه الذى اختاروه وهو أن سليمان مكث سنة ميتا وانه خر أى سقط حين أكلت الأرضة عصاه فان مجرد سقوطه لاتتبين من الجن انهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين بل لابد من تقدير علمهم بالموت والمكث سنة وأكل الأرضة لمنسأته ثم سقوطه بعد ذلك وما أطول ما يقدر على الوجه الذى اختاروه ! =

لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا ، فيقول : لأى شىء أنت؟ — فإن كانت تغرس غرست وان كانت لدواء كتبت — فبينما هو يصلى ذات يوم اذ رأى شجرة بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب ، قال : لأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت ، فقال سليمان عليه السلام : اللهم

= وبعد هذا فانى أسائلك أيها القارىء الكريم — أليس مما يضحك الثكلى ويبكى العروس أن يأتى أصحاب الفضيلة (مع حفظ الألقاب كما يقولون) محمد البديوى وعيسى منون ومحمد على العزبى ومحمود أبو دقيقة وابراهيم الجبالى ويقولون لعبد الوهاب النجار معرضين به فى فن الكتابة « وهل يجوز أن يفاد هذا المعنى بمثل هذا التركيب لدى المبتدئين فى فن الكتابة » .

لقد وجدت عندى لسانا قائلا . ولكنى لم اجد مجال القول ذا سعة (لقد ضاق شبر عن مسير) والسكوت فى هذا المقام أجدى وحبس القلم احجى .

هنيئا مريئـا غير داء مخـامر لعزة من أعراضـنا ما استحلت

ورحم الله المعرى اذ يقول : (لك يا منازل فى القلوب منازل) والقارىء يستوفى القصيدة اذا شاء .

أتى بعد ذلك أصحاب الفضيلة على سبيل الاستفهام بأسئلة كثيرة متداركة وتشقيقات متعاقبة — وها أنا أذكر ذلك وأعقب كل سؤال بجوابه تاركا الاجابة عما يعلم جوابه من جواب سواه .

(١) هل الأرض التى وجدت العصا ملقاة عليها هى التى يشتغل فيها الجن . أو هى التى مات فيها سليمان عليه السلام ؟ فان كان الأول فمن الذى أوصل العصا الى تلك الأرض ؟

والجواب . ان الأول ممنوع والمفهوم ان سليمان لما مات وضعت عصاه فى مكان خصص لاحراز أمتعته فيه من كسى وغيرها .

(٢) وان كان الثانى فمن الذى مكن أحد أفراد الجن من أن يترك عمـله ويأتى الى بلد سـليمان حتى رأى العصا ملقاة على أرضها .

اقول أن الجن أرواح لا نعرف حقيقتهم وكنههم فلعلهم يقدرون على الوصول الى الأمكنة البعيدة لا يحجبهم حاجب ولا تمنعهم أبواب ولا جدران وأغلاق ، ولنـا فى حـادثة العفريت الذى من الجن الذى قال لسليمان عن عرش بلقيس (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين) أكبر عبرة .

(٣) فان قال : انه لم يكن ممن يشتغل فى الأمكنة البعيدة بل هو من المقيمين فى بلد سليمان ؟ قلنا : فهل يعقل أن يكون موجودا فى البـلد ولا يعلم بموت سليمان ؟

الجواب : لا تلازم بين عدم الاشتغال فى أمكنة بعيدة والاقامة فى بلد سليمان ؛ فقـد يكون من المقيمين فى مصر ولا يشتغل بعمل لسليمان ، فيموت سليمان وهو فى بلد بعيد غير بلد سليمان ولا هو مكلف بعمل له ولا يعلم بموته ، ويقدم بعد مدة على بلد سليمان ثم يرى ما يرى ويستدل ويعلم .

(٤) نحن اذا طبقنا هذه الحادثة على النواميس الطبيعية وعلى المعتاد فى امثالها نقول : انه لا يعقل أن يموت موتا عاديا مثل سـليمان — ذلك الملك العظيم الذى كان ملكا على الانس والجن والطير وغيرها — ولا يعلم موته معظم أفراد رعيته ؟

الجواب : أرجو حضرات أصحاب الفضيلة أن يكفوا عن ذكر النواميس الطبيعية فانها مألومـة منهم . لأنها تعلم أنهم هم الذين يحكمون بشلها وتعطيلها عن عمل خلقت له لغير داع يدعو الى ذلك وبلا برهان أتاهم . ومن الخطر على حضراتهم أن يجعـلوا العـادة حاكما يقبل حـكمه وهم الذين يجانبونهـا ويجانبون كل ناموس طبيعى فى أمر سليمان وفى موته ! فهل يريدون أن يحلوا الالتجاء الى النواميس والعادة عاما ويحرمونه عاما بلا سلطان ولا برهان بل بمجرد التشهى ؟

وقد سبق أن قلت فى كتابى — مستندا الى النواميس الطبيعية والى ما جرت به العادة : انه ليس مما يسوغ فى العقول أن يموت سليمان وهو الملك والنبى الكريم ويبقى سنة واقفا متكئا على =

عَمِّ على الجن موتى حتى يعلم الانس أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا ميتا والجن تعمل ، فأكلتها الأرضة فتبينت الانس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولا فى العذاب المهين » .

= عصاه ولا يعلم به أحد من جنوده ونسائه وأولاده وخدمه وينسى كل هؤلاء أنه يحتاج الى طعام وشراب واغتسال ودفء وملابس تصلح لأيام الصيف اذا أظل وأخرى لأيام الشتاء ويهملونه من حسابهم فى مصالحه وسائر مصالح الملوك — التى لا تشبه مصالح الأفراد — ولا يطالع بشيء من شؤون ملكه ؛ فدفع حضرات السادة الأفاضل فى صدر النواميس الطبيعية وفى صدر العادة لمناكير من الأحاديث واسرائيليات مما لفقه مسلمة أهل الكتاب ! فمن فعل ذلك يجب عليه أن يغض طرفه حين تذكر العادة أو النواميس الطبيعية وأن يغطى رأسه حياء .

(٥) ثم يقال هل تلك العصا كانت ممتازة معروفة حتى عرفها الجنى وتقصى بواسطتها أو لا فان كان الأول : فكيف ترمى على الأرض رمى القمامة ؟ وان كان الثانى فكيف عرفها الجنى ؟ الجواب: يعلم الانس والجن أن عصا الملك أى صولجان الملك تعرف وتمتاز عن عصا «المارشال» وعن عصا «البابا» وعصى سائر أرباب الرتب الكهنوتية — من مطران وأسقف وقسس — وعن عصا الظرفاء وأهل الكياسة والترف وعن عصا « الحلوانى الجبار » رحمه الله ، وكان ثمنها يزيد على ثمانمائة جنيه وكان بها من الجواهر والحجارة الكريمة شيء كثير ، يحملها وهو يرقص على نغم الموسيقى البلدية فى شوارع القاهرة، وعن عصا الدكتور « عبد الحميد سعيد » التى لا يجهلها أحد ممن رآها وعن عصا رجال البوليس وعن عصا رجال المنابر وقطاع الطريق ، وعن عصا الضباط والعساكر . ومن الجائز أنها كانت فى مكانها غير مطروحة ولكنها وقعت على الأرض بسبب اصطدام حيوان بها كفأرة وبنت عرس ، فأخذت الأرضة فى أكلها وابتدأت الأرض الكثيرة فى أكلها وهى مستندة الى الحائط ، وهذا أمر جائز واقع كثيرا .

(٦) وعلى تسليم أنه عرفها — على أى حال فمن أى وجهة استدل بواسطة أكل الأرضة منها على حدوث حدث حتى تقصى الأمر فعرف أن صاحبها سليمان قد مات ؟

الجواب : وجه معرفته ذلك أن سليمان كانت العصا التى هى شارة ملكه لا تفارقه ، كما أن مشايخ الطرق لا تفارقهم عصيهم ، فاذا رآها قد أكلتها الأرضة عرف أن صاحبها لم يفارقها — مدة تمكن الأرضة من أكلها — الا لحدث حدث له ، فتقصى فعلم !

(٧) هل فى رميها واستبدالها بما هو أحسن منها ما يدل على حدوث أمر غريب عجيب يحمل الجنى على التقصى والبحث ؟

الجواب : الصواب فى نظم الكلام أن يقال « واستبدال ما هو خير منها بها » لتدخل الباء على المتروك . وبعد ذلك أقول أن سليمان ما اختار عصاه الا بعد أن استجاد نوعها فكان أجود ما عرف وتركها على كل حال أمر يحمل على البحث ، كما اذا رأى انسان سيفا لقائد قد ركبه الصدأ . فان ذلك يدعوه الى الوقوف على سبب اهماله وتركه حتى صدىء !

يأخذ حضرات أعضاء اللجنة والمفسرون من عبارة (ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) أن المدة التى ندموا على مرورها عليهم فى العمل لا بد أن تكون عظيمة . وبذلك يسوغون أنها سنة .

أقول : ان الذى يحتقر ساعة تمضى على صاحبها وهو فى العذاب المهين لوثيق عقدة الرجاء فى أن يصبر على العذاب . والحق أنه لا يستهين بالعذاب الا من سفه نفسه ! وأن الجن من حقهم أن يأسفوا على تعمية موت سليمان عنهم يوما أو ساعة قضوها فى الأعمال الشاقة والعذاب المهين . وعلى ذلك فليس من الضرورى أن تكون المدة سنة بل اليوم الواحد كاف فى تسويغهم هذا الندم .

قالوا : على أنه لا يجوز أن تكون دابة الأرض المذكورة فى القرآن دابة أخرى غير ما هو معروف انها

قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك . قال فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث ابراهيم بن طهمان به وفى رفعه غرابة ونكارة . والأقرب أن

= والجواب : انى قدمت مثل هذا القول وقلت ان دابة الأرض قد تكون حيوانا من الحيوان القراض الذى يقرض الخشب ، وحينئذ لا يمكث السنة التى يقولونها .

جاء بعد ذلك حضرات الأفاضل بكلام فى شأن الأرضة اذا قرأه الانسان قابله بالابتسام !

اذ حضرات الذين صاغوا هذه الاسرائيليات فى أمر سليمان والمفسرون الذين تلقوها أبانوا عن عدم علم بحياة هذا الحيوان وطبيعته . فهم يقولون ان الجن شكرت للأرضة فعلها وأتتها بالطين فى الخشب وبالماء أيضا ! كأن الأرضة قبل ذلك لا يكون عندها طين ولا ماء بل حدث بعد ذلك .

ولو علموا ان الأرضة تهضم طعامها من الخشب فيصير ما تتبرزه طينا . وما تتبرزه غير مهضوم تأكله مرة أخرى — ليتم هضمه حتى يصير طينا — لخجلوا ان يقولوا ما قالوا بلا علم ولا بينة .

واما الماء فان الأرضة تعمل فى مأرضها بئرا تستقى منه الماء وقد يبلغ عمقها الى تسعين قدما ، « تراجع مقالة الدكتور مأمون عبد السلام المنشورة فى أهرام ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » .

اما قوة الأرضة على أكل الأشياء بسرعة ! فمثال ذلك ما ذكره المقريزى فى خططه من ان الأرضة قد سطت على بيوت الحسينية واكلت كل ما فيهامن خشب ومن جدران حتى اضطر أهل الحسينية — من ناحية باب الفتوح — ان يهدموا بيوتهم لينتفعوا ببيع أخشابها وأنقاضها قبل أن تأكلها الأرضة

ومن مقالة الدكتور مأمون عبد السلام المذكورة قوله :

والأرضة موجودة بكل القارة الافريقية ، فمنها أحد عشر نوعا فى السودان تفتك فتكا ذريعا بالمحاصيل والأخشاب ، فقد رآها « السر صموئيل بيكر » فى مناطق المستنقعات ببحر الزراف . وكانت تزحف بجيوش لا نهاية لها ، فجردت القمح والشعير — الذى زرعه الجنود المصريون تحت قيادته — فى منطقة « جوندوكرو » من جميع حبوبه ، وكانت كل واحدة تحمل القمح والشعير فى فمها وتنقله الى بيتها — حبة حبة — وقد وجدت فى هذه الجحور أكوام مكدسة من الحبوب ...

والأرضة أفتك الآفات واشدها ضررا بالانسان ، فقد ذكروا أنها هاجمت مدينة « جيمز تاون باستراليا » فتهدم نصف هذه المدينة بسببها فأعادوا بناءها .

وهذه الحشرة واسعة الحيلة لا يعتورها قنوط . تأرض كل شىء ، حتى الحديد على صلابته فانها تبصق عليه من لعابها فيصدأ فيسهل عليها نخره . وهى تتلف أشجار البرتقال فى ولاية « فلوريده — بأمريكا » بأن تحز ساقها تحت الأرض وتقتلها ا هـ .

وعلى العموم فان المقالة متعة يجدر بكل ذى علم أن يقرأها .

بلدة تلتهمها حشرة

جاء فى جريدة الجهاد أول يوليو سنة ١٩٣٦ :

انشئت مساكن بلدة « برسيق » التابعة لمركز « ابى حمص — بحيرة » على كوم قديم به مقابر عتيقة . ومنذ زمن ليس ببعيد تفشت فى مساكنها حشرة أو دويبة صغيرة يقال لها « الأرضة » أو النمل الأبيض ، وتكاثرت بدرجة مخيفة وجعلت تلتهم كل شىء فى هذه المساكن ، ولم تبق حتى على جدرانها ونوافذها وسقوفها ، الى ما تلتهمه من المحصولات وآلات الزراعة والثياب ، ولم تبق على شىء .

ولا يمكن مكافحتها لأنها تعيش فى أنفاق وسراديب تحت جدران البيوت ، ولها قرى فى اغوار الأرض تحت المساكن ، ولها ملكات تبيض الواحدة منها بيضة كل ثانية ، فهى لذلك لايمكن محاربتها او التخفيف من ضررها . والعلاج الوحيد هو النزوح بعيدا عنها وترك القرية المصابة .

لذلك قدم سكان هذه القرية التعيسة شكوى لصاحب الدولة الرئيس الجليل يلتمسون نقل قريتهم هذه الى جهة بعيدة عن موقعها الحالى ، وبناءها على طراز القرى النموذجية .

وبعد هذه السياحة والأخذ والرد أقول لحضراتهم ان « ابن كثير » بعد ان ذكر موت سليمان وما فيه من الأقوال التى قالها حضراتهم واوردوها قال « وهذا فيه الاسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب » فما الذى جنيته اذا عدلت عنها الى تقرير أمر معقول ؟ وايراد احتمالات ليس فيها ما ينقص من قدر سليمان ولا يضر بمقامه عليه السلام ؟

مما تقدم : نجد انتقاد حضرات الأفاضل ليس فيه حجة تدحض ما قلت . وأن كلامى وجيه ليس من الأدلة ما يرده أو يمنعه ! بل هو المعقول والجدير بالقبول .

يكون موقوفا . وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات وفي بعض حديثه نكارة . وقال السدي : في حديثه نكارة .

وقال السدي في حديث ذكره عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود رضي الله عنه وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم قال « كان سليمان عليه السلام يتحرر في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه . فأدخله في المرة التي توفي فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يصبح فيه الا ينبت الله ببيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها فيقول : ما اسمك؟ فتقول الشجرة : اسمي كذا وكذا فان كانت لغرس غرسها وان كانت تنبت دواء كذا وكذا فيجعلها كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة فسألها : ما اسمك ؟ قالت الخروبة ، قال : ولأي شيء نبت ؟ قالت : نبت لخراب هذا المسجد ! قال سليمان عليه السلام : ما كان الله ليخربه وأنا حي ! أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس ! فنزعها وغرسها في حائط له . ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئا على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين . وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج عليهم فيعاقبهم ، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول ألست جلدا ان دخلت فخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر الى سليمان عليه السلام في المحراب الا احترق ، فمر ولم يسمع صوت سليمان وكان عليه السلام قد سقط ميتا ، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ، ففتحوا عليه فأخرجوه . ووجدوا منسأته — وهي العصا بلسان الحبشة — قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة . وهي في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه . فمكثوا يدينون له من بعد موته حولا كاملا فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ، ولو أنهم يطلعون على الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له . وذلك قول الله عز وجل (ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) يقول تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم .

ثم ان الشياطين قالوا للأرضة لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام . ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ؟ ولكنا سننقل اليك الماء والطين . قال : فهم ينقلون اليها ذلك حيث كانت . قال : ألم تر الى الطين الذي يكون في جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيها الشياطين به شكرا لها ! وهذا الأثر — والله أعلم — انما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب . وهي وقف لا يصدق منه الا ما وافق الحق ولا يكذب ما خالف الحق ، والباقي لا يصدق ولا يكذب .

وقال ابن وهب وأصبغ بن الفرج : عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تبارك وتعالى

(ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته) قال سليمان عليه السلام لملك الموت اذا أمرت بى فأعلمنى ، فأتاه فقال : يا سليمان قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قواوير وليس له باب ، فقام يصلى فاتكأ على عصاه . ولم يصنع ذلك فرارا من ملك الموت . قال : والجن تعمل بين يديه وينظرون اليه يحسبون أنه حى قال: فبعث الله عز وجل دابة الأرض قال : والدابة تأكل العيدان يقال لها القادح . فدخلت فيها وأكلتهـا ، حتى اذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ميتا . فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا . قال فذلك قوله تعالى (ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته) قال أصبغ : بلغنى عن غيره أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر . وذكر غير واحد من السلف نحوا من هذا والله أعلم .

هـذا ما أورده الحافظ بن كثير فى تفسيره . ونحن اذا نظرنا الى متن الحـديث وجدناه مضطربا ومخالفا لسنة الأنبياء وخصوصا فى عهد بنى اسرائيـل . اذ شريعتهم تقضى على كل اسرائيلى أن يأتى فى العيد ويقرب القرابين ويقوم بالطقوس الدينية ، وسليمان شريعته التى يتبعها هى التوراة التى جاء بها موسى — وليس له شريعة سواها — وغير معقول أن يكون سليمان النبى الكريم هو الذى يخالف الشريعة ويمكث فى محرابه دون أن يقوم بالمراسم التى أوجبتها التوراة على كل اسرائيلى فيغيب عنها فى وقت يقوم بها فيه الرؤساء والسوقة . واذا فعل يكون قد سن لبنى اسرائيل سنة سيئة تجرىء سواه على مخالفة الشريعة التى أمر الله بنى اسرائيل بحفظها وعدم الاخلال بها ، ورفع فوقهم الطور للعمل بها .

ومعـلوم أن اليهود فى عيد الفصح يجب عليهم أن يأكلوا الفطير سبعة أيام ، وأن لا يرى الخمير فى جميع تخومهم . فاذا كان سليمان قد مكث سنة ميتا ! أفما كان له زوجة تسأل عنه وتبعث له بالفطير الواجب فى الفصح فتعلم أنه ميت ؟ وعنده ألف امرأة !

فى ص ١٦ تثنية ف (١٦) ثلاث مرات فى السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب الهك فى المكان الذى يختاره فى عيد الفطير . وعيد الأسابيع وعيد المظال ولا يحضروا أمام الرب فارغين (١٧) كل واحد حسبما تعطى يده كبركة الرب الهك الذى أعطاك .

فمن الذى يقوم بتلك المراسم عن سليمان والله لم يسن لهم البدل ؟

ثم ان سليمان — بمقتضى مركز الملك الذى يشغله — عليه مسئولية اقامة العدل بين الناس كما كان يفعل داود ، وقد رأينا داود فى فصل خصومة الحـرث الذى نفشت الغنم فيه ، وفى سماعه الخصومة فى نعجة . فما كان سليمان بالذى يغيب عن خصومات قومه ونوازلهم ، وبكل فض الخصومات لقوم هم أقل منه فهما وعاما !

وهو أيضا بمقتضى منصبه الملكى تأتيه الوفود من الملوك . ويطالعه العـرفاء والرؤساء بمشكلات نواحيهم . فليس من المعقول أن يكون قد مات وبقى سنة كاملة لا يعلم بموته أحد ويهمل اهمالا لا يهمله أحد من السوقة !

والمسألة تحمل على أحد وجهين :

الأول — أن يكون قدمات — كما يموت سائر الناس — وبقى موته معمى على الجن دون سواهم من الانس ودفن وانتهى أمره . وقام فى الملك ابنه والجن فى أمكنة نائية . كـ « تدمر » لا يفترون عن العمل دائبين عليه خشية أن يعاقبهم سليمان . وبعد مدة لم يحددها القرآن علم أحد الجن بموته اذ رأى عصاه ملقاة على الأرض ، فرفعها فاذا الأرضة قد أكلتها . فاستدل من أكل الأرضة اياها أن سليمان قد تركها ملقاة على الأرض مدة طويلة ، وما كان ليتركها الا لحدث من موت أو مرض ! (1) فتقصى الأمر فاذا هو قد مات . فأعلم الجن بالأمر وكانوا لا يعلمونه ، كما كانوا يوهمون الناس ويتوهم الناس لهم أنهم يعلمون الغيب . وأيقنوا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين .

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى (فلما خرّ) أى مات لا (خرّ) وقع على الأرض لعجز العصا عن حفظ توازنه .

قال فى القاموس : والخر : السقوط — كالخرور — من علو الى أسفل ؛ يخر ويخر والشق . والهجوم من مكان لا يعرف . والموت .

وفى لسان العرب ج ٥ ص ٣١٧ : و (خر) أيضا مات . وذلك أن الرجل اذا مات خر . ومن ذلك قول حكيم بن حزام « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أخرّ الا قائما » معناه أن لا أموت . لأنه اذا مات فقد خر وسقط .

الوجه الثانى — أنه عليه السلام وجد فى محرابه فأدركه الموت وهو جالس متكىء على عصاه ، فجاءت الأرضة واشتغلت بأكل طرف العصا ، فأكلت بعضه فانهار الجزء الذى أكلته فاختل توازنه فخر ، فدل ذلك أهله على موته . وأكل جزء من العصا يكون انهياره سببا فى اختلال التوازن لا يحتاج الى زمن طويل . ومن رأى فعل الأرضة فى « دنقلة العجوز » لا يستبعد ذلك . فقد أخبرنى المرحوم الشيخ محمد بك الخضرى أنه أهمل وضع أرجل مكتبه فى اناء فيه ماء وهو بدنقلة ، فلم تمض أيام حتى وجد الأرضة قد أثرت فى جزء مهم من تلك الأرجل . وترك جبته بجانب الحائط بضعة أيام ثم جاء اليها فاذا بها بهيئة الجبة . فلما مد يده اليها فاذا هى هبـاء .

ثم ان مرجع الضمير فى قوله (ما دلهم) يحتمل أنه الجن ، ويحتمل أنه آل داود الذين هم آل سليمان أيضا . وهم المذكورون فى قوله آخر الآية قبلها (اعملوا آل داود شكرا) .

وأيضا فانهم يقولون : انهم أرادوا بعـد موت سليمان أن يعرفوا وقت موته ، فوضعوا

---

(1) حمل العصا كان من شارات الرياسة . والرئيس — وبخاصة من كان ملكا كسليمان — لا يترك عصاه ما دام صحيحا معافى .

الأرضة على العصا .. الى آخره . فما هذه الأرضة التى تمتـد اليها الأيدى فتقر طائعة على العصا ؟ وتأخذ فى أكلها حتى تعلمهم مقدار ما أكلت ! — ان هذه الدابة وأمثالها اذا أخذت باليد ووضعت فى مكان لا تستقر بل تمعن فى الهرب . وأى دليل عندهم على أرضة واحدة فقط هى التي تولت أكل المنسأة حتى يعلموا أنها أكلتها فى سنة ؟ وهل هناك برهان على أنها لم تكن مئين أو آلافا وهم انما أتوا بفرد أرضة دون أرض كثيرة . وهل يوافق علماء الحيوان على أن الأرضة تبقى سنة حية ولا تلد ؟ وهل هى من الحيوان الذى يعيش منفردا عن أبناء جنسه ؟

وأيضا شكر الجن للأرضة واتيانها بالطين والماء — وهى فى جوف الخشب — شىء حصل بين الجن وبينها ! فمن الذى أعلم الناس ذلك وهذا السر بين الأرضة والجن ؟ وأما اتيـانها بالطين مكافأة لها على ذلك فلا يدريه الا من وقف على أحوال الأرضة قبل موت سليمان ! ثم رأى أن تلك الأحوال تغيرت بعده !

وعندى أن ذلك كله من التخرص الذى لا تقوم عليه بينة ولا يهدى اليه دليل . وبعـد هذا كله ؛ فما المانع من أن تكون دابة الأرض التى أكلت عصا سليمان هى بعض من الحيوان القراض كالفأر ونحوه من الحيوان الذى يقرض الخشب ؟ أجل ان الألوسى رد هذا الوجه وانى أخالفه وأقول انه احتمال وجيه ؛ فان الفأر من دواب الأرض يتخذ مسكنه فيها .

وعلى كل حال ؛ فمكث سليمان سنة أو نحوها أمر زائد عماتدل عليه الآية الكريمة ولا يوجد نص صريح فى تلك المدة . وأحد الرأيين اللذين قدمتهما كاف فى الخـروج من كل اشـكال أو اعتراض . وأولهما أولاهما .

أيوب عليه السلام

من الأنبياء الذين قص الله علينا قصصهم فى القرآن « أيوب عليه السلام » .

وقد ذكر اسمه فى القرآن الكريم أربع مرات « فى الآية ١٨٦ من سوورة النساء وفى الآية ٨٤ من سورة الأنعام وفى الآية ٨٣ من سورة الأنبياء وفى الآية ٤١ من سورة ص » وقد ورد ذكر أيوب فى كتب أهل الكتاب ، وله سفر خاص به من الأسفار القانونية فى العهد القديم .

قال البستانى فى دائرة المعارف صفحة ٨٠٤ من المجلد الرابع : انه رجل مشهور بالاستقامة والتقوى والصبر ولذلك لقب بالصديق وضرب به المثل بالصبر .

ويقال انه « عوص » بكر « ناحور » أخى ابرهيم . وقيل هو « يوباب » حفيد « عيسو » ابن اسحق .

كان موطنه أرض عوص ، ويظن أنها جزء من جبل سعير أو بلاد أدوم . قيل انه كان قبل موسى ، وقيل قبل ابراهيم بأكثر من مائة سنة — وهو أرجح — ومن أراد الوقوف على تفاصيل قصته فليطلبها من السفر المنسوب اليه من العهد القديم .

وسفر أيوب هو أحد أسفار العهد القديم القانونية . وهو يحتوى على ٤٢ اصحاحا جمعها خمسة فصول كبيرة :

الأول : يذكر تقوى أيوب وأملاكه وأقاربه وصفاته .

الثانى : يتضمن ما جرى بينه وبين أصحابه الثلاثة من الجدال .

الثالث : أقوال الحكمة التى نطق بها « الياهو » أصغر أصحاب أيوب [1] .

الرابع : يذكر مخاطبة الله اياه من العاصفة .

الخامس : يتضمن خضوعه وشفاءه وتعويض ما فقده من المال والأهل .

وجاء فى صفحة ١٤٨ ، ١٨٥ من الجزء الأول من « اظهار الحق » معقبا على ما نقله من أقوال « بيلى » فانظر أيها اللبيب ان كلام محققهم مطابق لكلامى أم لا ؟ وما قال ان بين علماء المسيحية نزاعا فى حقيقة أيوب بل فى وجوده قديما ، فأشار الى الاختلاف القوى لأن « رب ممانى ديز » الذى هو عالم مشهور من علماء اليهود وكذا « ميكايلس » وكذا « وسملر » و « استاك » وغيرهم قالوا ان أيوب — اسم فرضى — وما كان مسماه فى وقت من الأوقات . وكتابه حكاية باطلة وقصة كاذبة . « وكانت » و « انتل » وغيرهما قالوا : انه كان فى نفس الأمر .

---

(١) اصحاب أيوب الذين ذكروا فى سفره هم «اليفاز التيمانى ، وصوفر النعمانى ، وبلدد الشوحى ، والياهو » .

ثم القائلون بوجوده اختلفوا فى زمانه على سبعة أقوال :

١ — أنه كان معاصرا لموسى عليه السلام .

٢ — أنه كان معاصرا للقضاة .

٣ — أنه كان معاصرا « هاسى روس » أو « أزدشير » سلطان ايران .

٤ — أنه كان معاصرا ليعقوب عليه السلام .

٥ — أنه كان معاصرا لسليمان عليه السلام .

٦ — أنه كان معاصرا نبختنصر .

٧ — أنه كان قبل الزمان الذى جاء فيه ابراهيم عليه السلام الى كنعان .

وقال « هورن » من محققى فرقة بروتستانت: ان خفة هذه الخيالات دليل كاف على ضعفها.

وكذا اختلفوا فى « غوط » بلده — الذى جاء ذكره فى الآية الأولى من الباب الأول من كتابه — بأنه كان فى أى اقليم ؟ على ثلاثة أقوال :

١ — فقال « بوجارت » و « أسباهم » و « كامت » وغيرهم : انه فى اقليم العرب .

٢ — وقال « ميكايلس » و « الجن » انه فى شعب دمشق .

٣ — وقال « لود » و « ماجى » و « هيلز » و « كود » وبعض المتأخرين ان « غوط » اسم أدومية .

وكذا اختلفوا فى مصنف هذا الكتاب بأنه : اليهود أو أيوب ، أو سليمان ، أو أشعيا ، أو رجل مجهول الاسم — معاصر للسلطان منسا — أو حزقيال ، أو عزرا ، أو رجل من آل اليهود ، أو موسى عليه السلام الخ ا هـ .

أما نحن فنقول : انه عبد صالح من عباد الله امتحنه الله فى ماله وأهله وبدنه فصبر صبرا جميلا فوهبه الله تعالى العافية وأعطاه أكثر مما فقد من أهل ومال ، وأثنى عليه ثناء جميلا فى قرآنه الكريم وجعله نبيا .

ملاحظتان

(الملاحظة الأولى) ان الناس يروون فى بلاء أيوب أقوالا يوردونها تدل على أنه مرض مرضا مشوها ومنفرا للناس من قربانه والدنو منه .

وهذا يتنافى مع منصب النبوة وقد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزهون على الأمراض المنفرة . فكيف يتفق ذلك مع منصب النبوة ؟

والجواب على ذلك من وجهين :

الأول — أن الابتلاء — على الوجه الذى يقولون — كان قبل النبوة وأن منحة النبوة انما كانت لما بدا منه من الصبر والرضا بما أصابه من مكروه وملازمته جانب الرضا عن الله تعالى

الثانى — أن المبالغين فى ضر أيوب انما اعتمدوا فيما يقولون على ما جاء عند أهل الكتاب « فى السفر المسمى : سفر أيوب » واذا ثبت أن هذا السفر حقيقى فعبارته مؤولة .

ففى هذا السفر ما نصه : فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح ردىء من باطن قدمه الى هامته . فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس فى وسط الرماد « ص٢أيوب » .

لأنه مثل خبزى يأتينى أنينى ومثل المياه تنسكب زفرتى « ص ٣ آية ٢٤ » .

١ — قد كرهت نفسى حياتى . أسبب شكواى . أتكلم فى مرارة نفسى « ص ١٠ » (٣٨) « ص ١٣ » وأنا كمسوس يبلى كثوب أكله العث .

قرءوا ذلك فحسبوا هذا على وجه الوصف الحقيقى ! ولو تدبروا لعلموا أن سفر أيوب يشبه قصائد شعرية قيلت فى وصف ضره وصبره ، والشعر فى كل لغة ميدان المبالغة .

انظروا الى قول عمر بن الفارض رضى الله عنه :

فطوفان نوح عند نوحى كأدمعى ... وايقاد نيران الخليل كلوعتى

فلولا زفيرى أغرقتنى مدامعى ... ولولا دموعى أحرقتنى زفرتى

وهذا المتنبى يقول :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل ... لولا مخاطبتى اياك لم ترنى

ويقول : ولو أن ما بى من جوى وصبابة ... على « جمل » لم يدخل النار كافر

أى أن الجمل يلج حينئذ فى سم الخياط ويحصل المعلق عليه فى قوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) .

وآخر يقول :

ولو قلم ألقيت فى شق رأسه ... من السقم ما غيرت من خط كاتب

وآخر يقول :

نحلت فلو علقت فى رجل ذرة ... لطارت ولم تشعر بأنى تعلقت

ولو نمت فى جفن الذباب معرضا ... من السقم لم تشعر بأنى قد نمت

(الملاحظة الثانية) أن القرآن الكريم ذكر ان الله أمر أيوب أن يأخذ بيده ضغثا فيضرب به وبذلك لا يكون حانثا فما هذه الحادثة ؟

والجواب : عن البيضاوى روى أن زوجته ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف ان برىء ليضربنها مائة ضربة فحلل الله يمينه بذلك ، وهى رخصة باقية فى الحدود .

وعن الألوسى — أن امرأته « رحمة » بنت أفرايم أو منسا بن يوسف . أو « ليا » بنت يعقوب . أو « ماخير » بنت منسا بن يوسف —على اختلاف الروايات— ذهبت لحاجة فأبطأت

أو بلغت أيوب عن الشيطان أن يقـول كلمة محظورة فيبرأ ، وأشارت عليه بذلك . فقالت له : الى متى هذا البلاء ؟ كلمة واحدة ثم استغفر ربك فيغفر لك ! أو جاءته بزيادة على ما كانت تأتى به من الخبز فظن أنها ارتكبت فى ذلك محرما فحلف ليضربنها ان برىء مائة ضربة فأمر الله بأخذ الضغث « وهو الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان » ولقد شرع الله تعالى ذلك رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها اياه ورضاه عنها .

وهى رخصة باقية فى الحدود فى شريعتنا وفى غيرها أيضا . لكن غير الحدود يعلم منها بالطريق الأولى .

بقى أن أقول : ان يعقوب ليس له بنت تسمى « ليا » بل ابنته تسمى « دينا » وهذا على علاته انما يتمشى على قول من يقول ان أيوب بكر عيسو أخى يعقوب .

وعلى كل حال ، فلم يرد عند أهل الكتاب أنه كان موجودا فى زمن أفرايم أو منسا ولدى يوسف .

أما ما جاء فى القرآن الكريم عن قصته فاقرءوه فى هذه الآيات :

سورة الأنبياء : وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [٨٣] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ [٨٤].

سورة ص : وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ [٤١] ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ [٤٢] وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ [٤٣] وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [٤٤] .

يونس عليه السلام

ذكر يونس عليه السلام باسمه فى القرآن الكريم أربع مرات « سورة النساء آية ١٦٣ . الأنعام آية ٨٦ يونس آية ٩٨ الصافات آية ١٣٩ » وذكر بوصفه فى سورة الأنبياء فى قوله تعالى

---

(١) نقد اللجنة « الموضوع الخامس » .

(قصة يونس عليه السلام)

فى صفحة ٣٤٥ سطر ١١ ما نصه :

وتلخص – اى قصة يونس – فى أن الله أمره بأن يذهب الى اهل مدينة لهدايتهم وارشادهم الى الله تعالى ؛ فخشى انهم لا يسمعون لقوله . ولما كان امر الله محتما اراد ان يبتعد عن ذلك البلد فنزل فى سفينة ... الى آخر القصة .

ثم قال – فى صفحة ٣٤٦ سطر ٩ – وقال آخرون انه كان احد الملوك غزا بنى اسرائيل واسر منهم تسعة أسباط ونصف سبط . وذلك فى مدة الملك « حزقيل » فاوحى الله الى شعياء النبى ان اذهب الى « حزقيل » الملك وقل له يوجه خمسة من الأنبياء لقتال هذا الملك . وامره ان يخرج ؛ فقال يونس هل امرك الله باخراجى ؟ فقال : لا ؛ قال : هل سمانى لك ؟ قال : لا ، فقال يونس : فها هنا انبياء غيرى ! فألحوا عليه فخرج مغاضبا فاتى بحر الروم ... الى آخر القصة .

ثم قال : وقد ذكر الألوسى وجوها كثيرة فى تفسيره ، واللائق بالحق ان يقتصر فى فهم القصة على ما قصه الله فى الكتاب الكريم . ثم ذكر الآيات الواردة فى هذه القصة .

وبعد ذكر أسئلة واجوبة قال – فى صفحة ٣٤٨ سطر ٢١ – ما نصه :

وفى اعتقادى ان يونس كلف بالذهاب الى أولئك القوم – عقيب نبوته – ولم يكن قد مرن على النبوة وواجباتها وآداب اهلها ، لان العلم بذلك يستدعى مدة وتكرر الوحى والازدياد من معرفة الله والارتياض على تلقى الوحى وتلقينه ، فحداثته فى النبوة هى التى خيلت اليه ما قلنا من أنه خيل اليه انه بابتعاده وتغربه فى البلاد ربما استتبع اعفاءه من تلك المأمورية . اضيفوا الى ذلك أنه كان حديث السن . فقد أورد الألوسى فى تفسيره « ان سنه كانت ثمانية وعشرين سنة . ومن كان حديث العهد بالنبوة ، وفى مثل سن يونس يغفر الله لهم بعض ما عملوه عن غير تمرد وقصد جازم الى المعصية » اهـ كلامه بالحرف .

(راى اللجنة)

ان جاز للمؤرخ ان يعلل حادثة تاريخية حدثت من آحاد الناس بمثل هذا التعليل – كأن يقول السبب فى انهزام الجيش الفلانى أن قائده لم يكن قد مرن على قيادة الجيوش . او السبب فى احتلال نظام الدولة الفلانية فى عهد ملكها فلان أن ذلك الملك كان حديث السن لم يكن قد مرن على ادارة المملكة – فلا يجوز قطعا مثل هذا التعليل فى حق الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين اذا ورد عن واحد منهم ما يوهم تقصيرا ، بل يجب أن يفهم ذلك على وجه لا يتنافى مع ما قام عليه البرهان القطعى من وجوب عصمتهم ، خصوصا فى مقام تبليغ رسالة ربهم الى الأمم التى ارسلوا اليها .

ومن الواضح الذى لا يختلف فيه اثنان من المسلمين ، ان الأنبياء والرسل ليسوا كآحاد الناس ، بل هم افضل منهم جميعا . لأنهم أنبياء الله ورسله اصطفاهم لهداية خلقه واختارهم لأداء رسالته ، وهو سبحانه وتعالى اعلم حيث يجعل رسالته .

(وذا النون اذ ذهب مغاضبا الخ) وذكر بوصفه أيضا فى سورة القلم فى قوله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم) ولم

= فكيف يصح أن يقال بل كيف يصح أن يخطر على البال او يمر على الخيال ان يونس عليه الصلاة والسلام لحداثته في النبوة وعدم مرونه عليها وعلى واجباتها وآدابها خيل اليه أنه بابتعاده وتغربه فى البلاد ربما استتبع اعفاءه من تلك المامورية ؟

ومعنى ذلك أن الله أرسله لقوم فترك تبليغهم الرسالة وفر هاربا فى البلاد ، وظن لحداثته فى النبوة وعدم مرونه على واجباتها أنه بهروبه « كذا » قد يعفى من الرسالة نستغفرك اللهم ونتوب اليك سبحانك هذا بهتان عظيم .

لا يصح أن يقال فى حق أى شخص له شرف ،كلف بأى مأمورية من أى رئيس ، الا فى مقام الذم والاستهجان الذى يجب أن تنزه عنه ساحة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

لو جاز مثل هذا التعليل فى حق يونس عليه الصلاة والسلام الذى ورد فى شأنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : لا تفضلونى على يونس بن متى . أخرجه البخارى . ومثله فى مسلم بمعناه - لجاز ان يقع نظيره من كل رسول . فان كل واحد منهم فى مبدأ رسالته يصح - على هذا الرأى - ان يقال أنه لم يكن قد مرن على الرسالة فيجوز أن يترك تبليغ الأمة المرسل اليها بمجرد توهم لحوق « كذا » الأذى منهم او لحوقه « كذا » منهم بالفعل ، ولا نعتقد ان احدا من المسلمين يجوز مثل هذا على احد من الرسل عليهم الصلاة والسلام !

هذا ولا ندرى السر فى العدول عما قرره ائمة التفسير ، فقد ذكروا فى مغاضبة يونس عليه السلام التى حكاها الله تعالى بقوله (وذا النون اذ ذهب مغاضبا) الآية قولين (الأول) أن مغاضبته لقومه الذين ارسل اليهم . وانما غضب عليهم لعنادهم وتمادى اصرارهم مع طول دعوته اياهم ، فهجرهم بعد أن بلغهم الرسالة ويئس من اجابتهم لدعوته ، لأنه لم يكن مأمورا بالبقاء معهم ، لكن لما كان الأولى الصبر وعدم الخروج من عندهم حتى يؤذن له بذلك . حصل له ما حصل مما ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز ولكون ما وقع منه ليس ذنبا فى الواقع بل تركا الأولى - من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين - كان ما حصل له محفوفا بألطاف الهية ومقرونا بمعجزة باهرة .

(القول الثانى) ان مغاضبته هذه كانت قبل الرسالة وكانت للملك « حزقيل » كما قصه المؤلف فى كتابه . ولما كان الأولى له الامتثال لتادية هذا العمل الخيرى وان لم يكن مأمورا من قبل الله تعالى حصل ما حصل - كما سبق - .

واما ما نقل عن بعض ائمة التفسير كالحسن وابن جبير من ان المعنى (مغاضبا) لله تعالى فانه يتبين تأويله على أن تكون اللام للتعليل ، فيرجع الى المعنى الأول والله أعلم .

هذا ما حققه ائمة التفسير . ومنه ان يونس عليه السلام لم يترك تبليغ رسالة ربه قبل الشروع فى تنفيذها خشية عدم السماع له .

وعبارة المؤلف فى تلخيص القصة تكاد تكون نصا فى هذا الراى المخالف لما حققه ائمة التفسير ، وهو الذى يناسبه تعليله السابق الذى ابطلناه ، وهو رأى منقول عن اليهود ، وقد أبطله ائمة التفسير . فكان الواجب عليه التحرز عن متابعة اليهود خصوصا فى مثل هذه الآراء التى لا تتناسب مع مقام الأنبياء .

قال العلامة الالوسى : زعم اليهود ان الله امر يونس أن يذهب الى اهل « نينوى » وينذر اهلها فهرب الى « ترشيش » من ذلك وانحدر الى « يافا » ونزل فى السفينة فعظمت الأمواج واشرفت السفينة على الغرق . فاقترع اهلها فوقعت القرعة عليه . فرمى بنفسه الى البحر فالتقمه الحوت ثم القاه وذهب الى « نينوى » فكان ما كان !

ولا يخفى ان مثل هذا الهرب مما يجل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ واليهود قوم بهت ا هـ الألوسى والله أعلم .

=

يعلم من نسبه فى كتب التفسير والحديث الا أنه « يونس بن متى » ويقــول أهل الكتاب انه « يونان بن أمتاى » .

رد المؤلف عليها
« الموضوع الخامس »
قصة يونس عليه الصلاة والســلام

يحتاج الرد على ما كتبته اللجنة فى قصة يونس عليه السلام الى مقدمة نبين فيها عصمة الانبياء ببيان ما يجب لهم وما يستحيل عليهم من حيث أتيانهم بالمعاصى أو خلاف الأولى . **فاقول :**

اختلف أهل الاسلام فى عصمة الأنبياء عليهم السلام . وضبط القول فيه ان يقال : الاختلاف فى هذا الباب يرجع الى اقسام اربعــة :

(أحدها) ما يقع فى باب الاعتقاد (ثانيها) ما يقع فى باب التبليغ (ثالثها) ما يقع فى باب الأحكام والفتيا (رابعها) ما يقع فى أفعالهم وسيرتهم .

القسم الأول : أما اعتقادهم الكفر والضلال فان ذلك غير جائز عند اكثر الامة . وقالت الفضلية من الخوارج : انهم وقعت منهم الذنوب ــ والذنب عندهم كفر ــ فلا جرم قالوا بوقوع الكفر منهم . واجازت الامامية عليهم اظهار الكفر على سبيل التقية . ولا ارتضى قول الفضلية ولا الامامية .

القسم الثانى : هو ما يتعلق بالتبليغ ؛ فقد أجمعت الأمـــة على كونهم معصومين عن الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ ، وأن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمــدا ولا سهوا ــ وهو الحق ــ ومن الناس من جوز ذلك سهوا محتجين بأنه غير ممكن الاحتراز عنه ، وليس بشىء .

القسم الثالث : وهو ما يتعلق بالفتيا ؛ فقد أجمعت الأمة على أنه لا يجوز خطؤهم فيه . وأما على سبيل السهو فجوزه بعضهم وأباه آخرون .

والذى أقوله أن النبى قد يجتهد فى الحكم فيصيب اجتهاده الحكم الذى رضيه الله للأمة وقد لا يصيبه . وحينئذ فهو لا يقر عليه بل ينزل الله بيان الحكم الذى رضيه ؛ كما فى شأن المراة التى كانت تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زوجها وتشتكى الى الله .

القسم الرابع : وهو الذى يقع فى افعالهم ؛ قد اختلفت الأمة فى هذا القسم على خمسة اقوال :

(١) قول من جوز عليهم الكبائر على جهة العمد وهو قول الحشوية . (٢) قول من لا يجوز عليهم الكبائر ؛ لكنه يجوز عليهم الصغائر على جهة العمد الا ما ينفر كالكذب والتطفيف . وهذا قول اكثر المعتزلة . (٣) أنهم لا يجوز ان يأتوا بصغيرة ولا بكبيرة على جهة العمد البتة ، بل على جهة التأويل. وهو قول الجبائى . (٤) انه لا يقع منهم الذنب الا على جهة السهو والخطأ ، ولكنهم مأخوذون بمــا يقع منهم على هذه الجهة ، وان كان ذلك موضوعا عن أمتهم ، وذلك لأن معرفتهم اقوى ودلائلهم أكثر ، وانهم يقدرون من التحفظ على ما لا يقدر عليه غيرهم . (٥) أنه لا يقع منهم الذنب لا الكبيرة ولا الصغيرة لا على سبيل القصد ولا على سبيل الســهو ولا على التــأويل والخطأ . وهو مذهب الرافضة .

اما وقت العصمة فقد اختلفوا فيه على ثلاثة اقوال :

(١) ذهب قوم الى أن الانبياء معصومون من وقت مولدهم . وهو قول الرافضة .

(٢) ذهب قوم الى انهم معصومون من وقت بلوغهم ولم يجوزوا عليهم ارتكاب الكفر والكبيرة قبل النبوة . وهو قول كثير من المعتزلة .

(٣) ذهب قوم آخرون الى انه لا يجوز منهم ارتكاب شىء من ذلك وقت النبوة ، أما قبل النبوة فجائز . قال الرازى وهو قول اكثر اصحابنا وقول ابى الهذيل وابى على من المعتزلة .

ومن احب زيادة البيان فليرجع الى صفحة ٣٩٧ وما بعدها من الجزء الأول من تفسير الفخر =

والظاهر من أمره أنه من اليهود . ويوجد ببلد اسمه « حلحول » قرب مدينة الخليل بفلسطين قبر يقال انه قبر « يونس » وبمكان غير بعيد عنه قبر آخر يقال انه قبر « متى » .

= الرازى . وفى صفحة ٢٦٣ وما بعدها من كتاب « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى ما نصه : واختلف العلماء فى هذا الباب هل وقع من الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — صغائرمن الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها أم لا ؟ بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص اجماعا . عند القاضى أبى بكر وعند الأستاذ أبى بكر أن ذلك مقتضى دليل المعجزة ، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم .

فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين : تقع الصغائر منهم . خلافا للرافضة حيث قالوا : انهم معصومون من جميع ذلك . واحتجوا بما وقع من ذلك فى التنزيل وثبت من تنصلهم من ذلك فى الحديث وهذا ظاهر لا خفاء فيه .

وقال جمهور من الفقهاء — من أصحاب مالك وأبى حنيفة والشافعى — انهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر . لأنا أمرنا باتباعهم فى أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمرا مطلقا من غير التزام قرينة . فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم . اذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والاباحة أو الحظر والمعصية ؛ ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما عند من يرى تقديم الفعل على القول — اذا تعارضا — من الأصوليين .

قال الأستاذ أبو اسحاق الاسفرائينى: واختلفوا فى الصغائر ؛ والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم . وصار بعضهم الى تجويزها ولا أصل لهذه المقالة .

وقال بعض المتأخرين — ممن ذهب الى القول الأول : الذى ينبغى أن يقال : انه تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها اليهم وعاتبهم عليها وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها واشفقوا منها وتابوا ، وكل ذلك وارد فى مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وان قبل ذلك آحادها ، وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم ، وانما تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ أو النسيان أو التأويل وما الى ذلك ، فهى بالنسبة الى غيرهم حسنات وفى حقهم سيئات بالنسبة الى مناصبهم وعلو أقدارهم ، اذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس . فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة مع عملهم بالأمن والأمان والسلامة . قال: وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجنيد حيث قال « حسنات الأبرار سيئات المقربين » فهم صلوات الله وسلامه عليهم وان كانت قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم ، فلم يخل ذلك بمناصبهم ، ولا قدح فى رتبهم . بل قد تلافاهم واجتباهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه اهـ .

تلخص لنا مما تقدم أن أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام معصومون من تعمد اتيان الذنب فى حال النبوة ، وأن الكبيرة لا يمكن أن يأتوا بها فى هذه الحال وانما تقع منهم الذنوب الصغيرة متأولين أو ناسين ، وهذه تعتبر ذنوبا فى حقهم وان كانت غير ذنوب على أممهم نظرا لما لهم من التميز من القرب من الله وزيادة معرفتهم به .

لما وصلت من الكتاب الى قصة يونس عليه الصلاة والسلام وجدت الله تعالى يقول (وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) سورة الأنبياء .

ويقول (وان يونس لمن المرسلين ، اذ أبق الى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم الى حين) سورة الصافات .

نظرت الى ما قاله المفسرون ؛ فوجدتهم يذكرون أن يونس أرسله الله الى مدينة فدعا أهلها الى =

وقد ذكرت قصة يونس في سورتي الأنبياء والصافات ، وقد ذكر المفسرون لقصته حكايات ووجوها كلها من الاسرائيليات ، وبعضها يخالف ظاهر القرآن الكريم ، وقد أطالوا ما شاءت

= الله وطال عليه الأمد فخرج من بينهم بدون اذن من الله فكان له ما كان. ويزيد آخرون: انه أوعدهم العذاب يحل بهم بعد اربعين يوما ومضت فلم يحل بهم فضاق بذلك الأمر ثم كان ما كان مما قصه الله في القرآن . ورأيت الله تعالى يقول (وارسلناه الى مائة الف أو يزيدون فآمنوا) فجعل ايمانهم عقب ارساله اليهم — كما هى قضية الفاء للترتيب والتعقيب .

وعلى ذلك فلم يكن منهم صد او اعراض عنه ، وانما كان ذلك الارسال بعد التقام الحوت .

ونظرت الى وجه آخر مما قاله المفسرون وهو قولهم « انه كان مغاضبا للملك حزقيل.. الخ » وقد علم اهل التاريخ انه لم يكن في بني اسرائيل ملك اسمه « حزقيل » .

وقالوا « أن ملكا سبى من بني اسرائيل تسعة اسباط ونصف ... الى آخره » وبنو اسرائيل لم يسبوا الا في زمن « بختنصر » وكان السبى ليس خاصا بسبط دون سبط بل كان السبى منهم جميعا ولم يرسل يونس لبختنصر ولم يؤمن هو ولا قومه .

لذلك كله عدلت عن هذه الأقوال التي لا حجة صحيحة للمفسرين فيها وقلت : « واللائق بالحق ان يقتصر في فهم القصة على ما نصه الكتاب الكريم فقط » .

لما كان القرآن ينبىء عن ايمانهم عقب الرسالة كان حصول ذهابه الى الفلك والتقام الحوت اياه حاصلا قبل وصوله اليهم . فهذا هو الذى أملى على انه ذهب الى الفلك عقب أمره بالذهاب اليهم .

لا شك في أن ذهابه عنهم عقب أمره بالذهاب اليهم يكون جريمة منه ومعصية لا يمكن ان يأتيها مثل هذا النبي الكريم الا متأولا . اذ يحتمل انه فهم أن الأمر غير جازم بل هو أمر ارشاد ، ومخالفة أمر الارشاد لا تستوجب ذنبا يستحق المخالف العقاب عليه . كما تأول الفقهاء كتابة الدين المأمور بها في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه) ففهم الأمر على هذا الوجه .

وقد رأيت الله تعالى نسب الى يونس عليه السلام أمورا ثلاثة : (١) انه أبق الى الفلك المشحون (٢) انه ذهب مغاضبا . (٣) أنه ظن أن لن يقدر الله عليه .

وكل هذه أمور اذا لم تصرف عن ظاهرها كانت ذنوبا اذا صدرت من الآحاد فكيف بنبي كريم ؟

لذلك يجب تأويل قوله تعالى (اذ ابق الى الفلك المشحون) انه ذهب اليها ذهاب الآبق ولم يكن آبقا يرجو أن يختفي عن عين سيده حتى يتعذر عليه رجعه الى قبضته . حاشا وكلا أن يكون هذا (أولا) ... (ثانيا) يجب تأويل قوله تعالى (اذ ذهب مغاضبا) بأنه لم يكن مغاضبا لله ولكنه أشفق من القوم الذين أمر بالذهاب اليهم وهم ليسوا له بأهل ولا عشيرة ، وقد خشي أن يفرطوا عليه اويطغوا أو ينالوه بالأذى ، فذهب على وجهه يريد الابتعاد عن الجهة التي هم فيها ؛ عالما أن الله تعالى لن يعجزه ان يرسل اليهم نبيا آخر يكون أقدر على التلطف بهم واقناعهم ، وفي ذلك راحته من عنتهم وامنه على نفسه منهم ، وهو في ذلك يظن انه لا يغضب الله تعالى وان كان ذهابه على هيئة الغاضب. وغرضي من ذلك صرف لفظ (مغاضبا) عن معناه ؛ لأن مغاضبة الله لا يليق صدورها من نبي . فأولت ذلك الى أن ذهابه على هيئة الغاضب وهو غير مغاضب .

وقد فسرت قوله تعالى (أن لن نقدر عليه) تفسيرا يتفق مع موقف الأنبياء من ربهم فصرفته عن المعنى المتبادر منه . وهو انه ظن أن يعجز الله ويفلت من قبضة قدرته الى تفسير يتفق مع عقيدة الأنبياء في الله تعالى . وهو انه تعالى لن يعجزه شيء من الممكنات ، وصرفت ظاهر اللفظ الى معنى التضييق كما في قوله تعالى (واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) اى ضيق عليه رزقه ، وبينت أن هذا المعنى تساعد عليه رواية (نقدر عليه) بتشديد الدال المكسورة وقد جاء ذلك في تفسير البيضاوى الذى نقلته . ومن ذلك يجد القارىء الكريم انى لم أقل في يونس رسول الله صلى الله عليه وسلم الا كل خير ولم انسب اليه امرا لا يليق .

لهم الاطالة ، وتفننوا ما امتد بهم التفنن ! والذى يهمه أن يقف على أقوالهم يمكنه أن يراجعها فى أمكنتها .

= وانما عدلت عن الأقوال التى قالها المفسرون ؛ لأن بعضها ليس له حقيقة وبعضها لا يتفق مع ظاهر القرآن الكريم كما قدمت .

يوجد فرق كبير فى الراى بينى وبين حضرات أصحاب الفضيلة فى شأن انبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — قد لاحظته فى أثناء قراءتى لنقدهم كتابى .

ذلك ان حضراتهم يرون أن الانبياء يفرغ الله عليهم كل كمال بمجرد النبوة ؛ فلا يصدر عنهم اى عمل يوجه اليهم بسببه الى عتاب او لوم ، وانهم من حين النبوة وبمجرد جعل الله تعالى لهم من أهلها صاروا بطبيعتهم مستغنين عن ارشاد الله وتعليمه اياهم وتبصيره لهم امورا لا يعلمونها وتسديده اياهم الى الصواب . فهم ينزهونهم عن كل شىء مما هو من هذا بسبيل .

أما هذا الضعيف فيعتقد أن الأنبياء فى حال النبوة معصومون عن كبائر الذنوب وعن تعمد اتيان الصغائر منها . واذا صدر عنهم ذنب من الصغائر فانما يكون عن تأول لأمر الله تعالى أو عن خطأ أو نسيان — مما حط الذنب فيه عن أممهم — ولكنهم يؤاخذون به صلوات الله عليهم لكمال معرفتهم بالله تعالى وقربهم منه قربا معنويا . فالتحفظ من الذنب لهم ألزم فعدت عليهم تلك الأشياء ذنوبا وهى غير ذنوب كما يقول القرطبى « قد يؤاخذ الوزير على ما يثاب عليه السائس » واعتقادى أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت معرفته بالله ووقوفه عند محابه تعالى وعدم تخطيها فى أخريات أيامه أكمل وأعلى من معرفته به تعالى فى أول نبوته . فقد جاء فى الأخبار انه كان يحاول التردى من الجبال ، وكان لا يسكنه عن ذلك الا أن يرى جبريل عليه السلام بين السماء والأرض يقول له يا محمد انت رسول الله وأنا جبريل . فهذا ضرب من تعليم الله له وصده عما كان بصدد أن يأتيه .

كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره بما تقول قريش (لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك) فكان لذلك يثقل عليه أن يبلغهم ما يوحى الله به اليه مما يكرهون . ولذلك قال الله تعالى له (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك) .

ويشبه ذلك أيضا مسألة اخرى — وهى انه صلى الله عليه وسلم لما أعلمه الله وأمره أن يتزوج من « زينب بنت جحش » متى طلقها زيد وانقضت عدتها منه . وجاء زيد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه انه يريد طلاق زينب قائلا « يا رسول الله قد اشتد على لسانها وأريد أن أطلقها » فقال له رسول الله « أمسك عليك زوجك واتق الله » .

قال ابن حجر « فى فتح البارى جزء ٨ ص ٣٧١ » والحاصل ان الذى كان يخفيه النبى صلى الله عليه وسلم هو أخبار الله اياه بأنها ستصير زوجته . والذى كان يحمله على اخفائه ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه . وأراد الله ابطال ما كان اهل الجاهلية عليه من أحكام التبنى بأمر لا أبلغ فى الابطال منه . وهو تزوج امرأة الذى يدعى ابنا ووقوع ذلك منه امام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم .

وقد أخرج الترمذى عن عائشة قالت « لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية (واذ تقول للذى أنعم الله عليه . . . الخ) .

وما كان احد ليظن أن محمدا خالف عن أمر ربه ، وانما اجتهد صلى الله عليه وسلم ورأى ان كثيرا من المرجفين حوله يتلمسون له ما يعوقون به عن دعوته وبلغ بهم اللجاج أن عابوا عليه (ان جعل الآلهة الها واحدا) وهو أمر لا تختلف فيه العقول السليمة . وقول بعضهم عندما قسم الغنائم « ما أراد وجه الله بهذا القسم » .
=

اقرءوا هـــذه الآيات : —

سورة يونس : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [٩٨] .

وانظر تأويلهم حفر الخندق بانه علامة الضعف ، وكيف شنعوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ما قال لأصحابه « ستفتح لكم بلاد كذا وبلاد كذا » فقـال بعضهم (ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) فرأى صلى الله عليه وسلم أن زواجه زينب سيفتح عليه بابا من أبواب شغب الكفار والمنافقين ، وأن زواجه من زينب سيفتح عليه بابا للتقول عليه ، وخشى أن يتزلزل اعتقاد بعض المؤمنين . فأخر التنفيذ راجيا من الله أن يعفيه هو من هذا الأمر ، وأن ينفذه فى غيره . فعاتبه الله على هذا الاجتهاد وأمره بالتنفيذ فى نفسه رغم تأففه ، كما ارغم الله تعالى يونس على الذهاب الى القوم الذين أرسل اليهم رغم تخوفه منهم .

وقد قال ابن عباس : ان ارسال يونس ونبوته انما كان بعد نبذ الحوت له ، وهو يؤيد ما ذهبت اليه فى الجملة ، قال القاضى عياض « فى الشفاء ص ٩٧ ج ٢ » . وقد روى ابن عبـاس أن ارسال يونس ونبوته انما كان بعد أن نبذه الحوت واستدل من الآية بقوله (فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين وارسلناه الى مائة الف) ويستدل ايضا بقوله (ولا تكن كصاحب الحوت . . . الخ) .

ذكر القصة ثم قال (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) فتكون هذه القصة اذا قبل نبوته .

وعلى الجملة فان شأن يونس الذى شرحته بقولى صفحة ٣٤٨ « ولكنه كان يظن أن الله تعالى لا يحتم عليه الرجوع اليهم . معناه انه تأول الأمر على انه أمر ارشاد لا اثم فى مخالفته ، وان التقام الحوت له كان قبل ذهابه اليهم . وما زلت أقوله ؛ ولن ازال اقـوله غير خاش اثمـا ولا لومـا ولا محتقب معصية ولا حوبا .

وليعلم حضرات الأفاضل أعضاء اللجنة أن أنبياء الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ليسوا ملكا لأحد ، وما جعل الله لأحد احتكار الدفاع عنهم بل هم عباد مكرمون ، على كل مؤمن أن يجل مقامهم باجلال الله تعالى . وأن حضرات أعضاء اللجنة ليسوا هم الذين يجلونهم دون سائر الناس وانى بما أشرح من شؤونهم من أحرص الناس على ما لهؤلاء الأنبياء من مقام رفيع ، وانى لست دون حضرات أعضاء اللجنة اجلالا لهم واكبارا واعزازا ، وانى لم اقل ولن اقول فى أحد منهم الا خيرا يرضاه الله ويرضى به عنى أولائكم الأنبياء .

ان ما ذكرته فى كتابى عن يونس لم يعد أن يكون كقول موسى لربه حين أمره بالذهاب الى فرعون لدعوته الى الله وارسال بنى اسرائيل (انى اخاف أن يكذبون . ويضيق صـدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل الى هرون) فهذا من موسى نقص من الرسالة فى أول موقف له مع الله . ولو كان موسى قد مضى عليه وقت فى النبوة وعرف أحوالها وشئون الأنبياء مع الله لما قال ذلك . ولعلم أن هذا الشرف لا ينبغى أن يقابل بما قاله . وكذلك حين ألقى العصا فرآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب . فقال الله تعالى (لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون) فهذه المقالة تعليم من الله له ما لا يعلمه من شأن رسل الله تعالى .

ومن هذا القبيل ما أورده الطبرى بسنده فى تاريخه من أن رسول الله لما هب من نومه حافظا لقوله تعالى (اقرأ باسم ربك الأعلى . . . الى آخره) فكر فى نفسه وقال (الأبعد شاعر أو مجنون) وكان أكره شىء الى نفسه أن يرى شاعرا أو مجنونا ، وخشى أن تتحدث قريش عنه بأنه شـاعر أو مجنون فخطر له أن يذهب فيتردى من حالق من الجبل . فلما ذهب لتنفيذ ما عزم عليه نظر فى السماء فاذا شخص صاف قدميه يناديه « يامحمد انت رسول الله وانا جبريل » فكلما حول وجهه فى =

فهذه الآية تفيد بصريح العبارة أن الأمم الغابرة كانوا يعاندون ويصرّون على ما هم عليه من الكفر والاباء عن الايمان ، ولم ينج من هذا الا القوم الذين أرسل اليهم يونس فانهم أجابوه الى الايمان ، فكشف الله عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعهم الله الى حين .

سورة الأنبياء : وَذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِى ٱلظُّلُمَاتِ أَنْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ [٨٧] فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ [٨٨]

فلمن كان يونس مغاضبا ؟ وكيف يظن أن لن يقدر الله عليه ؟ وهو نبى كريم لا يمكن أن يسيء الظن بالله فيجول فى نفسه أن قدرة الله تعجز عن تناوله ؟

يقول بعض المفسرين : انه كان مغاضبا لربه ولذلك استوجب ادحاضه والتقام الحوت له . وهذا القول ينافى العصمة . ويوجب جهله بقدرته جهلا لا يعذر فيه أحد السوقة فضلا عن نبى كريم — والذى أقوله انه لم يكن مغاضبا لله حقيقة ولكنه ذهب بهيئة المغاضب والا فيونس أجل من ذلك — وقال آخرون من المفسرين : انه كان مغاضبا لقومه الذين أرسل اليهم لابطائهم عن تلبية دعوته والدخول فيما دعاهم اليه من الايمان .

لكن كيف يترتب على هذه المغاضبة أن الله تعالى يمتحنه بالالقاء فى اليم والتقام الحوت . حين أن مغاضبته لقومه انما كانت لله وفى الله ؟

قد يقولون ان معاقبته انما كانت بسبب أنه لم ينتظر أمر الله بمفارقتهم . وجوابى على ذلك أن الله لم ينص على بقائه معهم — آمنوا أو أصروا على كفرهم — حتى يكون انصرافه عنهم موجبا لابتلائه وليس فى القرآن نص على ذلك ولا اشارة نص .

= ناحية من السماء وجده يناديه ويقول له ذلك ، فصرفه ذلك عن تنفيذ ما اعتزم عليه فرجع الى خديجة وقال لها « لقد خشيت على نفسى » .

فكيف حدثته نفسه بالتردى بعد ما جاءه الوحى ؟ أليس ذلك يعد هربا من الرسالة ! وهل كان يحدث منه ذلك بعد أن تتابع الوحى ومضى عليه زمن يؤدى فيه رسالة الله ؟

جعل البخارى هذه الحادثة بعد أن فتر الوحى وان رسول الله قد هم مرارا بالتردى من الجبل وما كان يصده عن تنفيذ ذلك الا تبدى جبريل له وقوله له فى كل مرة « يامحمد انت رسول الله وانا جبريل » ولو كان رسول الله قد علم أحوال النبوة وكل شيء من أحوال الأنبياء بالنسبة الى الله لما كان فى احتياج الى ان يعرفه « ورقة بن نوفل » أن الذى رآه انما هو الناموس الأكبر الذى كان ينزل على موسى .

بما تقدم يعلم القارىء الكريم انى لم اقارف اثما فى جنب نبى الله يونس بن متى ، وان كلامى له وجه صحيح لا غبار عليه . وكلام اللجنة تأثيم لى بغير سلطان اتاهم وبغير بينة ولا هدى ولا كتاب منير .

وأيضا فان الله تعالى يقول — بعد أن قص قصته بأنه أبق الى الفلك المشحون وساهم فكان من المدحضين والتقمه الحوت وهو مليم ولولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون — وأن الله نبذه بالعراء وهو سقيم وأنبت عليه شجرة من يقطين . بعد هذا كله ذكر تعالى أنه أرسله الى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا . فهذه الآيات تدل على أن الارسال كان بعد ذهابه مغاضبا وأنه أبق الى الفلك . ثم كان من المدحضين والتقمه الحوت . ثم دعا الله فجعل الحوت يلفظه وأنبت عليه اليقطينة . ثم أرسله الى أهل القرية التى أمره الله بالذهاب اليها فآمنوا . ولم يكن بين دعوتهم الى الايمان وبين تلبيتهم دعوته فرجة يذهب فيها مغاضبا ؛ بعد أن تقدمت المغاضبة ولقى جزاءه عليها ، فأصحاب هذا الفرض يناقضون الكتاب ويخالفون ما يدل عليه ظاهره بدون داع لذلك .

وأما ما يدل عليه ظاهر قوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه) فتأويله : فظن أن لن نضيق عليه أى ظن أننا نوسع عليه فى الذهاب عن القوم الذين أرسل اليهم ولا نلجئه الى تبليغ رسالة الله تعالى اليهم . بدليل قراءة التشديد (نقدر) وبذلك يندفع الاعتراض .

اقرءوا هـذه الآيات :

سورة الصافات : وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [١٣٩] إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [١٤٠] فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ [١٤١] فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ [١٤٢] فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ [١٤٣] لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [١٤٤] فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ [١٤٥] وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ [١٤٦] وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ [١٤٧] فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [١٤٨] .

ومعنى اللبث فى بطنه أنه لا يخرج منه حيا ، لا أنه يبقى حيا الى يوم البعث ثم يخرج لذلك.

والذى تلخص لى من أمر يونس على ضوء ما جاء فى الكتاب الكريم أن يونس عليه السلام أمره الله بالذهاب الى قوم ليسوا من عشيرته ولا من بلده ويقول بعض المفسرين انهم أهل نينوى ، فخشى أن ينالوه بالأذى لأنه ليس بذى عصبية بينهم تقوم بنصره ومنعه ، وتأول الأمر على أنه أمر ارشاد — كما تأول الفقهاء عندنا الأمر بكتابة الدين أنه أمر ارشاد — وظن أن الله تعالى لن يضيق عليه ولن يلزمه بالذهاب اليهم ، وأنه تعالى ليس بمسبوق على أن يرسل اليهم من هو أشد منه قوة وأنفذ قولا بينهم ، فذهب ليبتعد عن ناحيتهم ، فأوى الى الفلك المشحون فكان ما كان من اضطراب الفلك ، حتى اضطر أهله الى أن يساهموا على من يلقى فى البحر من الركاب فخرج سهمه الى أن كان من المدحضين . وقيض الله حوتا لعله « قيطس » لالتهامه فمكث فى بطنه ما شاء الله أن يمكث — مما لا أتعرض لتحديده ، فأقول لفظه كما ابتلعه أو مكث

فى بطنه ثلاثا أو سبعا أو أكثر أو أقل . فنبذه بالعراء وهو سقيم . وأن الله أنبت عليه شجرة من يقطين ، فلما فرح بها وارتفق بفيئها سلط الله عليها حيوانا قارضا فأكل أصلها ولفحتها ريح السموم فذوت وشق ذلك على نفسه . فأفهمه الله أنه قد ناله الأسف على يقطينة ليس لها شأن وقد اهتم بها . أفلا يهتم الله تعالى ويوجه عنايته الى قرية فيها أكثر من مائة ألف يريد انقاذهم من ضلالهم ويقيهم نزول الغضب بهم ، ثم أرسله اليهم فآمنوا .

وفى اعتقادى أن يونس كلف بالذهاب الى أولئك القوم عقيب نبوته ، ولم يكن قد مرن على النبوة وواجباتها وآداب أهلها . لأن العلم بذلك يستدعى مـدة وتكرر الوحى والازدياد من معرفة الله تعالى والارتياض على الوحى وتلقيه ، فحداثته فى النبوة هى التى خيلت اليه ما قلنا من أنه خيل اليه أنه بابتعاده وتغربه فى البلاد وبما استتبع اعفاءه من تلك المأمورية . أضف الى ذلك أنه كان حدث السن . فقد أورد الألوسى فى تفسيره : أن سنه كانت ثمانيا وعشرين سنة . ومن كان حديث العهد بالنبوة وفى مثل سن يونس يغتفر الله تعالى لهم بعض ما عملوه عن غير تمرد وقصد جازم الى المعصية .

يونس عليه السلام عند أهل الكتاب

يسمى يونس عليه السلام عند أهل الكتاب « يونان بن أمتاى » وله كتاب فى ضمن الكتب القانونية التى قبلتها الكنيسة . وكتابه يقع فى أربعة اصحاحات « فصول » .

ومضمونه أن الله أمر يونان أن يذهب الى « نينوى » لأن شرهم قد كثر . فقـام يونان ليهرب الى « ترشيش » من وجه الرب فنزل الى « يافا » ووجد سفينة ذاهبة الى « ترشيش » فنزل بعد أن دفع الأجر . فأرسل الله ريحا شديدة فحصل نوء عظيم حتى كادت السفينة تغـرق ويهلك من فيها . وكان كل واحد ينادى الهه ويونان نائم فى قاع السفينة فأيقظوه . وعملوا قرعة لمعرفة من كان سببا فى غضب الله فخرجت القرعة عليه ، وحدثهم بقصته وأرادوا الرجوع الى الساحل فلم يقدروا ، فأشار عليهم بأن يلقوه فى اليم ليسكن عنهم غضب الله ، فألقوه فالتقمه حوت عظيم وسكن هيجان البحر عن القوم . فدعا « يونان » الهه من جوف الحوت وتضرع واستغاث وظل على ذلك ثلاثة أيام وثلاث ليالى . ثم لفظه الحوت بالساحل ثم أمره الله أن يذهب الى « نينوى » فذهب وأوحى اليه أن ينادى بأن نينوى ستهلك بأن تنقلب على أهلها بعد أربعين يوما . فآمن أهل نينوى بالله وصلوا وصاموا وتضرعوا الى الله وأنابوا . وبلغ الأمر « ملك نينوى » ففعل مثل أهل مملكته وأمر بفصل صغار البهائم عن أمهاتها والحيلولة بين الدواب والعلف والماء .

ولما مضت الأربعون لم يحصل لأهل نينوى شىء مما أنذروا به . فاغتم يونان لأن وعيده لم يتحقق فخرج من المدينة واتخذ لنفسه كنًّا يكون فيه . فأنبت الله عليه يقطينة فأسرعت فى النمو

وأظلت كنّه بأوراقها ففرح بها ، وفى اليوم الثانى سلط الله عليها دودة فأكلت أصلها وهبت عليها ريح حارة فجففتها . فاغتاظ يونان وقال « موتى خير من حياتى » فأوحى الله اليه . **هل اغتظت** من أجل اليقطينة ؟ فقال « اغتظت بالصواب حتى الموت » فقال الله له : أشفقت على اليقطينة التى لم تتعب فيها ولا ربيتها التى بنت ليلة نبتت وبنت ليلة هلكت أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من اثنتى عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة ؟

هذا مجمل لما جاء فى كتاب يونان — والحق ما جاء فى القرآن الكريم :

آيات عامـــــة

بما نزل — على الأمم الخالية — من العذاب لما كذبوا رسلهم

سورة الأعراف : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ [٩٤] ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [٩٥] وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٩٦] أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ [٩٧] أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ [٩٨] أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [٩٩] أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ [١٠٠] تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [١٠١] فَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ [١٠٢]

سورة التوبة : أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [٧٠]

سـورة هـود : وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ [٨٩]

ومنها أيضا : ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ [١٠٠] وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ [١٠١] وَكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [١٠٢]

سورة ابراهيم : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٤]

ومنها أيضاً : وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ [٨] أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ [٩]

سورة الاسراء : . . . . . وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا [١٥] وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا [١٦] وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [١٧]

سورة الحج : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ [٤٢] وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ [٤٣] وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [٤٤] فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ [٤٥]

سورة الفرقان : وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا [٣٧] وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيرًا [٣٨] وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا [٣٩] وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا [٤٠]

سورة الشعراء : وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ [٢٠٨] ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ [٢٠٩]

سورة العنكبوت : وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ [٣٨] وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ [٣٩] فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [٤٠]

سورة فاطر : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ [٤]

ومنها أيضاً : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ [٢٥] ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [٢٦]

سورة غافر : وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ [٣٠] مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ [٣١]

سورة فصلت : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ [١٣] إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [١٤]

سورة ق : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ [١٢] وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ [١٣] وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ [١٤]

سورة الحاقة : كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ [٤] فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ [٥] وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ [٦] سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ [٧] فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ [٨] وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ [٩] فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً [١٠]

سورة الفجر : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ [٦] إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ [٧] الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا

فِى البِلَادِ [٨] وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ [٩] وَ فِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ [١٠] الَّذِينَ طَغَوْا فِى البِـلَادِ [١١] فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ [١٢] فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَـذَابٍ [١٣] إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [١٤]

آيات عامـــة

ذكر فيها بعض أسماء الأنبياء والمرسلين إجمالا

سورة البقرة : قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [١٣٦]

سورة آل عمران : إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ [٣٣] ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٣٤]

ومنهـا أيضاً : قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [٨٤]

سورة النساء : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا [١٦٣] وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً [١٦٤] رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً [١٦٥] .

سورة الأنعام : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [٨٣] وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ [٨٤] وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى

وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ [٨٥] وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ [٨٦]
وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٨٧]

سورة الأنبياء : وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ [٨٥] وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي
رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ [٨٦]

سورة الأحزاب : وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا [٧]

سورة ص : وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ [٤٥]
إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ [٤٦] وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ [٤٧] وَاذْكُرْ
إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ [٤٨]

زكريا عليه السلام

ذكر زكريا فى القرآن الكريم ثمان مرات « فى الآيتين ٣٧ و ٣٨ من آل عمران . وفى آية ٨٥ من الأنعام . وفى الآيتين ٢ و ٧ من مريم وفى آية ٨٩ من الأنبياء » .

وذكر يحيى « فى ٣٩ آل عمران . وفى ٨٥ الأنعام . وفى ٧ و ١٢ مريم . وفى ٩٠ الأنبياء » .

لم يذكر نسب زكريا فى القرآن ولا فى كتب الأنبياء عند أهل الكتاب .

ويوجد زكريا — آخر — ليس له قصة فى القرآن أصلا . وهذا له كتاب من الكتب القانونية عند النصارى . وهو « زكريا بن برخيا » وكان فى زمن داريوس أى قبل زمن المسيح بما يقرب من ثلاثة قرون وهو الذى تكلم فى كتابه فى الفصل التاسع عن ولاية « عمر ابن الخطاب » وغلبه على « أورشليم » ودخوله اليها منصورا وادعا راكبا على حمار .

والنصارى يؤولونه بالمسيح . واليهود يؤولونه بمسيحهم المنتظر وهو المسيح الدجال

أما زكريا أبو يحيى فيظهر أنه كان ممن لهم شركة فى خدمة الهيكل وعلى ذلك فهو «لاوى» .

وسيأتى أن امرأة عمران — والدة مريم — لما نذرتها لخدمة الهيكل جاءت بها الى خدام الهيكل فكل واحد منهم أراد أن يكفلها وألقوا قرعة على ذلك ، فكانت مريم نصيب زكريا فقام بأمرها كما قال تعالى (وكفلها زكريا) وقد أشار القرآن الكريم الى القرعة فى شأنها فى قوله تعالى : (وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون) .

كان زكريا زوجا لخالة « مريم » والتعبير بابنى الخالة فى حديث المعراج فيه تجوز على ذلك.

لما رأى زكريا آيات الله الباهرات واكرامه تعالى لمريم ورزقها من حيث لا تحتسب كان يسألها (يامريم أنى لك هذا) ؟ فتقول (هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

كان زكريا قد بلغ من الكبر عتيا واشتعل رأسه شيبا وامرأته عاقرا لا تلد ، وبلغ درجة اليأس من أن يكون له ولد . وكان يخشى على بنى اسرائيل أن يبتلوا بمواليه الذين يلون الرياسة فيهم بعده لما يعلم من حالهم وعدم استمساكهم بالشريعة . فحفزه ما يراه من اكرام الله تعالى لمريم على أن يطرق باب الدعاء لله ليرزقه ذرية ليذهب من الدنيا مطمئنا . وكان يناجى ربه بما فى نفسه . (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا) لا يأتى النساء (ونبيا من الصالحين) فراجع زكريا قائلا (أنى يكون لى ولد وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر) ؟ . فقيل له (كذلك الله يخلق ما يشاء) فسأل الله آية على أن ذلك سيكون . وأعلمه الله أن آية ذلك أن يعجز عن الكلام مع الناس ثلاثة أيام لا يكلمهم الا رمزا ، وكان ذلك .

وحملت زوجه بيحيى — ولعل والد زكريا كان اسمه « برخيا » أيضا . لأنه جاء فى انجيل برنابا أن المسيح قال لليهود : ستأتى عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم الى دم زكريا بن برخيا— الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح — ويذكر المفسرون أن زكريا والد يحيى قتل فى الحادث الذى قتل فيه ابنه .

يحيى عليه السلام

كان حمل زوجة زكريا — ويقول أهل الكتاب ان اسمها « اليصابات » — فى الزمن الذى كانت مريم حاملا فيه بعيسى — وولد « يحيى » وليس لدينا ولا لدى أهل الكتاب شىء عن طفولته ، غير أنهم يقولون انه كان يأوى الى البرية ويأكل جرادا وعسلا بريا .

كان « يحيى » بارعا فى الشريعة الموسوية ومرجعا مهما لكل من يستفتى فى أحكامها . وكان أحد حكام فلسطين يقال له « هيرودس » وكانت له بنت أخ يقال لها « هيروديا » بارعة الجمال . أراد عمها أن يتزوج منها . وكانت البنت وأمها تريدان ذلك ، غير أن يحيى لم يرض عن هذا الزواج لأنه محرم . وعرف عنه أنه معارض فى ذلك . فانتهزت أم الفتاة اخراج فتاتها الى عمها — فى زينتها — ورقصت أمامه فسر منها وطلب اليها أن تقول ما تتمناه ليعمله لها . وكانت أمها لقنتها أنها — اذا قال لها عمها ذلك — تطلب منه رأس يحيى بن زكريا فى هذا الطبق ، ففعلت ووفى لها عمها الحاكم بذلك وقتل يحيى .

واليهود يختلفون فى مسألة التزوج ببنت الأخ وبنت الأخت فيجيزها « الربانيون » ويمنعها « القراءون » وحجة الأولين أن بنت الأخت وبنت الأخ لم تذكر حرمتها فى التوراة .

وقد كان يحيى على أكمل أوصاف الصلاح والتقوى منذ صباه ، وقد قال الله تعالى فيه (وآتيناه الحكم صبيا) والظاهر أن الله تعالى رزقه الاقبال على معرفة الشريعة حتى صار عالما بها فى صباه — وقد نبىء قبل أن يبلغ الثلاثين — وكان يدعو الناس الى التوبة من الذنوب ، وكان يعمدهم أى يغسلهم فى نهر الأردن للتوبة من الخطايا ، وقد اعتمد منه المسيح وهم يسمونه « يوحنا المعمدان » وقد سئل من اليهود هل هو المسيح ؟ فأجاب : أن لا . فسئل هل هو النبى ؟ فأجاب : أن لا . فقالوا له : لماذا تعمد اذا لم تكن المسيح ولا النبى ؟ فقال : أنا صوت صارخ فى البرية هيئوا طريق الرب وافعلوا سبله مستقيمة .

وبذلك انتهى شأن يحيى عليه السلام .

ولما بلغ المسيح أن يحيى قد قتل ، جهر بدعوته وقام فى الناس واعظا .

اقرءوا الآيات الآتية :

سورة آل عمران : إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٣٥] فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [٣٦] فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ

حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٣٧] هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ [٣٨] فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ [٣٩] قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [٤٠] قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ [٤١].

سورة مريم : ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا [٢] إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً [٣] قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً [٤] وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً [٥] يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً [٦] يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً [٧] قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً [٨] قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً [٩] قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً [١٠] فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً [١١] يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً [١٢] وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً [١٣] وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً [١٤] وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً [١٥].

سورة الأنبياء : وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ [٨٩] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ [٩٠] .

عيسى عليه السلام

جدول ارقام الآيات التى ذكر فيها عيسى عليه السلام — نسب المسيح عند النصارى — نسب المسيح فى انجيل متى — نسب المسيح فى انجيل لوقا — مريم بنت عمران — تبشير مريم بعيسى — حملها بالمسيح وولادتها اياه — انباء الملاك « جبريل » يوسف بحبل العذراء مريم — مريم تفكر فى أمرها — ختان المسيح — المجوس ويسوع — ذهاب يوسف ومريم بالمسيح الى مصر — المسيح أيام صباه — يسوع يحاج العلماء — كيف ابتدات نبوة المسيح — يسوع وهو ابن الثلاثين يتلقى على جبل الزيتون الانجيل من الملاك جبريل — نبوة المسيح على رأس ثلاثين سنة — معنى كلمة الانجيل — المهمة التى جاء لهـا المسيح — الأناجيل الموجودة الآن — انجيل برنابا — الحواريون — تنبيه معجزات عيسى عليه السلام — خاتمة امر المسيح — دقيقة ينبغى التنبه لها — الشبه والاشتباه — اليهود وصلب المسيح — خاتمة شأن المسيح عند النصارى — عقيدة الصلب والفداء وثنية — الأناجيل وصلب المسيح — بعد القبض على يسوع — قيام المسيح من القبر — المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله — حجة المسيحيين فى الهية المسيح — الثالوث — أبن — روح — موقف للمسيح لم يذكر فى القرآن — موقف للمسيح فى اليوم الآخر .

هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه . وهو آخر أنبياء الله ورسله من بنى اسرائيل ، كما أن آخر الأنبياء والرسل من بنى الانسان جميعا محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ذكر اسمه فى القرآن بلفظ « المسيح » تارة وهو لقب له وبلفظ « عيسى » وهو اسمه العلمى — وهو بالعبرية « يشوع » أى المخلص ، اشارة الى أنه سبب لتخليص كثيرين من آثامهم وضلالهم — وبكنيته « ابن مريم » تارة أخرى .

ومن الجدول الآتى تتبين أنه ذكر فى ثلاث عشرة سورة فى القرآن الكريم فى ثلاث وثلاثين آية منه — وسيأتى ذلك — وهاكم الجدول بذلك :

جدول أرقام الآيات التى ذكر فيها سيدنا عيسى عليه السلام

اسم السورة	رقم السورة	عدد الآيات	أرقام الآيات	المسيح	عيسى	ابن مريم
البقرة	٢	٣	٨٧		–	–
			١٣٦		–	
			٢٥٣		–	–
			٤٥	–	–	–
آل عمران	٣	٤	٥٢		–	
			٥٥		–	
			٥٩		–	
			٨٤		–	
النساء	٤	٤	١٥٧	–	–	–
			١٦٣		–	
			١٧١	–	–	–
			١٧٢	–		
المائدة	٥	٩	١٧	٢		٢
			٤٦		–	–
			٧٢	٢		–
			٧٥	–		–
			٧٨		–	–
			١١٠		–	–
			١١٢		–	–
			١١٤		–	–
			١١٦		–	–
الأنعام	٦	١	٨٥		–	
التوبة	٩	٢	٣٠	–		
			٣١	–		–
مريم	١٩	١	٣٤		–	–
المؤمنون	٢٣	١	٥٠			–
الأحزاب	٣٣	١	٧		–	–
الشورى	٤٢	١	١٣		–	
الزخرف	٤٣	٢	٥٧			–
			٦٣		–	
الحديد	٥٧	١	٢٧		–	–
الصف	٦١	٢	٦		–	–
			١٤		–	–
١٣		٣٣		١١	٢٥	٢٣

ملاحظة : الآية المؤشر امامها بعلامة ــ تدل على أن الاسم ذكر فى الآيــة مرة واحــدة والمؤشر امامها بعــدد ٢ تدل على أن الاسم ذكر فيها مرتين .

نسب المسيح عند النصارى

ان النصارى اذا ذكروا نسب المسيح فانما يذكرون نسب « يوسف النجار » بناء على أن المسيح كان يدعى يسوع بن يوسف النجار .

أما يوسف النجار فهو شاب صالح من شبان اليهود — من قوم مريم — ويقول لوقا « فى الاصحاح الأول فى الفقرة ٢٧ من انجيله » انه من بيت داود . وكانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن تحمل بالمسيح . ولما وجدت حاملا أسر فى نفسه أن يتركها ولا يشهر بها ، لأنه كان بارا . فأمر فى منامه بامساكها لأنها بريئة من الدنس « متى ص ١ — ٢٠ » .

ونشأ يسوع « عيسى » وهو مشهور بأنه ابن يوسف النجار . ويقول « برنابا » ان مريم اتخذت يوسف النجار عشيرا لها من حين أحست بالحمل .

أقول : وهذه العادة — عادة اتخاذ العشير — موجودة فى اليهود الى اليوم . يأتى الشاب الى أهل الفتاة ويخطبها . وحينئذ يتعاشران بدون اتصال زوجى ويقيمان على ذلك مدة كافية ، حتى اذا رضيت أخلاقه ورضيها أتما الزواج ودخل بها وعاشرها معاشرة الأزواج . واذا لم يرض أحدهما أخلاق الآخر فسخت الخطبة وذهب كل منهما لسبيله .

كل ذلك ولا يكون بينهما اتصال زوجى أصلا الى أن يتم الزواج .

وقد اختلف المسيحيون فى نسب المسيح — الذى هو نسب يوسف النجار — اختلافا ظاهرا لا مفر للمطلع عليه من الحكم بتناقض كل من « متى » و « لوقا » فى ذلك النسب . وهما المنفردان بذكره من بين سائر من كتبوا الأناجيل .

نسب المسيح فى إنجيل متى

يسوع بن يوسف النجار بن يعقوب بن متان بن اليعازر بن اليهود بن اخيم بن صادوق بن عازور بن الياقيم بن بيهود بن زربابل بن شلتائيل بن يكنيا بن يوشيا بن أمون بن منسا بن حزقيا بن أحاز بن يوثام بن عزيان بن يورام بن يهوشافط بن آسيا بن أبيا بن رحبعام بن سليمان بن داود بن يسى بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن آرام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم .

نسب المسيح فى إنجيل لوقا

يسوع بن يوسف النجار بن هالى بن لاوى بن ملكى بن ينا بن يوسف بن متاثيا بن عاموص ابن ناحوم بن حسلى بن نجاى بن ماث بن متاثيا بن شمعى بن يوسف بن يهوذا بن يوحنا بن ريسا بن زربابل بن شلتائيل بن نيرى بن ملكى بن ادى بن قصم بن الموادم بن عير بن يوسى بن اليعازر بن يوريم بن متثان بن لاوى بن شمعون بن يهوذا بن يوسف بن يونان بن الياقيم بن مليان بن ناثان بن داود بن يسى بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نخشون بن عمينا داب بن أرام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم .

اذا قارنا بين النسبين وجدنا (١) متى يقول : ان يوسف بن يعقوب . ولوقا يقول : يوسف ابن هالى (٢) متى يقول : ان المسيح من أولاد سليمان بن داود . ولوقا يقول : انه من أولاد ناثان بن داود (٣) متى يقول : ان آباء المسيح من داود الى جلاء بابل سلاطين مشـــهورون . ولوقا يخـــالفه ويذكر أنهم ليسوا سلاطين ولا مشهورين غير داود وناثان (٤) ذكر متى : أن شلتائيل بن يكنيا . ولوقا يقول : انه ابن نيرى (٥) يقول متى : ان ابن زربابل أبيهود . ويقول لوقا : ان اسمه ريسا مع أن أسماء بنى زربابل مكتوبة فى الاصحاح الثالث عشر من السفر الأول من أخبار الأيام ، وليس فى أسمائهم أبيهود ولا ريسا (٦) يقول متى : ان بين داود والمسيح ستة عشر جيلا . ويقول لوقا : ان بينهما واحدا وأربعين جيلا .

وهو تخالف لا مبرر له سوى أنهم يكتبون بلا تحقيق وكل محاولة للجمع بينهما فاشلة .

أما مريم عليها السلام فقد ذكرت فى القرآن الكريم احدى عشرة مرة « فى سورة آل عمران فى الآيات : ٣٦ و ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ وفى سورة مريم فى آية ١٦ و ٢٧ وفى ســـورة المؤمنون آية خمسين وفى سورة الزخرف آية ٥٧ وفى سورة التحريم آية ١٢ وفى سورة النساء آية ١٥٦ »

وقد ذكرت بدون اسمها العلمى فى قوله تعالى (والتى أحصنت فرجها) .

وقد ذكرت قصة المسيح فى القرآن متعددة منها ما حصل فى هذا العالم ، ومنها ما هو مزمع أن يقع يوم الدين وسيأتى ذلك كله .

ولما كانت مريم أم عيسى متقدمة عليه فى الوجود — كان وجودها وأحوالها ارهاصـــا بوجوده وما ينتظر أن يكون منه — أحببنا تقديم قصصها ومواقفها قبل الكلام على مواقف ابنها عيسى عليه السلام .

مريم بنت عمران

كان عمران أبو مريم رجلا عظيما بين العلماء فى بنى اسرائيل ، وقد حملت زوجه فنذرت أن تجعل ما فى بطنها من الحمل محررا لخدمة الهيكل . فلما وضعت تبينت أن الجنين الذى انفصل منها أنثى . وكانت ترجو أن يكون ذكرا ليخدم فى بيت الله ، فتوجهت الى الله تعالى كالمعتذرة أو الآسفة قائلة (رب انى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وانى سميتها مريم وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) ولكن الله تعالى تقبل تلك المولودة بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا .

والظاهر أن عمران قد توفى وابنته صغيرة تحتاج الى من يكفلها ويقوم بشأنها ، فلما قدمتها أمها الى رعاة الهيكل اختلفوا فيمن يقوم بكفالتها ، وألقوا على ذلك قرعة . فكان الكافل لها « زكرياء » والد يحيى عليه السلام — كما قدمنا .

كان زكريا زوجا لخالة مريم . وفى أثناء رعايته لمريم كان يجد عندها رزقا من رزق الله لم

يأتها به ولا وجود له عند الناس فى ذلك الوقت ، فيسائلها قائلا (يا مريم أنى لك هذا) فتجيبه قائلة : (هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

وكانت ملائكة الله تعالى تأتى الى مريم وتخبرها باصطفاء الله تعالى واجابته اياها وتطهيرها من الأرجاس والأدناس ، وتحثها على الاجتهاد فى العبادة والقنوت لله .

هكذا نشأت مريم على الطهارة والبعد عن الدنس ودامت على ذلك .

اقرأوا هذه الآيات : —

سورة آل عمران : إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ [٣٣] ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٣٤] إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٣٥] فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [٣٦] فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٣٧] .

ومنها أيضاً : وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ [٤٢] يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [٤٣] ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ [٤٤] .

تبشير مريم بعيسى

نشأت مريم نشأة طهر وعفاف وبعد عن الاسفاف الى رذيلة ، مكلوءة بعناية الله محروسة بحراسته ، فلما بلغت مبلغ النساء وجدت وقتا فى خلوة وحدها ، فلم ترع الا بالملك جبريل الذى أرسله الله اليها جاءها على صورة فتى ، فأخذها الرعب وظنته يريد بها سوءا فاستعاذت منه ووصفته بعدم التقوى قائلة (انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) والذى أميل اليه أن (ان) نافية . فأعلمها أنه مرسل من الله تعالى ليهب لها غلاما زكيا . فأخذها العجب من ذلك اذ كيف يكون لها ولد وهى لم يمسسها أحد من الناس ؟ فهون عليها الأمر وأحال على قدرة الله تعالى وهو الاله الذى لا يعجزه شىء ، ونفخ فى جيب درعها فاذا هى حامل .

وفى بعض الآيات عبر الله عن الروح الذى جاءها « بالملائكة » بلفظ الجمع . والجمع ليس مقصودا ولكن المقصود أن الذى كلمها كان من ذلك الصنف من خلق الله بدليل قوله بعد ذلك (قال كذلك) بالافراد .

وكان فيما أخبرها به : أن ابنها يسمى المسيح عيسى بن مريم وأنه يكون وجيهـا فى الدنيـا والآخرة وأنه يكون من المقربين ، وأنه يكلم الناس فى المهـد وكهلا ، للاشارة الى أنه يكلمهم فى المهد بكلام انما يصدر مثله ممن كان كهلا ، وأن الله تعالى سيعلمه الكتاب والحكمة والتوراة ، ويعطيه الانجيل أى البشارة ، وأنه سيكون آية للناس على قدرة الله تعالى ورحمة منه لعباده اذ نصب لهم به سبيل الخلاص مما هم فيه من أحوال يتركسون فيها ، اذ كان اليهود قد صاروا الى المادية وتجاوزوا حدود الله ولم يراعوا كتابه ، فأحلوا حرامه وحرموا حلاله ، فجاء لهدايتهم وردهم عن ضلالهم .

والمسيح — فى العبرية — يطلق بالاشتراك على النبى والملك . وليس المراد أنه سيصير ملكا على بنى اسرائيل . بل هو اسم كما تسمى ولدك : سلطانا أو أميرا . وقد يكون المراد أنه يأتيهم بمملكة الأخلاق والفضائل والرحمة وأنه يكون فى هذه الفضائل رأسا . وقد يكون المراد بكونه مسيحا أنه يكون نبيا .

أقرأوا هذه الآيات : —

سورة آل عمران : إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [٤٥] وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ [٤٦] قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [٤٧] وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ [٤٨]

سورة مريم : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا [١٦] فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا [١٧] قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا [١٨] قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا [١٩] قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا [٢٠] قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا [٢١]

فقد جاء فى ص ١ آية (٢٦) وفى الشهر السادس أى من حمل اليصابات زوج زكريا — أرسل جبريل الملاك من الله الى مدينة من الجليل اسمها ناصرة (٢٧) الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم (٢٨) فدخل الملاك وقال سلام أيتها المنعم عليها . الرب معك مباركة أنت فى النسـاء (٢٩) فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية (٣٠) فقال لها الملاك لا تخافى يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله (٣١) وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع (٣٢) هذا يكون عظيما وابن العلى يدعى ويعطيه الرب الاله كرسى داود أبيه (٣٣) ويملك على بيت يعقوب ولا يكون لملكه نهاية . (٣٤) فقـالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا (٣٥) فأجاب الملاك وقال لها . الروح القدس

يحل عليك وقوة العلى تظلك فلذلك أيضا القدوس المـولود منك يدعى ابن الله (٣٦) وهـو ذا « اليصابات » نسيبتك هى أيضا حبلى بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقر (٣٧) لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله (٣٨) فقالت مريم هوذا . أنا أمـة الرب ليكن لى كقولك فمضى من عندها الملاك .

وفى انجيل برنابا فى الفصل الأول ما نصه : (١) لقد بعث الله فى هذه الأيام الأخيرة بالملاك جبريل الى عذراء تدعى مريم من نسل داود من سبط يهـوذا (٢) بينما كانت هـذه العـذراء — العائشة بكل طهر بدون أدنى ذنب المنزهة عن اللوم المثابرة على الصلاة مع الصوم — يوما ما وحدها واذا بالملاك جبريل قد دخل مخدعها وسلم عليها قائلا « ليكن الله معك يا مريم » (٣) فارتاعت العذراء من ظهور الملاك (٤) ولكن الملاك سكن روعها قائلا لا تخافى يا مريم لأنك قد نلت نعمة من لدن الله الذى اختارك لتكونى أم نبى يبعثه الى شعب اسرائيل ليسلكوا فى شرائعه باخلاص (٥) فأجابت العذراء وكيف ألد بنين وأنا لا أعرف رجلا (٦) فأجاب الملاك يا مريم ان الله الذى صنع الانسان من غير انسان لقادر أن يخلق فيك انسانا من غير انسان لأنه لا محال عنده (٧) فأجابت مريم انى لعالمة أن الله قـدير فلتكن مشيئته (٨) فقال الملاك كونى حاملا بالنبى الذى ستدعينه يسوع (٩) فامنعيه الخمر والمسكر وكل لحم نجس لأن الطفل قـدوس الله (١٠) فانحنت مريم بضعة قائلة ها أنا ذا أمة الله فليكن بحسب كلمتك .

أقول : أما قول لوقا « وابن العلى يدعى » وكذا قوله « المولود منك يدعى ابن الله » وقوله « ويعطيه الاله كرسى داود أبيه » فإن هذه العبارات تفرد بها لوقا ، ولم يذكرها أحد من كتاب الأناجيل سواه .

ونحن لا نقول بأن الالهام قصر معهم — وفيهم أصحاب المسـيح المشاهدون لأحـواله العالمون بشأنه — وأفاض على لوقا الذى ليس تلميذا ولا من الاثنى عشر ، بل رجل دخل فى الدين متأخرا وصار تلميذا لبولس الذى لم ير المسيح ولم يعاشره . فهذه العبارة مما جـاء به ليزين أمر المسيح ويدخل على الناس تعظيمه . والمسيح ليس فى حاجة الى ذلك .

وقد أورد صاحب « الفارق بين المخلوق والخالق » وجهين وجيهين فى الطعن على هـذه الجملة وهى « ويعطيه الاله كرسى داود أبيه » .

الأول : أن عيسى عليه السلام من أولاد يواقيم ، لا يصلح أن يجلس على كرسى داود لأنه لما أحرقت الصحيفة التى كتبها « بارخ » من فم النبى « أرمياء » عليه السلام نزل الوحى الى « أرمياء » فقال كما فى « ٣٠ من ص ٣٦ من كتاب أرمياء » هكذا يقول الرب ضد يواقيم ملك يهوذا لا يكون منه جالس على كرسى داود .

الثاني : أن المسيح — مع كونه لم يجلس على كرسي داود — « بيلاطس » أمر بضربه واهانته وسلمه لليهود كما يزعم النصارى ، فنعلوا به ما فعلوا ثم صلبوه .

على أنه يعلم من انجيل « يوحنا » فى ص ٦ أنه كان هاربا من قومه عندما أرادوا أن يجعلوه ملكا . ولا يتصور أنه يهرب من أمر بعثه الله لأجله على ما بشر جبريل أمه العذراء قبل ولادته ومعلوم أنه لا يملك بيت يعقوب ساعة فضلا عن الأبد !

وأما قوله « وابن العلى يدعى » فهذه الجملة منتزعة من قول زكريا عليه السلام فى ابنه يوحنا (يحيى) « وأنت أيها الصبى نبى العلى » فحرفت فى حق عيسى عليه السلام الى قوله « لوقا » على لسان الملك « وابن العلى » ليوهموا الناس أن المسيح اله بن اله .

حمل مريم بالمسيح وولادتها إياه

حملت مريم عليها السلام بالمسيح بمجرد نفخ الملك فى جيبها ، وطبيعى أنها قد مرّت بجميع أدوار الحمل الى أن ولدته . والقرآن الكريم لم يذكر عن تلك الأدوار شيئا .

ويقول البيضاوى : وكانت مدة حملها سبعة أشهر وقيل ستة وقيل ثمانية . ولم يعش مولود وضع لثمانية غيره . وقيل ساعة . كما حملته نبذته اهـ .

والذى أميل اليه أن كل هذا تكلف من أصحاب هذه الأقوال . لأن أمره فى الحمل لما كان عجيبا أرادوا أن يجعلوه فى مدة الحمل أيضا عجيبا . ونحن ليس فى أيدينا ما يثبت العجيبة فى مدة الحمل ؛ فالأليق أن يحمل على الأمر الطبيعي الذى جرت العادة بمثله (١) .

---

(١) ومن الظواهر العجيبة ما نشرته جريدة الأهرام بعددها الصادر يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٣٩ تحت عنوان :

ام فى الخامسة من عمرها

حدثت هذه الظاهرة العجيبة — فى ١٤ مايو الحالى — فى مستشفى الولادة بمدينة « ليما » عاصمة جمهورية « بيرو » فى أمريكا الجنوبية . فقد وضعت الطفلة « لينا مدينا » — وهى من الهنود الحمر وفى الخامسة من العمر — مولودة بلغ وزنها ستة ارطال وهى فى صحة جيدة . وقد اضطر الطبيب المولد لاجراء العملية القيصرية للأم اى بشق البطن لاستخراج الطفلة .

ومما يثبت ان ام الطفلة لم تتجاوز الخامسة من العمر انها لم تستبدل بعد أسنان اللبن .



الأم فى فراشها بالمستشفى على أثر الوضع ، والى جانبها ممرضة تحمل المولودة

ولما حان انفصال جنين مريم ألجأها المخاض الى جذع نخلة هناك فى الموضع الذى فيه مدينة « بيت لحم » وهى على بضعة من الكيلومترات من بيت المقدس . ويقول البيضاوى : ان الزمن كان زمن شتاء والنخلة يابسة ، وانما كان مجيئها اليها لتستتر أو لتعتمد عليها .

هنا حسبت مريم ألف حساب وحساب لما هى قادمة عليه من لوم اللائمين من قومها وما سيرمونها به من الفاحشة ! فقالت (ياليتنى مت قبل هـذا وكنت نسـيا) بالكسر والفتح (منسيا) هو اللبن المشـوب بالماء يترك وينسى لحقارته (فناداها) مناد (من تحتها أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) .

وهذا المنادى قيل هو جبريل كان فى مكان أسفل من مكانها ، وقيل المنادى هو عيسى عليه السلام . والسرى هو النهر وقيل الوجيه من الناس . ويؤكد كونه نهرا قوله بعد ذلك (وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا) وقد أراد الله تعالى بهذا أن يسكن روعها ولتعلم أن من أوجد لها الرطب من النخلة اليابسة فى الشتاء ، وأوجد لها الماء الجارى فى تلك الهضبة التى كانت عليها من الجبل ! قادر أن يرد عنها عيب العائبين وقذف القاذفين . فكلى واشربى وقرى عينا ، ولا يحزنك ما يقولون فاذا رأيت من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صـوما عن الكلام فلن أكلم اليوم انسيا ، وفى ذلك الحـين يتولى الله تعالى البرهنة على براءتها .

بقى أن يقال :

(١) كيف يتولد عيسى عليه السـلام من نفخـة الملك فى جيب قميص مريم ، ونحن لم نر انسانا أتى من غير مباشرة الرجل للمرأة ؟

والجواب على ذلك: أن أمر الحمل جاء عجيبا دالا على قدرة الله تعالى ، اذ جعل المرأة تأتى بانسان من دون مباشرة رجل اياها . وهذا ليس بأعجب من خلق السموات والأرض وما فيها من عجائب ! بل ليس أعجب من خلق الانسان من رجل وامرأة مع المباشرة ! ولا من خلق الحيوان وتقلبه فى الأدوار الجنينية وأحواله فى كل دور ؟ كل ذلك ناطق بأنه صنع حكيم عليهم قادر قدرة فائقة الوصف والله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) فاذا كان المعترض ممن يقول بآية الله ويقر بأن الله تعالى صنع العجائب لأنبيائه وغيرهم ! فالخطب سهل . وان كان ممن لا يقرون بالآيات مع الاقرار بوجود الاله القادر الحكيم ! قلنا : وما تنكر من صنع الله وهو الذى أوجد « آدم » من غير أب ولا أم ؟ فالذى صنع « آدم » سهل عليه أن يصنع « عيسى » دون أب . وهذا صنع الله فى كل حين يصدر على خلاف ما مضت به السنة . فقـد تضع المرأة قردا وهو غير جنسها وقد تضع بعيرا أو شـيئا آخر ! وهـذا أمر يأتى فى كل حين وتطالعنا به الجرائد . فمن الجائز أن يأتى مولود كعيسى على خلاف ما مضت به عادة غير [illegible]

من النساء ! فيكون من أم بلا أب كما جاء آدم بلا أب ولا أم . وقد قال الله تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وهى على كل حال أمر عجيب غريب اذ لم تجر عادة النساء بهذا ! ان قدرة الله تعالى صغير فى جنبها ايجاد هذه العجائب !

أيكون خلق انسان بدون مباشرة رجل أعجب من خلق هذا العالم العلوى وايجاد الكواكب السيارة والثابتة ؟ وتحرك كل فى مداره حركة منتظمة خاصة به على قانون متسق ؟ ولكل منها من الفوائد والتأثير فى هذا العالم الأرضى ما ليس فى الآخر ؟ ولا يعارض أحدها الآخر ولا تبطل دورته ولا عمله عمل الآخر ولا دورته ؟ وبعض هذه النجوم لا يصل الينا ضوؤه الا فى ملايين السنين الضوئية ! وما كشف العلم من عجائب هذا الكون القريب والبعيد الا قليلا !؟

ان أقرب عجائب المخلوقات التى تطالعنا بها الصحف ما جاء الى الأهرام ونشر « بعدد يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٣٣ » وهو الشهر الذى نحن فيه من « فاقوس » أن أحد الأهالى ولدت شاة عنده مولودا على هيئة القردة أى أنه أشبه بالقرد منه بولد الضأن . وفى كتاب حضرة الفاضل الياس الغضبان « تاريخ الانسان الطبيعى » من الهول والمخلوقات الشاذة التى لم تجر على السنن الطبيعى الغالب فى جنسها شىء كثير جدا يقضى بالعجب ! فليكن حمل مريم على الوصف الذى أوردنا واحدا من هذه الحوادث التى جاءت على غير المعهود فى نوعها فتبارك الله أحسن الخالقين .

(٢) ما بلغ سن مريم حين أتت بالمسيح عيسى ؟

الجواب : يقول البيضاوى فى تفسيره : ان سنها كانت ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين . وأنها حاضت قبل الحمل حيضتين فقط .

والذى أقوله : انها كانت بلغت مبلغ النساء وكفى ، وأدع علم ما بقى من ذلك الى الله تعالى .

(٣) ما الحكمة فى أمرها بهز جذع النخلة لتساقط عليها الرطب ! ولم كان رزقها رطبا ؟

والجواب : أن مريم لم يكن لها فى ذلك الحين من يهتم بأمرها . ولا تقدر وهى نفساء أن تجهز لنفسها الطعام وما يلزم لمثلها ممن هى فى حال النفاس . وأيضا فان الرطب طعام وحلو ولا يحتاج الى علاج ومعاناة صنع فكان ذلك رفقا بها . ويقول البيضاوى عن الرطب : أنه خرسة [1] النفساء الموافقة لها أى أنه أوفق طعام للوالدة .

وقال البيضاوى أيضا : انها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء

(١) خرسة ـ بفتحتين ـ طعام النفساء كما فى القاموس .

فهزتها فجعل الله لها رأسا وفيها خوص وثمر . وتسليتها بذلك لما فيه من المعجزات الدالة على براءة ساحتها .

وانى لا أستبعد ذلك من قدرة الله تعالى والمعجزات ثابتة ، ولكن لا ينبغى لنا الاسراف فيها بدون برهان ! وهذا المقدار الذى بينه زائد عما ورد فى القرآن وفى غيره من الكتب التى تعرضت لهذا الموضوع . فلابد من التحفظ فى قبول مثل هذه الأشياء . ونقول . : انها كانت نخلة مثمرة .

وأقول أيضا : ان وجود النخل ببيت لحم وهى البلدة التى كانت بها مريم يوم ولادة المسيح نادر . وقد رأيت بكنيسة بيت لحم المبنية على موضع ولادة المسيح مكانا قد قور البلاط فيه ، يقولون ان فى موضع هذا التقوير كانت النخلة التى ولدت عندها مريم .

وهناك مذود الماشية التى وضعت طفلها فيه عقب ولادته ، لانه لم يكن لها بيت يأويها فى ذلك البلد ، فأوت الى مكان الرعاة الذين كانوا غائبين بماشيتهم فى الرعى وولدت فيه ، وهناك واد عميق بجانب المدينة يقال له « وادى الرعاة » .

وسبب وجودها ببيت لحم أن الحاكم فى ذلك الزمان أمر بعدّ الناس واثباتهم فى الدفاتر ، فجاءت مريم ومعها خطيبها « يوسف النجار » من أبناء عمومتها الى بيت لحم ليثبت نفسه ومريم فى التعداد فكانت الولادة هناك . وأما « السرى » الذى هو النهر فلا وجود له فى ذلك المكان ولعله كان عينا فاضت زمنا ثم غاضت .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة آل عمران : إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ [٥٩]

سورة مريم : فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا [٢٢] فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا [٢٣] فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا [٢٤] وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا [٢٥] فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا [٢٦]

سورة الأنبياء : وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ [٩١]

سورة التحريم : وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ [١٢]

ولم يتكلم من أصحاب الأناجيل عن الحمل بالمسيح سوى « متى »و « لوقا » وعبارة «متى» مختصرة فقد جاء (فى الآية ١٨ ص ١ وما بعدها) أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا : لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمع بها وجدت حبلى من الروح القدس . فيوسف رجلها اذ كان بارا ولم يشأ أن يشهرها ، أراد تخليتها سرا . ولكن فيما هو متفكر فى هذه الأمور اذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلا : يا يوسف بن داود ، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذى حبل به فيها هو من الروح القدس فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم .

وعبارة لوقا « ص ١ — ٢٦ » وفى الشهر السادس — أى من حمل اليصابات زوج زكريا — أرسل جبريل الملاك من الله تعالى الى مدينة من الجليل اسمها ناصرة (٢٧) الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم (٢٨) فدخل اليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها . الرب معك مباركة أنت فى النساء (٢٩) فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ، ما عسى أن تكون هذه التحية (٣٠) فقال لها الملاك لا تخافى يا مريم لأنك وجدت نعمة عند الله (٣١) وها أنت ستحبلين وتلدين ولدا اسمه يسوع (٣٢) هذا يكون عظيما .

واستمر يقص قصتها بما يوافق ما جاء فى القرآن ولا يخالفه وقد تقدم هذا .

وجاء فى الفصل الثانى من برنابا :

إنباء الملاك جبريل يوسف بحبل العذراء مريم

أما مريم فاذا كانت عالمة مشيئة الله وموجسة خيفة أن يغضب الشعب عليها لأنها حبلى فيرجمها كأنها ارتكبت الزنا . اتخذت لها عشيرا من عشيرتها قويم السيرة يدعى « يوسف » لأنه كان بارا متقيا الله يتقرب اليه بالصيام والصلاة ويرتزق بعمل يديه لأنه كان نجارا . هذا هو الرجل الذى كانت تعرفه العذراء واتخذته عشيرا . وكاشفته بالالهام الالهى ، ولما كان يوسف بارا عزم اذ رأى مريم حبلى على ابعادها لأنه كان يتقى الله . وبينما هو نائم اذا بملاك الله يوبخه قائلا : لماذا عزمت على ابعاد امرأتك . فاعلم أن ما كون فيها انما كون بمشيئة الله فستلد العذراء ابنا وستدعونه « يسوع » تمنع عنه الخمر والمسكر وكل لحم نجس . لأنه قدوس الله من رحم أمه . فانه نبى من الله أرسل الى شعب اسرائيل ليحول يهوذا الى قلبه ويسلك اسرائيل فى شريعة الرب كما هو مكتوب فى ناموس موسى وسيجىء بقوة عظيمة يمنحها له الله ، وسيأتى بآيات عظيمة تفضى الى خلاص كثيرين . فلما استيقظ يوسف من النوم شكر الله وأقام مع مريم كل حياته خادما لله بكل اخلاص .

هذا هو ما جاء فى الأناجيل وهو لا يخالف ما فى القرآن . غاية ما فى الأمر أنها تزيد حكاية « يوسف النجار » وهى أمر مسكوت عنه . فلا نصدقها ولا نكذبها . ويصح ايرادها .

وقد ذكرت — فيما مضى — أن اليهود اليوم يختار الرجل لابنته منهم عشيرا يعاشرها فى بيت أبيها مدة من الزمن ، فاذا رضيته ورضيها تم الأمر بالزواج ، ولكل منهما فى أثناء المعاشرة قبل الزواج أن يتخلى عن الآخر .

مريم تفكر فى أمرها

لم يكن علم مريم ببراءة ساحتها من الدنس بالشىء الذي يطمئن نفسها ، بل أخذت الهواجس تنتابها وتحسب لما سيقول الناس عنها ألف حساب . ولقد زادت وساوسها حين أخذها المخاض ورأت ما سيحسبه الناس جريمة لها ماثلا أمام عينها ، فقالت ما قصه الله تعالى عنها فى قوله جل من قائل . (فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا) .

ولكنها كانت تريد الجواب الذى تجيب به لوامها والزارين عليها والمعيرين لها . فقال لها معلما ومرشدا (فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا) وكان الصوم عن الكلام ضربا من العبادة كما يفعل « غاندى » اليوم من الصوم عن الكلام يوما فى كل أسبوع .

فلما أتت قومها وعلى يدها عيسى تحمله . ارتاعوا لهذا الحدث النازل والخطب العظيم ، وزاد فى ارتياعهم ما كانوا يعلمونه فيها من طهارة المنبت وطيب البيئة ونشأة التقوى التى نشأتها ، فأخرجهم ذلك الى الزراية عليها وتعنيفها على ما أتت به من اثم — فى زعمهم — وما قارفت من خطيئة ، وقالوا لها فيما قالوا (يا مريم لقد جئت شيئا فريا) أى بدعا منكرا من الاثم (يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) .

وهنا اختلف المفسرون فى قوله تعالى (يا أخت هارون) تلك الكلمة التى نطق بها قومها ، فقال بعضهم انها كانت من ذرية هارون عليه السلام فقالوا يا أخت هارون — كما يقال للتميمى يا أخا تميم وللأزدى يا أخا الأزد — و هذا يقتضى أن مريم وابنها من ذرية « لاوى » ابن يعقوب وليس بشىء لأن شهرة أنها من بيت « داود » لا تحتاج الى بيان ، وقد كان المسيح يعبر بقوله : قال أبونا داود ، وأن أبانا داود ، كما تكرر ذلك فى انجيل برنابا . وقد جاء فى الأناجيل قول بعض المرضى للمسيح يا ابن داود ارحمنى ! وداود من سبط يهوذا .

وقال آخرون : ان معنى (يا أخت هارون) تشبيه لها برجل فاسق كان فى زمانها يعيرونها بأنها تشبهه ، كما تقول للرجل تريد وصفه بشدة البطش والقتل ظلما : يا أخا أبى حريشة « وهو رجل كان بالغربية زعيما للصوص » وقد عمل أعمالا فظيعة . وشنق فى طنطا سنة ١٣٠٢ هـ وأهل الغربية يشبهون به كل فتاك الى اليوم

وقال آخرون : ان هارون كان رجلا صالحا فى زمانها ، قالوا لها ذلك على سبيل الاستهزاء والتهكم بها لسوء جرمها فى نظرهم ، وهذا أقرب من سابقيه .

سمعت مريم هـذا القول وهي قد نذرت الصمت فأشارت الى ابنها وهو فى المهد طالبة اليهم أن يوجهوا اليه كلامهم . فعدوا ذلك غريبا وقالوا (كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) ؟ فلم يمهلهم عيسى أن أجابهم الجواب الشافى الدال على براءة أمه ، والمؤذن بأنه سيكون من أهل العلم الذين آتاهم الله الكتاب ، وأنه سيجعله نبيا ويبارك فيه أينما توجه ، وأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، وأنه سيكون برا بوالدته وسيكون عبدا متواضعا لا جبارا شقيا — اقرأ هذه الآيات :

سورة مريم : فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا [٢٧] يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا [٢٨] فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا [٢٩] قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا [٣٠] وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا [٣١] وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا [٣٢] وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا [٣٣]

أما ما جاء فى كتب العهد الجديد متعلقا بولادته فها هو :

لم يذكر متى شيئا من مولده سوى أنه ولد فى « بيت لحم » اليهودية فى أيام « هيرودس » الملك ١ ص ٢ متى وأمـا لوقا فذكر مولده باستفاضة .

ص ٢ لوقا — (١) وفى تلك الأيام صدر أمر من « أوغسطس قيصر » بأن يكتب كل المسكونة .. فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد الى مدينته (٤) فصعد يوسف أيضا من الجليل من مدينة الناصرة الى اليهودية الى مدينة داود التى تدعى بيت لحـم لكونه من بيت داود وعشيرته (٥) ليكتتب مع مريم المخطوبة وهى حبلى (٦) وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد (٧) فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته فى المذود اذ لم يكن لها موضع فى المنزل .

وقال برنابا فى الفصل الثالث :

(١) كان هيرودس فى ذلك الوقت ملكا على اليهـودية بأمر قيصر أوغسطس (٢) وكان « بيلاطس »حاكما فى زمن الرياسة الكهنوتية لحنان وقيافا (٣) فعملا بأمر قيصر اكتتب جميع العالم (٤) فذهب اذ ذاك كل الى وطنه وقدموا أنفسهم بحسب أسباطهم ليكتتبوا (٥) فسافر يوسف من الناصرة الى احدى مدن الجليل مع امرأته وهى حبلى ذاهبا الى بيت لحم .(لأنهـا كانت مدينته وهو من عشيرة داود) ليكتتب عملا بأمر قيص (٦) ولما بلغ بيت لحم لم يجد فيها مأوى اذ كانت المدينة صغيرة وحشد جماهير الغرباء كثيرا (٧) فنزل خارج المدينة فى نزل جعل مأوى

للرعاة (٨) وبينما كان يوسف هناك تمت أيام مريم لتلد(٩)فأحاط بالعذراء نور شديد التألق (١٠) وولدت ابنها بدون ألم (١١) وأخذته على ذراعيها(١٢)وبعد أن ربطته بأقمطة وضعته فى المذود(١٣) اذ لم يوجد موضع فى النزل (١٤) فجاء جوق غفير من الملائكة الى النزل بطرب يسبحون الله ويذيعون بشرى السلام لخائفى الله (١٥) وحمدت مريم ويوسف الله على ولادة يسوع وقاما على تربيته بأعظم سرور .

فالقارىء يرى أن تلك الكتب لم تذكر أمر « النخلة » ولا « السرى » بمعنى النهر كما هو أحد التأويلين ولا نذرها الصوم ولا تأنيب قومهالها ولا كلامه فى المهد . وانما ذكر كل ذلك القرآن المهيمن على كتب أهل الكتاب . ولا غرابة فى سكوت كتب أهل الكتاب عن ذلك واثبات القرآن له . فقد قال الله تعالى فى أهل الكتاب (فنسوا حظا مما ذكروا به) .

أنا لا يمكننى أن أفهم أن حادث حمل مريم يمر بين اليهود دون أخذ ورد وطلب محاكمة ولا يعقل أنهم صدقوها فى دعواها أن ذلك حصل بفعل الله دون أن يكون لانسان دخل فيه بمجرد قولها . وقد سكتت الأناجيل عن ذلك ، وانما ذكره القرآن فقط كما قدمنا . والظاهر من عبارة القرآن أنهم رموها بالزنا كما فى قوله تعالى (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) .

ختان المسيح

فى شريعة اليهود أن الطفل يختن بعد ثمانية أيام من ولادته كما أمر الله ابراهيم بذلك ، وقد ختن المسيح لما تم له ثمانية أيام ، وختانه لم يذكر فى القرآن الكريم وانما ذكر فى انجيل لوقا فى آية ٢١ من الاصحاح الثانى ونصها : ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمى « يسوع » كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به فى البطن . وفى انجيل برنابا فى الفصل الخامس :

١ — فلما تمت الأيام الثمانية حسب شريعة الرب كما هو مكتوب فى كتاب موسى أخذا الطفل واحتملاه الى الهيكل ليختناه (٢٥) فختنا الطفل وسمياه « يسوع » كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به فى الرحم .

المجوس ويسوع

حكاية المجوس ويسوع انفرد بها متى بين الأربعة وذكرها برنابا فى انجيله .

وهى تلخص فى أن ثلاثة من المجوس — من المشرق — كانوا يرقبون نجوم السماء فبدا لهم نجم شديد التألق فجاءوا الى اليهودية — يهديهم النجم — ولما وصلوا فى طريقهم الى أورشليم سألوا أين ولد ملك اليهود ؟ وسمع هيرودس ذلك فارتاع ! فجمع الكهنة والكتبة وسألهم أين يولد المسيح ؟ فقالوا فى « بيت لحم » فأحضر هيرودس المجوس وسألهم عن مجيئهم ، فقالوا انهم رأوا نجما فى المشرق هداهم الى هناك فجاءوا بهدايا أحبوا أن يقدموها لملك اليهود الذى ولد .

فأمرهم أن يذهبوا الى بيت لحم ويبحثـوا عن الطفل وأن يعلموه به . فذهبـوا الى بيت لحم وسجدوا للطفل يهديهم النجم وقدموا الهدايا وخافوا على الطفل من هيرودس ، فلم يرجعوا اليه بل ذهبوا الى بلادهم . ولما لم يعودوا علم هيرودس انهم قد سخروا منه ، فأمر بقتل كل طفل ولد فى بيت لحم .

ويظهر لى أنهـا حكاية مصنوعة — فما شأن المجوس بالمسيح ؟ وكيف يسير النجم أمامهم يهديهم ؟ ولم جاء بهم الى أورشليم ولم يذهب بهم الى بيت لحم ؟ وهذه الحكاية لها نظائر فى كتب أهل الأوثان .

وهذا لوقا الذى تتبع الأمر بتدقيق لم يذكر ذلك ولم يشر اليه ولم يذكر ذهاب المسيح الى مصر بل ذكر أنهما أقاما به فى الناصرة .

ذهاب يوسف ومريم بالمسيح إلى مصر

وهذه المسألة انفرد بها أيضا « متى » وذكرها « برنابا »

وتلخص فى أن هيرودس لما أمر بقتل كل طفل فى بيت لحم أمر يوسـف النجار فى منـامه بأن يذهب بالطفل وأمه الى مصر لأن الملك أمر بقتل كل طفل ولد فى بيت لحم . فقام من فوره وأخذ الطفل وأمه وذهب بهما الى مصر وأقاموا بها الى أن هلك هيرودس . ولما هلك أمر يوسف فى نومه بأن يأخذ الطفل وأمه الى بلادهما ، لأن الذين كانوا يطلبون قتله قد هلكوا فرجع .
ومن أحب فضل بيان فليرجع الى انجيل « برنابا » من أول الفصل السادس الى آخر الفصل الثامن .
وبعض مفسرى القرآن الكريم يذكرون أن مصر هى المعنية فى القرآن الكريم بقوله تعالى فى عيسى وأمه (وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين) ويزعم المسيحيـون فى مصر أنهمـا استقرا ببلدة « عين شمس » ويقولون أنهما استظـلا بشجرة هنـاك قد بقى أصلها محتفظـا به الى أمـد غير بعيد منا وكانوا يسمونها « شجرة العذراء » ويعنى الناس بالذهاب الى زيارتها « بضاحيـة المطرية » .

وفى كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» تزييف لهذه الحكاية فليراجع فى ص ٢٩ ج ١ .

يسوع يحاج العلماء

بعد رجوعه إلى « اليهودية » وبلوغه اثنى عشر عاماً من العمر

(١) ولما مات هيرودس ظهر ملاك الرب فى حلم ليوسف قائلا (٢) عد الى اليهودية لأنه قد مات الذين كانوا يريدون موت الصبى (٣) فأخذ يوسـف الطفل ومريم « وكان الطفل بالغـا سبع سنين من العمر » وجاء الى اليهودية حيث سـمع أن أرخيلاوس بن هيرودس كان حاكما فى اليهودية (٤) فذهب الى الجليل لأنه خاف أن يبقى فى اليهودية (٥) فذهبوا ليسـكنوا فى

الناصرة (٦) فنما الصبى فى النعمة والحكمة أمام الله والناس (٧) ولما بلغ يسوع اثنتى عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف الى أورشليم ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى (٨) ولما تمت صلواته انصرفوا بعد أن فقدوا يسوع لأنهم ظنوا أنه عاد الى الوطن مع أقربائهم (٩) ولذلك عادت مريم مع يوسف الى أورشليم ينشدان يسوع بين الأقرباء والجيران (١٠) وفى اليوم الثالث وجدوا الصبى فى الهيكل وسط العلماء يحاجهم فى أمر الناموس (١١) وأعجب كل أحد بأسئلته وأجوبته قائلا : كيف أوتى مثل هذا العلم وهو حدث ولم يتعلم القراءة ؟ (١٢) فعنفته مريم قائلة يابنى ماذا فعلت بنا فقد نشدتك وأبوك ثلاثة أيام ونحن حزينان (١٣) فأجاب يسوع ألا تعلمين أن خدمة الله يجب أن تقدم على الأب والأم (١٤) ثم نزل يسوع مع أمه ويوسف الى الناصرة (١٥) وكان مطيعا لهما بتواضع واحترام .

من مجموع ذلك نفهم أن المسيح عليه السلام نشأ نشأة محمودة لا غبار عليها وأنه كان غيورا على الدين منذ صغره حريصا على تفهم حكمه وأسراره ، وأنه كان يختلس من وقته ما يقوى به معارفه ويثبت به علمه ويجالس العلماء ويناقشهم ويسائلهم ويجيبهم فالبيئة التى تمرس بها صباه وشبابه بيئة علم وحكمة ودين .

سكتت الأناجيل عن المسيح من عهد أن كانت سنه اثنتى عشرة سنة الى أن بلغ تسعا وعشرين . فأين كان يسوع فى هذه المدة وهى سبع عشرة سنة ؟

أما الأناجيل فساكتة عن ذلك وان كان فى بعضها ما يشير الى أن أباه وأمه سكنا فى الناصرة . ولكن كيف يبقى ساكنا ولا يحاج العلماء والكتبة فى الكتاب وتفسيره فى الأعياد كما هى عادته ؟ ولم يذكر أنه رجع الى الهيكل أو عمل عملا ما يتعلق بالدين ؟

أما الأوربيون والباحثون منهم فيقولون انه ذهب الى الهند وتلقى تعاليم بوذا وآداب البوذية . ولما عاد الى وطنه وأخذ فى التعليم والوعظ كانت تعاليمه محاذية لتعليم بوذا فى الحث على تكميل النفس وتهذيبها . غير أنهم يقولون ان مقارنة تعليم المسيح بتعليم بوذا تبين أن تعليم بوذا كان سلبيا بالحث على تجريد النفس من الشرور ، وأما تعليم المسيح فكان ايجابيا يحث النفس على البذل وفعل الخير للأعداء والأوداء .... الى آخره .

أما الذى أعول عليه فى هذا فهو تفويض علم شأنه فى السبعة عشر عاما الى الله تعالى .

كيف ابتدأت نبوة المسيح

لم يذكر القرآن الكريم متى كان ابتداء نبوة المسيح ولا كيف كان ذلك ؟ وأصحاب الأناجيل الأربعة قد ذكروا فى ذلك أن « يوحنا المعمدان » وهو « يحيى بن زكريا » وجد فى البرية زمنا وكان يقتات من الجراد والعسل البرى وثيابه من أوبار الابل وعلى حقويه منطقة جلد ، ثم ظهر فى ناحية « الأردن » ينذر الناس بالتوبة ، فخرج اليه أهل أورشليم والكور القريبة من الأردن ، فكان يعمدهم فى النهر وينذرهم باقتراب ملكوت السموات .

وقد أرسل اليه الكهنة يسألون : هل هـو ايليا ؟ فأجاب : لا . هل هو المسيح ؟ فأجاب : لا . هل هو النبى ؟ فأجاب : لا . فقالوا له : فلم تعمد اذا لم تكن ايليا ولا المسيح ولا النبى ؟ طلبوا أن يقول لهم من هو . قال أنا صوت صارخ فى البرية أعدوا طريق الرب واصنعوا سبله مستقيمة لأنه قد اقترب ملكوت السموات .

وهذه الجملة مقتبسة من الآية « ٣ ص ٤٠ — اشعيا » .

وأن المسيح قد جاء الى يوحنا واعتمد منه فى الأردن . وأن الروح القدس نزل عليه مثل حمامة . ثم ان المسيح بعد ذلك صام فى البرية أربعـين يوما لا يأكل ولا يشرب . ثم جـرب من الشيطان على أثر صومه اذ أحس بالجوع ، فأتاه الشيطان وقال له : ان كنت ابن الله فقـل أن تصير هذه الحجارة خبزا ؟ فقال له : مكتوب ليس بالخبز وحـده يحيا الانسـان بل بكل كلمة تخرج من فم الله . فأوقفه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك الى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أيديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك فقال له: مكتوب أيضا لا تجرب الرب الهك فأخذه ابليس على جبل عال وأراه ممالك الأرض ومجدها . وقال له : أعطيك هذه جميعها ان خررت وسجدت لى . فقال له المسيح : اذهب ياشـيطان لأنه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد . فذهب عنه الشـيطان وجاءته الملائكـة . وعلم المسيح عقب ذلك أن يوحنا أسلم أى هلك فجاء الى « الجليل » وترك « الناصرة » وسـكن « كفر ناحوم » وكان يكرز ببشارة ملكوت الله .وكانت سن المسيح ٣٠ سنة « يراجع ص ٣و٤ — متى . وص ١ — مرقس و ص ٣ و ٤ — لوقا . و ص ١ — يوحنا » .

وهناك رواية برنابا أوردها بنصها من الفصل العاشر دون تلخيص ، وهى :

يسوع وهو ابن ثلاثين

يتلقى على جبل الزيتون الإنجيل من الملاك جبريل

(١) ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر كما أخبرنى بذلك نفسه صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليجنى زيتونا (٢) وبينما كان يصـلى فى الظهيرة وبلغ هذه الكلمات « يارب برحمة ... » واذا بنور باهر قد أحاط به وجوق لا يحصى من الملائكة كانوا يقولون « ليتمجد الله » (٣) فقدم له الملاك جبريل كتابا كأنه مرآة براقة (٤) فنزل الى قلب يسوع الذى عرف به ما فعل الله وما قال الله وما يريد الله حتى أن كل شىء كان عريانا ومكشوفا له (٥) ولقد قال لى : « صدق يابرنابا أنى أعرف كل نبى وكل نبوة . وكل ما أقوله انما قد جاء فى ذلك الكتاب (٦) ولما تجلت هذه الرؤيا ليسوع وعلم أنه نبى مرسل الى بيت اسرائيل كاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا لها : انه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله وأنه لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويخـدمها (٧) فلمـا

سمعت مريم هذا أجابت « يابنى انى نبئت بكل ذلك قبل أن تولد فليتمجد اسم الله القدوس » (٨) ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته النبوية .

والذى أفهمه من كل ذلك الكتاب ... الخ أن العلم — الذى قذف الله به فى روعه أول ما بدأه الوحى على يد جبريل — مثل له كتابا ومثل له أن يأكله ، فاستضاءت به بصيرته ؛ كما مثل لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ان جبريل جاء بنمط من ديباج فيه كتاب فقال له (اقرأ باسم ربك الذى خلق)

نبوة المسيح على رأس ثلاثين سنة

دلت عبارات بعض الأناجيل على أن لمسيح نبىء على رأس ثلاثين سنة من عمره . وجرى على ذلك المؤرخون ومفسرو القرآن الكريم . فكيف هذا مع أن علماء التوحيد يقولون ان النبوة انما تكون بعد الأربعين ؟

والجواب : أن كون النبوة بعد الأربعين أمر غالبى فقط ؛ فقد ينبأ الشخص قبل هذه السن . وهذا يحيى بن زكريا عليهما السلام يقول الله فيه (وآتيناه الحكم صبيا) .

وبيان ذلك : أن بعض الناس قد يبكر فيهم النمو فتنمى أجسادهم وعقولهم بسرعة يفوتون بها أمثالهم . وفى العام المنصرم ذكرت الجرائد السيارة أن طفلا فى تركيا بكر عليه الكبر فبلغ مبلغ الرجال وهو ابن خمس سنوات ؛ وطلب التزوج فأحيل على الأطباء فقرروا أنه رجل تام الرجولة وان كان فى سن الأطفال ! ولكنه لم يلبث طويلا حتى جاءت الأخبار بأن هذا الشخص قدقضى نحبه . فكما بكر بالرجولة بكر عليه الفناء . فلا مانع من تبكير الرجولة على شخص فيتم نضجه بدنا وعقلا فيؤتيه الله النبوة قبل أن يبلغ زمن الشيخوخة كما حصل للمسيح ويحيى عليهما السلام .

معنى كلمة الإنجيل

معنى الانجيل « البشارة[١] » والشواهد متضافرة على أن الله تعالى أعطى المسيح الانجيل وأنه كتاب تضمن الهدى والنور ، وقد أهاب ببنى اسرائيل أن يرجعوا الى الله ويعبدوه ، وأنبأهم بأحداث مستقبلة وبشرهم باقتراب زمن النبى الذى وعد بنو اسرائيل بأن يبعثه الله ، وعلى يديه يكون بعث شريعة جديدة ، وأنه يكون كموسى صاحب شريعة مستقلة وفيه وصفه ووصف أتباعه :

---

(١) جاء فى مقدمة انجيل « تولستوئى » لحضرة الفاضل « سليم أفندى قبعين » أن لفظة « انجيل » باللغة اليونانية مركبة من كلمتين « ايف » ومعناها : جيد — حسن — صلاح — خير — صدق . و « انجليون » ومعناها الأخبار بخبر من الأخبار — ويكون تعريب اللفظتين معا : الأخبار بالخير أو الخبر الحسن .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة آل عمران : نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ [٣] مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ [٤]

ومنها أيضاً : وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ [٤٨]

ومنها أيضاً : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [٦٥]

سورة المائدة : وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ [٤٦] وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [٤٧]

ومنها أيضاً : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ [٦٦]

ومنها أيضاً : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ . . . [٦٨]

ومنها أيضاً : وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ [١١٠]

سورة الأعراف : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ [١٥٧]

سورة التوبة : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ [١١١]

سورة الفتح : وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ . . . [٢٩]

سورة الحديد : ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ . . . [٢٧]

فأين يوجد اليوم انجيل المسيح الذى ذكره القرآن الكريم ؟ ان الانجيل الذى أتى به المسيح وسلمه الى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به لا يوجد الآن ، وانما توجد قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ لم تسلم من المسخ والتحريف وبالزيادة والحذف !

ودليلى على أن المسيح أتاهم بانجيل وأن الأناجيل كانت أكثر من هذه الأربعة ما ترون من الشواهد التى أنقلها من رسائل « بولس » من الكتب القانونية التى تسلم بها الكنيسة فاقرأوا ما يأتى :

بولس رومية ص ١ : ٩ « فان الله الذى أعبده بروحى — فى انجيل ابنه — شاهد لى كيف بلا انقطاع أذكركم » المراد بقوله ابنه (يسوع) . فهذه الجملة تدل على أن المسيح له انجيل .

كورنثيوس ص ٢ : ٣ « ولكن ان كان انجيلنا مكتوما فانما هو مكتوم فى الهالكين » .

كورنثيوس ص ٨ : ٨ « وأرسلنا معه الأخ الذى مدحه فى الانجيل فى جميع الكنائس » .

غلاطية ص ١ : ٦ « انى أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعا عن الذى دعاكم بنعمة المسيح الى انجيل آخر (٧) ليس هو آخر غير أنه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحولوه » أى يغيروه .

غلاطية ص ٢ : ١٤ « ولكن لما رأيت أنهم لايسلكون باستقامة حسب حق الانجيل .. الخ »

فلبى ص ١ : ١٢ « ثم أريد أن تعلموا أيها الاخوة أن أمورى قد آلت أكثر الى تقدم الانجيل . (١٧) وأولئك عن محبة عالمين أنى موضوع لحماية الانجيل » .

فهذه الجملة تدل على أنه كان هناك انجيل ، وأن « بولس » وضع لحمايته ، وبالطبع ذلك الانجيل الذى يتحدث عنه ليس واحدا من هذه الأربعة . وأيضا فان الانجيل كان مهددا وفى حاجة الى حمايته . وقد أوصاهم بعد ذلك قائلا (٢٧) فقط عيشوا كما يحق لانجيل المسيح .

١ — تسالونيكى ص ٢ : ٨ « اذ كنا حانين اليكم كنا نرضى أن نعطيكم لا انجيل الله فقط بل أنفسنا أيضا » .

ص ٣ : ٢ « فأرسلنا تيموثاوس وخادم الله والعامل معنا فى انجيل المسيح » .

٢ — تسالونيكى ص ١ « فى نار لهب معطيا نقمة للذين لا يعرفون الله ولا يطيعون انجيل ربنا يسوع المسيح » .

١ — تيموثاوس ص ١ : ١١ « حسب انجيل مجد الله المبارك الذى أؤتمنت عليه » .

٢ — تيموثاوس ص ٢ : ٨ « واذكر يسوع المسيح المقام من الأموات من نسل داود حسب انجيلى »

تبين من ذلك كله أن « المسيح عيسى ابن مريم » جاء الى أصحابه بكتاب هو الانجيل ،

ولكن الناس على مر الزمان تركوا ذلك الانجيل . وترتب على ذلك ضياعه واستمساكهم بكتب ألف بعضها تلاميذ المسيح وبعضها ألفها تلاميذ تلاميذه أو من بعدهم ، وقد كثرت الأناجيل كثرة فاحشة حتى أربت على المائة . وفيما تقدم عن بولس تجدون ما يؤذن بأن المغيرين أخذوا يحولون الانجيل عن مجراه . ومعلوم أن الكنيسة رفضت ما يخالف رغبتهـا وأقرت الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم على ما هي عليه من انقطاع السند وعدم العلم التام بالمؤلف الحقيقي أو المترجم ومبلغ أمانته على الدين وحرصه على الصـدق وعلى ما بينها من الاختلاف الحقيقي المفضى الى أن أحد الأقوال صادق وما عداه كاذب !

المهمة التي جاء لها المسيح

جاء المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام لمهمة سامية :

١ — ذلك أن بني اسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وحرفوا شريعة الله التي جاءهم بها موسى عليه الصلاة والسلام وانحرفوا عن الطريق الواضح وما أقامهم عليه الأنبياء من السبيل السوى وخرجوا الى الافراط والتفريط . فمن افراطهم في مراعاة التوراة واخراجها عن روحها المراد لله تعالى أنهم كانوا يتحرجون من عمل الخير في السبت باعتباره يوم عطلة لايجوز العمل فيه ، ففوتوا طاعات كثيرة توجب الزلفى الى الله بتلك الحجة ! والله انما يريد الكف عن الأعمال الدنيوية وأما فعل الخير فانه لا حرج فيه وليس من الأفعال المنهي عنها . لذلك جاء المسيح ليرد اليهود عن ذلك التنطع المفضى الى تعطيل الخير في ذلك اليوم .

أنظروا الاصحاح الثاني عشر من « متى » فانكم تجدون :

١ — في ذلك اليوم ذهب يسوع في السبت بين الزرع فجاء تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون (٢) فالفريسيون لما نظروا قالوا هو ذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله في السبت (٣) فقال لهم أما قرأتم ما فعله داود حـين جاع هو والذين معه (٤) كيف دخل بيت الله . وأكل خبز التقدمة الذي لم يحل أكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط (٦) ثم انصرف من هناك وجاء الى مجمعهم (١٠) واذا انسان يده يابسة . فسألوه قائلين هل يحل الابراء في السبوت لكي يشتكوا عليه (١١) فقال لهم أي انسان منكم يكون له خروف واحد فان سقط هذا في السبت في حفرة أما يمسكه ويقيمه (١٢) فالانسان كم هو أفضل من الخروف ؟ اذن يحل فعل الخير في السبوت (١٣) ثم قال للانسان مد يدك فمدها فعادت صحيحة كالأخرى .

ومن تفريطهم تهالكهم على المادة واستغراق حب المال تفكيرهم ، فكانوا يحرضون الفقراء والمحتاجين على النذر للهيكل ليحتووا على ذلك المال . والناذرون والباذلون في أشـد الحاجة

الى بعض ما يبذلون يصرفونه على أنفسهم وعيالهم وآبائهم . وامهاتهم فأراد المسيح أن يخفف من هذه الأنانية فى الكهنة ورجال الدين .

فمن ذلك ما قاله « برنابا » فى الفصل الثانى والثلاثين :

(١) ودعا أحد المتضلعين من الشريعة يسوع للعشاء ليجربه (٢) فجاء يسوع الى هناك مع تلاميذه (٣) وكثيرون من الكتبة انتظروه فى البيت ليجربوه (٤) فجلس التلاميذ الى المائدة دون أن يغسلوا أيديهم (٥) فدعا الكتبة يسوع قائلين : لماذا لا يحفظ تلاميذك تقاليد شيوخنا بعدم غسل أيديهم قبل أن يأكلوا خبزا ؟ (٦) أجاب يسوع : وأنا أسألكم لأى سبب أبطلتم شريعة الله لتحفظوا تقاليدكم ؟ (٧) تقولون لأولاد الآباء الفقراء « قدموا وانذروا نذورا للهيكل » (٨) وهم انما يجعلون نذورا من النزر الذى يجب أن يعولوا به آباءهم (٩) واذا أحب آباؤهم أن يأخذوا نقودا يصرخ الأبناء « ان هذه النقود نذر لله » (١٠) فيصيب الآباء بذلك ضيق (١١) أيها الكتبة الكذابون المراءون أيستعمل الله هذه النقود (١٢) كلا ثم كلا (١٣) لأن الله لا يأكل كما يقول بواسطة عبده داود النبى هل آكل لحم الثيران وأشرب دم الغنم ؟ (١٤) اعطنى ذبيحة الحمد وقدم لى نذورك (١٥) لأنى ان جعت لا أطلب منك شيئا لأن كل الأشياء فى يدى وعندى وفرة الجنة (١٦) أيها المراءون انكم انما تفعلون ذلك لتملأوا كيسكم ولذلك تعشرون السذاب والنعنع (١٧) ما أشقاكم لأنكم تظهرون للآخرين أشهر الطرق وضوحا ولا تسيرون فيها . (١٨) أيها الكتبة والفقهاء انكم تضعون على عواتق الآخرين أحمالا لا يطاق حملها (١٩) ولكنكم أنفسكم لا تحركونها باحدى أصابعكم .

(٢٩) وقد ندب الله هذا بواسطة اشعيا قائلا : حقا ان هذا الشعب يعبدنى باطلا (٣٠) لأنهم أبطلوا شريعتى التى أعطاهم اياها عبدى موسى ويتبعون تقاليد شيوخهم (٣١) الحق أقول لكم أن أكل الخبز بأيد غير نظيفة لا ينجس انسانا لأن ما يدخل الانسان لا ينجس الانسان بل الذى يخرج من الانسان ينجس الانسان . (٣٢) فقال حينئذ أحد الكتبة : ان أكلت لحم الخنزير أو لحوما أخرى نجسة أفلا تنجس هذه ضميرى ؟ (٣٣) أجاب يسوع : ان العصيان لا يدخل الانسان بل يخرجه الانسان من قلبه (٣٤) ولذلك يكون نجسا متى أكل طعاما محرما (٣٥) حينئذ قال أحد الفقهاء : يا معلم لقد تكلمت كثيرا فى عباد الأصنام كأن عند شعب اسرائيل أصناما (٣٦) وعليه فقد أسأت الينا (٣٧) أجاب يسوع : اعلم جيدا أنه لا يوجد اليوم تماثيل من خشب فى اسرائيل ولكن توجد تماثيل من جسد (٣٨) فأجاب حينئذ جميع الكتبة بحنق . أنحن اذن عبدة الأصنام ؟ (٣٩) أجاب يسوع : الحق أقول لكم لا تقول الشريعة ؛ اعبد . بل أحب الرب الهك بكل نفسك وبكل قلبك وبكل عقلك (٤٠) ثم قال يسوع : أصحيح هذا ؟ (٤١) فأجاب كل واحد : انه لصحيح .

وقال « برنابا » أيضا فى الفصل الثالث والثلاثين :

١ — (١) ثم قال يسوع : حقا ان كل ما يحبه الانسان ويترك لأجله كل شىء سواه فهو الهه (ب) وهكذا فان صنم الزانى هو الزانية وصنم النهر والسكير جسده (ج) وصنم الطماع الفضة والذهب (د) وقس عليه كل خاطىء آخر .

٢ — كان فى اليهود فريق الصدوقيين الذين يقولون لا توجد قيامة ولا نشر ولا حساب ولا عقاب ، وان جزاء الأعمال الصالحة أن يبارك الله لصاحبها فى الدنيا وجزاء الأعمال الرديئة أن يعاقبه الله فى الدنيا ، فكان من مهمة المسيح أن يرد هؤلاء الى عقيدة اليوم الآخر وهو يوم الجزاء ، وأن يثبت الايمان بها فى قلوبهم ويحذر الناس من اتباعهم والزيغ عن سبيل الله الى سبيلهم .

٣ — كان بين اليهود أيضا قوم يقال لهم الفريسيون[1] وحقيقة هذا الاسم أنهم قوم تجردوا لطاعة الله تعالى وملك عليهم حبه ومشاعرهم فتفردوا للعبادة وانقطعوا عن العباد ، وزهدوا فى حطام الدنيا الفانية وأقبلوا بكليتهم على الآخرة . ولكنهم من قبل زمن المسيح عليه الصلاة والسلام قد انحرفوا عن سنن سلفهم وألهتهم الحياة الدنيا بزبرجدها وزخرفها ، وأقبلوا على الشهوات يستترون بها وهم فى عملهم يراءون الناس استدراجا لهم ليوقعوهم فى مخالبهم ويبتزوا أموالهم . فكان ظهورهم بمظهر الزهد فخا نصبوه لصيد الدرهم والدينار .

٤ — وكان هناك الكتبة من وظائفهم الوعظ وكتابة الشريعة لمن يطلبها وكانوا فى شؤونهم يشبهون الفريسيين فى تصيد أموال الناس .

٥ — كان هناك الكهنة وخدمة الهيكل وكانوا قد صاروا الى حال رديئة ويحرفون كلام الله ويتهالكون على الحطام الفانى .

كل أولئك كانت أحوالهم تستدعى اصلاحا قويما ومصلحا مخلصا فجاء المسيح لتخليصهم جميعا من الأحوال التى ارتطموا فى حمأتها . فكان يوبخهم ويبكتهم جهده .

وانى أقتصر فى هذا المقام على ما جاء فى « انجيل متى » فى هذه الشئون : جاء فى انجيل متى ص ٢٢ .

(١٥) حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكى يصطادوه بكلمة (١٦) فأرسلوا اليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين : يا معلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالى بأحد لأنك لا تنظر الى وجوه الناس (١٧) فقل لنا ماذا تظن أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا (١٨) فعلم يسوع خبثهم وقال : لماذا تجربوننى يا مراءون (١٩) أرونى معاملة الجزية . فقدموا له دينارا (٢٠) فقال لهم لمن هذه الصورة والكتابة (٢١) قالوا لقيصر فقال لهم : اعطوا اذن ما

(١) يفسر الفاضل سليم قبعين « الفريسيين » بمستقيمى الرأى .

لقيصر لقيصر وما لله لله (٢٢) فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا (٢٣) فى ذلك اليوم جاء اليه صدوقيون الذين يقولون ليس قيام فسألوه (٢٤) قائلين يا معلم ، قال موسى ان مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقيم نسلا لأخيه (٢٥) فكان عندنا سبعة اخوة وتزوج الأول ومات واذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه (٢٦) وكان الثانى والثالث الى السبعة (٢٧) وآخر الكل ماتت المرأة أيضا (٢٨) ففى القيامة لمن من السبعة تكون زوجة فانها كانت للجميع (٢٩) فأجاب يسوع وقال لهم تضلون اذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله (٣٠) لأنهم فى القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله فى السماء (٣١) وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل (٣٢) أنا اله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب ليس الله اله أموات بل اله أحياء (٣٣) فلما سمع الجموع بهتوا من تعليمه (٣٤) أما الفريسيون فلما سمعوا أنه أبكم الصدوقيين اجتمعوا معا (٣٥) وسأله واحد منهم وهو ناموسى ليجربه قائلا (٣٦) يا معلم أية وصية هى العظمى فى الناموس (٣٧) فقال له يسوع تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك (٣٨) هذه هى الوصية الأولى العظمى (٣٩) والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك (٤٠) فبهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء (٤١) وفيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع (٤٢) قائلا ماذا تظنون فى المسيح[1] ابن من هو ؟ قالوا له ابن داود (٤٣) قال لهم فكيف يدعوه داود بالروح ربا قائلا (٤٤) قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك [2] (٤٥) فان كان داود يدعوه ربا فكيف يكون ابنه (٤٦) فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة . ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد أن يسأله . اهـ . وقد أكمل بقية هذه القصة برنابا فليرجع اليه .

متى ص ٢٣ (١) حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه (٢) قائلا على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون (٣) فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون (٤) فانهم يحزمون أعمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يريدون أن يحركوها بأصبعهم (٥) وكل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم (٦) ويحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع (٧) والتحيات فى الأسواق وأن يدعوهم الناس سيدى سيدى (٨) وأما أنتم فلا تدعوا سيدى لأن معلمكم واحد المسيح وأنتم جميعا اخوة (٩) ولا تدعوا لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات (١٠) ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح (١١) وأكبركم يكون خادما لكم (١٢) فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع (١٣)

---

(١) تقدم أن المسيح يطلق بالاشتراك على النبى والملك فى العبرية وفى بعض الأناجيل لفظ «مسيا» بدل المسيح .

(٢) حقيقتها . قال الرب لسيدى . ونصها فى العبرية فى المزمور (١١) « نئيم يهو فالا دونى شب ليمنينى » ولفظ « أدونى » معناها « سيدى » لا « ربى » .

لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراءون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون (١٤) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تدخلون بيوت الأرامل . ولعلة تطيلون صلاتكم . لذلك تأخذون دينونة أعظم (١٥) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحدا ومتى حصل تصنعونه ابنا لجهنم أكثر منكم مضاعفا (١٦) ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم (١٧) أيها الجهال والعميان أيما أعظم الذهب أم الهيكل الذى يقدس الذهب (١٨) ومن حلف بالمذبح فليس بشيء ولكن من حلف بالقربان الذى عليه يلتزم (١٩) أيها الجهال والعميان أيما أعظم القربان أم المذبح الذى يقدس القربان (٢٠) فان من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه (٢١) ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه (٢٢) ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه (٢٣) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والايمان . كان ينبغى أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك (٢٤) أيها القادة العميان الذين يصفون[1] عن البعوضة ويبلعون الجمل (٢٥) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة (٢٦) أيها الفريسى الأعمى نق أولا داخل الكأس والصحفة لكى يكون خارجهما أيضا نقيا (٢٧) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تشبهون قبورا مبيضة تظهر من خارج جميلة وهى من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة (٢٨) هكذا أنتم أيضا من خارج تظهرون للناس أبرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما (٢٩) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين (٣٠) وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا لما شاركناهم فى دم الأنبياء (٣١) فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء (٣٢) فاملأوا أنتم مكيال آبائكم (٣٣) أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم (٣٤) لذلك ها أنا أرسل اليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون فى مجامعكم وتطردون من مدينة الى مدينة (٣٥) لكى يأتى عليكم كل دم زكى سفك على الأرض من دم هابيل الصديق الى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح (٣٦) الحق أقول لكم ان هذا كله يأتى على هذا الجيل[2] .

كما قدمنا كان هناك الفريسيون وهم الدراويش أو الزهاد الذين قطعوا صلتهم بالعالم الا لضرورة وكانوا قد فسدوا وهو يريد أن يردهم الى الحق ويبين فساد ما هم عليه من الطمع والتهالك على الدنيا .

---

(١) هكذا فى ترجمة العبرية بالصاد ولو انصف المترجم لجعلها « يعفون » من العفة بالعين ولعل ذلك فيها من خطأ الكاتب .

(٢) لقد اتي عليهم ذلك في سنة ٧١ علي يد طيطوس الروماني الذى شتتهم وخرب هيكلهم .

ومن أراد أن يقف على حوار المسيح للفريسيين المرائين ، ويعرف حقيقتهم وما كانوا عليه قبل زمن المسيح وفى عهده فليقرأ « من الفصل الرابع والأربعين بعد المائة من برنابا » فانه يقرأ المطرب المعجب والعظات والنصائح الصادرة باخلاص من قلب مفعم بالتقوى .

٦ — من الأغراض السامية التى جاء المسيح لتقريرها واذاعتها بين اليهود وغيرهم البشارة باقتراب ملكوت السموات والمراد بذلك الشريعة الالهية التى يرسل الله تعالى بهـا النبى الأمى المذكور فى آية (١٥) أو ما بعدها من « الاصحاح ١٨ — سفر التثنية [١] » الذى وعد الله بنى اسرائيل على لسان موسى أن يرسله من بين اخوتهم ويجعل كلامه فى فمه ويخبرهم بكل الذى يوصيه الله به . وقد مر الكلام على هذه النبوة فى موسى . وقد بشر اليهـود به أيضـا أنبياء كثيرون . منهم داود فى المزمور الخامس والأربعين والمزمور التاسع والأربعين بعد المائة والعاشر بعد المائة . وأشعيا فى الاصحاحات ٨ و ٩ و ٢٦ و ٣٥ و ٤٢ و ٤٣ و ٥٠ و ٥١ و ٥٢ و ٥٤ و ٥٥ و ٦٠ و ٦٥ . ودانيال فى ص ٢ و ٧ . وحبقوق ص ٣ وحجى ص ٢ . وزكريا فى ص ٣ . وملاخى فى ص ٣ .

وهذا قليل من كثير مما فى تلك الكتب مع ما اعتورها من التحريف القصدى وغير القصدى .

جاء المسيح عليه السلام ليبشر بهذا النبى الكريم . ولا غرو فان المسيح آخر الأنبياء فى بنى اسرائيل ولا أدل على ذلك من أنه قد مضى على القـوم ١٩٣٣ سـنة « ١٩٣٩ الآن » لم يقم فيهم نبى سواه ويحيى بن زكرياء . فلم قاطعهم الله هذه المقاطعة وهجرهم هجرا غير جميل ؟

كان المسيح يعبر عن « المبشر به » بلفظ « النبى » وبلفظ « مسيا » وبلفظ « فارقليط » وهو تعريب لفظ « بيريكلتوس » اليونانية ومعناها « الذى له حمد كثير [٢] » كما عبر عنـه

---

(١) يحمل المسيحيون هـذه البشارة على المسيح ، والحقيقـة أن بشارة موسى فى التثنية لا تنطبق على عيسى لأن المفروض المماثلة الحقيقية ، وهى لا تنطبق على عيسى ، لأن المبشر به نبى — وعيسى عندهم اله — وأنه يكون صاحب شريعة تامة كاملة مستقلة وعيسى لم تكن شريعته كذلك . وموسى كان متزوجا وله أولاد بخلاف المسيح . وموسى حارب اعداءه ولا كذلك المسيح . واذا كان المسيح قد وجد ثم انتهى امره فما معنى أن يبشر تابعوه بأن ملكوت السموات قد اقترب ، مع انه جاء وانتهى كما يقولون .

ومن اراد فضل بيان فعليه الاطلاع على كتاب المرحوم « رحمة الله افندى الهندى » فى الكلام على البشارات التى جاءت عن رسول الله فى العهدين .

(٢) كنت فى سنة ١٨٩٣ — سنة ١٨٩٤ ميلادية طالبا بدار العلوم فى السنة الاولى . وكان يجلس بجانبى — فى درس اللغة العربية — العلامة الكبير الدكتور « كارلونلينو » المستشرق التليانى . وكان يحضر درس اللغة العربية بتوصية من الحكومة الايتالية . فانعقدت اواصر الصحبة المتينة بينى وبينه . وكان المرحوم « احمد بك نجيب » يعطى محاضرات فى الانفتيـاترو العمومى . وكنا نحضرها ونعطى ملازم من كتـابه « الأثر الجليـل فى قدماء وادى النيل » ففى ليلة السـابع والعشرين من شـهر رجب سنة ١٣١١ خرجنا بعد المحاضرة وسرنا فى « درب الجماميز » فقال لى الدكتور « نلينو » هذه الليلة ليلة المعراج ؟ : قلت : نعم . فقال : وبعد ثلاث أيام عيد السيدة زينب ؟ فقلت : نعم ثم قلت له : =

بعض الكتب بلفظ « ايلياء » واليهود يظنون أن ايلياء يأتي اليهم ولكن اذا عرفوا أن « ايلياء » جملها «٥٣» كجمل لفظ « أحمد » زال الاشكال وتبين المراد . وكان يعبر عن الشريعة الآتية بلفظ « ملكوت السموات » ولفظه قريب من التعبير الذى عبر به دنيال « ص ٢ — فى تعبير رؤيا الملك بختنصر » اذ يقول :

وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم اله السموات مملكة لن تنقرض ابدا ، وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك ، وهى تثبت الى الأبد لأنك رأيت أنه قطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب .

والمسيحيون يحملون البشارة على الدين المسيحي الذى جاء به المسيح عليه الصلاة والسلام . واذا نظرنا الى ما جاء به المسيح لم نجده سوى عظات ونصائح وحكم وأمثال ، يريد بذلك توجيه نظر الجماهير من اليهود الى اخلاص العبادة لله تعالى والتخفيف من مادياتهم التى غرقوا فيها الى آذانهم وترك الرياء والنفاق ، وأن يلتبسوا بروح الدين الذى ورثوه عن موسى كما جاءهم ، وأن يطلقهم من اسار الكهنة الدين يعوجون الشريعة ويتخذونها مستغلا لاشباع جشعهم ، ويحرفونها عن مواضعها ارضاء لشهواتهم النازية . ويبشرهم باقتراب « ملكوت السموات » أى الشريعة الالهية الدائمة وبمجيء « محمد » صلى الله عليه وسلم .

ولم يلم الانجيل بشيء من الأحكام الا فى القليل النادر ، كوجوب الاقتصار على زوجة واحدة ، وعدم تزوج من طلق امرأة بامرأة سواها ، وعدم تزوج المطلقة بآخر ، وعدم جواز الطلاق الا بعلة الزنا . وأمر بالعفة وبالغ فى ذلك حتى قال : ان من نظر الى امرأة يشتهيها يكون زانيا بها فى قلبه . ونهى عن الأخلاق الرديئة كالمكر والخداع وأكل الأموال بغير حق والرياء والنفاق ، وشدد النكير على المتصفين بالأخلاق الرديئة من اليهود والكتبة وأفاض فى ذلك افاضة عظيمة . ولو أن انجيل المسيح وصل الى الناس كما كتبه — وهو صلى الله عليه وسلم لا يكتب الا ما نزل اليه — لكان ذلك الكتاب من أهم الكنوز وأغلاها قيمة .

= مارايك يادكتور فى المعراج؟ فقال: هو ذهاب النبى عليه الصلاة والسلام من مكة الى بيت المقدس ليلا وصعوده الى السماء وعوده الى مكة فى ليلة واحدة . فقلت : أنا اعلم أنك تفهم هذا ولكن الذى اريد أن أعرفه هو رأيك فى هذا القول ؟ هل هو صحيح او كاذب ؟ والرجل مؤدب جدا فقال : هذا شيء عجيب ! فقلت : يوجد ما هو أعجب منه ؟ قال : ما هو ؟ قلت : أن المسيح يصلب ويقتل ويدفن ثم يقوم من الأموات ويصعد الى السماء ويجلس على يمين الله ! قال : وهذا ايضا شيء عجيب ثم قلت له — وأنا أعلم أنه حاصل على شهادة الدكتوراه فى آداب اليهود اليونانية القديمة — ما معنى « بيريكلتوس » ؟ فأجابنى بقوله : ان القسس يقولون ان هذه الكلمة معناها « المعزى » فقلت : انى أسأل الدكتور « كارلونلينو » الحاصل على الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة . ولست أسأل قسيسا فقال : ان معناها « الذى له حمد كثير » فقلت : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد ؟ فقال : نعم ! فقلت : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسمائه « أحمد » فقال : يا أخى أنت تحفظ كثيرا ، ثم افترقنا . وقد ازددت بذلك تثبتا فى معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه : أحمد) .

الأناجيل الموجودة الآن

يطلق اسم « **انجيل** » عرفا على تلك القصص التى وجدت بعد زمان المسيح تقص أحواله وأعماله وأقواله التى وعظ بها ومعجزاته وخوارق العادات التى أجراها الله على يده .

والكنيسة تعترف بأربعة منها هى :

« انجيل متى » و « انجيل مرقس » و « انجيل لوقا » و « انجيل يوحنا » .

والقدر الذى وصل الى العالم فى تلك الأناجيل من الجمل والأمثال والنصائح — المقتطفة مما نطق به المسيح من العظات والحكم — يتضمن حث الناس على توحيد الله تعالى واختصاصه بالعبادة والاخلاص فى طاعته والعمل بأوامره واجتناب نواهيه وحسن المعاملة بين الانسان وأخيه والتواضع والبعد عن الكبرياء والصلف والظلم والتعدى ، وتأمر بالبذل فى سبيل الخير وأن الواجب أن لا يتهالك الناس على الدنيا وزخارفها ، ويمثل الناس كل واحد بالمسافر ، والمسافر لا يتخذ القصور ولا يتأثل العقار ! وأن الواجب على المرء الذى وقف نفسه على طاعة الله أن يتوكل على الله حق التوكل فلا يكون أمر طعامه وكسوته أكبر همه لأن الرازق هو الله وهو كفيل بكل ذلك للمتوكلين عليه . وهكذا من الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة .

لم يكتب شىء من هذه الأناجيل فى زمانه ، ولكن بعد انتهاء أمر المسيح — بالخاتمة التى انتهى بها — قام بعض التلاميذ وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصا كثيرة . وكل واحد يسمى ما كتبه « انجيلا » حتى لقد قيل ان الأناجيل بلغت : نيفا ومائة انجيل .

بعد أن أفاق المسيحيون من الاضطهادات التى كانت تتوالى عليهم نظروا فى تلك القصص، واختارت الكنيسة من بينها القصص التى لاتتعارض مع نزعتها وسلمت بها وجعلتها قانونية ، ولم تكترث لما بين مضامينها من التخالف والتناقض ما دام ذلك لا يخالف المنزع العام الذى قصدته الكنيسة . والأناجيل جميعها منقطعة السند ، ولا توجد نسخة انجيل بخط تلمذ من تلاميذ ذلك المؤلف ولا ما يضمن شبهة صحة فيها .

وهاكم بعض ما كتبه الفاضل المرحوم رحمة الله الهندى وغيره عن الأناجيل الأربعة . جاء فى صفحة (١٦١) جزء أول وما بعدها من كتاب « اظهار الحق » ما يأتى :

١ — الانجيل الذى ينسب الى « متى » الآن — وهو أول الأناجيل وأقدمها عندهم — ليس من تصنيفه يقينا . بل ضيعوه بعد ما حرفوه ، لأن قدماء المسيحية كافة وغير المحصورين من المتأخرين على أن انجيل متى كان باللسان العبرانى ، وهو ضاع وفقد بسبب تحريف بعض الفرق المسيحية . والانجيل الموجود الآن « ترجمته » ولا يوجد عندهم اسناد هذه الترجمة ، حتى لا يعلم اسم المترجم أيضا باليقين الى هذا الحين كما اعترف به « جيروم » من أفاضل قدمائهم ، فضلا عن علم أحوال المترجم . وقد أفاض فى البيان والشرح والاستشهاد .

وجاء فى كتاب « الفارق بين المخلوق والخالق » فى صفحة (٢٠) جزء ١ نقل أيضا العالم « جرجس زوين : الفتوحى اللبنانى » فى كتابه — المطبوع سنة ١٨٧٣ « فى الأصل ١٣٧٨ » فى بيروت المترجم من اللغة الافرنسية — الى العربية — أن « متى قد كتب بشارته أى انجيله فى أورشليم سنة ٣٩ للمسيح على ما ذهب اليه القديس « ايرونيموس » والسبب فى ذلك على ما ذهب اليه القديس « ابيفانوس » أنه اما اجابة لليهود الذين آمنوا بالمسيح أو اجابة لأمر الرسل ولم يكتب انجيله باليونانية بل بالعبرية على زعم « أوسيبيوس » فى تاريخه . وقد وافق « أوسيبيوس » القديس « ايرونيموس » أن « بانتيوس » اذ كان قد ذهب ليكرز بالايمان المسيحى فى الهند وجد انجيلا لمتى الرسول مكتوبا بالعبرانية فجاء الى الاسكندرية وبقى محفوظا فى مكتبة قيصر الى أيامه . لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت وبعد فقدها ظهرت ترجمتها فى اليونانية فلم يعرف الذى كان ترجمها . انتهى .

٢ — انجيل مرقس :

قال بطرس قرماج فى كتابه « مروج الأخبار فى تراجم الأبرار » المطبوع فى بيروت سنة ١٨٨٠ ما ملخصه : ان مرقس هذا كان يهوديا لاويا . وهو تلميذ لبطرس ، ولد باقليم « الخمس مدن » وصنف انجيله بطلب أهل رومية ، وكان ينكر الهية المسيح ، ولم يذكر فى انجيله مدح المسيح لبطرس ومات مقتولا فى سجن الاسكندرية سنة ٦٨ ميلادية . قتله الوثنيون — انتهى .

وقد اختلفت النصرانية فى تاريخ تأليف انجيله . قال صاحب كتاب « مرشد الطالبين » ولفظه فى صفحة (١٧٠) أن انجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان تنصرهم بخدمته انتهى . راجع صفحة (٣١٦) من الجزء الأول من كتاب الفارق .

٣ — انجيل لوقا :

لا يقل اختلاف النصارى فى انجيل لوقا عن اختلافهم فى انجيل متى . وقد كان لوقا طبيبا من أهل أنطاكية ولم ير المسيح أصلا ، وقد لقن النصرانية عن « بولس » وبولس هذا كان يهوديا متعصبا على المسيحية ولم ير المسيح فى حياته ، وكان يسىء الى النصارى اساءات متصلة . ولما رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يجدى عمد من طريق الحيلة الى الدخول فيها وأظهر الاعتقاد بالمسيح وادعى أنه صرع ، وفى حال صرعه لمسه المسيح وزجره عن الاساءة الى متبعيه ، ومن ذلك الوقت آمن وأرسله المسيح ليبشر بانجيله وانطلت حيلته على الكنيسة ، وهو الذى جعل النصارى يمرقون من واجبات الناموس الذى ماجاء المسيح لابطال أحكامه ، ولكن جاء لتأييدها فأباح لهم أكل الميتة وشرب الخمر وعلم بأن الايمان وحده كاف فى النجاة بدون عمل .. الخ .

وكان تأليف لوقا انجيله بعد ما كتب مرقس انجيله وذلك بعد موت بطرس وبولس . وفى مبتدأ هذا الانجيل ينص على أنه يراسل به « ثاوفيلس » ليؤكد له صحة الكلام الذى علم به .

وعبارته هى : ص ١ — (١) اذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا (٢) كما سلمها الينا الذين كانوا من البدء معاينين وخداما للكلمة (٣) رأيت أنا أيضا اذ قد تتبعت كل شيء من الأول بكل تدقيق أن أكتب اليك على التوالى أيها العزيز ثاوفليس (٤) لتعرف صحة الكلام الذى سمعت به . ا هـ .

قال فى كتاب الفارق « فتبين أن انجيله ليس الهاميا كما زعموا » وساق على ذلك أدلة خمسة من أقوال العلماء المسيحيين ، تلخص فى أن « مستر كدل » فى رسالة الالهام نص على أن انجيل لوقا ليس الهاميا استنادا الى المقدمة التى نقلناها . وتصريح « جيروم » بأن بعض القدماء كانوا يشكون فى البابين الأولين من هذا الانجيل ، وأنهما ما كانا فى نسخة فرقة « مارسيونى » وجزم « اكهارن » فى صفحة ٩٥ من كتابه أن من — ف ٤٣ الى ٤٧ من الباب ٢٢ من انجيل لوقا الحاقية — وان « اكهارن » يقول فى صفحة ٦١ من كتابه : قد اختلط الكذب الروائى ببيان المعجزات التى نقلها لوقا ، والكاتب ضمه على طريق المبالغة الشاعرية لكن تمييز الصدق عن الكذب فى هذا الزمان عسير . وقول « كلى مى شيس » ان متى ومرقس يتخالفان فى التحرير واذا اتفقا ترجح قولهما على قول لوقا .

وليعلم القارىء أن « لوقا » أتى فى انجيله بزيادات عما ذكره « متى » تبلغ نيفا وعشرين محلا بعضها معجزات وبعضها حكايات أخرى . وأما زيادته عن مرقس فكثيرة جدا .

٤ — انجيل يوحنا .

يذهب كثير من المسيحيين الى أن يوحنا الانجيلى هو يوحنا أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر وأبوه « زبدى » الصياد . ولد فى بيت صيدا من الجليل وأنه هو الذى كان يحبه عيسى جدا .

قال جرجس زوين الفتوحى اللبنانى : ان «شيرينطوس» و « أبيسون » وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس الا انسانا ، وأنه لم يكن قبل أمه مريم ؛ فلذلك فى سنة ٩٦ ، اجتمعوا — أى عموم أساقفة آسيا وغيرهم — عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح وينادى بانجيل مما لم يكتبه الانجيليون الآخرون ، وأن يكتب بنوع خصوصى لاهوت المسيح فلم يسعه أن ينكر اجابة طلبهم .

وقد اضطربت كلمة المسيحيين فى السنة التى ألف فيها انجيل يوحنا ، فمن قائل سنة ٦٥ ، ومن قائل سنة ٩٦ ، ومن قائل سنة ٩٨ . وكثير من علماء النصرانية أنكروا أن يكون هذا الانجيل من تأليف يوحنا التلميذ . فمن ذلك ما كتبه « استادلن » ونقله عنه صاحب كاتوليك هرالد فى صفحة (٢٠٥) من المجلد السابع المطبوع سنة ١٨٤٤ ونصه « ان كافة انجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة المدرسة الاسكندرية » .

وقال « برطشنيدر » ان هذا الانجيل كله وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه ، بل صنفها

أحد تلاميذه فى ابتداء القرن الثانى ونسبه الى يوحنا ليغتر به الناس ، وقال « كروتيس » كان هذا الانجيل عشرين بابا فألحقت كنيسة « أفاس » الباب الحادى والعشرين بعد موت يوحنا ا هـ راجع ٣٤١ و ٣٤٢ من كتاب « الفارق » الجزء الأول .

ومن ذلك نعلم أن الكتاب المذكور كتب لغرض خاص هو اثبات إلـٰهية المسيح والقضاء على التعاليم التى كانت تؤكد أنه انسان .

ولاختلاف مصنفى الأناجيل اختلفت مصنفاتهم ، فبعضهم يذكر فى انجيله حالات أو عجائب لا يذكرها البعض الآخر ، أو يروى الخبر الواحد فى انجيل بعبارة تناقض بالزيادة أو النقص ما ذكر فى الانجيل الآخر ! واليكم قليلا من التناقض بين الأناجيل :

(١) متى ص ٩ (٢) واذا مفلوج يقدمونه اليه مطروحا على فراش .

مرقس ص ٢ (٢) وللوقت اجتمع كثيرون حتى لم يعد يسمع ولا ما حول البـاب فكان يخاطبهم بالكلمة (٣) وجاءوا اليه مقدمين مفلوجا يحمله أربعة (٤) واذ لم يقدروا أن يقتربوا اليه من أجل الجمع كشفوا السقف حيث كان وبعد ما نقبوه دلوا السرير الذى كان المفلوج مضطجعا عليه .

فعبارة « متى » تفيد أنهم قدموه اليه تقديما عاديا . وعبارة مرقس تفيد أنهم نقبوا السقف ودلوه .

(٢) يقول « متى » ان المسيح لقيه مجنونان من القبور فى قرية الجرجسيين وقد صرخا قائلين : مالنا ولك يا يسوع وأنه أمر الروحين اللذين بهما أن يذهبا الى قطيع الخنازير — متى ص ٨ — ٢٨ وما بعدها — وفى مرقس أنه كان انسانا واحدا به شياطين كثيرة — ص ٥ —

(٣) وفى « متى » أن رئيسا سجد له وقال له ابنتى ماتت تعال وضـع يدك عليها فتحيا ، ففعل وحييت بعد موتها — ١٨ وما بعدها ص ٩متى —

وفى مرقس أنه قال له انها مريضة على آخر نسمة ليتك تأتى وتضع يدك عليها لتشفى فتحيا فمضى معه — مرقس ص ٥ : ٢٢ — وما بعدها — وفرق بين من ماتت ومن هى مريضة !

(٤) ذكر مرقس أن المسيح جاء الى « بيت صيدا » فقدموا اليه أعمى وطلبوا اليه أن يلمسه فأخرجه خارج القرية وتفل فى عينيه ووضع يده عليهما وسأله هل يبصر فأخبره أنه يرى الناس كأشجار يمشون فوضع يده على عينيه ثانيا وسأله فأبصر جيدا « ص ٨ آية ٢٢ » .

وهذه لم يذكرها « متى » ولا غيره .

ولا أريد أن أذهب الوقت فى عد أمثال هذه الأشياء ، فمن شاء فليرجع الى كتاب « اظهار الحق » لرحمة الله الهندى . وكتاب « الفارق بين المخلوق والخالق » للباجه جى زاده . «والأجوبة الفاخرة » للقرافى وكتاب « هداية الحيارى » لابن القيم .

انجيل برنابا

كان « برنابا » من أتباع المسيح المواظبين على نشر دعـوته والتبشـير باقتراب ملكوت السموات .

وقد جاء عنه فى كتاب الأعمال ص ٢ (٣٦) ويوسف الذى دعي من الرسل برنابا الذى يترجم ابن الوعظ ، وهو لاوى قبرسى الجنس اهـ . وكان هذا الرجل موثوقا به فى الكنيسة ثقة تامة ويندب لوعظ الناس المدعوين للدخول فى الدين .

أعمال ص ١١ (٢٢) فسمع الخبر عنهم فى أذان الكنيسة التى فى أورشليم فأرسلوا برنابا لكى يجتاز الى انطاكية (٢٣) الذى لما أتى ورأى نعمة الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا فى الرب بعزم القلب (٢٤) لأنه كان رجلا صالحا وممتلئا من الروح القدس والايمان فانضم الى الرب جمع غفـير .

أعمال ص ١١ (٢٩) فحتم التلاميذ حسبما تيسر لكل منهم أن يرسل كل واحد شيئا خدمة الى الاخوة الساكنين فى اليهودية (٣٠) ففعلوا ذلك مرسلين الى المشايخ بيد برنابا وشاول .

أعمال ص ١٢ (٢٥) ورجع برنابا وشاول من أورشليم بعد ما كملا الخدمة وأخذا معهما يوحنا الملقب مرقس .

أعمال ص ١٣ (٢) وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس أفرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما اليه .

أعمال ص ١٥ (١١) لكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص كما أولئك أيضا (١٢) فسكت الجمهور كله وكانوا يسمعون برنابا وبولس يتحدثان بجميع ما صـنع الله من الآيات والعجائب فى الأمم بواسطتهم .

أعمال ص ١٣ (٣٤) أنه أقامه من الأموات غير عتيد أن يعود أيضا الى فساد فهكذا قال انى سأعطيكم مراحم داود الصادقة (٣٥) ولذلك قال أيضا فى مزمور آخر لن تدع قدوسك يرى فسادا (٣٦) لأن داود بعد ما خدم جيله بمشورة الله وقد انضم الى آبائه ورأى فساده (٣٧) وأما الذى أقامه الله فلم ير فسادا .

أعمال ص ١٥ (١) وانحدر قوم من اليهود وجعلوا يعلمون الأخوة أنه ان لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا ، فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليست بقليلة المعنى رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم الى الرسل والمشايخ الى أورشليم من أجل هذه المسألة .

أعمال ص ١٥ (٢٩) أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا التى ان حفظتم أنفسكم منها فنحما تفعلون . وكونوا معافين .

أعمال ص ١٥ (٣٥) أما بولس وبرنابا فأقاما فى أنطاكية يعلمان ويبشران مع آخرين كثيرين أيضا بكلمة الرب .

هذا الرجل الذى قصصت عليكم شأنه قد وجد له انجيل مدون وهو عبارة عن قصة للمسيح، كانجيل متى ولوقا ومرقس ويوحنا منقطع السند كما هى منقطعة السند . وهذا الانجيل يقول فيه مترجمه الدكتور « خليل سعادة » تضاربت فيه آراء الباحثين وتشعبت بخصوصه مذاهب المؤرخين وخبطوا فيه ضلالة وهدى وتلمسوا حقيقته بين رشاد وهوى واستنطقوا الآثار والأسفار واستفسروا الأعصار والأمصار فما ظفروا بعد كل ذلك بما يشفى منهم عليلا أو يبرد لهم غليلا .

وهذا الانجيل كانت نسخته بمكتبة البابا « سكتس » بروما واختلسها أسقف يقال له « فرامرينو » حين عثر عليها مصادفة فقرأها واعتنق الاسلام . وذلك فى أواخر القرن السادس عشر .

ويقول حضرة المترجم فى مقدمته انه يرى أن كاتب انجيل برنابا يهودى أندلسى متمكن من الديانة اليهودية والاطلاع عليها قد تنصر واطلع اطلاعا عظيما على النصرانية ، ثم أسلم واطلع على الديانة الاسلامية ، ويرى أن هذا الحل أقرب الى الصواب . ثم قال : وبعد كل ما تقدم فان هذا الانجيل قد أتى على آيات باهرة من الحكمة وطراز راق من الفلسفة الأدبية وأساليب تسحر الألباب ببلاغتها السامية على ما فيها من البساطة فى التعبير ، وهو يرمى الى ترقية العواطف البشرية الى أفق سام وتنزيهها عن الشهوات البهيمية ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر حاثا على الفضائل مقبحا للرذائل داعيا الانسان الى تضحية نفسه فى سبيل الاحسان الى الناس حتى يزول منه كل أثر للأنانية ويحيا لنفع اخوانه .

وقال ناشره « السيد محمد رشيد رضا » فى مقدمته :

لم نقف على ذكر لانجيل برنابا فى أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذى أصدره البابا « جلاسيوس الأول » فى بيان الكتب التى تحرم قراءتها . فقد جاء فى ضمنها «انجيل برنابا» وقد تولى « جلاسيوس » البابوية فى أواخر القرن الخامس للميلاد أى قبل بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . على أن بعض علماء أوربا يرتابون اليوم فى ذلك المنشور كما ذكر الدكتور «سعادة» فى مقدمته والمثبت مقدم على النافى .

ومهما كان من الأمر . فانجيل برنابا واحد من الأناجيل التى ألفت فى قصة المسيح وان كان يمتاز عن سائرها بالبلاغة . ودقة التعبير ، ويصرح بأمور لعلها هى التى زهدت الكنيسة فيه حتى حرمه « البابا جلاسيوس » ومن ذلك التصريح باسم « محمد » فى كثير من المواضع وانى أنقل عن انجيل برنابا لا لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! بل لأن روايته للحوادث أبين واستقصاءه للأخبار أتم . وان كان فى نظرى لا تخلو بعض الموضوعات فيه من المبالغات الشعرية.

على أن الدكتور « سعادة » مترجم انجيل برنابا قال فى مقدمته — بعد أن أفاض فى الاحتمالات والآراء فى انجيل برنابا — بيد أن هناك انجيلا يسمى بالانجيل « الأغنطسى » طمست رسومه وعفت آثاره يبتدىء بمقدمة تندد بالقديس « بولس » وينتهى بخاتمة فيها مثل ذلك من انجيل برنابا . فمن المحتمل أيضا أن كاتب الانجيل « الأغنطسى » أبا لانجيل برنابا .

وأقول : ومن المحتمل أيضا أن كاتب الانجيل«الأغنطسى» ألم بما كتبه برنابا فى انجيله واقتبس منه ما أثبته فى انجيله ، وأن انجيل برنابا يصح أن يكون أبا للانجيل « الأغنطسى » . ولو أن اخواننا المسيحيين أبقوا جميع الأناجيل ولم تحرم الكنيسة قراءتها لوصلت الينا — ولو على نوع من التحريف — وكانت معرضا جميلا . ولكن ذلك التحريم أعدم تلك الأناجيل وربما كان فيها الكثير الطيب ! والا فأين الانجيل الأغنطسى والأناجيل المذكورة فى الأناجيل وأنها وجدت ، والأناجيل التى كان الداعون الى المسيحية كبولس يحذرون الناس من اتباعها ، والتى كانوا يقولون ان أصحابها يحولون انجيل المسيح ؟

الحواريون

هم أصحاب المسيح عيسى بن مريم — صلوات الله وسلامه عليه — وخاصته الذين اختارهم ليكونوا تلاميذه وبادروا الى الايمان به وتتلمذوا له وتعلموا منه وكانوا اثنى عشر رجلا . وهذا اللفظ لم أعرفه عبرانيا . وأما عربيا فقد قال صاحب القاموس : وقد جاء اطلاق حوارى رسول الله على « الزبير بن العوام » ويظهر أن لفظ « الأنصار » فى جانب رسول الله بمنزلة «الحواريين» فى جانب المسيح عليه السلام . والأناجيل تعبر عنهم بلفظ « التلاميذ » .

واذا جاز لى هذا اللفظ فانى أقول ان معناه « الاخوان فى طلب العلم » من لفظ « حبور » العبرى وهو التلميذ ، وجمعه « حبوريم » نطق به فى العربية « حوارى وحواريين » .

ذكرت أسماء الحواريين فى « متى » فى الاصحاح العاشر من انجيله .

وقد ذكر برنابا أسماء التلاميذ فى الفصل الرابع عشر من انجيله .

وهذه أسماء التلاميذ الاثنى عشر عند متى

١ — (سمعان) الذى يقال له بطرس	٧ — (توما)
٢ — (أندراوس) أخو سمعان بطرس	٨ — (متى العشار)
٣ — (يعقوب) بن زبدى	٩ — (يعقوب) بن حلفى
٤ — (يوحنا) أخو يعقوب	١٠— (لباوس) الملقب تداوس
٥ — (فيلبس)	١١— (سمعان القانونى)
٦ — (برثو لماوس)	١٢— (يهوذا الأسخريوطى)

وهذه أسماء التلاميذ الاثنى عشر عند برنابا

١ — (اندراوس)	٧ — (تداوس)
٢ — (بطرس الصياد = سمعان)	٨ — (يهوذا)
٣ — (برنابا)	٩ — (برثو لماوس)
٤ — (متى العشار)	١٠— (فيلبس)
٥ — (يوحنا) بن زبدى	١١— (يعقوب) بن حلفى
٦ — (يعقوب) بن زبدى	١٢— (يهوذا الأسخريوطى)

ومن ذلك نرى أن برنابا نقص من الحواريين عند متى اثنين وهما « توما » و «سمعان الغيور» المعروف بالقانونى ووضع مكانهما اسمه واسم « تداوس » فهل الصواب معه ؟ ولكن الكنيسة لما رأت انجيله يخالف ما تهوى حذفت اسمه واسم « سمعان » من بين التلاميـذ لأنهما كانا متطابقين فى الرأى ؟ قد يكون ذلك وأنهم اكتفوا فى عقابه بهذا مع بقاء اسمه بين الرسل الذين حملوا قسطا عظيما فى نشر الدعوة والتبشير باقتراب ملكوت السموات .

وما كان من الأمر فقد عرفنا أسماء الحواريين على اختلاف رأيى متى وبرنابا .

هؤلاء الحواريون الذين استجابوا للمسيح عليه السلام ، وهم الذين بثهم فى القرى اليهودية ليدعوا الكفار بدعوة المسيح ومن غلا فى شأنه أو كذبه ورد دعوته .

لم تكن استجابة هؤلاء للمسيح دفعة واحدة ولا فى يو مواحد . بل جاءوا متفرقين . وقد بين ذلك مرقس فى انجيله ص ١ : ١٦ الى ٢٠ وفى ض ٢ : ١٢ .

وقد قص الله تعالى شأن الحواريين فى سورة آل عمران والمائدة والصف .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة آل عمران : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [٥٢] رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ [٥٣]

سـورة المائدة : وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ [١١١]

سـورة الصف : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ [١٤]

تنبيـــــه

قال الشيخ شهاب الدين أحمد بن أدريس المالكى المعروف بالقرافى فى كتابه المشهور بالأجوبة الفاخرة : ان الأناجيل « خمسة » يعرف النصارى منها « أربعة » مشهورة والخامس لا يعرفه الا القليل منهم . والأربعة هى : (انجيل متى) وهو من الحواريين الاثنى عشر وبشر بانجيله باللغة السريانية بأرض فلسطين — بعد صعود المسيح عليه السلام بثمانى سنين — وعدة اصحاحاته ثمانية وستون اصحاحا .

(وانجيل مرقس) وهو من السبعين وبشر بانجيله باللغة الفرنجية بمدينة رومية — بعد صعود المسيح عليه السلام باثنتى عشرة سنة — وعدة اصحاحاته ثمانية وأربعون اصحاحا .

(وانجيل لوقا) وهو من السبعين وبشر بانجيله بالاسكندرية باللغة اليونانيـة . وعدة اصحاحاته ثلاثة وثمانون اصحاحا .

(وانجيل يوحنا) وهو من الاثنى عشر وبشر بانجيله بمدينة أفسس . من بلاد رومية — بعد صعود المسيح بثلاثين سنة — وعدة اصحاحاته فى النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون اصحاحا .

الخامس يسمى (انجيل الصبوة) ذكر فيه الأشياء التى صدرت من المسيح فى حال طفوليته، ينسب لبطرس عن مريم عليها السلام . وفيه زيادة ونقصان وقد ترك فيـه كثير من معجزاته . ويذكر فيه قدوم المسيح عليه السلام وأمه رضى الله عنها ويوسف النجار الى صعيد مصر أثناء عودته الى « ناصرة » قرية عند المقدس واليها ينسب النصارى .

أقول : قد غلط القرافى رحمه الله فى قوله عن متى أنه بشر بانجيله باللغة السريانية فى أرض فلسطين . فان النصارى يجهلون بأية لغة كتب متى انجيله ؟ وانما يغلب على ظنهـم انه كتبه باللغة العبرانية . كما أنه غلط أيضا فى قوله عن لوقا انه من السبعين . فانه لم يكن منهم ولم ير المسيح . وانما سمع عن المسيح من القوم الذين شاهدوه . وأول انجيله شـاهد بذلك اذ يقول فيه : « اذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها الينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة . رأيت أنا أيضا اذ قد تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى اليك أيها العزيز ثاوفيلس » .

وأما انجيل يوحنا — الذى ذكره — فليس مقطوعا بأنه يوحنا أحد الاثنى عشر . لأن الغرض من عمل هذا الانجيل ، انما هو اثبات لاهوتية المسيح . وذلك آخر القرن الأول كما تقدم . فلا بد أن يكون يوحنا آخر سوى الحوارى .

وقوله عن يوحنا انه بشر بانجيله فى «افسس» من بلاد رومية . فانه يريد « من بلاد الروم » وهى بلاد الأناضول لأن « أفسس » ليست من بلاد « ايطاليا » كما توهم العبارة بل هى قبالة زاوية خليج « الاسكندرونة » وتوجد «أفسس» أخرى قرب « أزمير » .

أما (انجيل الصبوة) ويقال له (انجيل طفولية المسيح) فلم يتح لى الاطلاع عليه .
أما عدد اصحاحات كل انجيل الآن فهى « متى ٢٧ — مرقس ١٦ — لوقا ٢٤ — يوحنا ٢١» .

معجزات عيسى عليه السلام

المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى يجريه الله تعالى على يد أحد الأنبياء مع انتفاء المعارض — كأنه بخرق العادة يقول لعباده المرسل اليهم « صدق عبدى فيما يبلغ عنى » ولقد

---

(١) نقد اللجنة

(معجزات عيسى عليه السلام)

قال فى صفحة ٤١٤ ما نصه :

المعجزة أمر خارق للعادة يجريه تعالى على يدالأنبياء من عباده تصديقا لهم كأنه بخرق العادة يقول لعباده المرسل اليهم « صدق عبدى فيمايبلغ عنى » ولقد شاهد كثير من الناس خوارق صدرت عن بعض الناس ممن لم يكونوا أنبياء ـ كما يصدر نحو ذلك عن براهمة الهند وفقرائها الذين ربوا ارادتهم وتغلبت أرواحهم على أجسادهم ـ فما بالك برسل اختارهم الله لتبليغ عباده أوامره ونواهيه ليخرجوهم من الظلمات الى النور ويرشدهم الى طريق الرشاد ويجنبوهم سبل الغواية ؟ انتهى كلامه بالحرف .

(رأى اللجنة)

انما قصد بقوله « ولقد شاهد كثير من الناس خوارق ... الخ » تقريب حصول المعجزة من العقول والدلالة على عدم استبعاد وقوعها على أيدى الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وانا نلاحظ عليه أن تقريب المعجزة بما يصدر من الخارق عن براهمة الهند ـ على فرض صحة ذلك ـ من غير توضيح الفرق بينهما يوجب اشتباها للقارىء وتشككا فى رسالة الرسل، ثم أن سلوكه فى تعليل ظهور الخارق بتربية الارادة وتغلب الأرواح على الأجساد يشعر بأن المعجزة مكتسبة ـ وهو قريب من مسلك الفلاسفة وغير ما عليه المتكلمون ـ كما يعلم من علم الكلام .

فكان الواجب فى مثل هذا المقام أن يوضح معنى المعجزة توضيحا تاما ويميزها عن باقى الخوارق بأن يقول أن المعجزة مقرونة بالتحدى وسالمة من المعارض ، ثم يبين باقى الخوارق لكرامات الأولياء ، ثم اذا أراد التعرض الى أن الخارق قد يظهر على يد الكافر كبراهمة الهند ـ ان كانت الخوارق تظهر منهم ـ يجب أن يوضح أن مثل هذا يسمى استدراجا والله أعلم .

« رد المؤلف على نقد اللجنة »

الموضوع الخامس عشر

(معجزات عيسى عليه السلام)

لما شرعت فى الكتابة فى هذا الموضوع لم يكن من همى أن آتى على تحديد المعجزة تحديدا جامعا مانعا ولكن عنايتى كانت موجهة الى رسمها واعطاء المطالع فكرة عامة عنها اذ الحد الجامع المانع انما يكون فى الكتب الخاصة بالعلم ، فأما الكتاب الذى يكون معرضا لان يقرأه المتعلم ونصف المتعلم فالتدقيق فيه يرفعه عن مستوى أذهان كثير من القراء . على أن من الأساليب الذى جرى عليها التعبير فى القرآن أن ما كان معلوما قد يسكت عنه . كما فى قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) أى أتيتهم به ما آمنوا . فالأمر الذى يكون معلوما من المقام يصح حذفه وهكذا فعلت ولا لوم على .

وقد لا حظت ـ حين كتبت ـ أنه يوجد أقوام يجحدون خرق العادة للأنبياء فأردت أن أدفع فى صدور أقوالهم بأننا رأينا ورأى غيرنا من بعض الناس أمورا خاقة للعادة جرت على أيدى =

شاهد كثير من الناس خوارق صدرت عن بعض الناس ممن لم يكونوا أنبياء — كما يصدر نحو ذلك عن براهمة الهند وفقرائها الذين ربوا ارادتهم وتغلبت أرواحهم على أجسادهم — فما بالك برسل اختارهم الله لتبليغ عباده أوامره ونواهيه ليخرجوهم من الظلمات الى النور ويرشدوهم الى طريق الرشاد ويجنبوهم سبل الغواية ؟ . وليعلم القراء أن البراهمة ليس عندهم نبوات ولا يدعى أحد منهم النبوة أصلا ، ولو فرض وادعاها أحد منهم لم يجر الله على يده ذلك الخارق لأن اجراءه تصديق له والله لا يصدق الكاذب . واذا صدر الخارق على يد صالح فهو كرامة واذا صدر عن غير صالح فاستدراج .

من ذلك أن عيسى عليه السلام لما ابتدأ بارشاد الناس ووعظهم وردهم الى طاعة الله والاخلاص فى عبادته كان يذكر لهم أنه مؤيد من الله بالمعجزات التى لا يقدر عليها غيره . من ذلك أنه يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله . ومن ذلك أنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى باذن الله ، وأنه ينبئهم بما يأكلون ويدخرون فى بيوتهم ، ويبين لهم ان هذه الآيات كافية فى صدقه وحملهم على الايمان له .

وبين لهم أنه مصدق للتوراة مؤمن بما فيها حاث على اتباعها . وانه يحل لهم بعض ما حرم عليهم . فانقسم الناس فى أمره بين مصدق ومكذب ومقبل عليه ونافر منه .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة آل عمران : وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ . وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ . وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ

= البراهمة والفقراء من الهنود — وهم منحطون عن الأنبياء — فكيف بالرسل الذين اختارهم الله تعالى لهداية عباده ؟ أى أنهم أولى باعانة من أرسلهم واصطفاهم لهداية عباده وليس من حق من رأى خرق العادة للمفضول أن ينكر على الفاضل ، وليس ذلك من باب تصغير شأن المعجزة .

وقول حضرات أعضاء اللجنة « أن ذلك يوجب اشتباها للقارىء وتشككا فى رسالة الرسل » مردود بأن الكتاب قد قرأه آلاف من الناس فلم يشك أحد منهم فى رسالة الرسل ولم يقفوا فى معناه بحال فأين هو مقتضى الوجوب ؟

وأما قول حضراتهم « ثم أن سلوكه فى تعليل ظهور الخارق بتربية الارادة وتغلب الأرواح على الأجساد يشعر بأن المعجزة مكتسبة » مردود بأنى لم أضف ذلك الى المعجزة وانما أتيت بتلك العلة فى جانب الأقوام الآخرين الذين لا يصلون الى ذلك الا بالمعالجة الطويلة المستمرة . وأما الأنبياء فلم أقل فى جانبهم شيئا من ذلك لأنهم انما يتوجهون الى الله تعالى الذى يجيبهم الى ما طلبوه اذا شاء وكانت الحكمة فى اجراء ما طلبوه على أيديهم .

وأما قول حضراتهم « فكان الواجب فى مثل هذا المقام ... الخ » فانى أجيبهم بأن واضع الكتاب أدرى بمن يقرءون كتابه وبما يصلح أن يشرح له شرحا وافيا وبما يصلح فيه الاجمال أو التفصيل . وهذه مسألة تختلف فيها الأنظار وذوق أى انسان لا ينقض بذوق آخر ولكل وجهة هو موليها ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا .

إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ [٤٩] وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [٥٠] إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [٥١]

سورة المائدة : إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [١١٠]

سورة الزخرف : وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [٦٣] إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [٦٤]

بقى أن يقال : ان ادعاء المسيح عليه السلام أنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا .. الخ . لا يستلزم أن تلك الخوارق حصلت منه بالفعل وليس فى آيات القرآن ما يدل على أنه فعل تلك العجائب . وغاية ما تدل عليه الآيات أنه كان عنده استعداد وفيه قوة على عمل ذلك . هكذا قال أبو مسلم الذى ينقل عنه الفخر الرازى كثيرا . ومع تسليمنا بما يقول فان النفس مطمئنة الى أنه عمل هذه العجائب أمام أعين بنى اسرائيل وذلك ظاهر من قوله تعالى (واذ كفت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين) .

وأما الأناجيل فقد ذكرت من العجائب والخوارق شيئا كثيرا نذكر لكم منه :

(١) متى ص ٨ (٢) واذا أبرص قد جاء وسجد له قائلا يا سيد ان أردت تقدر أن تطهرنى فمد يسوع يده ولمسه قائلا أريد فاطهر وللوقت طهر برصه .

وقد روى هذه الحادثة لوقا أيضا فى ص ٥ — ١٢ .

(٢) شفاء عبد قائد المائة — متى ص ٨ (٥) ولما دخل يسوع « كفر ناحوم » جاء اليه قائد مائة يطلب اليه (٦) ويقول يا سيد غلامى مطروح فى البيت مفلوجا متعذبا جدا (٧) فقال يسوع أنا آتى وأشفيه (٨) فأجاب قائد المائة وقال يا سيد لست مستحقا أن تدخل تحت سقفى لكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامى .

(١٣) ثم قال يسوع لقائد المائة اذهب وكما آمنت ليكن لك فبرأ غلامه فى تلك الساعة .
وهذه الحادثة قد ذكرها لوقا مع اختلاف اذ جعل شيوخ بنى اسرائيل هم الذين سألوا يسوع أن يشفى الغلام . وذكر هذه الحادثة يوحنا على أن المريض ابن خادم للملك .

(٣) متى ص ٨ (٢٣) ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه (٢٤) واذا اضطراب عظيم قد حدث فى البحر حتى غطت الأمواج السفينة وكان هو نائما (٢٥) فتقدم تلاميذه وأيقظوه قائلين يا سيد نجنا فانا نهلك (٢٦) فقال لهم ما بالكم خائفين يا قليلى الايمان ثم قام وانتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم .

(٤) جاء فى متى ص ٨ (٢٨) ولما جاء الى العبر الى كورة الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جدا ، حتى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق واذا هما قد صرخا قائلين : ما لنا ولك يا يسوع ابن الله أجئت الى هنا قبل الوقت لتعذبنا ؟ وكان بعيدا منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى فالشياطين طلبوا اليه قائلين ان كنت تخرجنا فأذن لنا أن نذهب الى قطيع الخنازير كله فقال لهم امضوا فخرجوا ومضوا الى قطيع الخنازير واذا قطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف الى البحر ومات فى المياه . أما الرعاة فهربوا ومضوا الى المدينة وأخبروا عن كل شىء وعن أمر المجنونين ، فاذا كل المدينة قد خرجت لملاقاة يسوع ولما أبصروه طلبوا أن ينصرف عن تخومهم .

وقد ذكر هذه الحادثة كل من مرقس ولوقا بجعل لفظ « الجرجسيين » بدله « الجدريين » وجعل مجنون بدل مجنونين .

(٥) فى متى ص ٩ (١) فدخل السفينة واجتاز وجاء الى مدينة واذا مفلوج يقدمونه اليه مطروحا على فراش فلما رأى يسوع ايمانهم قال ثق يا بنى مغفورة لك خطاياك . واذا قوم من الكتبة قد قالوا فى أنفسهم هذا يجدف فعلم يسوع أفكارهم فقال لماذا تفكرون بالشر فى قلوبكم ؟ أيما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك أم أن يقال قم وامش ؟ ولكن لكى تعلموا ان لابن الانسان سلطانا على الأرض . أن يغفر الخطايا حينئذ قال للمفلوج قم واحمل فراشك واذهب الى بيتك فقام ومضى الى بيته . فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذى أعطى الناس سلطانا مثل هذا

وقد ذكر هذه الحادثة كل من مرقس ولوقا بتغيير . فقد نص مرقس على أن المدينة كفر ناحوم وأغفل ذكرها كل من متى ولوقا . ومتى ذكر أنه قدم له مطروحا على فراش وقال لوقا دلى اليه على سرير وقال مرقص انهم نقبوا السقف ودلوه اليه .

(٦) متى فى الاصحاح التاسع — ١٨ الى ٢٦ حادثة مضمونها أن أحد الرؤساء جاء الى المسيح وسجد له طالبا منه احياء ابنته التى قد ماتت وفيما هو ذاهب لمست امرأة ثوبه وكان بها نزيف مزمن فشفيت ولما وصلت الى بيت الرئيس نحى المجتمعين على البنت قائلا ان الصبية لم تمت ولكنها نائمة فضحكوا عليه فأخرجهم وأمسك بيدها فقامت .

وقد حكى مرقس هذه القصة بتغيير فلم يذكر أن الصبية قد ماتت ولكن قال انها على آخر نسمة والخبر جاء بموتها والمسيح فى المجمع ولوقا حذا حذو مرقس .

(٧) أورد متى فى الاصحاح المذكور ف ٢٨ أن المسيح فيما هو مجتاز من هناك تبعه أعميان من هناك يصرخان ويقولان : ارحمنا يا ابن داود !

وبعد لأى قال لهما أتؤمنان انى أقدر أن أفعل هذا فقالا نعم فلمس أعينهما فأبصرا وأكد عليهما أن يكتما الخبر فأذاعاه فى كل الأرض .

وقص هذه القصة مرقس وقال ان ذلك كان عند خروجه من « اريحا » وان الأعمى كان واحدا لا اثنين وأن اسمه « باتيماوس » ووافق لوقا مرقس فى هذه القصة بعض الموافقة — ١٠ ص ف ٤٦ —

وأوردها لوقا ص ١٨ — ف ٣٥ موافقا مرقس فى أنه أعمى أبصر وذكر أن المسيح تفل على الأرض وصنع من التفلة طينا وطلى به عين الأعمى وقال له : اغتسل فى بركة « سلوان » فمضى واغتسل وأتى بصيرا .

(٨) فى الاصحاح ١٤ من متى ف ١٥ : ولما صار المساء تقدم اليه التلاميذ قائلين الموضع خلاء ، والوقت قد مضى . اصرف الجموع لكى يمضوا الى القرى ويبتاعوا لهم طعاما . فقال لهم يسوع لا حاجة لهم أن يمضوا أعطوهم أنتم ليأكلوا . فقالوا له ليس عندنا ههنا الا خمسة أرغفة وسمكتان فقال ائتونى بها الى هنا فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ ، والتلاميذ للجموع فأكل الجميع وشبعوا ، ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتى عشرة قفة مملوءة والآكلون نحو خمسة آلاف ما عدا النساء والأولاد اﻫ . وقد ذكر باقى أصحاب الأناجيل هذه الحكاية مع بعض التخالف .

وهنا أقول : ان هذه المسألة هى مسألة المائدة السماوية [١] ومعنى كونها سماوية أن الله

(١) نقد اللجنة

« الموضــوع الرابع »

(مسألة المائدة التى أنزلت على عيسى عليــه الســلام)

قال فى صفحة ٤١٩ ما نصه : —

فى الاصحاح ١٤ من متى ف ١٥ : ولما صار المساء تقدم اليــه التلاميذ قائلين الموضع خلاء والوقت قد مضى ، أصرف الجموع لكى يمضوا الى القرى ويبتاعوا لهم طعاما ، فقال لهم يسوع لاحاجة لهم أن يمضوا أعطوهم أنتم ليأكلوا فقالوا له ليس عندنا ههنا الا خمسة أرغفة وسمكتان فقال ائتونى بها الى هنا فأمر الجموع أن يتكئوا على العشــب ثم أخــذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ والتلاميذ للجموع فأكل الجميع وشبعوا ، ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتى عشرة قفة مملوءة ، والآكلون كانوا نحو خمسة آلاف ما عدا النساء والأولاد اﻫ . وقد ذكر باقى أصحاب الاناجيل هذه الحكاية مع بعض التخالف .

وهنا أقول : ان هذه المسئلة هى مسئلة المائدة السماوية ، ومعنى كونها سماوية أن الله تعالى =

تعالى بارك فى الطعام بطريقة غير معروفة ولا مألوفة . وقد حكيت فى القرآن الكريم بقوله تعالى فى سورة المائدة (اذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من

يبارك فى الطعام بطريقة غير معروفة ولا مألوفة . وبعد أن ذكر الآيات القرآنية الواردة فيها وحكى عن المفسرين الخلاف فى نزولها وعدم نزولها قال:

وأنا أكرر القول أن مسألة المائدة هى مسألة الأرغفة الخمســـة والسمكتين ، والمراد بانزالها عليهم أن يرزقهم الله تعالى الطعام الكثير من حيث لا يحتسـبون ، ومن أراد المطرب المعجب — من روايات القائلين بنزولها وعن مدة نزولها وكيفية نزولها وما كان عليها من طعام وبقول وغير ذلك — فليرجع الى « روح المعانى » للألوسى ص ٤١٠ ج ٣ ١٠ هـ كلامه .

(رأى اللجنة)

نحن والحق يقال فى حيرة شديدة من تصرف الأستاذ — مؤلف هـــذا الكتاب — ولم نهتد الى جواب عن تصرفه هذا تطيب اليه النفس .

ذلك أنه اعتبر « انجيل متى » كتـــابا ثابتا صحيحا معتمدا يجوز صرف القـرآن الكريم عن ظاهره وتأويله على مقتضى ما ورد فى هذا الانجيل ، مع الاعراض عن المأثور فى تفسير القرآن وعما أجمع عليه أئمة التفسير .

يقول فضيلته ويكرر القول أن مسألة المائدة السماوية التى جاء بها القرآن الكريم هى مسألة الأرغفة الخمسة والسمكتين — المحكية فى الاصحاح الرابع عشر من انجيل متى —

ونحن نقول له على فرض صحة القصة التى حكيت فى أنجيل متى ، كيف يحمل عليها قوله تعالى (اذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال اتقـــوا الله ان كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعـلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ، قال الله انى منزلها عليـكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحـــدا من العالمين) صدق الله العظيم .

ان ما قص فى الانجيل يتضمن أن التلاميذ طلبوا من عيسى أن يصرف الجمـــوع الى القرى ليبتاعوا طعاما لعدم وجود ما يكفى هذه الجموع عندهم ، فمنعهم عيسى وطلب ما عندهم من الطعام وهو خمسة أرغفة وسمكتان ، فدعا الله فبارك فيه وأكل الجميع منه ، الى آخر ما ذكر فى الانجيل .

فأين سؤال الحواريين لعيسى بأن ينزل عليهم مائدة من السمـــاء فيما قص فى الانجيل ؟ وأين مجادلة عيسى لهم ونهيهم عن مثل هذه المطالب فى المعنى ثم اعتذارهم بما قالوه وحكاه الله تعـــالى عنهم ؟ وأين طلب عيسى من الله تعالى بأن ينزل مائدة من السماء تكون عيدا لأولهم وآخرهم ؟ وأين اجابة الله له بقوله (انى منزلها عليكم) مع الوعيد الشديد لمن يكفر بعد انزالها .

ثم يقال له : هل يطلق على الطعام — الذى بورك فيه — أنه مائدة أنزلت من السماء وكانت عيدا لأولهـم وآخرهم ووقع التوعد بأن من يكفر منهم بعد انزالها يعذبه الله عذابا لا يعذبه أحـــدا من العالمين ! اللهم أنا نبرأ اليك من مثل هذه الآراء ، نعم تكثير الطعام والماء يعتبر من المعجزات ، ووقع نظيره لسيد الخلق — كما ثبت فى الصحيحين — ولكنه غير ما يفهم من آيات المائدة ، ثم أى داع الى مخالفة المأثور والجمهور من المفسرين الى ما ذكر فى انجيل متى ؟

لقد ذكر المفسرون أن ابن المنذر وابن جرير وابن أبى حاتم رووا بأسانيدهم عن عمار بن ياسر موقوفا ومرفوعا — والوقف أصـــح — قال « أنزلت المائدة من السـمـــاء خبزا ولحما وأمروا أن لا يخونوا ... الخ » الحديث .

هذا وانا نعتب على الأستاذ فى قوله « ومن أراد المطرب المعجب ... الخ » فانه لا يقصد بها بعد بيان رأيه فى المائدة الا التهكم بأئمة التفسير انتصارا لانجيل متى — سامحه الله — والله أعلم .

السماء ؟ قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء

رد المؤلف عليها
« الموضوع الرابع »
(مسألة المائدة)

أود أن أقدم بين يدى القارىء الكريم مقدمة يستبين بها معنى نزول المائدة وهل يتعين أن يكون الانزال من السماء ؟ أو له معان أخرى يمكن حمل ما ورد فى القرآن عليها ؟ قال الراغب : النزول فى الأصل هو انحطاط من علو ، وأنزل الله نعمه أو نقمة على الخلق أعطاهم اياها . وذلك اما بانزال الشىء نفسه كانزال القرآن . واما بانزال أسبابه والهداية اليه كالحديد واللباس ا هـ .

استعمالات الانزال وتنزيل الشىء فى القرآن

١ — (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) الزمر ٦ — الانزال مجاز عن القضاء والقسمة .

٢ — (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) الحديد ٢٢ . قال الحسن : أى خلقناه . وقال قطرب : هيأناه لكم وأنعمنا به عليكم ؛ من نزل الضيف .

٣ — (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) الفتح ٤ — المراد خلقها وايجادها . وفى التعبير عن ذلك بالانزال ايماء الى علو شأنها . وقيل المعنى حط السكينة فى قلوبهم فكأن قلوبهم منزل لها ومأوى .

٤ — (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة) آل عمران ١٥٤ — والمعنى ثم وهب لكم أيها المؤمنون .

٥ — (أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز) . هود ١٢ . وعبروا بالانزال دون الاعطاء لأن مرادهم التعجيز ، يكون ذلك على خلاف العادة لأن الكنوز انما تكون فى الأرض ولا تنزل من السماء ! ويحتمل أنهم أرادوا بالانزال الاعطاء من دون سبب عادى كما يشير اليه سبب النزول ؛ أى لولا أعطى ذلك ليتحقق عندنا صدقه .

٦ — (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) الرعد ٧ — كالآيات التى أنزلت على موسى وعيسى عليهما السلام .

٧ — (فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير) القصص ٢٤ — أى لأى شىء تنزله من خزائن كرمك الى .

٨ — (أم أنزلنا عليهم سلطانا) الروم ٣٥ — الانزال مجاز عن التعليم أو الاعلام .

٩ — (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) الأعراف ٢٦ — أى خلقنا لكم ذلك بأسباب نازلة من السماء كالمطر الذى ينبت به القطن الذى يجعل لباسا ؛ قاله الحسن . وعن أبى مسلم : ان المعنى أعطيناكم ذلك ووهبناه لكم وكل ما أعطاه الله تعالى لعبده قد أنزل عليه من غير أن يكون علو أو سفل ، بل هو جار مجرى التعظيم كما تقول : رفعت حاجتى الى فلان وقصتى الى الأمير ، وليس هناك نقل من سفل الى علو .

وقيل المراد قضينا لكم ذلك وقسمنا وقضايا الله تعالى وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث كتب فى اللوح المحفوظ وعلى كل فالكلام لا يخلو من مجاز .

١٠ — (وانزلنا عليكم المن والسلوى) البقرة ٥٧ — قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر الى الطلوع وتبعث الجنوب عليهم السمانى ، « بيضاوى » .

١١ — (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء) البقرة ٥٩ — الرجز الطاعون ، « بيضاوى » .

١٢ — (ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) الأعراف ٩٦ — وقيل المراد بالبركات السماوية المطر وبالبركات الأرضية النبات .

والذى تلخص لنا أن الانزال فى القرآن ورد بمعنى :

(١) القضاء وان قضايا الله تعالى وقسمه توصف بالنزول من السماء . (٢) القسمة . (٣) الخلق . (٤) التهيئة . (٥) الأنعام . (٦) الايجاد . (٧) الهبة . (٨) الاعطاء بدون سبب عادى . =

تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) .

= (٩) اجراء الآيات على يد النبى (١٠) الاصابة . (١١) تيسير الشئ . اذا علمنا هذا علمنا أنه يمكن حمل انزال المائدة من السماء على تيسير الطعام لهم بدون الأسباب العادية التى يعرفونها .

وقد جرى العرف على تسمية الأشياء التى يعجز الناس عن تعليلها بأنها سماوية — وذكر ذلك فى كتب الفقهاء كثيرا .

وتكثير الطعام القليل الى أن يعم الآلاف من الناس أمر يعجز البشر بمقتضى بشريتهم عن أن يأتوا بمثله .

اذا تقرر هذا عندك أيها القارئ الكريم فأرجو أن تحتفظ بهذه المعــانى للنزول وانى أشرع فى الكلام على ما جاء بنقد أصحاب الفضيلة لكتابى فى هذا الموضوع فأقول :

ابتدأ حضرات أصحاب الفضيلة قولهم فى شأن هذا الموضوع بابداء الحيرة والاندهاش الشديدين وربما رأوا فى هذا القول تسهيلا لمهمتهم التى كلفوا بأدائها ليكون برهانا على أنهم بازاء رجل فاتته كل مميزات أهل الاخلاص، وليكون ذلك تزكية لأنفسهم ودليــلا على غيرتهم على الدين مقابلة رجــل لا غيرة لديه على ذلك الدين .

ومن جهة أخرى ليحملونى منة يطوقون بهــا عنقى ! وهى أنهم بحثوا عن طريق يرون فيها لى الخلاص وبذلوا فى ذلك غاية ما يستطيعون فلم يظفروا ! لأن عملى كان فيه من مجافاة الدين ما قام حائلا دون ما يتمنون فلهم منى الشكر الأوفى الأوفر .

قالوا : نحن والحق يقال فى حيرة شديدة من تصرف الأستاذ — مؤلف هذا الكتاب — ولم نهتد الى جواب عن تصرفه هذا تطمئن اليه النفس ذلك أنه اعتبر انجيل متى كتابا ثابتا صحيحا معتمدا يجوز صرف القرآن الكريم عن ظاهره وتأويله على مقتضى ما ورد فى هذا الانجيل مع الأعراض عن المأثور فى تفسير القرآن وعما أجمع عليــه أئمة التفسير .

وأنا أتحدى حضراتهم جميعا وأسمح لهم أن يستعينوا بمن شاءوا على ايجاد جمــلة فى قولى قلت فيها «ان انجيل متى صحيح ثابت معتمد يجوز صرف القرآن الكريم عن ظاهره وتأويله على مقتضى ما ورد فى هذا الانجيل »

فان لم يفعلوا ولن يفعلوا فعليهم أن يتقوا الله فى عباده وعقائدهم فى الدين ويجب عليهم وهــم يكتبون فى مثل هذا الموضوع الدقيق الحساس أن يمسكوا بأيديهم أقلاما يخطون بها ، لا مباضع يجرحون بها عباد الله بغير جرم ولا ترة ولا بينة من الله ولا هدى ولا كتاب منير .

رأيى فى انجيل متى وسائر الأناجيل واضح معلوم مبسوط بصفحة ٤٠١ من كتابى وما بعدها . والواجب على حضراتهم أنهم لا يجعلون كتــابى عضين . اذ ليس من الميسور لى ولا لغيرى كلما ذكر اسـم انجيل من الأناجيل اعادة كل ما كتب عنه فى هذا الكتاب .

وقد قلت عن انجيل متى فى صفحة ٤٠١ نقلا عن كتاب « اظهار الحق » ما نصه :

الانجيل الذى ينسب الى متى الآن — وهو أول الأناجيل وأقدمها عندهم — ليس من تصــنيفه يقينا ، بل صــنعوه بعد ما حرفوه ، لأن قدماء المسيحية كافة وغير المحصورين من المتأخرين على أن انجيل متى كان بالسان العبرى ، وهو ضاع وفقد بسبب تحريف بعض الفرق المسيحية .

والانجيل الموجود الآن « ترجمته » ولا يوجد عندهم اسناد هذه الترجمة ، حتى لم يعلم اسم المترجم باليقين الى هــذا الحين ، كما اعترف به « جيروم » من أفاضل قدمائهم فضلا عن عــلم أحوال المترجم .

ولما تكلمت عن معجزات المسيح فى ص ٤١٤ قالمت عن المعجزات التى جاء بهــا القرآن وأتيت بالآيات الدالة عليها ، وقد ذكرت تلك المعجزات فى القرآن مجملة ومعجزة المائدة ليس بها نص قطعى الثبوت والدلالة ، والمفسرون مختلفون فى شأنها ، هل وجدت أولا ؟ ولكل من الرأيين مكانة .

وهنا اختلف المفسرون . فقال بعضهم انها نزلت ، وان الذين كفروا بعيسى بعـد الأكل من المائدة مسخوا خنازير تحقيقا لقوله تعالى (أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) .

وفي صفحة ٤١٦ شرعت أكتب في معجزات المسيح حسب ما بين بالأناجيل ؛ ولما كان انجيل متى أولها وأقدمها عندهم اعتبرته أصـلا أقيس عليه ما كتب غيره من الأناجيل، فكتبت في معجزات المسيح تفصيلا طبقا لما نصته كتب المسيحيين ومناقشـا لها بسبب اختلافهم فيها ، ومبينا تضارب أناجيلهم فيها وتكذيب بعضها بالبعض الآخر الى أن وصلت الى مسألة اطعام نحو خمسـة آلاف ما عدا النساء والأولاد من خمسة أرغفة وسمكتين؛ التي ذكرها متى كمـا ذكرها سائر أصحاب الأناجيل بتخالف قليل .

وقد نظرت في هذه المسألة الى ناحية القرآن الكريم . فوجدتها قد ذكرت على ضرب آخر وهو طلب الحواريين الى المسيح أن يدعو الله أن ينزل عليهم مائدة من السـماء وأن الله وعده انزالها متوعدا من كفر بعد انزالها أن يعذبه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين . ولم ينص الله تعالى في الكتاب الكريم أنه أنزلها عليهم ، وأنهم أكلوا منها ثم آمنوا أو كفروا . ونظرت من كتب التفسير الى ما قاله ابن جرير الطبري والنيسـابوري والحافظ ابن كثير والبغوي والألوسي فوجدتهم يحكون اختلاف العلماء في نزول المائدة من السماء ، ووجدت أن مجاهدا يقول ان ذلك مثل ضربه الله تعالى لخلقه نهاهم به عن مسألة نبي الله الآيات . والحسن يقول لما قيل لهم (فمن يكفر بعد منكم) الى آخر الآية قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل «ص ٨١ ج ٧ الطبري». قال النيسابوري وأكدوا هـذا القول بأنه وصف المائدة بكونها عيد لأولهم وآخرهم فلو نزلت لبقي العيد الى يوم القيامة « هامش ٦٤ ج ٧ طبرى . وهامش ٢٧٤ ج ٣ » وفي ابن كثير ، ٢٧٩ ج ٣ بشأن نزول المائدة « لا يعرفه النصـارى وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله ، وكان يكون موجودا في كتابهم متواترا ولا أقل من الآحاد والله أعلم » .

أما أنا فقد وجدت الاشارة اليها في كتبهم وهي أن عيسى قد أطعم من طعـام قليل آلافا فترجح عندى أنها المائدة التي ذكرت في الكتاب الكريم فقلت ما نصه :

ان هذه المسألة هي مسألة المائدة السماوية ، ومعنى كونها سماوية أن الله تعالى بارك في الطعام بطريقـة غير معروفة ولا مألوفة وقد حكيت في القرآن الكريم في سورة المائدة ... الخ .

وبمـا قدمت يعلم أن نزول المائدة أمر غير مقطوع به عندنا، وحينئذ فللرأى مجال فيها، ولذلك اختلف العلماء في أمرها على النحو الذي بينا ، ولا حرج على في أن أفهمها على النحو الذي فهمته .

ويذهب عقلي مغضبا أن تركته   سدى وأتعبت فيه الشافعي ومالكا

وقد غضب على حضرات الأفاضل غضبه الجلاد على من لم يجن عليـه ذنبا . على أن حضراتهم في غضبتهم على انما يريدون نقلي عن مسألة اسرائيلية مفهومة الى مسـألة اسرائيلية لم أفهمها ، فبأى كتاب أم بأية سنة يقولون لى لا تفهم ما قاله «متى»، وهو لايعدو أنه من الاسرائيليات وأفهم بدون تعقل ما ذهب اليه المفسرون من الاسرائيليات ؟ ولقـد شرق القائلون بنزولها وغربوا ، واتهموا وانجدوا ثم لم يكن كلام أكثرهم الا أنها من سمك وخبز ، وحلاها بعضهم بأن الخبز كان من الرز وزاد بعضهم بقولا على الأرغفة . وزاد آخرون زيتونا وتمرا وملحا وسمنا ورمانا وقديدا . ولكنهم جعلوا قاعدة الطعام الأصلية الخبز والسمك كما قلت .

وأما اشتدادهم في مسألة المحاورة التي تقدمت دعاء عيسى بنزول المائدة ، وأنها في القرآن تخالف ما جاء في الانجيل ، فقد عدم حضراتهم أني قلت في صفحة (٤) من كتابي أن ما في القرآن هو الحق الذي لا مرية فيه وأن ما خالفه من كتب أهل الكتاب لا يعول عليـه . فلا بد أن المحاورة كانت طبق ما جاء في القرآن لا طبق ما جاء في الانجيل .

وكان يجدر بحضرات الأفاضل ـ وقد فحصوا كتابي كله ـ أن يتذكروا ما كتبته في صفحة (٤٠٣)

وقال آخرون ان المائدة لم تنزل اذ لم ينص القرآن على نزولها بالفعل . وان الطالبين للمائدة لم يطلبوها بعد أن اشترط الله تعذيب من كفر بعد نزولها تعذيبا شديدا فخشوا أن يحيق بهم العـذاب .

= بشأن انجيل متى اذ جاء فيها:لكن هذه النسخة العبرانية « نسخة انجيل متى » قد فقدت . وبعد فقدها ظهرت ترجمتها فى اليونانية فلم يعرف الذى ترجمها .

وأما صلب القصة فانه لا يخالف ما فى القرآن بعد الاعتبارات التى أبديتها فهو على الأقل أمر غير مقطوع بكذبه .

أما عتاب حضراتهم لى على التهكم بمن سموهم أئمة التفسير فلحضراتهم العتبى حتى يرضوا .

ولكنى أوجه نظرهم الى أن الأقوال التى قلت فيها « ومن أراد المطرب المعجب ... الخ » ليست الا اسرائيليات ذكرها المفسرون فى كتبهم . ويكفى حضراتهم ليعلموا أنى لم أقل الا حقـا أن يقرءوا ما يأتى :

الألوسى ص ٤١٠ ج ٢٠ فى تفسـير آية المائدة :

وأخرج ابن جرير وغيره عن الحسن ومجاهد: أن القوم لما قيل لهـم (فمن يكفر ..) الخ ، قالوا لا حاجة لنا بها ، فلم تنزل . والجمهور على الأول وعليـه المعول . فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمار بن ياسر موقوفا ومر فوعا — والوقف أصح — قال : أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا فمسـخوا قردة وخنازير . وكان الخبز من أرز على ما روى عن عكرمة . وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام لمـا سأله قومه ذلك فدعا أنزل الله تعالى عليهم سـفرة حمراء بين غمامتين — غمامة فوقها وغمامة تحتها — وهـم ينظرون اليها فى الهواء منقضة من السماء تهوى اليهم ، وعيسى عليه السلام يبكى خوفا من الشرط الذى اتخذ عليهم فيها ، فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يديه والحواريون حـوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا رائحـة مثلها قط . وخر عيسى عليـه الصلاة والسلام والحواريون سجدا شكرا لله تعالى . وأقبل اليهود ينظرون اليهم فرأوا ما يغمهم . ثم انصرفوا فأقبل عيسى عليـه الصلاة والسلام ومن معه ينظرونها فاذا هى مغطاة بمنديل ، فقال عليـه الصلاة والسـلام من أجرؤنا على كشفه وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه حتى نراها ونحمد ربنا سبحانه وتعالى ونأكل من رزقه الذى رزقنا ؟ فقالوا يا روح الله وكلمته أنت أولى بذلك. فقام واستأنف وضوءا جديدا ثم دخل مصلاه فصلى ركعات ثم بكى طويلا ودعا الله تعالى أن يأذن له فى الكشف عنها ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقا .

ثم انصرف وجلس حول السفرة وتناول المنديل وقال « باسم الله خير الرازقين » وكشف عنها فاذا عليها سمكة ، ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس فى جوفها شوك يسيل السمن منها قد نضد حولها بقولها من كل صنف غير الكراث. وعند رأسها خل وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحـد منها زيتون وعلى الآخر تمرات وعلى الآخر خمس رمانات .

وفى رواية : على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد ، فسأله شمعون عنها وأجابه بما تقدمت روايته ثم قالوا له عليـه الصلاة والسلام انما نحب أن ترينا آية فى هذه الآية فقال عليـه الصلاة والسلام سبحان الله تعالى أما اكتفيتم ؟ ثم قال يا سمكة عودى باذن الله تعالى حية كما كنت فأحياها الله تعالى بقدرته فاضطربت ، وعادت حية طرية تلمظ كما يتلمظ الأسد تدور عيناها لهـا بصيص وعادت عليها بواسير . ففزع القوم منها وانحاشوا فقال عليه الصلاة والسلام ما لكم تسألون الآية فاذا أراكموها ربكم كرهتموها؟ما أخوفنى عليكم بما تصفون باسمكة عودى باذن الله تعالى كما كنت مشوية ثم دعاهم الى الأكل . فقالوا ياروح =

وأنا أكرر القول ان مسألة المائدة هي مسألة الأرغفة الخمسة والسمكتين ، والمراد بانزالها عليهم أن يرزقهم الله الطعام الكثير من حيث لا يحتسبون . ومن أراد المطرب المعجب — من

= الله أنت الذى تبدأ بذلك فقالوا معاذ الله تعالى . يبدأ من طلبها فلما رأوا امتناع نبيهم عليه الصلاة والسلام خافوا أن يكون نزولها سخطة وفى أكلها مثلة فتحاموها فدعا عليه الصلاة والسلام لهـــا الفقراء والزمنى وقال كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله تعالى الذى أنزلها لكم ليكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم ، وافتتحوا كلكم باسم الله واختتموا بحمد الله ففعلوا فأكل منها ألف وثلثمائة انسان بين رجل وامرأة وصدروا منها وكل واحد منهم شبعان يتجشى .

ونظر عيسى عليه السلام والحواريون ما عليها كهيئته اذ نزلت من السماء لم ينتقص منـه شيء ثم انها رفعت الى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقــير أكل منها وبرىء كل زمن منهم أكل منها فلم يزالوا أغنياء صحاحا حتى خرجوا من الدنيا . وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سالت منها أشفارهم وبقيت حسرتها فى قلوبهم . وكانت المائدة اذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو اسرائيل اليها من كل مكان يسعون . فزاحم بعضهم بعضا الأغنياء والفقراء والنساء والصغار والكبار والأصحاء والمرضى يركب بعضهم بعضا . فلما رأى عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك جعلها نوبا بينهم . فكانت تنزل يوما ولا تنزل يوما فلبثوا فى ذلك أربعين يوما تنزل عليهم غبا عند ارتفاع الضحى فلا تزال موضوعة يؤكل منها ؛ حتى اذا قالوا ارتفعت عنهم ، فأذن الله تعالى الى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل رزقى لليتامى والمساكين والزمنى دون الأغنياء من الناس . فلمـا فعل الله تعالى ذلك ارتاب بها الأغنياء وغمصوا ذلك حتى شكوا فيها فى أنفسهم وشككوا فيها النـاس ، وأذاعوا فى أمرها القبيح والمنكر ، وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه فى قلوب المرتابين . فلما علم عيسى عليه السلام ذلك منهم قال : هلكتم واله المسيح سألتم نبيكم أن يطلب المائدة لكم الى ربكم فلما فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقا وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها وشـككتم فيها . فأبشروا بالعذاب فانه نازل بكم الا أن يرحمكم الله تعالى ، وأوحى الله تعالى الى عيسى عليــه الصلاة والسلام أنى آخذ المكذبين بشرطى وأنا معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين . فلما أمسى المرتابون وأخذوا مضاجعهم فى أحسن صورة مع نسائهم آمنين . وكان آخر الليل مسخطهم الى خنازير وأصبحوا يتبعون الأقذار فى الكناسات .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ان عيسى عليــه الصلاة والسلام قال لبنى اسرائيل هل لكم أن تصوموا ثلاثين يوما ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم فان أجر العامل على من عمل له ففعلوا . ثم قالوا يا معلم الخير ، قلت لنا ان أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوما ففعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوما الا أطعمنا فهل يســتطيع ربك أن ينزل علينـا مائدة من السماء الى قوله تعالى (أحدا من العالمين) فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسـبعة أرغفة حتى وضـعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم .

وجاء عنه : أن المائدة كانت تنزل عليهم حيث نزلوا . وعن وهب بن منبه : أن المائدة كان يقعد عليها أربعة آلاف فاذا أكلوا شيئا أبدل الله تعالى مكانه فلبثوا بذلك ما شاء الله .

فاذا كان حضرات أصـحاب الفضيلة أعضـاء اللجنة لا يرون فيما نقلته عن الألوسى شيئا من العجب فان رأيهم هذا من العجب فى نظرى ، ونكون قد أصبحنا فى زمن كله عجب فى عجب ، ورحم الله أبا الطيب اذ يقول :

ولكن هي الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وبعد هذه السياحة الطويلة أقول لحضراتهم : هل يزيد ما قلتـــه على أنى أنكر نزول المائدة ؟ وهل يعيبنى عند ربى أن أنخلع من الصف الذى يقف فيه حضراتكم وانتظم فى صـــف مجاهد والحسن ! ان شرفا عظيما لى أن أوقف فى صف هذين الأمامين العظيمين الجليلين !

ومما تقدم قد استبان ما قلته فى كتابى ، وأنى لم أخالف به نصا قطعى الثبوت والدلالة وان التأويل الذى ذهبت اليه تشهد له استعمالات القرآن الكريم للنزول وأنه سائغ لا غبار عليه .

وآخر كلمة أقولها فى هذا الموضوع : أن المائدة لا يشهد بنزولها نص قطعى وأن الأقوال فيها ثلاثة (١) انها نزلت (٢) انها لم تنزل (٣) انهـــا مسألة الخمسة الأرغفة والسمكتين .

وللقارىء أن يختار ولا أنكر أن القول الأخير لى وعلى تبعته أمام الله أن كانت عليه تبعة .

روايات القائلين بنزولها وعن مدة نزولها وكيفية نزولها وما كان عليها من طعام وبقول وغير ذلك — فليرجع الى روح المعاني للألوسي ص ٤١٠ ج ٢ .

(٩) وفي الاصحاح ١٤ متى ف ٢٢ : وللوقت ألزم يسوع تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوه الى العبر حتى يصرف الجموع ، وبعد ما صرف الجموع صعد الى الجبل منفردا ليصلي ولما صار المساء كان هناك وحده وأما السفينة فكانت قد صارت في وسط البحر معذبة من الأمواج لأن الريح مضادة . وفي الهزيع الرابع من الليل مضى اليهم يسوع ماشيا على البحر ، فلما أبصره التلاميذ ماشيا على البحر اضطربوا قائلين انه خيال ومن الخوف صرخوا فللوقت كلمهم يسوع قائلا تشجعوا أنا هو لا تخافوا . فأجابه بطرس وقال يا سيد ان كنت أنت فمرني أن آتي اليك على الماء وذهب ليأتي الى يسوع ، ولكن لما رأى الريح شديدة خاف واذ ابتدأ يغرق صرخ قائلا يا رب نجني ففي الحال مد يسوع يده وأمسك به وقال له : يا قليل الايمان لماذا شككت ولما دخلا في السفينة سكنت الريح والذين في السفينة جاءوا وسجدوا له قائلين بالحقيقة أنت ابن الله . انتهى .

وقد ذكر هذه الحكاية كل من مرقس ويوحنا مع اختلاف مع متى في بعض تفاصيلها وأهملها لوقا. وقد أشار الى هذه الحكاية المعري في بعض قصائده اذ يقول لخيال المحبوبة :

سريت الينا والركاب سفائن ... كعادك فينا والركائب أجمال

أعمت الينا أم فعال ابن مريم ... فعلت وهل يعطى النبوة مكسال

فقوله — أم فعال ابن مريم ؛ أي مشيت على الماء كما مشى عيسى بن مريم .

(١٠) جاء في متى ص ١١ ف ٢٣ : حينئذ أحضر اليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه حتى ان الأعمى الأخرس تكلم وأبصر . وقد أهمل مرقس ويوحنا هذه الواقعة . وقد ذكرها لوقا بقوله ص ١١ ف ١٤ وكان يخرج شيطانا وكان ذلك أخرس ولم يذكر أنه أعمى وجعل الأخرس الشيطان لا المجنون .

جاء في ص ١٢ ف ٩ — متى : ثم انصرف من هناك وجاء الى مجمعهم (١٠) واذا انسان يده يابسة فسألوه قائلين هل يحل الابراء في السبوت لكي يشتكوا عليه (١١) فقال لهم : أي انسان منكم يكون له خروف واحد فان سقط في السبت في حفرة أفما يمسكه ويقيمه ؟ (١٢) فالانسان كم هو أفضل من الخروف . اذا يحل فعل الخير في السبوت (١٣) ثم قال للانسان مد يدك فمدها فعادت صحيحة كالأخرى .

(١١) في متى اصحاح ١٥ ف (٢١) ثم خرج يسوع من هناك وانصرف الى نواحي صور وصيداء (٢٢) واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة ارحمني يا سيد يا ابن داود بنتي مجنونة جدا (٢٣) فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه قائلين اصرفها فانها تصيح

وراءنا (٢٤) فأجاب وقال لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة (٢٥) فأتت وسجدت له قائلة يا سيد أعنى (٢٦) فأجاب وقال ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب (٢٧) فقالت نعم يا سيد والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها (٢٨) حينئذ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيم ايمانك ليكن لك كما تريدين فشفيت ابنتها من تلك الساعة .

(١٢) فى متى ص ١٧ ف (١٤) ولما جاءوا الى الجمع تقدم اليه رجل جاثيا له (١٥) يا سيد ارحم ابنى فانه يصرع ويتألم شديدا ويقع كثيرا فى النار وكثيرا فى الماء (١٦) وأحضرته الى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه (١٧) فأجاب يسوع وقال أيها الجيل الملتوى غير المؤمن الى متى أكون معكم . الى متى أحتملكم قدموه الى ههنا (١٨) فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشفى من تلك الساعة .

(١٣) فى متى ص ١٩ ف (١) ولما أكمل يسوع هذا الكلام انتقل من الجليل الى تخوم اليهودية من عبر الأردن (٢) وتبعه جموع كثيرة فشفاهم هناك .

(١٤) متى ص ٣٠ ف (٢٩) وفيما هم خارجون من أريحا تبعه جمع كثير (٣٠) واذا أعميان جالسان على الطريق فلما سمعا أن يسوع مجتاز صرخا قائلين ارحمنا يا سيد يا ابن داود (٣١) فانتهرهما الجمع ليسكتا . فكانا يصرخان أكثر قائلين ارحمنا يا سيد يا ابن داود (٣٢) فوقف يسوع وناداهما وقال ماذا تريدان أن أفعل بكما (٣٣) فقالا يا سيد أن تفتح أعيننا (٣٤) فتحنن يسوع ولمس أعينهما فللوقت أبصرت أعينهما وتبعاه .

وخالف بطرس فى كونهما أعميين وقال كان أعمى واحد .

(١٥) متى ص ٢١ ف (١٨) وفى الصبح اذ كان راجعا الى المدينة جاع (١٩) فنظر شجرة تين على الطريق وجاء اليها فلم يجد فيها شيئا الا ورقا فقط . فقال لها لا يكن منك ثمر الى الأبد . فيبست التينة فى الحال .

ذكر الأربعة هذه الحادثة مع الاختلاف فى التفصيل ، فليرجع اليه فى صفحة ١٦٠ فى كتاب « الفارق بين المخلوق والخالق » .

(١٦) يوحنا ص ١١ ف (١) وكان انسان مريضا وهو « لعازر » ببيت عنيا من قرية مريم ومرثا أختها (٢) وكانت مريم التى كان لعازر أخوها مريضا هى التى دهنت الرب بطيب ومسحت رجليه بشعرها (٣) فأرسلت الأختان اليه قائلتين ياسيد هو ذا الذى تحبه مريض (٤) فلما سمع يسوع هذا الكلام قال هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله به (٥) وكان يسوع يحب مرثا وأختها ولعازر (٦) فلما سمع أنه مريض مكث حينئذ فى الموضع الذى كان فيه يومين (٧) ثم بعد ذلك قال لتلاميذه لنذهب الى اليهودية أيضا (٨) قال له التلاميذ يا معلم كان اليهود يطلبون أن يرجموك وتذهب أيضا الى هناك (٩) أجاب يسوع أليست ساعات النهار اثنتى عشرة ان كان أحد يمشى فى النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم (١٠) ولكن ان كان

أحد يمشى فى الليل يعثر لأن النور ليس فيه (١١) قال هذا وبعد ذلك قال لهم : لعازر حبيبنا قد نام لكنى أذهب لأوقظه (١٢) فقال له تلاميذه يا سيد ان كان قد نام فهو يشفى (١٣) وكان يسوع يقول عن موته وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم (١٤) فقال لهم يسوع حينئذ علانية لعازر مات (١٥)وأنا أفرح لأجلكم أنى أكن هناك لتؤمنوا ولكن لنذهب اليه (١٦) فقال توما الذى يقال له التوأم للتلاميذ رفقائه لنذهب نحن أيضا لكى نموت معه . (١٧) فلما أتى يسوع وجد أنه قد صار له أربعة أيام فى القبر (١٨) وكانت بيت عنيا قريبة من أورشليم نحو ١٥ غلوة (١٩) وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا الى مرثا ومريم ليعزوهما عن أخيهما (٢٠) فلما سمعت مرثا أن يسوع آت لاقته وأما مريم فاستمرت جالسة فى البيت (٢١) فقالت مرثا ليسوع لو كنت ههنا لم يمت أخى (٢٢) ولكنى الآن أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك (٢٣) فقال لها يسوع سيقوم أخوك (٢٤) فقالت له مرثا أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة فى اليوم الأخير (٢٥) فقال لها يسوع أنا هو القيامة والحياة من آمن بى ولو مات فسيحيا (٢٦) وكل من كان حيا وآمن بى فلن يموت الى الأبد أتؤمنين بهذا ؟ (٢٧) قالت نعم يا سيد أنا قد آمنت انت المسيح ابن الله الآتى الى العالم . (٢٨) ولما قالت هذا مضت ودعت مريم أختها سرا قائلة المعلم قد حضر وهو يدعوك (٢٩) أما تلك فلما سمعت قامت سريعا وأتت اليه (٣٠) ولم يكن يسوع قد جاء الى القرية بل كان فى المكان الذى لاقته فيه مرثا (٣١) ثم ان اليهود الذين كانوا معها فى البيت يعزونها لما رأوا مريم قامت عاجلا وخرجت تبعوها قائلين انها تذهب الى القبر لتبكى هناك (٣٢) فمريم لما أتت الى حيث كان يسوع خرت عند رجليه قائلة له يا سيد لو كنت هنا لم يمت أخى (٣٣) فلما رآها يسوع تبكى واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب (٣٤) وقال اين وضعتموه ؟ قالوا ياسيد تعال وانظر (٣٥) بكى يسوع (٣٦) فقال اليهود انظروا كيف كان يحبه (٣٧) وقال بعض منهم ألم يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضا لا يموت (٣٨) فانزعج يسوع أيضا فى نفسه وجاء الى القبر وكان مغارة وقد وضع عليه حجر (٣٩) قال يسوع ارفعوا الحجر . قالت له مرثا أخت الميت يا سيد قد أنتن لأن له أربعة أيام (٤٠) قال لها يسوع ألم أقل لك ان آمنت ترين مجد الله (٤١) فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعا ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لى (٤٢) وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنى (٤٣) ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لعازر : هلم خارجا فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب .

هذه الخوارق زويت عن المسيح عليه السلام فى الأناجيل ولم يرو عنه فيها : أنه صور من الطين كهيئة الطير ثم نفخ فيه فكان طيرا . ولا غرابة فى ذلك فقد ذكر القرآن عن أهل الكتاب انهم نسوا حظا مما ذكروا به . ولقد كانت هذه الخوارق سببا لافتتان فريق من الناس به حتى وصفوه بأنه ابن الله على معنى النبوة الحقيقية وآخرون قالوا انه الله حتى عبد . وتكلف قومه لعبادته ضروبا من المسوغات يرفضها العقل ويمقتها العلم .

خاتمة أمر المسيح

أما خاتمة أمر المسيح بحسب قصص القرآن فهى عجيبة وبسيطة لا تعقيد فيهـا . ذلك أن المسيح قد أحرج الكهنة والفريسيين بتعليمه وتجريحه اياهم فى طريقتهم وفضح رياءهم وخبثهم فأخرجهم ذلك الى الكيد له والتدبير لقتله . فلما احتمر هـذا الأمر فى أنفسهم شكوا أمره الى الوالى طبعا ! وزينوا شكواهم بما يستدعي اهتمام الوالى بأن ادعوا عليه أنه يقول انه ملك اليهود وأنهم لا يقرون بملك سوى قيصر رومية . فأرسل الوالى جندا للقبض على المسيح عيسى بن مريم فلما أتوا ولم يبق الا القبض عليه . والمسيح قد اهتم لهذا الأمر وخشى أن ينالوه بالأذى — أنقذه الله من أيديهم وطهره منهم وألقى شبهه على شخص آخر علم فيما بعد أنه تلميذه الخائن وعرفته الأناجيل بأنه يهوذا الاسخريوطى — كما هو مشـهور — وصار بحيث أن كل من رآه لا يشك فى أنه يسوع . فأخذ وصلب وقتل ونجا المسيح من شرهم . وقد أعلم الله تعالى المسيح بما سيتم . وشاع فى الناس أن يسوع الناصرى قتل بعد أن صلب (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) .

وقد أورد الحافظ ابن كثير وابن جرير وغيرهما من المفسرين : أن المسيح لما قرب وقت القبض عليه . ندب أصحابه ثلاث مرات طالبا أن يتقدم واحد منهم ليفديه ويقدم نفسه الى اليهود عوضا عنه ويكون جزاؤه الجنة ، فلم ينتدب له فى كل مرة الا واحد بعينه . فلما جاء أعداؤه ألقى الله على صحبه الذى انتدب له شبه المسيح . وصار بحيث لا يشـك أحد من أصحابه فى أنه يسوع . فألقى القبض عليه وصلب وقتل . ويقول صـديقنا « موسى جار الله » انه « يهـوذا الأسخريوطى » .

هذا الأمر محتمل ! ولكن الشائع سواه وهو أن الذى ألقى عليه شـبهه انمـا هو « يهوذا الأسخريوطى » الذى واطأ الكهنة على الدلالة عليه بأجر .

أما ما جاء عن ذلك فى القرآن الكريم فاقرءوه فيما يأتى :

سورة آل عمران : إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [٥٥]

سورة النساء : وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً [١٥٧]
بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً [١٥٨]

وقد اختلف مفسرو القرآن فى معنى قوله تعالى (ياعيسى انىمتوفيك ورافعك الىومطهرك من الذين كفروا) على ثمانية أوجه وهى :

١ — المعنى رافعك الى ومتوفيك وأن الكلام فيه تقديم وتأخير .

٢ — المراد أنى مستوف أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بصـــدده من القتك به عليه السلام ، لأنه يلزم من استيفاء الله أجله موته حتف أنفه .

٣ — المراد قابضك ومستوف شخصك من الأرض ، من توفى المال بمعنى اســـتوفاه وقبضـــه .

٤ — المراد بالوفاة هنا النوم ؛ لأن النوم والوفاة يطلق كل منهما على الآخر . وقد روى عن الربيع ان الله تعالى رفع عيسى عليه السلام الى السماء وهو نائم رفقا به .

٥ — أجعلك كالمتوفى لأنه بالرفع أشبه .

٦ — المراد آخذك وافيا بروحك وبدنك فيكون (ورافعك الى) كالمفسر لما قبله .

٧ — المراد بالوفاة موت القوى الشهوانية العائقة عن اتصاله بالملكوت .

٨ — أن المراد مستقبل عملك . قال الألوسى — ولا يخلو أكثر هذه الأوجه من بعـــد ولا سيما الأخير وهناك وجه تاسع :

أخرج ابن جرير عن وهب أنه قال : توفى الله عيسى بن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه اليه . وفى رواية للحاكم عنه : أنه توفاه سبع ساعات ثم أحياه .

والذى أختاره أن عيسى عليه الصلاة والسلام قد أنجاه الله من اليهود فلم يقبضوا عليه ولم يقتل ولم يصلب . وأن الوجه الثانى وهو : أن المراد من الآية أنى مستوف أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك . وأن الآية كناية عن عصمته من الأعـــداء هو الوجـــه الوجيه الذى يجب أن يصار اليه ، لأنه المتبادر من المقام والذى يحقق احباط الله لتدبير أعدائه كما قال تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وما عجبت من شىء فان تعرض مثل وهب وغيره من مسلمة اليهود لشأن عيسى أعجب ! وقد كانوا ألد أعدائه الى أن أسلموا .

وهنا يأتى سؤال هو . اذا كان عيسى قد نجا سالما ووقع من ألقى عليه شبه المسيح فى هـــذه الورطة فأين ذهب ؟ .

والجواب : ان جمهور المسلمين على أن الله تعالى قد رفعه بروحه وجسده حيا الى السماء ودليلهم على ذلك قوله تعالى (ورافعك الى) .

بقى أن يقال ان الأخبار المأثورة وردت ناطقة بأن المسيح رفع الى السماء بجسده وروحه وأنه حيٌ فيها ، وأنه ينزل فى آخر الزمان ويقتل المسيح الدجال .

والجواب على ذلك : أن هذه الأخبار وردت وبعضها مرفوع الى رسول الله وبعضها آراء للمفسرين وبعضها عن مسلمة اليهود ككعب ووهب . ومهما كان من شأنها وصراحة عبارتها فهى أحاديث أو آراء آحاد ، ولا تبلغ أن تكون لها قوة صريح القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولا يمكن أن تكون فى النفس اعتقادا يقينيا جازما تطوع به النفس لصاحبها أن يشهد على الله أنه نقل المسيح حيا الى السموات ، ويشهد على الله مطمئنا بتلك الشهادة أنه سوف ينزل عيسى من السماء الى الأرض ، وأنه سوف يتولى قتل رجل ينبز بالمسيح الدجال سيخلقه الله تعالى ولا يدرى متى يكون زمانه ، اذ كل تلك الأخبار لا يمكن أن تنهض بانشاء عقيدة اذا خالفها انسان وحاد عن الاعتقاد بها برىء من الاسلام وبرىء الاسلام منه !

ولولا ما فى تلك الأخبار من الطول لنقلتها ولكنى أتركها لأنها معلومة مشهورة فلتراجع فى كتب الحديث وفى كتب التفسير والطبرى وابن كثير .

وقد جاء فى تفسير المنار عن الأستاذ الامام — بعد أن قرر الآية على ظاهرها وأن التوفى على معناه الظاهر المتبادر وهو الاماتة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح — ولصاحب هذه الطريقة فى حديث الرفع والنزول فى آخر الزمان تخريجان .

أحدهما : أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادى لأنه من أمور الغيب . والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها الا بالقطعى لأن المطلوب فيها اليقين، وليس فى الباب حديث متواتر .

وثانيهما : تأويل نزوله وحكمه فى الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس ، وما غلب فى تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها ، وهو حكمتها وما شرعت لأجله . فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة ! ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهها ، والمراد منها . ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم الى عالم الأرواح بتحرى كمال الآداب .

تراجع ص ٢١٧ ج ٣ من « تفسير المنار » .

ونقل فى تفسير المنار أيضا : أن الأستاذ الامام سئل عن المسيح الدجال وقتل عيسى له فقال: ان الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ

بأسرارها وحكمها ، وأن القرآن أعظم هاد الى هذه الحكم والأسرار وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم مبينة لذلك ، فلا حاجة للبشر الى اصلاح وراء الرجوع الى ذلك .

أقول : انى كنت ممن يطمئنون الى هذا التأويل ولكنى الآن أميل كل الميل الى أن المسيح الدجال انما هو رجل يقوم من اليهود ويدعى أنه « المسيح » أى الملك الذى وعدوا به ، وهم ينتظرونه الى اليوم . ذلك انى نظرت الى اليهود فوجدتهم ينتظرون مسيحا يعيد اليهم الملك والسلطان فى الأرض ويعتزون به . فلما جاءهم المسيح عيسى بن مريم يشيد بينهم مملكة الأخلاق والتقوى والسجايا الكريمة لم يكن هو المسيح الذى صوّروه لأنفسهم فمكروا به وأرادوا قتله . ولو كان جاءهم بملك الثروة لآمنوا به اذ هم قوم يؤلهون الثروة والمال .

انظروا اليهم وقد قال لهم صمويل (ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) ماذا أجابوه به ! ألم يجيبوا بقولهم (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) ؟ ولا غرو ان كان المسيح عيسى مرفوضا منهم وظلوا على حالهم ينتظرون مسيحا ماليا الى اليوم .

وهاهم من عشرات السنين جادون فى ايجاد وطن قومى لهم فى فلسطين وظاهرتهم الحكومة الانكليزية وجاملتهم لأنهم نفعوها بالأموال أيام الحرب العظمى ، فهم ساعون فى استعمار بلاد فلسطين عاملون على توطيد أقدامهم فيها . وليس بعيدا ذلك اليوم الذى يقوم فيه رجل منهم يدعى أنه مسيحهم « أى ملكهم » الذى وعدوابه على لسان بعض أنبيائهم ويقيمونه ملكا فى بلاد فلسطين وحينئذ تقع الفتن .

ذلك أن اليهود لهم ماض أسود فى القتال بينهم وبين مخالفيهم فهم لا يتحرجون من الاستئصال والتمثيل بأعدائهم تمثيلا تقشعر منه الأبدان — وهذا رأيى وما أميل اليه فى مسألة المسيح الدجال — وقد حذر المسيح أصحابه منه فقال : سيقوم بعدى أنبياء كذبة ومسحاء كذبة.

دقيقة ينبغى التنبه لها

مما يسهل القاء شبه المسيح عليه السلام على غيره . هذه الحادثة التى ذكرها متى فى الاصحاح ١٧ من انجيله ونصها :—

(١) وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم الى جبل عال منفردين (٢) وتغيرت هيأته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور (٣) واذا موسى وايلياء قد ظهرا لهم يتكلمان معه (٤) فجعل بطرس يقول ليسوع يارب جيد أن نكون هنا . فان شئت أن نصنع هنا ثلاث مظال لك واحدة ولموسى واحدة ولايلياء واحدة (٥) فيما هو يتكلم اذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائلا هذا هو ابنى الحبيب الذى به

سررت له اسمعوا (٦) ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جدا (٧) فجاء يسوع ولمسهم وقال قوموا لا تخافوا (٨) فرفعوا أعينهم ولم يروا أحدا الا يسوع وحده .

وقد ذكر هذه الحادثة أو المعجزة كل من مرقس ولوقا وأغفلها يوحنا . ومن العجب أنه كان أحد شهودها . ومع ما بينهم من التناقض فى عدد الأيام فقد اتفقوا على حصولها فى الجملة — راجع مرقس ص : ٩ وما بعدها ولوقا ص ٩ : ٣ وما بعدها .

وما كان من الأمر ، فقد عهد تغير هيئة المسيح تغيرا كليا فى وجهه وثيابه وهذا التغير الذى يقرون به يفسر لنا بأجلى بيان القاء شبهه على غيره وتغير هيئته حتى أن الذين أتوا للقبض عليه أخذوا من ألقى عليه شبه المسيح فوقع فى الورطة ونجا عيسى صلوات الله عليه .

الشبه والاشتباه

ولا يفوتنى فى هذا المقام ان أذكر لكم أن بعض الناس قد يشبه بعضا آخر . فانى رأيت بالخرطوم أخوين روميين كانا توأمين يشبه أحدهما الآخر كما يشبه الغراب الغراب . وكان المعاملون لهما يخاطب الواحد منهم أحدهما يحسبه الآخر .

وكان صديقنا المرحوم الشيخ محمد أحمد بن خريج دار العلوم يشبهه شخص آخر مشابهة تامة هو أخ لنصر أفندى نعمة الضابط بمدرسة الناصرية ، وكان الناس يغلطون يحسبون أحدهما الآخر .

وقد قال « سيل » الانجليزى مترجم القرآن . ان المسيح ويهوذا الاسخريوطى كان كل منهما يشبه الآخر . أى ان يهوذا يشبه المسيح .

كان لى صديق من أقاربى — رحمه الله — وكان له ابن ببعثة فى انجلترا وعاد سنة ١٩٢٥ وعين مدرسا للكيمياء والطبيعة بمدرسة الزقازيق الثانوية ، فذهب الى المدرسة وقدم نفسه الى ناظرها وتعرف الى بعض المدرسين وتعرفوا اليه ، وعاد الى القاهرة من يومه .

وقد صادف أن وجد شخصا يشبهه على أهبة السفر بمحطة الزقازيق قد سقط ميتا . وفى ذلك الحين مر أحد مدرسى المدرسة الثانوية فقال انه المدرس الجديد الذى جاءنا اليوم ! وعرف أن بلده القرشية ، فأبلغ البوليس الخبر الى أهله فخف أخوه وأبناء عمومته وأصدقاؤهم الى الزقازيق وأقيم المأتم بالقرشية ، ودخل عليه بمستشفى الزقازيق أخوه وأبناء عمه والأصدقاء ولم يشكوا فى أنه هو بعينه . وأراد أخوه انباء أبيه فلم ير أن يفاجئه بهذا الخبر المزعج فأرسل لوالده بمصر تلغرافا يسأله عنه ، فجاء اليه الرد سريعا بأنه موجود عنده بمصر ، فاطمأنوا وفرحوا وانقلب مأتم الحزن سرورا وبطل الاستعداد لاستقبال المعزين . واذا أراد

القارىء معرفة اسم ذلك الميت الحي أقول له انه « عبد العزيز غباشي أفندي » مدرس الكيمياء والطبيعة بالمدارس الملكية الآن . هذا أولا .

(وثانيا) يوجد رأى فى مسألة المسيح جاء به « غلام أحمد القاديانى » وهو رجل من بلد قاديان فى الهند ، قال : ان المسيح أنجاه الله من كيد اليهود فذهب الى بلاد الهند واستقر فى بلاد قشمير فى شمال الهند بسفح جبال هملايا . وأقام هناك الى أن وافاه أجله ودفن فى تلك البلاد قرب بلدة سرنجار وله قبر معروف .

هذا الرجل ادعى أنه المسيح الموعود بمجيئه ! ولكن كيف يكون هو المسيح وهو معروف بأنه « غلام أحمد القاديانى » معروف النسب معروف الأسرة ؟ فذهب الى تأويل الأمر على أن المسيح مات ولا يمكن أن يأتى . ولما كانت الأحاديث دالة على أنه سيأتى فى آخر الزمان ، قال : أنا المسيح بمعنى أننى آت بهديه وتعاليمه من بث السلام والرحمة والتعاطف والمحبة . ثم زاد فى الطنبور نغمة وقال انى رسول ودعواى لا تعارض قوله تعالى (محمد رسول الله وخاتم النبيين) فان معنى (خاتم النبيين) أن كمال النبوة انتهى به . وهذا لا ينافى بقاء النبوة ولا نجاة لأحد الا بالاقرار برسالتى وبأنى أنا المسيح . وله كلام طويل فى كتبه ومجلته التى كان يصدرها فى حياته . وجماعته ناشطون فى التبشير بمسيحيته الآن فى كل مكان .

والدولة الانكليزية تؤيدهم لأنهم يقولون ان مسيحهم أبطل الجهاد فى الجملة بوحى جاءه ، وقد كان مغرما بالانكليز يمدح حكمهم ويراه نعمة على بلاد الهند وغيرها .

وفى رأيى أن دعواه مجىء المسيح الى الهند أمر يحتاج الى بحث واف(١) وتحقيق دقيق ، ولا يمكن تصديقه الا بظهور الأمر ظهورا بينا وثبوته ثبوتا قاطعا لكل شبهة ، ولو ثبت ذلك ما أفاده شيئا ، لأننا اذا تمشينا مع الأحاديث — وهى لا تفيد القطع بمجىء المسيح — وجدنا فيها علامات ، منها : أنه يقتل الدجال ويعاون المهدى المنتظر الذى يذكر فيها ويكسر الصليب .. الخ . وهذا لم يحصل من ذلك الرجل . وقد يكون الرجل حسن النية فى دعواه بريئا من الخبث ولكنه تخيل ثم خال وكبر معه الوهم الذى كثيرا ما يلازم أرباب الخلوة والرياضات ويقطعهم عن الوصول الى مرادهم الأعظم ، فيستولى عليهم الاشتغال بالخيالات والأوهام عن مقصودهم وهم معذورون لأنهم لم يقولوا ما قالوا عن خبث وسوء طوية . نسأل الله أن لا يجعلنا فتنة للذين آمنوا انه سميع الدعاء .

---

(١) كنت مسافرا فى رحلة الى اسطنبول فى سنة ١٩٣٤ وكان فى السفينة الأستاذ الوقور الشيخ « أبو الوفاء الشرقاوى » فسألته ؟ هل سمع حين كان فى سرنجار بقشمير عن قبر بقربها يقال له قبر النبى الأمير ؟ أى قبر المسيح فقال : نعم سمعت بذلك وانه فى الصحراء .

(ثالثا) يوجد فريق آخر من المسلمين — عددهم قليل جدا — قد كونوا لهم اعتقادا خاصا انتزعوه من نتف اقتطفوها من الأناجيل تدل على نجاة المسيح من القتل . وأن فى نجاته سرا خاصا. وذلك أن « بيلاطس » الوالى لم ير فيه شرا ولا أمرا موجبا للقتـــل — كما فى متى ص ٢٧ — ٢٤ — فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئا بل بالحرى يحدث شغبا أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا انى برىء من دم هذا البار أبصروا أنتم .

لوقا — ص ٢٣ (١٣) فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب.(١٤) وقال لهم قدمتم الى هذا الانسان كمن يفسد الشعب . وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد فى هــذا الانسان علة مما تشكون عليه (١٥) ولا هيرودس أيضا لأنى أرسلتكم اليه . وها لا شىء يستحق الموت صنع منه .

لوقا — ص ٢٣ (٢٢) فقال «بيلاطس» لهم ثالثة بأى شر عمل هذا انى لم أجد فيه علة الموت .

يوحنا — ص ١٨ (٣٨) قال له « ليسوع » بيلاطس ما هو الحق . ولما قال هذا خرج أيضا الى اليهود وقال لهم أنا لست أجد فيه علة واحدة . من هذا كله :

١ — نجد أن « بيلاطس » كان يعتقد براءة المسيح من كل ما يرميه به اليهود من الافساد .

٢ — أن زوجة بيلاطس كانت عاطفة على يسوع مهتمة بأمره حريصة على أنه لا يمس بسوء وقد أوصت زوجها بذلك .

فى ص ٢٧ متى (١٩) واذ كان جالسا على كرسى الولاية أرسلت اليه امرأته قائلة : اياك وذلك البار لأننى تألمت كثيرا فى حلم من أجله .

واذا فقد علمنا أن المسيح عليه السلام له شفيع عريان شفاعته غير مردودة عند بيلاطس .

٣ — أن يسوع لم يمكث على خشـــبة الصلب زمنا طويلا ، بل جاء « يوسف » وهو رجل غنى من الرامة وكان من تلاميذ المسيح سرا ولم يكن راضيا عن فعل اليهود ، وكذلك جاء « نيقوديموس » وطلب يوسف من بيلاطس أن يسلمه جسد يسوع فتعجب بيلاطس من موته سريعا وسأل رئيس الشرط ولما علم منه بوفاته أمر بتسليمه ليوسف فأخذه وكفنه ولفه فى كتان ووضعه فى قبر له كان هناك .

٤ — ينظر أصحاب هذا الرأى الى أمر آخر . هو أن المسيح لم تكسر ساقاه وهو على خشبة الصلب ولا بعدها ، كما كسرت ساقا كل من اللصين الذين صلبا معه ، ولا سبب لذلك سوى العناية الخاصة التى كانت تحوطه من ناحية الوالى بيلاطس وزوجه ويوسف ونيقوديموس، فاجتماع هذه الاعتبارات جعلهم يقولون ان المسيح تظاهر بالموت أى أنه أظهر للناس أنه مات

ولم يكن قد مات ، والذى تولى انزاله رجل من تلاميذه فى الحقيقة ، وكان ذلك التظاهر بايحاء منه ، وساعده الوالى على ذلك بأن سلم له فى انزاله عن الخشبة — واليهود فى غفلة عما بينه وبين المسيح من العلاقة — ولفه ووضعه فى القبر الذى يملكه يوسف وأجاف على الباب حجرا .

ولما هدأ الناس ودخلوا فى السبت جاء يوسف وأعوانه وأزالوا الحجر وأخـذوا يسوع وواروه فى بيته أو بيت نيقوديموس الى أن برىء من أثر المسامير ثم ذهب الى بلاد غير البلاد الى أن تولاه الله بالوفاة .

وهؤلاء يؤولون قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) بمعنى أن صلبه لم يؤد الى قتله ، ولكن شبه لهم أنه قتل على خشبة الصلب ، ولم يكونوا على يقين من أنه مات حقيقة ، وذلك معنى (وما قتلوه يقينا) .

ولا يخفى ما فى هذا التأويل من الضعف والتهافت وهذا الوجه ليس من الوجاهة فى شىء فى نظرى . ولعل بعض الباحثين الغربيين قاله فنقلوه عنه . وهناك فريق آخـر من المسلمين يقولون ان الآيات القرآنية ناطقة بنجاة المسيح عليه السلام من أيدى أعدائه وأن الله تعالى وعده العصمة من كيدهم وتدميرهم ، وأنه يموت بالوفاة حتف أنفه ، وبأن شبهه ألقى على غـيره ؛ فأخذوا ذلك الشبيه وفعلوا به ما بدا لهم — يحسبون أنه المسيح وهم فى الحقيقة يجاهدون فى غير عدو — ويحملون قوله تعالى (وما قتلوه يقينا) على أن عدم قتله أمر يقينى أو وما قتلوا ظنهم يقينا . فهذا كل ما تدل عليه الآيات .

وأما صعوده الى السماء فلا يوجد فيه نص قاطع الثبوت والدلالة . ولا حجة للجمهور فى القول بأنه رفع الى السماء ، لأنه لا يوجد ذكر للسماء بازاء قوله (ورافعك الى) وكل ما تدل عليه هذه العبارة أن الله مبعده عنهم الى مكان لا سلطة لهم فيه وانما السلطان ظاهرا وباطنا فيه لله تعالى فقوله (الى) لا يدل على السماء نصا . بل هو كقول الله فى لوط (وقال انى مهاجر الى ربى) اذ ليس معناه أنى مهاجر الى السماء . بل هو على حد قوله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) .

وأيضا فان من معانى الارتفاع الاصعاد فى البلاد .

قال الفيروزابادى : رفعه كمنعه ضد وضعه ، كرفعه وارتفعه فارتفع . والبعير فى سيره بالغ ورفعته أنا لازم متعد ، والقوم أصعدوا فى البلاد . ويرد عليهم القائلون بوجوده فى السماء ، بأن حديث المعراج فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عيسى بن مريم فى السـماء . وهؤلاء يردون عليهم بأنه عليه السلام أخبر أيضا فيه بأنه رأى يحيى بن زكريا معه — ويحيى مات مقتولا ولا فرق بين الرؤيتين — ورأى آدم وموسى وهارون وابراهيم وغيرهم من الأنبيـاء !

فلو كانت رؤيته لعيسى دليلا على رفعه حيا الى السماء لكانت دليلا أيضا على رفع هؤلاء أحياء. ولما كان الثانى باطلا كان الأول مثله .

يقال لهم : اذا فأين ذهب عيسى وما الذى آل اليه أمره ؟ والجواب على ذلك : أن الله تعالى أبهم أمره علينا ولم يقصه ، فنحن نفوض العلم بذلك الى الله تعالى ، فليكن أنه أماته فى الأرض أو أنامه كما أنام أهل الكهف أو أصعده الى السماء — لا نقطع بشىء من هذه الأشياء بعينه — بل نبهمه كما أبهمه الله . ومن أراد أن يقطع بشىء فعليه دليل ما قطع به . وتفويض العلم الى الله أسلم فى العاقبة وأكثر احتياطا للدين . فليس بهين أن يشهد المرء على الله بأمر لم يشهد الله به على نفسه وليس عنده به سلطان مبين .

اليهود وصلب المسيح

لم يوجد عند اليهود أثارة من علم تدل على أن رجلا جاء باسم «المسيح» فى زمن كذا وصلب وقتل . ولا يوجد فى تاريخهم الدينى شىء من ذلك أصلا ، وهذا هو الذى حدا ملاحدة أوربا على انكار وجود المسيح واعتباره انسانا فرضيا ، كالأشخاص الذين يفرض وجودهم فى الروايات ولا وجود لهم فى الحقيقة كالحرث بن همام وأبى زيد السروجى عند الحريرى وأبى الفتح الاسكندرى عند بديع الزمان الهمذانى .

هذا « يوسف » القائد اليهودى — الذى يدعى « يوسيفوس » عند الأوربيين — كان هذا الرجل قائدا لفرقة من الجند اليهودى فى جهة رفح فى سنة ٧١ بعد الميلاد ، ولما علم بانكسار اليهود أمام « طيطوس » ويئس من النجاح سلم ما بيده وجاء الى الاسكندرية وألف تاريخه المشهور عن اليهود وأحوالهم وما صار اليه أمرهم .

ومع قرب زمن هذا الرجل من زمن المسيح — ونهاية أمر المسيح لا بد أن تكون قد تمت وهو حى يرزق صغيرا أو كبيرا — ومع هذا فلم يشر اليه بكلمة ولم يجر له ذكر فى كتابه أصلا . ولكن المتأخرين من النصارى ألحقوا به كلمة ضئيلة عن مسألة المسيح ترى فى بعض نسخ ذلك الكتاب كأنها الرقعة الجديدة فى الثوب الخلق .

فاذا تكلم اليهود عن المسيح وقتله فليس ذلك لأنه مثبت فى تواريخهم المأثورة عن الآباء والمشايخ ! ولكن لأنهم يسمعون ما يقوله المسيحيون من أن المسيح جاء وقتله اليهود . والا فكتبهم خالية من ذلك .

ولقد أخبرنى الدكتور « اسرائيل ولفنسون » أن مسألة قتل المسيح كانت موجودة فى « التلمود » ولكن اليهود أخرجوها منه حتى لا يعثر عليها أحد من الأمم التى يقيم بينها اليهود ،

فيكون ذلك مصدر قلاقل . وأخبرنى أيضا أن المسيح كان من حزب مضاد للسيطرة الرومانية على فلسطين ، فأغرى الحكام الرومانيون اليهود ليشتكوا عليه ففعلوا وأمر الحاكم الرومانى بقتله . هكذا يقول اليهود !

خاتمة شأن المسيح عند النصارى

أما النصارى فانهم جعلوا خاتمة أمر المسيح عليه الصلاة والسلام خاتمة شنيعة ومأساة مروعة . وجعلوا الاعتقاد بحصولها — على الوجه الذى صوروه — أصلا من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم ! لا يقبل من مؤمن ايمانه الا بها ولا ينفعه عمل صالح ولا عبادة ولا بر ولا تقوى ولا اخلاص دون الاعتقاد بصلب المسيح .

وقد تلمسوا لتلك العقيدة أصلا فى العهد القديم جعلوا حمله جملا وجبته قبة ، وأسسوا عليه صلب المسيح . فقالوا : ان « آدم » وهو أول كل البشر قد عصى الله تعالى بالأكل من الشجرة التى نهاه عن الأكل منها . فصار خاطئا وصار جميع ذريته خطاة مستحقين للعقاب فى الآخرة بالهلاك الأبدى . وقد جاء جميع أبناء آدم خطاة مذنبين ! فهم يحملون وزر ذنوبهم ووزر ذنب أبيهم الذى هو الأصل لذنوبهم .

ولما كان الله تعالى من صفته العدل والرحمة ، فمن عدله أنه لا يترك الجريمة دون عقاب والا لم يكن عادلا ، والعقاب مناف للرحمة فلا يكون رحيما اذا عاقب — ولا بد من تحقق العدل والرحمة معا للخروج من هذا الاشكال — شاء الله أن يحل ابنه (تعالى) الذى هو بنفسه الله فى رحم امرأة من ذرية آدم ، ويتجسد جنينا فى رحمها ويولد منها — فيكون ولدها انسانا كاملا من حيث انه ابن لتلك المرأة ، والها كاملا من حيث انه ابن الله — ويكون معصوما من جميع المعاصى . ثم بعد أن يعيش كما يعيش الناس ويأكل ويشرب مما يشربون ويتلذذ ويتألم كما يتلذذون ويتألمون ؛ يأتى أعداء الله وأعداء شريعته ويقتلونه شر قتلة وأفظعها . وهى أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه فى الخشب ، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه ويضفروا له اكليلا من الشوك ويبصقوا فى وجهه ! كل ذلك ليفدى البشر من جريمة لم يقترفها هو ولا هم « راجع تفسير المنار صفحة ٢٥ ج ٦ » .

أقول : ان هذه العملية لم يتحقق بها عدل ولا رحمة . لأنه ليس من العدل فى شىء أن يؤتى ببرىء غير مذنب ويطوق اثم جريمة جناها سواه ، كما أن عقاب غير الآثم ليس فيه رحمة . وبخاصة اذا كان المعاقب من شأن الجبلة أن تشمله بالرحمة ولو مع الذنب ، فالابن البار غير الآثم أولى .

والعقاب على هذا الوجه يخالف الكتاب المقدس عندهم . تثنية ص ٢٤ (١٩) لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل انسان بخطيته يقتل .

ولأن الذى يعلق على خشبة ملعون من الله وكيف يلعن الله من لم يخطىء .

تثنية ص ٢١ (٢٢) واذا كان على انسان خطيئة حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة (٢٣) فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنه فى ذلك اليوم لأن المعلق ملعون من الله . فلا تنجس أرضك التى يعطيك الرب الهك نصيبا .

وعلى قول المسيحيين ، قد بقى الله تعالى مجردا عن صفتى العدل والرحمة من زمن عصيان آدم الى أن اهتدى الى تلك الحيلة التى ظهرت له قبيل خلق المسيح فى مريم !

وهناك محظور آخر وهو أن عقيدة الصلب لما كانت هى كل الايمان كانت حادية لمعتنقها على نبذ كل الفضائل ، بل مخذلة عن فعل كل بر وتقوى ، فيكون صاحبها أبا حيا فاتكا ليس للفضيلة فى نفسه نصيب .

عقيدة الصلب والفداء : وثنية

بين يدى الآن كتاب « العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية » تأليف « محمد طاهر التنير البيروتى أفندى » وقد جمع فيه الشىء الكثير مما يشترك فيه النصارى مع الوثنيين المختلفى النحل والأمكنة من العقائد .

ولو أردت أن أتتبع ما فيه لطال بنا القول وامتد . ولكنى أقتصر على ما نقله السيد رشيد رضا «فى تفسير المنار ج ٦ ص ٣٢»ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق .

قال « دوان » فى كتابه « خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى : ص ١٨١و١٨٢» ما ترجمته بالتلخيص .

ان تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة نفسه ذبيحة فداء عن الخطيئة ، قديم العهد جدا عند الهنود الوثنيين وغيرهم . وذكر الشواهد على ذلك .

منها قوله : يعتقد الهنود أن « كرشنا » المولود البكر الذى هو نفس الاله « فشنوا » الذى لا ابتداء له ولا انتهاء — على رأيهم — تحرك حنوا كى يخلص الأرض من ثقل حملها ، فأتاها وخلص الانسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه .

وذكر أن « مستر موى » قد صور « كرشنا » مصلوبا ، كما هو مصور فى كتاب الهنود مثقوب اليدين والرجلين وعلى قميصه صورة قلب الانسان معلقا . ووجدت له صورة مصلوبا

وعلى رأسه اكليل من الذهب . والنصارى تقول : ان يسوع صلب وعلى رأسه اكليل من الشوك

وقال « هوك » فى ص ٣٢٦ م من المجلد الأول من رحلته « ويعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الآلهة وتقديم نفسه ذبيحة فداء للناس من الخطيئة » .

وقال « هورينوليمس » فى ص ٣٦ من كتابه « الهنود » : ويعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الأصلية . ومما يدل على ذلك ما جاء فى مناجاتهم وتوسلاتهم التى يتوسلون بها بعد « الكياترى » وهو « انى مذنب ومرتكب الخطيئة وطبيعتى شريرة وحملتنى أمى بالاثم فخلصنى ياذا العين الحندقوقية يا مخلص الخاطئين من الآثام والذنوب » .

وقال القس « جورج كوكس » فى كتابه « الديانات القديمة » فى سياق الكلام عن الهنود « ويصفون كرشنا بالبطل الوديع المملوء لاهوتا لأنه قدم شخصه ذبيحة » .

ونقل « هيجين » عن « اندرادا الكروريوس » وهو أول أوربى دخل بلاد النيبال والتبت أنه قال فى الاله « اندرا » الذى يعبدونه — أنه سفك دمه بالصلب وثقب المسامير لكى يخلص البشر من ذنوبهم . وأن صورة الصلب موجودة فى كتبهم .

وفى كتاب « جورجيوس الراهب » صورة الاله « اندرا » هذا مصلوبا وهو بشكل صليب أضلاعه متساوية العرض متفاوتة فى الطول فالرأسى أقصرها « وفيه صورة وجهه » والسفلى أطولها ، ولولا صورة الوجه لما خطر لمن يرى الصورة أنها تمثل شخصا .

هذا ؛ وأما ما يروى عن البوذيين فى « بوذه » فهو أكثر انطباقا على ما يرويه النصارى عن المسيح من جميع الوجوه ، حتى أنهم يسمونه « المسيح ، والمولود الوحيد ، ومخلص العالم » ويقولون أنه انسان كامل ، واله كامل تجسد بالناسوت ، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر ويخلصهم من ذنوبهم فلا يعاقب عليها ، ويجعلهم وارثين لملكوت السموات .

بين ذلك كثير من علماء الغرب منهم « بيلى » فى كتابه — تاريخ بوذه — و « هوك » فى رحلته و « مولر » فى كتابه — تاريخ الآداب السنسكريتية وغيرهم .

ومن أراد المقابلة بين اله النصارى وآلهة الوثنيين الأولين — فى الشرق والغرب — فعليه أن يقرأ كتاب « العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية » لمحمد طاهر أفندى التنير البيروتى ، ففيه بلاغ ومقنع .

الأناجيل وصلب المسيح

لم تختلف الأناجيل الأربعة فى مسألة من المسائل كاختلافها فى تفصيل مسألة صلب المسيح وقتله ! فلا تكاد جزئية من الجزئيات فى أحدها تتحد مع الجزئية نفسها فى انجيل آخر . ولما كانت هذه الأناجيل من تأليف قوم يدعى المسيحيون لهم الالهام ويعتقدون خلوها من الخطأ ! كان ينبغى أن تكون كتابتهم فى هذه الحادثة المهمة — التى هى مناط النجاة ودعامة الايمان

فى نظرهم — متطابقة متوافقة ، بحيث لا يكون فيها اختلاف أصلا . اذ النفس لا تطمئن الى الأخذ بروايات اذا اتفقت فى موضع واحد من قصة — جاءت فى جميعها — فانها تتخالف فى مواضع كثيرة . واذا لم يكن الراوى أمينا كل الأمانة كانت الثقة بروايته ضعيفة والتصديق بها غير سائغ .

وانى أريد أن أحاكم روايات هذه الأناجيل ليتبين المطلع بنفسه ما فيها من الخلل بمجرد المقارنة :

متى ص ٢٦ : (٣٦) حينئذ جاء معهم يسوع الى ضيعة يقال لها «جثسيمانى» فقال للتلاميذ اجلسوا ها هنا حتى أمضى وأصلى هناك (٣٨) ثم أخذ معه بطرس وابنى زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب فقال لهم نفسى حزينة جدا حتى الموت امكثوا ها هنا واسهروا معى (٣٩) ثم تقدم قليلا وخر على وجهه وكان يصلى قائلا يا أبتاه أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس . ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت (٤٠) ثم جاء الى التلاميذ فوجدهم نياما . فقال لبطرس أهكذا ما قدرتم أن تسهروا ساعة واحدة (٤١) اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة . أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف (٤٢) فمضى أيضا ثانية وصلى قائلا يا أبتاه ان لم يمكن أن تعبر عنى هذه الكأس الا أن أشربها فلتكن مشيئتك (٤٣) ثم جاء فوجدهم أيضا نياما اذ كانت أعينهم ثقيلة (٤٤) فتركهم ومضى أيضا وصلى ثالثة قائلا ذلك الكلام بعينه (٤٥) ثم جاء الى تلاميذه وقال لهم ناموا الآن واستريحوا هو ذا الساعة قد اقتربت وابن الانسان يسلم الى أيدى الخطاة (٤٦) قوموا ننطلق وهو ذا الذى يسلمنى قد اقترب (٤٧) وفيما هو يتكلم اذ يهوذا أحد الاثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب (٤٨) والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلا : الذى أقبله هو هو أمسكوه (٤٩) فللوقت تقدم الى يسوع وقال : السلام يا سيدى وقبله (٥٠) فقال له يسوع يا صاحب لماذا جئت ؟ حينئذ تقدموا وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه (٥١) واذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه (٥٢) فقال له يسوع رد سيفك الى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون (٥٣) أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب الى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة (٥٤) فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغى أن يكون (٥٥) فى تلك الساعة قال يسوع للجموع كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى لتأخذونى . كل يوم كنت أجلس معكم أعلم فى الهيكل ولم تمسكونى (٥٦) وأما هذا فقد كان لكى تكمل كتب الأنبياء حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا .

ص ٢٧ (١١) فوقف يسوع أمام الوالى فسأله الوالى قائلا أأنت ملك اليهود ؟ فقال له يسوع

أنت تقول (١٢) وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء (١٣) فقال له بيلاطس أما تسمع كم يشهدون عليك (١٤) فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالى جدا.

وكان الوالى معتادا فى العيد أن يطلق للجميع أسيرا واحدا من أرادوه (١٦) وكان لهم حينئذ أسير مشهور يسمى باراباس (٧) ففيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس من تريدون أن أطلق لكم وذلك البار. لأنى تألمت اليوم كثيرا فى حلم من علم أنهم أسلموه حسدا (١٩) واذ كان جالسا أجله (٢٠) ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرضوا الجموع على أن يطلبوا باراباس ويهلكوا يسوع (٢١) فأجاب الوالى وقال من من الاثنين تريدون أن أطلق لكم فقالوا باراباس (٢٢) قال لهم بيلاطس فماذا أفعل بيسوع الذى يدعى المسيح قال له الجميع ليصلب (٢٣) فقال الوالى وأى شر عمل فكانوا يزدادون صراخا قائلين ليصلب (٢٤) فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئا بل بالحرى يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا انى برىء من دم هذا البار. ابصروا أنتم (٢٥) فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا (٢٦) حينئذ أطلق لهم باراباس. وأما يسوع فجلده وأسلمه ليصلب (٢٧) فأخذ عسكر الوالى يسوع الى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة (٢٨) فعروه وألبسوه رداء قرمزيا (٢٩) وضفروا أكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة فى يمينه وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين. السلام. يا ملك اليهود. (٣٠) وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه (٣١) وبعد ما استهزأوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب (٣٢) وفيما هم خارجون وجدوا انسانيا قيروانيا [1] اسمه « سمعان » فسخروه ليحمل صليبه (٣٣) ولما أتوا الى موضع يقال له جلجثة وهو المسمى موضع الجمجمة (٣٤) أعطوه خلا ممزوجا بمرارة ليشرب. ولما ذاق لم يرد أن يشرب.

مرقس — ص ١٤ (٣٢) وجاءوا الى ضيعة اسمها جثسيمانى فقال لتلاميذه اجلسوا ها هنا حتى أصلى (٣٣) ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا وابتدأ يدهش ويكتئب (٣٤) فقال لهم نفسى حزينة جدا حتى الموت. امكثوا هنا واسهروا (٣٥) ثم تقدم قليلا وخر على الأرض وكان يصلى لكى تعبر عنه الساعة ان أمكن (٣٦) وقال يا أبا الآب كل شيء مستطاع لك. فأجزعنى هذه الكأس ولكن ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت (٣٧) ثم جاء ووجدهم نياما فقال لبطرس يا سمعان أنت نائم. أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة (٣٨) اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة. أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف (٣٩) ومضى أيضا وصلى قائلا ذلك الكلام

(١) صحة هذا اللفظ (قورينى) كما صححه العلامة المرحوم « أحمد زكى باشا » ولان القيروانى نسبة الى القيروان اى العسكر وهذه المدينة لم تكن موجودة فى ذلك العهد، بل أسسها «عقبة بن نافع » والى أفريقيا من قبل « معاوية بن أبى سفيان » سنة خمسين هجرية كما فى ابن الأثير.

بعينه (٤٠) ثم رجع ووجدهم أيضا نياما اذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه ثم جاء ثالثة وقال لهم ناموا الآن واستريحوا . يكفى قد أتت الساعة هو ذا ابن الانسان يسلم الى أيدى الخطاة (٤١) قوموا لنذهب هوذا الذى يسلمنى قد اقترب . (٤٢) وللوقت فيما هو يتكلم أقبل يهوذا واحد من الاثنى عشر (٤٣) ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ (٤٤) وكان مسلمه قد أعطاهم علامة قائلا . الذى أقبله هو هو هو . أمسكوه وامضوا به بحرص (٤٥) فجاء للوقت وتقدم اليه قائلا يا سيدى يا سيدى . وقبله (٤٦) فألقو أيديهم عليه وأمسكوه (٤٧) فاستل واحد من الحاضرين السيف وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه . (٤٨) فأجاب يسوع وقال لهم كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى لتأخذونى (٤٩) كل يوم كنت معكم فى الهيكل ولم تمسكونى . ولكن لكى تكمل الكتب (٥٠) فتركه الجميع وهربوا (٥١) وتبعه شاب لا بسا ازارا على عريه فأمسكه الشباب . فترك الازار وهرب منهم عريانا.

لوقا — ص ٢٢ (٣٩) وخرج ومضى كالعادة الى جبل الزيتون وتبعه أيضا تلاميذه (٤٠) ولما صار الى المكان قال لهم صلوا لكى لاتدخلوا فى تجربة (٤١) وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى (٤٢) قائلا يا أبتاه ان شئت أن تجيز عنى هذه الكأس . ولكن لتكن لا ارادتى بل ارادتك (٤٣) وظهر له ملاك من السماء يقويه (٤٤) واذا كان فى جهاد كان يصلى بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض (٤٥) ثم قام من الصلاة وجاء الى تلاميذه فوجدهم نياما من الحزن فقال لهم لماذا أنتم نيام (٤٦) قوموا لئلا تدخلوا فى تجربة (٤٧) وبينما هو يتكلم اذا جمع ، والذى يدعى يهوذا أحد الاثنى عشر يتقدمهم فدنا من يسوع ليقبله (٤٨) فقال يسوع يا يهوذا أبقبلة تسلم ابن الانسان (٤٩) فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا يارب أنضرب بالسيف (٥٠) وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى (٥١) فأجاب يسوع وقال دعوا لى هذا ولمس أذنه وأبرأها .

يوحنا — ص ١٨ (١) قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه وعبر « وادى قدرون » حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه (٢) وكان يهوذا مسلمه يعرف الموضع . لأن يسوع اجتمع هناك كثيرا مع تلاميذه (٣) فأخذ يهوذا الجند وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء الى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح (٤) فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتى عليه وقال لهم من تطلبون (٥) أجابوه يسوع الناصرى . قال لهم يسوع أنا هو . وكان يهوذا مسلمه أيضا واقفا معهم (٦) فلما قال لهم انى أنا هو رجعوا الى الوراء وسقطوا على الأرض (٧) فسألهم أيضا من تطلبون. فقالوا يسوع الناصرى (٨) أجاب يسوع قد قلت لكم انى أنا هو فان كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون (٩) ليتم القول الذى قاله ان الذين أعطيتنى لم أهلك منهم أحدا (١٠) ثم أن

سمعان بطرس كان معه سيف فاستله وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى وكان اسم العبد ملخس (١١) فقال يسوع لبطرس اجعل سيفك فى الغمد الكأس التى اعطانى الآب ألا أشربها ؟ (١٢) ثم ان الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه (١٣) ومضوا به الى « حنان » أولا لأنه كان حما « قيافا » الذى كان رئيسا للكهنة فى تلك السنة (١٤) وكان قيافا هو الذى أشار على اليهود أنه خير أن يموت انسان واحد عن الشعب .

ان أدنى نظر يهدى الى أن عبارات هذه الأناجيل الأربعة متخالفة ، وشهادتها لا تصلح أن تكون مستندا يثبت به أمر له من الأهمية مثل ما لمسألة صلب المسيح ، التى يدعيها المسيحيون ويجعلونها أساس ايمانهم :

(١) ان متى يقول أن يسوع جاء مع تلاميذه الى قرية جثسيمانى ، ووافقه مرقس . وخالفهما لوقا وقال : الى جبل الزيتون . وقال يوحنا : عبر وادى قدرون حيث كان بستان .

وعبارة يوحنا قريبة من عبارة لوقا فى المعنى .

(٢) قال متى ثم أخذ معه بطرس وابنى زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب ووافقه مرقس . وخالف لوقا فى ذلك وذكر انه انفصل عنهم رمية حجر وصار يصلى . وكذلك أسقط يوحنا هذه العبارة.

(٣) ذكر متى انه قال لمن معه « نفسى حزينة حتى الموت امكثوا ها هنا واسهروا معى وأنه كان يصلى قائلا يا أبتاه ان أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت » ثم جاء الى التلاميذ فوجدهم نياما فعاتب بطرس وأمرهم بالسهر ، ثم صلى وعاد اليهم نياما فعاد وصلى ثالثة ، ثم جاء الى التلاميذ فقال لهم ناموا واستريحوا وأنبأهم أن ابن الانسان يسلم الى أيدى خطاة . ثم قال : قوموا ننطلق هو ذا الذى يسلمنى قد اقترب . وعبارة مرقس توافق عبارة متى فى المعنى .

واما لوقا فزاد أمرين (أحدهما) أن ملكا من السماء نزل الى المسيح يقويه وهو يصلى . (ثانيهما) أنه كان يصلى بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض . وأسقط مجيئه الى التلاميذ المرة الثالثة . وأما يوحنا وهو أحد الثلاثة الذين انفرد بهم يسوع عن سائر التلاميذ فقد أسقط ذلك كله ولم يذكر شيئا منه ، وهو دليل على عدم حصول شىء من ذلك .

ولعمرى اذا كان الملك جاء وهم نيام فما الذى أدراهم به ؟ واذا كان عرقه كأنه قطرات دم وهم نيام فى جوف الليل لم يروا شيئا فكيف يثبتون هذا ؟

(٤) قال متى وفيما هو يتكلم اذا يهوذا أحد الاثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الكهنة وشيوخ الشعب ، والذى سلمه أعطاهم علامة

قائلا : الذى أقبله هو هو أمسكوه . فللوقت تقدم الى يسوع وقال السلام يا سيدى وقبله . فقال يسوع يا صاحب لماذا جئت ؟ حينئذ تقدموا وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه .

وافق مرقس متى فى المعنى . وقال لوقا ان المسيح قال له : يا يهوذا أبقبلة تسلم ابن الانسان؟ بدل قوله : يا صاحب لماذا جئت وزاد لفظ « والكتبة» قبل شيوخ الشعب وأسقط يوحنا «الكتبة وشيوخ الشعب » وزاد « الفريسيين » ولم يذكر أن يهوذا قبله أو دل عليه . بل قال انه كان واقفا معهم وزاد أن المسيح خرج اليهم وقال لهم من تطلبون . قالوا يسوع الناصرى فقال لهم أنا هو وأنه لما قال لهم ذلك رجعوا الى الوراء وسقطوا على الأرض . ثم أعاد سؤاله وأعادوا الجواب ثم قال فان كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون .

(٥) ذكر متى أنهم قبضوا على يسوع ثم أن بطرس استل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فأمره المسيح برد سيفه الى مكانه . وقال : أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب الى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة فكيف تكمل الكتب ؟ انه هكذا ينبغى أن يكون ثم قال : وأما هذا كله فقد كان لكى تكمل كتب الأنبياء . حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.

أما مرقس فقد وافقه فى المعنى الا هرب التلاميذ كلهم . وزاد قوله : وتبعه شاب لابسا أزارا على عريه ، فأمسكه الشبان فترك الازار وهرب عريانا — وهو يريد بذلك الشاب يوحنا ذلك الغلام الذى كان المسيح يحبه — وأما لوقا فلم يذكر من ذلك كله سوى أن بطرس ضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فأمره المسيح بأن يغمد سيفه . وانفرد عن الجميع بأن المسيح لمس أذنه وأبرأها . وأما يوحنا فلم يزد شيئا بل نقص جملا وانفرد بذكر اسم العبد الذى قطعت أذنه أن اسمه « ملخس » .

(٦) ان المحاورة التى قصها يوحنا بين المسيح وطالبيه وقوله لهم : من تطلبون ؟ وقولهم : يسوع الناصرى ، ورجوعهم وسقوطهم — بعد قوله لهم أنا هو — تدل دلالة واضحة على أنهم رجعوا بالمطلوب ! ومن جهة أخرى تفيد أن ، أنا هو ، فأمسكوا به فانهم لا يشكون فى يوحنا لم يذكر تقبيله اياه ولا تسليمه لهم . بل المسيح هو الذى دلهم على نفسه ان كان هو الذى قبض عليه !

(٧) يقول يوحنا : انهم ذهبوا للقبض عليه ، وجاء « يهوذا » الى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح .

وقد انفرد يوحنا بذلك عن الثلاثة وذلك معقول لأن الوقت كان ليلا وهم لا يعرفون المسيح ، ولذلك استأجروا « يهوذا الاسخريوطى » للدلالة عليه ، وهو لم يدلهم عليه ولم

يشر اليه حسب رواية يوحنا . وكل من تعرض — صادقا أو كاذبا — وقال أنا يسوع فهم مصدقوه وآخذوه ! ولا سبيل الى التحقق من شخصيته ما دام يهوذا ساكنا والليل يساعد على ذلك !

(٨) انفرد لوقا بأن رؤساء الكهنة كانوا قد ذهبوا للقبض عليه .

بعد القبض على يسوع

يقول متى — ص ٢٦ (٥٧) والذين أمسكو يسوع مضوا به الى « قيافا » رئيس الكهنة حيث اجتمع الكتبة والشيوخ (٥٨) وأما بطرس فتبعه من بعيد الى دار رئيس الكهنة فدخل الى داخل وجلس بين الخدام لينظر النهاية (٥٩) وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه (٦٠) فلم يجدوا . ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا . ولكن أخيرا تقدم شاهدا زور (٦١) وقالا : هذا قال انى أقدر أن أنقض هيكل الله وفى ثلاثة أيام أبنيه (٦٢) فقام رئيس الكهنة وقال له أما تجيب بشىء ؟ ماذا يشهد به هذان عليك (٦٣) وأما يسوع فكان ساكتا . فأجاب رئيس الكهنة وقال له أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله (٦٤) قال له يسوع أنت قلت . وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء (٦٥) فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلا قد جدف . ما حاجتنا بعد الى شهود . ها قد سمعتم تجديفه (٦٦) ما ترون فأجابوا وقالوا انه مستوجب الموت (٦٧) حينئذ بصقوا فى وجهه ولكموه . وآخرون لطموه (٦٨) قائلين تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك . (٦٩) أما بطرس فكان جالسا خارجا فى الدار . فجاءت اليه جارية قائلة وأنت كنت مع يسوع الجليلى (٧٠) فأنكر قدام الجميع قائلا لست أدرى ما تقولين (٧١) ثم اذ خرج الى الدهليز رأته أخرى فقالت للذين هناك وهذا كان مع يسوع الناصرى (٧٢) فأنكر أيضا بقسم أنى لست أعرف الرجل (٧٣) وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس حقا أنت أيضا منهم فان لغتك تظهرك (٧٤) فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف أنى لا أعرف الرجل . وللوقت صاح الديك (٧٥) فتذكر بطرس كلام يسوع الذى قال له أنك قبل أن يصيح تنكرنى ثلاث مرات . فخرج الى خارج وبكى بكاء مرا .

(٩) يقول متى : ان الذين أمسكوا يسوع مضوا به الى « قيافا » رئيس الكهنة حيث اجتمع الكتبة والشيوخ ووافق على ذلك مرقس ولوقا . وأما يوحنا فقال انهم أوثقوه وذهبوا الى « حنان » حما « قيافا » فخالف الثلاثة فى ذلك .

(١٠) ذكر متى : أن بطرس تبع يسوع من بعيد الى دار رئيس الكهنة ووافقه مرقس ولوقا . وأما يوحنا فخالفهم وذكر ان بطرس تبع يسوع هو والتلميذ الآخر « يعنى يوحنا » .

(١١) ذكر متى أن بطرس كان خارج الدار ، فجاءت اليه جارية وقالت وأنت كنت مع يسوع الجليلى ؟ فأنكر قدام الجميع . ثم اذ خرج الى الدهليز رأته أخرى فقالت وهذا كان مع يسوع الناصرى فأنكر بقسم انى لست أعرف الرجل ، وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس حقا أنت أيضا منهم . فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف انى لا أعرف الرجل ، وللوقت صاح الديك فتذكر بطرس كلام يسوع الذى قال له انك قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات فخرج الى خارج وبكى بكاء مرا .

وأما مرقس فقد ذكر هذه الحادثة ولكنه جعل بطرس داخل الدار يستدفىء فقالت له الجارية ذلك وأنكر ، وأنها هى بنفسها التى رأته فى الدهليز وقالت للحاضرين انه منهم وليست جارية أخرى — كما زعم متى — وان الديك صاح عقب المرة الأولى لا بعد المرات الثلاث ، وأنه فى المرة الثالثة صاح الديك مرة واحدة عند متى بعد انكار بطرس ثلاث مرات ! وصياحه عند مرقس مرتين !

وجعل عبارة المسيح له « أنت تنكرنى ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك مرتين» . وأما لوقا فجعل سؤال الجارية له مرة واحدة هى الأولى فأنكر ، وأن سؤاله فى المرتين الأخيرتين كان من رجلين لا من جارية ورجال ، وزاد قوله : فالتفت الرب ونظر الى بطرس فتذكر كلام الرب .

وأما يوحنا فقال ان دخول بطرس كان برجاء الغلام « يوحنا » للبوابة التى قالت لبطرس : ألست أنت أيضا من تلاميذ هذا الانسان ؟ قال ذاك لست أنا . وان الغلام كان معروفا عند رئيس الكهنة ودخل مع يسوع أول الأمر ثم رجا البوابة فى ادخال بطرس ، وأن المصطلين قالوا له أيضا : ألست أنت من تلاميذه ؟ فأنكر وقال له واحد من عبيد رئيس الكهنة — وهو نسيب الذى قطع بطرس أذنه — أما رأيتك أنا معه فى البستان ؟ فأنكر أيضا وللوقت صاح الديك .

فانظروا هداكم الله الى هذه المسألة الصغيرة القصيرة كم فيها من التناقض ؟

(١٢) ذكر متى أن رؤساء الكهنة والشيوخ والجمع كله كانوا يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه فلم يجدوا ، ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا !

انظروا الى هذا الكلام القلق المتناقض كل التناقض ! اذا كانوا طلبوا شهود زور فلم يجدوا. فكيف يقول بعد ذلك « ومع انه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا ؟ » أكتب الكاتب هذا الكلام ومعه عقله ؟ ان المرء ليستحى أن يكتب مثل هذا !

أما مرقس فكان أكثر حذقا وأوفر لباقة اذ قال : وكان رؤساء الكهنة والجمع كله يطلبون شهادة على يسوع ليقتلوه فلم يجدوا ! لأن كثيرين شهدوا عليه زورا ولم تتفق شهادتهم .

والعجب العاجب من أمر انجيل متى اذ يقول « وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه » ! كأنهم اذا وجدوا شهادة حق باداتته لا يقبلونها لأنها شهادة حق ! وهم لا يطلبون الا شهادة الزور !

(١٣) المفهوم صراحة — من عبارة كل من متى ومرقس — أن المحاكمة والمناقشة بين الكهنة ورئيسهم من جهة وبين يسوع من الناحية الأخرى كانت ليلا عقب القبض عليه ووصوله الى دار رئيس الكهنة ، ولكن لوقا ويوحنا جعلا المحاكمة صباحا .

(١٤) ذكر متى أن يسوع مضوا به الى دار رئيس الكهنة « قيافا » ومرقس وافقه على ذلك الا أنه خالفه بعدم ذكره اسم « قيافا » ولوقا لم يوافقهما على ذلك بل ذكر أن الرؤساء سلموه الى الخدام ومكث الليل كله معذبا بأيديهم الى الصباح ، وبعد اجتماع مشيخة الشعب أصعدوه الى مجمعهم . وقال يوحنا : انهم أخذوه أولا الى دار « حنـان » ثم الى دار «قيافا » رئيس الكهنة موثقا .

(١٥) يقول متى : ولكن أخيرا تقدم شاهدا زور وقالا هذا قال : انى أقدر أنقض هيكل الله وفى ثلاثة أيام أبنيه ! فقام رئيس الكهنة وقال له أما تجيب بشىء ؟ ماذا يشهد هـذان عليك ؟ وأما يسوع فكان ساكتا ، فأجاب رئيس الكهنة وقال استحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح بن الله ؟ فقال له يسوع : انك قلت وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا على يمين القوة وآتيا على سحاب السماء ! فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلا : قد جدف ما حاجتنا بعد الى شهود ؟ ها قد سمعتم تجديفه ! ماذا ترون ؟ فأجابـوا وقـالوا : انه مستوجب الموت .حينئذ بصقوا فىوجهه ولكموهوآخـرون لطموه قائلين : تنبأ ايهـا المسيح من ضربك ؟

وقد خالف مرقس متى فزاد فى شهادة الشهود عليه قول الشاهدين : انى أنقض هذا الهيكل المبنى بالأيادى وفى ثلاثة أيام أبنى آخر غير مصـنوع بأياد . وقول رئيس الكهنة : أنت المسيح ابن المبارك ؟ فقال يسوع : أنا هو ... الخ . فخالف متى فى هذه المواضع الثلاثة وقوله « المبارك » يريد « داود » .

وأما لوقا فقد ضرب صفحا عن طلب شهود زور على المسيح ولم يذكر سوى قول مشيخة الشعب ورؤساء الكهنة « ان كنت المسيح فقل لنا . فقال : ان قلت لكم لا تصدقون وان سألت لا تجيبونى ولا تطلقوننى ! منذ الآن تجدون ابن الانسان جالسا عن يمين قوة الله . فقـال الجميع أفأنت ابن الله فقال لهم انتم تقولون ذلك » فخالف بذلك كلا من سابقيه ! ومن المفارقات قول لوقا أنهم قالوا له «أفأنت ابن الله» مع أنه لم يدع أنه ابن الله بل عبر بلفظ «ابن الانسان» .

وأما يوحنا فقد ألغى شهادة الزور وشهوده ، وألغى محاكمة الكهنة والشيوخ والكتبة له . ولم يذكر من ذلك شيئا أصلا ، وهو من أصحاب المسيح — وقد شهد ما لم يشهده متى — لأنه كان معروفا من رئيس الكهنة ودخل داره مع يسوع — كما نص على ذلك يوحنا فى انجيله مكذبا مرقس الذى يقول انه فر عريانا — وبعد هذا فشهادة من شهدوا بمسألة نقض الهيكل ليست شهادة زور فقد جاء فى يوحنا ص ٢٠ (١٩) انقضوا هـذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه فكيف يصح أن يقال انهم شهدوا زورا ؟

وبعد هذا كله فان الكهنة ورئيسهم لم يقولوا ان سبب الموت هو ما ذكر من هدم الهيكل وبنائه ! بل حين قال لهم انه المسيح — على رأى مرقس — وأنه سيكون على يمين قوة الله ! ومع هذا فلم يرفعوه الى الوالى بشىء من هذا بل قالوا أنه يفسد الشعب ويقول أنه ملك اليهود .

(١٦) قال متى ص ٢٧ : ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه . فأوثقوه ومضوا به ودفعوه الى « بيلاطس » النبطى الوالى ، ووافقه مرقس غير أنه لم يذكر صفة « بيلاطس » ولا جنسيته . واختصر لوقا وقال فى ص ٢٣ (١٠) فقام كل جمهورهم وجاءوا به الى « بيلاطس » وقال يوحنا فى ص ١٨ (٢٨) ثم جاءوا بيسوع من عند « قيافا » الى دار الولاية وكان صبح ولم يدخلوا دار الولاية لكيلا يتنجسوا فيأكلون الفصح . وهذه العبارة انفرد بها يوحنا دون الثلاثة !

(١٧) قال متى : حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه أنه قد دين ، ندم ورد الثلاثين من الفضة الى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلا قد أخطأت اذ سلمت دما بريئا . فقالوا ماذا علينا أنت أبصر ! فطرح الفضـة فى الهيكل وانصرف ثم مضى وخنق نفسه . فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لن نلقيها فى الخزانة لأنها ثمن دم ! فتشاوروا واشتروا بها « حقل الفخارى » مقبرة للغرباء ؛ لهذا سمى ذلك الحقل « حقل الدم » الى هذا اليوم . حينئذ تم ما قيل بأرمياء النبى القائل وأخذوا الثلاثين من الفضة من ثمن المثمن الذى ثمنوه من بنى اسرائيل وأعطوها عن «حقل الفخارى» كما أمرنى الرب .

هذا التقرير قد أسقطه أصحاب الأناجيل الثلاثة وخالفه مؤلف « الأبركسيس » أعمال الرسل ص ١ (١٨) فان هذا — أى يهوذا — اقتنى حقلا من أجرة الظلم واذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها . وصار ذلك معلوما عند سكان « أورشليم » حتى دعى ذلك الحقل فى لغتهم « حقل دما » أى حقل دم . فالفرق بين تقرير متى وتقرير سفر الأعمال ظاهر . واذا أخذنا بأحدهما وجب أن يكون الآخر كاذبا .

وعبارة سفر الأعمال تفيد أن مؤلفه ليس عبرانيا بدليل قوله « فى لغتهم » وبعد هذا ، فقد نسب متى الى رؤساء الكهنة شراء « حقل الفخارى » بالفضة . وحينئذ تم ما قيل بأرمياء .. الخ .

ونسب القول الى أرمياء غلط ، فان هذا القول لا يوجد فى كتب أرمياء ، فذكر متى لاسم أرمياء غلط يقينا ، وانما هذا القول فى سفر زكريا عليه السلام ونصه « فقلت لهم ان حسن فى أعينكم فأعطونى أجرتى والا فامتنعوا وزنوا أجرتى ثلاثين من الفضة ، فقال لى الرب ألقها الى « الفخارى » الثمن الذى ثمنونى به . فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها الى « الفخارى » فى بيت الرب ثم قصفت عصاى الأخرى » وبعد هذا فهذا الكلام الذى فى زكريا لا تعلق له بالمسيح أصلا وليس فى شأنه . ولكن القوم يتصيدون كل الكلام ويلحقونه بكتبهم المقدسة ليقيموه دليلا على أن الحادثة قد تنبأ بها الأنبياء من قبل ، وهى بعيدة من غرضهم بعد السماء من الأرض .

وقد علق صاحب « الفارق » على هذه العبارة بكلام طويل فى صفحة ٢٤٨ من الجزء الأول وما بعدها فليرجع اليه من أراد المزيد .

(١٨) اختلفت الأناجيل الأربعة فى بسط السبب الذى بنى عليه الوالى صلب المسيح وكل واحد يخالف الآخر . واذا قلنا الوالى فلا نعنى بذلك أنه دان المصلوب أو وجده مذنبا ، فان كل أناجيل القوم مصرحة بأنه لم يجد فيه علة تستوجب الموت . قال متى : فوقف يسوع أمام الوالى فسأله الوالى قائلا أأنت ملك اليهود ؟ فقال له يسوع أنت تقول . وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشىءفقال له « بيلاطس » أما تسمع كم يشهدون عليك ؟ فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة فتعجب الوالى جدا ! وقد وافقه مرقس .

وأما لوقا فأثبت ما لم يثبته متى ومرقس . فقال ص ٢٣ (٢) وابتدأوا يشتكرن عليه قائلين: اننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلا انههو مسيح ملك ! فسأله بيلاطس أنت ملك اليهود ؟ فأجابه وقال : أنت تقول . وبديهى أن هذا ضد ما قاله متى من أنه لم يجب بشىء حتى تعجب الوالى .

والمطلع على الأناجيل يعلم فساد تلك الدعاوى بما أثبته أصحابه من قوله : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . ومن هربه ممن أرادوا المناداة به ملكا . فلو أنه المسيح نفسه لتبرأ من مقالتهم واستشهد على نقض دعواهم . ولكنه المسكين « يهوذا الاسخريوطى » الذي دهش للقبض عليه وارتبك عقله واستغرق فى التأمل فيما هو قادم عليه من أهوال الموت فأنساه ذلك الجواب .

وقد انفرد لوقا باحياء « هيرودس » الذى أثبت موته من قبل وذكر أن « بيلاطس

أرسل اليه بيسوع وكان هيرودس الميت من زمن مديد يتمنى رؤية المسيح وأرادوا أن يصنع أمامه آية فلم يجبه بشيء . وكيف يجيبه أو يصنع آية وليس هو المسيح صاحب الآيات وانما هو يهوذا؟

وأما يوحنا فقد خالف الثلاثة فى ص ١٨ (٢٨ — وما بعدها) اذ قال انهم لم يدخلوا دار الولاية لئلا يتنجسوا فخرج اليهم بيلاطس وقال أية شكاية تقدمون على هذا الانسان ؟ فأجابوا وقالوا لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه اليك ، فقال بيلاطس : خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحدا . ليتم قول يسوع الذى قاله مشيرا الى أية ميتة كان مزمعا أن يموت .

فعلم أنهم لم يذكروا الأسباب التى بنوا عليها طلب قتله ، وهو بذلك يخالف لوقا الذى جعل تلك الأسباب (١) الافساد فى الأرض (٢) ادعاء الملك (٣) التحريض على عدم أداء الجزية لقيصر . وزاد عن الثلاثة قوله : ليتم قول يسوع .. الخ .

(١٩) يعلم من متى ص ٢٧ (١٨ و ٢٢ و ٢٣و ٢٤) أن بيلاطس كان يعتقد براءة المسيح وأنهم أسلموه حسدا وأنه لا شر فيه ، وأنه غسل يديه قدام الجميع قائلا : انى برىء من دم هذا البار . فكيف يصح مع هذا أن يقال أنه جلده وأسلمه ليصلب كما يقول متى ؟

وقد وافقه مرقس فى المعنى مع هذا التناقض . وأما لوقا فخالفهما فى الجلد فلم يذكر أن بيلاطس جلده ولم يذكر أنه غسل يده براءة من دمه .

وأما يوحنا فوافق ثلاثتهم على اعتقاد الوالى براءة يسوع وجلده ، ولم يذكر غسل يده .

(٢٠) ثابت من الأناجيل الأربعة أن اليهود طلبوا صلب المسيح واطلاق مجرم لهم اسمه « باراباس » وقد اختلفت صفتهم لباراباس . قال متى : انه كان أسيرا عند بيلاطس . وقال مرقس ولوقا : انه كان فى فتنة حصل فيها قتل . وقال يوحنا وكان باراباس لصا .

(٢١) قال متى ص ٢٧ أخذ عسكر الوالى يسوع الى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة ، وعروه وألبسوه رداء قرمزيا وضفروا اكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة فى يمينه . وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين السلام يا ملك اليهود ! وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه . وبعد ما استهزءوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب .

وقد وافقه مرقس على ما ذكره الا فى شيئين : التعرية ولون اللباس ؛ فقد جعله أرجوانيا لا قرمزيا .

وأما لوقا فلم يجعل الاستهزاء بالمسيح فى دار الولاية كما فعل متى ومرقس ، ولم يقل ان

العسكر المستهزئون . بل ذكر أن الشعب هو الذى كان يهزأ به عند موضع الصلب ، ولم يذكر تعرية ولا رداء قرمزيا ولا أرجوانيا . نعم انه جعل « المرحوم هيرودس » هو الذى ألبسه رداء لامعا .

ويوحنا جعل أن العسكر — أى الفتوات — هم الذين ضفروا له اكليل الشوك وألبسوه أرجوانا ، ولم يذكر تعرية كما قال متى . وزاد يوحنا : أن بيلاطس أعاد عليه السؤال فلم يعطه يسوع جوابا ، وقال له أما تكلمنى ؟ وكان بيلاطس يطلب أن يطلقه لولا تحكم اليهود .

(٢٢) يقول متى ص ٢٧ (٣٢) وفيما هم خارجون وجدوا انسانا قيروانيا [١] اسمه « سمعان » فسخروه ليحمل صليبه . وزاد مرقس كنيته فقال « أبو الكسندرس وروفس » ووافق لوقا متى . وقد ناقض يوحنا الثلاثة وكذب مسألة « سمعان القيروانى » ص ١٩ : ١٧ وذكر أنهم مضوا به وهو حامل صليبه الى الموضع الذى يقال له « جمجمة » .

(٢٣) ذكر متى أنهم لما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها ، ولم يبين من هم الذين اقتسموا ثيابه بطريق القرعة . ومثل ذلك فى مرقس ، ونسى لوقا مسألة اللباس والقرعة فلم يكتبها بتدقيق . وأما يوحنا فقد ذكر أن العسكر هم الذين اقتسموا ثيابه بلا قرعة ، وأما قميصه فاقترعوا عليه .

(٢٤) قال متى ص ٢٧ (٢٣) ولما أتوا الى موضع يقال له « جلجثة » وهو المسمى موضع الجمجمة أعطوه خلا ممزوجا بمرارة ليشرب ولما ذاقه لم يرد أن يشرب . وقد خالفه مرقس فقال : أعطوه خمرا ممزوجة بمر ليشرب فلم يقبل . وأما لوقا فقال — عن العسكر الذين استهزءوا به — انهم كانوا يقدمون له خلا ، ولم يقل انه ممزوج بمرارة كما قال متى . وأما يوحنا فقد أسقط العبارة من أصلها .

(٢٥) انفرد لوقا بقوله وتبعه جمهور كبير والنساء اللواتى كن يلطمن أيضا وينحن عليه فالتفت اليهن يسوع وقال يا بنات « أورشليم » لا تبكين على . بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن . لأنه هو ذا أيام تأتى يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع . حينئذ يبتدئون يقولون للجبال اسقطى علينا وللآكام غطينا لأنهم كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس ؟ ولم يذكر ذلك متى ولا مرقس ولا يوحنا !

(٢٦) اتفق الأربعة أصحاب الأناجيل على أن المسيح صلب وصلب معه اثنان آخران . قال متى ومرقس : انهما لصان . وقال لوقا : وجاء باثنين آخرين مذنبين ليقتلا معه . وقال يوحنا : وصلبوا اثنين آخرين معه . ولم يذكر وصفهما .

---

(١) الصواب « قورينيا » نسبة الى « قورين » كما تقدم فى صفحة ٤٣٥ .

(٢٧) ذكر متى : ان المجتازين والكتبة والكهنة والشيوخ كانوا يجدفون عليه ويستهزئون به ، وأن اللصين اللذين سمرا وصلبا معه كانا يعيرانه ؛ ووافقه على ذلك مرقس . وذكر لوقا : أن المعير أحدهما فقط ، وأن الثاني كان ينهاه وانتهره قائلا : أو لا تخاف أنت الله اذ أنت تحت هذا الحكم بعينه ! ثم قال ليسوع اذكرني يا رب متى جئت فى ملكوتك . فقال يسوع الحق أقول لك انك اليوم تكون معى فى الفردوس . وأما مرقس فأسقط استهزاء اللص واللصين به .

(٢٨) لم يحدد كل من متى ولوقا ويوحنا وقت الصلب فى أية ساعة ابتدأ ؟ ولكن حدده مرقس الساعة الثالثة .

(٢٩) اجتمع الثلاثة من أصحاب الأناجيل على أنه عند الساعة السادسة كانت على الأرض ظلمة الى الساعة التاسعة . وخالفهم يوحنا فلم يذكر ظلمة على الأرض أصلا .

(٣٠) اختلف أيضا أصحاب الأناجيل فى الكلمات الأخيرة للمسيح . فقال متى ص ٢٧ (٤٦) ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا : ايلى ايلى لما شبقتنى! أى الهى الهى لماذا تركتنى [١] فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا انه ينادى ايلياء . وللوقت ركض واحد منهم وأخذ اسفنجة وملأها خلا وجعلها على قصبة وسقاه ، وأما الباقون فقالوا اترك لنرى هل يأتى ايليا يخلصه ؟ فصرخ يسوع أيضا بصوت عظيم وأسلم الروح .

وقد خالف مرقس فقال : انه قال الوى الوى لما شبقتنى ، ولم يقل ايلى ايلى — كما يقول متى — .

وخالفهما لوقا فقال : انه نادى بصوت عظيم وقال يا أبتاه فى يديك استودع روحى . ولما قال هذا أسلم الروح . وخالفهما فى مسألة سقياه الخل . وخالف الثلاثة يوحنا فلم يذكر للمسيح كلاما سوى انه كانت أمه والغلام الذى يحبه واقفين مع بعض النساء بقربه ، فقال لأمه : يا امرأة هوذا ابنك ، ثم قال للتلميذ هو ذا أمك .

وخالف يوحنا الثلاثة فذكر أن سقياه الخل بعد أن طلب الشرب وقال أنا عطشان . والثلاثة جعلوا ذلك من الساقى ابتداء . ولم يذكر شيئا من قوله : ايلى أو الوى .

(٣١) قال متى ص ٢٧ (٥٠) فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح . ووافقه مرقس. وقال لوقا : انه قال ونادى بصوت عظيم يا أبتاه فى يديك استودع روحى . ولما قال هذا أسلم الروح . وقال يوحنا : فلما أخذ يسوع الخل قال قد أكمل ونكس رأسه وأسلم الروح .

(١) فى الأناجيل اليونانية « ايلى ايلى لما سبختنى » فاذا وضعنا « شينا » موضع السين المهملة ووضعنا « كافا » موضع الخاء — كما تقتضيه طريقة تعريب العبرى — كان اللفظ هكذا « الهى الهى لم شبكتنى » أى أوقعتنى فى شبكة ومحال على المسيح ان يقول ذلك لربه ! وهذا قرينة على ان المصلوب غيره .

(٣٢) قال يوحنا ص ١٦ (٢٥) وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه « مريم زوجة كلوبا » و « مريم المجدلية » فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذى كان يحبه واقفا قال لأمه : يا امرأة هوذا ابنك ثم قال للتلميذ : هوذا أمك . ومن تلك الساعة أخذها التلميذ الى خاصته .

وقد انفرد يوحنا بذكر هذه العبارة فلم يذكرها سواه ، وقد قال بطرس عن التلاميذ : انهم حين القبض على يسوع هربوا وكان منهم غلام يريد يوحنا يلبس رداء على عريه فأمسكه جندى فترك له الرداء وهرب عريا ! فكيف طوعت له نفسه أن يعود ليرى يسوع مصلوبا وقد هرب لمجرد القبض عليه ، وعبارة يوحنا تفيد أن هؤلاء الواقفات كن قريبات منه وهو مصلوب .

وأما لوقا فلم يذكر قرب أحد من معارفه اليه ولم يشر اليهم بكلمة بل قال : وكان جميع معارفه ونساء كن قد تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك .

ولم يذكر مرقس أحدا من معارفه نظر حادثة الصلب من قريب . بل قال : وكانت أيضا نساء ينظرن من بعيد بينهن « مريم المجدلية » و « مريم أم يعقوب الصغير » و « يوسى » و « سالومة » اللواتى أيضا تبعنه من الجليل . وأخر كثيرات اللواتى صعدن معه الى أورشليم .

وعبارة متى توافق عبارة مرقس .

فهذه الأناجيل لم تتفق حتى فى هذا الموقف الجلى ! وعلى كل فلم يكن أحد من معارف يسوع على قرب من موضع الصلب .

(٢٣) ذكر متى ص ٢٧ (٥١) أن حجاب الهيكل قد انشق الى نصفين اثنين من فوق الى أسفل حين أسلم المسيح الروح . والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت ، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين .

وأما مرقس فقد أهمل هذا القول كله ولم يذكر منه شيئا . وتواضع لوقا قليلا فقال ص ٢٣ (٤٥) وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه . ولم يذكر زلزلة ولا تشقق الصخور ولا تفتح القبور ولا قيام الأموات ! وقد ذكر : قبل اسلام الروح ، خلافا لمتى !

وأما يوحنا وهو الذى يزعمون انه كان حاضرا صلب المسيح فلم يذكر شيئا من ذلك كله !

(٣٤) اتفق متى ومرقس ولوقا على أن الذى تسلم جسد المسيح ولفه فى ثياب كتان ودفنه هو « يوسف » وصفه متى بأنه كان غنيا ومشيرا صالحا . وانفرد متى بأنه كان تلميذا ليسوع ومنتظرا ملكوت الله . وخالفهم يوحنا فأشرك معه « نيقوديموس » .

أرانى قد مللت جدا من ايراد الأقوال المتخالفة فى هذا الشأن من شئون المسيح —

بين بعض هذه الأناجيل وبعضها الآخر — وأظن أن القارىء قد مل كما مللت وسئم كما سئمت. ولو ذهبت فى هذا الشوط أعدد هذا التضاد بين الأناجيل لأضعت وقتا ثمينا .

أقول : انى اعتمد على فطنة القارىء وأحيله على خاتمة هذه الأناجيل ليرى تخالفها أيضا واضحا فى مسألة قيام المسيح من الأموات وصعوده الى السماء ، فانه — ان شاء الله — لايجد رجلا واحدا يذكر له أنه رآه قد قام من القبر وخرج منه وصعد الى السماء وهو ناظر ! وانما سيجد « مريم المجدلية » و «مريم » الأخرى قد أتتا بحنوط وطيب لتحنطا وتطيبا جسد يسوع فلم تجداه . ولا تسل عن تخالف الأناجيل فى هذه النقطة ! وهكذا .

وبعد كل ما قدمنا فهل يظن ظان أن « محمدا » صلى الله عليه وسلم هو الذى ابتدع مسألة نفى صلب المسيح وقتله من تلقاء نفسه ؟ ان «محمدا »صلى الله عليه وسلم لم يكن له غاية يريد ادراكها من نفى صلب المسيح وقتله ! بل اثباته لذلك أدخل فى الباب الذى طرقه كثيرا — من أن اليهود كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق — فحادثة المسيح أدل على ما يدعيه اذا كان قد قتل حقيقة ، ولكنه ما كان ينفى أويثبت الشىء من تلقاء نفسه وكما يشتهى (ان هو الا وحى يوحى)

واذا نظرنا الى مسألة صلب المسيح وقتله لم نجدها عند المسيحيين مسألة اجماعية . بل وجد من طوائف المسيحيين من ينفى الصلب والقتل فمن القائلين بذلك « الساطرينوسيون » و « الكاربوكراتيون » و « المركيونيون » و « البارديسيانيون » و « التاتيانيسيون » و « البارسكاليونيون » و «البوليسيون »وهؤلاء مع كثيرين غيرهم لم يسلموا بوجه من الوجوه: أن المسيح سمر فعلا ومات على الصليب . وما ذكر هنا مقرر فى تاريخهم « موسيهيم » الذى يدرس فى مدارس اللاهوت الانجيلية .

ومن القائلين بأن الشخص المصلوب غير عيسى قطعا وأنه لم تسلط عليه أيدى مضطهديه بل رفع الى السماء : طوائف « الدوسيتية — والمرسيونية — والفلنطنيائية » .

وهنا شهادات من علماء النصرانية تفيد المطلع بصيرة :

الأولى — قال المسيو « ارادوارسيوس » الشهير أحد أعضاء « الانسيتودى فرانسى » فى باريس المشهور بمعارضة المسلمين فى كتابه « عقيدة المسلمين فى بعض مسائل النصرانية » صفحة (٤٩) ان القرآن ينفى قتل عيسى وصلبه ويقول بأنه ألقى شبهه على غيره فغلط اليهود فيه وظنوا أنهم قتلوه . وما قاله القرآن موجو عند طوائف منهم « الباسيليديون » كانوا يعتقدون بغاية السخافة أن عيسى وهو ذاهب لمحل الصلب ألقى الشبه على«سيمون» السيرناى

تماما وألقى شبه « سيمون » عليه . ثم أخفى نفسه ليضحك على مضطهديه « اليهود » الغالطين . ومنهم « السرنتيون » فانهم قرروا أن أحد الحواريين صلب بدل عيسى . وقد عثر على فصل من كلام الحواريين واذا كلامه كلام « الباسيلديين » قد صرح انجيل « القديس » برنابا باسم الذى صلب بدل عيسى انه « يهوذا » انتهى .

الثانية — قال « الهرانست دى بونس » الألمانى فى كتابه « الاسلام أى النصرانية الحقة » فى صفحة ١٤٢ ما معناه : ان جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات « بولس » ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح لا من أصول النصرانية الأصلية .

الثالثة — قال « ملمن » فى الجزء الأول من كتابه المسمى « تاريخ الديانة النصرانية » ان تنفيذ الحكم كان فى وقت الغلس واسدال ثوب الظلام ، فيستنتج من ذلك امكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا فى سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم ، كما اعتقد بعض الطوائف وصدقهم القرآن انتهى .

تراجع ص ٢٨١ و ٢٨٢ من كتاب « الفارق بين المخلوق والخالق » .

قيام المسيح من القبر

قال متى فى ص ٢٨ : (١) وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظر القبر (٢) واذا زلزلة عظيمة حدثت لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه (٣) وكان منظره كالبرق ولباسه أبيض كالثلج (٤) فمن خوفه ارتعد الحراس وصاروا كالأموات (٥) فأجاب الملاك وقال للمرأتين لا تخافا أنتما . فانى أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب (٦) ليس هو ها هنا . لأنه قام كما قال . هلما انظرا الموضع الذى كان الرب مضطجعا فيه (٧) واذهبا سريعا وقولا لتلاميذه انه قام من الأموات . ها هو يسبقكم الى الجليل . هناك ترونه . ها أنا قد قلت لكما (٨) فخرجتا سريعا من القبر بخوف وفرح عظيم راكضتين لتخبرا تلاميذه (٩) وفيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه . اذا يسوع قال لهما سلام لكما . فتقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له (١٠) فقال لهما يسوع لا تخافا . اذهبا قولا لاخوتى أن يذهبوا الى الجليل وهناك يروننى (١١) وفيما هما ذاهبتان اذا قوم من الحراس جاءوا الى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما كان (١٢) فاجتمعوا مع الشيوخ وتشاوروا وأعطوا العسكر فضة كثيرة (١٣) قائلين قولوا ان تلاميذه أتوا ليلا وسرقوه ونحن نيام (١٤) واذا سمع ذلك عند الوالى فنحن نستعطفه ونجعلكم مطمئنين (١٥) فأخذوا الفضة وفعلوا كما علموهم فشاع هذا القول عند اليهود الى هذا اليوم (١٦) وأما الأحد عشر تلميذا فانطلقوا الى الجليل

حيث أمرهم يسوع (١٧) ولما رأوه سجدوا له ولكن بعضهم شكوا (١٨) فتقدم يسوع وكلمهم قائلا دفع الى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض (١٩) فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمـدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (٢٠) وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به . وها أنا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر آمين .

١ — علم من أقوال متى أن امرأتين ذهبتا الى القبر عنـد فجر أول الأسـبوع فقط لتنظرا القبر .

وأما مرقس فخلط فى الوقت فقال ان الذهاب كان باكرا جدا ثم قال اذ طلعت الشمس وجعل من ذهب الى القبر ثلاث نسوة . (١) مريم المجدلية (٢) ومريم أم يعقوب (٣) وسالومة . وقال انهن ذهبن ليدهنه بالحنوط الذى اشترينه .

ولعمرى من أين اشترينه واليهود لا يبيعون ولا يشترون فى السبت ؟

وأما لوقا . فجعل شراء الحنوط قبل الدخول فى السبت وأن الذاهبات هن نساء كن حضرن مع يسوع من الجليل ومعهن أناس لم يبين عددهم وهل كانوا رجالا أو نسـاء ؟ لم يبين ذلك وجعل منهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويونا . فزاد على المسمين « يونا » وأنقص سالومة التى أثبتها مرقس .

وخالف يوحنا فجعل الذاهبة الى القبر مريم المجدلية وحدها . وأن الظلام كان باقيا ولم يذكر أن الشمس كانت أشرقت كما قال مرقس .

٢ — علم من متى أن المرأتين أتتا الى القبر والحجـر مطبق على بابه وأن الملك نزل من السماء أمامها على الهيئة التى وصف .

وخالفه مرقس فقال ان اللائى ذهبن الى القبر تطلعن الى القبر فوجدن الحجر قد دحرج .
وأما لوقا فوافق مرقس فى أن النساء وجدن الحجر مدحرجا عن القبر قبل أن يأتين اليه .

وأما يوحنا — وهو الذى قال ان الذى ذهب انما هو مريم المجدلية وحدها — فقال انها نظرت الحجر مرفوعا عن القبر .

٣ — يستفاد من متى أن الملك أخبر المرأتين بأن يسوع قام من الأموات وأنه يطلب لقاء تلاميذه بالجليل ، وأنهما نظرتا الى المكان الذى كان مضطجعا به . وخالفه مرقس فلم يذكر ملكا وقال انهن رأين فى القبر شابا جالسا فى القبر عن اليمين .

وخالفهما لوقا فقال انهن دخلن القبر ولم يجدن جسـد يسـوع ، وفيما هن متحيرات اذ وقف بهن رجل بثياب براقة وانهما قالا لهن لماذا تطلبن الحى بين الأموات ؟ وأنه فى الجليل .

وخالف يوحنا جميع هذه الأناجيل وقال انمريم المجدلية رأت الحجر مرفوعا فعادت بسرعة الى سمعان بطرس والى التلميذ الذى كان يسوع يحبه وأخبرتهما قائلة أخذوا السيد من القبر !

٤ — يعلم من متى أن المرأتين لما انطلقتا لاخبار التلاميذ لقيهما يسوع وقال سلام لكما ... الخ :

وخالف مرقس . فذكر أنهن خرجن سريعا وهربن من القبر لأن الرعدة والحيرة أخذتاهن ولم يقلن لأحد شيئا لأنهن كن خائفات . وأنه ظهر أولا لمريم المجدلية وحدها فذهبت وأخبرت الذين كانوا معه وهم ينوحون ويبكون ، فلما سمعوا أنه حى وقد نظرته فلم يصدقوا .

وخالف لوقا فقال انهن ذهبن وأخبرن الرسل فلم يصدقوهن ، وانفرد لوقا بأن بطرس ركض الى القبر وانحنى ونظر الى الأكفان وحدها فتعجب بما كان . وأما يوحنا فجعل وصول الخبر الى التلاميذ على لسان مريم المجدلية وحدها ، وأن من ركض الى القبر اثنان : بطرس والتلميذ الآخر الذى كان يسوع يحبه . وقد سبق هذا صاحبه فنظر الى الأكفان فى القبر ولم يدخل ودخل بطرس بعد أن جاء الى القبر ، ثم بعد ذلك دخل التلميذ الآخر الذى جاء أولا الى القبر ورأى فآمن .

ثم أتى يوحنا بمريم المجدلية الى القبر مرة ثانية وأنها كانت واقفة تبكى ثم انحنت ونظرت فى القبر فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين واحدا عند رأسه والآخر عند رجليه ، وسألاها عن بكائها فقالت أنهم أخذوا سيدى ولا أعلم أين وضعوه ، ولما قالت ذلك التفتت فرأت يسوع ولم تعلم أنه هو وظنته البستانى وقالت له : يا سيد ان كنت حملته فقل لى أين وضعته وأنا آخذه ؟ وأن يسوع قال لها : يا مريم ! فالتفتت وقالت له « ربونى » الذى تفسيره « يا معلم ».

٥ — ذكر مرقس أنه ظهر لاثنين بهيئة أخرى فأخبر التلاميذ فلم يصدقوا ، وذكر لوقا أن اثنين كانا منطلقين الى بلدة « عمواس » فاقترب اليهما يسوع وهما يتحاوران فيما كان من حادثة صلب المسيح وقتله وقيامه من الأموات وقد أمسكت أعينهما عن معرفته ،فقال لهما ماهذا الكلام الذى تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين؟ فأجاب أحدهما الذى اسمه « كليوباس » وقال له : هل أنت متغرب وحدك فى أورشليم ولم تعلم الأمور التى حدثت فيها فى هذه الأيام ؟ فقال لهما : وما هى ؟ فقال : المختصة بيسوع الناصرى — الذى كان انسانا نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب — كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ونحن نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل ، ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدوث ذلك ، بل بعض النساء منا حيرننا اذ كن باكرا عند القبر ولما لم يجدن جسده أتين

قائلات انهن رأين منظر ملائكة قالوا انه حى ! ومضى قوم من الذين معنا الى القبر فوجدوا هكذا كما قالت النساء ! وأما هو فلم يروه فوبخهما قائلا أيها الغبيان والبطيئا القلوب بجميع ما تكلم به الأنبياء . وفسر لهما الأمور الغامضة من موسى وجميع الأنبياء وأنهما شددا عليه فى أن يميل معهما ففعل ولما اتكأ أخذ خبزا وكسره وناولهما فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما .

وقد انفرد لوقا بهذه الحكاية وهى تؤيد ما قاله أهل الاسلام ونطق به القرآن .

وجاء فى انجيل برنابا أن المسيح شبه لليهود وتغيرت هيئته حتى خفى عن « كليوباس » ورفيقه ولم يعرفاه حتى كسر الخبز وناولهما فأكلاه فانفتحت عيونهما .

من ذلك كله لا نجد شاهدا واحدا من الرجال ولا من النساء — سواء أكان موافقا للمسيح أو منافيا له — قد شاهد المسيح وهو فى القبر وشاهده يخرج منه . وانما يقول الذين يزعمون أنهم شاهدوه انهم رأوه خارج القبر ، وهو يشهد لأهل الاسلام أن الذى قتل سواه ، وأما هو فقد ظل سليما معافى مبرأ من الوقوع فى أيدى أعدائه . وأقتصر على هذا القدر تاركا ما بقى من التضارب والتضاد بين الأناجيل فى المحسات وحسبى الله وكفى .

المسيح عيسى ابن مريم
عبد الله ورسوله

جاء فى القرآن الكريم أن عيسى عبد الله ورسوله ، وليس هو الله ولا ابنا لله .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة البقرة : وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ [١١٦]

سورة آل عمران : إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [٥٩]

سورة النساء : وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ..... [١٥٧]

ومنها أيضاً : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ

وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً [١٧١] لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً [١٧٢]

سورة المائدة : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً [١٧]

ومنها أيضاً : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [٧٢] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٧٣] أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٧٤] مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [٧٥]

سورة الأنعام : بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [١٠١]

سورة مريم : قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا [٣٠] وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا [٣١] وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا [٣٢] وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا [٣٣]

سورة الفرقان : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا [٢]

سورة الزخرف : إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ [٥٩] وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ [٦٠] وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [٦١]

سورة الصف : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ [٦]

سورة الاخلاص : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ [١] اللَّهُ الصَّمَدُ [٢] لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ [٣] وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [٤]

هذا بعض ما جاء فى القرآن الكريم وكله ناطق بما قلت فى صراحة لا تحتمل التأويل .

وقد جاء مثل ذلك فى الأناجيل وكتب العهد الجديد كما سيأتى .

أما جماعة النصارى فقد خلقوا لهم عقيدة هى أن الله مركب من ثلاثة أقانيم : الآب والابن والروح القدس . وهذه كلها واحد . فانحدر الله الذى هو الأب أو الابن — على اختلاف أقوالهم — وحل فى مريم وتجسد انسانا وولد منها وهو « يسوع » الى آخر ما يقولون .

وهذا الكلام لم يقله المسيح ولم يعلم به ، ولكن المسيحيين لما أذاعوا المسيحية بين الوثنيين — الذين كانوا يدينون بالأقانيم وتجسد الآلهة والصلب والفداء ودخلوا فى المسيحية حاملين لتلك العقيدة — أحبوا أن يوفقوا بين ما ألفوه من عقيدة وبين هذا الدين الجديد ، وأخذوا يؤلهون المسيح ويقولون ان الله انحدر منه « أقنوم الابن » المتحد مع « الأب » و « الروح القدس » وتجسد فى رحم « مريم » ثم خرج انسانا الها . ولهم فى هذا الباب أقوال لا يقولها سواهم . فهذه هى العوامل التى آلت بهم الى عبادة المسيح — رغم أنفه — وقد جاء فى القرآن كثير من الآيات فى الرد عليهم .

اقرءوا الآيات الآتية :

سورة النساء : لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا [١٧٢]

سورة المائدة : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٧]

ومنها أيضاً : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [٧٢]

ومنها أيضاً : مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [٧٥]

سورة التوبة : وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [٣٠]

ومنها أيضاً : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [٣١]

ومنها أيضاً : يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [٣٢]

سورة مريم : ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ [٣٤] مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ [٣٥] وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ [٣٦]

سورة الزخرف : وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ [٥٧]

سورة الصف : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ [٦]

يقولون هذا فى حين أن المسيح يرفض ذلك ويعترف أنه عبد يعبد الله تعالى ، ويفعل مشيئته وهذه الأناجيل التى صنعوها والرسائل التى كتبها قديسوهم تنطق عليهم بالحق وتثبت أنه عبد رسول . واليكم الشواهد على ذلك :

(١) فى يوحنا ص ١ (٥١) من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة السماء يصعدون وينزلون على ابن الانسان — فاعترف بأنه ابن انسان وليس ابنا لله ولا هو الله .

(٢) يوحنا ص ٤ (٦) يسوع قد تعب من السفر . ومحال أن يتعب الله الذى بقوته قامت السموات والأرض وما فيها !

(٣) يوحنا ص ٣ (٢٦) فجاءوا الى يوحنا المعمدان وقالوا له : يا معلم هو الذى كان معك فى عبر الأردن ، الذى أنت قد شهدت له هو يعمد والجميع يأتون اليه ، أجاب يوحنا وقال لا يقدر انسان أن يأخذ شيئا ان لم يكن قد أعطى من السماء أنتم أنفسكم تشهدون لى أنى قلت لست أنا المسيح بل أنى مرسل قدامه .

فأنتم ترونه قد شهد على المسيح بأنه انسان وأنه لا يقدر أن يأخذ شيئا ان لم يكن قد أعطى من السماء ، وبأنه المسيح . وقال عنه فى ٣٠ : ينبغى أن ذلك يزيد وأنا أنقص . ومعلوم أن الاله لا يزيد ولا ينقص .

(٤) يوحنا ص ٣ (٣٤) لأن الذى أرسله الله يتـكلم بكلام الله لأنه ليس بكيل يعطى الله الروح . فأنتم ترون أن يحيى جعل المسيح رسولا لله يتكلم بكلام الله .

(٥) يوحنا ص ٤ (٣٤) قال لهم يسوع طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله — وهنا شهد بأنه رسول يعمل مشيئة الذى أرسله .

(٦) يوحنا ص ٤ (٤٤) لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبى كرامة فى وطنـه — وهـذا صريح فى نبوته وأنه كسائر الأنبياء لا يلقون الكرامة فى أوطانهم وانما يقوم بنصرهم البعداء.

(٧) يوحنا ص ٤ (١٩) قالت له الامرأة يا سيد أرى أنك نبى (٥٢) أنا أعلم أن مسيا الذى يقال له المسيح يأتى . فمتى جاء ذلك يخبرنا بكل شىء قال لها يسوع أنا الذى يكلمك هو — وذلك يثبت أنه نبى وأنه المسيح الذى وعدوا به .

(٨) يوحنا ص ٥ (١٩) لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا الا ما ينظر الأب يعمل — وهذا مثل ضربه لعلمه الذى يأتى به وأثبت به أنه لا يقدر أن يعمل عملا الا ما علـّمه الله أن يعمله.

(٩) يوحنا ص ٥ (٢٤) الذى يرانى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية فاعترف بأنه يرى . ومعلوم أن الله لا يرى واعترف بأنه رسول .

(١٠) يوحنا ص ٥ (٣٠) أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئا .. لا أطلب مشيئتى بل مشيئة الآب الذى أرسلنى .

(١١) يوحنا ص ٥ (٤٤) كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجد بعضكم من بعض والمجد الذى من الاله الواحد لستم تقبلونه .

(١٢) يوحنا ص ٦ (١٤) ان هذا هو بالحقيقة النبى الآتى الى العالم .

(١٣) يوحنا ص ٦ (٢٩) أجاب يسوع وقال لهم هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذى هو أرسله.

(١٤) يوحنا ص ٦ (٢٨) لأنى قد نزلت من السماء ليس لأعمـل مشيئتى بل مشيئة الذى أرسلنى وهذه مشيئة الآب الذى أرسلنى أن كل ما أعطانى لا أتلف منه شيئا ، بل أقيمه فى اليوم الأخير لأن هذه هى مشيئة الله الذى أرسلنى .

(١٥) يوحنا ص ٦ (٤٤) لا يقدر أحد أن يقبل الى ان لم يجتذبه الآب الذى أرسلنى —

فتبين من هذه العبارة انه يقول ان الهداية انما تكون من الله وانى عبد رسول ليس لى من الأمر شيء .

(١٦) يوحنا ص ٧ (١٦ — ١٨) أجابهم يسوع وقال تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى ان شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسى . من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه . وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم .

(١٧) يوحنا ص ٧ (٢٨) فنادى يسوع وهو يعلم فى الهيكل قائلا تعرفوننى وتعرفون من أين أنا ومن نفسى لم آت بل الذى أرسلنى هو حق .

(١٨) يوحنا ص ٧ (٣٣) فقال لهم يسوع أنا معكم زمانا يسيرا بعد ثم أمضى الى الذى أرسلنى .

(١٩) يوحنا ص ٧ (٤٠) وكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبى . آخرون قالوا هو المسيح — والمسيح لم يهدهم الى الصواب بأنه الله أو ابن الله .

(٢٠) يوحنا ص ٧ (٥١) فتش وانظر انه لم يقم نبى من الجليل . فرؤساء الكهنة والفريسيون ينكرون عليه ما يدعيه من أنه نبى .

(٢١) يوحنا ص ٨ (٢٦) الذى أرسلنى هو حق وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم .

(٢٢) يوحنا ص ٢٨ (٨) ولست أفعل شيئا من نفسى بل أتكلم بهذا كما علمنى أبى والذى أرسلنى هو معى .

(٢٣) يوحنا ص ١١ (٤٢) ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنى .

(٢٤) يوحنا ص ١٢ (٢٨) أيها الآب نجنى من هذه الساعة — والاله لا بد أن يكون تام القدرة ومن العجز أن يطلب النجاة من سواه بل طالب النجاة مقر بالعبودية والافتقار الى من ينجيه .

(٢٥) يوحنا ص ١٣ (٤٩) لم أتكلم من نفسى بل الآب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم .

(٢٦) يوحنا ص ١٣ (١٦) ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله .

(٢٧) يوحنا ص ١٤ (١٦) وأنا أطلب من الآب فيعطيكم « معزيا » آخر وفى النسخة المطبوعة فى لندن سنة ١٨٤٤ وأطلب من الآب فيعطيكم « فار قليطا » آخر .

حجة المسيحيين فى إلهية المسيح

يتمسك المسيحيون بأن المسيح اله وابن اله بألفاظ وردت فى بعض الأناجيل التى صنعوها مثل اطلاق لفظ « ابن الله » عليه . وهو دليل واه واهن لأن هـذا الاطلاق معارض باطلاقه « ابن الانسان » على نفسه وباطلاق « ابن داود » على نفسه أيضا ، فلا بد من حمل هذا الاطلاق على معنى لا يتنافى مع ما ثبت من جلال الله وتنزهه عما لا يليق به .

معلوم أن لفظ « الابن » بمعناه الحقيقى باتفاق لغات أهـل العالم أنه المتولد من نطفة « الأب » الملقحة لبيضة « الأم » وذلك محال على الله أن تكون له صاحبة أو يوجد له ولد يتولد من نطفته — تعالى عما يقولون — فلا بد من الحمل على معنى مجازى يناسب شأن المسيح عيسى بن مريم بحيث لا يحط من قدر الله ولا يرفع المسيح فوق قدر نفسه .

(١) ومن قارن بين ص ١٥ (٩) مرقس — ولما رأى قائد المائة الواقف مقـابله أنه صريح هكذا وأسلم الروح قال حقا كان هذا الانسان بارا — علم أنهم كانوا يطلقون على « البـار : ابن الله » بلا فارق بين المسيح وغيره .

وقد كانوا يستعملون لفظ « ابن الله » فى حق الصـالح كما يطلقون ابن « ابليس » على الطالح .

(٢) متى ص ٥ (٩) طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون (٤٥) باركوا لأعينكم احسنوا الى مبغضيكم صلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم (٤٦) لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات .

(٣) وفى يوحنا ص ٨ (٤١) أنتم تعملون أعمال أبيكم فقالوا اننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله (٤٢) فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى (٤٤) أنتم من أب هو « ابليس » وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا . ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق ، متى تكلم بالكذب فانما يتكلم بماله لأنه كذاب وأبو الكذب — وهو انما يريد أنتم عاصون لله مطيعون للشيطان .

(٤) الرسالة الأولى ليوحنا ٣ ص (٩) كل من هو مولود من الله لا يفعل خطيئة لأن زرعه يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله (١٠) بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد ابليس .

(٥) ص ٤ (٧) كل من يحب فقد ولد من الله .

(٦) ص ٥ (١) كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله وكل من يحب الوالد يحب المولود منه (٢) بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله اذا أحببنا الله وحفظنا وصاياه .

(٧) يوحنا ص ٢٠ (١٧) لا تلمسينى لأنى لم أصعد بعد الى أبى ولكن اذهبى الى اخوتى وقولى لهم انى أصعد الى أبى وأبيكم والهى والهكم .

(٨) يوحنا ص ١٤ (٢٨) ان أبى أعظم منى .

(٩) متى ص ٨ (٢٠) فقال يسوع : للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه .

(١٠) متى ص ٩ (٦) ولكن لكى تعلموا أن لابن الانسان سلطانا على الأرض لكى يغفر الخطايا .

ولو كان كل من يسميه الله ابنا يحمل على البنوة الحقيقية ويكون الها مستوجبا للعبادة . لكان كل بنى اسرائيل آلهة لأن الله أطلق على شعب اسرائيل قول ابنى .

ص ٤ خروج (٢٢) وتقول له هذا ما يقول الرب ابنى بكرى اسرائيل (٢٣) فقلت لك اطلق ابنى ليعبدنى .

مزمور ٨٨ (٢٠) وجدت داود عبدى فمسحته بدهن قدسى (٢٦) وهو يدعونى أنت أبى والهى وناصر خلاصى (٢٧) وأنا أيضا أجعله بكرا أعلى من كل ملوك الأرض .

أرمياص ٣١ (٩) انى صرت أبا لاسرائيل وأفرام هو بكرى .

صمويل ثان ص ٧ قول الله فى حق سليمان « وأنا أكون له أبا وهو يكون لى ابنا » .

وانى أقتصر على ذلك وأورد هنا ما ورد فى دائرة المعارف للبستانى فى ثلاث كلمات هن أساس العقيدة المسيحية وهن لفظ « ثالوث » ولفظ « روح » ولفظ « ابن » ليتبين القارىء أن العقيدة التى كان يعتقدها المسيح كانت توحيدا صرفا مبرءا عن عقيدة التثليث وعن ادعاء الالهية .

الثالوث

كلمة تطلق عند النصارى على وجود ثلاثةأقانيم معا فى اللاهوت تعرف « بالآب والابن والروح القدس » وهذا التعليم هو من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية وعموم البروتستانت — الاماندر — والذين يتمسكون بهذا التعليم يذهبون الى أنه مطابق لنصوص الكتاب المقدس . وقد أضاف « اللاهوتيون » اليه شروحا وايضاحات اتخذوها من تعاليم المجاميع القديمة وكتابات آباء الكنيسة العظام . وهى تبحث عن طريقة « ولادة الأقنوم الثانى وانبثاق الأقنوم الثالث » وما بين الأقانيم الثلاثة من النسبة وصفاتهم المميزة وألقابهم .

ومع ان لفظة « ثالوث » لا توجد فى الكتاب المقدس — ولا يمكن أن يؤتى بآية من العهد القديم تصرح بتعليم الثالوث — قد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء آيات كثيرة تشير الى وجود صورة جمعية فى اللاهوت . ولكن اذ كانت تلك الآيات قابلة لتفاسير مختلفة كانت لا يؤتى بها كبرهان قاطع على تعليم الثالوث . بل كرموز (١) الى الوحى الواضح الصريح الذى يعتقدون أنه مذكور فى العهد الجديد . وقد اقتبس منه مجموعان كبيران من الآيات كحجج لاثبات هذا التعليم : (أحدهما) الآيات التى ذكر فيها « الآب والابن والروح القدس » معا . (والآخر) التى ذكر فيها كل منهم على حدة . والتى تحتوى على نوع أخص صفاتهم ونسبة أحدهم الى الآخر .

والجدال عن الأقانيم فى اللاهوت ابتدأ فى العصر الرسولى . وقد نشأ على الأكثر عن تعاليم الفلاسفة الهيلانيين والغنوسطيين . فان « ثيوفيلوس — أسقف أنطاكية » فى القرن الثانى استعمل كلمة « ثرياس » اليونانية . ثم كان « ترتليانوس » أول من استعمل كلمة « ترينيتاس » المرادفة لها ومعناها « الثالوث » وفى الأيام السابقة للمجمع النيقاوى حصل جدال مستمر فى هذا التعليم وعلى الخصوص فى الشرق ، وحكمت الكنيسة على كثير من الآراء بأنها «أراتيكية(٢)» ومن جملتها « الأبيونيين » الذين كانوا يعتقدون أن المسيح انسان محض « والسابليين » الذين كانوا يعتقدون أن « الآب والابن والروح القدس» انما هى صور مختلفة أعلن بها الله نفسه للناس « والآريوسيين » الذين كانوا يعتقدون أن « الابن » ليس أزليا كالآب ، بل هو مخلوق منه قبل العالم . ولذلك هو دون الآب وخاضع له « والمكدونيين » الذين أنكروا كون الروح القدس أقنوما .

وأما تعليم الكنيسة فقد قرره المجمع النيقاوى سنة ٣٢٥ للميلاد . ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ وقد حكما بأن « الابن والروح القدس » مساويان للآب فى وحدة اللاهوت ، وأن « الابن » قد ولد منذ الأزل من الآب . وأن « « الروح القدس » منبثق من الآب . ومجمع طليطلة المنعقد سنة ٥٨٩ حكم بأن « الروح القدس » منبثق من الابن أيضا !

وقد قبلت الكنيسة اللاتينية بأسرها هذه الزيادة وتمسكت بها . وأما الكنيسة اليونانية — فمع أنها كانت فى أول الأمر ساكتة لا تقاوم — قد أقامت الحجة فيما بعد على تغيير القانون حاسبة ذلك بدعة . وعبارة « ومن الابن أيضا »لا تزال من جملة الموانع الكبرى للاتحاد بين الكنيسة اليونانية والكاثوليكية .

---

(١) تناقض واضح اذ كيف يكون « رمزا » ثم صريحا ؟

(٢) متطرفة أو الحادية .

وكتب اللوثريين والكنائس المصلحة أبقت تعليم الكنيسة الكاثوليكية للثالوث على ما كان عليه من دون تغيير . ولكن قد ضاد ذلك منذ القرن الثالث عشر جمهور كبير من اللاهوتيين وعدة طوائف جديدة — كالسوسيليانيين والجرمانيين والموحدين والعموميين وغيرهم — حاسبين ذلك مضادا للكتاب المقدس والعقل . وقد أطلق « سويد نبرغ » الثالوث على أقنوم المسيح معلما بثالوث ، ولكن لا ثالوث الأقانيم بل ثالوث الأقنوم . وكان يفهم بذلك ان ما هو الهى فى طبيعة المسيح هو « الآب » وان الالهى الذى اتحد بناسوت المسيح هو « الابن » وأن الالهى الذى انبثق منه هو « الروح القدس » .

وانتشار مذهب العقليين — فى الكنائس اللوثيرية والمصلحة — أضعف مدة من الزمان اعتقاد الثالوث بين عدد كبير من اللاهوتيين الجرمانيين .

وقد ذهب « كنت » الى أن « الأب والابن والروح القدس » انما تدل على ثلاث صفات أساسية فى اللاهوت وهى « القدرة والحكمة والمحبة » أو على ثلاثة فواعل « وهى الخلق والحفظ والضبط » وقد حاول كل من « هيجين ، وشلنغ » أن يجعلا لتعليم الثالوث أساسا تخيليا ! وقد اقتدى بهما اللاهوتيون الجرمانيون المتأخرون وحاولوا المحاماة عن تعليم الثالوث بطرق مبنية على أسس تخيلية ولاهوتية ! وبعض اللاهوتيين الذين يعتمدون على الوحى لا يتمسكون بتعليم استقامة الرأى الكنائسية بالتدقيق — كما هى مقررة فى مجمعى نيقية والقسطنطينية المسكونيين — وقد قام محامون كثيرون فى الأيام المتأخرة لعضد آراء «السابيليين» على الخصوص .

ابن

هى بالانكليزية « سن » وبالفرنسوية « فى » وهى لفظة اضافية تطلق على الولد الذكر لأب أو أم يقال : ابن فلان كما يقال ابن فلانة ، قيل معناه : أنه يبنى على ما بنى أبوه ، شبه الأب بالأس ، الابن بما يبنى عليه ، ويستعار الابن فى كل شىء صغير فيقول الشيخ للشاب الأجنبى يا ابنى ، ويسمى الملك رعيته الأبناء ، وكان الأنبياء فى بنى اسرائيل يسمون أممهم أبناء ، والحكماء والعلماء يسمون المتعلمين منهم أبناءهم ، وكذا خدمة الدين عند أكثر الأمم يسمون قومهم بالأبناء ، وقد يكنى بالابن فى بعض الأشياء لمعنى الصاحب كابن عرس وابن مائن على الاستعارة والتشبيه ، ويقال أيضا لكل ما يحصل من جهة شىء أو تربيته أو كثرة خدمته أو قيامه بأمره أو توجهه اليه أو اقامته عليه هو ابنه ، كما يقال أبناء العلم وأبناء السبيل وأبناء الدنيا وهلم جرا .

روح

وقال « بوسوى : الكاثوليكى الرومانى » عن الروح القدس : ان الروح القدس المنبثق من « الآب والابن » هو من نفس جوهرهما ؛ فهو معهما اله واحد (راجع ثالوث) واعترض كثيرون من الأريوسيين والمكدونيين وغيرهم على لاهوت روح القدس . واختلفت الآراء وتباينت من « جرى » التعليم بلاهوته — وقال « الأريوسيون والمكدونيون » والذين ذهبوا مذهبهم : ان الروح القدس انما هو مخلوق كالملائكة ولكنه أرفع درجة منهم . وقال « مارآتونيوس » ان روح القدس مستعمل مجازا يكنى به عن أفعال الله — وسمى أصحاب هذا القول فى الكتب الدينية بالمجازيين . ولم يسموا الروح القدس « الله » وجعلوا له صفات الالهية — وقال « كلارك » وهو من العلماء الحديثين : ان الروح القدس لم يدع « الله » فى الكتب المنزلة !! وقال « أثناسيوس » ان كلمة الروح القدس استعملت اسما لله . وبالعكس نسب الى الروح ما لا ينسب الا الى الله كتقديس الأنفس ومعرفة جميع الحقائق . وغير ذلك . وبين أن القول بالمجاز فى غير محله .

وأما السوسينيون أو «البوسينيانيون» فقالوا ان الكنيسة لم تعتقد ألوهية الروح القدس قبل المجمع القسطنطينى الذى شجب المكدونيين سنة ٣٨١ . ورد عليهم بقول «ماريوستينيانوس» فى القرن الثانى : اننا نعبد الاله الحقيقى الآب والابن والروح « النبوى » وبما كتبه « اكليمنضس الاسكندرى » فى القرن الثالث خاتما به كتابه لتهذيب الأولاد وتعليمهم — وهو التضرع الى الأقانيم الثلاثة — وقالوا : ان جميع معلمى الكنيسة فى القرون الثلاثة الأولى اعتقدوا ألوهية الروح القدس . وجمع « مارباسيليوس » شهادتهم بذلك فى كلامه على الروح القدس . وذكر اعتقاد ألوهيته فى « الدسولجيا » — وهى ترنيمة قديمة العهد تاريخ نظمها مجهول — ويستدل عليها بالتغطيس ثلاث مرات فى المعمودية . وباستهزاء الأمم الوثنية القديمة بالمسيحيين لاعتقادهم الثالوث .

وقال « مولت » لفيلوباترس على سبيل الانتقاد ان الاله الحقيقى عند النصارى هو فى ثلاثة والثلاثة فى واحد — الاله السائد ، وابن الأب ، والروح الذى ينبثق منه — وهكذا كان الوثنيون يتهمون النصارى بعبادة ثلاثة آلهة .

واعترض بعض العلماء على ألوهية الروح القدس ؛ بالقول « ان اعتقادها لا يقبله العقل » (فقال المكدونيون) لا ندرك ما هو الروح القدس فى الجوهر الالهى ؛ فلا بد أن يكون مولودا أو غير مولود . فاذا لم يكن مولودا فما الفرق بينه وبين الأب ؟ واذا كان مولودا فبماذا يمتاز

عن الابن فقالوا بأنه مولود من الابن فقط ؟ (فرد عليهم ماراثناسيوس) بأنه لم يدع الروح القدس فى الكتب المنزلة « ابنا » ولكنه دعى « روح الآب وروح الابن فقط » والادراك البشرى يعجز عن كشف أكثر من ذلك . وقال : من المحال أن نعتبر الروح القدس مخلوقا ، لأننا نجعله باعتباره كذلك شيئا غير مساو للآب والابن متحدا معهما . ولا نسلم أن التوليد هو الواسطة الفريدة للانبثاق من الآب والابن ، ونسلم بجهل الفرق بين التوليد والانبثاق من الآب والابن ، ونسلم بجهل الفرق بين التوليد والانبثاق . ولكن التوليد والانبثاق أبديان لازمان . ولا يأتيان بشىء من غير الجوهر المولد والباثق فلا ينبغى أن نخلطهما بالاعتقاد كالفلاسفة القدماء من جهة صدور الأرواح !

وفى دستور الايمان على رأى المجمع القسطنطينى ان الروح منبثق من الآب . وبعد سنة ٤٤٧ قالت كنيسة « اسبانيا » ثم « الغلية » أى فرنسا ثم جميع الكنائس اللاتينية أنه منبثق من الآب والابن . وهذه الاضافة من الأسباب التى جعلت البطريرك «فوتيوس ٨٦٦» والبطريرك « ميخائيل كرولاريوس — سنة ١٠٤٣ » يروجان انفصال الكنيسة اليونانية الشرقية عن اللاتينية أى الغربية .

وقال الروم الأرثوذكس وغيرهم : ان رؤساء الكنائس اللاتينية غيروا تعاليم المجمع القسطنطينى واتهموها بالتزوير وأوسعوها طعنا وقذفا (فأجابت) أنها غيرتها جهارا للتوضيح . والخصام الناشىء عن ذلك قديم العهد فترى آثاره فى المجمع الذى عقد سنة ٧٦٧ وبحث عنه فى مجمع « اكس لاشابل : سنة ٨٠٩ » وتجدد فى المجمع « اللاترانى الرابع سنة ١٢١٥ » وفى مجمع « لون الثانى سنة ١٢٧٤ » وفى مجمع « فلورنسا سنة ١٤٧٩ » :

وأما الروم الأرثوذكس فقالوا : انهم حافظوا على القديم ورفضوا الحديث .

ويسمى « الروح القدس » غالبا فى العهد القديم أى التوراة : روح الله وروح الله القدس كما فى « مز ٥١ : ١١ وأشعيا ٥٨ : ١٠ و ١١ » أو روح الرب الصالح « مز ١٤٣ : ١٠ ونحميا ٩ : ٢٠ » وفى الانجيل الروح أو روح القدس أو روح الله أو روح الرب أو روح يسوع المسيح كما فى « مت ٣ : ١٦ وأعمال ٥ : ٩ وفيلبى ١ : ١٩ » وغيرها .. الخ الخ .

موقف للمسيح لم يذكر فى القرآن

ومما يتعلق بقصص المسيح موقف لم يذكر فى القرآن الكريم وانما ذكر فى الأناجيل .

قال متى ص ٢١ (١) ولما قربوا من أورشليم وجاء الى بيت « فاجى » عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلا لهما اذهبا الى القرية التى أمامكما فللوقت تجدان أتانا مربوطة

وجحشا معها ، فحلاهما وأتيانى بهما وان قال لكما أحد شيئا فقولا الرب محتاج اليهما فللوقت يرسلهما . فكان هذا كله لكى يتم ما قيل بالنبى القائل « قولوا لابنـة صهيون . هو ذا ملكك يأتيك وديعا راكبا على أتان وجحش ابن أتان » فذهب التلميذان وفعلا كما أمر يسوع وأتيـا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما ، والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم فى الطريق ، وآخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها فىالطريق ، والجمـوع الذين تقـدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين : أوصنا لابن داود مبارك الآتى باسم الرب أوصنا فى الأعـالى .

والمتأمل فيما جاء بانجيل متى هذا وما جاء فى الأناجيل الأخرى يرى تناقضا ظاهرا .

(١) يقول متى انه أرسل تلميذين فأتياه بجحش وأتان وألقى التلميـذان عليهما ثيابهما فجلس عليهما — وأنا لا أدرى ولا مؤلف الانجيل المذكور يدرى ولا المنجم يدرى — كيف يركب المسيح الأتان والجحش معا ؟ وينتظمهما فى جلسة واحدة !

(٢) أما مرقس . فكان ذا لباقة وكياسة . فقد كذبه وقال انه أرسلهما ليأتياه بجحش فقط فأتيا به ووضعا ثيابهما عليه وجلس عليه ودخل أورشليم .

(٣) كان لوقا كمرقس فذكر أنه انما ركب جحشا فقط بعد أن أرسل تلميذين فأحضراه .

(٤) وأما يوحنا ، فانه كذب الأناجيل الثلاثة فى أنه أرسل واحدا الى القرية ليأتيه بالأتان والجحش — كما زعم متى ، أو بالجحش كما ذكر كل من مرقس ولوقا — بل قال انه وجـد جحشا فركبه ودخل به أورشليم .

(٥) عبارة لكى يتم ما قيل بالنبى القائل « قولوا لابنة صهيون » الخ التى جاءت فى متى لم يذكرها من بقية الأناجيل سوى يوحنا بعبارة تغاير عبارة متى ونصها « لا تخافى يا ابنة صهيون هو ذا ملكك يأتى جالسا على جحش أتان » .

فاختلاف الأناجيل فى هـذه الحادثة القصيرة هذا الاختلاف الفاحش وتناقضها فيـه يدعو القارىء الى اعتقاد أحد أمرين ، اما أن تكون هذه المسألة لم تحصل — فلا المسيح أرسل الى أتان وجحش ولا الى جحش ولا ركب على شىء من ذلك — ولكن المسيحيين رأوا هذه العبارة فى كتاب نبى من الأنبياء فأتوا بها ليدلوا على أن المسيح تكلم عنه الأنبياء بشىء ، وتم ما أخبروا به على الوجه الذى نصوه . واما ان يكون المسيح قد صنع الأمر على وجه من تلك الوجوه التى ذكروها ويكون أحد الانجيلين المتناقضين كاذبا والآخر صادقا .

وبعد هذا فمن هو النبى الذى جاء فى كتابه هذه العبارة « قولوا لبنت صهيون الخ » ؟ والجواب : أن النبى — الذى ذكر هـذه العبارة فى كتابه — هو زكريا عليه الصلاة

والسلام فى ص ٩ : ٩ « ابتهجى جدا يا ابنة صهيون اهتفى يابنت أورشليم هو ذا ملكك يأتى اليك ، هو عادل ومنصور ووديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان » وبعد ذلك كله فمن هو الملك الذى جاء الى أورشليم ؟ ودخلها منصورا وكان عادلا ومتواضعا وراكبا على جحش ابن أتان ؟

وهل بدخول المسيح أورشليم على الوجه الذى ذكرته الأناجيل تكون النبوة قد تحققت ؟

والجواب : أن النبوة لا تحقق الا بوجود رجل له صفة الامرة قد قهر أعداءه ودانوا له بالطاعة . وعلى أثر ذلك أتى الى أورشليم بهيئة المتواضع راكبا حمارا لا كالملوك الجبارين .

والمسيح لم يدخل أورشليم على هذا الوجه فليس له صفة الامرة على أهلها وليس له كلمة نافذة فيهم . فهو فرد من أفراد الرعية الرومانية لا أكثر ولا أقل .

وقد علم الخاص والعام ما صنعه معه أهل أورشليم بعد ذلك بأيام قليلة فليس هو الذى تنبأ عنه زكريا ، ولا تتحقق نبوة زكريا بدخول أورشليم على جحش ! ولا على أتان وجحش !

وأما الشخص الذى تحققت به هذه النبوة بالفعل فهو « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه اذ خرج من المدينة راكبا على حمار حتى وصل الى معسكر الاسلام بالجابية ، فخرج اليه أهل أورشليم واعتقدوا منه صلحا ، وبعد تمام الصلح دخل الى أورشليم راكبا حماره الذى أتى عليه من المدينة وهو صاحب الأمر والنهى فى « صهيون وأورشليم » والكلمة العليا بعد الله له والطاعة طاعته . وأما وداعة عمر وعدله وتواضعه فهى مضرب المثل الى اليوم ، وبدخوله تحققت نبوة زكريا عليه السلام .

جاء فى « الطبرى » فى أنباء سنة ١٥ هجرية بصفحة ١٥٨ من الجزء السابع ما نصه :

وجميع ما خرج عمر الى الشام أربع مرات ؛ فأما الأولى : فعلى فرس . وأما الثانية : فعلى بعير . وأما الثالثة : فقصر عنها ان الطاعون مستعر . وأما الرابعة : فدخلها على حمار . فاستخلف عليها وخرج .

ومعلوم أن عمر لم يكن يدرى ما قاله زكريا ولا علم له به ، وانما جاء لغرض معاونة « عمرو بن العاص » على فتح تلك البلاد التى تعذر عليه فتحها ، فخرج من المدينة على حماره الى فلسطين غير متعمد لذلك . ولم يقصد تفسير نبوة زكرياء .

والذين حضروا أيام الحرب العظمى يعلمون أن « اللورد أللنبى » أمر بجمع الحمر الجيدة فى مصر وذلك حين أشرف على فتح بيت المقدس ليمثل هو وضباطه دخول المسيح الى بيت المقدس على حمار .

وأما اليهود فانهم ينتظرون مسيحا — أى ملكا — يأتى الى أورشليم على حمار ويعيد لهم ملك داود وسليمان تبتهج به أورشليم وصهيون .

وأما المسلمون فينتظرون مسيحا دجالا خرافيا يكون أعور وله حمار عجيب ما بين أذنيه أربعون ذراعا أو سبعون ذراعا وفى يده جنة ونار ويدعي الالهية ويدعو الناس الى عبادته ويفتنهم عن دينهم ، ويدخل كل بلد وكل مدينة الا مكة والمدينة وبيت المقدس ، ويفعل خوارق العادات وتتم له . ويحارب المهدى المنتظر وينزل عيسى فى تلك الأيام من السماء ويقتل الدجال بعد ذلك بمعاونة عيسى للمهدى الخ .

مسائل

(الأولى) جاء فى التقرير الثانى وهو الذى كتبته اللجنة الثانية . مسألة صاحب موسى وهل هو شعيب أو غيره ؟ وقد أخذت اللجنة على أنى جعلت شعيبا بعد زمن موسى .

أقول : ان الواجب اسقاط هذه المسألة لأنى قد أصلحت ذلك القول اذ نبهنى عليه الأستاذ « الشيخ عبد الفتاح خليفة » فعمدت الى الملزمة التى فيها هذا الكلام فأعدت طبعها بعد أن أصلحت الكلام على صاحب موسى الذى صاهره ، وقلت ان الفضل فى ذلك للشيخ عبد الفتاح خليفة — فقد دخلت هذه المسألة فى خبر كان ولم يبق لها أثر من قبل ان يظهر نقدهم .

(الثانية) جاء فى ذلك التقرير ما نصه « رابعا : تجويزه ان تكون ولادة عيسى من مريم بصورة تؤدى الى ان له أبا » الخ ثم نقلوا كلامى من صفحة ٣٧١ أقول : ما كنت اظن أن يدور فى خلدى اننى سأحتاج الى ان أشرح لحضرات اصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة « من هو الآب » فالآب عند كل الناس : هو الذكر البالغ من بنى آدم الذى غشى امراة قد بلغت الحيض ، وعمل معها العمل الجنسى : واستقر منيه فى رحمها ، وتخلق من ذلك المنى — بواسطة التلقيح لبويضات تلك المرأة — انسان . فاذا تمت أيامها وجاءت بذلك الولد كانت هى أما له ، والذى فعل معها الفعل الجنسى يكون أبا له . فاذا كان متزوجا منها من قبل ذلك أو لم يكن متزوجا منها وادعاه — وهى فارغة — فهو الأب عرفا وشرعا واذا كان غير متزوج منها ولم يدنه كان أبا له فى الواقع وان لم يكن أبا شرعيا ! فهل ادعيت أن مريم قد غشيها رجل وهى بالغ وأقر منيه فى رحمها وتخلق من ذلك عيسى ؟ كلا ! ومع ذلك فقد أقررت أعينهم وحذفت تلك العبارة .

(الثالثة) ما نقلته فى صفحة ٣٨٢ من كتابى عن « انجيل برنابا » من أن يوسف النجار كان عشيرا لمريم من غير سوء ، وقلت ان ذلك غير مخالف للقرآن .

أقول : ان هذا القول جاء فى كتاب كله دفاع عن مريم عليها السلام وعن المسيح وعن الاسلام من قبل أن يوجد الاسلام ، فصاحبه حريص كل الحرص على كرامة مريم ، واتخاذ العشير قبل الزواج امر موجود بين اليهود الى اليوم ، وهو الخطيب الذى يعاشر المرأة بدون اتصال جنسى . حتى اذا رضيته ورضيها عقد بينهما الزواج ، وهذا شىء لا ضرر منه ولا يوجب هجنة على الرجل ولا على المرأة ولا على أهلها وعشيرتها ، لأن ذلك لا يكون فى الخفاء بل يكون ظاهرا أمام الناس .

وقد عابت اللجنة أننى أقررت هذه القصة التى اعتبرت مثارا لاتهام اليهود . أقول : عجبا ! ان اليهود اذا رأوا ذلك لا يتهمونها ، بل هذه المسألة من دواعى التخفيف عنها اذ لا أسهل عليها من أن تدعى أنها تزوجته .

وانى اتحدى حضراتهم ان يأتونى من القرآن بما يثبت أن مريم لم تخطب لأحد أصلا قبل ان تأتى بعيسى ! فان لم يفعلوا ولن يفعلوا فلا حق لهم فى الاعتراض على .

أما أنا فأرى أن الدجال رجل يقيمه اليهود « مسيحا » أى ملكا يرجون أن يعيد لهم مملكة داود وسليمان ، يركب حمارا ليدخل عليه أور شليم ليكون ذلك محققا لنبوة زكريا ، وأن الحال الحاصلة فى فلسطين اليوم انما هى جزء أولى من فتنة الدجال الذى ينتظره اليهود .

وأن الله لا يمكن أن يخرق العادة لرجل يدعى الألوهيـــة لأن ذلك تصـــديق له والله لا يصدق الكذاب .

موقف المسيح فى اليوم الآخر

ذكر القرآن موقفا للمسيح عليه السلام فى اليوم الآخر يوم القيامة ، ولما كان ذلك متحقق الوقوع متى حضر وقته ، فقد عبر فيه بلفظ الماضى .

بما قدمته من الرد على مسألة من المسائل التى تعلقت بهـا اللجنـــة يعـــلم أن الكتاب صحيح لا مؤاخذة على فيما نصصته فيه . وأنهم لم يكونوا على صـواب فى حـكمهم باعـدام كتابى ماديا واعدامهم لى أدبيا بقولهم .

« نرى أن هذا الكتاب بحالته هذه لا يصح تداوله بين طلاب المعاهد الدينية وغيرهم » والسلام على فضيلتكم ورحمة الله ٣١ – ١ – ١٩٣٤ .

أعضـــــاء			رئيس اللجنة
عيسى منون	محمد العزبى رزق	محمود ابو دقيقه	ابراهيم الجبالى

فقد استبان أن الكتاب لم يتضمن خطأ بل كله صواب ، يشهد له اهل العقول الراجحة والأفكار القويمة ممن قرأه انه أبدع كتاب وجـد فى باب قصص الأنبياء الى اليوم ، وانه لا شبيه له فى بابه

الخـــاتمة

الآن وقد انتهيت مما أردته من دفع كل انتقادات اللجنة على كتابى وتبين للقارىء الكريم أن اللجنة لم توفق الى ايراد مطعن صحيح على ذلك الكتاب يستحق أن يؤبه له ، واستبان أن كتابى صحيح لا غبار عليه ، وأنى كنت أسير فى كتابتى له على النهج الواضح والسبيل السوى ، ولم احد فيه عن الصراط المستقيم ، فلا أريد أن ألقى القلم من يدى حتى اعلن شكرى لأعضاء اللجنة الموقرة فقد قاموا بما أمروا به خير قيام ، ولم يدخروا وسعا فى تسوئة كتابى والتشهير بى .

وقد كانت مهمتهم شاقة كلفتهم الانفاق من كل شىء يملكونه ، ليصلوا الى الغاية التى رسمت لهم واذا كانوا لم يصلوا الى شىء يعتبره العقلاء شيئا يوجب المؤاخـذة على . فلم يكن ذلك عن هوادة أو تقصير فى أداء هذه المأمورية ، اذ ليس الوصول الى شىء بملكهم .

وانى لا أنكر أن لهم فضلا على فى توجيه انظارالعالم الى الوقوف على كتابى ، وقد كنت اساعف الناس أيام كان موجودا منه نسخ ، أما الآن فانى آسف كل الأسف لأنى لا أجد ما أساعفهم به – هذا أولا .

ثانيا – كان لهم الفضل على لأنهم بتقريرهم وبعبارة أخرى بنقدهم هذا قد حفزونى على المطالعة والدرس فازددت رسوخا فى كل المعانى التى أوردتها فى كتابى ووثوقا بما ضمنته ذلك الكتاب .

ثالثا – انهم بنقد كتابى قد أتاحوا لى أن أرد على نقـدهم بما قدمت . فانا الآن بكتابى أوثق وسأحلى جيد طبعته الثانية بانتقاداتهم واعتراضاتهم وأزينها بردى على حضراتهم وابطال مدعياتهم . وحينئذ أتقدم الى العالم الاسلامى مرفوع الرأس ، وامد يدى اليهم بنسخته الثانيــة قائلا (هاؤم اقرأوا كتابيه) .

تحريرا فى يوم الخميس الموافق ١٢ محرم سنة ١٣٥٣ – ٢٦ ابريل ١٩٣٤ .

عبد الوهاب النجار

ذلك أن الله تعالى يسأله وهو أعلم بالواقع عن ضلال أمته فيه وفى أمه ، اذ بعضهم قد عبده وحده ، وبعضهم عبده وأمه ، واتخذوهما الهين من دون الله ، ليقيم الحجة على ضلال ما عمل أتباعه من بعده ، فيجيبه منكرا ذلك جاحدا له مقررا أنه فى حياته انما دعا الى الله وحده وعبادته دون سواه ، وأنه كان يراقبهم ويسددهم بالنصائح الى وفاته . وبعد ذلك كان الله الرقيب عليهم وهو الشهيد على كل شيء وأن أمر عباده اليه ان شاء عذب وان شاء رحم .

اقرءوا هذه الآيات :

سورة المائدة : وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ [١١٦] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ ٱعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [١١٧] إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ [١١٨] قَالَ اللهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ [١١٩]

يلاحظ القراء أنى لم أعقد بابا لقصص رسول الله (محمد) صلى الله عليه وسلم وهو خاتم النبيين — ألا فليعلموا أنى كتبت سيرة رسول الله (محمد) صلى الله عليه وسلم فى كتاب على حدة — فاذا كان فى عمرى مهلة فانهم سيرون هـذا الكتاب ويقرأونه ان شـاء الله . وكل آت قريب .

والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اخوانه
من النبيين والمرسلين وعلى
آله وصحبه أجمعين
